سورية في قرن

[د. منـــــير الغضـــبان]



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

أن نعيش مع سورية في قرن كامل تتنقل فيه من عهد إلى عهد، متعة كبيرة، رغم ما يواجهك من أحداث وأشواك وآلام، وحين تضيف إلى هذا العنوان – رؤية إسلامية- يعني أنك حددت هوية الدراسة والدارس، ولم يسبق أي دراسة من خلال هذه الرؤية، وهذا يعني أن تعليل الأحداث يختلف – لا الأحداث نفسها.

ولا عجب أن تبرز الرؤية الإسلامية في الأحداث، فالإسلام بالنسبة لسوريا وأبنائها دين وحضارة وتاريخ، موغر في القدم أكثر من ألف عام، إنما العجيب أن لا تقوم هذه الدراسة إلى اليوم .

ولابد من إبراز بعض النقاط العلامة في هذه الدراسة .

١- سورية خلال هذا القرن، ومن خلا سايكس بيكو، أصبحت جزءاً من سورية الطبيعية التي كانت تضم سورية والأردن ولبنان وفلسطين، وقد سرق من لواء الإسكندرون، وأعطي لتركيا، واحتلت إسرائيل الجولان منها في النصف الثاني من هذا القرن .

٢- وأصبحت التركيبة السكانية فيها مزيجاً من الأطياف الدينية والمذهبية والعرقية تتعايش مع بعضها في كل موحد، وتفسح صدرها لضمهم جميعاً

في هذا الكيان، وكما يقول فان دام « بالرغم من الدرجة الكبيرة من التجانس الثقافي، إلا أن سكان سورية الحاليين يتميزون بتنوع قوي في الأصول الدينية والعرقية، فالتقسيم الفرعي للسكان نسبة للغة أو الدين يكشف لنا أن ٨٢,٥٪ يتحدثون العربية، و٦٨,٧٪ مسلمون سنيون، ونجد أن المسلمين السنيين الذين يتحدثون العربية يشكلون أغلبية عددية قوامها ٥٧,٤٪ من مجموع السكان من حيث اللغة والدين، أما المجموعات المتبيقية فيمكن أن تصيف كأقليات عرقية أو أقليات دينية»[1]

وهذا يعني أن تبقى الهوية العربية الإسلامية هي الصورة الغالية للشعب السوري، ولعل الطابع الغالب في هذه الدراسة هو الانطلاق من هذه الهوية .

٣- وحين نعيش من هذا الدراسة نرى أن أكثر الآلام في هذا القرن، إنما جاءت من تجاهل هذه الهوية أولاً، ومن الفصل بين الهوية (العربية) والهوية (الإسلامية) ثانياً، وتتبع أحوال هذا الصراع هو الذي نلقاه في قلب الأحداث في هذا القرن.

٤- لكن هذا لا يعني تجاهل الأقليات في سورية ودورها الهام فيها (وأكبر الأقليات الدينية في سورية هم العلويون (١١,٥٪) والدروز (٣,٠٪) والإسماعليون (١,٥٪) والمسيحيون الروم الأرثوذكس (٤،٧٪) وهم أهم الجاليات المسيحية في سورية ١٤,١٪، أما الأقليات العرقية الرئيسية فهم الأكراد ٨,٥٪ والارمن ٤,٠٪ والتركمان ٣,٠٪ والشراكسة، وفي حين أن معظم الأكراد والتركمان والشراكسة مسلمون سنيون فهم ينتمون لغالبية السكان، إلا أن الأرمن مسيحيون وبالتالي فهم يمثلون أقلية عرقية ودينية في

---

(١) الصراع على السلطة في سورية، د. نيقولاس فان دام، أطروحة دكتوراة، ط٢، ص ١٦.

آن واحـد، ومـن بـين الأقليـات الدينيـة المـذكورة أعـلاه، نجـد أن العلـويين والـدروز والإسـماعليين والمسـيحين الـروم الأرثـوذكس يتحـدثون جميعـاً العربية بدون استثناء تقريباً

وخلاصة القول: إذاً أن هذه الأقليات إما أن تنتمي إلى الهوية (العربية) أو الهوية (الإسلامية)

٥- ولقد جرت محاولة من خلال الحوار وفي عهد الحريات في مزج هاتين الهويتين في دستور ١٩٥٠، ويتحدث أكبر زعماء البحث «أكرم الحوراني» عن هذه المحاولة فيقول- مع أنه من دعاة فصل الهويتين وسيطرة الهوية (القومية العربية) -: «وبعد أن انتهت المناقشة العامة لمشروع الدستور، أقرت لجنة الأحزاب المشتركة، ولجنة الدستور، المادة الثالثة، وهذا نصها:

١- دين رئيس الجمهورية الإسلام

٢- الفقة الإسلامي المصدر الرئيسي للتشريع

٣- حرية الاعتقاد مصونة، والدولة تحترم جميع الأديان السماوية، وتكفل حرية القيام بجميع شعائرها، على أن لا يخل ذلك بالنظام العام

٤- الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية

وتقرر أن يضاف إلى مقدمة الدستور النص التالي: «ولما كانت غالبية الشعب تدين بالإسلام، فإن الدولة تعلن استمساكها بالإسلام ومثله العليا، ويعلن الشعب عزمه على توطيد أواصر التعاون بينه وبين شعوب العالم العربي والإسلامي، وبناء دولته الحديثة على أساس من الأخلاق القويمة التي جاء بها الإسلام والأديان السماوية الأخرى، وعلى مكافحة الإلحاد والتحلل الأخلاقي ....

فأذاع الشيخ مصطفى السباعي عميد الجبهة الإشتراكية الإسلامية بياناً معاكساً جاء فيه « حينما أعرب جمهور الشعب بمختلف طبقاته عن رغبته في النص على أن يكون دين الدولة الإسلام، إنما كان يقصد الاستفادة من التشريع الإسلامي، وتوجيه الشعب توجيهاً أخلاقياُ، والاحتفاظ بعلائق الأخوة، والتعاون من شعوب العالم العربي و الإسلامي، وإن النصوص الجديدة التي أقرتها لجنة الأحزاب المشتركة للمادة الثالثة تضمنت هذه المبادئ، وطالب الشيخ مصطفى في بيان إلى الرأي العام الواعي، أن يدرس هذه النصوص الجديدة بهدوء وتجرد، وعلى المتدينيين خاصة أن يحكموا عليها بعد دراستها النزيهة (المتجردة) إلى أن يقول: إن هذه النصوص حققت وحدة الصف ودفعت عن الوطن كارثة انقسام طائفي لا يرضى به كل متدين عاقل، وكل وطني مخلص» [١]

٦- وحين غاب الحوار ووئدت الحريات بعد ثورة الثامن من آذار، وفرض على الشعب الحزب القائد، وقامت المجازر الكبرى في تاريخنا الحديث، إنما كان من خلال دكتاتورية الحزب، والطائفة، ثم دكتاتورية الفرد والطائفة، وكان أكثر من نصف تاريخ سورية في هذا القرن، يحمل هذه الآلام والمذابح وكبت الحريات، وإلغاء الآخر، واعتبار الشعب قطيعاً يقاد من الحزب القائد.

٧- وكانت الصحوة بعد أربعين عاماً حين أعاد الحزب نظرته في مبادئه وموقفه من الدين، فأعلن خطأه نظرياً، دون أن يغير من واقع الأمر شيئاً، وبقي الشعب حقل تجارب خلال هذه الأعوام وإلى اليوم.

---

(١) مذكرات أكرم الحوراني، ط١، ج٢، ص١٢١١، ١٢١٢.

يقول تقرير التطوير في نظرته إلى الدين:«لاشك أن مسأله الدين والتدين تمثل حيزاً خاصاً في مجمل الثقافة العربية، بل إن هذه المسأله بالذاب تعتبر واحدة من أهم مايميز الثقافة العربية عن غيرها من الثقافات، لأنها من الرسالات السماوية والديانات، والأمة العربية تتميز بأنها كانت حاضنة هذه الديانات، وحاملة لواءها، وناشرة قيمها، ويظهر التمازج الحقيقي بين العرب والأديان في أبهى صورة عبر الدين الإسلامي الذي أكد بوضوح على القيم التي آمن بها العرب خلال تطورهم التاريخي .

هذه القيم حملتها كل الديانات إلا إن الإسلام حولها إلى قوة حركت الأمة العربية ووحدتها وحرضت طاقاتها الحضارية، جعلتها واحدة من أهم الأمم وأكثرها شأناً عبر عصور متتالية

- إننا نشهد تعزيزاً مستمراً للفكر القومي الذي يؤكد على الترابط بين العروبة والإسلام في أذهان عامة الناس ....، وتحقيقاً لهذه المهمة يجب إعادة التأكيد على العلاقة التكاملية بين العروبة والإسلام، ومواجهة كل المحاولات الرامية إلى وضع حواجز بينهما وإظهارها في موقف متناقض وفي حالة عداء متبع »

كان هذا الكلام عام ٢٠٠٢، أي في القرن الجديد، أما دستور الحزب الذي صدر في الأربعينات فليس كلمة فيه كلمة (الإسلام) أو (محمد) أو (الله) أو (الدين)، وحين ذكر الدين في مؤتمره القومي الرابع ذكره من باب الهجوم عليه قائلاً: «يعتبر المؤتمر القومي الرابع الرجعية الدينية من المخاطر الأساسية التي تهدد الانطلاقة التقدمية في المرحلة الحاضرة »، كما يؤكد في منطلقاته النظرية بعد وصوله للسلطة أن هدفه:«تربية المواطن تربية اشتراكية، تعتقه من كافة الأطر، والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة »

٨- وأعود لأؤكد للقارئ أن يفصل بين ما أقوله من نصوص تبرز وجهة نظر صاحب الحدث أو الموقف، وبين رأيي في التحليل والتعليل خاصة حين يكون صاحب الحدث أو الموقف ينطلق من رؤية إسلامية قد تقود لهذا الاختلاط أو اللبس

٩- وحرصت مااستطعت على إبراز كافة الآراء والمواقف والأحداث في كل تناقضاتها وخلافاتها وتشعباتها، إيماناً مني بأن سورية لابد أن تتسع لكل هذه الأطياف والأنماط والمبادئ والعقائد، مع عرض رؤيتي الإسلامية حين يقتضي الأمر ذلك

١٠- وهاأنا ذا انسحب لأدع القارئ يعيش قرناً مع بلده سورية الحبيبة مؤكداً على أن سورية جزء من الأمة العربية، وجزء من الأمة الإسلامية، وليست دراستها من باب التمييز والأقليمية بمقدار ماهي من باب التخصص والمعرفة

والله أسأل التوفيق والهداية، فإن أخطأت من نفس، وإن أحسنت فمن الله، وأن يرزق سورية العافية والخلاص من الأزمات والصراعات، إلى التعايش والتلاحم بين أبناء الوطن الواحد بكل مايحمل من قناعات وثقافات واجتهادات

وآخر دعوانا أنه الحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

من بداية القرن حتى الاستقلال

- العهد العثماني

سورية من عام ١٩٠٠ إلى ١٩١٨.

العهد العثماني

سورية من عام ١٩٠٠ - ١٩١٨

كانت سورية في هذة المرحلة جزءاً من الخلافة العثمانية، وكان السلطان عبد الحميد هو خليفة المسلمين وسلطانهم حتى عام ١٩٠٨م. «وقد قسم العثمانيون الأمم والشعوب التي كانت تعيش ضمن مناطق سلطانهم إلى فئتين: مسلمين وأهل ذمة، وكان المسلمون هم الأكثرية الغالبة، وعليه فقد تمتعوا بحقوق المواطنة وواجباتها كاملة، حيث تولوا مختلف المناصب السياسية والإدارية والعسكرية . أما أهل الذمة فقد منحوا الحق في تطبيق شرائعهم الدينية في أمورهم الخاصة وأحوالهم الشخصية وفرضت عليهم الدولة الجزية يدفعونها سنوياً » [(١)].

وبقيت الأمور بهذا التقسيم وهذه الروح حتى قام الإنقلاب العثماني في عام ١٩٠٨م وغيَّر هذا التقسيم، ثم أطاح بعد ذلك بالسلطان عبد الحميد . حيث سيطر الاتحاديون على السلطة، وصار المنطلق القومي هو الأساس، ومضى الاتحاديون في سياسة تتريك الأمم التابعة لهم . مما أوجد رد الفعل العنيف ضد هذا الاتجاه بحركات قومية مماثلة من الأقليات القومية الموجودة في الدولة العثمانية .

«إن أكثر قادة الجمعيات والأحزاب والحركات التي قامت فيما بعد لم يكونوا يسعون إلى الإستقلال أو الانسلاخ عن الخلافة العثمانية إلا بعد حملة القمع

---

(١) الحياة السياسية في سورية – العهد العثماني: محمد فاروق الإمام .

والإضطهاد، وعقب صعود الحركات الطورانية المقية على أيدي الإتحاديين صنائع الماسونية »[1].

جمعية الإتحاد والترقي:

قامت هذه الجمعية في إسطنبول سنة ١٨٨٩ على أيدي جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية . وكان هدفها الإطاحة بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني .. وفي آب ١٨٩٦ خططت الجمعية لحركة انقلابية، وذلك بعد سنة واحدة فقط من حركة اعتقالات طالت أعضاءها.

وافتضحت المؤامرة قبل يوم واحد من ساعة الصفر، فألقي القبض على جميع المشتركين في المؤامرة وأودعوا السجن.. ولم ييأس عملاء الماسونية أمام هذه الضربات المتلاحقة التي عصفت بمؤسستهم جمعية الاتحاد والترقي، فقد سعوا إلى نقل نشاطهم إلى صفوف الجيش، ميممين وجوههم شطر مدينة سلانيك، حيث توجد قوات الجيش الثالث - مركز الدونمة واليهود والماسونيين_ ووجدت مرتعاً خصباً هناك، وذلك بعد أن أخفقت مساعي هزتزل لدى السلطان عبد الحميد الثاني في استقطاع وطن قومي لليهود .. فمدت المراكز الماسونية خارج الإمبراطورية العثمانية – لا سيما في أوربة _ يدها إلى جمعية الاتحاد والترقي لتبعث فيها الحياة، وقد أدركت أن دور بضعة أشخاص هاربين من الدولة العثمانية لم يكن مجدياً على الإطلاق، وأن الأسلوب المؤثر والفعال هو التسرب إلى الجيش .. وكان الجيش الثالث هو الأنسب لهم، فهو بعيد عن مركز الدولة وفي أقليم مضطرب مشحون بالفتن وبالحركات السرية المسلحة، وهناك نوع من التدخل الدولي .. وعلاوة على ذلك ففيه مركز من

---

(١) المصدر نفسه.

أقوى المراكز الماسونية .. وفي حوالي سنة ١٩٠٠ قرر محفل الشرق الأعظم الفرنسي إزاحة السلطان العثماني وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركية الفتاة منذ بداية تكوينها»[١].

هرتزل والسطان عبد الحميد:

يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: « عندما كنت على عرش السلطنة العثمانية جاءني في أحد الأيام تيودور هرتزل مؤسس المنظمة اليهودية العالمية مع رئيس الحاخامين وذلك من أجل غاية صهيونية . وقبلت الزيارة للاستماع إليهم لمعرفة مقاصدهم، فكان طلبهم هو وطن لليهود، وكانوا يقترحون القدس لذلك، حتى أن تيودور هرتزل قال بلا خجل: أحب أن أعرض لجلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبة من الذهب حالاً من أجل القدس .

شعرت بأن الدم يطفر إلى رأسي، لقد وصلت الجرأة بهذين اليهوديين إلى عرض الرشوة في مقام سلطنتنا، صرخت بهما: اخرجا من هنا حالاً، إن الوطن لا يباع بالمال .

وعندما دخل رجال القصر أمرتهم بإخراجهما. ومنذ ذلك الوقت ناصبني اليهود العداء . وكل ما أقاسيه هنا في سيلاينك هو جزاء عدم إعطائي وطناً لليهود» . وإلى الشيء نفسه يشير السلطان عبد الحميد في رسالته التي وجهها إلى الشيخ محمود أفندي أبو الشامات.

وكان قره صو اليهودي أحد الرجال الذين حملوا إلى السلطان عبد الحميد رسالة خلعه من السلطنة .. وبعد أن تم خلع السلطان عبد الحميد أخذت الجرائد اليهودية في سيلانيك تزف البشائر بالخلاص من «مضطهد إسرائيل الذي رفض

---

(١) المصدر نفسه.

مرتين أن يستجيب لطلب الزعيم الصهيوني هرتزل، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا قانون الأجانب ضد المهاجرين البولونيين اليهود ..».

وقد وصفت إحدى الوثائق البريطانية جمعية الاتحاد والترقي بالآتي: «لما كان الماسونيون هم الذي يؤلفون أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وهم أنصارها ومؤيدوها فإن الكلمات التي لا تفارق مؤيدي الجمعية هي (الرجعية) و (الكهنوتية) ، ولم يكن اتجاهها الأول نحو تعديل وتحديث الشريعة الإسلامية (القانون المحمدي المقدسي)، وإنما نحو هدم أسس الشريعة الإسلامية وتحطيمها، والجمعية لا تقبل أي نقد مهما كان . وإحدى الطرق التي تستخدمها لسحق خصومها هي أن تدفعهم لإعلان المعارضة الصريحة، ومن ثم تسحقهم باعتبارهم رجعيين، وفي حين أن معظم قادة الجمعية هم صراحة علمانيون وعقلانيون فإنهم يسعون كذلك لاستخدام حماسة الجماهير الإسلامية كسلاح سياسي ويحولونها إلى أقنية شوفينية ..»[1].

عقدت الجمعية أول مؤتمر لها في باريس عام ١٩٠٢م حيث أعلنوا عزمهم على مواصلة العمل في سبيل تحقيق أهدافهم . وعقدوا مؤتمرهم هذا تحت اسم: مؤتمر الأحرار العثمانيين، حضره جميع فصائل المعارضة في الدولة العثمانية، وممثلو كل الحركات الذي كانت تريد الانفصال والاستقلال عن الدولة العثمانية .. وأعادت الجمعية تأسيس نفسها تحت اسم تركية الفتاة سنة ١٩٠٦م داخل الدولة العثمانية في سالونيك .

---

(١) من الرسالة السرية التي بعث بها السيرج. لاوتر السفير البريطاني في إستانبول إلى السير هاردينغ في ٢٩ آيار – ١٩١٠ وتتحدث عن الجمعية الماسونية .

السلطان عبد الحميد والاتحاديين:

أمام هذه التطورات المتلاحقة فضل السلطان عبد الحميد – وقد صورته الماسونية وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي عدواً للشعب وحريته وتقدمه- أن يعلن إعادة العمل بالدستور، وهكذا تم إعلان الدستور مرة أخرى كما أراد أعضاء الاتحاد والترقي وشاع الخبر في استانبول ثم في المدن الأخرى . الفرحة تعم الشعب، اجتماعات، خطب، عناق في الميادين، بين مختلف القوميات والأديان، مظاهر براقة لشيء لم يكن الشعب يعرفه تمام المعرفة .. وما الذي حدث بعد إعلان الدستور ؟

حدثت أمور كثيرة ... أولها أن جمعية الاتحاد والترقي أصبحت قوة تأمر وتنهى، من وراء الستار أولاً ثم بشكل علني، كما أخذت فروع الجمعية تنتشر كالوباء في جميع أنحاء البلاد بسرعة، وتجمع حولها الانتهازيون والوصوليون، فمن أراد الوصول إلى بغيته فلا بد من التصفيق لهذا العهد ورجال هذا العهد.

لقد فرضت هذه الجمعية – بعد أن وجهت إلى السلطان عبد الحميد الثاني من سالونيكا إنذاراً باسم الجيش- إعادة الدستور سنة ١٩٠٨، ولقد حاول السلطان عبد الحميد الثاني القضاء على حركة الجيش فقام بحركة مضادة سنة ١٩٠٩م ولكنها أخفقت، فتسلم الاتحاديون الحكم وخلعوه، ونصبوا أخاه محمد رشاد باسم محمد الخامس، وقد خلع السلطان عبد الحميد بناءً على فتوى شيخ الإسلام، حيث ذهب إلى السلطان وفد مؤلف من أربعة أشخاص انتدبوا لتبليغه بقرار الخلع، ولم يكن واحد منهم من أصل تركي أو عربي، بل كانوا خليطاً من الأرمن والروم واليهود واليونان، ومن مواطني الدولة العثمانية، وكان أحدهم يهودياً من ذوي الرتب العالية في الماسونية اسمه عمانوئيل قره صو أفندي، وقد سبقت الإشارة إليه.

أما أبرز قادة الاتحاد والترقي فمنهم طلعت باشا، وجاويد بك وأنور باشا ونيازي باشا ومصطفى كمال أتاتورك ومحمود شوكت وجمال باشا من الأتراك، وعزيز علي المصري، وعبد المحسن السعدون ورفيق العظم وحقي العظم وياسين الهاشمي وطالب النقيب وعبد الرحمن الشهبندر وسليم الجزائري من العرب[1].

الجمعية الخيرية:

كانت هذه الجمعية في سورية، وكادت أن تجمع كل الساسة ودعاة الإصلاح السوريين، وكان ظاهرها أدبياً وجوهرها سياسياً، فقد أُسست هذه الجمعية في دمشق في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت امتداداً للحلقة الفكرية التي أقامها الشيخ «طاهر الجزائري»، وقد نشطت هذه الجمعية في ولاية مدحت باشا والي دمشق، وكانت تدعو في الظاهر إلى العلم وأعمال الخير، وفي الحقيقة كانت أهدافها سياسية، فقد شكلت في داخلها حلقة سياسية سرية تدعو إلى إعادة العمل بالدستور العثماني الذي عُطل وجعل الحكم في الخلافة العثمانية حكماً شورياً .

لقد كان الرجال الأوائل في هذه الجميعة علماء ومعلمين معروفين، كالشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ سليم البخاري، والتحق بهم رفيق العظم ومحمد كرد علي وفارس الخوري وعبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي وعبد الرحمن الشهبندر وسليم الجزائري ونجيب الشهابي وزكي الخطيب وصلاح الدين العظم ورضا مردم ومحمد الحفار وعارف الشهابي وسامي العظم وأحمد كرد علي ومحمود كرد

(١) الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر السوري، عبد الجبار الجبوري، ص ٦٩

علي وأديب مردم وصبحي المليحي وحكمت المرادي وجميل المردم وكمال الحلباوي ورشدي الحكيم والأمير فائز الشهابي وجمال القوتلي وعبد الفتاح الجندي .

وكان يدير الحلقة السرية في الجمعية ضابطان عربيان هم سليم الجزائري وسعد درويش . ومن المدنيين فارس الخوري وشكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي، وكان لأفراد هذه الجمعية اتصال سري برجال جمعية تركية الفتاة الذين قاموا فيما بعد بالإطاحة بالسلطان عبد الحميد وتسلم مقاليد الحكم تحت اسم الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨م، وبعد انكشاف أمر الجميعة وافتضاح أمرها، انتقل رفيق العظم إلى مصر وتشتت بقية مؤسسي هذه الجمعية وأنصارها

جميعة النهضة العربية:

تأسست هذه الجمعية في دمشق عام ١٩٠٣ وكانت تعرف بحلقة دمشق الصغيرة تمييزاً عن حلقة دمشق الكبيرة –حلقة الشيخ طاهر الجزائري–، وكان من أبرز قادتها محب الدين الخطيب وعارف الشهابي وعثمان مردم ولطفي الحفار وصالح قنباز وصلاح الدين القواسمي . وبعد أن تحولت هذه الحلقة إلى جميعة انتسب إليها رشدي الحكيم وجورج حداد وسامي العظم وصلاح الدين العظم وزكي الخطيب ومحمد جمال الدين الحفار ونجيب الشهابي وفائز الشهابي، وكانت هذه الجمعية تهدف في الظاهر إلى نشر المعرفة والعلم وتاريخ الأدب وقواعد اللغة العربية، أما هدفها الحقيقي فكان بعث الأمة العربية من رقادها وتأسيس حكم لا مركزي ليضمن للعرب حقوقهم في الحكم، وجعل لغة الولايات العربية الرسمية هي اللغة العربية في المدارس ودواوين الحكومة ومحاكمها . وفي عام ١٩٠٦م أسس محب الدين الخطيب وعارف الشهابي وعبد الكريم قاسم الخليل وشكري الجندي فرعاً لهذه الجمعية في إستانبول، وشغل

محب الدين الخطيب منصب الرئاسة فيها في حين تسلم القاسمي أول أمانة لها، وتعتبر هذه الجمعية أول جمعية عربية منظمة في دمشق، وكان لهذه الجمعية أكبر الأثر في بعث الشعور القومي في الشباب العرب قبل إعلان الدستور .. وقد انتقلت الجمعية من التكتم والسر إلى العمل بوضح النهار بعد إعلان الدستور، ثم مالبثت أن تخلت عن معاطاة السياسة بضعط من الاتحاديين»[١].

التيار النصراني الانفصالي:

وقبل عام ١٩٠٨م لم يكن هناك من ينادي بالاستقلال عن الدولة العثمانية إلا النصارى العرب، وهؤلاء الذين سماهم الستاذ أحمد الشوابكة: التيار المناهض للجامعة الإسلامية. وذكر على رأسهم فرنسيس مراش الحلبي (١٨٣٦-١٨٧٣)، ورزق الله حسون (١٨٢٥-١٨٨٠)، وجبرائيل دلال الحلبي (١٨٣٦-١٨٩٢)، وشبلي شميل (١٨٥٠-١٩١٧)، ونجيب العازوري (؟-١٩١٦)، وكانوا في واقع الأمر عملاء للدول الأوربية، ففرنسيس مراش الحلبي سافر إلى باريس وعاش فيها حياة كلها فحش ومباذل، واعتنق مبدأ دارون للتطور وزعم أن الحكم العثماني يمارس حكماً طائفياً عنصرياً ضد رعاياه، كما دعا إلى الثورة ضد العثمانيين . ورزق الله حسون الحلبي الأرمني دعا السوريين إلى مناهضة الدولة العثمانية والثورة ضدها، وكان يشيد بدولة فرنسا وعمل على خدمة مصالح إنكلترا . وجبرائيل الحلبي الكاثوليكي سافر إلى فرنسا وأصدر جريدة الصدى التي أصدرتها السلطات الفرنسية بالعربية لترويج سياستها في الشرق وتبرير استعمارها في المغرب العربي . وشبلي شميل اللبناني الأرثوذكسي هاجم المعتقدات الدينية واعتبرها العلة الوحيدة لشرور المجتمع الشرقي والسوري

---

(١) الجبوري، ص٩١و١٠٢ وغيره.

خاصة، وزعم أن الدولة العثمانية تخلو من أي أثر للعلم أو الحرية، وامتدح الإنكليز والاحتلال الإنكليزي، ونجيب العازوري السوري الكاثوليكي أسس جمعية جامعة الوطن، وأصدر مجلة الاستقلال العربي، وألف كتاب «يقظة الأمة العربية»، وكان يشيد بسياسة فرنسا»[1].

حركة الجامعة الإسلامية:

ظهر في بلاد الشام مجموعة من الكتاب والمفكرين ورجال السياسة الذين عملوا من خلال كتاباتهم ومواقفهم على تعميق تيار الجامعة الإسلامية في بلاد الشام، وكان من أشهرهم:

١ . **الشيخ أبو الهدى الصيادي** (١٨٤٩-١٩٠٩): وهو من أشهر علماء الدين في عصره، ولد في خان شيخون من أعمال حلب، قربه السلطان عبد الحميد وبلغ عنده مكانة عالية، فكان من أكبر ثقاته، فقلده مشيخة المشايخ في دار الخلافة . وقضى ثلاثين سنة في خدمة الدولة العثمانية، وقد انعكست هذه العلاقة الحميمة بين أبي الهدى الصيادي والسلطان عبد الحميد على غالبية أبناء سورية،فأوصلهم أبو الهدى إلى مراتب عالية في العاصمة وفي حلب وطرابلس، وعطف على العلماء والفقهاء بصفة خاصة، وفي مجال الحركة للجامعة الإسلامية فقد كان الصيادي من أنشط العاملين لها، وكان يرأس مايمكن تسميته اللجنة المركزية المخططة لها في العاصمة، وقام بوضع رسالة له بعنوان «داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد»، وأكد فيها على ضرورة التفاف المسلمين من حول منصب الخلافة، وتحدث عن فرضية منصب الإمام .

---

(١) حركة الجامعة الإسلامية ل. أحمد الشوابكة، مقتطفات ص٩٧-١١٠.

٢. **عبد الرحمن الكواكبي** (١٨٥٤-١٩٠٢): وهو من أسرة عريقة من حلب، بقي يتنقل في الوظائف الشرعية حتى استقر به المقام في مصر ومات فيها، ورأى الكواكبي أن تأخر المسلمين في جميع الميادين ناتج عن تدهور النظم السياسية لديهم، وأكد على أهمية الحرية التي تتيح لصاحبها فرصة الاختيار في القول والعمل «فالحرية هي روح الدين، وهي أعز شيء على الإنسان بعد حياته، وبفقدانهما تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين». وحدد الكواكبي شكل الحكومة الضامنة لحرية الفرد بأنها «تلك الحكومة التي يحكمها الشرع الذي يسهر على تنفيذه غالبية الأمة، ويحاكم في ظله الحاكم والمحكوم على حد سواء» .. والحل التي رآه هو في اختيار خليفة قرشي تكون له السلطة الروحية في جميع المسلمين، وحكم مقصور على الحجاز إلى جانب هيئة شورية إسلامية مركزها مكة، ولا يتدخل الخليفة في شيء من الشؤون الإدارية في السلطات المركزية أو الإمارات البعيدة .

وقد حدد الكواكبي في برنامجه السياسي اختصاص كل فئة إسلامية تنتظم في سلك هذه الجامعة، فالأتراك العثمانيون للمحافظة على السياسة الخارجية، والمصريون لمراقبة حفظ الحياة المدنية التنظيمية، والجندية بما يناسب أقوام الأفغان وتركستان والخزر والقوقاز، وتدبير حفظ الحياة العلمية والاقتصادية خير من يتولاها إيران وأواسط آسيا والهند.

غير أن الكواكبي اضطربت أفكاره فيما بعد ونادى بفصل الدين عن الدولة، وأطلق شعاره ألا وهو (فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء)، مما دعا صديقة رشيد رضا أن يقول عنه: «ورغم اتفاقنا في كثير من الأمور إلا أننا خالفناه في مسائل عدة على رأسها مناداته بالفصل بين السلطتين الدينية والسياسية»

٣. **السيد محمد رشيد رضا** (١٨٥٦ -١٩٣٥): ولد في قرية القلمون على بعد ثلاثة أميال من طرابلس الشام، اطلع على الأعداد الأولى لمجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني، وكانت السبب في توجيه حياته وجهة جديدة، فتحول نحو مصر ليتصل بمحمد عبده تلميذ الأفغاني، ووصلها عام ١٨٩٧م، وكانت ملازمته للإمام محمد عبده مستمرة وتأثره به بالغاً حتى وفاة الإمام عام ١٩٠٥م، وكرس رشيد رضا جهده من خلال مجلته المنار للعمل على إصلاح أمور المسلمين، وسار في ذلك حسب خطة رسمها لنفسه تقضي أولاً بتشخيص علل وأمراض المجتمع الإسلامي، ووصف العلاج الكافل بإصلاح الخلل في الكيان الإسلامي. وتبين له أن السبب الكثير مما يشكو منه عائد إلى الفرقة التي يعيشونها والتي تصل إلى حد التنازل والتخاصم، وسبب ذلك فيما يرى ناتج عن استبدالهم مبادئ القومية والوطنية والجنسية برابطة الدين التي ظلت تجمعهم طيلة تاريخهم الطويل رغم اختلاف ديارهم ولغاتهم وأجناسهم. ودعا إلى إنشاء جمعية إسلامية تحت رعاية الخليفة العثماني، أما السلطان العثماني فهو الرئيس الأعلى لهذه الجمعية وذلك لأنه أقدر حكامهم، والحكومات الإسلامية الأخرى بمثابة أعضاء في اتحاد شبيه باتحاد الولايات المتحدة الأمريكية.

إن رشيد رضا قد اعترف بدولة الخلافة كأمر واقع، وقال في افتتاحية العدد الأول من مجلة المنار: «إنها عثمانية المشرب، حميدية اللَّهجة، تحامي عن الدولة بحق، وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق». وأكد رشيد رضا أن العثمانية هي جنسية أمته المختلفة في الأديان واللغات ... ولما قام الاتحاديون بانقلابهم عام ١٩٠٨م استبشر رشيد رضا خيراً، واعتبر افتتاح عهدهم بمجلس مبعوثان منتخب تحقيقاً لهدف طالما كان ينشده، ولكن على إثر مابدر من

الاتحاديين من تصرفات وتصريحات تجافي روح الجامعة الإسلامية، أعلن رشيد رضا موقفها الصريح المعادي للأتراك وللخلافة التي يتبنونها، وأن على العرب أن يعملوا على استعادة مجدهم .

٤ . **عبد القادر المغربي** (١٨٦٧-١٩٥٦): ولد في اللاذقية من أعمال سورية، وفي عام ١٨٩٢م سافر إلى دار الخلافة والتقى بجمال الدين الإفغاني، وفي عام ١٩٠٥م التقى بمحمد عبده في مصر، وقد بسط عبد القادر المغربي أفكاره الإصلاحية في مقالاته الصحفية، وخاصة ما كتبه في مصر أثناء وجوده فيها في جريدة المؤيد لسان حال الحركة الوطنية الإسلامية .

ويرى المغربي أن السبب فيما عليه المسلمون راجع إلى بعدهم عن معرفة حقيقة دينهم من أصوله في القرآن والسنة، مؤكداً أن صلاح المسلمين مرهون بجهود هؤلاء العلماء ومدى إخلاصهم وحسن أدائهم للوظيفة الموكولة إليهم، ويبدأ الإصلاح بإصلاح المناهج التربوية والتعليمية . وتناول المغربي موضوع الخلافة من لدن أبي بكر رضي الله عنه حتى تقلدها العثمانيون، وخلص إلى نتيجة مؤداها أنه مهما اختلف المسلمون فيما عساه أن يكون نوع الحكومة الذي قرره الدين الإسلامي، فالذي لاينبغي الاختلاف فيه هو وجوب أن يكون للأمة رئيس (خليفة)، والخلافة بعد أن تتأكد وتتحقق لابد لها من قوة تستند إليها وليس لها في عصره إلا قوة الحكومة العثمانية بما أتيح لهم من رئاسة لأكبر دولة إسلامية تولت على مدى قرون طويلة حماية الإسلام ودياره، وإليها يلجأ المسلمون مهما تباعدت ديارهم، ويؤكد المغربي أن أعظم بلية رزئ بها العالم الإسلامي هي الاستعمار البريطاني .

٥ . **رفيق العظم** (١٩٦٧-١٩٢٥م): علم بحاثة من رجال النهضة الفكرية في سورية، ولد في دمشق، ونشأ مقبلاً على كتب التاريخ والأدب، زار في صباه

مصر، ثم استقر فيها عام ١٨٩٨م، واشترك في الكثير من الأعمال الإصلاحية والسياسية والعلمية، كان رفيق العظم من بين الداعين إلى الجامعة الإسلامية، والمؤمنين بأهمية اتحاد كافة رعايا الدولة العثمانية، ومن الحريصين على وحدة أراضي وشعوب هذه الدولة، وجاءت آراءه مبسوطة في في كتابين من كتبه، أولهما: «الجامعة العثمانية والعصبية التركية»، وثانيهما «الجامعة الإسلامية وأوربا»، ودعا رفيق العظم كافة المسلمين إلى الالتفاف من حول الدولة العثمانية، كما حذر من خطر الفرقة والانقسام، كما أثنى على الدور الكبير الذي يقوم به السلطان عبد الحميد الثاني في خدمة سياسة الجامعة الإسلامية .

٦. **الأمير شكيب أرسلان** (١٨٦٩-١٩٤٦م): ولد في الشويفات في لبنان، والتقى بالأفغاني عام ١٨٩٢م في إستانبول، وانتخب نائباً عن حوران في مجلس المبعوثان عام ١٩٠٩م، وقد أسهم الأمير شكيب أرسلان بكتاباته الكثيرة ومواقفه العملية في ترسيخ تيار الجامعة الإسلامية عن طريق دعم الدولة العثمانية، والوقوف إلى جانب الخليفة العثماني، والمطالبة المتستمره بإصلاح أحوال المسلمين التعليمية والاجتماعية، وكان يرى في الحركة العربية في بلاد الشام الداعية إلى قيام خلافة عربية أنها دسيسة إنكليزية، واستنكر فكرة عقد مؤتمر باريس المناهض للدولة العثمانية.(١)

مرحلة ما بعد الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨م

لقد كانت عواطف الناس كلها تنتشي فرحاً بإعلان الدستور العثماني ١٩٠٨، لكن سيطرة الاتحاديين على الحكم في إستانبول، والدعوة إلى القومية التركية

---

(١) حركة الجامعة الإسلامية،لـ. أحمد شوابكة، مقتطفات من الفصل: التيار المنادي بالجامعة الإسلامية، ص٦٣-٩٣.

الطورانية، وخلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩م، وبروز التدخل الأجنبي السافر في شؤون الدولة العثمانية، وسيطرته على بعض الأحزاب القومية، كل ذلك جعل الحركة القومية تنقسم إلى تيارات شتى في الموقف من الدولة العثمانية، اتحاداً واستقلالاً أو وحدة لامركزية، وبرزت هذه التيارات من خلال برامج الجمعيات والأحزاب السياسية التي نشأت بعد عام ١٩٠٨، نذكر أهمها على سبيل المثال، ثم ننتقل إلى الجمعية العربية الفتاة التي مثلت التيار الغالب ووصلت إلى الحكم في سورية:

١. **جمعية الإخاء العربي**: التي افتتحت في إستانبول وعلى رأسها شفيق المؤيد مبعوث الشام في مجلس المبعوثان وندرة المطران مندوب بعلبك، وتلقوا الدعم من عبد الكريم الخليل، وعبد الوهاب الإنكليزي وجميل الحسيني الذين كانوا يدرسون في العاصمة، وتلقوا تأييداً من حزب اللامركزية في مصر وفي مقدمتهم حقي العظم وعبد الحميد الزهراوي ورضا الصلح، وأصدرت الجمعية جريدة تدعو لأفكارها هي الإخاء العثماني .

٢. **المنتدى الأدبي**: أسس في خريف عام ١٩٠٩م في إستانبول، وكان يضم الطلاب والأدباء والموظفين والنواب وبعض العسكريين في الآستانة، لكن قيادته كانت تسعى للكفاح ضد الحكم التركي، ولقي مؤازرة كبيرة من رجالات العرب السياسيين الموجودين في إستانبول مثل خليل باشا وزير الأوقاف وعبد الحميد الزهراوي وشفيق المؤيد .. وتوسع المنتدى وفتح له فروعاً في سورية والعراق، ثم تحول إلى مركز سياسي بعد أن تبدلت سياسة الاتحاديين معه فأغلقوه عام ١٩١٥م، واتصل المنتدى بالإمام يحيى باليمن .. وكان بحق أول مؤسسة تعهدت فكرة القومية العربية، ضمن الإطار العثماني العام، وأغلق عندما نادى بالاستقلا .

٣. **الجمعية القحطانية**: أسست في إستانبول عام ١٩٠٩ من قبل مجموعة من الشباب العربي، من أبرزهم الضابطان في الجيش العثماني، سليم الجزائري وصفوت العوا، ومن سورية شكري العسلي وعزت الجندي وعارف الشهابي وأمين لطفي الحافظ، ومن لبنان الأمير عادل أمين أرسلان وعبد الكريم الخليل، ومن مصر خليل حمادة وعزيز علي المصري، ضابط في الجيش العثماني، وعلي النشاشيبي من فلسطين (ضابط) وياسين الهاشمي من العراق (ضابط)، وشاركهم في التأسيس عبد الحميد الزهراوي من سورية. وكانت الجمعية تهدف إلى السعي لإيجاد كيان عربي مستقل ضمن الدولة العثمانية لتكوين وحدة إدارية من الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية، وبذلك يشكل اتحاد عربي – تركي على رأسه الخليفة، لكنها انحلت بعد عام من تأسيسها، ثم انضم أعضاؤها إلى جمعيتي العهد والعربية الفتاة.

٤. **جمعية العهد**: إذا كانت الجمعية القحطانية أول جمعية سرية عربية ضمت مدنيين وعسكريين . فقد تشكلت جميعة العهد في ٢٨ تشرين الأول عام ١٩١٣م بصورة سرية من الضباط العرب في الجيش العثماني، وهم عزيز علي المصري ومحمد إسماعيل الطباخ ومصطفى وصفي وسليم الجزائري ونوري السعيد ويحيى كاظم أبو الشرف وعارف التوام ومحي الدين الجبان وعلي النشاشيبي وياسين الهاشمي وطه الهاشمي وجميل المدفعي. وقد شكلها عزيز علي المصري، ثم انضم إليها عدد من المدنيين. وكان برنامجها:

١) السعي إلى الاستقلال الداخلي لبلاد العرب على أن تكون متحدة مع الدولة العثمانية كاتحاد هنغاريا – النمسا.

٢) بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان.

٣) الدفاع عن الآستانة والمحافظة على سلامتها أمام الأطماع الأجنبية.

٤) على العرب أن يكونوا القوى الاحتياطية التي تدعم الأتراك في حمايتهم للشرق أمام الغزو الغربي.

٥) إنماء الفضائل في نفوس الأعضاء وبث الدعوة للتمسلك بالأخلاق.

وقد سميت الجمعية جمعية العهد كي تبقي العهد بين أعضائها وبين الله على خدمة الوطن، ولما فقدت الجمعية الأمل بالتطور السلمي والاتفاق مع أعضاء حزب تركية الفتاة دعت إلى إسقاط السلطة التركية بالقوة، واتخذت من العراق قاعدة للقيام بالثورة، وفي عام ١٩١٤م اكتشفت السلطات التركية أمرها فحلتها وألقت القبض على رئيسها

٥. **الجمعية العربية الفتاة**: الملاحظ في حزب العهد أنه حزب غير منفصم عن الدين ويحمل الروح الوطنية، ولايرقى الشك إلى إخلاص عزيز علي المصري الضابط الذي ثارت من أجله الجماهير في مصر حين أعلن نبأ اعتقاله ومحاكمته، وتألفت لجنة برئاسة شيخ الأزهر قابلت المعتمد البريطاني في مصر تطالب بتدخله .أما الصورة فتختلف بالنسبة لجمعية العربية الفتاة لأنها نشأت من صفوف الشباب المتشبع بالروح الغربية والمفهوم الغربي للوطنية. ففي عام ١٩٠٩م، انتقل عوني عبد الهادي ومحمد رستم والدكتور أحمد قدري من إستانبول إلى الشام ومنها إلى باريس لمتابعة التخصص، وتبعهم رفيق التميمي وعبد الغني العريسي وجميل مردم وتوفيق السويدي، وكان هناك قبلهم توفيق الناطور ومحمد المحمصاني، وأسس هؤلاء جميعاً جمعية العربية الفتاة في عام ١٩٢١م، وكان برنامجها في أول تكوينها هو العمل بالنهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية وعدم الانفصال عن الدولة العثمانية، وقد تغير هذا البرنامج بعد الحرب العالمية الأولى وأصبحت الجمعية تسعى لتحرير البلاد العربية من النير التركي واستقلالها التام، ثم انتقل مركز الجمعية عام ١٩١٢م إلى بيروت ثم

إلى دمشق، وانضم إليها بعد انتقالها إلى دمشق السادة: شكري القوتلي وياسين الهاشمي وإبراهيم هنانو ورياض الصلح والفريق رضا الركابي والشيخ كامل القصاب وعلي جودت الأيوبي وجميل المدفعي وعادل ونبيه العظمة وأحمد مريود وعزت دروزة وغيرهم، ثم قامت الجمعية بالاتصال بالأمير فيصل بن الحسين فانتسب إليها وتبنى فكرتها، وأخبر والده بأمرها ونشاطها، ثم أعيد تأسيسها بتاريخ ١٢/١٧/ ١٩١٨م بعد وصول فيصل إلى دمشق، وكان من أبرز المنضمين إليها فخري البارودي ونسيب البكري ومحب الدين الخطيب والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وكانت غاية الجمعية المثبتة في المادة الأولى من الفصل الأول من الباب الأول:

«استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً بجميع معانيه الحقوقية والسياسية وتأييد ذلك الاستقلال بجعل الامة العربية في مصاف الأمم الحية».

والملاحظ في الغاية غياب الإسلام غياباً تاماً عن أذهان دعاة الأستقلال.

وقد مثلت هذه الشخصيات كل قيادات النضال الوطني في عهد الاحتلال، وفي أيام فيصل .

٦. **حزب اللامركزية الإدارية العثمانية**: أسس عدد من الفارين العرب من اضطهاد الاتحاديين إلى مصر عام ١٩١٢م حزباً علنياً في مصر سموه « حزب اللامركزية العثماني»، برئاسة رفيق العظم أحد رجال الشيخ طاهر الجزائري في دمشق، وكان من أهم مؤسسيه محمد رشيد رضا صاحب (المنار)، واسكندر عمون وداود بركات رئيس تحرير الأهرام وحقي العظم وسامي الجريدني ومحب الدين الخطيب معتمد العربية الفتاة في القاهرة وشبلي شميل وعبد الحميد الزهراوي ورفيق سلوم وغيرهم، وكان اسكندر عمون نائباً للرئيس، وحقي العظم سكرتيراً عاماً. وكان من أهم أهداف هذا الحزب:

«منح البلدان العربية استقلالاً ذاتياً وجعل اللغة العربية لغة رسمية فيها وإسناد الوظائف في البلدان العربية إلى العرب» .

وشارك الحزب مشاركة فعالة في مؤتمر باريس، ثم جمد الحزب أعماله بعد الحرب العالمية الأولى وتشتت أعضاؤه، وكانت ميزة هذا الحزب أنه جمع بين القوميين والإسلاميين والوطنيين تحت راية تحقيق مطالب العرب، ثم استقلالهم عن الدولة العثمانية [1]

مؤتمر باريس:

تشكلت من الجمعية العربية الفتاة نواة لجنة تحضيرية للمؤتمر من: جميل مردم –دمشق- وعوني عبد الهادي –نابلس- وعبد الغني العريسي ومحمد محمصاني وتوفيق فايد –بيروت-، وانضم إليهم شكري غانم وشارل دباس وندرة مطران وجميل معلوف الذين شكلوا اللجنة التحضيرية، وعملت على الاتصال بالأحزاب العربية في داخل الوطن العربي وخارجه، حيث عقد المؤتمر العربي الأول جلساته في مقر الجمعية الجغرافية في باريس بين ١٨-و٢٣ حزيران عام ١٩٠٣ من ٢٥ عضواً، كان للعربية الفتاة أربعة أعضاء، ومثل حزب اللامركزية بثلاثة أعضاء، والاتحاد السوري بعضوين، وجمعية بيروت الإصلاحية بستة أعضاء . أما على صعيد الأقطار فقد حضر من لبنان ١٩ عضواً ومن سورية ثلاثة، ومن العراق اثنان، ومن فلسطين عضو واحد، وتم انتخاب اللجنة الإدارية، فكلف بالرئاسة مندوب حمص إلى مجلس المبعوثان العثماني عبد الحميد الزهراوي، وانتخب شكري غانم نائباً له . وظهر في المؤتمر تياران رئيسيان:

---

(١) مقتطفات من كتاب الحياة السياسية في سورية للإمام، وغيره.

التيار الاول: وكان يمثل اللامركزية، دعا إلى التمسك بالخلافة العثمانية والمحافظة عليها في وجه المطامع الدولية، ويختلف مع الدولة في مطالب الإصلاح واتباع سياسة اللامركزية، وترددت أحياناً أصداء أفكار المفكر الحلبي عبد الرحمن الكواكبي في الخطب التي برزت في المؤتمر، وأكد العريسي على أن تكون الدولة العثمانية مزدوجة القومية، وأكد على أن لاتتطرق إلينا فكرة الانفصال عن هذه السلطنة مادامت حقوقنا فها مرعية ومحفوظة

التيار الثاني: وهو مكون من الذين كانوا يعملون لمصلحة الحكومة الفرنسية ويرتبطون بمخططاتها ومشروعاتها، وهم الأكثر عدداً، إذ كان الذين حضروا من بيروت تسعة عشر عضواً من خمس وعشرين . لكن القرارات كانت تمثل آراء التيار الأقل عدداً وأهمها إشراك العرب في إدارة الدولة العثمانية، وإعطاء الولايات العربية قدراً واسعاً من الحريات الذاتية، وإقرار اللغة العربية في جلسات مجلس المبعوثان، واعتمادها كلغة رسمية في الولايات العربية . وخرج أيضاً التيار الثاني بقرار يدعو الآستانة إلى دعم متصرفية جبل لبنان حالياً .

«ولما سعى المؤتمرون إلى تنفيذ هذه القرارات جرت اتصالات بينهم وبين حكومة الاتحاديين بالآستانة، فاجتهدت الأخيرة في احتوائهم واحتواء مطالبهم وحركاتهم، وأن تزرع الشقاق بين صفوفهم، وأن تقلل من أهمية مؤتمرهم في أعين العرب، ووصلت هذه المحاولة إلى ذروتها بعد سنوات حين سعى جمال باشا أحد الزعماء الاتحاديين الذين أوكلت لهم المسؤولية في الولايات العربية إلى إلصاق تهمة العمالة للفرنسيين بالذين حضروا مؤتمر باريس، واشتركوا في أعماله، وإلى إلقاء الريبة على الدعوة التي انبثقت عنه»[1] .

---

(١) الحياة السياسية في سورية – العهد العثماني، لمحمد فاروق الإمام، ص ٧٥-٧٦.

العهد الفيصلي

بدأ عهد الإمارة العربية المستقلة في سورية منذ وصل الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق في تشرين الأول ١٩١٨، وكان يقود الحملة العسكرية العربية أو جيش الثورة العربية الكبرى التي أعلنها والده الشريف الحسين بن علي لقاء ما قطعه له الإنجليز من عهود ووعود بوحدة البلاد العربية واستقلالها وسيادتها، يضاف إلى ذلك الأيام الخمسة التي سبقت مجيئه، والتي تلخص بما يلي:

عندما أصبحت حملة الثورة العربية في أواخر أيلول عام ١٩١٨ على أبوب دمشق، أوعز الأمير فيصل إلى رضا باشا الركابي وشكري باشا الأيوبي بتشكيل حكومة وطنية مؤقتة دون انتظار دخولها المدينة ما دامت المقاومة التركية قد انعدمت، ولما كان الركابي باشا غير موجود آنذاك بسبب تعيينه من قبل الجيش الرابع العثماني قائداً عاماً للاستحكامات التي فكر الجيش بإقامتها حول مدينة دمشق للدفاع عنها، فقد اضطلع بالأمر شكري باشا، فألف في ٢٧ أيلول عام ١٩١٨ حكومة مؤقتة برئاسة الأمير سعيد الجزائري، يعاونه فيها كل من السادة شكري الأيوبي وشاكر الحنبلي وفارس الخوري وجميل الألشي وسعدي كحالة. ولكن هذه الحكومة لم ترفع العلم العربي على دار الحكومة بدمشق إلا بعد ظهر ٣٠ أيلول ١٩١٨، أي بعد أن غادر وكيل الوالي الأميرلاي أركان حرب بهجة بك البلاد بعد ظهر ذلك اليوم، وبعد أن اجتمع بشكري الأيوبي وسلَّمه المدينة.

وقد انتهت مهمة هذه الحكومة بوصول الركابي باشا إلى دمشق في ٣٠ أيلول ١٩١٨ وتسلمه الحكم كحاكم عسكري وفق تكليف الحملة، وبعد أن وصل سمو الأمير فيصل بن الحسين في ٢ تشرين الأول عام ١٩١٨ إلى دمشق، أصدر في الخامس منه بلاغاً أعلن فيه تشكيل حكومة دستورية عربية مستقلة تشمل جميع

البلاد السورية، وعهد إلى الركابي باشا الذي كان تسلَّم الحكم في ٣٠ أيلول ١٩١٨ بالقيادة العامة للحكومة، وألّف إدارة لمساعدته من السادة الأمير عادل أرسلان، ياسين باشا الهاشمي، بديع المؤيد، فارس الخوري، وعطا الأيوبي. وقد انتهى عهد الإمارة عندما نودي بسمو الأمير فيصل ملكاً على سورية[١].

أما لبنان فكانت تحكمه حكومة محلية برئاسة عمر الداعوق، تشكلت بعد انسحاب الأتراك من البلاد. فحاولت الجمعية العربية الفتاة بقيادة فيصل أن تطبق في لبنان نفس نظام الحكم الذي اتبعته في سورية، لذلك انتدب فيصل شكري الأيوبي ممثلاً عنه ليتوجه إلى بيروت برفقة محمد رستم حيدر والدكتور أحمد قدري من قادة جمعية العربية الفتاة ليساعداه في الحكم. وبالفعل استلم شكري الأيوبي الحكم من حكومة عمر الداعوق، ورفعت الأعلام العربية في أجواء بيروت وأنحاء لبنان والسواحل السورية الأخرى، ولكن هذه الحكومة العربية لم تبق في حكم لبنان أكثر من أسبوع واحد فقط، لأن الفصائل الفرنسية قدمت للاستيلاء على الساحل، وصدرت الأوامر لشكري الأيوبي بطي الأعلام العربية والانسحاب إلى دمشق، وكان التعليل الذي قدمه الفرنسيون لتصرفهم هذا أن الضرورات الحربية تقتضي ذلك، وأن هذه البلاد أطلق عليها اسم بلاد العدو المحتلة، وجميع القوى فيها خاضعة لقيادة الجنرال اللنبي العامة، ولا يجوز رفع أي علم حكومي فيها ريثما يقدر مؤتمر الصلح مصيرها[٢].

مؤتمر الصلح ووثيقة فيصل ـ وايزمن:

دعي فيصل لحضور مؤتمر الصلح بصفته ممثلاً عن أبيه، وضمن دهاليز

---

(١) خبراتي في الحكم: لدولة حسن الحكيم رئيس وزراء سوريا الأسبق ص ٨٠٧.

(٢) الحكم الحزبي في سورية أيام العهد الفيصلي لـ د.سهيلة الريماوي، ص ٨١ـ٨٢.

السياسة البريطانية والفرنسية، ومن خلال ثقته بلورنس ضابط الاتصال البريطاني، حيث أفهم أنه لن يحضر مؤتمر الصلح ما لم يوقع على الوثيقة مع وايزمن «وقدموا كتاباً لفيصل حتى يوقعه برضائه معترفاً بتأسيس وطن قومي وثقافي فقط في فلسطين لقاء مساعدتهم للعرب في المحافل الدولية.. وانتهى البحث بأن كتب الأمير على تلك الوثيقة بتوقيعه وبخطه وبالعربية بأنه يقبل بما عرض عليه إذا ما أوفى اليهود بوعدهم وتم للعرب تحقيق استقلالهم من طوروس إلى خليج البصرة، وفقاً لمطالب الملك حسين من الحكومة البريطانية قبل دخول الحرب»[1].

ومن أهم مواد هذه الاتفاقية:

٢. «تحدد بعد مشاورات مؤتمر السلام الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق عليها من قبل الفريقين المتعاقدين.

٣. عند إنشاء دستور إدارة فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر ١٩١٧ (وعد بلفور).

٤. يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة، لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة، ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين والمستأجرين العرب ويجب أن يساعدوا على التقدم الاقتصادي.

٩. كل نزاع قد يثار بين الطرفين المتنازعين يجب أن يحال إلى الحكومة

---

(١) العهد الفيصلي للريماوي، ص٨٥.

البريطانية للتحكيم.

وقع في لندن إنكلترا في اليوم الثالث من كانون الثاني سنة ١٩١٩.

وهذه تحفظات الأمير فيصل باللغة العربية وعلى هامش الاتفاق باللغة الإنكليزية:

يجب أن أوافق على المواد المذكورة أعلاه بشرط أن يحصل العرب على استقلالهم كما طلبت بمذكرتي المؤرخة في الرابع من شهر كانون ثاني سنة ١٩١٩ والمرسلة إلى وزارة خارجية بريطانيا العظمى، لكن إذا وقع تعديل أو تحويل بقصد ما يتعلق بالمطالب الواردة بالمذكرة، فيجب أن لا أكون عندها مقيداً بأي كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة لا شأن لها ولا قيمة قانونية، ويجب أن لا أكون مسؤولاً بأي طريقة مهما كانت[١].

فيصل بن الحسين حاييم وايزمن

إن الانهيارات والتنازلات لا تأتي دفعة واحدة، فمنذ قبول الحسين الانفصال عن الدولة العثمانية كان الانفصال عربياً كاملاً، ثم اقتنع بالتخلي عن المغرب العربي كله من مصر إلى المغرب، وإقامة دولة عربية مشرقية. وهذا فيصل يقبل التخلي عن فلسطين وسلخها من الدول العربية لتكون وطناً قومياً لليهود بشرط حصول العرب على استقلالهم.

وكانت الخطوة الثالثة التنازل عن الدولة العربية المشرقية، إلى حصول الشعوب العربية على استقلالها. فقد دخل فيصل سورية باسم والده، وشكل الحكومة السورية على أنها جزء من الدولة العربية الواحدة كما في نص البلاغ

---

(١) الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية. حسن الحكيم ص ٣٩-٤٠.

الذي أذاعه على الناس في ٥ تشرين الأول ١٩١٨ بعد دخوله سورية في ٢ تشرين ١٩١٨:

«وإلى أهالي سورية المحترمين. أشكر جميع السوريين على ما أبدوه من العطف والمحبة وحسن القبول لجيوشنا المنصورة، والمسارعة للبيعة باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين الشريف حسين نصره الله، ثم أبلغهم المواد الآتية:

١- تشكلت في سورية حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين، شاملة جميع البلاد السورية.

٢- قد عهدت إلى السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة للحكومة المذكورة نظراً لثقتي باقتداره ولباقته»[1].

لقد كان الإسلام هو المنطلق للشريف حسين وهو يرد على مكماهون:

«رغبة في تسهيل الاتفاق، وخدمة الإسلام، واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين، واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فإننا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين وأضنة إلى المملكة العربية.

أما قضية حلب وبيروت وسواحلها فهي عربية صرفة. وليس هناك فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي، وكلاهما من نسلٍ واحد. وسنسير نحن المسلمين على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الراشدين الذين فرضوا على المسلمين بموجب الديانة الإسلامية أن يعاملوا المسيحيين كما يعاملون أنفسهم. وقد قال سيدنا عمر في حديث له عن المسيحيين بأن لهؤلاء ما للناس حقوق وواجبات.. وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من

---

(١) الوثائق التاريخية. لـ حسن الحكيم ص٣٥.

حقوق بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع»[1].

أما فيصل فقد انضم إلى الجمعية العربية الفتاة رائدة القومية العربية، فقد دخل فيصل دمشق وهو أمير حزبي، يحمل عضوية حزب العربية الفتاة تحت رقم «١٢٨» ورمز أ.ل. كما دخل برفقته إلى دمشق عدد كبير من أعضاء هذا الحزب ومؤسسيه»[2].

ونص القسم في الحزب: أقسم بالله وبشرفي أن أسعى في تأييد غاية الجمعية، وهي الاستقلال العربي التام، والسعي في جعل الأمم العربية في مصاف الأمم الحية..[3].

ولذلك عندما تحدث عن طبيعة الحكم في سوريا يوم دخلها باسم أمير المؤمنين، كان يخاطب الشعب بمبادئ العربية الفتاة في الحرية والمساواة، وليس باسم الإسلام. يقول: وليعلم جميع الناس أن حكومتنا قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة، فهي تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً، لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي. فهي تسعى بكل ما لديها من الوسائل لتحكيم دعائم هذه الدولة التي قامت باسم العرب، وتستهدف إعلاء شأنهم وتأسيس مركز سياسي لهم بين الأمم الراقية.

ومن أجل هذا سنتحدث عن فيصل القومي العربي الذي قبل سلخ فلسطين لتكون وطناً قومياً لليهود عن الدول العربية. ونضع مقابل هذا الموقف وثيقة السلطان العثماني العظيم عبد الحميد التي يقول فيها لشيخه الشامي أبي الهدى

---

(١) المصدر نفسه ص١٦.

(٢) العهد الفيصلي لـ د. سهيلة الريماوي ص٢٣.

(٣) المصدر نفسه/ ملاحق/٢٥١.

الصيادي.

«... إنني لم أتخلّ عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم «جون ترك» وتهديدهم اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة، إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عليَّ بأن أصدِّق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة «فلسطين»، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف. وأخيراً وعدوا بتقديم «١٥٠» مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي: إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فضلاً عن «١٥٠» مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي. لقد خدمت الملة الإسلامية، والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلم أسوِّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل بتكليفكم بوجه قطعي أيضاً. وبجوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سيلانيك. فقبلت بهذا التكليف الأخير. هذا وحمدت الله وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأرض المقدسة فلسطين.

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩ خادم المسلمين: عبد الحميد بن عبد المجيد[1]

---

(١) (١) فجر الاستقلال في سورية لـ: سهيل العشي، ملاحق/ ٢٣١، وقال: من أوراق الباحث العربي ممدوح رحمون، والأصل محفوظ في دار ورثة المرحوم محمود أبو الشامات. وقد قدمت الوثيقة إلى المؤتمر القومي العربي الثامن في القاهرة.

مسلسل التنازلات:

وكما ذكرنا، فقد ابتدأ تنازل فيصل عن الإسلام أساساً في الحكم، وتنازل عن فلسطين في سبيل استقلال العرب، لكنه هنا يتنازل عن الدولة العربية المشرقية الواحدة، وباسم والده يفعل ذلك للدول العربية المجزأة، ويحضر المؤتمر بصفة والده ملك الحجاز وليس ملك العرب، كما في نص مذكرته التي طالب بها مؤتمر الصلح. فإنه حين دعي وفد الحجاز لحضور اجتماع المؤتمر في مبنى وزارة الخارجية في باريس بتاريخ ٦ شباط سنة/١٩١٩، كان الأمير قبل بضعة أيام قد قدَّم مذكرة للمؤتمر شرح فيها حق العرب في الاستقلال، وهي مؤرخة في ٢٩ كانون ثاني سنة ١٩١٩، وفيما يلي النص الكامل لها:

«جئت ممثلاً لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الترك تلبية منه لرغبة بريطانيا وفرنسا لأطالب بأن تكون الشعوب العربية الناطقة في آسيا من خط الإسكندرونة ـ ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوباً معترفاً باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الأمم. ويستثنى من هذا الطلب الحجاز، وهو دولة ذات سيادة، وعدن وهي محمية بريطانية، وبعد التحقق من رغبات السكان في تلك المنطقة، يمكننا أن نرتب الأمور فيما بيننا، مثل تثبيت الدولة القائمة فعلاً في تلك المنطقة، وتعديل الحدود فيما بينها، وفيما بينها وبين الحجاز، وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن، وإنشاء دول جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها، وستتقدم حكومتي في الوقت المناسب بمقترحات تفصيلية في هذه النقاط الصغيرة. وأنا أستند في مطلبي هذا على المبادئ التي صرَّح بها الرئيس ولسن، وأنا واثق من أن الدول الكبرى ستهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها بما

لها هي نفسها من مصالح مادية»[1].

ونتيجة اجتماع المؤتمر والمناقشة التي دارت تقدم الأمير فيصل واقترح تشكيل لجنة وإرسالها إلى سورية وفلسطين لتقف على رغبات سكانها.. إلا أنه لم يبت بهذا الاقتراح وتعيين اللجنة إلا في ٢٥ آذار سنة ١٩١٩، وأعضاؤها من الدول الأربع: أمريكا، إنكلترا، فرنسا، إيطاليا، ولكل منهم عضوان، وقد سميت هذه اللجنة «كنج ـ كراين» نسبة لاسم العضوين الأمريكيين، وقد استغرقت اللجنة المذكورة في جولاتها في سورية وفلسطين مدة شهرين، وتقدمت بتقريرها الذي بقي مكتوماً حتى عام ١٩٢٢، فتناقلته صحف أوروبا وأمريكا[2].

المكافأة على التنازلات بمبايعته ملكاً على سوريا:

لقد كان حزب العربية الفتاة هو الذي يقود الحكم في سورية، وأدت مواقف فيصل إلى صراعات في داخله، وقد خطب عقب وصوله من المؤتمر خطبة عصماء قسم بها العرب ومسخهم إلى القضية السورية، والعراقية والحجازية، فكان مما قاله:

«دافعت عن سورية بحدودها الطبيعية، وقلت إن السوريين يطلبون استقلال سورية بلادهم الطبيعية ولا يريدون أن يشاركهم فيها شريك، وقد توفقنا والحمد لله، العراق بلاد مستقلة بلا علاقة مع سورية، كما أن سورية لا علاقة لها بسائر البلاد العربية مع أن العرب أمة واحدة..»[3].

واستعداداً لاستقبال لجنة الاستفتاء قامت الجمعية العربية الفتاة بتشكيل

---

(١) الوثائق التاريخية لحسن الحكيم ص٤٤.

(٢) المصدر السابق ص٤٤.

(٣) الوثائق التاريخية ص٥٣، وكان ذلك في ٥ أيار ١٩١٩ حيث دعيت الوفود العربية لاستقباله.

حزب الاستقلال ليكون الواجهة العلنية لها وهي جمعية سرية، وقام هذا الحزب بالاتحاد مع الأحزاب الأخرى ـ وهي خمسة أحزاب ـ بالدعوة إلى عقد مؤتمر سوري عام يمثل سورية الطبيعية بأجمعها، واتفق أن يتكوَّن المؤتمر من طريق الانتخاب حيثما أمكن، وافتتح المؤتمر في بهو النادي العربي في ١٩١٩/٦/٧. وحضر الأمير فيصل هذه الجلسة مع أركان حكومته، وألقى خطاباً في مندوبي الأمة حدد مهمة المؤتمر بأنها التعبير عن رأي الأمة في الاستفتاء المنتظر، وأن يتحول إلى جمعية تأسيسية تضع دستور الدولة، وتصبح مجلساً تشريعياً لها. ثم انتخب لرئاسة المؤتمر محمد فوزي العظم وهو من أعضاء حزب الاستقلال، كما انتخب محمد عزة دروزة سكرتيراً للمؤتمر. وكانت أهم نتائج هذا النشاط الحزبي الجماهيري استقرار الشعب على ما يلي:

١. «استبعاد فرنسا عن المعونة الفنية المقترحة وذلك لأساليبها التعسفية في شمال إفريقيا، ثم لمطامعها المعروفة في المنطقة، ولوجود جيوشها في الساحل وعلى حدود سورية الداخلية تتربص وتنتظر الفرص للوثوب على المنطقة.

٢. اتفاق الآراء على طلب الاستقلال التام لسورية الطبيعية التي حددت بطوروس شمالاً ورفح جنوباً والفرات شرقاً والبحر المتوسط غرباً.

٣. إذا كان لابد من الاستعانة بفنيين أجانب وفقاً للحاجة فليكن ذلك بحرية كاملة»[١].

قدمت لجنة الاستفتاء وزارت فلسطين ابتداء بتاريخ ١٩١٩/٦/١٠، ثم توجهت إلى دمشق في ١٩١٩/٧/٢، قابلها وفد المؤتمر السوري الذي يرأسه

---

(١) العهد الفيصلي، للريماوي، ص١١٦.

هاشم الأتاسي والذي يضم ٢١ عضواً يمثلون مناطق سورية المختلفة وأحزابها وقدموا إليها قرارات المؤتمر.

وعندما ذهب فيصل والوفد معه إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح، لعب بهم من إنكلترا وفرنسا بحجة تأخير الباخرة التي أقلتهم، وأبلغ فيصل قرار المندوبين في مؤتمر الصلح الذي نشر في باريس في ١٩١٩/٩/١٧ حول الاتفاق الثنائي بين إنكلترا وفرنسا وهذا نصه:

«تقرر في الاتفاق الذي عقد بشأن حلول الجنود الفرنسية محل الجنود البريطانية في سورية وكليكية أن تترك من الآن المدن الأربع وهي دمشق وحمص وحماة وحلب وشرقهن خارج منطقة الاحتلال العسكري الفعلي». هذا الجزء من البيان هو المتعلق بالمدن الأربعة المذكورة، أما الاتفاق نفسه فكان يدور حول تقسيم الضحية ـ سورية الطبيعية ـ بين الدولتين:

١- سلخ الأقضية الأربعة: البقاع، بعلبك، حاصبيا، وراشيا من سورية وضمها إلى لبنان ليشكلوا دولة لبنان الكبير بإشراف فرنسا.

٢- جلاء الجيوش الإنكليزية عن سورية كلها داخلها وساحلها عدا شرق الأردن، على أن يحل الجيش الفرنساوي محله في أول تشرين الثاني.

أما مكاسب إنكلترا فكانت ما يلي.

١. وافقت فرنسا على ضم الموصل إلى منطقة النفوذ الإنكليزي في العراق.
٢. جعلت فلسطين تحت السيطرة الإنكليزية بدلاً من الإدارة الدولية.
٣. سلخ شرق الأردن وجعله تحت السيطرة الإنكليزية.

وأصبحت سورية تعني حسب هذا التقسيم المدن الأربع: دمشق وحمص وحماة وحلب.

وعاد فيصل من باريس إلى دمشق في ١٤ كانون ثاني١٩٢٠ يحيط به جو من عدم الثقة الحزبي والوطني، فقد كان الاستقبال فاتراً، وتفجر الصراع بينه وبين أعضاء المؤتمر وأعضاء العربية الفتاة بين مؤيد ومعارض، وحسم الأمر بتشكيل حكومة جديدة برئاسة أخيه زيد، وأصدر بيانه بتاريخ ٢٦ كانون ثاني١٩١٩: «لما كانت الظروف توجب تشكيل حكومة قوية، ومن رأي الأمير أن لا تكون حزبية، فقد أنهى بتاريخ ٢١ كانون ثاني يناير١٩٢٠ حكومة الحاكم العسكري، وأسس حكومة المديرين برئاسة أخيه الأمير زيد على الوجه التالي...» وقام بجولة في المدن السورية في محاولة لشرح موقفه للجماهير الشعبية، والعجيب أن كل هذه الصراعات التي استمرت قرابة شهرين انتهت بمبايعة فيصل ملكاً على سورية، ففي يوم ٧آذار سنة١٩٢٠ اجتمع أعضاء المؤتمر وقرروا بالإجماع إعلان الاستقلال التام لسورية بحدودها الطبيعية، والمناداة بفيصل ملكاً عليها.

التتويج والمبايعة٨ آذار ١٩٢٠:

«وفي يوم ٨ آذار تشكل وفد من أعضاء المؤتمر السوري، وتوجه هذا الوفد إلى دار الإمارة، وتلا سكرتير المؤتمر محمد عزة دروزة قرار المؤتمر السوري كما تم الاتفاق علية نهائياً بين فيصل ورجال الأحزاب. وكان أهم ما فيه:

١. إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية بما في ذلك فلسطين، مع رفض الادعاء اليهودي بالوطن القومي.
٢. وهذه الحدود حسب قرار المؤتمر السوري الذي قدمه للجنة الاستفتاء.
٣. إعلان الحكم نيابي دستوري.
٤. الاحتفاظ بصداقة الحلفاء على أن يحترم كل طرف مصالح الطرف الآخر.
٥. طلب جلاء جنود الحلفاء من المنطقتين الغربية والجنوبية ليحل الجند

الوطني محلها.

وألقى الملك فيصل كلمة شكر تقدم بعدها رجال الدولة للمبايعة وأعضاء المؤتمر السوري وكبار الشخصيات الإسلامية والمسيحية والدينية والمدنية ومعتمدو الدول الأجنبية»[1].

وكانت لجنة الدستور التي تألفت بعد زيارة لجنة الاستفتاء قد انتهت من وضعه وعرضه على المجلس، وكانت مواد الدستور تتألف من (١٤٨) مادة، وصودقت مواده السبع في ١٣تموز ـ يوليو، وتوقفت بقية المناقشة نظراً لظروف إنذار غورو كما هو معلوم.

وقفة مستأنية:

١. من الخلافة الإسلامية إلى الدولة العربية وعلى رأسها أمير المؤمنين الشريف حسين بن علي، إلى الدولة العربية المستقلة، إلى سورية المستقلة بحدودها الطبيعية. وصار هذا هو الهدف الأكبر للأمة. بينما كان الغرب عامة وفرنسا خاصة ماضٍ إلى أبعد من هذا بكثير، فالساحل الشامي لفرنسا، والموصل وشرق الأردن لإنكلترا. وغدت سورية فقط هي دمشق وحمص وحماة وحلب. واستمرت المعركة لتدخل سورية كلها تحت الاحتلال الفرنسي.

٢. إعلان فصل الدين عن الدولة، وإطلاق شعار فيصل: الدين لله والوطن للجميع. والنص في المادة الأولى من الدستور:

١- إن حكومة المملكة السورية العربية حكومة ملكية مدنية نيابية عاصمتها دمشق، ودين ملكها الإسلام.

---

(١) الحكم الحزبي، العهد الفيصلي للدكتورة الريماوي ص١٩٤ ـ ١٩٥.

والمدنية هنا تعني العلمانية. وقد جاء في ديباجة الدستور شرحاً لها:

«ولهذا فقد جعلت المادة الأولى من اللائحة أن حكومة البلاد العربية السورية حكومة ملكية نيابية عاصمتها دمشق ودين ملكها الإسلام.

أريد بذلك أن تكون البلاد نيابية مدنية تتجلى فيها حاكمية الأمة، لتكون حاكمة نفسها بنفسها، وأن لا يترك للعوامل الدينية البحتة مجال في السياسة والأحكام العمومية، مع احترام حرية الأديان والمذاهب التي في البلاد، بلا تفريق بين طائفة وأخرى والاحتفاظ، بما يتعلق بالاعتقادات المذهبية والمعاملات الشخصية، حيث تبقى حرة تبعاً للطقوس والتعاليم الدينية بلا أدنى تقييد أو معارضة»[1].

٣. قانون الأحوال الشخصية يترك الحكم فيه لشرائع الأمة ففيه:

المادة ١٣- لا يجوز التعرض لحرية المعتقدات والديانات، ولا منع الحفلات الدينية لطائفة من الطوائف، على أن لا تخل بالأمن العام أو تمس بشعائر الأديان والمذاهب الأخرى.

المادة ١٤- كيفية إدارة المحاكم الشرعية والمجالس الطائفية التي تنظر بحسب شرائعها في الأحوال الشخصية المذهبية وكيفية إدارة الأوقاف العامة تعين بقوانين تصدر من المؤتمر[2].

فالإسلام عقيدة في القلب، وشعيرة في المسجد، وسلوك شخصي في

---

(١) الوثائق التاريخية لـ: حسن الحكيم ص٢١٦.٢١٧ وقد ذكرت هذه الفقرة ضمن (مضبطة الأسباب الموجبة لوضع لائحة القانون الأساسي التي وضعتها لجنة المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق.

(٢) المصدر نفسه، الدستور، ص١٩٦٠.

الحياة، أما أن يكون شريعة فيها فلا، إلا ما يتعلق بالزواج والطلاق والميراث واسمه: أحوال شخصية. أما في بقية جوانب الحياة فيقول:

«المادة٦٠ـ القوانين المدنية والجزائية والتجارية والبحرية والقوانين المتعلقة بالصحة العامة والتأليف والاختراع والمطبوعات والتعليم الرسمي والخصوصي والجمعيات والاجتماعات والشركات والمهاجرة والتأمين ووحدة المكاييل والمقاييس والموازين والنقود وقوانين العمال والقوانين التي تتعلق بالأمور الخاصة بالحكومة العامة تصدر من المؤتمر، وتكون نافذة الحكم في جميع المقاطعات»[١].

٤ . والتعليم بقوم على المبادئ الوطنية، ولا عجب فساطع الحصري فيلسوف القومية العربية العلماني اللاديني هو أول وزير للمعارف في الدولة السورية. وهو الذي استبدل القومية بالإسلام في مناهج التعليم كلها انطلاقاً من:

«المادة٢٠ـ يجب أن يكون أساس التعليم والتربية في المدارس الرسمية والخصوصية واحداً على أساس المبادئ الوطنية في جميع المقاطعات السورية»[٢]، وهو ما تعاني منه مناهجنا حتى اليوم في إبعاد الإسلام عن أن يكون منطلق المبادئ التعليمية، وجاء حكم البعث العربي الاشتراكي ليتابع الخط نفسه.

٥ . لسنا أمام دولة سورية واحدة، بل نحن أمام ولايات أو مقاطعات متحدة:

«المادة ٢٢ـ المقاطعات تدار على طريقة اللامركزية في إدارتها الداخلية ما عدا الأمور العامة التي تدخل في خصائص الحكومة العامة كما هو مصرح في مواد هذا القانون.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٠١ـ٢٠٢.

(٢) العهد الفيصلي للريماوي ص٢٦٣.

«المادة ٢٣ـ لكل مقاطعة مجلس نيابي يدقق ميزانية المقاطعة ويسن قوانينها ونظمها المحلية وفقاً لحاجتها ويراقب أعمال حكومتها، وليس له أن يسن قانوناً يخالف نص هذا القانون الأساسي ولا القوانين العامة المعطى حق وضعها للمؤتمر»[١].

٦. هذا وقد ألغيت المادة الثالثة:

المادة ٣ـ اللغة الرسمية في جميع المملكة السورية هي اللغة العربية. إذ ذكر الأستاذ الحكيم «أن المؤتمر قد أقر القانون المذكور في القراءة الأولى بمجمله، ولكن بناء على اشتداد الأزمة بين سورية وفرنسا إثر إنذار الجنرال غورو في ١٤تموز١٩٢٠، لم يستطع أن يناقش في القراءة الثانية سوى المواد السبع الأولى. وقد طوى المؤتمر في هذه المناقشة المادة الثالثة لورود ما في معناها في فصل المقاطعات، وبذلك أصبح القانون عبارة عن ١٤٧ مادة وهذا نصه وهذه أسبابه الموجبة»[٢].

وليس في الفصل الحادي عشر ـ في المقاطعات ـ أية إشارة مباشرة لذلك، أو غير مباشرة.

من المُلك للطرد:

في ٣ مايو١٩٢٠ تشكلت حكومة ائتلافية من جميع الأحزاب لمواجهة الضغوط الفرنسية الرهيبة على الملك والحكومة برئاسة هاشم الأتاسي، وبقي ساطع الحصري على ما هو عليه وزيراً للمعارف، ودخل عبد الرحمن الشهبندر وزيراً للخارجية، ويوسف العظمة وزيراً للحربية. وحاولت السلطات الفرنسية

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه، المقدمة، ص١٩٤.

نقل جنودها إلى شمالي سورية بحجة مقاومة العصابات التركية في العهد الكمالي، ولكن رجال الهيئات والأحزاب رفضوا ذلك.. وبالرغم من ذلك فقد أخذ فيصل وحكومته يساومون على كيفية نقل الجنود مقابل بعض الشروط وتحقيقها من غورو، ومنها:

١. دفع حصة سورية من إيرادات الجمارك وفقاً لاتفاق حيفا، وهي ٥٠ ألف جنيه مصري عن حيفا، ومثلها عن بيروت وطرابلس تدفع شهرياً.

٢. الاعتراف باستقلال سورية.

ولكن غورو رفض رفضاً باتاً، كما أُعلن رفض الحكومة لطلبات غورو. فوجه غورو إنذاراً شفهياً، ثم إنذاراً كتابياً في ١٤تموز١٩٢٠، وكان إنذاراً مطولاً، أهم ما فيه منا شدة فيصل بأن لا يسير بمعالجة القضية برأي حكومته التي لا تمثل إلا الأحزاب المتطرفة، وينص الإنذار على ما يلي:

١- التصرف بسكة حديد رياق ـ حلب (وكانت الأخبار قد وصلت بأن القوات الفرنسية قد احتلته بتاريخ ١٢تموز).

٢- قبول الانتداب الفرنسي.

٣- قبول الورق السوري.

٤- تأديب المجرمين الذين كانوا أشد عداءً لفرنسا.

وحدد مهلة أربعة أيام لتنفيذه جملة، وإلا تطلق فرنسا يدها في البلاد، وهدد الحكومة بأن تبعة ما سيحدث يقع على عاتقها فقط، وسرعان ما تناقلت الأنباء أن الحكومة قبلت الإنذار وتعهدت بتنفيذه، فاعتبرها المؤتمر غير شرعية، فكان رد الحكومة على هذا القرار التاريخي للمؤتمر السوري وتصميمه على الدفاع سيئاً للغاية، حيث بدأت الحكومة بتنفيذ مواد الإنذار. وأول عمل قامت به تسريح

الجيش السوري المدرب، وأمرت برفع التحصينات الأمامية من مجدل عنجر. وأرسل الملك والحكومة وزير الحربية ليبلغ المؤتمر مرسوم الملك بوقف جلسات المجلس وتأجيله مدة شهرين، وطلب من الأعضاء الانصراف. ورغم المحاولات التي بذلتها الحكومة لحقن الدماء، وتعرضها لسخط الشعب بقبولها الإنذار، فوجئت البلاد بزحف القوات الفرنسية نحو دمشق في ٢١تموز. لقد كان رجال الأحزاب والهيئات والجمعيات في دمشق أبعد نظراً من الملك وحكومته عندما أكدوا أن فرنسا مصممة على احتلال البلاد. وتأكد فيصل من هذا، وحاول إصلاح خطته بإعلانه الجهاد، ولكن الجيش النظامي المدرب كان قد سُرِّح، وصدمته الحقيقة بأنه المسؤول الأول عن إضاعة فرصة المقاومة. وزار الملك فيصل وزارة الحربية، وكلَّم جموع المتطوعة، وحثهم على الجهاد، كما استدعى زعيم اللجنة الوطنية الشيخ كامل القصاب وخاطبه قائلاً: لقد نزلت أنا وحكومتي على الرغبة التي طالما ناديتم بها لمقابلة العدوان بالقوة. وقبلت قولكم بأن القوى الوطنية مستمرة للاضطلاع بتلك المهمة، فهيا أرنا همتك وبالله التوفيق.

ومن أهم الصور التي سجلها وخلَّدها تاريخ سورية الحديث، منظر البطل الشاب يوسف العظمة، وقد دخل على رفاقه من رجال حزب العربية الفتاة، وأوصاهم خيراً بابنته الوحيدة، وعندما حاولوا ثنيه عن عزمه قال: إني أدافع عن بلادي وعن شرفي العسكري، لقد ناديت بالدفاع، وسأموت في أرض المعركة.

وكان يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ هو اليوم الفاصل بين قوى الغدر والخيانة، وبين قوى الدول العربية الفتية التي ما كادت تلمع في أفق الحياة العربية محققة آمال هذا الشعب المناضل حتى حكمتها جيوش فرنسة بعددها وعددها داخلة دمشق على جثث المناضلين الأبطال، وفي مقدمتهم وزير الحربية الشاب القائد يوسف العظمة.

وأصدر الجنرال غوابيه قائد الحملة الفرنسية الكتاب الذي جرد الملك من كل سلطة للحكم، وكان نص الكتاب الذي يحمل تاريخ ٢٧ تموز على الشكل التالي: أتشرف بإبلاغ سموكم الملكي قرار الحكومة الفرنسية، وهي أنها ترجو منكم مغادرة دمشق بأسرع وقت مستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وبطانتكم، وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص ببرج محطة الحجاز بدمشق غداً ٢٨ يوليو الساعة الخامسة صباحاً. والحقيقة أن الملك فضل الخروج مساء ذلك اليوم ولم ينتظر للصباح[١].

وهكذا طويت أول صفحات القومية العربية البديلة عن الإسلام، والثقة بأعداء الإسلام، «فقد كشفت الأيام أن إحلال الجيوش الفرنسية محل الجيوش البريطانية في سورية الداخلية في (أرض العدو المحتلة) كان معداً منذ ٥ فبراير/شباط ١٩١٩ من قبل هيئة أركان حرب الحلفاء، لكن تنفيذه قد عُلّق بانتظار أن تحشر فرنسا مائة ألف جندي، وهو العدد الذي قدّر لها لاحتلال سوريا والصمود في وجه أولئك المشاغبين من الفيصليين»[٢]. وراح هؤلاء الغلاة الاستعماريون يربطون دخولهم إلى سورية بالوجود الفرنسي في سورية أيام الصليبيين، ويعملون مااستطاعوا على إنهاء أمجادها، بل ويتفاخرون بمواقفهم الطائفية عام١٨٦٠[٣].

(١) مقتطفات من الحكم الحزبي في سورية أيام العهد الفيصلي لـد. سهيلة الريماوي، ص ٢٢٤-٢٣٧.

(٢) تطور الحركة الوطنية في سورية ١٩٢٠-١٩٣٩ لـ د.ذوقان قرقوط، ص٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٨.

فرض الاحتلال

تكشف دراسة تنفيذ الانتداب عن الفارق الكبير بين ما كانت تصوغه ثقافة فرنسا ودعاياتها في الأذهان من مبادئ وقيم وأمانٍ، وما حققه في الواقع قادتها العسكريون، وسياسيوها المتشبعون بعقلية القرن التاسع عشر الاستعمارية، وبروح العداء التاريخي الصليبي[1]. فقد حدد الجنرال غوابيه باسم الجنرال غورو المعونة التي ستتلقاها حكومة الدروبي، وهي الحكومة التي أوكل إليها فيصل أعباء الحكم وهو يهم بمغادرة البلاد بالشروط التالية:

١- أن تأخذ على عاتقها تقديم غرامة حربية قدرها مائتا ألف دينار من الذهب.

٢- أن تعاقب المجرمين المتذرعين بذريعة الوطنية، وتجازي الذين أعانوهم، وتسقطهم من الحقوق المدنية في حالة فرارهم وتصادر أملاكهم.

٣- أن تدرس المسائل التي تتعلق بالأهلين أو التي لها مساس بمستقبل البلاد مع رئيس البعثة الفرنسية الكولونيل تولان، وتعرضها بعد ذلك عليه.

٤- أن تخفض الجيش، وتجعله قوة أمن تقوم بصيانة السكينة، ويكون الكولونيل بتلا رئيس أركان الحرب في جيش المشرق مرجع أموره، يحلها بالاتفاق مع وزير الحربية.

ثم أعلن أن البلدة مشتركة في المسؤولية في كل ما يقع، وأنه سيقمع العمل

---

(١) تطور الحركة الوطنية في سورية لـ د.قرقوط ٣٦و٣٨.

العدائي بأقصى الشدة»[1].

تمزيق سورية لدول طائفية:

بعد إعلان الاحتلال، وإعلان تبعية الوزارة للمفوض السامي الفرنسي وتحدي مشاعر الشعب السوري المسلم، كانت الخطوة الأولى والأخطر هو تمزيق سورية إلى دويلات طائفية، وكانت الخطوة الأولى في هذا الصدد قرار غورو في ٣١ أغسطس ـ آب ١٩٢٠ بتحديد دولة لبنان الكبير، وتحقيقاً لما توخاه القرار من توفير الحد الأدنى من مقومات الوجود لهذه الدولة، دمج (جبل لبنان القديم) مع لواء بيروت المؤلف من أقضية صيدا وصور ومرجعيون، وضم أربعة أقضية إليه من جهة الشرق هي بعلبك وحاصبيا وراشيا والبقاع.. وبدافع الحرص على بقاء أكثرية مسيحية مسيطرة في لبنان من جهة، وعلى عدم تمكين دولة دمشق من تطويق لبنان من جهة أخرى أبقى غورو منطقة طرابلس التي تعتبر منفذها إلى البحر من ناحية حمص ـ حماة معلقة لم يبت في أمرها، وجعلها موضوعاً للمساومة. وفي اليوم الذي حدد فيه دولة لبنان الكبير (الدولة المسيحية) أصدر غورو قراراً بتحديد بلاد العلويين وإنشاء دولة فيها (دولة علوية)، وقراراً بضم مصياف إليها باعتبار معظم أهاليه من العلويين.. واتخذ قراراً بتاريخ أيلول/ سبتمبر بجعل ولاية حلب حكومة مستقلة مع بقاء لواء إسكندرونة جزءاً منها، وكانت دولة الدروز هي الدولة المستقلة الرابعة التي أنشأها الفرنسيون تنفيذاً كما قيل للرغبات التي أبدتها مؤتمرات درزية عقدت برئاسة الزعماء الروحيين لتقرير مصير الجبل.. أما الدولة الخامسة التي يمكن إضافتها إلى هذه الدول الأربع فهي (دولة البدو) التي ابتدع الفرنسيون مصلحة خاصة بها. يدير جميع هذه الدول

---

(١) تطور الحركة الوطنية في سورية لـ د.قرقوط ٣٦و٣٨.

مندوبون فرنسيون مفرزون إليها من قبل المفوض السامي بواسطة موظفين ثانويين شبه أميين[1].

المقاومة المسلحة

كان رد الفعل الشعبي سريعاً، إذا اشتعلت الثورة في جبل الزاوية على يد إبراهيم هنانو حيث عقد صفقة مع مصطفى كمال، وشاركه أربعة ضباط من قبله بالثورة ضد الفرنسيين والإمداد بالأسلحة. كما اشتعلت الثورة في جنوبي البلاد عندما اعترضوا موكب الجنرال غورو وهو في طريقه إلى حضور مأدبة غداء في حزيران (يونيو) ١٩٢١، فأطلقوا النار على سيارته فقتلوا مرافقه وأصيب حقي العظم، فألقت السلطات الفرنسية القبض على أدهم خنجر الذي التجأ إلى جبل الدروز، فكانت بداية الاحتكاك بين الدروز والفرنسيين: أما الاصطدام مع الحكومة العميلة فقد وقع بعد أقل من شهر من معركة ميسلون. «فقد أطلقت النار في ٢١آب/أغسطس. سنة ١٩٢٠ على علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء وعبد الرحمن اليوسف.. في منطقة حوران، ولقي الوزيران مصرعهما على أيدي المناضلين، ولقد هز هذا الحادث أرجاء فرنسا نفسها، وكان له أسوأ الأثر على نفسية غورو.

وفي شهر آب/أغسطس سنة ١٩٢٠ عين الجنرال غورو السيد حقي العظم حاكماً لمدينة دمشق، وقسم البلاد إلى دويلات. وأخذت القيادات الثورية في الأردن تنظم بعض الحملات الصغيرة لنسف الأماكن والثكنات العسكرية في داخل البلاد. وكان من أشهرها نسف حي باب السريجة في قلب العاصمة دمشق وبعض الثكنات العسكرية الأخرى، وفي الشمال تجددت ثورة العلويين بقيادة

---

(١) المصدر نفسه بتصرف، ص ٣٩-٤٠.

صالح العلي.. كما أن ثورة حلب قويت وسيطرت على الموقف بعد أن تفرغ لها إبراهيم هنانو فأصبحت أكثر شعبية وأقوى مركزاً»[١].

وإذا كانت الفورة في الحركات المسلحة لمقاومة الفرنسيين قد سكنت بعد هذه الهبَّة، إلا أن العصابات التي أطلق عليها الفرنسيون اسم قطاع الطرق لم تتوقف، فقد سجَّل القائمون بها بطولات إنسانية ما زال الأهالي يتناقلون قصصها ويروون سجاياها لأولادهم، ففي وادي الحرير، ووادي القرن عقدتي المواصلات بين دمشق وبيروت، اشتهرت أكثر من عصابة باسم قائدها (ملحم قاسم) أو (فؤاد علامة)، وفي قضاء القنيطرة اشتهرت عصابة (شريف البعلبكي)، كما اشتهرت عصابات جديدة في جبال اللاذقية وجسر الشغور وحارم وإدلب. كان من رجالها كثيراً ما يسلبون كبار الموظفين الفرنسيين، ويوزعون ما سلبوه على الفقراء في المنطقة كما حدث لمدير مالية المفوضية العليا، وقد انتزع منه حذاؤه وبعض ألبسته، وأرغم على السير حافياً على قدميه.. مما كان يضطر السلطات الفرنسية إلى أن تبقي مفارز كاملة في حالة تأهب دائم لمطاردة هذه العصابات في مناطق عديدة متفرقة في أنحاء سورية، وكانت هذه العصابات تتوارى وتندمج بالأهالي. ويغيب ذكرها أحياناً، ثم تظهر فجأة في قلب المدن الكبرى كدمشق وحلب، وبأعداد تزيد عن الثلاثين شخصاً، مزودين بالقنابل والبنادق، فيسطون على المخافر، ويسلبونها أسلحتها ومعداتها، ويكبلون أفرادها. فكان على الفرنسيين أن يحشدوا سبعين ألفاً من جيوشهم ليستطيعوا ضبط تلك الحركات المتفجرة[٢].

---

(١) الحكم الحزبي في سورية، فترة الانتداب الفرنسي للدكتورة سهيلة الريماوي، ص١٧٥.

(٢) تطور الحركة الوطنية لقرقوط، ص٥٢.

وقيل نقلاً عن تصريح للجنرال ساراي: إن سوريا شهدت سنة ١٩٢٢ وحدها خمساً وثلاثين ثورة دفن فيها من الجيش الفرنسي خمسة آلاف جندي، وجعلت من الانتداب حملاً من الأشواك على عاتق فرنسا»[١].

المقاومة السياسية:

كانت أهم الأحزاب التي حملت راية الكفاح السياسي:

١-**حزب الاتحاد السوري وحزب الاستقلال**. أما حزب الاتحاد السوري فكان مركزه القاهرة، وأولى الدفاع عن القضية السورية في المحافل الدولية الاهتمام الأول، ودعا إلى مؤتمر للأحزاب السورية كلها في جنيف، وعقد المؤتمر في جنيف في ٢٥ آب/أغسطس سنة ١٩٢١ برئاسة الأمير ميشيل لطف الله، وشكل لجنة تنفيذية من ممثلي الأحزاب، حيث كان الشيخ رشيد رضا وكيلاً للرئيس مع ثلاثة آخرين، وعرض مطالب الشعب السوري من خلال خمسة مطالب وهي:

١. الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريا ولبنان وفلسطين.
٢. الاعتراف بحق هذه البلاد في أن تتحد معاً في حكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخبه الشعب.
٣. أن تتحد مع باقي البلاد العربية المستقلة في شكل (دويلات متحدة) وإعلان إلغاء الانتداب حالاً.
٤. جلاء الجيوش الأجنبية عن سورية وفلسطين ولبنان، وإلغاء وعد بلفور.

---

(١) المصدر نفسه ص٥١.

٥. أن ترسل عصبة الأمم لجنة لمعرفة رغبات السكان[١].

وواضح بالنسبة لهذا الحزب النزعة القومية: بحيث لم يحصر آماله في توحيد سورية وتحريرها، بينما بقيت النظرة الوطنية في الطرف الآخر هي المسيطرة. وإن كانت لجنة كراين عندما قدمت والتقت بالجماهير السورية في ٢إبريل/نيسان١٩٢٢، لخص خالد الحكيم مطالب الشعب بـ.

١- الاستقلال. ٢- وحدة سوريا في حلف عربي. ٣- ترك البت في أمر الخلافة للمسلمين.

وجرى على إثر ذلك اعتقالات ونفي لكبار الزعماء السوريين من خلال تطبيق الأحكام العرفية.

٢- **حزب الاستقلال** الذي أعاد تشكيله بعد أن سمح الجنرال ساراي المفوض الفرنسي الجديد بتشكيل الأحزاب لتكون نواة لنشاط سياسي يقود إلى جمعية تأسيسية، وكانت المحاور الأساسية لنشاطه هي استقلال سورية ووحدتها على الشكل الذي أعلنه في برنامجه، وقد أعلن في دستوره ونظامه الداخلي بأنه لا يلجأ إلا إلى الأساليب المشروعة لتحقيق طموحاته، وقد حصل على موافقة المفوض السامي على برنامج ونظامه الداخلي.

ونظم حزب الشعب وقاد مظاهرة شعبية ضخمة في شهر مايو ١٩٢٥، وذلك قبل افتتاحه الرسمي في ٥ حزيران ١٩٢٥ وذلك عندما زار (بونه) النائب في البرلمان الفرنسي مدينة دمشق ليبحث مع المفوض السامي وضع دستور لسوريا عملاً بصك الانتداب، فخرجت الجماهير الشعبية، وعمت المظاهرات أنحاء العاصمة، وتشكلت بعض الوفود لمقابلة النائب الفرنسي تحمل العرائض الموقعة

---

(١) الحكم الحزبي في سورية، فترة الانتداب الفرنسي، ص ١٩٤.

من الأهالي احتجاجاً على اللجنة التي ألفتها وزارة الخارجية الفرنسية لوضع الدستور، وطالبت العرائض بتحقيق رغبة الشعب السوري بتشكيل جمعية وطنية تأسيسية يعهد إليها بوضع الدستور وتحقيق الوحدة السورية[١]. علماً بأن المفوض السامي أمام غضب الجماهير كان قد أصدر قراراً بتوحيد دولتي دمشق وحلب، واختيار السيد صبحي بركات رئيساً للدولة السورية.

قصة الثورة السورية الكبرى: ١٩٢٥-١٩٢٧:

الأسباب القريبة لهذه الثورة كما حددها د. شهبندر هي ما لجأ إليه الفرنسيون من بذر بذور الشقاق بين الطائفة الدرزية في الجبل بعد وفاة الأمير سليم الأطرش، وما مارسوه من أعمال القهر والظلم والكبت ضد الفريق الوطني.. أما سكرتير حزب الشعب فيشير إلى أن العامل لقيام الثورة السورية هو الجنرال ساراي نفسه، ويعلل ذلك بأن الدروز لم يثوروا أيام حكم كارابيه، وشكاياتهم الرسمية كانت تنحصر باستبدال هذا الحاكم الفرنسي. وفي رأي حسن الحكيم أن سراي لو استبدل هذا الحاكم بغيره لما حدث ما حدث.. ولا شك أن رأي سلطان باشا الأطرش في سبب انفجار الثورة السورية له قيمته الكبرى.. فيقول: لقد أوقدنا نار هذه الثورة الاستقلالية بعد أن رزحت البلاد تحت كابوس الاستعمار أعواماً خمسة ثقالاً، ولسنا بتاركين من أيدينا السلاح، ولا باغين من الفرنسيين سلماً أو اصطلاحاً حتى نبلغ بحد الحسام تمام المراد، وهو تخليص كافة البلاد السورية العزيزة من احتلال المحتلين[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) الحكم الحزبي في سورية، فترة الانتداب للدكتورة الريماوي، ص٢١٠-٢١١.

الشيخ بدر الدين يشعل الثورة:

لقدكان الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله موقد شرارة هذه الثورة وموجه قادتها، وقد أرخ لدوره فيها الأستاذ محمد رياض المالح، حيث يقول: «لقد رحل مولانا المحدث الأكبر ضمن المدن الشامية حاثاً على الثورة ضد الفرنسيين فما كاد يعود من رحلته حتى هبت الثورة السورية في جميع أنحاء البلاد. وكان لشدة هذه الثورة ما أقلق حكومة باريس. وهاهي جريدة الأحرار تنشر في العدد ٦٧٨ السنة الرابعة، شعبان سنة ١٣٤٥هـ نص التقرير للمندوب السامي الفرنسي يفيد بأن رحلة مولانا المحدث الأكبر هي الداعية إلى الثورة. وقد قدَّم هذا التقرير كشكوى من الحكومة الفرنسية إلى عصبة الأمم تشكو من أثر مولانا المحدث الأكبر على نشاط الثوار، وأنه هو المغذي الحقيقي للثورة مادياً ومعنوياً، وأن أثره في البلاد هو الذي فجر الثورة[1]».

وقد ساق الأستاذ المالح تعداداً للمقالات التي نشرت في الجرائد السورية عن جولته هذه التي امتدت من دمشق إلى حمص بتاريخ ٧حزيران/يونيو١٩٢٥، ثم حماة بتاريخ ١١ حزيران، وتاريخ ٢٨ حزيران حيث وصل إلى حلب، و ٧ تموز حيث زار إدلب، ثم بعلبك في ١٧تموز، وبيروت في ١٨ تموز، ثم وصوله إلى مشارف الشام في ١٩ تموز وإشراف مدير الشرطة العامة بنفسه على تنظيم الناس لاستقبال المحدث الأكبر، ثم يقول بعدها:

«وبعد عودة مولانا المحدث الأكبر من هذه الرحلة، اندلعت الثورة السورية من أقصى البلاد حتى أدناها، وهب الفرنسيون بقواتهم المدججة يضربون دمشق، ويحرقون أكثر البيوت، وثارت المظاهرات في الوطن العربي تأييداً للشعب

---

(١) عالم الأمة. بدر الدين الحسني للأستاذ محمد رياض المالح/٢٩٢،٣٠٣ باختصار.

السوري، واجتمعت لجنة لمناصرة سورية في القاهرة، وألقى أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدته المشهورة:

سـلامٌ مـن صـبا بـردى أرقُّ ودمـع لا يكفكـف يـا دمشـق

وأجابه المرحوم الزركلي بقصيدته المشهورة:

الأهـل أهلـي والديـار ديـاري وشـعار وادي النيـربين شـعاري

وهنا قام الثوار بتهديد القوات الفرنسية بأنه إذا لم توقف السلطات الفرنسية ضرب دمشق. فإنهم سيقتحمون دمشق ويأخذون مولانا المحدث الأكبر بالقوة ويبايعونه بالخلافة الإسلامية، ويدعون جميع مسلمي الأرض إلى الجهاد المقدس تحت لوائه[1]، وستكون دمشق مقبرة للفرنسيين. وقد ألمحت لذلك بعض الجرائد كجريدة الرأي العام البيروتية في ١٧ شباط ١٩٢٦ وجريدة الأحرار.

وأكد العلامة علي الطنطاوي، رحمه الله في مذكراته هذا المعنى بقوله:

«وكانت هذه الجولة هي الشرارة التي أشعلت الثورة، لا أقول هذا من عندي، ولا نقلاً عن الثقات العارفين مشايخي وصحبي، كلهم يعرف هذا، ويعرفه كل من أدرك تلك الأيام، ولكن أنقله عن تقرير رسمي لمندوب المفوض السامي الفرنسي، نشرته جريدة الأحرار في بيروت العدد ٦٧٨ الصادر في الثاني من شعبان ١٣٥٤هـ. فقد بدأت الثورة عقب عودة الشيخ من حلب.

قال الشيخ محمد في مذكراته وقد وضعت كلامه كما كتبه بين قوسين (وصار تشكيل جماعات لأجل أن تقوم البلاد بمساعدة بعضها البعض على

---

(١) عالم الأمة. بدر الدين الحسيني للأستاذ محمد رياض المالح، ص٢٩٢-٣٠٣ باختصار.

الفرنسيين. وأنا العبد الفقير، كانت وظيفتي أن أحمل مصحف وخنجر، ونحلف الناس، والله حلَّفت مقدار أربعة آلاف من صنف الزكرتية، والرجال المشهورة، مثل ديب الشيخ، وأبو شاكر القلعجي من العمارة، ومن الشاغور حسن الخراط. وأبو حامد الفحل، وأبو عنتر.. ومن الميدان أبو كمال عرار، و... ومن سوق ساروجا عبد الوهاب الرجلة والأغواني.. ومن حارة الأكراد أبو داود الشيخاني وأبو عمر ديبو..).

هؤلاء الذي سماهم وأمثالهم فتوات الأحياء كما يقال في مصر أو القبضايات. (وندعوهم نحن الزكرتية) والأولون منهم كانت لهم مزايا الفرسان، ينجدون الضعيف، ويمنعون الظلم، ويحمون أعراض النساء»[1].

وكانت مهمة حزب الشعب الذي تشكل حديثاً أن ينسق مع الدروز لتكون الثورة عامة، بعد اشتداد الأزمة في الجبل، وكان للدكتور عبد الرحمن الشهبندر زعيم الحزب الدور الأول في ذلك.

بداية الثورة

وما كاد ينقضي يومان على معركة الكفر، أي في ٢٣ تموز/يوليو١٩٢٥ حتى كان رسول سلطان الأطرش الضابط محمد كيوان في طريقه إلى دمشق يحمل رسائله إلى رجالها، وعلى رأسهم نسيب البكري والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وقد عقد الاجتماع للتداول في القابون.. ومع أن حزب الشعب كان منذ أيام قد اختار في اجتماعاته أن يسلك سبيل الدعوة إلى الثورة الفكرية، فإن الحماس بلغ مداه عندما سألهم الدكتور شهبندر رأيهم من جديد في الأمر، فأجابوا أنهم مستعدون جميعاً للموت في سبيل الوطن، وأنهم يرون الاشتراك بالثورة

---

(١) ذكريات الشيخ علي الطنطاوي ١/٢١٩.٢٢١ باختصار.

والالتحاق بها في الجبل لتكون المخابرات باسم سورية عموماً.. كذلك يستدل من الضبوط التي نظمت بشأن المظاهرات التي قامت بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف، اشترك بها مسيحيون ومسلمون، تهتف لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الفرنساوي عدو الله، يا ساراي ارحل عنا، ثم أحيلت إلى المجلس العدلي، وصدرت فيها الأحكام على المتهمين بالاعتقال لمدة عشر سنوات، أن تلك المظاهرات لم تكن إلا تعبئة للثورة والفرق الثائرة[1].

الثورة في الذروة:

الحلقة المفقودة: لقد بقي الخط الوطني في كل كتاباته عن سورية يتجاهل الدور الإسلامي في الثورة، ويعيدها كلها إلى القادة الوطنيين، حتى جاءت الكتابات عن عالم الأمة الشيخ بدر الدين الحسني، وأسندت إليه رحمه الله تفجير الثورة كما ذكرنا من قبل . وبقي خط الصلة بين هذين التيارين مفقوداً حتى صدرت سيرة المجاهد الشيخ محمد الأشمر رحمه الله، وقدمت الحلقة المفقودة بين هذين التيارين .

بداية الانحسار:

وهب الناس يتسابقون لئلا يفوتهم شرف الاشتراك في الثورة وهي في أوج انتصاراتها وذروة الحماس لها، إلا أنها ما أن أخذت تمنى بالخسائر والانكسارات حتى عادت علاقات الواقع المتخلف القديم بين الناس بإحنها وثاراتها ومنافساتها العشائرية وطمع بالغنائم إلى الظهور، وفي المدن_ وخاصة منها دمشق_ انساقت البورجوازية وكبار الملاك مع اندفاع الجماهير إلى الثورة وانفعالها بتيارها في بدايتها، ولكن بعدما عجزت الثورة عن السيطرة على دمشق،

---

(١) ذكريات الشيخ علي الطنطاوي١/٢١٩ـ٢٢١ باختصار.

وبعد أن ألحق الفرنسيون خسائر فادحة ببيوتات دمشق الكبرى من جراء الحرائق والتهديم، وإطلاق الجنود بالنهب... وبادر دي جوفنيل في اليوم التالي لصدور تعيينه (كمفوض سام بدل ساراي) إلى تحديد مهمته فرأى: أن يعمل جاهداً على تهدئة أحوال سورية وتنظيمها وفقاً للانتداب الذي قبلته فرنسا من أجل تحضير سوريا ومنح الشعوب السورية العدالة والحرية والازدهار.. وعلى الرغم من أن تصريحات دي جوفنيل كانت واضحة المخالفة لمبادئ الثورة، فقد تقدمت هيئات متعددة للاتصال به[1].

ولعل ما جاء في استقالة رئيس الحكومة السورية صبحي بركات عشية الموعد المضروب من قبل المفوض السامي لاستقبال وفد دمشق في بيروت حاملاً إليه المطالب الوطنية يعتبر من شخص تركي الأصل، غير متطرف للقومية العربية، ربط مصيره بسوريا وبالانتداب الفرنسي فيها أهم وثيقة موضوعية تحكم بصحة المطالب الوطنية، وذلك في ٢٢ ديسمبر كانون الأول ١٩٢٥، وقد جاء فيها قوله: ولا بد لي وأنا في الساعة الأخيرة من الحكم أن ألفت نظركم إلى أن هذه البلاد لا يستقر قرارها الحقيقي ولا تعود إليها أمانيها وطمأنينتها إلا إذا أجيبت إلى مطالبها العادلة مثل تأليف مجلس تأسيسي يضع قانونها الأساسي على أساس السيادة القومية، وإنشاء حكومة دستورية تكون وحدها مسؤولة عن سياسة البلاد.. أما المسألة ذات العقد الكثيرة وهي مسألة الوحدة السورية بين الحكومات التي تؤلف الدولة السورية وجبل الدروز وبلاد العلويين من جانب، والبلاد التي أضيفت إلى لبنان من جانب، فإن حلها يحتاج إلى إقدام وبعد نظر.. لأن الوطنيين السوريين، يعتبرون أن في بلادهم وحدة حقيقية في العادات

---

(١) تطور الحركة الوطنية لـ. د. قرقوط ص ٧٣، و٧٤.

والتقاليد والآمال والآلام والعنصر واللغة[1].

وأثناء تلك الفترة ـ فترة السنوات الثمان ـ حكم التطرف علاقات ومواقف الجانبين السوري الفرنسي على سواء. فمنذ البداية، رفض السوريون انتداب فرنسا، وأبوا الاعتراف به شكلاً وأساساً، أو أن يذعنوا لأحكامه كلاً أو بعضاً، واعتبروا الوجود الفرنسي بقوة الاحتلال، وعبرت البلاد عن ذلك بسلسلة متصلة من الحركات والانتفاضات والمواقف، كانت ثورة ١٩٢٥ تتويجاً لها. وبالمقابل فإن السلطات الفرنسية سلكت مسلك المحتل على أعنف شكل، ثم راحت تقسم البلاد وتنمي الفوارق الطبقية والإقليمية، وتعمل على خلق زعامات مرتبطة بها... فثمة قطاع من الفرنسيين كانوا قد استقر في عقولهم بتأثير أفكار ذلك القرن أن العرب وافدون على بلاد سورية، وأنهم إذا كانوا فرضوا بالقوة على السوريين دينهم ولغتهم، فإنهم لم يغيروا من أصل هؤلاء السوريين أكثر مما غيّر الحلفاء في الغرب من أصل الإسبان الذين أسلموا، ذلك أن مسلمي سورية هم في الغالب سوريون. ومن هذا الجانب أو ذاك ما لبثت المواقف أن تعدلت في أعقاب الثورة السورية، صحيح أن المفوض السامي لم يعترف بسياسته بوحدة الثورة، وبالتالي بالوحدة السورية، إلا أنه بات من الواضح أن السياسة التي يتبناها دي جوفنيل منذ عام ١٩٢٦ ليضع حداً للصعوبات التي يواجهها في سورية ترتكز على مبدأين أساسيين:

١- انتخاب جمعية تأسيسية.

٢- عقد معاهدة من شأنها تنظيم العلاقات بين الدول السورية والدولة المنتدبة في إطار الانتداب.

---

(١) الوثائق التاريخية لـ. حسن الحكيم، ص ٣٨٩-٣٩٠.

وجوهر التعديل في موقف السوريين أنهم بعد أن كانوا يستندون إلى المادة ٢٢ من صك عصبة الأمم على أنه «يجب قبل كل شيء أن تراعى أماني تلك الجماعات في انتخاب الحكومات المنتدبة» ليرفضوا الانتداب الفرنسي بالمطالبة بغيره، أصبحوا يطلبون بشكل أو بآخر عقد معاهدة تنظم العلاقة بين سورية وفرنسا، أو بمعنى آخر تعطي للانتداب للعلاقة بفرنسا قوية كانت أو ضعيفة صفتها الشرعية، لا تختلف في هذا في الحقيقة فئة من السوريين عن الأخرى، وجه الاختلاف صار في الفروق والتفاصيل وفي الأسلوب لا في الجوهر، وتساوى الجميع: مؤيدو الانتداب والوطنيون المتطرفون في المطالبة بالدستور والمعاهدة، واختلفوا في مدى التنازلات.

الكتلة الوطنية:

بعد أن قدَّم السيد صبحي بركات في ٢١ كانون أول/١٩٢٥ استقالته من رئاسة الحكومة دعا المندوب الفرنسي الشيخ تاج الدين الحسني[1] في ٢٤ منه لتأليف حكومة جديدة. فقبل السيد الحسيني المهمة مبدئياً ولكنه أبى أن يتسلم الحكم إلا على أساس برنامج وطني يحقق للبلاد ما تصبو إليه من استقلال وسيادة، وقد وضع لذلك برنامجاً واسع النطاق مشترطاً على الفرنسيين قبوله، وقد دارت بينه وبين المندوب الفرنسي مفاوضات بهذا الشأن استمرت خمسة عشر يوماً بعد أن رفض المندوب قبول برنامجه الوطني، بعد أن أصر الشيخ على عدم الاضطلاع بالحكم إلا إذا قبل البرنامج المذكور، وهذا نصه:

---

(١) تاج الدين الحسني هو ابن علامة الشام الشيخ محمد بدر الدين الحسني «ومن هذا البيت العريق والتربية الأخلاقية أصبح تاج الدين الحسني من الأشخاص الأذكياء وذوي الفطنة وحضور الذهن، ومعرفة تامة بالعلوم الدينية، وبرع بها وهو في سن مبكرة، ففي سن العشرين من عمره عين أستاذاً للعلوم الدينية في المدرسة الثانوية، ثم دخل المعترك السياسي فانتخب نائباً عن دمشق في المؤتمر السوري عام ١٩١٩، ثم انتقاه الملك فيصل الأول بن الحسين وعينه مديراً عاماً لشؤون القصر الملكي، وبعد زوال الحكم الفيصلي عين عضواً في مجلس الشورى (هذا وقد درس الحقوق وتعرف على الجوانب القانونية والسياسية) ثم عضواً في محكمة التمييز، وفي عام ١٩٢٥ رشحه المفوض السامي الفرنسي هنري دي جوفنيل لرئاسة الدولة السورية، فاشترط عليه أن يعلن نهاية الانتداب على سورية وتوقيع معاهدة في ذلك، كما طلب موافقة زعماء الكتلة على هذا التكليف، ولكن رفض الزعماء هذا التكليف ولم يقبلوا التعاون معه، ومنذ ذلك التاريخ حمل الشيخ تاج في نفسه على الوطنيين باعتباره ابن مدينة دمشق، وابن عائلة كبيرة معروفة بينما قبل الزعماء التعاون مع الداماد أحمد نامي- وهو شركسي من مدينة أنطاكية- عندما كلف بمنصب رئاسة الدولة. ثم قام الشيخ تاج برحلة إلى فرنسا، وتعرف على كبار المسؤولين فيها، وأصبح له مكانة عالية في نفوسهم (انظر الشرق الأوسط العدد ٧٢٣٦، ١٩٩٨/٩/٢٠. مقال الصحفي السوري مطيع النونو.

أقدمت الوزارة الحاضرة على تقلد أمور البلاد وهي عالمة بثقل المهمة الملقاة على عاتقها في هذه الأزمة الشديدة التي تحتم على كل وطني أن يبذل قصارى جهده لتحقيق رغائب الأمة، وإنقاذها من الأخطار التي تحيق بها من كل جانب، وستعمل على إيجاد طريقة حل يكون فيها مقنع ومرضاة للسوريين من غير أن تناقض المصالح الفرنسية الحقيقية، وستضع نصب عينيها تشييد أركان سلام دائم يرضى عنه جميع أبناء الوطن سواء حتى يتعاونوا على إنهاض البلاد من عثارها، وإقالتها من كبوتها، وتخليصها من الكوارث التي كادت أن تقوض أركانها وتهد بنيانها. وإننا نتحمل هذه الحالة برباطة جأش، ونخاطر في أنفسنا في سبيل الأمة وسلامة الوطن، ولكننا حبّاً في بلوغ الغاية المنشودة وتحقيقاً لرغائب الأمة، التي تسعى وراءها، لم نجد بداً من العمل على القواعد التالية[1] ...

---

(١) هذه القواعد هي:

١ -تحقيق الاستقلال بوضع قانون البلاد الأساسي على قاعدة السلطان القومي ودعوة مجلس تأسيسي البلاد السورية للقيام بهذا العمل.

٢ -تأليف دولة واحدة من سورية الحاضرة وجبل العلويين وجبل الدروز على أن تدار على قاعدة اللامركزية بحسب ما يقرره المجلس التأسيسي العام. واسترداد الأقضية الأربعة وهي البقاع وبعلبك وحاصيبا وراشيا التي كانت سلخت عن سورية سنة ١٩٢٠.

٣ -معاهدة تعقد بين فرنسا وسورية، ولا تكون نافذة إلا إذا أبرمها البرلمان السوري على شرط أن تكون مؤسسة على قاعدة السلطان القومي للسوريين مع حفظها لفرنسا في نفوذها السياسي والرجحان الاقتصادي.

٤ -دخول سورية في جمعية الأمم.

٥ -الجلاء التدريجي متى تشكلت في البلاد السورية قوى أمن كافية.

٦ -التعويض على منكوبي الثورة.

٧-إصلاح النظام الاجتماعي والنظام النقدي. انظر: صفحة من حياة الشهبندر لحسن الحكيم، ص٣٣٠-٣٣١.

ورفضت فرنسا برنامجه، ورفض الوطنيون أو الكتلة الوطنية التعامل معه، ولا تفسير لهذا الرفض إلا رفض أن يكون التيار الإسلامي في موقع القرار، إذ تعاونوا مع الداماد أحمد نامي، واشتركوا في وزارته التي تشكلت بعد وزارة الشيخ تاج الدين، وقد كان الداماد يمثل التيار الذي يدعو إلى الملكية الدستورية لا الجمهورية.

ولم تلبث الأنباء أن جاءت من فرنسا معلنة أن وزارة الخارجية الفرنسية رفضت التصديق على برنامج حكومة الداماد، وساد البلاد حكم عسكري مباشر، فسحب دي جوفنيل من سوريا، وتم تعيين بونسو مفوضاً سامياً في أواسط سنة ١٩٢٦، وتم ميلاد الكتلة الوطنية بعد مؤتمر عقد في بيروت من ١٩ـ٢٥ تشرين أول.

الحسني يقنع فرنسا بالانتخابات:

في ٨ فبراير ١٩٢٨ كلف الشيخ تاج الدين الحسني بتشكيل وزارة تشرف على الانتخابات، على أن يعقب ذلك معاهدة مع فرنسا. «وسعى مع الفرنسيين وأقنعهم بضرورة انتخاب جمعية تأسيسية تضع للبلاد دستورها، وعندما جرت الانتخابات في ٢٨ نيسان ١٩٢٨ من أجلها لم يقصر في السعي وراء إنجاح الوطنيين الذي سيطروا على الجمعية»[1]. وكان هذا هو المطلب الأول لرجال الكتلة. وجرت الانتخابات في ظل قائمة الكتلة الوطنية وقائمة الحكومة، وبالاتفاق مع زعماء الكتلة، وكان الشيخ تاج يتزعم القائمتين، وأطلق عليه في ذلك التاريخ تاج القائمتين. ونجح أقطاب الكتلة الوطنية في تلك الانتخابات، ونجح الحسني من قائمة الحكومة، وتم وضع الدستور، وكان هنانو رئيس لجنة

---

(١) صفحة من حياة الشهبندر لحسن الحكيم ص٣٣٠.

الدستور وفوزي الغزي مقرراً لها.

الدستور السوري:

وعندما حان موعد الجلسة الثانية عشرة كان مشروع الدستور الذي أعدته اللجنة قد أصبح جاهزاً للعرض على الجمعية التأسيسية، وكان يتألف من ١١٥ مادة. وفي الجلسة الثالثة عشرة طلب العضو نقولا جانجي أن تكون الدولة محايدة تجاه الأديان، أي (لاييك، لادينية)، وإن حصر رئاسة الجمهورية بدين معلوم قد قضى كثيراً على روح المادة السادسة التي تجعل السوريين متساوين في الحقوق المدنية والسياسية. فلم يكتف الوطنيون بجعل الدولة مدنية علمانية لا دين لها، بل استكثروا أن يكون دين رئيس الجمهورية الإسلام، فلم تخرج الجمعية التأسيسية هذه عن الذين وضعوا دستور ١٩٢٠، ولعل الكثير منهم كانوا هنا وهناك، فقضية التخلي عن الإسلام شريعة حياة كان سمة العهود الوطنية كلها. وهذه بعض المواد التي تؤكد ذلك.

المادة ٣ـ سورية جمهورية نيابية دين رئيسها الإسلام (وليس دين الدولة الإسلام) وعاصمتها مدينة دمشق. المادة ٦ـ السوريون لدى القانون سواء، وهم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف، ولا تمييز بينهم بسبب الدين أو المذهب أو الأصل أو اللغة.

المادة ١٥ـ حرية الاعتقاد مطلقة، وتحترم الدولة جميع المذاهب والأديان الموجودة في البلاد، وتكفل حرية القيام بجميع شعائر الأديان والعقائد، على أن لا يخل ذلك بالنظام العام ولا ينافي الآداب، وتضمن الدولة أيضاً للأهلين على اختلاف طوائفهم احترام مصالحهم الدينية وأحوالهم الشخصية.

المادة ٢٩ـ الأمة مصدر كل سلطة.

المادة ٣٠. السلطة التشريعية منوطة بمجلس النواب.

المادة ٣٣. لا ينشر قانون إلا بعد أن يقره مجلس النواب.

ولم يعد التشريع لله، إنما التشريع للشعب ممثلاً بمجلس النواب، لقد أقروا الإسلام عقيدة للمسلم وشعيرة للمسلم، أما أن يكون شريعة عامة للمسلم يحكم بها فهذه حظرت عليه ومنعت منه. ولا نستثني أحداً من هذه المسؤولية، إلا أن تكون هناك مناقشات لم تنقل لنا.

لقد حصر الخلاف في المجلس على الموقف من المواد الست التي اعترض عليها المفوض السامي. حيث كانت الحكومة وعلى رأسها الشيخ تاج الدين الحسني مع ستة نواب يرون قبول اعتراض المفوض السامي، وإلغاء هذه المواد من الدستور لينص عليها في معاهدة لاحقة. بينما كان الموقف العاطفي من المجلس هو رفض اعتراض المفوض السامي. وأمام هذا الرفض علَّق المفوض السامي جلسات المجلس، وتم تعطيل الدستور كله.

«وفي ١١كانون ثاني/يناير ١٩٢٩ دعا المفوض السامي زعيم الكتلة الوطنية وهو في الوقت نفسه رئيس الجمعية التأسيسية هاشم الأتاسي لمقابلته، وسلمه نصاً لمادة طلب إضافتها إلى مشروع الدستور لتكون المادة (١١٦) منه، ونصها: ما من حكم من أحكام هذا الدستور يعارض ولا يجوز أن يعارض التعهدات التي قطعتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسوريا، لا سيما ما كان منها متعلقاً بعصبة الأمم. ينطبق هذا التحفظ بنوع خاص على المواد التي تتعلق بالمحافظة على النظام وعلى الأمن وبالدفاع عن البلاد وبالمواد التي لها شأن بالعلاقات الخارجية. لا تنطبق أحكام هذا الدستور التي من شأنها أن تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسورية، وفي أثناء مدة هذه التعهدات، إلا ضمن الشروط

التي تحدد في اتفاق يعقد بين الحكومتين الفرنسية والسورية..

وكان واضحاً أن إضافة المادة (١١٦) المذكورة إلى الدستور تؤدي إلى نتائج أسوأ من مجرد حذف المواد الستة التي كان الفرنسيون يعترضون عليها، ومرد ذلك ما يلي:

١. إن هذه المادة تشمل جميع مواد الدستور، وتكبلها في مضمونها وتنفيذها بالقيود الواردة في كل فقرة من فقرات المادة (١١٦)، وإنها بذلك تقيد جميع صلاحيات السلطات السورية الواردة في مواد الدستور إلى حد يلغي مبدأ السيادة القومية التي كان من المتفق عليها بين الفرنسيين والسوريين.

٢. إن هذه المادة فوق ذلك تسلب السلطات السورية حرية تنفيذ ما يتبقى لها من صلاحيات، ليس في مجال التصرفات الخارجية فحسب، بل في مجال التصرفات الداخلية أيضاً.

فكان طبيعياً والأمر كذلك أن ترفض الكتلة إضافة المادة إلى الدستور، وذلك إثر اجتماع كبير عقده أقطابها»[١].

تراجع الكتلة الوطنية:

في كانون ثاني١٩٣١ أدلى كل من هاشم الأتاسي وجميل مردم بحديث صحفي، كان أهم مضمونه: إن المجلس لم يعد ممثلاً للشعب السوري.. ثم اتضح من هذه الأحاديث الصحفية أن الوطنيين على استعداد مسبق للتعاون مع الفرنسيين للتخلص من الجمود الحالي، بل وأظهروا استعدادهم للمشاركة في الانتخابات القادمة، كما أعلن جميل مردم أن الوطنيين على استعداد لعقد اتفاقية

(١) الحكم الحزبي في سورية، فترة الانتداب الفرنسي، د. سهيلة الريماوي، ص٣٠٥-٣٠٦.

مع فرنسا على أن تعلن شروطها على الوطنيين قبل الاشتراك في الانتخابات، وأيد هاشم الأتاسي هذا القول. وهكذا فقد رضيت الكتلة الوطنية (التي تمثل المعارضة بالنسبة لحكومة الشيخ تاج والهيئات الأخرى) بالأمر الواقع على أمل أن تتحسن الأمور بعد ذلك بقيام الحياة النيابية في البلاد، وإبرام معاهدة بين فرنسا وسورية تحدد العلاقة بين البلدين وتضمن الأماني القومية.

وهكذا ظهر أن الشيخ تاج الدين الحسني ـ والذي هاجمته الكتلة بعنف – أبعد نظراً منها، لأنهم عادوا بعد ذلك لموقفه. بل رضوا بأدنى من موقفه يوم خاضوا الانتخابات وشاركوا في الحكومة الجديدة بعدها، حكومة حقي العظم، وقبلوا بالفعل بالدستور والمادة (١١٦)، وهذا أسوأ من حذف المواد الست من الدستور، وجعلها موضوع مفاوضات لمعاهدة جديدة. وقد أصدر المفوض السامي قراره بإنهاء حكم وزارة الشيخ تاج الدين الحسني في ١٩ تشرين ثاني/ نوفمبر ١٩٣١ وتشكيل مجلس استشاري جديد بديلاً عنه وتساءل معارضو الكتلة: نحن الآن في صدد المعاهدة الفرنسية السورية، فهل توضع بنود المعاهدة على غير أساس الدستور النافذ في البلاد المنتدب عليها؟... وأجاب مجاهد الجندي في مقال له قائلاً: إن المعاهدة ستوضع بلا شك على أساس دستور المفوض بونسو الطرف الوحيد، لأنه هو النافذ في البلاد. ثم يوجه كلامه إلى أعضاء الكتلة قائلاً: لقد اعترفتم به وحملتم الأمة على الاعتراف به.. هذا فضلاً عن تلبيتكم دعوة المسيو بونسو لحضور دورة البرلمان الاستثنائية لانتخاب رئيس المجلس، ثم انتخاب فخامة رئيس الجمهورية الدستوري، ثم تأليف الوزارة الدستورية. إن الأمة غير راضية عن الدستور المزيف، ولا ترضى به ولن ترضى به وعنه، ولكنكم رضيتم به أنتم وحملتهم الأمة زوراً وبهتاناً على أن ترضى به

وتقره[1].

حزب الكتلة الوطنية والمزاودات الجديدة:

اتضح لحزب الكتلة الوطنية الذي أعيد تأسيسه خطأه الفادح، فانسحب من الوزارة، وانضم إلى المعارضة، واتخذ موقفاً جديداً مفاده: لا تعاون ولا تفاوض ولا معاهدة إلا بعد أن تصرح فرنسا وتلتزم بقبول وحدة سوريا أساساً للمعاهدة ومبدأ رئيسياً فيها.

واستطاعت أن تسقط حكومة حقي العظم وتنزع الثقة عنها في ٢٥ تشرين ثاني ١٩٣٣، وتبطل معاهدة العظم ـ ديمارتيل (المفوض السامي الجديد)، ثم أسقطت حكومة الشيخ تاج الدين الحسني التي لم تستمر إلا من ١٧ آذار/مارس١٩٣٤ حتى ٢٤ شباط ١٩٣٦. لقد كانت المعارضة لهذه الحكومة معارضة حزبية بحتة، لأنها تريد أن تكون هي البديل عنه، ونجحت في استقطاب الجماهير وإعلان الإضراب الذي استمر ستين يوماً. ووافقت على إنهائه في ٢آذار ١٩٣٦. «وصدر في ١٤آذار/مارس ١٩٣٦ مرسوم جمهوري سمى أعضاء الوفد السوري في المفاوضات، وهم: هاشم الأتاسي، وفارس الخوري، وجميل مردم وسعد الله الجابري عن الكتلة الوطنية، والوزيران مصطفى الشهابي وآدمون حمصي عن الحكومة، والسيد نعيم الأنطاكي ـ سكرتير الوفد، ونائب الزعيم أحمد اللحام خبيراً عسكرياً مستشاراً له. وفي ٢٢ آذار مضى الوفد إلى باريس، وعقد اتفاقيته، وكانت أقل بكثير من ادعاءاته حول الوحدة والاستقلال التي قادت الجماهير باسمها الكتلة الوطنية.

---

(١) الحكم الحزبي في سورية، فترة الانتداب لـ د. الريماوي، ص ٣٣٨، وكلام مجاهد الجندي جاء في مقال له في جريدة ألف باء ١١آب/أغسطس ١٩٣٢.

المعاهدة وموقف الأحزاب منها:

لقد أيدت الكتلة الوطنية المعاهدة، واعتبرتها من أعظم الإنجازات، وأيدتها الحكومة مع أنها كانت دون الطموحات القومية والوطنية في مجال الاستقلال وفي مجال الوحدة.

وإن وثائق المعاهدة أبقت للفرنسيين المصالح الاقتصادية والثقافية التي تتعارض مع المصلحة السورية وتنتقص من سيادتها.. وبقيت الحكومة السورية بموجب التشاور والتعاون مع فرنسا الطرف الأقوى في الشؤون الدفاعية والعسكرية والجوية خلال ربع القرن المنصوص عليه في المادة السادسة.

فإن ما تحقق لسورية من استقلال وسيادة على الأبعاد السياسية والاقتصادية والثقافية جاءت استقلالاً منقوص السيادة، إن لم نقل خالياً من أهم معاني السيادة[1].

«وواضح في يسر أن المعاهدة في مجال الوحدة وبمعيارها الثنائي كانت مقصرة تقصيراً بيناً عن مطالب الشعب السوري التي طالما حددتها وصاغتها الكتلة في بياناتها ومؤتمراتها، بل وفي ميثاقها.

فإذا تركنا جانباً قيام المعاهدة من البداية على أساس استقلال لبنان وانفصاله عن سورية.. كما نلاحظ أن المعاهدة سكتت عن لواء اسكندرون، وكان لسكوتها آثار معروفة تعرضت لها منطقة اللواء.

أما من ناحية الصيغة الدستورية فنلاحظ أن المعاهدة وإن كانت قد قررت ضم جبل الدروز واللاذقية إلى سورية (المراسلة رقم ٩ من المفوض السامي إلى

---

(١) الحكم الحزبي في سورية لـ د. الريماوي، ص٤٤٨- ٤٤٩.

رئيس مجلس الوزراء السوري) إلا أن وثائق المعاهدة فرضت أن يكون لكل من هاتين المنطقتين نظام إداري ومالي خاص، حتى كأن الصيغة الدستورية لدولة سوريا التي قامت بالمعاهدة كانت صيغة اتحادية وليست وحدوية تامة»[1].

وكان أشد الناس معارضة لها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر زعيم حزب الشعب، ومحب الدين الخطيب أحد كبار الزعماء الوطنيين السابقين، وزكي الخطيب رئيس الجبهة المتحدة، والحزب القومي السوري وحزب عصبة العمل القومي واللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني. ومما قاله الشهبندر: «إن المعاهدة قالت بانتهاء الاحتلال، ولكن في مقابل أن تعترف لفرنسا في أن تحتل بلادنا براً وجواً في السلم وفي الحرب» وكما يقول محب الدين الخطيب: «بهذه النصوص احتفظت فرنسا لنفسها بحق الاحتلال المسلح لأية بقعة شاءت في أية ساعة أرادت مدة ربع قرن على الأقل».

الكتلة الوطنية تنفرد بحكم سورية:

وحكمت الكتلة الوطنية سورية وحيدة منذ ٢٦ ديسمبر/ كانون أول ١٩٣٦ إلى ٧تموز١٩٣٩، حيث استقال الرئيس الأتاسي لرفض فرنسا توقيع المعاهدة.

ثم اجتمع المجلس النيابي وانتخب رئيساً له السيد فارس الخوري، وتقدم رئيس الجمهورية السيد محمد علي العابد باستقالته للمجلس النيابي فقبلها، وانتخب رئيساً للجمهورية الثانية السيد هاشم الأتاسي، وتألفت وزارة جديدة في ٢٤ كانون الأول ١٩٣٦ برئاسة السيد جميل مردم بعد أن رفع السيد عطا الأيوبي استقالة حكومته في ٢١ كانون الأول ١٩٣٦، وأخذت هذه الحكومة الجديدة تتابع مفاوضاتها لتطبيق المعاهدة واستلام الصلاحيات من الموظفين الإفرنسيين،

---

(١) الحكم الحزبي في سورية لـ. د. الريماوي، ص٤٤٨- ٤٤٩.

وسارت أشواطاً كبيرة بالمفاوضات، إلا أن فئة من المواطنين شكلوا معارضة نزيهة لبنود المعاهدة في ١ تشرين الثاني ١٩٣٦، وسمت نفسها باسم الجبهة الوطنية المتحدة، وأصدرت بياناً ضد مشروع المعاهدة السورية الإفرنسية، منتقدة ما يتعلق بالوحدة والعهود والعقود الدولية التي عقدتها وستعقدها فرنسة، وحق الدفاع والإنفاق العسكري والامتيازات والحصانات، والمستشارين الفنيين والقضاة والموظفين الفرنسيين، والتمثيل الخارجى والأقليات والمصالح المشتركة بين سورية ولبنان، وتقييد السيادة من حيث الثقافة والتعليم والنقد السوري ونفقات الانتداب والممتلكات الإفرنسية. وختمت انتقادها بخلاصة البيان من ثلاث وعشرين مادة، وأن ما قارنوا به بين معاهدة العراق ومصر يختلف عن معاهدة سورية، وأن قبولها بشكلها الحاضر مضر بقضية البلاد ضرراً لا يمكن تلافي عواقبه. ووقع البيان باسم الجبهة الوطنية المتحدة: صبحي بركات وزكي الخطيب.

وفى عم ١٩٣٧ صدر العفو عن المبعدين السياسيين، فقدم إلى البلاد الشيخ كامل القصاب،وأقيمت له حفلة استقبال ... وتكلم الخطباء مرحبين بعودته بعد أعوام طوال قضاها في المنفى، ثم قدم البلاد الزعماء الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، والأمير شكيب أرسلان، والأمير عادل أرسلان، وحسن الحكيم، وسعيد حيدر، والدكتور مصطفى فخري، والزعيم الوطني الكبير السيد نبيه العظمة، وفوزي القاوقجي، وسامي السراج، وعادل العظمة، وسلطان الأطرش وإحسان الجابري»[1]. حيث قاد الدكتور الشهبندر المعارضة ضد الاتفاقية.

لقد حرقت الكتلة الوطنية خصومها واتهمتهم بالتفريط بوحدة البلاد

(١) العرب من وراء اللهب، مذكرات المجاهد الأسطواني، ص ٣٣٩.

واستقلالها، فما هي الإنجازات التي تمت في عهدها؟

١- **المعاهدة**: وسبق أن تحدثنا عنها وعن إخلالها بالوحدة والاستقلال لمدة ربع قرن، ومع هذا لم توقع فرنسا عليها نتيجة تغير الحكومات الفرنسية.

٢- **سلخ لواء اسكندرون**: ويقول الدكتور ذوقان قرقوط عن ذلك: «في طفرة الحماس ظن رجال الوطنية أن التأييد الشعبي الساحق يعطيهم المفتاح السحري لحل جميع القضايا، حتى إنهم لم يكونوا يقبلون النصيحة من أقرب أصدقائهم، وكانوا ينساقون في تصريحاتهم بلا دراسة، وغرضهم فقط إلهاب حماس الجماهير، وبعد ذلك فليكن ما يكون. وفضلاً عن التناقضات الطائفية بين الفئات التي يتألف منها الجانب العربي في اللواء، كانت عقلية رجال الكتلة الوطنية الممسكين بزمام الأمر في سوريا مدعاة لخلق تناقض بينهم وبين قادة الحركة النضالية في اللواء. ومن هنا كان موقف فرع عصبة العمل القومي ـ وهو أكبر حزب عربي جماهيري في اللواء ـ العدائي من الكتلة الوطنية، وقد عجزت جميع الإرادات الوطنية الطيبة رغم إحساسها بالواقع عن الارتفاع فوق هذه التناقضات، والالتقاء في اتجاه واحد. وتحت علم واحد لإنقاذ اللواء. ولو أمكن التغلب على ذلك ونجحت محاولة تأليف حزب الاتحاد الوطني لتغير وجه المسألة، وانضم كثير من الأتراك إلى تيار الوحدة مع دمشق. ولم يغير عدم اعتراف سورية بتنازل فرنسا عن اللواء وبقاؤه جزءاً من البلاد العربية على الخرائط الرسمية شيئاً من الواقع، وإن ظل صورة من التاريخ تتجدد أمامنا كل يوم لذلك الحق الذي يتشرذم أصحابه فيضيع بتشرذمهم على أهله[1]».

٣- **قانون الطوائف**: لم تكن مسألة الإسكندرونة الدليل الوحيد على غفلة

---

(١) تطور الحركة الوطنية في سورية لـ د. قرقوط، ص١٦٢.

الكتلة الوطنية أو على تساهلها أو وفقاً للاتهامات التي وجهت إليها على تواطئها. كانت هناك مسألة الحقوق المكتسبة أو الأقليات.. ذلك أن ما كان يفرق الوطنيين، أي رجال الكتلة الوطنية عن غيرهم هو إعلانهم الدائم عن تمسكهم بحقوق البلاد وأمانيها التي كانوا يحددونها بالاستقلال والوحدة وحق تقرير المصير للأقضية الأربعة بصورة ناجزة غير منقوصة، في حين كان الآخرون يتبنون نفس المطالب، ولكنهم يقبلون تحقيقها بالتدريج أو على مبدأ عبارة فيصل المشهورة: خذ وطالب.

ففي ٣١مارس/آذار ١٩٣٦ أصدرت الكتلة الوطنية بمناسبة زيارة صاحب السيادة الوقور السيد (ملاتيوس مطران ديار بكر) لمكتب الكتلة الوطنية بياناً أبدت فيه استعدادها لاحترام وتأييد جميع حقوق الطوائف كاملة غير منقوصة. وليس عذراً أن يكون قانون الطوائف قد نشر في زمن الشيخ تاج ولم يلق معارضة، والمعارضة حينئذ كانت تتمثل في الكتلة نفسها لا في أعوان الانتداب. وفضلاً عن هذا يذكر بيير فبينو أن الوفد المفاوض التزم قبل فرنسا ـ لا قبل عصبة الأمم فحسب ـ بحقوق الأقليات، كما قدم رئيس الوزارة السورية في مراسلاته مع دي تيسان ضمانات إضافية للأقليات، أخفى حقيقتها سنة كاملة عن الوزارة والبرلمان[1].

٤- **سلخ الأقضية الأربعة**: لم يكن مطلب الأقضية الأربعة مناورة، وإنما كان مطلباً شعبياً جماهيرياً من هذا الجانب وذاك، فمنذ أن أقدم غورو على فصلها عن سورية وإلحاقها بلبنان، تلبية لحاجة لبنان القديم إلى البقاء، ونزولاً عند رغبة قلة مستثارة من سكان هذه المناطق.. لم تتوقف المطالبة بتصحيح وضع هذه

---

(١) المصدر نفسه/١٦٤.

المناطق من السوريين ومن سكانها على حد سواء.. ولم يكد الوفد السوري المفاوض يصل باريس حتى أخذ الأفراد والجماعات في طرابلس وبيروت وحاصبيا وراشيا وصيدا وصور والنبطية بتقديم العرائض وإرسال البرقيات أو القيام بالإضرابات مطالبين بالوحدة مع سورية.. إذا بنا بعد إقرار مشروع المعاهدة نجد جميع الأطراف تسكت عن الإشارة إلى هذه القضية، ويقال همساً أو تلميحاً إن هذا السكوت تقدير لمواقف البطريرك الوطني، ولكن تقديراً لهذا الموقف لتكن سورية كلها مع لبنان أو يكن لبنان كله مع سورية لا فرق، إذا نالت القضية الوطنية أمانيها هنا وهناك من فرنسا مقابل هذا التسليم. أما أن تترك هذه المناطق مع لبنان، ويكون الغرض من تركها التمكين لبقاء الفرنسيين، لأن بقاءهم في لبنان (القديم) وحده يشكل عبئاً باهظاً عليهم، فإنه هدر للحقوق لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار إلى جانب هذا التنازلات الأخرى[1].

هذه هي الكتلة الوطنية هي على سروج خيلها كما يقولون، وهي المستأثرة وحدها في الحكم والسلطة، وورائها الزخم الجماهيري الضخم، وهذه هي إنجازاتها وهي في سدة الحكم، بعد أن كانت توزع الخيانة يميناً وشمالاً على الناس، وتشوّه الشخصيات الوطنية التي ليست ضمن الحزب عندها، حتى لتساهم قيادات فيها في اغتيال الدكتور الشهبندر، وتغرق في اتهام الشيخ الحسني بالعمالة والخيانة، تقدّم هذه التنازلات من الوطن، من استقلاله ومن سيادته ومن وحدته، لتستوزر وتبقى في السلطة.

ولم تغادر السلطة حتى فقدت كل شعبيتها، ولحقتها تهم الخيانة تزكم الأنوف، خاصة من خلال وزير خارجيتها ورئيسها جميل مردم الذي عقد

---

(١) تطور الحركة الوطنية في سورية لـ. د. ذوقان قرقوط ص١٦٤-١٦٥.

صفقات مع فرنسا وبقي ساكتاً عنها سنة كاملة لا يعلم بها وزارته ولا دولته. وبقيت فرنسا تلعب بها كما تشاء، حتى المعاهدة التي تعتبرها من قمة إنجازاتها لم يوقعها مجلس النواب الفرنسي، «الغريب أن يقدم رئيس وزارة وطنية على تقديم كل هذه التنازلات التي يدني بعضها هذه المعاهدة من معاهدة حقي العظم ودي مارشيل، والتي جرى أكثرها سراً وبقي خافياً أكثر من سنة على البرلمان السوري، وعن كبار المسؤولين في الدولة، ثم ما يلبث أمره أن يفتضح ويعترف.. ولكن بلا حساب، ويبقى الزعيم الوطني.. فقد استغل قيامه بمهام وزارتي الدفاع والمالية وكالة في أثناء غياب الوزير الأصلي القوتلي فعقد اتفاقاً مع البنك السوري مخلاً بحقوق سورية، وفاوض على اتفاق يتعلق بالجيوش الفرنسية في سورية أعلنت وزارة الحرب الفرنسية رضاءها التام عنه. فاستقال شكري القوتلي من الحكم وأقيمت له (لمردم) حفلات التكريم، وأمطره الخطباء بكلمات المديح.. وهكذا ذهبت ضياعاً ـ كما قال رئيس الجمهورية في استقالته ـ تلك الآمال التي توجهنا بها إلى سياسة التحالف والتعاقد. وعادت سورية بعد تسعة عشر عاماً من الانتداب إلى نفس الحالة التي كانت عليها تقريباً في عام ١٩٢٠ عند الاحتلال، بفارق هام، وهو أن الحكومة السورية أضاعت الإسكندرونة، ووقعت على الحقوق المكتسبة وامتيازات الطوائف، وتخلت عن الأقضية الأربعة[١].

---

(١) تطور الحركة الوطنية في سورية، د. ذوقان قرقوط ص ١٦٤-١٦٥.

موقف الإسلاميين من الحكومة وقانون الطوائف

يحدثنا عنه الدكتور عدنان زرزور في كتابه عن رائد الحركة الإسلامية مصطفى السباعي، فيقول:

وقد شن الأستاذ السباعي حملة على هذا القانون في أكثر من عدد من أعداد مجلة الفتح فكتب مقالة تحت عنوان «البلد المنكوب»، وضمنها اعتراضه على نظام الأحوال الشخصية المذكور، ويمكن القول إن هذه المقالة وغيرها الكثير تعكس مجمل الأوضاع التي أشرنا إليها فيما سبق. فبعد أن تحدث عن فقر الخزينة وتراجع الاقتصاد قال :

«ماذا نقول في بلد دخله أوصياؤه وهو شعب واحد وأمة واحدة، فما لبثوا أن جعلوه موزعاً بين عرب مسلمين ومسيحيين ويهود ونصيرية ودروز وإسماعيليين وشيعة وأكراد وتركمان وشركس وداغستان وغجر، ثم زادوا عليها الأرمن والآشوريين فأسكنوهم أخصب البقاع وأغنى الأراضي ؟ ماذا نقول في بلد دخله أوصياؤه وهو غني بالنبغاء والقواد والعلماء والأدباء، فإذا هم اليوم موزعون في الأقطار، مشتتون في الممالك، لايخلو منهم بلد ولا قرية؟!

ماذا نقول في بلد دخله أوصياؤه وله أوقاف كبيرة رُصدت على البر ونشر العلم، فما زالوا بها حتى جعلوها تحت تصرفهم يؤكلون منها ما شاؤوا ويحرمون ما شاؤوا، ويولون عليها من شاؤوا ويقصون من شاؤوا ؟ ماذا نقول في بلد دخله أوصياؤه وله محاكم تحكم بما أمر الله، فما زالوا يهدمون منها شيئاً بعد شيء حتى غدت هياكل تتداعى للسقوط، وتنتظر النهاية ساعة بعد أخرى؟

ماذا نقول في بلد دخله أوصياؤه وله دين يعتصم بعروبته، وخلق يعتز برفعته، فما زالت عرى دينه تنفصم، ومازالت أخلاقه تنحط في عهد أوصيائه،

حتى أصبح اليوم مرتعاً خصباً للإباحية والشيوعية والماسونية والفاشستية وما شاكل هذه المذاهب الهدامة الخطرة على الأديان والقومية والأخلاق ؟».

وأما نظام الطوائف فقد وصفه بأنه (مهزلة المهازل في عهد العلمانيين) ويعني بهم هؤلاء الأوصياء اللادينيين من الفرنسيين .[1]قال: «زعموا أن رؤساء الطوائف من غير المسلمين شكوا إليهم ما في نظام الأحوال الشخصية المعمول به في سورية ولبنان من غير غبن فاحش بطوائفهم، فوضعوا لهم نظاماً جديداً يفتح باب الارتداد عن الإسلام إلى مصراعيه، ويجيز للمسلمة أن تتزوج من غير المسلم، ويمنع المسلم المتزوج في بلد أجنبي من تطليق امرأته، ويجيز للورثة الكفرة أن يرثوا أباهم المسلم، ويلحق الأولاد الصغار بأبيهم المرتد».

وقد قال في هذه الأحكام: «إنها لم توضع إنصافاً للأقلية من الأكثرية، وإنما وضعت اعتداء على دين الأكثرية لإرضاء فريق من رؤساء الطوائف المتعصبين» .[2]

ويحدثنا الدكتور مصطفى السباعي الذي كان يومها طالباً في الأزهر وفي الثالثة والعشرين من عمره عن المقاومة الإسلامية لقانون الطوائف في المقال ٦٤٥ في الفتح، ومما يقول فيه: «لا شك أن للمصائب فضلاً كبيراً على المسلمين في هذا العصر، فما زالت تنهال عليهم واحدة بعد أخرى حتى دبت فيهم تباشير الحياة، وتفتحت أعينهم للحقائق ... نقول هذا بمناسبة الضجة العنيفة التي كانت في بلاد الشام الشمالية على نظام الأحوال الشخصية للطوائف، وكان من آثارها

---

(١) نخالف أستاذنا الدكتور عدنان زرزور في تفسيره للأوصياء اللادينيين بأنهم الفرنسيون، إنما قصده حكومة الكتلة الوطنية القائمة، وسنلاحظ هذا صراحة في المقال اللاحق الذي سنذكره.

(٢) مصطفى السباعي الداعية المجدد، للدكتور عدنان زرزور، والمقال في الفتح العدد ٦٤٣ /١١ محرم: ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩م.

أن وعد المندوب الفرنسي بتعديل كل ما يشكو منه المسلمون، فقد خرجنا من هذه الحركة بعدة عبر :

العبرة الأولى: أن من أكبر أخطاء رجال السياسة في الشرق العربي استهانتهم بالدين، وبكل ما يتصل به، وإعراضهم عن الإصغاء إلى نصائح العلماء ووصاياهم، وعدم الرجوع إليهم في كل ما له من مساس بالدين من قريب أو بعيد، فقد تبين أخيراً أن الحكومة السورية المستقيلة كانت على علم بهذا النظام قبل أن يذاع، وأن المفوضية الفرنسية طلبت منها إرسال مندوبين عنها ليشتركوا في سَنِّه ووضع مواده، فأنابت عنها حضرات نعيم الأنطاكي مدير الخارجية السابق، وعارف نكد مدير العدلية، وعبد الرحمن الكيالي وزير المعارف والعدلية السابق، فاشتركوا مع المندوبين الفرنسيين في وضع ذلك النظام الممقوت، ونحن لا نريد أن نعرض لترجمة هؤلاء الأعضاء الثلاثة، وإنما نكتفي بأن نذكر أن لا صلة لواحد منهم بالدين الإسلامي، ولا معرفة له به قليلاً أو كثيراً، زد على ذلك أن الأول مسيحي، والثاني بطل القانون الذي تقدمت به الحكومة السورية للإسراع في القضاء على المحاكم الشرعية فرُفض، والثالث مواقفه من التعليم الديني والبعثات العلمية الأزهرية معلومة مشهورة، فإذا كان هؤلاء هم الذين وكل إليهم الاشتراك مع الفرنسيين في وضع نظام يتعلق بدين البلاد وعقائدها وأحوالها الشخصية، فماذا ننتظر أن يكون هذا النظام ؟ وكيف نرجو أن يقف هؤلاء موقف المدافعين عن دين الأمة وعقائد أبنائها أمام الفرنسيين الطامعين في نقض بناء الإسلام كما أرادوا أن ينقضوه في المغرب الأقصى .... ولهذا ما كادت تعلو أصوات النقمة عليه من أنحاء البلاد، ويهب العلماء لرفع كلمة الحق مدوية عالية حتى تبرأ منه رئيس الحكومة وأمر بعدم العمل به في المحاكم الشرعية ... ونحن إذ نأخذ هذا على الحكومة السورية السابقة، نرى من الإنصاف والاعتراف بالحق

أن نسجل لرئيسها موقفه الأخير .. فأحسن صنعاً حين أجاب رغبات الشعب واتقى غضب الأمة فأمر بعدم العمل به وفضل الاستقالة على التقهقر والرضوخ لأهواء المفوضية الفرنسية... »).

« ...العبرة الثالثة: أن كثيراً من الناس تساءلوا عن الفائدة التي عادت على المسلمين من مؤتمر العلماء الذي انعقد صيف العام الفائت في دمشق، والحق أن من أكبر فوائده بعث روح الحمية والنشاط في نفوس العلماء، حتى لكأنها خلقت خلقاً جديداً، فمن ذا الذي كان يظن أن يقف العلماء من قوانين الطوائف ذلك الموقف المملوء بالكرامة والغضب لدين الله وأحكام شريعته غضباً لم يكن يتصور أقرب الناس إليهم أن يكون قوياً إلى هذا الحد؟ واسمع صرخات الحق تنطلق من أفواه علماء الإسلام في بلاد الشام فتهز أركان الظلم هزاً عنيفاً، تقول جمعية العلماء في احتجاجها :

«إن جمعية العلماء في دمشق راعها ما قرأته في الصحف من نظام الطوائف والقرار المعدل لبعض مواده الصادرين من المفوضية الفرنسية، ذلك لما تضمناه من الأحكام المخالفة لكتاب الله الذي يتمسك به المسلمون كافة في مشارق الأرض ومغاربها، لا يرضون عنه بديلاً من نظم وقوانين وقرارات مخالفة لأحكامه ونصوصه الدنيوية والأخروية، ويبذلون أرواحهم وأولادهم وأموالهم في سبيل المحافظة عليه وتأييد أحكامه التي يعتقدون أن في اتباعها سعادتهم الدينية والدنيوية» .

ثم تقول في آخر الاحتجاج: «وتطلب الجمعية وبإلحاح من الحكومة أن تعيد النظام المذكور إلى المفوضية الفرنسية، وأن تؤذنها بأن الأمة الإسلامية لن تقبله بوجه من الوجوه، ولن ترضى بأحكام شريعتها بديلاً، وأن تبلغ جميع المحاكم والدوائر إهماله، وعدم اعتباره قانوناً مرعياً لحين صدور قرار من

المفوضية العليا بإلغائه والرجوع عنه لما فيه من الاجتراء على تبديل شرع الله، والحكم بغير ما أنزل الله»، ويقول علماء حمص وقد تقدموا جماهير الشعب للاحتجاج على هذا القانون: «إن المسلمين لا يمكنهم السكوت عن هذا القرار، ويعتبرون الرضا به كفراً، ولن يقبلوا أبداً أن يتحكم غيرهم في شؤون دينهم ولو أدى ذلك إلى بذل أرواحهم» ويقول علماء اللاذقية في احتجاجهم إلى المفوضية الفرنسية «...من المؤلم أن نرى الدولة الفرنسية التي تدعي أنها نصيرة الحرية تحاربنا اليوم في ديننا، وتحاول إكراهنا على ترك شريعتنا، واتباع قوانين محدثة تخالف كل المخالفة أحكام الشرع الإسلامي... ».

تلك هي نبذ من صواعق الحق التي صدع بها علماء الإسلام في وجوه المعتدين، ومما يبعث على الدهشة والغبطة أكثر من هذا أن العلماء كانوا يتقدمون المظاهرات السلمية التي أقيمت احتجاجاً على هذا العدوان، مع ما هم عليه من تقدم في السن وضعف في القوى .. فحيا الله هؤلاء السادة الأعلام ...

العبر الرابعة: ظل الفرنسيون يعملون خلال عشرين عاماً على إبعاد ناشئة الإسلام عن دينهم بما وضعوه لهم من مناهج للتعليم والثقافة، وظنوا أنهم واصلون بذلك إلى ما يبتغون، ولكن مصيبة نظام الطوائف كشفت الغشاوة عن أبصارهم ... فقد جاء من حمص أن الشباب ما كادا يعلمون بقرار الطوائف حتى دعوا الناس إلى الاجتماع في أحد المساجد الكبيرة، ووقف أحدهم يخطبهم عن هذه المصيبة بقلبه لا بلسانه، فما كنت ترى إلا أعيناً دامعة ونفوساً ثائرة، ووقف آخر يلقي على تلك الجموع العهد الذي قطعه طلاب العلوم الشرعية والمدارس الثانوية على أنفسهم وهذه صيغته: « نعاهد الله معشر الشباب أن نقدم أرواحنا ودماءنا فداءً لمحمد ودينه والله على ما نقول وكيل.. »

ثم قرروا بعد ذلك الإضراب عن الدروس وساروا في مظاهرة عظيمة اخترقت شوارع المدينة الكبرى هاتفين: الله أكبر، الله أكبر. وأرسلوا في النهاية الاحتجاج التالي إلى المفوضية الفرنسية: «إن طلاب المدرسة الشرعية والمدرسة التجهيزية الثانوية بحمص يأسفون لقرار الطوائف .. ويعدونه ضربة قاضية على كتاب الله وشريعته.. ولما كان هذا القرار لا يمكن ولن يمكن إقرار مادة منه إلا إذا فني العالم الإسلامي ... فلن تهدأ النفوس حتى يلغى هذا القرار الأثيم، نؤيد السادة العلماء في احتجاجهم ونعلن أننا جنودهم، وقفنا أنفسنا لخدمة الإسلام والمسلمين» [(١)] .

سقوط حكومة الكتلة الوطنية :

«قام العسكريون الفرنسيون الاستعماريون الذين قالوا: إنهم يستطيعون الاستغناء عن بلدهم فرنسا ولا يمكنهم الاستغناء عن سورية .. وعملوا بالضغط على وزارة الخارجية الفرنسية لإلغاء المعاهدة، فاستدعي الكونت مارتيل إلى فرنسا، وعينت فرنسا بديلاً عنه المسيو غبرييل بيو في ٥ كانون الثاني ١٩٣٩م، إذ أعلن هذا المفوض السامي منذ وصوله أن حكومته عدلت عن سياسة التعاقد والمعاهدة بين سورية وفرنسا، وأنها ستعود إلى سياسة الانتداب، فقامت الجماهير الشعبية بالمظاهرات رداً على تصريح المفوض السامي، فلم تر الوزارة الوطنية بداً من الاستقالة في ١٨ شباط سنة ١٩٣٩م، واستدعي السيد لطفي الحفار في ٢٣ شباط لتشكيل وزارة وطنية تخلف وزارة السيد مردم، إلا أن السيد لطفي الحفار لم يستطع البقاء في الحكم سوى شهر ونصف ابتداءً من ٢٣ شباط إلى ٦ نيسان ١٩٣٩م لأن فرنسا وضعت نظام المحافظات اللامركزي والعراقيل

---

(١) مجلة الفتح العدد (٦٤٥) العام ١٣٥٨/١٣هـ، عن كتاب آلام وأمال (سلسلة مقالات الفتح).

في طريق وزارته، وطلبت منه اعتقال بعض الوطنيين، وتسليمها بعض الشباب الوطنيين الذين اتهمتهم بقيادة المظاهرات الشعبية، وتحريض التجار على الإضراب، ودفعت بقائمة تحمل أربعين شاباً، فامتنع السيد الحفار عن تنفيذ طلب السلطة الفرنسية وقدم استقالة حكومته في ٦نيسان..، واستدعى رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي السيد نصوح البخاري في ٦ نيسان، وعهد إليه تأليف وزارة جديدة، فألفها من عناصر حيادية في جو يسوده التوتر والإرهاب، وكان من بين أعضاء الوزارة المجاهد السيد حسن الحكيم الذي يتمتع بثقة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر»[١].

اضطربت الحالة في البلد، وبدأ الغليان يأخذ مأخذه بعد أن أصدر المفوض السامي غبرييل بيو بيانه بتوقف فرنسا عن تصديق المعاهدة والعودة إلى حكم الانتداب فتقدمت حكومة السيد نصوح البخاري بالاستقالة لرئيس الجمهورية .. وعلى إثر ذلك بدأت الاجتماعات في المدينة بين الرجال العاملين في الحقل الوطني، وقد دعا السيد شكري القوتلي بعض الرجال والشباب إلى فندق أوريان بالاس لتوحيد الصفوف والمساعي لتأليف جبهة متحدة تواجه الأخطار المحدقة بالبلاد، وكان الاجتماع الأخير في نزل الأوريان قد أسفر عن تأليف جبهة سميت لجنة عليا، سمي لها من رجال الكتلة الوطنية السادة شكري القوتلي صاحب الدعوة ولطفي الحفار وأحمد اللحام، ومن جماعة الشهبندر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والأستاذ زكي الخطيب، والدكتور منير العجلاني، ومن عصبة العمل القومي السادة أحمد الشرباتي، وفهمي المحايري، وشفيق سليمان ومن الشباب الوطني السيد منير المالكي وإسماعيل قولي وسيف الدين مأمون، ومن الحياديين

(١) العرب من وراء اللهب للمجاهد عبد الغني الأسطوانى، ص ٣٥٤ -٣٥٥.

السادة فارس الخوري والشيخ كامل القصاب، والشيخ محمد حمدي الأسطوانى (والد عبد الغني صاحب المذكرات) وحسن الحكيم وفوزي البكري وسعيد الحمزاوي»[١] .

الإضرابات وتعيين مجلس المديرين :

عمت الإضرابات جميع المدن السورية، وألقيت المفرقعات على حافلات الترومايات، وخرجت المظاهرات الشعبية تنادي بالاستقلال والحرية..، وأغلقت المحلات التجارية، وعادت السياسة السلبية كما كانت، فلجأت السلطة إلى تحري المنازل وإلقاء القبض على ما تبقى من رجال الإحياء والشبان، عندها تقدم رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي باستقالته من منصبه، ولحقت به الوزارة في ٣ تموز عام ١٩٣٩م، حيث ترك عمل رئاسة الوزراء السيد نصوح البخاري الذي كان يديرها مؤقتاً لتسيير الأعمال، وعمت الفوضى في جميع المدن السورية، فألغى المفوض السامي منصب رئاسة الجمهورية، وفي ٨ تموز ١٩٣٩م عهد المفوض السامي إلى تشكيل حكومة لتسيير الأعمال أطلق عليها اسم مجلس المديرين وسمى رئيساً لها السيد بهيج الخطيب، وعضوية السادة عبد اللطيف الشطي، وحسني البيطار، وجورج عزيز، وخليل رفعت، وميشيل عطا الله ويوسف العرقتنجي. وساد جو من الإرهاب، فقبضت السلطة الفرنسية على عدد من الوطنيين والتجار ورجال الأحياء، وأودعتهم السجون، وأجرت توزيعهم على سجن المزة، وسجن تدمر، وسجن النبك، وسجن قلعة دمشق، وسجن الرمل في بيروت، وأرسلت قافلة إلى (المية ومية) هم السادة أحمد قنبر، أنط وان قشيشو، رشاد برمدا، شفيق سليمان، صبري العسلي، عارف النكدي، عبد القادر الميداني،

---

(١) العرب من وراء اللهب لعبد الغني الأسطوانى، ص ٣٦٤.

عثمان قاسم، عبد الكريم العائدي، عبد اللطيف السباعي، فوزي تلو، الشيخ مصطفي السباعي (رئيس الإخوان المسلمين فيما بعد)، يوسف سمارة وغيرهم[(١)].

فرنسا بين قوات فيشي والقوات الحرة :

كانت فرنسا قد لاقت هجوماً ساحقاً زلزلها وجعلها جاثمة على الأرض بثلاثة أسابيع مستسلمة للألمان، وانصاع للأمر الواقع الجنرال بيتان، والتحق الجنرال شارل ديغول ببريطانية للعمل بجانب الحلفاء باسم فرنسا الحرة .. وكان من سياسة حكومة فيشي أن أرسلت الجنرال دانتيز في ١٠ كانون الأول ١٩٤٠ م ووصل إلى بيروت، فطالب الوطنيون تخليصهم من حكومة المديرين وإقامة حكومة يرضى عنها الشعب، وقامت المظاهرات، والإضرابات في جميع المدن السورية .. وتجاه الضغط المتزايد من الشعب والوطنيين اضطر الجنرال دانتيز إلى إنهاء حكم مجلس المديرين في ١ نيسان ١٩٤١م، وفي ٢ نيسان عين المفوض السامي السيد خالد العظم رئيساً للوزراء مع أعضاء وزارته، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لوجود الإفرنسيين في وظائفهم .. وفي ٨ حزيران عام ١٩٤١م هاجمت القوات البريطانية والفرنسية العائدة للجنرال ديغول القوات الفرنسية التابعة لحومة فيشي، واحتدم القتال بين الجيشين .. ودخل الجيش الديغولي دمشق بعد قتال عنيف بين الفريقين .. وأنهيت خدمة المفوض السامي دانتيز، وعين الجنرال ديغول بدلاً عنه الجنرال كاترو في ١٥ تموز عام ١٩٤١م، وتقدمت حكومة السيد خالد العظم باستقالتها في ١٥ أيلول، وأصدر الجنرال كاترو قراراً بتسمية الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية السورية الثالثة دون استشارة

---

(١) المصدر السابق نفسه،ص ٣٧٤-٣٧٥، ٣٨٥، ٣٨٧.

أحد، وأصدر الشيخ تاج الدين مرسوماً بتعيين السيد حسن الحكيم رئيساً للوزارة في ٢٠ أيلول عام ١٩٤١م مع أعضاء وزارته»[1]. وسنعرض دور الشيخ تاج الدين بمزيد من التفصيل .

الشيخ تاج الدين الحسني بطل الوحدة والاستقلال:

«كان إعلان بريطانيا العظمى وفرنسا في اليوم الأول من شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩ الحرب على ألمانيا النازية انطلاقة جديدة نحو السيادة والاستقلال للوطن السوري، وقد كان لبريطانيا في عهد رئيس وزرائها المستر ونستون تشرشل الدور الأول والكبير في حصول سوريا ولبنان على استقلالهما، وقد تعهدت بريطانيا مراراً بأن تعترف باستقلال البلدين في منطقة الشرق الأوسط، وقامت بضغوط كبيرة على الجنرال ديغول رئيس فرنسا الحرة، وتدخلت معه بدون إبطاء مع سائر الدول الحليفة والصديقة وبخاصة مع الولايات المتحدة لتعترف تلك الدول باستقلال الوطن السوري، كما يحق للدولة السورية أن تشكل قواتها العسكرية والوطنية، وأن تقدم لها فرنسا الحرة مؤازرتها التامة، وعلى أن تكون دولة سورية من الوجهة السياسية والجغرافية وحدة لا تتجزأ، وهذا ما جعل الجنرال ديغول يعطي عهداً على نفسه لضمان سلامة الكيان السوري عن أي تجزئة كانت. وأكد الجنرال ديغول هذه الواقعة في مذكراته عن الحرب فقال: إنه بمجرد انتهاء الحرب يجب وضع حد للانتداب، والانتقال بسورية إلى الاستقلال الذي يحفظ مصالح فرنسا، لذلك قرر شخصياً الاجتماع مع قادة سورية للتشاور معهم في هذا الموضوع الحيوي، وطلب من القادة تشكيل وفد منهم لإجراء مشاوراته معهم لوضع حد لصراع لا جدوى منه حسب رأيه وتقديره، مشيراً لهم في رسالات

---

(١) العرب من وراء اللهب للمجاهد عبد الغني الأسطوانى، متفرقات.

خاصة وجهها إليهم، مقترحاً عليهم: وعند الاقتضاء نظموا مسيرات ومظاهرات تطالب بالحرية والاستقلال[1].

ويوم ٢٤ حزيران يونيو ١٩٤١ دخل الجنرال ديغول دمشق منتصراً فاتحاً بعد طرد القوات الفرنسية المحتلة التابعة لحكم فيشي في فرنسا، والتي استسلمت للقوات الألمانية النازية. وكان الجنرال كاترو قائد الحملة الديغولية قد وجه رسائل بتوقيع الجنرال ديغول إلى الزعماء السوريين قال فيها: سيوجه الجنرال كاترو لدى دخوله سورية مع قوات فرنسا الحرة إعلاناً إلى الشعب، هذا الإعلان الذي يحظى في معناه ومبناه على موافقتي، سيكون باسمي وباسم فرنسا الحرة، أي باسم فرنسا. ومن شأن هذا الإعلان أن يشكل بالنسبة للوطنيين تلبية لأعلى أمانيهم، وذلك بالاعتراف لشعوب المشرق بوضع مضمون معاهدة تعتبر فيه كشعوب مستقلة ذات سيادة، وبذلك يتكرس الفوز بقضية طالما نذرتم أنفسكم لها بمحبة وسخاء. وإنه إذ يسعدني أن أحيطكم علماً بذلك فإنما آمل أن تجدوا في هذا الحدث التاريخي الهام دافعاً للتعاون مع فرنسا الحرة ومع ممثلها الجنرال كاترو.

هذه هي الظروف الدولية المواتية. فكيف تحرك الشيخ تاج ووظفها جميعاً لصالح استقلال سورية وسيادتها ووحدتها؟

«لقد لعب الشيخ تاج الدين الحسني دوراً مميزاً في حياة سورية السياسية رغم المصاعب التي لقيها خلال نضاله السياسي، وقد تعرض لكثير من الحملات العنيفة من خصومه السياسيين في الوطنية.

لقد كان موجوداً في فرنسا فغادرها إلى دمشق عام ١٩٤٠ عند اجتياح

---

(١)

القوات الألمانية لفرنسا، وأقنع الجنرال كوك قائد القوات الفرنسية (المعارضة لديغول) وهو صديق له بالانضمام إلى قوات الجنرال ديغول والالتحاق بالجيش الإنكليزي في فلسطين، وهذا العمل أزعج المفوض السامي الفرنسي التابع لحكومة فيشي وهو الجنرال دانتز.. فأوعز باعتقال الحسني وأبعده إلى لبنان للإقامة في منطقة برمانا إقامة جبرية كانتقام منه على تلك الضربة التي فتتت عضد القوات الفرنسية المحتلة، لذلك قامت علاقات وطيدة بين القوات البريطانية والشيخ تاج عن طريق قنصل أمريكا في بيروت (إينغرت)، وكذلك مع قنصل مصر (أحمد رمزي)، وأبلغوه أن قوات الحلفاء سيوجهون حملة إلى لبنان لإنقاذه من الحكم النازي بالاشتراك مع قوات فرنسا الحرة، وأن الجنرال دانتز في حالة إخفاقه في مقاومة جيوش الحلفاء وعند انسحابه من سوريا ولبنان سيأخذ معه الشيخ تاج الدين كرهينة إلى فرنسا الفيشية، لذلك أوعز إلى الشيخ بمغادرة برمانا والاختفاء، فلجأ إلى منزل المطران بولس عقل في مدينة جبيل على الساحل، وعندما انهارت قوات فرنسا الفيشية في سورية ولبنان توجه الشيخ تاج الدين إلى دمشق، وقام باتصالاته مع رجال السياسة وزعماء سورية للاتفاق على خطة موحدة لنيل السيادة، وفعلاً عندما قدم الجنرال ديغول إلى دمشق اجتمع بالشيخ تاج، فاختاره ديغول لمنصب رئاسة الجمهورية، وكان ذلك بدعم من الحكومة البريطانية. بينما الجنرال كاترو قد رشح هاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنية لرئاسة الجمهورية. ولكن أصر الجنرال (كوله) على شخصية الشيخ تاج للرئاسة السورية، وأبلغ الجنرال كاترو مهدداً بأنه سيعود إلى الالتحاق بحكومة فيشي إذا لم يوافق على طلبه.

وأصدر الجنرال كاترو المفوض السامي قراره بتعيين الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية السورية، وهو الثالث في حياة العهد السوري الحديث

بدءاً من ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٤١.

واختار رئيس الجمهورية السيد حسن الحكيم وهو شخصية إدارية نظيفة اليد والسمعة لتشكيل الوزارة الجديدة، وتم تشكيل الوزارة كالآتي: حسن الحكيم لرئاسة الوزارة والمالية، زكي الخطيب للعدلية، فايز الخوري للخارجية، محمد العايش للاقتصاد الوطني، بهيج الخطيب للداخلية بالوكالة. فيضي الأتاسي للمعارف، عبد الغفار الأطرش للدفاع الوطني، منير العباس للأشغال والبرق والهاتف، حكمت حراكي للإعاشة والتموين. وفي عهد الشيخ تاج الدين الحسني أصدر الجنرال كاترو مندوب الجنرال ديغول في سورية ولبنان قراراً بتاريخ ١٢ كانون ثاني/ يناير ١٩٤٢ يقضي بإلغاء التجزئة في سورية، وعودة جبل الدروز ومنطقة العلويين إلى الدولة السورية. وأقامت الحكومة السورية يوم ٢٠ من الشهر المذكور احتفالاً كبيراً في سراي الحكومة ابتهاجاً بإعادة الأجزاء إلى سورية، وألقى الدكتور منير العجلاني مدير غرفة رئيس الجمهورية رسالة الرئيس الأولى إلى أبناء منطقة العلويين وجبل الدروز. كما أبرق وزير الخارجية فائز الخوري إلى ممثلي الدول العربية والأجنبية بإعلان استقلال سورية رسمياً يوم ٢١ أيلول ١٩٤١. وقد توالت الاعترافات الدولية باستقلال سورية وكان أولها اعتراف الملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية ثم من مصر واليمن والدول الأخرى.

وكما أشرت في الحلقة السابقة (والكلام للصحفي السوري مطيع النونو) وفي مطلع الحلقة هذه عن أهمية الصراع الخفي بين بريطانيا وفرنسا حول منح الاستقلال والسيادة لسورية، ومدى اهتمام الدول الكبرى بالوضع الجغرافي لسورية، وموقعها في منطقة الشرق الوسط. فإن هذا الصراع كان واضحاً من خلال البيانات ووثيقتي الاعتراف البريطانية باستقلال سورية، وبدولة سورية

المستقلة. ومن خلال التباين بين رأي المستر ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية، والجنرال ديغول زعيم فرنسا الحرة.

لقد كان الرئيس الرئيس تاج الدين الحسني خلال عهد رئاسته التي تحقق فيها توحيد سورية ومنحها السيادة والاستقلال إنما يعيش بين اتجاهين متعاكسين، أولهما: إصرار فرنسا على عقد معاهدة بين سوريا وفرنسا. الثاني الحملة البريطانية التي تعمل وراء الستار في رفض ومقاومة عقد معاهدة بين سورية وفرنسا، وهذا موجود في نفس الشيخ تاج شخصياً في رفضه وإصراره ضد المعاهدة.

إن بريطانيا تقف هذا الموقف إلى جانب سورية لأن المعاهدة تمنح فرنسا مركزاً ممتازاً في سورية مما يزيد في نفوذ فرنسا في الشرق الأوسط، وقد يؤثر في النفوذ والمصالح البريطانية في هذه المنطقة، وهناك سبب آخر، وهو أن بريطانيا تشعر بوخز الضمير عندما منحت اليهود وعد بلفور، لذلك كانت تحاول أن تقدم للعرب، ترضية تخفف من النقمة العربية من هذا الوعد التي أثارها في نفوس العرب. فوجدتها فرصة مواتية لمقاومة تصديق المعاهدة التي قد تحد من سياسة سورية في عهدها الاستقلالي، وهذا الموقف قد يرضي الشعب السوري والشعوب العربية الأخرى، لذلك كانت رغبة بريطانيا أن يصدر هذا الرفض من الجانب السوري وليس من جانبها باعتبارها الدولة الحليفة لفرنسا التي شاركتها في الحربين الأولى والثانية، ويهمها أن تبقى علاقاتها حسنة مع فرنسا في ظرف دقيق وخلال حرب عالمية مدمرة قاسية هدفها القضاء على النظام الألماني النازي.

أما فرنسا فقد كانت شديدة الحرص على إلغاء الانتداب وأن تحل مكانه معاهدة تعقدها مع سورية المستقلة، لذلك حاول الجنرال ديغول عن طريق المفوض السامي الجنرال كاترو استدراج الشيخ تاج الدين الحسني لتسجيل ذلك

في الوثائق المتبادلة، وكان الشيخ تاج يتجاهل الأمر في جميع المراحل التي اجتازتها المحادثات السورية، إذ وقف الشيخ تاج هذا الموقف العنيد خوفاً من أن تصبح المعاهدة مع فرنسا يوماً ما نسخة أخرى عن الانتداب للوطن السوري، لأن المفوض السامي لديه كل الصلاحيات في اتخاذ قرارات العزل والتعيين للمناصب الرفيعة في الحكومة السورية[١].

قتل الشيخ تاج بالسم:

توفي الرئيس تاج الدين الحسني يوم الأحد ١٧ كانون الثاني ١٩٤٣ عندما أصيب بانهيار في صحته ألزمه الفراش، وعندما ساءت صحته تم استدعاء كبار الأطباء في لبنان، ومنهم يوسف حتي وإلياس الخوري، وتبين أنه يشكو من احتقان في الرئة، وتسمم في الدم، وارتفعت درجة التسمم إلى نسبة ٣.٥ سنتغرام، ووجد الأطباء بأن حالته سيئة جداً، ولا يمكن مقاومة المرض وخاصة التسمم، وعندها سأل الدكتور حتي أطباءه المعالجين عن الكمية التي أعطيت له من (الداجنان) فلما علم بعظم الكمية، ضرب جبينه بيده وقال: قتلتوه.

وقد قضى رئيس الجمهورية مسموماً دون أن يعرف أحد من هو الذي دسّ له السم. هل هم الفرنسيون؟ أم هم الإنكليز؟ أم هم الذين يحلمون ببلوغ الرئاسة الأولى من الزعماء السياسيين؟ وقد بقيت هذه الأسئلة من دون جواب. وفي اليوم التالي صدرت جميع الصحف السورية وهي تتحدث عن وفاة الشيخ تاج الدين الحسني. وتتساءل في تعليقاتها عن أسباب وفاته[٢].

---

(١) تاج الدين الحسني ثالث رئيس للجمهورية مات مسموماً. للصحفي السوري مطيع النونو. الشرق الأوسط العدد ٧٢٣٦ الأحد ١٩٩٨/٩/٢٠. في سلسلة (حلقات مفقودة من تاريخ سورية الحديث.

(٢) المقال السابق/ص١٠.

كلمة أخيرة في الشيخ الرئيس:

لم يكن الشيخ تاج سياسياً عبقرياً فقط، وداهية فذاً أنقذ سورية من براثن معاهدة ١٩٣٦، وأخذ الاستقلال دون تعهد أو معاهدة، وأحسن استغلال الظروف السياسية، وصراع النفوذين البريطاني والفرنسي. بل كان كذلك شخصية إدارية ألمعية شهد له تاريخ سورية بذلك.

لذلك يقول الأنصار بالنسبة للأستاذ الحسني: لولا هذه السياسة الحكيمة في مصانعة الفرنسيين لما استطاع عندما كان على رأس الحكم أن يقوم بتلك الإصلاحات العديدة والأعمال النافعة من إنشاء المدارس والمنشآت والمستوصفات ودور الكتب ودور الحكومة والمتاحف والفنادق وإقامة الجسور والمعابر وتعبيد الطرق وشق الشوارع، وما ماثل ذلك من الإصلاحات التي لا تزال قائمة تشهد على وطنيته مع ضيق الموازنة، ووجود الانتداب[١].

أما رأي الأستاذ الحكيم في شخصيته السياسية فنقرؤه في العبارات الآتية: «ومتى علمنا أن السياسة أساساً هي مداراة ومداورة لاستخلاص حق،أو إقامة عدل، أو جلب منفعة، أو دفع مضرة. وأن القوي بالغ مبتغاه دون أي جهد، وأن الضعيف الذي يلاقي في ذلك أشد العنت يحتاج بسبب ضعفه إلى المصانعة والموادعة وإلى القول اللين، وأن ما لا يدرك باللطف من الصعب أن يدرك بالعنف، تبين لنا أن الطريق الذي سلكه الرئيسان (الحسني وصبحي بركات) من أجل البلاد هو الطريق الذي يجب أن يسلك.

الكتلة من جديد:

بعد أن اعترفت فرنسا باستقلال سورية وسيادتها في ٢٧ أيلول ١٩٤١

---

(١) صفحة من تاريخ الشهبندر للأستاذ حسن الحكيم، ص٣٣٠.

وأعادت في ١٢ كانون ثاني ١٩٤٣ منطقتي اللاذقية وجبل الدروز إلى الوطن الأم، راحت تماطل بتسليم الصلاحيات التي تمارسها السلطة إلى الحكومة السورية متذرعة بظروف الحرب. ولكن بعد أن تغيرت هذه الظروف من عام ١٩٤٣ وقوي أمل بريطانيا بالنصر، وضغطت على حليفتها فرنسا بأن تعيد في تلك السنة ١٩٤٣ الحياة النيابية إلى البلاد، وأن تسلم الحكومة التي تنبثق عن المجلس النيابي تلك الصلاحيات تدريجياً.

لذلك أعلن الجنرال كاترو في ٢٥ آذار ١٩٤٣ إعادة الدستور، وإجراء انتخابات نيابية، وعين لهذه الغاية عطا الأيوبي رئيساً للدولة ورئيساً للحكومة بصورة مؤقتة حتى انتخاب رئيس للجمهورية.. وانتهت مهمة السيد الأيوبي عندما انتخب المجلس النيابي في ١٩ آب ١٩٤٣ السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية.

وكانت المحادثات لتسليم الوحدات الخاصة قد بدأت مع فرنسا في كانون أول ١٩٤٣، واستمرت في فترات متقطعة طيلة العامين التاليين. لكن فرنسا رغم ما جاء في بيان الجنرال كاترو في حزيران ١٩٤١ من ضمان حق سورية ولبنان في تشكيل جيوش وطنية. اشترطت عقد معاهدات واتفاقيات تضمن لها وضعاً متميزاً في كلا البلدين.. بيد أن حكومة كل من سوريا ولبنان، أكدت إصرارها الشديد على عدم عقد أي اتفاق كان غير متكافئ، وتوقفت المحادثات من جديد في آذار ١٩٤٥ حول تسليم الوحدات الخاصة...

لكن حكومة فرنسا قررت متابعة العمل من أجل تحقيق مطالبها، فقامت بتعزيز حاميتها العسكرية المتواجدة على أراضي البلدين. وفي السابع عشر من أيار تم لقاء المفوض السامي الفرنسي (بينيه) مع رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الوزراء جميل مردم.. مطالباً بأن تحصل فرنسا على امتياز في قواعد لبنان البحرية، وفي القواعد الجوية السورية، وكذلك ضمان مصالح فرنسا

المادية والروحية في اتفاقية مشتركة. أما الجانب السوري فقد أوضح أن الشروط المقدمة لا تناسب الحكومة السورية... وأثارت شروط السلطات الفرنسية اندفاع موجة غضب، فقامت مظاهرات الاحتجاج في كلا البلدين..

وأعلنت حكومتا البلدين في ٢١ حزيران في البيان السوري اللبناني المشترك أنهما تعتبران «إنزال القوات الفرنسية خرقاً لسيادتهما، وأن المقترحات المقدمة في المذكرة لا تتطابق مع مبدأ استقلال سورية ولبنان. وكانت الأحداث التي أعقبت ذلك في سورية عبارة عن بدء حرب استعمارية من قبل فرنسا، أطلقت القوات الفرنسية في دمشق يوم التاسع عشر من أيار النار على مظاهرة عمالية سلمية.. وتعرضت في السابع والعشرين من أيار كل من مدينتي حماة وحمص للقصف المدفعي. أما في التاسع والعشرين من أيار مساءً فقد بدأ القصف المدفعي والجوي لمدينة دمشق، واستمر يومين كاملين.

دعت الحكومة السوفيتية لاتخاذ إجراءات عاجلة من أجل وقف العمليات الحربية، وأرسل تشرشل في ٣١ أيار كتاباً تحذيرياً إلى ديغول، فأعلنت حكومة فرنسا في ٨ تموز ١٩٤٥ موافقتها على تسليم الوحدات الخاصة لسورية ولبنان خلال ٤٥ يوماً. وطرحت من قبل سوريا ولبنان مسألة إجلاء القوات الأجنبية على مجلس الأمن في الأمم المتحدة في ٤ شباط ١٩٤٦، وأدى عرض المسألة على مجلس الأمن إلى إجبار حكومتي فرنسا وإنكلترا على الاعتراف بضرورة سحب قواتهما. وقد سحبت حسب الاتفاق الإنكلو ـ فرنسي في آذار ١٩٤١ جميع القوات الأجنبية حتى ١٧ نيسان ١٩٤٦. وأصبح منذ ذلك الوقت ١٧ نيسان عيداً وطنياً لسورية[١].

---

(١) الصراع في سورية لدعم الاستقلال الوطني لـ. بيير بوداغوفا، من ص٢٢ـ٣٠ مقتطفات.

الفصل الثاني
العهد الوطني

_ من الاستقلال إلى الانقلابات العسكرية.

يصف سهيل العشي الحياة السياسية بعيد الاستقلال بقوله: «كانت الأحزاب جزءاً لايتجزأ من مبادئ الديمقراطية .. ومن هذه الأحزاب نذكر الحزب الوطني برئاسة المناضل نبيه العظمة، ويأتي هذا الحزب وريثاً للكتلة الوطنية، وقد انضمت إليه بقايا حزب عصبة العمل القومي . وكان يشكل قاعدة الدعم لرئيس البلاد ..، ومن هذه الأحزاب كان حزب الشعب بقيادة السيدين رشدي كيخيا وناظم القدسي، وكان عمل هذا الحزب متقفاً مع القواعد الديمقراطية تماماً.

أما الحزب الإشتراكي بقيادة أكرم الحوراني الذي نشأ في حوض مدينة حماة وريفها فقد كان يجنح إلى العنف في سلوكه السياسي على الصعيد الداخلي .. وكان أول من أطلق كلمة الرجعية والتقدمية وأوجد شرخاً اجتماعياً في جسم المجتمع السوري بشقيه المدني والعسكري .. ونادى بالضرب على يد الإقطاع ونصرة الإنسان والفلاح .. أما حزب البعث فكان ينشر مبادئه في صفوف المثقفين بدءاً من الطلاب في الثانويات .. حيث استطاع الأستاذان صلاح البيطار وميشيل عفلق الوصول إلى قلب الطلاب .. وأما الحزب القومي السوري فقد كان فاعلاً على ساحة الأحداث بقيادة الزعيم أنطوان سعادة. هذه الأحزاب الثلاثة

التي أتيت على ذكرها تسابقت إلى دفع شبابها إلى صفوف القوات المسلحة، وكان الحوراني البادئ بذلك والأقوى والمحرك للأحداث فيما يلي من الزمن .

أما الحزب الشيوعي بقيادة خالد بكداش القوطرش . فلم يتغير في أسلوبه منذ نشأته في أواسط العشرينات، وكان لايخفي ارتباطه بالحزب الشيوعي العالمي.

وأما السادة العلماء وأصحاب الشعائر الدينية فقد كان لهم مركزهم في المجتمع، وكان من بين المسلمين من حاول دخول المعترك السياسي وهو الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي، ولكنه لم يستطع الصمود أمام التآلف ضده من الاشتراكيين والشيوعيين ..

هذه هي أشهر الأحزاب والفعاليات الاجتماعية والسياسية الداخلية التي كانت سائدة في عهد الجمهورية السورية الأولى، وكان على رئيس البلاد فخامة القوتلي أن يتعامل مع المجلس النيابي الذي يضم هذه الفئات، ولم يكن من السهل معالجة الأمور الحيوية الملحة معها دون عناء كبير، لأن بعض الأهواء الحزبية كانت غالبة على ماسواها من المصالح».[١]

الجامعة العربية والقضية الفلسطينية:

لم يكن سهلاً التعامل مع الدول العربية التي ماتزال تعاني من الوجود الأجنبي فيها، ناهيك عما تعانيه بعضها من حكامها، وتبقى الجامعة العربية خير ماتستظل به سورية لدعوة العرب جميعاً لتحمل أعباء فلسطين، ولم يمض شهر واحد على إعلان سورية استقلالها في يوم جلائها الأول ١٧ نيسان ١٩٤٦ حتى سعت لانعقاد مؤتمر أنشاص، وانعقد المؤتمر في ٢٨- ٢٩ أيار من عام ١٩٤٦،

---

(١) فجر الاستقلال في سورية، لسهيل العشي ٨٩-٨٣. باختصار.

وحضره كل من الملك فاروق داعياً ومضيفاً، وفخامة الرئيس القوتلي من سورية، وفخامة الرئيس بشارة الخوري من لبنان، والملك عبد الله بن الحسين من الأردن، والأمير عبد الإله بن علي من العراق، وسيف الإسلام عبد الله من اليمن، والأمير سعود بن عبد العزيز من المملكة العربية السعودية.

جرى الاتفاق على نصرة فلسطين تحت مظلة الجامعة العربية، وعلى تكليفها بالتنسيق بين الأقطار العربية، وأن تتولى مهمة الإعداد للتدخل المسلح في فلسطين.

وبين ٨-١٢حزيران ١٩٤٦ عقدت الجامعة العربية أولى جلساتها في سوريا – بلودان، ووضعت الخطوط الأولى، واستدعى الفريق طه باشا الهاشمي من العراق يساعده اللواء إسماعيل صفوت باشا، كما استدعي المناضل فوزي القاوقجي لتسند إليه قيادة طلائع تحرير فلسطين أو ما سمي بجيش الإنقاذ.

ثم انعقدت الجامعة العربية في صوفر لبنان بين ١٦-١٩/٩/ ١٩٤٦ واستعرضت الدراسات التي جرت في هذه الفترة بين الاجتماعين بكل أبعادها الدولية..

كان قائد الجيش الأردني الجنرال الإنكليزي غلوب باشا ومعه ستة وأربعون ضابطاً بريطانياً في مراكز قيادة الفرقة من أصل خمسين، والأربعة الباقون أردنيون، ومع ذلك يصر الملك عبد الله على أن تكون بيده القيادة العامة للقوات المسلحة الذاهبة إلى نجدة فلسطين، وتقبل الدول العربية مكرهة باعتبار موقع الأردن الإستراتيجي للمعركة ..

وتقرر تشكيل لجنة عسكرية مؤلفة من اللواء إسماعيل صفوت من العراق، والعقيد محمود الهندي من سوريا، والمقدم شوكت شقير من لبنان، والسيد صبحي الخضرا من فلسطين. وعلى أن تكون هذه اللجنة ومركزها دمشق تحت

قيادة الفريق طه الهاشمي مسؤولة عن كل مايتعلق بالأمور العسكرية لنجدة فلسطين، أما طلباتها فتلبى من الجامعة العربية .

ومن فائض القول أن سورية تحملت القسط الأكبر والأوفر، وأن سورية في الأصل قامت بدور الريادة في الدعوة إلى صحوة عربية لإنقاذ فلسطين من التهويد».[١]

انتخابات ١٩٤٧:

في انتخابات تموز شكل حزبا البعث والشعب جبهة مشتركة لشن حملة إصلاح انتخابي وبعض الإجراءات التقدمية الطفيفة .. ثم أظهرت الانتخابات نتائج حملة المعارضة من أجل انتخابات مباشرة على مرحلة واحدة، ففازت بثلاثة وثلاثين مقعداً جديداً مما رفع تمثيلها في المجلس إلى ٥٣ نائباً مقابل ٢٤ نائباً للحزب الوطني، يضاف إليهم كتلة مائعة من المستقلين لا ينتسبون إلى حزب، ولاينتمون إلى عقيدة، ويزيد عددهم عن الخمسين ..، ففي حلب عاد جميع زعماء المعارضة وهم رشدي الكيخيا، وناظم القدسي ومصطفى برمدا ووهبي الحريري وأحمد الرفاعي، وفي دمشق أخفق في الدورة الأولى معظم كبار الحزب الوطني في نيل نسبة ٤٠٪ من الأصوات الضرورية للنجاح، لكنهم عادوا في الدورة الثانية حين غدت الأغلبية القليلة كافية بأغلبية ساحقة أثارت الأقاويل عن تدخل الحكومة بواسطة وزارة الداخلية، ولقد انتخب المجلس الجديد فارس الخوري رئيساً له في جلسته الأولى المعقودة في ٢٧ أيلول ١٩٤٧، وفي اليوم التالي تقدم جميل مردم باستقالته، ولكن كلف ثانية بتشكيل حكومة أخرى»[٢].

---

(١) فجر الإستقلال في سورية للعشي، ص ٨٨-٩٠

(٢) الصراع على سورية، باتريك سيل، ص٥٢-٥٣.

وفي تشرين الثاني ١٩٤٧ دفع القوتلي الحكومة إلى التقدم بمشروع قانون لإصلاح المادة ٦٨ من الدستور كي تتم إعادة انتخابه خمس سنوات أخرى في يوم ١٨ نيسان ١٩٤٨، فابتهج المنتفعون، وتدافعوا لأخذ حصصهم من الغنيمة، فقد تسلمت الزمرة القديمة الحكم فترة أخرى قادمة، وكثر الكلام عن الاتجار غير المشروع بإجازات الاستيراد ووكالات المواد المستوردة ... بينما كانت الفوضى وسوء الإدارة تنخر في القاعدة بسبب ارتفاع الأسعار، وسوء المحصول نتيجة للجفاف والأصوات الساخطة تنبعث من نقابات العمال حديثة الظهور... إلا أن التعديل الدستوري الذي أجراه القوتلي لتمديد حكمه أعاق حركة الإصلاح حين كان ذلك ممكناً، وأسهم في انهيار النظام البرلماني السوري بعد أربعة عشر شهراً ».[1]

حرب فلسطين:

تكشف ضعف الجيش السوري في الأيام العشرة الأولى من تدخل الجامعة العربية في فلسطين في شهر آيار عام ١٩٤٨، فاستقال وزير الدفاع أحمد الشراباتي في ٢٤ آيار، وتولى جميل مردم رئيس الوزراء وزارة الدفاع بنفسه، وقد اقتضت الانتكاسات الأولى تغييرات في القيادة، فتقاعد عبد الله عطفة رئيس الأركان، واستبدل به الزعيم حسني الزعيم مدير الأمن العام، وكان السياسيون العرب قد ألقوا كلمات منمقة ضللوا بها الشعب وعدوه بنصر قريب، إلا أن الحرب كشفت عن افتقارهم إلى الاستعداد، وعدم تهيئتهم له، فليس ثمة قيادة عربية موحدة، ولم يكن هناك سوى الفقر في القيادات المشرفة والمواصلات والنقص في السلاح والذخيرة والخدمات الطبية ... فقد ذهبت القوات السورية

---

(١) الصراع على سورية، باتريك سيل، ص٥٢٠٥٤.

إلى المعركة بعتاد لايتجاوز بضع مئات من الطلقات لقطعة السلاح الواحدة، فوجهت اتهامات بالرشوة والربح الفاحش لا سيما في قضية فؤاد مردم الذي أرسل في مهمة عسكرية إلى إيطاليا فابتاع سلاحاً، وتسبب بالإهمال أو الخيانة في عدم وصوله لاعتراض إسرائيل له ..

إن جميع الجهود التي بذلها جميل مردم لم توقف موجة السخط المتزايدة، فألقي القبض على ميشيل عفلق زعيم البعث في أيلول ١٩٤٨ لتوزيع منشورات تشجب إخفاق الحكومة وتطالب بحل المجلس، وفي تشرين الثاني تخلى عن مردم ثلاثة من وزراء حزبه هم صبري العسلي، ولطفي الحفار، وميخائيل اليان، بينما كان حزب الشعب ينتقل عن جدارة إلى المعارضة وأعلن أنه سيشترك في حكومة ائتلافية إذا قدم المسؤولون عن كارثة فلسطين إلى المحاكمة . وفي الذكرى السنوية الأولى لتصويت الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ على قرار التقسيم أخرج البعث الطلاب إلى الإضراب، وأغلقت الأسواق، وطالب المتظاهرون الحكومة باستئناف القتال في فلسطين، ورفض جميع الأحلاف مع الدول الأجنبية، وإلغاء مرسوم صدر مؤخراً بزيادة أسعار الخبز. وكان المجلس نفسه في هيجان.. وخارج المجلس استعمل رجال الشرطة يعززهم رجال الدرك قنابل الغاز المسيل للدموع لتفريق الجماهير التي هددت باحتلال المجلس بالقوة.

انتشرت الإضرابات في المدن الكبرى وتحولت إلى قلاقل، فأطلق رجال الشرطة النار على الجماهير وقتلوا أربعة أفراد في دمشق، فأعلنت حالة الطوارئ في جميع أنحاء البلاد، وتحرك الجيش نحو العاصمة بعرباته المدرعة ليفرض منع التجول مابين السادسة مساء والسادسة صباحاً، ويحظر اجتماع ما يزيد على ثلاثة أشخاص، الأمر الذي جعل الجيش ولأول مرة يحس بطعم السلطة، وأصبح لضباطة قريبي العهد بالهزائم المهينة في الجبهة الرأي الأول في الأوضاع

السياسية المتردية.

وبعد أن استقال جميل مردم في اليوم الأول من كانون الأول عام ١٩٤٨، أخذ القوتلي يبحث عن خليفة له يتولى الوزارة، فرفض الكيخيا والقدسي زعيما حزب الشعب الاشتراك في تأليف حكومة، فقدم الطلب إلى الرئيس السابق هاشم الأتاسي العجوز الوقور، فسافر وهو منهك إلى العاصمة من مدينة حمص ليعود إليها بعد ثلاثة أيام فقط، وقد أخفق في تشكيل الحكومة .. فاستدعى القوتلي على عجل خالد العظم الوزير في باريس، وهو مليونير وخبير في الشؤون المالية.

وزارة خالد العظم:

كان العظم أحد أقدر الرجال في الحياة العامة السورية .. وهرع من باريس عام ١٩٤٨ لينهي أزمة تركت سورية بلا حكومة أكثر من أسبوعين، فشكل حكومة من خارج البرلمان في ١٦ كانون أول، ثم واجه بعد عشرة أيام مجلساً نيابياً ثائراً، ولقد شغلت الحكومة حينذاك بمشكلتين.. أولاهما الحاجة إلى عقد اتفاق نقدي مع فرنسا، الأمر الذي لقي استنكاراً من قبل المعارضة فاعتبرته مقدمة لإحياء النفوذ الفرنسي في سورية، وثانيهما: قضية منح شركة الأنابيب الأمريكية –التابلاين- تسهيلات عبور من العربية السعودية إلى البحر المتوسط، ففي عام ١٩٤٨ بدأت شكرة الأنابيب هذه ببناء خط من الأنابيب يصل حقول الزيت التابعة لشركة أرامكو بميناء صيدا من الساحل اللبناني .

كانت مخططات خالد العظم في تدعيم الليرة السورية المهتزة وسد النقص في خزانة الدولة عن طريق التفاوض مع فرنسا والولايات المتحدة لتوقيع اتفاقيات خاصة تواجه هجوماً مريراً داخل المجلس النيابي من قبل حزب الشعب والإخوان المسلمين، وخارجه من حزب البعث والطلاب، ولكن كل ذلك لم يعقه على أية حال من توقيع اتفاقية فرنسية سورية في دمشق بتاريخ ٧ شباط

١٩٤٩ تمت بموجبها تسوية جميع المشاكل المالية المعلقة التي وجدت نتيجة انتهاء الإنتداب، ثم شفعت في ١٦ شباط باتفاقية مع التابلاين، وكان لا بد من تصديق البرلمان على الإتفاقيتين، ولكن قبل أن يتم ذلك قام الزعيم حسني الزعيم بقلب حكم القوتلي والقبض على زمام السلطة ».[١]

منجزات الحكم الديمقراطي:

ذكر سهيل العشي بعض أعمال الحكومات السورية في فترة الديمقراطية الأولى، ولخصها بالنقاط الآتية:

- التعاون مع العالم والمربي الكبير ساطع الحصري لتحديث برامج التعليم في كل مستوياته.
- تحديث القوانين القضائية بخبرة رجال القضاء في سورية ومساعدة عبد الرزاق السنهوري المشرع المصري الكبير.
- وضع أول قانون للعمل ١٩٤٦.
- تحديث شبكة الهاتف من يدوية إلى آلية.
- متابعة تسيير الخط الحديدي الحجازي.
- بدء المباحثات مع القطر الشقيق لبنان لحل موضوع المصالح المشتركة.
- متابعة تحديث القوات المسلحة ضمن كل الإمكانات المتاحة.
- انطلاق إرسال بعثاتنا الدبلوماسية إلى العالم الخارجي.
- الاهتمام بالشؤون الصحية وتطوير مديريتها إلى وزارة.
- وضع الحجر الأساس بيد الرئيس القوتلي لقصر العدل بدمشق ومازال حتى اليوم.

---

(١) الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٥٤-٥٨، بتصرف.

- وضع الحجر الأساس بيد الرئيس القوتلي لمبنى الهاتف الآلي والبرق والبريد ومازال حتى اليوم.
- وضع الحجر الأساس بيد الرئيس القوتلي لمستشفى المواساة.
- محاولة التنقيب على البترول.
- انطلاق الحركة الكشفية [1].

الانقلابات العسكرية

لقد كانت الانقلابات العسكرية الثلاثة، صراعاً على السلطة بين السنة والسنة. وكان الإسلام مستهدفاً فيها من السنة أنفسهم. وكان وراءها أكرم الحوراني الذي مثل الحزب العربي الاشتراكي فيها، وكانت مأساة فلسطين هي المشجب الذي تعلق عليه الانقلابات. ويصف الضابط السوري عبدالحق شحادة الأجواء التي سيطرت على الجيش بعد مأساة فلسطين فيقول:

«كثيراً ما كنا نتبادل الحديث عن مؤامرة أو خيانة الهدنة الاولى ١٩٤٨، التي أتاحت الفرصة العظمى للجيش الإسرائيلي للتزود بالأسلحة والذخيرة. وكانت هذه المؤامرة قراراً سياسياً من دول الجامعة العربية التي قررت الدخول في الحرب مع إسرائيل بعد حل جيش الإنقاذ الشعبي العربي بالجيوش العربية لخمس دول عربية. والواقع أن القائد الفعلي لهذه الجيوش الفعلية الخمسة هو «جلوب» باشا الضابط الإنكليزي وقائد الجيش الأردني. كنا نتمزق حسرةً وحزناً وألماً وغضباً من هذه المهزلة الكبرى.

كيف يقود ضابط إنكليزي خمسة جيوش عربية ضد إسرائيل التي ولدت

---

(١) فجر الاستقلال في سورية للعشي، ص ١٢٣-١٢٤

واحتضنت وترعرعت في أحضان الإنكليز؟! كما كنا نتبادل الحديث عن الأحوال السياسية الداخلية في سورية، وعن الصراع الحزبي الذي كان قائماً بضراوة بين حزبي الشعب والوطني، وذلك على المصالح الحزبية والشخصية. وكنا نتألم من المهاترات الحزبية وتبادل التهم بين هذين الحزبين بينما كنا نحن في الجبهة نعاني وندفع ثمن صراعاتهما، بدلاً من توحيد مواقفهما وصفوفهما وراء الجيش.

ومن سوء حظ سورية مرة اخرى ان دخلت الحرب مع إسرائيل بعد الاستقلال مباشرة تقريباً. وسورية حديثة عهد بالاستقلال، وجيشها حديث عهد بالإنشاء، والأحزاب منشغلة بصراعاتها الحزبية العمياء، وكانت فضيحة صفقة الأسلحة السورية التي وصلت إلى إسرائيل.

وكان أحمد الشراباتي وزير الدفاع آنذاك قد أحضر أحد المقربين إليه وإلى الحزب الوطني، وهو الضابط السوري فؤاد مردم، ومما قيل عن أسباب وصول أسلحتنا إلى إسرائيل أن جاسوسة إسرائيلية حسناء استطاعت بوسائلها الخاصة ومن ورائها مجموعة من المخابرات الإسرائيلية التعرف على هذا الضابط السوري، فعرفت منه سر أسلحتنا التي كانت قيد شحنها إلى سورية، ثم عرفت منه سر الباخرة التي تم التعاقد معها لشحن هذه الأسلحة، فتمت المؤامرة مع قبطان الباخرة فتوجه بباخرته إلى إسرائيل لتسليم الشحنة. وحوكم هذا الضابط وحكم بالإعدام ثم خفف الحكم. والمهم أنا فقدنا هذه الشحنة ونحن في حالة حرب.. وأن اسرائيل سعدت بأسلحتنا، وسعدت أكثر بانتصارها الجاسوسي علينا، وسعد الضابط بتخفيف الحكم عليه»[(١)].

---

(١) المصدر السابق، ص ٧.

الانقلاب الأول:

إن الحوراني نفسه لم يخطط للانقلاب، ولكن اثنين من أكبر مسانديه العسكريين حماسة هما اللذان فعلا ذلك، إنهما بهيج الكلاس وأديب الشيشكلي اللذان أصبحا أقرب الزملاء المتآمرين إلى الزعيم. كما انضم الحوراني إلى نظام الحكم الجديد في أيامه الأولى. وكان الكلاس نائب الزعيم في القيادة، بينما قاد الشيشكلي وحدات المشاة والمدرعات التي نفذت الانقلاب. لقد نظم قواته في قطنا التي تبعد عشرين ميلاً عن دمشق، حيث تلقى الأمر بالزحف إلى العاصمة في الثانية والنصف صباح الثلاثين من آذار.

لقد جرى مشهد طالما تكرر بعد ذلك، فإحدى الفصائل ألقت القبض على رئيس الجمهورية في المستشفى حيث كان يعالج من قرحة في المعدة ومرض في القلب، وقبضت أخرى على رئيس الوزراء، وثالثة تسلمت محطة الإذاعة، واحتلت رابعة قيادة الشرطة والأمن العام، وخامسة قيادة الدرك، وسادسة بناء الهاتف الآلي، وتسللت وحدات أخرى والمدينة نائمة إلى أهدافها المرسومة لها لتقبض على مدير الشرطة وقائد الدرك وعدد من الوزراء والنواب، بينهم فيصل العسلي الذي استقبح القادة العسكريون هجماته على الجيش في المجلس النيابي...»[1].

فمن هو قائد الانقلاب؟ إنه حسني الزعيم.

«كان الزعيم متين البنية، له وجنتان عريضتان، ونظرة حادة، ووجه نضر يشابه وجوه طغاة أمريكا اللاتينية. ولد في حلب أواخر القرن التاسع عشر في أسرة غنية من التجار، تعود في أصولها إلى الأكراد، وعاش حتى نهاية أيامه حياة صاخبة

---

(١) الصراع على سوريا لباتريك سيل، ص ٦٩.

ماجنة. لقد بدأ عمله في الجيش العثماني، وأسره الإنجليز في الحرب العالمية الأولى، ثم انضم إلى (القوات الخاصة) أثناء الانتداب، وهذه القوات تشكل جزءاً من الجيش الفرنسي في المشرق.

إن سجل أعماله السابقة ليس بالنظيف عديم النقائص، فحين تقدمت القوات الإمبراطورية والفرنسية الحرة نحو سورية عام ١٩٤١ لتضع حداً للتسلل الألماني، عهدت السلطات الفيشية إلى الزعيم -وكان آنذاك ضابطاً في القوات الخاصة- بمهمة تنظيم عمليات فدائية ضد الغزاة، ووضعت تحت تصرفه ٣٠٠ ألف ليرة سورية. ولكن حين اضطربت الأحوال، وبدت قضية الفيشيين ميؤوساً منها توارى الزعيم والأموال معه، وبعد انتهاء الحملة القصيرة الأجل فضح الفيشيون هرب الزعيم وكشفوه في نداء إذاعي إلى خصومهم قوات (فرنسا الحرة) فقبض عليه، وقدم للمحاكمة، وحكم عليه عام ١٩٤٢ بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات. ولكن القوتلي أطلق سراحه في أواخر الحرب حين أعيد إلى الجندية ضابطاً في الجيش السوري المشكل حديثاً.

إن الرجال الذين يعرفون الزعيم يقرون أنه مغامر قليل المثل العليا، وأنه كان غير مستقر عاطفياً وسهل الاستثارة، وشجاعاً إلى حد التهور، ولكنه قليل المواهب في رسم الخطط الحربية الإستراتيجية . إن سجله العسكري في فلسطين لم يكن شائناً، وطموحه الذي غالى في نفخه قد وجد أداة جاهزة في نواة الضباط الوطنيين في الجيش السوري الذين آمنوا بعد حملة فلسطين بدورهم كحراس لرفاه البلاد، وكان نفوذ أكرم الحوراني فيهم قد أصبح واضحاً الآن» [1].

---

(١) الصراع على سورية، لسيل، ٦٨-٦٩.

وما هي أهم إنجازات الانقلاب الأول؟

«دام حكم الزعيم نحو أربعة أشهر ونصف الشهر. خلّف فيها على سوريا علامة ثابتة. وكان نموذجاً للطغاة العسكريين احتذي فيما بعد، لقد عزز الجيش، وأعاد تسليحه، ورفع من معنوياته، وألحق الشرطة والدرك به، مما لم يعد بمقدور هذا الجيش التخلص من دوره السياسي. كما طهر الجهاز الحكومي، وطلب من الموظفين أن يختاروا خلال عشرة أيام بين الخدمة العامة والأعمال والمصالح الخاصة. أما جامعة دمشق فقد أدخل على مناهجها ونظامها الأساسي كل ما هو عصري وحديث. وقد جُلد اثنا عشر خبازاً أدينوا ببيع خبز فاسد أمام أفرانهم، وخططت مشروعات عامة عديدة، وعقدت اتفاقيات لمرور أنابيب النفط عبر سورية، ولأول مرة منحت المرأة المتعلمة حق الانتخاب، وحظر استعمال ألقاب باشا وبيك وأمثالهما.

ثم بدأت عمليات إزالة الأوقاف الدينية وإحلال قوانين مدنية وجنائية وتجارية عصرية محل قانون الشريعة الإسلامية. كما عيّن محافظون جدد يتمتعون بالسلطتين المدنية والعسكرية كلتيهما.

لقد هزّ الزعيم المجتمع الدمشقي، وأخرجه من تعصبه الشديد الصارم للتقاليد الدينية، وأعلن على الملأ سخطه على اللباس العربي التقليدي والكوفية والعقال. فامتلأت الشوارع بمجموعات غريبة وقديمة من القبعات الأوروبية، وبرزت النساء أكثر حرية في الحياة العامة، ورقصن على الأنغام الأمريكية في النوادي الليلية التي هي في حالة سورية آنئذ كما هي في حال بلدان الستار الحديدي مفتاح لنزعات الحياة العامة ودليل على طبيعة الحكم.. إلا أن الزعيم كان أقل نجاحاً كمناور سياسي.. إن طموحه ومزاجه العصبي قاده إلى إبعاد كبار مؤيديه واحداً بعد الآخر. فتخاصم وأنشط الضباط وأكثرهم فعالية ممن خطط

ونفذ وإياهم الانقلاب. وسجن ميشيل عفلق وزعماء حزب الشعب رشدي الكيخيا وناظم القدسي وفيضي الأتاسي. واستدعى محسن البرازي لتشكيل حكومة ... ومن إحدى النتائج لتقديم البرازي إقصاء الحوراني بالمقابل.. كما أن الرأي العام المسلم وقد عبأه فرع الإخوان المسلمين في سورية الذي تزايد نفوذه في أواخر الأربعينات، شجب إصلاحاته على أنها علمانية أوحت بها الأوساط الأجنبية[1].

إن ما أقدم عليه حسني الزعيم في إلغاء قوانين الشريعة الإسلامية ووضع القوانين الفرنسية مكانها هو أسوأ حدث سوري في القرن العشرين. إنه إعلان الكفر البواح، الذي لم يجرؤ على إعلانه الفرنسيون وقد حكموا سورية قرابة ربع قرن، وما جيء بالزعيم إلا ليكون صورة للبطل الصنم - كمال اتاتورك - وجيء به مسخاً مقلداً له.

الانقلاب الثاني:

لا بد من الحديث بتؤدة قبل عرض الانقلاب الثاني عن الدور الخفي للأقليات في الساحة العسكرية. «فقد اجتمع الزعيم قبل انقلابه بعدة أشهر سراً بالوجيه الدرزي حسن الأطرش الذي وعده بدعم الدروز له ضد القوتلي. ولكن عندما تملك الزعيم السلطة تحول إلى مصر والمملكة العربية السعودية وأضاع ولاء الدروز. وغالباً ما تساور الزعيم الريبة في أن الدروز يتآمرون عليه مع الهاشميين وحزب الشعب، فيرسل قوىً كبيرة إلى حامية جبل الدروز ويلقي الرغب في نفوس سكانه، ويرى كل من فضل الله أبو منصور ورئيسه المقدم أمين أبو عساف، قائد الكتيبة المسلحة والذي كان بدوره درزياً، يريان في هذا التحرك

---

(١) الصراع على سورية لباتريك سيل، مقتطفات من ص ص ٨٦-٩١.

تهديداً لبيوتهم وعائلاتهم، وازدادا رعباً عندما أمر الزعيم كتيبة مدرعة بأن تتوجه إلى جبل الدروز وتضع نفسها تحت تصرف قائد الحامية المحلية المقدم حسني جرّاس، وفسرا هذا على أنه تهديد لقيادتيهما.

وروى حسن الأطرش بعدئذ أنه قابل آنئذ الحوراني الذي رأى وجوب إزاحة الزعيم، وأن الضباط الدروز يجب أن يسهموا في ذلك «ولم أوافق قائلا: يكفي أن يقبض عليه ويودع السجن، ولكن الحوراني قام ومن وراء ظهري بعقد اتفاق مع عدد من الضباط الدروز الذين كان لمعظمهم صلات بالحزب القومي السوري ولما كانوا دروزاً قوميين سوريين متحمسين، فقد كان لديهم بذلك سببان للسعي إلى الانتقام».

وقد دفعت أوامر الزعيم إلى الكتيبة المدرعة بالتوجه إلى جبل الدروز المتآمرين للعمل، فهم إذا سمحوا للسلاح بالخروج من نطاق مراقبتهم لا محالة هالكون.

انقلاب الحناوي: نقل الحناوي القوة إلى قطنا، وتبعد عن دمشق حوالي عشرين ميلاً رغبة منه في كسب الوقت، وبحجة أن المصفحات التي سحبت مؤخراً من الخطوط الأمامية بحاجة إلى بعض الإصلاحات، وبعد أسبوع وقبيل فجر الرابع عشر من آب ١٩٤٩ تحركت القوة إلى العاصمة لتعيد من جديد شريعة الانقلاب بالقوة الذى أتى بالزعيم إلى السلطة قبل أربعة أشهر ونصف، واتجهت مفارز صغيرة يتألف كل منها من سيارتين أو ثلاث إلى منزل رئيس الوزراء، ورئيس الشرطة العسكرية المقدم إبراهيم الحسيني ومراكز الدرك والشرطة والهاتف الآلي، ومحطة الإذاعة والبنك المركزي، وتولى الملازم الأول (الدرزي) فضل الله أبو منصور قيادة قوة مؤلفة من ست مصفحات اخترقت شوارع المدينة الصامتة إلى قصر الرئاسة. وبعد ان جرّد دورية من راكبي

الدراجات النارية من أسلحتها، نشر جنوده حول البناء وكان رئيس الحرس الشركسي قد رُشي لضمان غيابه، فاستسلم رجاله دون أية مقاومة، وشقّ فضل الله طريقه إلى الداخل، وواجه الزعيم في القاعة مرتدياً بيجامته، وصفعه على وجهه، ووجه إليه تهمة الغدر بأنطون سعادة (رئيس الحزب القومي السوري)، وأوثق الزعيم، ووضعه على مصفحة، وأخذه إلى موقع سبق تحديده، حيث ألحق به بعد وقت قصير محسن البرازي الذي قبض عليه في نفس الوقت.

ثم أبلغ الرئيس مريود فضل الله بأن القيادة العليا قد حكمت على الزعيم والبرازي بالموت، وأمره بتنفيذ الأحكام فوراً. عندها أعدم رمياً بالرصاص، وأعلنت أنباء الانقلاب إلى الجماهير في الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم»[1].

لقد كان الضباط الدروز هم الأداة الرئيسية للانقلاب. وهذه صورة من الصور التي توضح مدى اعتماد أكرم الحوراني في تحركاته على الأقليات، مع أن الستار الذي اندفعوا تحته هو ستار الحزب القومي السوري، والثأر لرئيسه أنطون سعادة الذي غدر الزعيم به، وسلمه للسلطات اللبنانية فأعدمته. ولم يكن بين إعدام سعادة، وانقلاب الحناوي إلا أسابيع قليلة.

لقد نفذ الزعيم جريمته النكراء بإلغاء قوانين الشريعة الإسلامية التي استمرت تحكم سورية أربعة عشر قرناً من الزمان، واستبدلت بالقانون الفرنسي، وتمت مهمته. فجاء دور الدروز إحدى الأقليات السورية لتؤدي دورها على يد الحوراني للاطاحة بالزعيم لتبدأ المسرحية الثانية.

مسرحية الحناوي: يرى سيل أنه رغم كل ما يقال عن تشويه للحناوي، فقد

---

(١) الصراع على سورية، ١٠٥-١٠٧.

كـان مـن أهـم منجـزات عهـده العـودة بـالبلاد إلـى الحكـم الـديمقراطي. وكانـت الإدانـة التـي وجهـت للزعيم حسـني الـزعيم وعملائـه «جـر الـبلاد إلـى الفوضـى والاضـطراب واتبـاع سياسـة خارجيـة مسـيئة لـبعض الـدول العربيـة المجـاورة، وتشجيع عودة المؤيدين للانتداب، وتزوير نتائج الاستفتاء، وإقامة حكـم بوليسي، ونهـب خزائن الدولـة». لكـن طبعاً لـيس بـين الجـرائم المسـندة إليـه إلغـاء الإسـلام وإقـرار الكفـر، فهـذه قضـية ثانويـة يلتقـي السـابق واللاحـق عليهـا، ولـذلك تبقـى وتستمر. ولكننا نريد أن نصل إلى دور الحناوي في الساحة السورية.

«كان الحناوي جندياً بسيطاً قليـل المطـامح السياسية، خـدم دون أن يلمـع في الجيش العثمـاني وفـي القـوات الخاصـة، وكانـت خطوتـه الأولـى رفـع الحظـر عـن الأحـزاب السياسية (باسـتثناء الشـيوعيين والحـزب الاشـتراكي التعـاوني اليمينـي)، وتسليم السلطة إلى (الوطنيين المخلصين المستقلين)»[1].

«أعلـن الحنـاوي عـن ابتعـاد الجـيش عـن السياسـة، ودعـا المناضـل المحنـك هاشم الأتاسي، وهو أروع نموذج لكفاح سورية ضد الانتداب الفرنسي لتشكيل حكومـة، نـال فيهـا حـزب الشـعب خيـرة المناصـب: رشـدي الكيخيـا فـي وزارة الداخلية، ناظم القدسي في وزارة الخارجية، وفيضي الأتاسي في وزارة الاقتصاد الوطني، وأعطي زعيم البعث ميشيل عفلق وزارة التربية اعترافاً بتأثيره المتزايد في الوسط الطلابي. أما أكـرم الحوراني الـذي جعلته تعبئته للوسط الفلاحي المتبرم رجلاً قوياً في وسط سورية الشمالية، فقـد أصبح وزيـر الزراعـة. وأعيد بعـض مـن أصدقاء الحناوي العسكريين الذين أقالهم الزعيم بالقوة إلى مراكزهم، من أمثال أديـب الشيشـكلي الـذي أعطـي قيـادة اللـواء الأول الهامـة، وأصـبح خالـد العظـم

---

(١) المصدر نفسه، ١٠٨.

المستقل وزيراً للمالية، أما الحزب الوطني الذي مثّل بشكل ضعيف جداً في الوزارة بشخص وزير الدولة عادل العظمة، فلم يكن مستعداً للعودة، فزعيماه القوتلي ومردم نزع اعتبارهما وهما في خارج البلاد، أما أولئك الذين بقوا في سورية أمثال عبدالرحمن الكيالي، وصبري العسلي فلم يكن لهم أتباع ... وأعلن عن إجراء انتخابات لجمعية تأسيسية في منتصف تشرين الثاني، وأعلنت وزارة الأتاسي نفسها حكومة مؤقتة، لتقوم بمهمة إعادة الحياة الدستورية»[1].

ونقف هنا عند نقطتين هامتين:

الأولى: هي سيطرة حزب الشعب على السلطة. وهذا لا يعنينا كثيراً بمقدار ما يعنينا موقف هذا الحزب من الشريعة الإسلامية. فإذا كان الحناوي قد تخلى عن السياسة مباشرة للشعب، وجاء بحزب الشعب ليقود البلاد، فماذا فعل بقرار إلغاء الشريعة الإسلامية وإحلال القانون الفرنسي محلها؟ لم يفعل شيئاً على الإطلاق، بل مضى على هدي هذا القانون وباركه وحكم به. وهنا نود أن نقول: إن هذا الحزب يتحمل المسؤولية الكاملة والمباشرة عن إقصاء الشريعة الإسلامية عن الحياة والأمة، وإنه مثل حزب البعث، حزب علماني، تبنى القوانين الجديدة، ومضى دون أن يعترض ولو على مادة واحدة فيها. ونقرر على ضوء ذلك أن مسؤولية ضياع دين الأمة ابتداءً يقع على السنة أنفسهم. فقائدا الانقلاب سنيان، وكلاهما صنعته فرنسا على عينها في القوات الخاصة، وربته على مبادئها. فنفذا هذه المبادئ في علمنة سورية. وجاء حزب الشعب ليحكم بغير ما أنزل الله دون أن نسمع منهم اعتراضاً واحداً على ذلك.

الثانية: تسليم ميشيل عفلق زعيم البعث وزارة التربية.

---

(١) الصراع على سورية، ١٠٨.

وإذا كان قرار إلغاء قوانين الشريعة هو الحدث الأسود في القرن العشرين، فإن استلام ميشيل عفلق (النصراني) زعيم الحزب العلماني وزارة التربية هو الحدث الأسوأ الثاني في تاريخ سورية. وحتى نوضح خطر هذه الجريمة النكراء، نعيد للأذهان موقف الحكومة الأردنية عام ١٩٩٠ من الإخوان المسلمين حين طالبوا باستلام وزارة التربية، فقد كانت لهم الأغلبية الساحقة في الانتخابات، حيث بلغ نواب الكتلة الإسلامية قرابة نصف المجلس دون أن يكون وجود يذكر لكل الأحزاب اليسارية. وحين ألح مضر بدران رئيس الوزراء الأردني على الإخوان المسلمين ليشاركوا في الوزارة، كان موقفهم واضحاً محدداً: إما ان نستلم وزارة التربية وإما أن نعتذر عن المشاركة في الحكم. وكان موقفه واضحاً محدداً كذلك: خذوا ست وزارات ودعوا وزارة التربية، إن استلامكم وزارة التربية أمر أكبر منكم ومني ومن الملك نفسه.

إن الدول العظمى تقلق من استلام الإسلاميين وزارة التربية، فكيف يقوم هاشم الأتاسي على وطنيته ورجاحة عقله بتسليم هذه الوزارة لميشيل عفلق؟!

ولعل مهمة الحناوي كلها تتلخص بهذه المهمة، أن يعهد بوزارة التربية إلى الزعيم النصراني زعيم حزب البعث العلماني، ليقوم بتربية الأجيال القادمة على الكفر البواح. وكان أشأم حدث في تاريخ سورية وفي عهد الحناوي بالذات هو هذا الحدث، فقد استلم عفلق الوزارة، وأرسل طلائع البعث المثقفة من الطلاب في بعثات تعليمية إلى الخارج لتعود فتستلم مقود البلد، ووضع في جميع مرافق الوزارة البعثيين العلمانيين، وبدّل المناهج كلها، وبقي أثره حتى الآن على سورية، من خلال مناهجه وكتبها التي تنطلق من العلمانية البحتة. أي بعد أربعين عاما من استلامه الوزارة، ولا تزال المناهج كلها ضمن إطار الفكر القومي البعثي، وتربت الأجيال على ذلك، إلا مادة الديانة البائسة التي جاهد الإسلاميون وكافحوا من

أجلها، وأدخلوها في المناهج.

قضية الوحدة مع العراق: الذي يؤكد عليه المطلعون في الأسباب الرئيسية لانقلاب الحناوي هو الرغبة الجامحة في الوحدة مع العراق، وكان حزب الشعب هو الذي تبنى هذه السياسة، حتى ليذكر عبدالحق شحادة في ذكرياته قوله: «والواقع أنه ما أن نجح سامي الحناوي بانقلابه إلا واتصل هاتفياً بنوري السعيد ليقول له ما يلي: هل أعلن ضم سورية إلى العراق؟ فأجابه: كلا، كلا.. اترك هذا للشعب السوري ليقرر بنفسه بالطرق الديمقراطية. وبهذه المناسبة أذكر أن صديقا حميماً كان قد روى لي عن فاروق الحناوي ابن سامي الحناوي بأن هذا الابن يعرف قصة الاتصال الهاتفي بين والده وبين نوري السعيد، ويؤكد هذه الواقعة»[1]

ووقف ميشيل عفلق وأكرم الحوراني ضد هذا الاتجاه من داخل الوزارة، ووراءهما حزب البعث العربي الاشتراكي، والحزب الوطني كذلك الذي كان يمثل اتجاه التقارب مع مصر والسعودية، وكان تخوف هذه الاتجاهات من الوحدة مع العراق ناشئ من سببين رئيسيين: اولهما: ارتباط العراق بإنكلترا، وتغلغل النفوذ البريطاني فيها، حيث كانت القاعدتان العسكريتان في (مطار الحبانية) و(معسكر الرشيد) قاعدتين بريطانيتين. الثاني: النظام الملكي القائم في بغداد. وحفاظاً على استقلال سورية، وحفاظا على النظام الجمهوري فيها. كان موقف المعارضة هذا. وكان الجيش السوري من أشد المعارضين للوحدة مع العراق.

لم تكن الحركة الإسلامية لتغيب عن الساحة في المجال السياسي، وفي هذه القضايا الخطيرة بالذات، بل كانت معبرة عن آمال وتطلعات السوريين في هذا

---

(١) ذكريات ضابط سوري، عبدالحق شحادة، ص ١١.

المجال ورائدة فيه «وقام الفرع السوري لحزب الإخوان المسلمين، وقد انتظم في جبهة اشتراكية إسلامية في أوائل عام ١٩٤٩ بالدفاع بدوره عن الجمهور إزاء المطامح العراقية، فقام مرشحوها بدور حسن في دمشق في انتخابات ١٩٤٩، وبرزت كقوة سياسية يحسب حسابها، ومعارضة للزعيم. وفي الحادي عشر من تشرين الثاني نشرت صحيفة الحزب الناشئة (المنار الجديد) بياناً انتخابياً دعت فيه إلى قيام روابط أمتن بين الدول العربية، وحماية استقلالها من التدخل الاجنبي. وقيام جبهة متحدة في وجه المؤامرات الامبريالية» [1].

وأدت الانتخابات النيابية إلى فوز حزب الشعب بـ ٥١ مقعداً من أصل ١١٤. بينما لم يفز خصومهم بأكثرية تذكر. وكانت الانتخابات في الأصل لجميعة تأسيسية تضع دستوراً للبلاد.

وقد دفع النصر الذي أحرزه حزب الشعب الناس إلى توقع خطوة فورية باتجاه العراق، وكان الخلاف على نص القسم الذي سيؤديه رئيس الدولة (هاشم الأتاسي) وأعضاء الجمعية التأسيسية بمثابة تورية للخلاف بين المؤيدين للوحدة ومعارضيها، وكانت فرصة لقيام الصدام الأول بينهم، إذ قام ثلاثة نواب معروفين تماماً بتعاطفهم مع الهاشميين وهم: حسني البرازي وحسن الحكيم وزكي الخطيب بإعداد مسودة القسم يتعهد المحلفون فيها أمام الله بأن يحترموا القوانين ويصونوا استقلال الوطن وسيادته ووحدته، وأن يحافظوا على الخزينة العامة ويعملوا لتحقيق وحدة البلاد العربية». ولكن هذا النص لم يشر أبداً إلى النظام الجمهوري، وهو حذف سرعان ما أمسك به معارضو الوحدة.. وقاد كل من أكرم الحوراني وعبدالباقي نظام الدين المعارضة في المجلس النيابي، يدعمهما زعيم

(١) الصراع على سورية، لسيل، ١١١-١١٢.

الجبهة الإسلامية الاشتراكية مصطفى السباعي، وبعض المعارضين للوحدة مع العراق والمنشقون عن حزب الشعب مثل عبدالوهاب حومد الذين شكلوا معاً جبهة جمهورية لتشدد الهجوم. ولكن حزب الشعب وبعض أتباعه من المستقلين استطاعوا الحصول على أغلبية سهلة، وتمت الموافقة على نص القسم دون أي تعديل في السابع عشر من كانون الأول»[1].

الانقلاب الثالث:

حين يعجز الحوراني عن تحقيق أهدافه عن طريق الديمقراطية يلجأ إلى القوة لتحقيق هذه الأهداف. لقد كان أقرب المقربين إلى الزعيم. وعندما افترقا خطط لإسقاطه وسقط، وكان من أقرب المقربين إلى الحناوي، وعندما افترقا خطط لإسقاطه وسقط. وكانت أداته التنفيذية في الجيش صديقه الحميم أديب الشيشكلي. وكلاهما حمويان سنيان يقودان حلبة الصراع على السلطة.

«وعندما لم يكن هنالك عائق يمنع من قيام اتفاق فوري مع بغداد، شعر كل من أكرم الحوراني والعقيد أديب الشيشكلي بضرورة التدخل.. وفي ليلة التصويت زار أكرم الحوراني المقدم أمين أبو عساف والرئيس فضل الله أبو منصور الضابطين الدرزيين اللذين نفذا انقلاب الحناوي، وكانا لا يزالان على رأس اللواء الأول، وقال لهما: أنتما فقط تستطيعان أن تنقذا البلد، وتضعا نهاية لهذا الفساد، وسيسجل التاريخ منجزاتكما ويقدّر عملكما، فإذا ما ترددتما ولو لبضعة أيام فإن الفرصة ستضيع، وسيدخل جيش إمبريالي سورية تحت ستار من الجيش العراقي، وسيستعبد ويخضع بلدنا من جديد. وبعد أن كسبهما بالتماسه هذا تعهد الضابطان بتقديم الدعم للتآمر. وفي اليوم الثاني، وبعد أن اشتم

---

(١) الصراع على سورية، باتريك سيل، ص ص ١١٨-١١٩.

الحناوي رائحة العصيان، قرر ان يستبدل قائد الكتيبة المدرعة بالمقدم صبحي عبارة، وهو رجل لا يمكن أن يتطرق الشك إلى إخلاصه، وقد ذهب إلى مركز الكتيبة برفقته حامية من الشرطة العسكرية، ولكن رجال الشيشكلي اعتقلوا المقدم عبارة في تلك الليلة، وعادت المصفحات تخترق شوارع العاصمة لتعتقل اللواء الحناوي وصهره أسعد طلس، ورئيس الشرطة العسكرية محمد معروف، ورئيس المكتب الثاني محمود الرفاعي وعدداً آخرمن صغار الضباط.

وفي صباح اليوم التاسع عشر من شهر كانون الأول أصدر الشيشكلي بياناً أبلغ فيه الأمة أن الجيش قد أرغم على أن يضع حداً لمؤامرات رئيس الأركان العامة وعدد من «السياسيين المحترفين»، الذين وبالتواطؤ مع عناصر أجنبية هددوا سلامة الجيش وبنيان الدولة والنظام الجمهوري»[١].

لم يكن للإخوان المسلمين ولا للجبهة الاشتراكية الإسلامية التي كانت تقود الشارع الإسلامي أي دور في مراكز القوة والسلطة للأسباب التي سبق أن قدمناها، بينما كان الحوراني والشيشكلي والأقلية الدرزية يملكون ناصية الأمر في الجيش، فكان القرار في النهاية قرارهما، لكن هناك فرق واضح بين الشيشكلي والحوراني، فالحوراني يقود حزباً فيه كوادر كبيرة من الأقليات الدرزية والعلوية، بحيث كانت هذه الأقليات تخطط من بعيد لتتسلق إلى الحكم من ورائه، أما الشيشكلي فلم يكن يملك إلا موقعه العسكري وسيطرته في الجيش. وسنرى فيما بعد أنهما يفترقان ويتصارعان حتى يودي أحدهما بالآخر.

صراع المدنيين والعسكريين السنة على السلطة:

قامت خمس وزارات خلال سنتين تقريباً، مثلت الصراع تماماً على السلطة

---

(١) المصدر نفسه: ١١٩، ١٢٠.

بين الجيش والمجلس النيابي، هذا في ظاهر الأمر، وفي أعماقه كان صراعاً إقليمياً بين الحمويين والحلبيين كما سنرى فيما بعد.

الوزارة الأولى:

وقد شكلها ناظم القدسي وسيطر عليها حزب الشعب بينما كان يقود المعارضة أكرم الحوراني ومصطفى السباعي والجيش، وقد رفضها الجيش لأن وزارة الدفاع كانت بيد حزب الشعب المتمثل بفنصي الأتاسي، وهي أقصر الوزارات عمراً في تاريخ سورية، وقد أسقطها الجيش وانتصر.

الوزارة الثانية:

حيث قام خالد العظم بتأليف الوزارة الجديدة، استلم فيها أكرم الحوراني وزارة الدفاع، ودل ذلك على مدى نفوذ الحوراني في الجيش، حيث باركها الشيشكلي. وكان من أول مهامها أن تصدر مرسوماً باحالة اللواء الحناوي على التقاعد، وتنصب الزعيم أنور بنود رئيساً للأركان. وقد فضل الشيشكلي سيد الموقف الحقيقي منصباً أقل شهرة، وهو منصب نائب رئيس الأركان. ولم يقف حزب الشعب مكتوف الأيدي أمام هذه الوزارة التي جاءت بالرغم عنه، فمضى من خلال أكثريته في المجلس النيابي ليشكل لجنة الثلاثة والثلاثين رجلاً الذين أنيط بهم وضع مسودة الدستور.

وبرزت الجبهة الإسلامية الاشتراكية التي كان الدكتور السباعي رحمه الله يقودها تقود معركة ضارية لإعادة الشريعة الإسلامية إلى الحياة. حيث أوكل الثلاثة والثلاثون نائباً إلى تسعة نواب أن يقوموا بصياغة مسودة الدستور، كان الدكتور السباعي أحدهم، وكان نائباً لرئيس المجلس النيابي آنذاك، ودخل المجلس النيابي بفوز ساحق نائباً عن مدينة دمشق. وأمسك حزب الشعب العصا من الوسط، فلم يرفض الإسلام بتاتاً، ولكنه أبعده عملياً عن التشريع، إذ أقر

الدستور مادتين إسلاميتين فقط، هما: ١- دين الدولة الإسلام ٢- الفقه الإسلامي مصدر رئيسي من مصادر التشريع. وأمام الأغلبية المنحرفة أقرت اللجنة التساعية هذه الصيغة.

لكن العلمانيين في سورية كبُر عليهم حتى هاتين المادتين. فأقاموا حرباً شعواء عليها.

«المادة الثالثة التي أعلنت الإسلام ديناً للدولة كانت موضوع نزاع عنيف في الصحف بين المسلمين المحافظين والمدافعين عن الدولة العلمانية، وقد نشرت صحيفة البعث أن ٢٣٥ طالباً جامعياً قد التمسوا من رئيس الدولة بأن يقضي على كل الفوارق الطبقية، واهتمت الطوائف المسيحية كثيراً بالأمر، وعالجت معظم عظات عيد الفصح هذا الموضوع، وقال بطريرك اليونان الكاثوليك لجموع المصلين: عليكم أن تناضلوا لتبرهنوا أن الحق إلى جانبكم، وأنكم لستم لاجئين في وطنكم. وهاجمت الصحيفة الإسلامية (المنار) الجدال الذي أثارته الطوائف المسيحية مثنية على القيم الروحية للشريعة الإسلامية. وفي أوج هذا الخلاف استقال الحوراني من الوزارة في الخامس والعشرين من نيسان معلناً بأنه يعترض على خمس عشرة مادة من الدستور الجديد على الأقل، وأنه لم يؤخذ رأي الحكومة في المسودة» [1].

لقد كانت قضية إبعاد الإسلام عن الساحة السياسية من أهم القضايا التي تشغل الحوراني، فكوادر حزبه الذي أعلنه مجدداً عام ١٩٥٠ كان أغلبها من النصيريين والدروز والفلاحين. ومن أهم بنود هذا الإعلان: إخماد الطائفية الدينية وتحرير المرأة، ومن أجل ذلك كان يرفض استمرار مادة دين الدولة

---

(١) الصراع على سورية لسيل: ١٢٩-١٣٠.

الإسلام، ومضى ليسقط هذا الدستور بكل ما يملك من قوة. ولا تطمع الأقليات غير المسلمة في سورية بأكثر من ابعاد الإسلام عن التشريع في الحياة السياسية، وليكن بعد ذلك ما يكون من الأفكار الديمقراطية أو الاشتراكية، فالبشر هم الذين يصنعون منهج حياتهم. وسقطت الوزارة الثانية بالتقاء مصالح حزب الشعب ومصلحة الحوراني، وقام الحوراني بالتنصل من مسؤولية الدستور المقترح.

الوزارة الثالثة:

وقد تم تشكيلها في ٤ حزيران عام ١٩٥٠، وقد ألفها ناظم القدسي الأمين العام لحزب الشعب، وقد قدم في هذه المرة التنازلات المطلوبة، وسلم وزارة الدفاع لفوزي سلو الضابط العسكري الذي يعمل الشيشكلي من خلاله. وأصبح حزب الشعب بلا سلطة حقيقية. وتحرك الحزب الوطني العدو التقليدي لحزب الشعب لينضم للمناوئين له. وأثيرت في عهد القدسي قضايا حساسة حول حياد سورية بين المعسكرين الكبيرين. وقاد الدعوى لهذا الحياد البعثيون والإسلاميون.

تنادت الجبهة الاشتراكية الإسلامية إلى اجتماع في الثاني عشر من آذار، وأعلن واحد من زعمائها وهو الشيخ مصطفى السباعي: «نعتزم التوجه إلى المعسكر الشرقي اذا لم ينصفنا الديمقراطيون.. ونجيب أولئك الذين يقولون إن المعسكر الشرقي هو عدونا، متى كان المعسكر الغربي صديقاً لنا؟ إننا سنربط أنفسنا بروسيا ولو كانت الشيطان نفسه»[١].

كانت هذه واحدة من عدة انفجارات متشابهة، ومما يجدر ذكره هنا أن الجبهة الإسلامية الاشتراكية على نقيض الإخوان المسلمين في مصر كانت بعيدة

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ١٤١و١٤٤.

عن كونها تنظيماً شبه عسكري أو أداة سياسية، كانت وبحق ناطقاً أصيلاً عن الجماهير السورية التي كانت وستبقى مسلمة غيورة.

«وفي كانون الثاني عام ١٩٥٠ أعلن حزب أكرم الحوراني العربي الاشتراكي منهاجه داعياً لسياسة خارجية حرة من أي توجيه أو تأثير أجنبي» [١].

ومن حزب الشعب انفرد الدكتور معروف الجواليبي يهذا الرأي.

وقد عقد الرؤساء العسكريون البريطانيون والأمريكيون سلسلة من المؤتمرات في مالطة في كانون الثاني وآذار عام ١٩٥١، والتحق بهم في نيسان قواد البحرية الإيطالية والفرنسية، وذلك لمحاولة وضع ميثاق دفاعي عن الشرق الأوسيط ضد المعسكر الاشتراكي، وكان الموقف الضعيف الذي وقفه القدسي أمام هذه المؤامرات سبباً رئيسياً في إنهاء وزارته، وأعلن: إن سياستنا الخارجية سيسيرها التطور المستمر للوضع الدولي. وفي جريه العقيم وراء صيغة للاتفاق مع العراق لم يستطع أن ينادي بالحياد، ولم يسمح له حزبه أيضاً باتخاذ موقف واضح إلى جانب الغرب كموقف حسن الحكيم، ومنير العجلاني»[٢].

ولكنه لم يغادر الوزارة حتى حمّل الفرنسيين مسؤولية سقوطه:

«لقد وجدوا أنهم لا يمكن ان يحتملوا كوننا نعمل من أجل وحدة عربية، وكانوا يخشون أيضاً من أن نعمل على انتزاع بنك سوريا ولبنان من سيطرة فرنسا. إن حكومتي هي أول من أمم المشروعات الأجنبية في الشرق الأوسط، لقد استولينا على شركات المياه والكهرباء الإفرنسية في حلب، وشركة الكهرباء الفرنسية في حمص، وشركات الكهرباء والنقل الإنكليزية في دمشق، وإدارة

---

(١) الصراع على سورية لسيل: ١٤١ و١٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٤١ و١٤٤.

حصر التبغ الفرنسية، فاعتقد الفرنسيون من ثم أن لدينا بالنسبة للبنك خططا مماثلة» [1]. وقد مثل القدسي في هذه المرحلة أقصر وزارة وأطول وزارة.

الوزارة الرابعة:

وكانت وزارة حسن الحكيم رغم ولائه للهاشميين في شهر آب عام ١٩٥١، واستمرت هذه الوزارة ثلاثة أشهر تقريباً، حين ناور حزب الشعب ضد الحكيم، وكما قال: «إن الحزب الذي أتى بي إلى السلطة هو الذي طعنني فيما بعد في ظهري، لأني رفضت أن اكون دمية بين يديه وأعمل كدرع واقية بينه وبين السلطات العسكرية» [2].

الوزارة الخامسة:

وقد ألفها الدكتور معروف الدواليبي في الثامن والعشرين من تشرين الثاني، «والدواليبي مرشح جيد لأسباب عدة: فهو أحد أعضاء حزب الشعب، ولكنه لم يكن يميل إلى الهاشميين، وهذا ما ضمن رأي المسلمين المحافظين. وقد نادى للإصلاح الزراعي وتوسيع التسهيلات التربوية وإعادة توزيع الثروة، وهذا ما جعله في طليعة التقدميين، وقد تبنى الحياد، وهو من أوائل الذين طالبوا بإقامة معاهدة عدم اعتداء مع روسيا، وشراء السلاح من الشرق لكسر احتكار الغرب للسلاح. لقد كان شعاره: مزيداً من الأصدقاء لا الأعداء لسورية. وقد وصفته الصحافة الأمريكية على أنه أكبر زعيم عربي معاد للأمريكان. وفي داخل البلد عارض تدخل الجيش في السياسة، وعلى هذا فقد أمسك زمام وزارة الدفاع بنفسه، وأعطى حزب الشعب حصة الأسد في المراكز الوزارية الأخرى»[3].

---

(١) المصدر نفسه، ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ١٥٤.

(٣) المطدر نفسه، ١٥٦.

ولا شك أن سببين رئيسيين كانا وراء تحطيم وزارته:

السبب الأول: الصراع على السلطة بين الجيش وحزب الشعب، فقد رفض الجيش خلال هذه الفترة أي وزارة يتولى وزارة الدفاع فيها غير ضابط منه، عدا قبول شخصية الحوراني في بعض الوزارات، فلا بد أن يبقى الجيش هو صاحب السلطة على نفسه، ومهيمناً من جهة ثانية على الحكم من خلال وجوده في الوزارة، وهذا ما رفضه الدواليبي بعنف، وأدى إلى سقوطه.

السبب الثاني: هو إسناد وزارة من الوزارات الهامة إلى الجبهة الإسلامية الاشتراكية، فقد كان الاستاذ محمد المبارك هو وزير الخارجية في هذه الوزارة، وهذا لن يقبله الجيش وحلفاؤه من البعثيين وغيرهم. فلذلك كان تحذير الشيشكلي للدواليبي «بأن القائمة الوزارية التي قدمها لم تكن مقبولة، وستضطره إلى أن يحل المجلس النيابي، وهذا على ما يبدو ما كان يود أن يجتنبه كلياً.

ولكن الدواليبي لم يرض بأية تسوية، وهكذا فقد ضربه الشيشكلي، ففي ليلة ٢٨-٢٩ تشرين الثاني أمر بالقبض على رئيس الوزراء وأعضاء الحكومة والأمين العام لحزب الشعب ناظم القدسي وعدد من ذوي الميول الهاشمية أمثال حسني البرازي، وأبلغ بيان مؤرخ بتاريخ ٢٩ تشرين ثاني الأمة بأن الجيش قد تولى المسؤولية من أجل السلامة والأمن العامين. وفي إذاعة إعلانية في ذلك الصباح اتهم الشيشكلي حزب الشعب بكونه مسؤولاً عن الانقلابات الثلاثة التي حدثت من قبل. وقال: إن الجيش السوري يعتقد بأن حزب الشعب لم يكن يمثل الشعب، وبأن الهدف الرئيسي للحزب كان التآمر على البلد وتخريب جيشه، وإعادة الملكية» [1].

---

(١) الصراع على سورية لسيل: ١٥٦-١٥٧.

الإقليمية تذبح البلد: ومن خلال التعمق في أسباب الصراع على السلطة في سورية، نلاحظ أن الإقليمية والعصبية لهما دور كبير في تحطيم البلد وعدم استقراره. لقد كان الشيشكلي والحوراني يمثلان سلطة الجيش. وكان حزب الشعب يمثل السلطة الدستورية، وكل فريق يزعم نفسه الحارس الأمين على البلد، وصاحب الحق في التصرف فيه. لكننا لا ننسى أبداً أن الحوراني والشيشكلي حمويان من مدينة حماة، وأن قيادات حزب الشعب كلها تقريبا من مدينة حلب، فكان صراع نفوذ بين قيادات المدينتين.

ومن جهة ثانية، فقد كان الصراع المحوري بين حزب الشعب والحزب الوطني على أشده، ويوضع ستار من المبادئ على هذا الصراع، لكنه في الحقيقة صراع بين قيادات مدينة دمشق وقيادات مدينة حلب، ويأبى كل فريق أن ينصاع للآخر، أو يقبل حكمه. وبدلاً من أن يكون التنافس الشريف قائماً لخدمة سورية وتقدمها وازدهارها، كان مصبوغاً بالحرص على الحكم وشهوة التسلط. وسرعان ما يتهم كل فريق الاخر بالخيانة أو شبه الخيانة. وقد رأينا ما دافع القدسي به عن نفسه وعن حزب الشعب فيما مضى.

وهذا يوجه الأنظار كذلك إلى صراع آخر، هو الصراع الحقيقي على مستقبل سورية.

لقد كانت الساحة السياسية فارغة للصراع بين الأحزاب التي تمثلها الأكثرية السنية، وكان اندفاعها الأعمى وراء الديمقراطية يصوّر لها أن الحكم للشعب وللمجلس النيابي وللأمة. ومن أجل ذلك طوت كشحاً عن الجيش، وتركته فريسة سهلة، فقد كانت القيادات السنية ذات الثراء الطائل من حزب الشعب أو الحزب الوطني أو من لف لفهم مشغولين في أن يبعثوا أولادهم للدراسة والتخصص في أوروبا ليدرسوا السياسة والاقتصاد والحقوق في السوربون

وغيرها، ويعودوا وزراء ورؤساء لسورية ليحكموها. أما الجيش، فكان ممقوتاً عندهم لسيطرة الأقليات عليه، وللحياة الخشنة والصعبة التي يحياها الضابط في الجيش، أما الترف والبذخ والحياة الهنية السهلة فهي في الميدان المدني والسياسي. وتركوا الجيش لتنقض عليه الأقليات الدينية. وهم يلهون في صراع عصيب على السلطة المدنية، حتى إن رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب يفخر وهو يتحدث عن الانتخابات بأنه منع ولو جندياً واحداً من الجيش أن يدلي بصوته فيها، وهذا دليل نزاهتها، ودليل إبعاد الجيش عن السلطة والحكم. بينما كان النصيري حسب توجيهات رؤسائه الروحيين، لا يمكن أن يزوجه أحد إذا لم يكن في الجيش، مجنداً عادياً او جندياً أو صف ضابط أو ضابط. وحسبت القيادات الحزبية ان سورية ستبقى مزرعة لهم، وسيكون الجيش أداة لتنفيذ سلطتهم وآرائهم، وحامياً لحدود الوطن. ولكن هيهات، فالشعب السوري كله تغلي السياسة في دمه، وكل فرد فيه يقول: لو أعطيت السلطة أربعاً وعشرين ساعة لفعلت وفعلت. ويحسب أن إنقاذ البلد لن يتم إلا على يديه.

عهد الشيشكلي

يمكن أن نقول بحق: إن الشخصية الوحيدة التي حكمت سورية وكانت واعية على الخطر الطائفي هي شخصية الشيشكلي، ومن أجل ذلك كانت أعنف معاركه مع الطائفيين. ولقد حكم بعد انقلابه الثاني من خلف الستار كذلك، «وبحرصه المتميز لم يتخذ أي لقب رسمي في القيادة السياسية، واختار بدلاً من ذلك أن يحكم من خلال الزعيم فوزي سلو الذي منحه بمرسوم مناصب رئيس الدولة ورئيس الوزراء ووزير الدفاع. ولقد قام سلو وهو حكيم (موثوق) بدور الرئيس الصوري لهذا العهد، وبدور رئيس الأركان العامة، بينما أمسك الشيشكلي بحرية ومرونة مهمة القائد الأعلى من خلف الستار. لقد دخل سلو القوات

الخاصة وعمره تسعة عشر عاماً في سنة ١٩٢٤، ثم بزغ ليصبح رئيساً للكلية الحربية بحمص مباشرة بعد جلاء الفرنسيين عام ١٩٤٦. وقد اشتهر كرئيس للوفد السوري إلى محادثات الهدنة مع إسرائيل بعد حرب فلسطين. وأصبح بعد ذلك وزيراً للدفاع في الوزارات المدنية من حزيران عام ١٩٥٠ حتى تشرين الثاني ١٩٥١، وقد وقع اختيار الشيشكلي على سلو ليتسنى له من خلاله أن يمارس الإصلاحات العديدة التي شعر وكحاكم مطلق أن من واجبه القيام بها»[١].

الشيشكلي والعروبة والإسلام

حتى نحدد بدقة شخصية الشيشكلي، لا بد من الإشارة ابتداءً إلى أن الطرح الإسلامي في الجيش والسلطة كان مرفوضاً تماماً. ورأينا أن الحد الأقصى الذي استطاعت الحركة الإسلامية الوصول إليه هو أن يكون الإسلام مصدراً رئيسياً للتشريع.

لكن العروبة كانت ستاراً جيداً للتحرك تحته، والعروبة هذه التي لا تحوي فلسفة معادية للاسلام هي التي يؤمن بها الشيشكلي وكثير من القيادات العسكرية والسياسية المستقلة. وهي غير القومية العربية التي طرحها البعث العربي الاشتراكي فكراً علمانياً بديلاً عن الإسلام.

وتحت ستار العروبة يكون التحرك الإسلامي ضد الطائفية التي تريد أن تمزق الأمة، وتقيم كيانات خاصة بها، وليس هذا اتهاماً لهذه الطوائف، فالنصيرية بقيت ربع قرن مستقلة عن الكيان السوري، وفي عز ورعاية فرنسا الأم كما رأينا من قبل، والدروز بقوا كياناً مستقلاً ذا سيادة في ظل الحكم الفرنسي. وتحت ستار

---

(١) الصراع على سورية لسيل، ١٦٢.

العروبة يمكن مواجهة النشاط الأجنبي الاستعماري وواجهته التبشيرية، وتحت ستار العروبة كذلك يمكن مواجهة المد الإسلامي الذي يطرح الشريعة الإسلامية دستوراً لسورية. فالعروبة المطروحة في ذلك الوقت تمسك العصا من الوسط، ولكن العنصر السني هو الذي يمثلها. ومن هنا افترق الحوراني عن الشيشكلي فيما بعد.

بين الشيشكلي والسباعي:

«دعا الشيشكلي خمسة نواب يمثلون حزب البعث والحزب العربي الاشتراكي، والجبهة الإسلامية الاشتراكية وجبهة الجمهوريين، والقوميين السوريين، وأبلغهم بالإجراءات التي اتخذها الجيش.

وحاول السباعي إقناع الشيشكلي بإعادة الحياة البرلمانية إلى البلاد والإفراج عن الدكتور الدواليبي، وتردد أياماً بينهما، لكنه لم يوفق، على الرغم من أن الدواليبي وافق على تقديم استقالته وهو لا يزال رهن الاعتقال.. ولكن المشكلة كانت عند الشيشكلي في البرلمان، وفي سيطرة حزب الشعب عليه . وانتهى الأمر باعتقال السباعي وضمه إلى صديقه الدكتور الدواليبي، وبقي السباعي في السجن نحو أربعة أشهر. قام الشيشكلي خلالها في منتصف كانون الثاني ١٩٥٢م بحل جماعة الإخوان المسلمين ... ثم أفرج عن الأستاذ السباعي، ودعاه لمقابلته . وقد كانت هذه المقابلة على الشكل التالي:

قال الشيشكلي: يؤسفني يا أيها الأستاذ تصدر عني إساءة نحوك وأنا الذي أقدر جهادك وأثق بإخلاصك ومن معك، وقد كان الأحرى أن نأتلف بدلاً من أن نختصم ونختلف، ومع ذلك فإن المجال لا يزال أمامنا متسعاً، لذلك فلننس الماضي ولنتعاون.

فقال السباعي: ولكن الذي وجدته منك أكد لي أن لا سبيل إلى التلاقي.

قال الشيشكلي: ولم لا ؟ إنك تدعو للإسلام، وأنا والله مسلم يملأ قلبي الإيمان بالله ورسوله وكتابه، فكيف لايتم تلاقينا؟

قال الأستاذ السباعي: لعلك تفهم الإسلام عبادة وعقيدة! أما نحن فالإسلام في مفهومنا نظام يشمل الحياة، ويقدر لكل شيء حسابه. ومعنى ذلك أننا لانستطيع القبول بالواقع الذي تفرضه القوة، ولابد لنا من النضال، بكل الوسائل المشروعة حتى نعيد إلى هذه الديار نظامها الإسلامي الذي دخلت به أمتنا التاريخ، وبه تسنمت مركز القيادة العالمية من أوربة إلى أقصى الصين.

وهنا لم يبق متسع لاستمرار المحاولة، فأعلن صاحب الإنقلاب أسفه لإصرار السباعي على معارضته، ونهض ليودعه وهو يقول: إذن فنحن معذورون في اتخاذ كل مانراه ضرورياً لحماية أهدافنا، ولكنني آمل ألا نيأس من إمكان التلاقي في وقت آخر. عندما تتضح لكم حقيقة أغراضي يا دكتور.

يقول الأستاذ محمد المجذوب- الذي نقل هذه المقابلة على النحو الذي حدَّثهُ بها السباعي-: وكان طبيعياً أن يفرض الحصار على تنقلات الفقيد وعلى داره التي أخذت تزدحم بالزائرين من مختلف أنحاء دمشق وغيرها. ثم رأى الشيشكلي أن دمشق لا تتسع له وللفقيد، فأخرجه إلى لبنان، حيث بقي في منفاه إلى نهاية ذلك العهد»[1].

الإصلاحات في عهد الشيشكلي:

«بدأ نظام الشيشكلي يفوق أسلافه بنشاطه الخاص، فقد كان عدد من إجراءاته ذات الطابع الشوفيني يهدف إلى ردع تأثير الأجانب وزعماء الدين والأقليات العنصرية، وتوسيع إشراف الحكومة، فشمل المدارس السورية الخاصة

---

(١) مصطفى السباعي، الداعية المجدد. للدكتور عدنان زرزور. ص ص ٢٨٦- ٢٨٩.

والأجنبية ومنع افتتاح المدارس التبشيرية، وكذلك جعل استلام تبرعات من الخارج لأغراض تربوية منوط بوافقة وزير التربية، ومنعت منظمات الشباب والنوادي من ممارسة أي نشاط سياسي، بينما أعيد تنظيم الجمعيات الكشفية والرياضية بمرسوم لكي يستبعد وجود أعضاء ذوي اتجاهات طائفية أو عنصرية، وقد أمر مدرسو الدين وأئمة الجوامع بارتداء عمامة وزي موحد، وحرم عليهم ارتياد المقاهي وأماكن اللَّهو، وفي اليوم الأول من رمضان الموافق للرابع والعشرين من آب عام ١٩٥٢ أمرت دوريات الشرطة بأن تلقي القبض على أي شخص يرى وهو يخرق حرمة الصيام. وقد أخضع الأجانب إلى رقابة أشد، ولم يسمح لهم بشراء أي عقار، وخضعت العلاقات مع الدول الأجنبية لتفحص دقيق، ومنع استعمال الشيفرة في كل المراسلات غير الدبلوماسية. وفقدت كل من الجامعة السورية والمجمع العلمي العربي ومصلحة الآثار حق الاتصال مباشرة بمؤسسات أجنبية. لقد كان على الرسميين في كل وزارة أو هيئة شعبية أن يدعوا بريدهم يمر عن طريق وزارة الخارجية، وقد جعل استلام النقود من الأجانب لأغراض الدعاية جنحة جرمية يعاقب عليها بالغرامة والسجن. وحرم دخول سورية على المتسولين والمجانين والفاسقات والمجرمين المطلوبين وأي شخص يحتمل أن يقلق الأمن والسلام.

وللقضاء على أية معارضة أمرت الحكومة في منتصف كانون الثاني عام ١٩٥٢ بحل الفرع السوري للإخوان المسلمين، وأغلقت مكاتبهم ومدارسهم في أنحاء القطر، واتخذت إجراءات مشابهة ضد الحزب الاشتراكي التعاوني وزعيمه فيصل العسلي، ومنع الموظفون المدنيون والاتحادات التجارية من المساهمة في النشاط السياسي، وفي نيسان تبع هذا الاجراء حظر عام على كل الأحزاب السياسية، وطرد عدد من كبار الموظفين من وظائفهم، بينما سرّح عدد من أساتذة

المدارس ومحاضري الجامعات إذ رفضوا أن يقسموا يمين الولاء للحكم. «ليس هنالك بلد في الشرق الأوسط أكثر تنظيماً» هذا ما أوردته التايمز. لقد قدر مراسلها بأن اوتوقراطية الشيشكلي التي يديرها أمناء عامون للوزارات يوجههم الزعيم سلو قد قامت في الأشهر الستة الأولى من الحكم بمراسيم تقدر بمرسوم وربع المرسوم في اليوم ... وقد نسبت غزارة الأمطار التي كانت تبشر بمحاصيل خيّرة إلى الرضا الالهي الذي استحقه القائد بحكمته واستقامته.

لقد أقام الشيشكلي في ستة أشهر ديكتاتورية مركزية صارمة، وأسكت منتقديه بطرق بوليسية تقليدية وبإتمام إصلاحاته الهامة. وبعد أن أبعد السياسيين عن العمل واستند إلى دعم الجيش وجد في سورية بلداً يسهل حكمه، وقد أشار المراقبون الأجانب، الذين رأوا أن حركة المرور قد انضبطت، وأن النقليات العامة لم تعد مزدحمة بأن أتاتوركاً جديداً قد ظهر في الشرق، وفي نصف السنة التي سبقت إبعادها عن الأضواء، والذي سببته الثورة المصرية في تموز عام ١٩٥٢، كانت سورية تحتل مسرح الشرق الأوسط»[١].

حركة التحرير العربي:

أدرك الشيشكلي أنه لا بد من بديل قائم في الساحة عن حل الأحزاب السياسية، حتى تشارك الجماهير في الحكم والرأي، بعيداً عن تسلط الأحزاب السياسية القديمة.

ويحدثنا أحد أركان عهد الشيشكلي عن هذا البديل فيقول:

«.. ونحن نفكر باختيار نظرية سياسية لنظام الشيشكلي، قد استبعدنا ثلاث نظريات.. استبعدنا بصورة نهائية نظرية (الحكم الفردي المطلق)، واستبعدنا مؤقتاً

---

(١) الصراع على سورية لسيل: ١٦٣-١٦٤.

(نظرية حكم الشعب بالشعب وللشعب)، واستبعدنا نهائيا نظرية (الحكم الشمولي المسماة بدكتاتورية العمال).

استبعدنا كل ذلك.. مختارين طبعاً نظرية (حكم الصفوة للشعب).

وليس معنى الصفوة هنا هو صفوة سورية كلياً دون استثناء. لأن هذا عملياً غير متاح، وقادنا اجتهادنا التطبيقي لنظرية الصفوة إلى انشاء ثلاث مؤسسات استشارية للشيشكلي، والتي تعبر عن القيود والضوابط التي تحد من هيمنة الفرد كما تعبر عن حكم الصفوة.

«١- مجلس لكبار الضباط وسمي في ذلك الوقت (مجلس العقداء)، لأنهم كانوا كلهم برتبة عقيد بما في ذلك الشيشكلي. وكانت هذه من الرتب الكبيرة جداً في الجيش السوري. وكان من أبرز أعضاء هذا المجلس سعيد حِبِّي، ومحمود بنيان، وشوكت شقير، وعزيز عبدالكريم، وتوفيق نظام الدين، ومحمود شوقي، وربما معهم بكري قوطرش. وكانت اجتماعاته علنية، وكان اهتمامه منصباً على مساعدة الشيشكلي في الأمور العسكرية الكبرى.

«٢- مجلس لصغار الضباط الذين ساهموا في انقلاب الشيشكلي، والذين أيدوه بكفاءة وإخلاص. وكانت اجتماعاته سرية وغير منتظمة. أما لماذا كانت اجتماعاته سرية فحتى لا تثير حساسيات كبار الضباط، وخاصة مجلس العقداء، وكان هذا المجلس يضم أمين النفوري، وأحمد عبدالكريم، وطعمة العودة الله، وحسين حدو، وغالب شقفة، وبكري زيري، وهشام كيالي... أما أحمد حنيدي فكانت صلتنا به عن طريق طعمة العودة الله. وكنا كلنا ضباطاً قوميين مستقلين غير حزبيين، ربما كنت أنا الاستثناء الوحيد لأني كنت عضواً في الحزب العربي القومي في حلب، وهو حزب يكاد يكون حزباً محلياً .. وكانت مهمتنا الأساسية مساعدة الشيشكلي في التنقلات والتسريحات في الجيش، وخاصة للضباط

الصغار، كما كانت مهمتنا الأمن في الجيش ضد الانقلابات والتمردات.

٣-تنظيم سياسي مدني لمساعدة الشيشكلي في الأمور السياسية والمدنية، وتجلى ذلك بتكوين حركة التحرير العربي بعد حل الأحزاب، وكان لي دور كبير في اقتراح هذه الحركة وفي انشائها والتي كان نواتها أعضاء الحزب العربي القومي، وأكثريتهم من حلب. [١]

أما عن سبب تسمية (حركة التحرير العربي) بهذا الاسم، فالمراد منه تحرير الإنسان العربي من الجهل والمرض والخوف والفقر، وتحرير الوطن العربي من التخلف والتبعية الأجنبية، وما بعد التحرر من هذه القيود والعوائق الأخرى، أما عن سبب اعتبار (الحزب العربي القومي) نواة (حركة التحرير العربي) فذلك لأن هذا الحزب هو الذي تبنى الحركة بعد حل الأحزاب، وكنت قمت بتعريف الشيشكلي على أعضاء هذا الحزب، وهؤلاء أبدوا استعدادهم لتبني فكرة (حركة التحرير العربي)، وبالتالي تبني الشيشكلي كله، وتبني نظريته السياسية. وكنت قد أقنعت أعضاء هذا الحزب قبل حل الأحزاب، وقبل أن أجمعهم بالشيشكلي بأن الشيشكلي هو الرجل المنشود لإنقاذ هذا الوطن، وهو الرجل الذي تنطبق عليه صفات الأبطال المصلحين. وكان من أبرز هؤلاء: ظافر الرفاعي وهو رئيس الحزب، ومنير غنام، وعبدالرحمن هنيدي، وسعيد الزعيم، ورمزي الدجاني،

---

(١) نذكر هنا أنه في الثامن من حزيران عام ١٩٥٢ أقيم مجلس للوزراء وكان تشكيله على الصورة التالية:

فوزي سلو: رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع، ٢- ظافر الرفاعي، للشؤون الخارجية، ٣- سعيد الزعيم للمالية، ٤- منير دياب للاقتصاد الوطني، ٥- سامي طيارة للتربية، ٦- د. مرشد خاطر للصحة والشؤون الاجتماعية، ٧- عبدالرحمن هنيدي للزراعة، ٨- منير غنام للعدل، ٩- توفيق هارون للأشغال العامة والمواصلات. وأكثر هؤلاء الوزراء من الحزب العربي القومي، الصراع على سورية، ص١٦٨.

وتوفيق هارون من اللاذقية، ومنير ذياب من دمشق، وأكثرهم أصبحوا وزراء فيما بعد. هذا عن نظريتنا السياسية «حكم الصفوة» وعن تجسيدها بالمؤسسات الثلاث الاستشارية.

أما عن إيجابيات هذه النظرية عندما طبقناها فهي كما يلي:

أولاً: بالنسبة لحركة التحرير العربي، فإنها استطاعت بالتعاون مع الشيشكلي أن تحقق نوعاً من الاستقرار والتقدم والازدهار في سورية، ولا زال الشعب السوري يذكر بخير عهد الشيشكلي الذي زاد فيه الإنتاج الزراعي أضعاف ما كان عليه سابقاً ولاحقاً. ومن منجزات هذا العهد ميناء اللاذقية والمعرض الدولي وإنشاء البنك المركزي، ومن منجزاته الطمأنينة في النفوس.

أما الإنجاز الأكبر فهو عدم ربط سورية بأية اتفاقية تقيد استقلالها أو تحد من حريتها، أو تربط اقتصادها بدولة كبرى، وذلك رغم المغريات ورغم الضغوط.

ومن منجزات عهد حركة التحرير العربي أنه كان عهد ازدهار اقتصادي، عهداً لا يعاني من عجز في ميزانيته العامة، أو ميزان مدفوعاته، او ميزانه التجاري.. لذلك كانت قيمة الليرة السورية في عهدنا ذات قوة شرائية ممتازة. وعملة كل دولة معيار لقوة اقتصادها. ومن منجزات عهد الشيشكلي أن السلع الاستهلاكية كانت كلها متوفرة وبدون طوابير انتظار، وأن نسبة الادخار الفردي كانت عالية جداً.

هذا عن التطبيقات الايجابية لحركة التحرير العربي، أما عن سلبياتها فأهمها: تضاؤل دورها تدريجياً حتى أصبحت اسماً بدون مسمى. فأصبح الشيشكلي يحكم وفق اجتهاده الفردي. ولا أقول وفق هواه الشخصي، والمجتهد الفردي تكثر أخطاؤه، وكلما كان الاجتهاد جماعياً كلما كانت الأخطاء أقل.

وعندما تضاءل دور حركة التحرير، تزايد دور المعارضة. وفي هذه الفترة

اتحد حزب البعث بزعامة ميشيل عفلق مع الحزب العربي الاشتراكي بزعامة أكرم الحوراني وكانا من أشد المعارضين، وسمي هذا الاتحاد (حزب البعث العربي الاشتراكي)، وبالتالي اتحد نشاط ضباط هذين الحزبين، ثم نشطت الأحزاب الأخرى في معارضتها، الحزب الوطني وحزب الشعب، إلى ان كوّنت فيما بينها جبهة معارضة موحدة شاملة لكل الأحزاب .. ثم بدأت تتحرك بحركات عدوانية .. أحياناً تفجير متفجرات، وأحياناً تشجيع الضباط على الانقلابات، وكلها أجهضت، وأحياناً إثارة جبل الدروز للقيام بثورة تتبعها المحافظات الاخرى، وقد كشفت.. وأخيراً تمرد الضباط في حلب ثم في حمص الذي أنهى عهدنا.

ومما أذكره عن أسباب تضاؤل دور حركة التحرير العربي أن أعضاء هذه الحركة إما هيبة من الشيشكلي أو ثقة مفرطة به، لم يعودوا كما كانوا يرفعون صوتهم بالنصيحة والشورى سوى عضو واحد، هو منير غنام، ظل كما هو - وهذه شهادة لله وللتاريخ - ناصحاً أميناً للشيشكلي» [١].

الشيشكلي والدروز:

لقد كان الشيشكلي ينظر إلى بعيد وهو يرى المعركة الحقيقية على الساحة السورية هي بينه وبين الطائفية، وهي التي كانت ذات كيان مستقل قبل سنوات في العهد الفرنسي. وهو لا ينسى أبداً أن الضباط الدروز هم الذين جاؤوا بالحناوي، وهم الذين أطاحوا به ومهدوا الطريق للشيشكلي نفسه. وهذا يعني أنه عندما يختلف معهم يمكن أن يطيحوا به كما جاؤوا به. ويعرف أن زميله الحوراني يمكن أن يلعب على الحبال جميعاً لتبقى السلطة في يده. ومن أجل هذا نقل عنه «إن اعدائي يشبهون الأفعى: رأسها جبل الدروز، ومعدتها حمص، وذنبها حلب،

---

(١) من مذكرات الضابط الكبير الآخ عبدالحق شحادة الذي تفضل مشكوراً باطلاعي عليها.

فإذا سحقت الرأس ماتت الأفعى».

إنه يعلم أن المعارضة السياسية الحزبية ليست قادرة على مواجهته عسكرياً. أما المواجهة العقلية العسكرية والشبيهة له فإنما تكمن في جبل الدروز أولاً، ثم في جبل النصيريين ثانياً.

«يصف حسن الأطرش قائد الدروز ما حدث في الجبل آنذاك بقوله:

في منتصف عام ١٩٥٣ بعث رئيس الحزب الوطني صبري العسلي اليّ بكلمة يقول فيها بأننا يجب أن نوحد قواتنا كي ننقذ البلد من الدكتاتورية، وجاء لقاؤنا ليشهد بداية الحركة ضد الشيشكلي. فبدأنا بتعبئة قوانا في الجبل بينما كان السياسيون بدورهم يعقدون سلسلة من الاجتماعات السرية لتنظيم معارضة فعالة، أما قمة هذه الاتصالات فتمثلت في توقيع ميثاق حمص، حيث اجتمع بشكل سري ممثلون من جميع الأحزاب والجماعات المناهضة للشيشكلي في الرابع من تموز ١٩٥٣ للتوقيع على ميثاق وطني، كان في الواقع عهداً بإسقاط الدكتاتورية، لكن حدث آنذاك خطأ فادح في التوقيت، إذ قام الشيشكلي بعمل سريع لاستباق الثورة. فألقى القبض على الوفد الدرزي الذي كان يومئذ في دمشق (وأنا واحد منهم)، وأرسل بقوات كبيرة إلى الجبل، ثم حوصر سلطان باشا في بيته في القرية وقد حدا اعتقالي وهذا الاستعراض للقوة بالدروز إلى التظاهر ضد الحكومة في السويداء. وفسر الشيشكلي ذلك كله على أنه أول خطوة من الخطة المعدة سابقاً لإسقاطه. وقرر إخماد التمرد في مهده، فأرسل بوحدات مدرعة لاحتلال المدينة، كما ضخم التهمة الملفقة التي أطلقها بأننا كنا نعمل يداً بيد مع إسرائيل بعرضه لأسلحة إسرائيلية استولى عليها من الجبهة على أنها وجدت في الجبل. وكنتيجة لمثل هذا الاستفزاز قام جنوب الجبل بكامله للاجتماع في (القربا)، فكان تجمهر جماعة من الدهماء أكثر منه تجمع قوة

عسكرية، ولكن قوات الحكومة، التي ربما خافت من عددهم، اصطدمت معهم وأصيبت بعدد من الإصابات وذلك قبل أن تتراجع، وبذلك كان الجيش قد أثير بشكل عنيف ضد القرويين فأعاد تجميع شمله في السويداء ليبدأ مذبحة بين الأهالي استعملت فيها الاسلحة الثقيلة، كما ارتكبت بعض الاعمال الفظيعة، ومن ثم احتل الجيش الجبل بأكمله، وهرب الزعماء الدروز إلى الأردن عابرين الحدود، وسمعنا أن كمال جنبلاط (الزعيم الدرزي اللبناني) كان على استعداد لنجدتنا عبر الجبال، غير أن الممرات كانت مغطاة بالثلوج» [(١)].

إن أحداث الجبل التي يصفها هنا حسن الأطرش بلغت ذروتها في الأسبوع الأخير من كانون الثاني عام ١٩٥٤، فقد رافقتها اضطرابات ومظاهرات طلابية في المدن الرئيسية السورية، أما حلب - ذنب أفعى الشيشكلي - فقد بدأت بالتحرك، إنها لم تكن معقل أعدائه القدامى (حزب الشعب) فحسب، بل كانت بلد العديد من الأقليات العنصرية والدينية، كما هو الحال في شمالي سورية كله، الذين شعروا بأن الكثير من الإصلاحات التي قام بها الشيشكلي والتي هدف منها إلى خلق دولة إسلامية عربية متجانسة هي موجهة ضدهم، فالأكراد والآشوريون والأرمن والعلويون والأقليات المسيحية من كل صنف جرت مضايقتهم بواسطة سيل من المراسيم التي أمرت بإسباغ أسماء عربية صرفة على الفنادق والملاهي ودور السينما، وأن تكون اللغة العربية هي اللغة المسموح التكلم بها في كل الاجتماعات والمهرجانات والاحتفالات، وأن يكون للمسلمين في كل المجالس التابعة للأقليات غير المسلمة عدد من المقاعد مساو للعدد التابع لهم، سواء كانت هذه المجالس ثقافية أو اجتماعية أو رياضية. كما منع رؤساء الأقليات

---

(١) الصراع على سورية لسيل: ١٨١. وذلك من حديث مباشر من حسن الأطرش له.

الروحيين من التحدث في اجتماعات عامة خارج أماكن عبادتهم»[1].

الشيشكلي والبعث العربي الاشتراكي:

لقد شب الشيشكلي عن الطوق في أن يكون أداة تنفيذية بيد الحوراني منذ أن رأى الضباط الدروز يقودون معه الانقلاب ضد الحناوي. وفي فترة لقاء المصالح، وقبل أن ينفرد الشيشكلي بالحكم وصل الحوراني بتأييد الشيشكلي له إلى وزارة الدفاع. لكن عندما أصبح الشيشكلي هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، لم يعد الحوراني هو الآمر والناهي، فافترقا كل في طريق، فعبّأ الحوراني معارضة ووحّد حزبه مع حزب عفلق والبيطار باسم حزب البعث العربي الاشتراكي، وكان الضباط الصغار الذين يمثلون هذا الحزب قادرين على التحرك الآن لمواجهة الشيشكلي داخل الجيش.

خمس سنوات تقريباً بعد الاستقلال، هيّأت المجال لجيل الضباط الشبان الجدد أن تكون لهم الكلمة المسموعة في الجيش ابتداءً وفي سورية انتهاءً. وغابت الحركة الاسلامية عن الساحة في هذه المرحلة، فلم نسمع بضابط اسلامي يشارك أو يعارض، لأن الجيش لا يقبل الوجود الإسلامي السافر فيه. وغابت الأحزاب السياسية عن الساحة كذلك. فكان الجيش هو الذي يأتي بها وهو الذي يمنعها.

أما حركة الحوراني، فكانت على ثلاثة قطاعات.

القطاع الأول: وهو الأهم، وهو القطاع العسكري من خلال ضباط الحزب الشباب الذين قادوا العصيان ضد الشيشكلي.

القطاع الثاني: وهو القطاع السياسي، حيث تشكلت جبهة المعارضة من

---

(١) المصدر نفسه، ١٨٢.

جميع الأحزاب السياسية تطالب بالحكم الديمقراطي، وإعادة الحرية للشعب. وكانت شخصية الحوراني الديماغوجية لا تجد صعوبة بأن تشارك في فرض حكم عسكري وأن تهاجم الحكم العسكري الدكتاتوري كما تقتضيه المصلحة.

القطاع الثالث: وهو القطاع الطائفي، والذي شارك فيه الحوراني وزميلاه عفلق والبيطار، حيث عبأوا طائفة الدروز للثورة ضد الشيشكلي، وجمعوا الطائفة النصيرية من خلال الضباط الصغار ليؤيدوا الانقلاب.

ولا شك أن استبداد الشيشكلي بالرأي، وعدم وجود البطانة الصالحة حوله في المرحلة الأخيرة من حكمه ساعدت أن ينفض عنه أقرب المقربين اليه، وكان على رأس من اتخذهم أقرب نصحائه الزعيم شوكت شقير الذي أسند اليه رئاسة الأركان، وفاته أنه درزي، وفي اللحظة الحاسمة سيكون مع طائفته ضده، كما سنرى فيما بعد. وقد مرّت المعارضة البعثية للشيشكلي بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: كانت على يد الضباط الشبان:

«ففي السادس عشر من كانون الأول واجه موقفاً ثوريا. وتتفق معظم التقارير على أن العقيد عدنان المالكي وهو ضابط صغير معروف قابله في المطار وقدم له ثلاثة مطالب ملحة: حل حركة التحرير العربي، وانهاء الاكتتاب الشعبي لتسليح الجيش (بسبب مزاعم تقول بأن هذه التبرعات كانت تحوّل إلى «الحركة»)، وإعادة الحريات السياسية والحياة الحزبية الديمقراطية، وقد وافق الشيشكلي - الذي كان جيد التكتيك - على الشروط، مهنئاً المالكي على كونه الشخص الذي اختارته مجموعة لا بد أن تكون كبيرة ليخاطر بعرض هذه المقترحات، وابتلع المالكي الطعم، وقدم لائحة بأسماء الضباط والشخصيات السياسية وأساتذة الجامعات الذي يشاركونه أهدافه، وفي الحال سجنهم الشيشكلي جميعاً. وفي الرابع والعشرين من كانون الأول ١٩٥٢ أعلن رئيس الأركان عن اكتشاف مؤامرة ضد

نظام الحكم وعن إلقاء القبض على عدد من الضباط الذين سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا فريسة للأفكار الهدامة التي ينشرها سياسيون متطرفون معينون» [1].

المرحلة الثانية: إعلان المواجهة السياسية:

بعد أسبوع أو اثنين في نهاية السنة عبر أكرم الحوراني وزعيما البعث ميشيل عفلق وصلاح البيطار الحدود إلى لبنان سراً لكي يتجنبا الاعتقال.

كان خلاف الشيشكلي مع الحوراني وعفلق والبيطار نقطة انعطاف في مسيرته ومسيرتهم، وفي بيان للحوراني إلى الصحيفة اللبنانية (الدستور) في الرابع من كانون الثاني ١٩٥٣ اتهم الشيشكلي «بكبت الحريات وتقييد الصحافة واضطهاد المعارضين لنظام الحكم. وأضاف بأن الزعيم السوري كان ينفذ خطط الدفاع الغربية». وفي دمشق وصف الفارون الثلاثة على أنهم «عملاء سريون للإمبريالية، وقد كتبت صحيفة (لوموند) في تقرير لها من دمشق في العشرين من كانون الثاني أن ظل حرب أهلية يخيّم على المدينة. فالسجون مملوءة بالمشتبه بهم. وغادر أناس كثيرون البلاد، بينما انتشرت القلاقل من الجيش إلى الجامعة التي استمرت بالإضراب ولأول مرة لعدة أشهر، وهزّت الحوادث أعصاب الشيشكلي، لم يكن من قبل يثق برجاله، وأصبح الآن أكثر شكوكاً، يتخبط خبط عشواء، ولا يجرؤ على النوم في منزله خوفاً من الاغتيال. وفي ربيع عام ١٩٥٣ شجعته فترة من الاستقرار على المضي قدماً في خططه لإقامة حكم على أساس دستوري» [2].

المرحلة الثالثة: وكانت بعد أن استقرت - ظاهراً - الأوضاع السياسية.

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ١٧١.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٢-١٧٣.

وتسنم منصب رئيس الجمهورية في حكم رئاسي ودستوري تم التصويت عليه، وفازت حركة التحرير العربي بـ ٦٠ صوتاً من أصل اثنين وثمانين. واجتمع المجلس الجديد لأول مرة في ٢٤ تشرين الأول.

وقبل ذلك بثلاثة أيام كان الحوراني وعفلق والبيطار قد عادوا إلى سورية بموجب عفو عام أصدره الشيشكلي بعد انتخابه للرئاسة، وراحوا يعبئون القوى السياسية والعسكرية لمواجهة النظام. وطبعاً فالمواجهة سنية، بل حموية كذلك، على رأسها ضباط الحوراني مصطفى حمدون وعبدالغني فتوت. أما الضباط النصيريون الذين يمثلون بعث عفلق والبيطار فلم يأت دورهم بعد.

سقوط الشيشكلي

ويحدثنا عن هذا السقوط الضابط الكبير عبد الحق شحادة بصفته جزءاً من الأحداث آنذاك:

«.. أما المحاولة الأخيرة التي نجحت مبتدئة من حلب، فإن السبب في ذلك يعود إلى تسامح الشيشكلي، لأننا كنا نتوقع من مصطفى حمدون وعبدالغني قنوت هذه المحاولة. وكان قد صارحني الأخير بذلك كسباً لي، وكنت قد أطلعت الشيشكلي على ذلك كما سبق أن أشرت. وكان المفروض اعتقالهما حيطة في ذلك الوقت، أو إبعادهما على الأقل. ولكن روح الشيشكلي السمحة الطيبة لم تشأ ذلك. ولعل العاطفة (الحموية) أو العصبية الحموية لعبت دوراً في عدم اعتقالهما أو إبعادهما، ولعل الاستهتار بهما كان له دور في ذلك.

المهم أنهما بعد مدة قاما بالتمرد في حلب، ثم لحقت حمص بحلب، فقرر الشيشكلي الاستقالة والانسحاب من سورية حقناً للدماء. وبذلك انتهى عهد كان يمكن أن يستمر لسنوات طويلة.

أما عن دوري في مقاومة هذا التمرد أو هذا الانقلاب على الشيشكلي فقد

أخذ الصورة التالية:

كنا أنا وحسين حدة بصورة خاصة نتوقع محاولة الانقلاب من مصطفى حمدون وعبدالغني قنوت ضباط أكرم الحوراني، خاصة بعد اتحاد حزب أكرم الحوراني (العربي الاشتراكي) سنة ١٩٥٣ مع حزب البعث الذي انبثق عنهما اسم جديد هو «حزب البعث العربي الاشتراكي».

كما كنا نتوقع تعاون حزب الشعب مع البعث العربي الاشتراكي ضدنا لأن حزب الشعب كنا قد أطحنا برمزه العسكري - سامي الحناوي - وبسياستهما العراقية الهاشمية.

وبعد أن بدأ التمرد العسكري في حلب بقيادة مصطفى حمدون وعبدالغني قنوت، وكان لديهما قوات عسكرية لا يؤبه لها، ثم سمعنا بأن فيصل أتاسي يشارك بهذا التمرد كتعبير عن مساهمة حزب الشعب فيه. بعد ذلك قررنا أنا وحسين حدة المقاومة دون معرفة نوايا الشيشكلي، ولكنا كنا نعرف أن شعبية الشيشكلي في الجيش تسمح لنا بهذه المقاومة. وفوجئنا جميعاً بانضمام موقع حمص إلى تمرد حلب. وكان بكري قوطرش آمر موقع حمص والصديق الحميم للشيشكلي هو الذي اتخذ قرار الانضمام إلى تمرد حلب، ثم لحق به محمود شوكت، وكانا من كبار الضباط حينذاك.

وكانت صدمة كبيرة للشيشكلي لأنه لم يكن يتوقع منهما هذا الموقف المعارض، نظراً لعدم تحزبهما، إلا إذا أخفيا تعاطفهما الحزبي مع الحزب الشيوعي.

بعد هذه الصدمة خيّل للشيشكلي أن الجيش السوري أصبح كله ضده، وذلك لسبب دور رئيس الأركان شوكت شقير الذي كان يوهم الشيشكلي بالأخبار المزيفة المثبطة المفتعلة عن الجيش السوري، وأنه أصبح كله ضده. كان شوكت

شقير يستهدف إضعاف معنويات الشيشكلي وتخذيله لغرض في نفسه [1]، وهذا الغرض دفع الشيشكلي إلى اليأس من البقاء في سورية، وذلك تمهيداً لنفسه، وليخلو الجو في سورية، ويحصل الفراغ السياسي، فيملؤه ولو مؤقتاً، لأنه يحتل أكبر منصب عسكري.

وفعلاً نجحت خطة شوكت شقير، ولعب دوراً سياسياً في سورية.

المهم أن الشيشكلي نتيجة لخيانة شوكت شقير المبطنة بالمعلومات المزيفة المخذّلة والمقدّمة إلى الشيشكلي بكل سياسة ودبلوماسية وأدب نفاقي جم، قرر الاستقالة ثم الانسحاب حقناً للدماء بعد أن أشعره شقير أن استمراره سوف يؤدي إلى سفك الدماء.

وبعد أن سمعت بيان استقالة الشيشكلي من الإذاعة، وبعد انسحابه إلى لبنان قمت أنا وحسين حدة بتنفيذ ما سبق أن اتفقنا عليه. فسارعنا إلى إعلان مقاومتنا لتمرد حلب، وسيطرت أنا على الشرطة العسكرية، رغم أني لم أكن آمرها آنذاك. وسارع حسين حدة إلى السيطرة على معسكرات القابون، وكان آمراً لكتيبة مصفحات. وتبعنا بصورة خاصة طعمة العودة الله وبكري زوبري بالسيطرة على معسكرات قطنا، وكانت هذه أكبر معسكرات الجيش السوري، أما معسكرات القنيطرة والجبهة فقد وقفتا على الحياد.

ثم سارعت أنا بالاتفاق مع حسين حدة إلى اعتقال شوكت شقير رئيس الأركان العامة، وتم اعتقاله بسهولة رغم حرسه والضابط المرافق له، ووضع رهن الاعتقال في معسكرات القابون، ثم عدت مسرعاً إلى مقر الأركان العامة لاعتقال رياض المالكي رئيس الشعبة الثالثة - العمليات - احتياطاً لما قد يصدر عنه

---

(١) يحب أن لا ننسى أن شوكت شقير من الطائفة الدرزية. وقد جرحه ما حل بطائفته من نكبة.

كضابط كبير في الأركان من تصرفات ضدنا باسم الأركان، وعلى كل حال لم أجد صعوبة في اعتقاله ووضعه إلى جانب شوكت شقير.

بقي في الأركان العامة عبدالحميد السراج آمر الشعبة الأولى (شؤون الضباط)، وكان موقفه غامضاً، وكان المفروض أن يكون صريحاً ومتعاطفاً معنا، لأنه كان محسوباً على عهد الشيشكلي، وكان يحتل منصباً مرموقاً في هذا العهد، آمر الشعبة الأولى في الأركان، وهو منصب لا يناله إلا الموثوقون جداً. وبما أن غموض موقفه أثار شكوكنا، قررنا اعتقاله أنا وحسين حدة، وأعددت نفسي للذهاب إلى الأركان لاعتقاله. ولكن مصطفى رام حمداني رئيس الشعبة الثانية - المخابرات العسكرية - أخذ يبكي بكاء حاراً ويرجونا عدم اعتقاله بحجة أنه إن لم يكن معنا فهو ليس ضدنا.

فوجئ المتمردون في حلب ثم في حمص بمقاومتنا لهم، وكانوا يظنون أنه بمجرد استقالة الشيشكلي وانسحابه سينهار كل شيء، وينتهي عهد الشيشكلي. ثم أعد المتمردون في حلب طائرة للهرب واللجوء إلى العراق.

وفي ثاني أو ثالث يوم من مقاومتنا للتمرد على ما أذكر. وكانت المعارضة الحزبية المؤتلفة قد بدأت تهرب من دمشق وتلجأ إلى حمص بعد أن أحكمنا سيطرتنا على دمشق.. اتصل بنا الشيشكلي من بيروت ليطمئن على موقفنا ومدى سيطرتنا، وأنه إذا كان الموقف لا يستدعي سفكاً للدماء، وإذا كنا مسيطرين على المطار فانه مستعد للعودة إلى دمشق. فطلبنا منه التريث ريثما يتضح الموقف أكثر وأكثر، وذهبت فوراً إلى المطار بقوة من المصفحات لأستطلع حقيقة الموقف فيه، فوجدته هادئاً جداً، ولكن وجودي هناك أثار أحد ضباط الطيران من الإخوة الدروز، وكاد يحصل اصطدام في المطار تجنبته بهدوء أعصابي.

وبعد أن سيطرنا على معسكرات القابون والأركان العامة، وبعد أن سيطر

طعمة العودة الله وبكري زوبري وسواهما على معسكرات قطنا، أخذ طعمة العودة الله يلح علينا بالنزول إلى دمشق (إلى القابون) مع وحدته العسكرية المكونة من الدبابات الصغيرة، وكان إلحاحه شديداً، فوافقنا أنا وحسين حدة على حضوره إلى القابون. ولكن ما أن وصل إلى القابون بقطعته العسكرية إلا وذهب بمفرده دون علمنا إلى الأركان العامة. واجتمع بالسراج اجتماعاً سرياً طويلاً لا أدري حتى الآن ماذا جرى فيه تفصيلاً، ثم عاد إلينا بوجه متغير غير الوجه الذي ذهب فيه، عاد إلينا مقترحاً عدم الاستمرار في مقاومة التمرد حقناً للدماء، فشعرت بأنها مؤامرة نسج خيوطها السراج لكسب طعمة إلى جانبه وشق صفوفنا.

والواقع أن سفك الدماء لم يكن في خاطرنا أبداً لأننا أقوياء جداً، ولأنهم كانوا في حلب وحمص ضعفاء جداً، والواقع أن سفك الدماء أصبح وارداً بعد أن ضعفنا بانشقاق طعمة عنا اذا أصررنا على المقاومة.

كان هدف السراج من شق طعمة العودة الله عنا هو إضعافنا من جهة، وتسجيل موقف متعاطف مع مصطفى حمدون وعبدالغني قنوت لتقويتهما، وتسجيل موقف متعاطف مع المعارضة السورية التي تجمعت في حمص، وأملاً في أن يلعب دوراً أساسياً في المستقبل ـ تماماً مثل شوكت شقير ـ بعد زوال عهد الشيشكلي. وقد لعبا ذلك، ولكن كان دور شقير أقصر كثيراً، ودور السراج أخطر كثيراً.

اضطررنا أنا وحسين حدة بعد ذلك لإنهاء مقاومتنا، لأن الاستمرار لم يعد ممكناً بعد انشقاق طعمة إلا بسفك الدماء. ثم قمنا بإطلاق سراح شوكت شقير ومن معه، ثم عقدنا اتفاقية مكتوبة مع مأمون الكزبري رئيس البرلمان أنذاك، والذي أصبح تلقائياً وبحكم الدستور رئيساً للدولة بعد استقالة الشيشكلي، وكانت الاتفاقية بحضور شقير. وقد نصت هذه الاتفاقية المكتوبة على قبولنا

للخروج من سورية بشرط خروج كافة الضباط الآخرين الذين تمردوا في حلب وحمص حتى لا يستغلوا سياسياً هذا التمرد، وذلك لتعود سورية إلى الحياة السياسية المدنية، وتعود الأحزاب إلى حكم سورية أملاً في أن لا تعود هذه الأحزاب إلى صراعاتها الحزبية العمياء. وتنفيذاً لهذه الاتفاقية خرجنا أنا وحسين حدة من سورية، وبعد خروجنا انتهت الأزمة، ولكن الضباط الآخرين لم ينفذوا الاتفاقية إلا شكلياً ومؤقتاً، إذ بعد خروج السراج ومصطفى حمدون وعبدالغني قنوت وآخرين سرعان ما عادوا ليقوموا بأدوار سياسية كما توقعنا» [1].

ولما اجتمع البرلمان صبيحة ٢٧ شباط قامت مظاهرة طلابية شاركت فيها جماعات من الدروز والشيوعيين والإخوان المسلمين، اقتحمت مبنى البرلمان، ولم تنسحب إلا بعد أن أكد لهم سعيد إسحاق بأن البرلمان قد وافق لتوّه على حل نفسه. أما الزعيم شقير فإنه أصدر بياناً - وكان قد أطلق سراحه آنذاك - أعلن فيه حل البرلمان، وإعطاء الدكتور الكزبري صلاحيات تنفيذية وتشريعية مؤقتة. ولكن الثائرين لم يقنعوا بذلك. وظهراً أصدر قادة المناطق الخمس الثائرون إنذاراً جديداً إلى الكزبري يطلبون منه أن يستقيل فوراً، وذلك لأن الشعب والجيش لم يعترفا بالنظام الذي كان يحاول تثبيته، كما سمعت أنباء عن تحرك الأرتال الثائرة نحو دمشق، لذا فإن الزعيم شقير قرر تجنباً للاصطدام أن يعالج الأمر بشكل مباشر مع القادة المجتمعين في دار هاشم الأتاسي بحمص، وبعد أن شاور السياسيين الذين أطلق سراحهم من السجن توجه إلى حمص مساء ٢٧ شباط، وأمضى الليلة في محاولة الوصول إلى حل سياسي. وعاد إلى دمشق فجراً ليصدر بياناً يعلن فيه بأنه توصل إلى الاتفاق مع القادة السياسيين

---

(١) من مذكرات الضابط الكبير الآخ عبدالحق شحادة/ ١٦٠-١٦٦ باختصار.

والرؤساء الثائرين لإعادة السلطة إلى أصحابها الحقيقيين.

وفي صباح اليوم التالي الأول من آذار ١٩٥٤ دخل هاشم الأتاسي دمشق منتصراً على رأس موكب يتألف من ٤٠٠ سيارة قبل الذهاب إلى القصر الجمهوري الرابض على الهضبة فوق المدينة» [١].

وهكذا سقط الشيشكلي السني الحموي على يد السنيين الحمويين البعثيين، مصطفى حمدون وعبدالغني قنوت وبخيانة أقرب المقربين اليه السني الحموي عبدالحميد السراج طمعاً في الأضواء والشهرة والسلطة.

غير أن الإنجاز الهام الذي قام به الشيشكلي تمثّل في «إعطاء سورية حكومة قوية خلال فترة انتقالية في شؤون الشرق الأوسط. فهو قد أخرج سورية من بين أصابع السياسة العربية المتشابكة التي كانت تلعب بها، وقام بحمايتها في أوائل الخمسينات من التوسع الهاشمي (الذي دعمته موارد العراق البترولية بمليوني جنيه استرليني عام ١٩٥٠ و٧٦ مليون جنيه عام ١٩٥٤) ومن تأثير مصر الثورية. وإن مطالبه على المستوى العربي لم تأت بأية عواقب خطيرة لأنها كات غير مركزة لعدم وضوح ذهنه، وفقر موارده المحلية، إنه كان وفوق كل شيء من السوريين الوطنيين الذين لم يقاوموا ضغط جيرانهم فحسب، بل قاوم ضغوط الدول العظمى رافضاً التعاون معها في محاولاتها لتنظيم المنطقة دفاعياً، حتى وصل إلى رفض معونات النقطة الرابعة. وقد جرّد سقوطه سورية من عنصر الحماية في المعركة المقبلة بين مصر والعراق حول حلف بغداد» [٢].

ولم يسكت الدروز على نكبتهم في الجبل من الشيشكلي وهم الأعداء

---

(١) الصراع على سورية لسيل/ ١٩٧.

(٢) الصراع على سورية لسيل/ ١٩٧.

الحقيقيون له. «فأطلقوا النار عليه وقتلوه قرب مزرعته في سيريس في مقاطعة جوباس في البرازيل يوم ٢٧ أيلول ١٩٦٤، وكان في الخامسة والخمسين، ويعيش في البرازيل منذ ١٩٦٠، وقد عرف أن قاتله درزي ويسمى نواف الغزالي، ويظن أن دافعه إلى القتل كان الانتقام لعمليات القمع التي قام بها الشيشكلي في جبل الدروز قبل عشر سنوات» [٢].

سيطرة اليسار العربي

مع استلام الأتاسي للرئاسة تشكلت حكومة ائتلافية من الحزب الوطني وحزب الشعب والمستقلين، وكان رئيس الوزارة صبري العسلي. ويزول العجب حين لا يظهر حزب البعث فيها، فالحوراني لا يزال بطل الساحة، ولضباطه الدور الأكبر في إسقاط حكم الشيشكلي. ولم تعش هذه الحكومة إلا مائة يوم فقط. وسبب ذلك عاملان اثنان:

العامل الأول: هو الحوراني والبعث من ورائه، فلا يزال الحوراني يسقط الوزارة التي يريد ويدعم الوزارة التي يريد. والذي جعله يقف موقف العنف من هذه الوزارة هو أنه طلب وزارة الداخلية فلم يعطها، ومن أجل ذلك قاطع الوزارة وحاربها حتى أدى إلى سقوطها.

العامل الثاني: هو الجيش. فلا يزال الجيش هو الذي يحكم من وراء ستار فـ «لم يكن ليستكين بسهولة، وهو ما يطلب منه الآن، لقد كان على خلاف مع وزير الدفاع معروف الدواليبي، الذي اصطدم بقادة الجيش في الماضي، وكان الضباط حانقين على محاولاته الرامية إلى فرض العودة إلى الثكنات، ووضع الأركان العامة تحت رقابة مدنية صارمة، ويعتقد أن ضغط الجيش وراء الكواليس كان

العامل الحاسم الذي أرغم العسلي على الاستقالة في ١١ حزيران»[1].

الغزي والانتخابات الحرة:

لقد استعدت الأحزاب كلها لدخول الانتخابات النيابية إلا الإخوان المسلمين، وكانت بداية المحنة الرهيبة التي نزلت على الإخوان المسلمين في مصر تنعكس آثارها على إخوان سورية، وإن كانت بداية المحنة جعلت الأحزاب السورية تتعاطف مع الحركة حين برز عبدالناصر طاغية ينكل بالشعب ويطيح بنجيب ويستأثر بالسلطة، لكن الإخوان في سورية كانوا يعانون من أزمة انشقاق داخلية في صفوفهم كذلك، وهذا جعل القرار الأخير للجماعة هو عدم المشاركة في الانتخابات.

هذا على الساحة السياسية. أما على الساحة العسكرية فلم يكن لهم وجود اطلاقاً. واستطاع سعيد الغزي ان يقود حملة الانتخابات النزيهة التي انتهت بالنتائج التالية:

١-المستقلون ٦٤ نائباً.

٢-حزب الشعب ٣٠ نائباً.

٣-حزب البعث ٢٢ نائباً.

بينما نال كل حزب من الأحزاب الثلاثة: (القومي السوري، والاشتراكي التعاوني، وحركة التحرير) نائبين، وفاز خالد بكداش ممثلاً للحزب الشيوعي السوري فوزاً ساحقاً في دمشق. بينما كان بعض الإسلاميين قد دخلوا الانتخابات تحت اسم المستقلين، وكان أبرزهم الأستاذ محمد المبارك والأستاذ مصطفى الزرقا.

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٢٢٧.

الوزارة الأولى:

كان النجاح الساحق الذي ناله الحوراني في حماة حين سانده الريف بأصواته فاتحة لعهد جديد تسيطر فيه الأحزاب اليسارية على الساحة السياسية، لكن الصراع الحزبي عاد على أشده. وفي الوقت الذي عجز فيه البعث وحلفاؤه عن تشكيل الحكومة، والذي كان يمثله خالد العظم رئيس الكتلة الديمقراطية، شكل خصوم البعث من حزبي الشعب والوطني وبعض المستقلين وزارتهم برئاسة شيخ السياسة السورية فارس الخوري في ١٩ تشرين الأول ١٩٥٤، والتي لم يكتب لها البقاء ثلاثة أشهر، وذلك لميوعة موقفها من حلف بغداد، لتنسحب أمام التجمع الجديد الذي انضم فيه صبري العسلي بمن معه من الحزب الوطني إلى الحوراني والعظم.

الوزارة الثانية:

يستحق أن يعتبر سقوط حكومة فارس الخوري في ٧ شباط ١٩٥٥ من نقاط التحول في السياسة العربية، فقد أمسك اليسار المحايد بزمام المبادرة، وواجه اليمين المؤيد للعراق هزيمة في مجلس النواب الذي كان يعتبر حتى الآن معقلاً له. وحدث اتصالان خلال الأزمة، فقد تقارب البعث مع مصر بسبب تماثل نظرتهما إلى السياسة الخارجية، بينما اتخذ البعث طريقه داخل سورية نحو الشيوعيين لمواجهة عدوهما المشترك، ويمكن أن تعزى كثير من الأحداث التاريخية اللاحقة إلى هذه الصلة المزدوجة. فقد عنت الأولى أن سورية خطت نحو دخول منطقة النفوذ المصري. بينما أدخلت الثانية سورية مباشرة في الحرب الباردة، فأثارت آمال السوفييت ومخاوف الغرب» [1]

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٢٨٦.

وعندما أوشك الأتاسي على التقاعد بدأ الصراع على رئاسة الجمهورية بين اليمين الذي تبنى شكري القوتلي واليسار الذي تبنى خالد العظم، وكان الضغط الأمريكي باتجاه إبعاد العظم عن سدة الرئاسة. وتغلب اللواء شوكت شقير رئيس الأركان العامة على البعث وسحب تأييد الجيش للعظم. ونجح القوتلي رئيساً للجمهورية في ٥ أيلول ١٩٥٥. وتبع ذلك تغيير وزاري، حيث استقال العسلي، وشكل سعيد الغزي وزارة ائتلافية سارت على النهج السابق للوزارة السابقة في السياسة الخارجية والتقرب من مصر حيث أعلن الغزي «أنه لم ير ثمة فائدة من الانضمام إلى الحلف التركي العراقي وأنه بدلاً من ذلك سيتابع المفاوضات التي بدأتها الحكومة السابقة لإنشاء حلف ثلاثي مع مصر والعربية السعودية. وبعد مضي شهر واحد وتحت تأثير الموجة العارمة من البهجة التي سادت عقب اعلان مصر عن صفقة الأسلحة التشيكية، وقعت سوريا عقد حلف عسكري مع مصر» [1]، وعاد الصراع من جديد بين حزب الشعب والجيش، إذ استلم علي بوظو وزارة الدفاع في وزارة الغزي، ولم يشارك البعث في هذه الوزارة. وهذا يعني أن الوضع القلق سيستمر على الساحة، غير أن الغزي بحكمته ابتعد عن الصدام مع الجيش، وأجرى تعديلاً وزارياً سلم فيه وزارة الدفاع للواء شوكت شقير.

وبدأ النفوذ السوفيتي يحتل الساحة السورية. ففي فترة رئاسة سعيد الغزي للوزارة في أيلول ١٩٥٥ وحزيران ١٩٥٦ بدأ السلاح السوفيتي بالتدفق إلى سوريا بكميات كبيرة، وأخذ الضباط السوريون بتجهون إلى بلدان الستار الحديدي للدراسة والتدريب، ولم يدع الشيوعيون المحليون أي جهد في تلك

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٣٣١.

الشهور، فعلى الرغم من أن الحزب الشيوعي كان ممنوعاً شرعاً، فقد كانت هناك أربع صحف دمشقية تعكس آراء وأفكار الشيوعيين، والمنشورات الشيوعية تملأ المكتبات، وخالد بكداش من أقوى أعضاء المجلس النيابي وأشدهم نفوذاً. وفي عام ١٩٥٦ أخذت مقاومة البعث لدعوة الشيوعيين لإقامة جبهة شعبية تضعف. ولم تلبث العلاقات أن توثقت اكثر عندما قامت وفود برلمانية سوفيتية وسورية بتبادل الزيارات، وعندما بدأ الحكام السوفييت يعترفون علناً بشرعية حركة الوحدة العربية، وبقيت حكومة الغزي تترنح حتى الثالث من حزيران» [1]، حيث قدمت استقالتها أمام الضغط الشعبي.

الوزارة الرابعة:

فشل اليمين في تشكيل حكومة جديدة، واستطاع العسلي من جديد أن ينعش من جديد التحالف السابق - العظم الحوراني العسلي -، ومثل أغلبية استطاعت أن تشكل وزارة ائتلافية. وأهم ما فيها أن البعث قد حاز على وزارتين هامتين، هما وزارة الخارجية والاقتصاد اللتين مثلهما صلاح الدين بيطار وخليل الكلاس، وكان هذا الاشتراك مشروطاً ببدء المحادثات مع القاهرة.

وأثارت المواقف التي وقفها حزب البعث في هذه الوزارة إشكالات داخل صفوفه، لعل أبرز نتائجها انسحاب أحد منظريه ومؤسسيه منه، وهو جلال السيد، حيث يقول في كتابه «البعث»:

« سلك الحزبيون مسالك المحاور القومية، فتحالفوا مع دول عربية ضد دول عربية أخرى. وما قول القارئ بحلف يقوم بين جماعة اشتراكية وبين دولة يصفها هؤلاء الجماعة بأنها بؤرة الرجعية والتخلف، ومرتع الرأسمالية العربية. ويجر

---

(١) المصدر نفسه/ ٣٣٥-٣٣٦.

الحلف إلى تعادي واتفاق في بعض الأمور السياسية المحلية كانتخاب رئيس الجمهورية، وعلاقة مع دول عربية أخرى لا تتمتع بعطف تلك الدولة؟! وما قول القارئ بحلف يقوم بين الاشتراكيين وبين زعماء القبائل وكبار ملاك الأرض في مجلس النواب لتحقيق أغراض معينة؟!.

ومن هنا يمكن القول إن حزب البعث قد تدوّل ولم يعد ملك أهله في داخل الوطن، وكأن البعث يسير في طريق مسدود، والذي يقيس الأفعال على برنامج الحزب فإنه لا يجد علاقة ولا صلة بينهما، وأعملتُ الفكر طويلاً لعلي أجد مخرجاً، فلم أجد إلا مخرجاً واحداً هو السلامة بنفسي، ومن لم يستطع إنقاذ المنظمة كلها فلا أقل من أن ينجو بنفسه، فقررت اتخاذ الإجراء اللازم رغم المرارة التي أشعر بها من جراء ما أنوي عمله، ولكل هذا قدمت إلى الأستاذ ميشيل عفلق بصفته الأمين العام للحزب الكتاب التالي:

(دمشق في ٢١ آب ١٩٥٥)

«إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، بواسطة: حضرة الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي الموقر:

ظهرت بوادر خلاف بيني وبينكم في وجهات النظر فيما يتعلق بالقضايا القومية والاجتماعية والخلقية. ولما لم أستطع تصحيح الخطأ وفقاً لآرائي ومعتقداتي، فإني لم أجد بداً من الانسحاب من الحزب، وآمل أن تبقى علاقات الود قائمة بيننا رغم الانسحاب.

تعلمون يا حضرة الأمين أني ضحيت بكل شيء في سبيل صنع الحزب ورعايته، فلمّا شبّ الحزب وترعرع تبيّن لي أنه أتى على غير الصورة التي رسمتها، وعلى غير المثال الذي مثلته في خاطري.

إن إنساناً متجاوباً مع حاجات أمته، مرهف الحس، يستطيع أن يتصوّر ما

يعتلج في نفسي من حرقة وآلام لهذا الانسحاب، ولكن القدر لا يغالب.

وختاماً أرجو أن يسدّد الله خطاكم، ويلهمكم من أمره رشداً، والسلام عليكم».

جلال السيد

وبعدما سلمت كتاب الانسحاب إلى السيد عفلق غادرت إلى لبنان، وما كدت أستقر حتى فوجئت بالسيد عفلق يلحق بي، وظن الناس أنه لحق بي ليقنعني بسحب استقالتي، ولم يكن أحد يدري أنه لحق بي ليقول لي أن أصر على الانسحاب، وقد قال لي: إنا جميعاً سنفعل مثلما فعلت، ونترك الحزب بعد تجميع العناصر الصالحة، ونخرج بها جميعاً، وسوف نترك الحزب لهؤلاء الذين انحرفوا عن أهدافه»[1].

عبد الناصر والإخوان المسلمون:

كانت فترة الخمسينات والستينات بعدها تمثل قمة المحنة بالنسبة للحركة الإسلامية، وكانت مصر هي المنعطف الحاد في ذلك. ففي مطلع الخمسينات لمع نجم الإخوان المسلمين بصفتهم الحركة الأقوى والرائدة في مصر، والتي خاضت غمار الحرب الفدائية ضد الإنكليز في قناة السويس، وجاءت الثورة المصرية لتدعم هذا الاتجاه، وتحل الأحزاب جميعها إلا الإخوان المسلمين. وعندما ابتدأ الصراع بين عبد الناصر والإخوان المسلمين كانت الجولة الأولى فيه خارج مصر لصالح الإخوان المسلمين في مهاجمة الدكتاتور عبد الناصر، الذي رافق بروزه أفول نجم الدكتاتور الشيشكلي. حيث كانت الأحزاب السورية كلها تهاجم الحكم الدكتاتوري، حتى إن الإخوان المسلمين قادوا مظاهرة ضد

---

(١) البعث، لجلال السيد، من الصفحات ١٣٧-١٤١.

عبدالناصر في دمشق شاركت فيها الأحزاب السورية، وكان على رأس المشاركين فارس الخوري رئيس الوزارة السورية.

أما في الجولة الثانية فقد انقلب ظهر المجن للحركة الإسلامية، وبرز عبدالناصر زعيماً شعبياً في دعوته للحياد والقومية العربية وكسر طوق السلاح الغربي وصفقة الأسلحة التشيكية، أو هكذا أريد له. فأصبح الناس يعادون أعداءه وعلى رأسهم الإخوان المسلمين، وصدّق الناس مقولته فيهم بأنهم عملاء الإنكليز، وأنهم حاولوا اغتياله. وانعكس هذا على وضعهم في الوطن العربي كله، رغم أن التاريخ يشهد والعدو قبل الصديق يشهد أنهم هم الذين حاربوا الإنكليز وقادوا العمليات الفدائية ضدهم، وهم الحركة الوحيدة التي ألفت بثقلها في حرب فلسطين ضد اليهود والإنكليز، وأن عملية المنشية كشفت الوثائق فيما بعد أنها مسرحية مدبرة من عبد الناصر شخصياً.

غير أن تصاعد نجم اليسار العربي والتحامه بعبدالناصر جعل الحركة الإسلامية موضع النقد والتجريح، رغم أن دعوة الحياد الإيجابي كان أول من أطلقها ودعا إليها المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية الدكتور مصطفى السباعي، ودعا إلى التعاون مع المعسكر الاشتراكي ضد احتكار الغرب للسلاح وعدائه للعرب في قضيته الكبرى فلسطين، وفي استعماره لأراضيه وبلادهم.

ومع ذلك فبروز قضية الجزائر والتي كان لها دورها في إسقاط حكومة الغزي لم تغب عنه الحركة الإسلامية. لقد حضرت مظاهرة قادها علماء سورية، مضت إلى رئاسة الوزراء التي كان الغزي على رأسها، وألقى الأستاذ عصام العطار كلمة ألهبت الجماهير كلها، فكان مما قاله:

«لي أن أقول في الحكومة كلمة واحدة:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

إن صوت الجزائر قد نفذ في الصخر، وأبت الحكومة أن تسمعه».

ثم مضت المظاهرة إلى المجلس النيابي، وكان أهم مطالبها قطع العلاقات مع فرنسا، وخرج رئيس المجلس النيابي، وطلب من المتظاهرين أن يتفرقوا. فأخذ الأستاذ العطار مكبر الصوت منه وقال:

المظاهرة بأمر علمائنا، ولن تتفرق المظاهرة إلا بأمرهم.

واستمرت المظاهرة وتقدمت المطالب للمجلس والحكومة بإيقاف التعامل التجاري والاقتصادي والسياسي مع فرنسا. وأدى ذلك فيما بعد كما ذكرنا إلى سقوط وزارة الغزي.

كان اليسار العربي العلماني يعرف أن أكبر أعداءه على الساحة السياسية هم الإخوان المسلمون، لا للخلافات السياسية، فيكاد يكون الموقف السياسي واحداً للاتجاهين، ولكن للمفارقة الفكرية التامة بينهما فيمن يدعو لأن يكون الإسلام شريعة الحياة كلها، وفيمن يدعو لإقصاء الإسلام عن الحياة كلها، ولوجود الحركة الإسلامية في الشارع في مواجهة اليسار العلماني.

غير أن اليسار العربي لم يكن يخشى الحركة الإسلامية كثيراً لعدم وجود القوة العسكرية التي تسندها في الجيش، فليس على الساحة العسكرية ضابط واحد ينادي بفكر الإخوان المسلمين، وقيادات الجيش المتتابعة خاصة بعد سقوط الشيشكلي هي من الحذر الشديد بحيث تحول دخول دون أي فرد من الإخوان المسلمين في الجيش، خاصة والبعث قد أصبح يمثل المواقع المهمة فيه. فالمالكي المتعاطف مع البعث نائب لرئيس الأركان، وشوكت شقير رئيس الأركان من الطائفة الدرزية، والإجماع منعقد على إيقاف أي تسلل إسلامي للجيش. ولا بد أن نشير إلى الفرق بين الدخول السني والدخول الإسلامي للجيش، فالدخول السني كان مفتوحاً لأن السيطرة بعد الانقلابات العسكرية هي

للطائفة السنية. أما الوجود الإسلامي للشباب المتدين المرتبط بالحركة الإسلامية فمنذ استقلال سورية عام ستة وأربعين وبعد مرور عشرة أعوام على الاستقلال كان الطريق مسدوداً أمامه.

تركيب الجيش السوري في هذه المرحلة:

بمقتل المالكي برز على الساحة اللواء شوكت شقير وحيداً دون منافس رغم ضعف مركزه، فهو درزي لبناني، غير أن صراع الأقوياء أبقاه وحده لفترة وجيزة.

ويعرض لنا شحادة في مذكراته خارطة الجيش العربي السوري بين أعوام ٥٤-٥٨ فيصنف الضباط بقوله:

١-الضباط غير الحزبيين: ويقال إن عددهم سبعون (٧٠) ضابطاً، وعلى رأسهم أمين النفوري وأحمد عبد الكريم وطعمة العودة الله وأحمد حنيدي وعبدالحميد السراج.

٢-الضباط الحزبيون المنتمون لحزب البعث العربي، ويقال إن عددهم يتراوح بين الـ ٥٠ والـ ٦٠ ضابطاً، بزعامة ميشيل عفلق، وأما الضباط فأبرزهم أمين الحافظ ومحمد عمران وصلاح جديد ولؤي أتاسي وحافظ أسد.

٣-الضباط الحزبيون المنتمون لحزب البعث العربي، ويقال إن عددهم يقدر بعشرين ضابطاً بزعامة أكرم الحوراني، وأبرز الضباط مصطفى حمدون وعبدالغني قنوت.

٤-الضباط الحزبيون المنتمون للحزب الشيوعي بزعامة خالد بكداش، ومن أبرز الضباط عفيف البزري، ويقال إن عددهم بلغ ثلاثين ضابطاً.

٥-حزب الشعب، وليس له ضباط منتمون له، ويقال إن لديه ضباطاً متعاطفين معه، ولكن يعدون على الأصابع، وأبرزهم زياد الأتاسي.

٦-الحزب الوطني، وليس له ضباط منتمون له، ويقال إن لديه ضباطاً

متعاطفين معه ولكن يعدّون على الأصابع»[1].

«وعندما أصبح العسلي رئيساً للوزارة في حزيران عام ١٩٥٦، وجد شقير نفسه وقد حيل بينه وبين ممارسة السياسة، فهو لم يشترك على سبيل المثال في المناقشات المتعلقة بإقامة اتحاد فيدرالي مع مصر، ولم يلبث أن نحي عن منصبه بحجة أنه كان درزياً من أصل لبناني، وأنه لم يكن لذلك موثوقاً تماماً، كما قيل إنه كان يعارض إعدام أعضاء الحزب القومي السوري المتهمين بقتل عدنان المالكي، وقد أشيع أن تنحيته عن منصبه خطط لها عبدالحميد السراج تحت ضغط العناصر اليسارية في الوقت الذي كان السراج يشغل منصب مدير المخابرات العسكرية، ويعتبر أحد الذين يتمتعون بحمايته . ولم يلبث شقير أن تقاعد وذهب إلى قرية القرعون اللبنانية مسقط رأسه، واستعيض عنه بعسكري آخر لا يتمتع بطموح سياسي ولا لون له، إنه توفيق نظام الدين شفيق وزير الصحة في وزارة العسلي.

لقد كشف ذهاب شقير تفكك الضباط وتسلل مختلف الفئات السياسية المتنازعة إلى صفوفهم. وعلى حين كان شقير قادراً على إخفاء الصدع، فقد كشف انسحابه عن صورة صاخبة لحفنة من الضباط الشبان الذين يسيطرون على الأسلحة اللازمة للوصول إلى المناصب ويعلنون عن مواقفهم السياسية على الملأ، ويسعون للتأثير على الحكومة في كل يوم. وقد استنكر السياسيون تدخلهم، ولكنهم في الوقت نفسه حاولوا استخدامهم واحداً ضد الآخر. وأظهر حكم الشيشكلي الطويل أن سورية يمكن أن تحكم من خلال الجيش، مما جعل كل سياسي يسعى لمنع خصومه من السيطرة عليه» [2].

---

(١) مذكرات شحادة، ص ١٧٤.

(٢) الصراع على سورية، لسيل/ ٣٤٠-٣٤١.

«لقد كان وصول توفيق نظام الدين إلى رئاسة الأركان نصراً للضباط المستقلين على الضباط الحزبيين، وفي عهده كان جودت الأتاسي مديراً للكلية الحربية، وطعمة العودة الله قائد سلاح المدرعات، وهو من أبرز الضباط المستقلين، وكان عبدالكريم النحلاوي قائد دورة ضباط.

وفي هذا العهد الاستثنائي الذي ارتفع فيه ظل البعث وحلفائه عن الجيش كانت دورة الكلية الحربية تمثل الشعب تمثيلاً حقيقياً بعيداً عن الحزبية والطائفية.

لقد كان عدد أفراد الدورة مائة وثمانين، وكان عدد أفراد الطوائف منهم ستاً وعشرين ضابطاً، أي بنسبة ١٤٪، وهي نسبة الأقليات بالنسبة للشعب السوري. والأصل أن تكون الدورات كلها بهذه النسبة، حيث تبلغ نسبة السنة فيهم بمقدار ٨٥٪» [(١)].

ولكن كما قلت كان هذا وضعاً استثنائياً وخلال عام واحد، حيث عادت المعركة تعصف من جديد، لينتصر الضباط الحزبيون على خصومهم ويتم تعيين عفيف البزري - الضابط الشيوعي- رئيسا للأركان العامة، ويعيد توزيع الخارطة من جديد وذلك في آب ١٩٥٧.

عبدالحميد السراج:

لاحظنا فيما مضى أن خيانة السراج للشيشكلي وتواطؤَه مع مصطفى حمدون وعبدالغني قنوت وتأثيره على طعمة العودة الله هو الذي أفشل مقاومة شحادة وحدَّة لتمرد حلب، وجعل السراج يمسك العصا من الوسط ليتسلق إلى السلطة. وهذه صورة السراج عند (سيل) وعند (شحادة).

السراج عند باتريك سيل: هو من مواليد حماة عام ١٩٢٥، عرف الزعيم

---

(١) من حديث لأحد الضباط أنذاك معي.

الاشتراكي أكرم الحوراني منذ الطفولة، وكان هادئ الطبع، صامتاً منعزلاً، ولديه ميل مبكر للقيام بالعمل البوليسي، ولدى جلاء الفرنسيين ترك سلك الدرك وانخرط في الجيش الوطني المؤسس حديثاً، وأصبح ضابطاً، ليلتحق مباشرة في كانون الثاني ١٩٤٨ بكتيبة من الجيش السوري غير النظامي التي قامت بالهجوم علىالمستعمرات اليهودية. وعاد إلى سورية بعد مضي عام على ذلك تقريباً ولدى انتهاء حرب فلسطين كي يشهد تصدع حكم القوتلي، ويأخذ دوراً في انقلاب حسني الزعيم. وفي عام ١٩٥٢ أرسله الشيشكلي إلى فرنسا لكي يقوم ببعض التدريبات قبل أن يجري تعيينه مديراً للمخابرات العسكرية، وعندما نحي الدكتاتور عن الحكم أصرت الحكومة الجديدة على إبعاد عدد من الضباط الذين كانوا وثيقي الصلة به. وعلى ذلك أرسل السراج إلى باريس لعدة شهور كمساعد للملحق العسكري، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق بسرعة فقد كان الزعيم شقير يخصه باحترام كبير.

وفي شهر آذار من عام ١٩٥٥ عين رئيساً للمكتب الثاني أو المخابرات العسكرية، وذلك قبل شهر من اغتيال المالكي، ويعود سبب ترقيه السلطة إلى حسن إدارته للتحقيقات، وعمله الرئيسي الذي تلا ذلك في غضون الثلاث سنوات التي أعقبت الاغتيال ينحصر في التصدي للمؤامرات العديدة التي قام بها العراق والحزب القومي السوري والفئات المدعومة من الغرب ضد الحكم في سورية. وكان السراج صديقاً للبعث، ويشاركه قوميته الجياشة وارتيابه في التدخل الاجنبي، لكنه يحتفظ ببعض الشخصية عنه، لقد كان حليفاً لزعماء الحزب وليس معتمداً عليهم. والحقيقة أن قوته التي تجلّت في السنوات التي سبقت قيام الوحدة تكمن في حرصه على عدم الانحياز إلى أي جماعة، الأمر الذي قاده إلى السلطة، فقد تمتع السراج كرئيس للمخابرات بمركزي القوة والاستقلال

الكبيرين»[1].

لقد اختار جوزيف آلسوب، الصحفي الامريكي الذكي الذي أمضى حوالي أسبوعين في سورية خلال شهر آيار ١٩٥٦ الضابط الشاب عبدالحميد السراج ديكتاتوراً عسكرياً جديداً لسورية، وجاء هذا التنبؤ في مقال كتبه آلسوب في ٢٥ آيار ١٩٥٦ في نيويورك هيرالد تربيون»[2].

السراج عند شحادة: لقد كانت صورة السراج عند شحادة تمثل صورة الانتهازي الرخيص، ورجل المخابرات الطامع بالسلطة، فهو يقول:

«والواقع أن السراج بطموحاته السياسية كان يصدم كثيراً من أصدقائه، أو الذين كانوا يخالونه صديقاً ... والأمثلة كثيرة لا تحصى عن صدمات السراج لإخوانه.

مثلاً: كان الضباط القوميون المستقلون غير الحزبيين، ومنهم كما ذكرت سابقاً أمين النفوري وأحمد عبدالكريم وطعمة العودة الله وأحمد حنيدي وجادو عز الدين وجمال صوفي وأكرم ديري وعبدالحميد السراج وسواه.. وكانت هذه الكتلة من الضباط القوميين المستقلين تعرف كل صغيرة وكبيرة عما كان يجري في سورية. وقبيل الوحدة أو في مطلعها حصلت المؤامرة التي كان وراءها الملك سعود لاغتيال جمال عبدالناصر وإجهاض هذه الوحدة، وكانوا جميعاً يتابعون هذه المؤامرة بصورة سرية. وعندما أعلن عبدالناصر فيما بعد نبأ هذه المؤامرة، وأعلن سبب فشلها ناسباً ذلك كله لعبد الحميد السراج البطل الوطني المخلص، وما إلى ذلك من الصفات التي كالها كيلاً عليه في خطابه الشهير. وكانت صدمة

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٣٢٠-٣٢١.

(٢) المصدر نفسه/ ٣٣٦.

كبيرة لإخوانه الذين ساهموا معه في إجهاض هذه المؤامرة. وخاصة لطعمة العودة الله الذي كان يحدثني عن ذلك بمرارة شديدة.

ومن صدماته لإخوانه صدمته للشيشكلي، وهو المقرب منه كثيرا، ولذلك كانت الصدمة النفسية الكبرى. فقد كان عبدالحميد السراج في باريس مبعداً حسب الاتفاقية التي عقدناها مع مأمون الكزبري بحضور شوكت شقير، وهو يسير في شارع الشانزليزيه الشهير، صادف الشيشكلي في طريقه، فتظاهر بعدم رؤيته، وغيّر مساره حتى لا يسلم عليه، بينما كان الضباط السوريون يسعون بأنفسهم عندما كانوا يحضرون إلى باريس لزيارته وتحيته. هذا ما رواه لي الشيشكلي في باريس وهو يشعر بمرارة هذا النكران والجحود.

كان السراج بهذا التصرف الشاذ -ولا أقول أكثر من ذلك- يستهدف إرضاء الأحزاب المؤتلفة، وهي الأحزاب التي كانت تحكم سورية بين ١٩٥٤-١٩٥٨، كما كان يستهدف إرضاء الضباط المنتمين لهذه الأحزاب. وخيّل إليه بأنهم إذا علموا بهذا التصرف الشاذ سوف يرضون عنه.

مثل آخر عن السراج: حدثني بعض زملائه عن تصرفاته التي كانت تصدمهم صدماً، وكانت هذه التصرفات بين ٥٤-٥٨، أي الفترة الانتقالية بين عهد الشيشكلي وعهد الوحدة، أي الفترة التي كان السراج يقدم نفسه ليكون في الفترة التي تليها فترة الوحدة هو المسؤول الأول فيها بعد عبد الناصر.

كانت تصرفات السراج في هذه الفترة الانتقالية تصدمهم وتثير غضب زملائه. وعندما كانوا يحاسبونه، وعندما كانوا يهددونه ويؤاخذونه على تصرفاته تلك، كان يتخلص منهم ليثير شفقتهم بالتظاهر بالإغماء وفقدان الوعي وتيبس الجسم الذي يلقيه على الأرض، فيتحول الاهتمام من محاسبته على تصرفاته إلى الاهتمام بإسعاف المغشي عليه.

كان هذا الأسلوب مجدياً للوصول إلى ما وصل إليه، وإلا فقد أضاع الجهود المضنية التي كان يبذلها منذ إغراء طعمة العودة الله رحمه الله بالانشقاق علينا، حتى الجهود المضللة في الفترة الانتقالية التي اكتسب بها ثقة عبد الناصر على حساب زملائه. فأصبح المسؤول الأول عن الإقطاعية السورية رغم الاسم الرسمي - الإقليم السوري - الذي كان يديره كإقطاعية سورية.

مثل آخر وإن كان شخصياً جداً، وإن كان كما يقال في هذا العصر بأنه من الحريات الشخصية ولكن له دلالته:

في عهد الشيشكلي رافقت مصطفى حمدون على ما أذكر لزيارة عبدالحميد السراج في شقته للمرة الأولى، فصدمت لأنه كان يعيش في شقة راقصة اسمها (أميرة)، وكانت الإشاعات عنها تملأ سوق الحميدية، لأنها كانت كثيراً ما تتجول في هذه السوق لشراء حاجاتها، وتضرب أحياناً بعض البائعين مدعية أنها زوجة عبدالحميد السراج، وكان هو لا يستطيع أن يردعها لأنه معروف بضعفه مع النساء.

ولما علم الشيشكلي بذلك غضب منه وأنبه، ولكن لم يبعده عن رئاسة الشعبة الخطيرة التي تتحكم بشؤون الضباط ومصيرهم، أما بالنسبة لي فلم أكرر هذه الزيارة لأني لم أهضم أن يعيش ضابط في شقة راقصة» [1].

وكان لا بد من الحديث عن السراج بهذا الإسهاب، لأنه الشخصية التي برزت بعد غياب المالكي ليكون مسؤولاً عن عهد الوحدة فيما بعد.

طبيعة الصراع في الجيش:

«أما عن الصراعات بين الضباط الحزبيين والضباط غير الحزبيين فيمكن

---

(١) مذكرات شحادة / ١٦٨-١٧٠ باختصار.

وصفها أو صف هذه المرحلة بأنها مرحلة الفوران والغليان، مرحلة رجحان كفة الضباط الحزبيين في آخر هذه المرحلة على كفة الضباط غير الحزبيين في هذا الصراع الضاري، وبالتالي مرحلة رجحان كفة اليسار السوري لأن الأحزاب الثلاثة المتغلغلة في الجيش هي أقرب إلى موسكو بنسب مختلفة ؛ مرحلة اضطرار الضباط غير الحزبيين إلى تسليم زمام سورية إلى عبد الناصر لإتمام الوحدة الفورية مع مصر، إنقاذاً لسورية من هذه الصراعات. وقبل أن يفلت الزمام نهائياً من أيدي الضباط غير الحزبيين وقبل أن تسقط سورية في أحضان اليسار السوري.

ولإعطاء فكرة عن مدى الصراع الضاري في هذه المرحلة ٥٤-٥٨ أنقل هنا ما كنت أسمعه من الضباط غير الحزبيين: كنا ننام بعيون مفتوحة، كنا نتوقع يومياً انقلاباً من الضباط الحزبيين، كنا ننام دوماً في الثكنات وقطعاتنا مستنفرة، وأيدينا على زناد أسلحتنا»[١].

وفي خضم الصراعات الضارية في سورية بين سنتي ٥٤-٥٨ بين الضباط الحزبيين والضباط غير الحزبيين تم لقاء بين أحمد حنيدي وكان من أبرز الضباط غير الحزبيين وبين موفق المهايني وكان عضواً بارزاً في حزب الشعب، وجرى الحوار التالي بينهما. وقيل إن الذي بدأه هو أحمد حنيدي كما روى لي أحد الأصدقاء الموثوقين: قال أحمد حنيدي: أنتم حزب دون ضباط، ونحن ضباط دون حزب، فلماذا لا نتعاون لمواجهة الضباط الحزبيين؟

استحسن موفق المهايني هذا التعاون التكتيكي وليس الإستراتيجي، وعرض هذه الفكرة على رشدي كيخيا الذي لم يستحسنها، وبدوره عرضها على المكتب

---

(١) المصدر نفسه/ ١٧٢.

التنفيذي للحزب برئاسته، فرفضها الكيخيا بعد حوار بجملة حاسمة قائلاً: ان الضباط مجالهم الجيش فقط.

ولو تم هذا التعاون، لتم التوازن الاستراتيجي السياسي بين اليسار السوري واليمين السوري، ولما تركت الساحة السياسية في سورية لليسار السوري، وبالتالي لتحقق لسورية حيادها الإيجابي الفعلي بين المعسكرين المتنازعين المتصارعين عليها» [1].

عام ٥٧ وانتصار اليسار العلماني:

بعد المؤامرة السابقة الذكر أجرى صبري العسلي تعديلاً وزارياً أخرج فيه ممثلي حزب الشعب والكتلة الدستورية، متذرعاً باشتراك الكتلة والحزب بالمؤامرة. وأدخل الجبهة الديمقراطية بديلاً عنها. ودخل المليونير الأحمر من جديد خالد العظم وزيراً للدفاع، ومعه حامد الخوجا وصالح عقيل. وخرج من الوزارة أحمد قنبر ورشاد جبري وعبدالوهاب حوق. والوجه الإسلامي الوحيد فيها وهو الاستاذ مصطفى الزرقا الذي كان وزيراً للعدل.

لقد كان التيار الإسلامي خاسراً بالنسبة لصداقته مع حزب الشعب، فلم يجن من هذه الصداقة أي مكسب، وحاول خصوم الحركة الإسلامية إلصاق تهم حزب الشعب وتواطئه مع النظام الهاشمي العراقي بالحركة. والحقيقة أن الصداقة كانت شخصية بين الدكتور مصطفى السباعي الذي كان مراقباً عاما للإخوان المسلمين وبين الدكتور معروف الدواليبي والاستاذ مصطفى الزرقا، والدكتور الدواليبي من أنظف شخصيات حزب الشعب وأبعدهم عن النظام الهاشمي، وقد رفض ابتداء هذا التعاون، فقد «ذكر معروف الدواليبي في رسالة إلى رئيس محكمة بغداد

---

(١) المصدر نفسه/ ١٧٩.

والتي قرئت إبان محاكمة فاضل الجمالي أن نوري السعيد والوصي – عبد الإله - قد عرضا عليه عوناً عسكرياً ومالياً ضد الشيشكلي أثناء لقاء في بغداد في صيف عام ٥٣، ولكنه رفض ذلك» [١].

وكان من دعاة الحياد الإيجابي الصريحين منذ البداية، وكما ذكر سيل: «بينما أعلن سياسي من حزب الشعب السوري أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء وهو الشيخ معروف الدواليبي أن الطريقة الوحيدة لمنع حرب عالمية ثالثة هي توقيع ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفيتي» [٢].

فكان الثلاثي - الزرقا والسباعي والدواليبي- من قادة الفكر الإسلامي في سورية، غير أن الانتماءات السياسية كانت ذريعة جيدة لنيل خصومهم منهم في هذا المجال، وثلاثتهم أساتذة جامعيون. وحيث أن الدكتور منير العجلاني نائب دمشق قد أسقطت عضويته في المجلس إثر إدانته بالاشتراك في المؤامرة مع عدنان الأتاسي في حمص وهايل سرور وفضل الله جربوع، فقد عاد الصراع على أشده حول هذه المقاعد الأربعة. وبدأ المرشحون في دمشق ينسحبون، حتى بقي الصراع بين مرشحين اثنين، وانقسمت دمشق وسورية من ورائها إلى تجمعين ضخمين، حيث يسند كل تجمع مرشحه.

كان قياديو اليسار العلماني هم: أكرم الحوراني، خالد بكداش، صلاح البيطار، ميشيل عفلق، صبري العسلي، خالد العظم، وقد تبنوا الأستاذ رياض المالكي شقيق عدنان المالكي والعضو القيادي في حزب البعث العربي الاشتراكي.

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ١٨١.

(٢) الصراع على سورية، لسيل/ ١٤٠.

وكان المرشح الإسلامي بالمقابل الدكتور مصطفى السباعي، وقد تبناه علماء دمشق جميعاً ما عدا الشيخ أحمد كفتارو. فكان مرشح رابطة العلماء وعلى رأسها الشيخ أبو الخير الميداني، والشيخ مكي الكتاني، ووقف من السياسيين معه حزب الشعب والجناح الآخر من الحزب الوطني. وماضي الدكتور السباعي العريق في المجال الإسلامي والوطني والسياسي جعل المعركة في الحقيقة معركة بين الإيمان والكفر. ومعركة حقيقية بين التيار الإسلامي والتيار العلماني. ولمدة شهرين تقريباً كانت دمشق تشهد الحملات الانتخابية. وحمص كذلك حيث انقسمت بين سعيد التلاوي مرشح التيار الإسلامي ومرشح آخر تبناه اليسار العلماني كذلك. وقد حضرت معظم هذه الحملات في دمشق. وكان أكبر نقطة ضعف في التجمع الشعبي هو الصراع بين الإخوان المسلمين وعبد الناصر. وكان السباعي من الجرأة بحيث يستعرض هذه القضية، ويؤكد أنه مع مصلحة الأمة حين تعرضت للمؤامرة، فقد وضع الإخوان المسلمون أيديهم على جراحهم وآلامهم ونسوا المجازر والإعدامات التي نالتهم، واعلنوا تأييد عبدالناصر في تأميم قناة السويس، وفي تسليح الجيش وتقويته، وفي الحياد الإيجابي، وما حاربوه إلا لنقضه هذه المبادئ ابتداءً. وهم ينطلقون من الإسلام لا من ذواتهم في هذا المجال. ووضعوا أنفسهم وأموالهم تحت تصرف الرئيس عبد الناصر أثناء العدوان الثلاثي على مصر.

بينما كانت أكبر نقطة ضعف في التجمع القومي اليساري وجود الشيوعيين في هذا التجمع وعلى رأسهم خالد بكداش، الذين يحاربون الدين وينكرون الألوهية.

«وقد جرى أكبر اختبار للقوة في دمشق، حيث فاز رياض المالكي من حزب البعث على الشيخ مصطفى السباعي زعيم الإخوان المسلمين بأغلبية ضئيلة.

لقد حاز السباعي على ٤٧٪ من مجموع الأصوات. وهذا يدل على أن الإسلام لم يكن قد انتهى كقوة من على مسرح السياسة السورية. هذا على رغم أن منافسه قد تلقى دعم البعثيين والشيوعيين وجميع التقدميين وحزب الشعب والحزب الوطني، كما أفاد من كونه أخا عدنان المالكي، لقد قيل إن السفارة السوفياتية قد تدخلت لضمان انسحاب المرشحين الشيوعيين في دمشق وحمص لصالح مرشح يساري أكثر قبولاً عند عامة الناس»[1]. وكانت الثغرة الكبرى التي نفذ منها اليسار العلماني ضد التيار الإسلامي هي ضمه للشيخ أحمد كفتارو معه. وشق صف العلماء من خلاله.

والحقيقة أن هزيمة السباعي رحمه الله - سواء أكانت حقيقية أم تزويراً وهو الأغلب - كانت أكبر نكسة مني بها التيار الإسلامي في سورية، نظراً لما يمثله شخص السباعي فيها. وكانت قمة الانتصار العلماني. حيث أصبحت الحرب عنيفة ضد الإسلام والمسلمين بعد ذلك، وفي داخل المجلس النيابي وبعد فوز ثلاثة مرشحين من أربعة لصالح اليسار، أعيد الانتخاب داخل المجلس النيابي، وفاز أكرم الحوراني رئيساً للمجلس. وخرجت جريدة الرأي العام في صباح اليوم التالي بمقال: نهار عربي اشتراكي. تبشر بالمستقبل الاشتراكي المشرق لسورية. وكان هذا في ربيع عام ١٩٥٧. والذي يرجح تزوير الانتخابات لصالح المالكي وتدخل الجيش في ذلك هو صورة الحكم في هذه المرحلة التي يحدثنا عنها خالد العظم بقوله:

«وكنا على سابق عادتنا نجتمع في داري مرة أو أكثر في الاسبوع اجتماعاً سياسياً يحضره العسلي والحوراني والبيطار والكيالي، ورؤساء الشعب الخمسة

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٣٨٠.

في الجيش (عفيف البزري، مصطفى حمدون، أمين النفوري، عبدالحميد السراج، أحمد عبدالكريم) وخالد بكداش. وكانت هذه الاجتماعات تمثل الفئة الحاكمة في التجمع القومي والجيش، وكنا ندرس الأمور السياسية، ونقرر الاتجاه العام»[1].

الوحدة مع مصر

«في مناقشة عاصفة في المجلس النيابي جرت في أول حزيران اضطر رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب إلى التهديد باستقالة مؤيديه في المجلس بشكل جماعي. ولم يلبث خالد بكداش أن ألقى خطبة مثيرة دافع فيها عن الاتحاد السوفيتي وهاجم حزب الشعب متهماً أعضاءه بالتبعية، وبكونهم عملاء للإمبريالية، فاندفع الكيخيا على الفور واتهم بكداش بأنه يستهدف هز الثقة العامة وبزرع الفوضى والفساد في البلاد، واتهم الحكومة بالتغاضي عن تصريح بكداش باتباعها أسلوب الصمت، وفي غمرة الضوضاء جمع أوراقه وغادر المجلس. وقد أدى ذلك إلى قيام زعيم آخر لحزب الشعب، أحمد قنبر، مكيلاً التهم لخالد بكداش، وبأنه يستعمل المنبر النيابي للدعاية الشيوعية، ثم اتهم الأغلبية البرلمانية بأنها أصبحت معجرفة ومستبدة وقال: «إنه حكم إرهاب كبير يهيمن على المجلس، إنني أقف هنا معارضاً لهذا الإرهاب وللحكومة أيضاً وأتحداهما...

وجاءت ثلاثة أحداث متتابعة تسبق الأزمة، ففي السادس من آب وقّع وزير الدفاع السوري خالد العظم معاهدة اقتصادية وفنية واسعة المدى مع الاتحاد

---

(١) مذكرات خالد العظم، ج٣، ص ١٢١.

السوفيتي في مدينة موسكو. وبعد أسبوع جرى إبعاد ثلاثة دبلوماسيين أمريكيين اتهموا بالتآمر على قلب نظام الحكم، واتبع ذلك مباشرة تقاعد نظام الدين رئيس الأركان العامة، وتعيين عفيف البزري المعروف بتعاطفه مع السوفييت بدلاً منه، وفي الوقت نفسه جرى تطهير الجيش من عشرات الضباط» [1].

لقد كانت الأحزاب السورية جميعها تؤيد الوحدة أو الاتحاد مع مصر. والجيش من وراء الأحزاب. ولكن كلاً من هؤلاء يريدها على طريقته الخاصة.

فالمعارضة التي مثلها حزب الشعب والجناح الثاني من الحزب الوطني ترغب بالاتحاد مع مصر للخلاص من سيطرة اليسار الحاكم المتمثل بالبعث والشيوعيين، الذين يريدون يساراً علمانياً متطرفاً يمضي قدماً في تطبيق الاشتراكية العلمية.

والإخوان المسلمون يريدون الوحدة مع مصر، خوفاً من التطرف الأشد ضد الإسلام، بحيث تصبح الفلسفة الشيوعية هي التي تسود المجتمع، فلا يزال الجو الإسلامي في مصر بعيداً عن الإلحاد والكفر والفكر المضاد للإسلام، ومن جهة أخرى فالخلاص من الأقليات وسيطرتها لا يتم إلا من خلال حكم سني قوي.

والبعث العربي الاشتراكي يريد الوحدة مع مصر، لأن عبد الناصر قد تبنى أفكارهم وحارب أعداءهم الإخوان المسلمين وأقصاهم عن الحكم. والشيوعيون يريدون الوحدة على أمل السيطرة على سورية من خلال جبهتهم التقدمية.

والجيش لا يجد حلاً للنزاعات المستمرة، إلا من خلال الوحدة التي تجعل الجيش المصري قادراً على حل هذه النزاعات.

وكانت شخصية محمود رياض السفير المصري تمثل أكبر ثقل في الساحة،

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٣٨١.

حيث كان يتصل مع جميع الأطراف بلا استثناء، أما علاقة الجيش بالسياسيين فيعبر عنها النص الآتي:

«من خلف ظهر الحكومة كانت سورية تحكم من قبل جبهة تقدمية منذ عام ١٩٥٦، ومن قادتها الرئيسيين خالد العظم وزميله الشيوعي خالد بكداش وزعماء البعث الآخرون أكرم الحوراني وصلاح البيطار الذي شغل مركز الرئيس المستقل، وصبري العسلي الذي أخذ مركزه من استغلاله الماهر لخلافات الآخرين. وكان هؤلاء الأشخاص الخمسة يجتمعون في منزل العظم مراراً للمناقشة والتنسيق السياسي، وقد تقاسموا هم بدورهم السلطة مع حلفائهم العسكريين عبد الحميد السراج مدير المخابرات العسكرية الذي ألقى بثقله في جانب مصر وحزب البعث، والبزري الذي كانت علاقته مع بكداش، والنفوري مع العظم، بينما كان للحوراني عدد من الأتباع في الجيش ربما كان على رأسهم كل من مصطفى حمدون وعبدالغني قنوت» [(١)].

وبرز على الساحة التطورات التي أدت للحشود التركية، ودُعي إلى أسبوع التسلح، وقام القوتلي بحفر الخنادق للدفاع عن سورية. وبرزت المقاومة الشعبية جيشاً جديداً يقوده المقدم صلاح البزري أخو عفيف البزري. وكأنما سقطت سوريا بين فكي الأخوين عفيف وصلاح وفي مخلب الشيوعية.

لقد كنا نسمع ونحن نتدرب على الفتوة في هذه المرحلة الكلمة التي يرددها الضباط المدربون ونحن نود أن نصلي، كنا نسمع من يقول لنا: (في الجيش ما في الله)، إضافة إلى الكلمات البذيئة وسباب الرب والدين والخالق، فهو أمرعادي في صف الجيش السوري.

---

(١)

وقد تجرأ التيار الملحد، وشجع دعاة الفسق والفجور تحت اسم الفن، وظهرت بأفضح صورة الدعاية الداعرة للرقص والمجون والخلاعة تحت ستار الفن، وغزت فرق الرقص الشرقية المصرية والأفلام الماجنة المجتمع السوري، وأصبح التمسك بالإسلام مجال السخرية والاستهزاء والتهكم، والشاب المتدين في المجال المدني أصبح يلقى مقاومة عنيفة، أما في الجيش فلا بد أن يتطهر الجيش منه. وأصبحت فكرة الرجعية والتقدمية هي التي تميّز الناس، فالرجعية تعني الدين والارتباط بالمخططات المشبوهة وعملاء الإمبريالية، والتقدمية تعني التحرر من الدين والولاء لموسكو والتمسك بعبد الناصر بطل القومية العربية والأمة العربية.

الجيش يفرض الوحدة:

في ١٢ كانون الثاني ١٩٥٨ قام ١٤ ضابطاً على رأسهم عفيف البزري رئيس الأركان العامة بالذهاب إلى القاهرة على متن طائرة تاركين وراءهم نائب رئيس الأركان أمين النفوري ومدير المخابرات عبد الحميد السراج الذي كلف بتقديم مذكرة للحكومة تشرح رحلة الضباط المفاجئة. وقد كانت هذه المذكرة حاسمة، إذ ذكرت الحكومة بتعهدها الذي قطعته على نفسها لدى استلامها الحكم، وهو التعهد القاضي باتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق الاتحاد مع مصر، وأضافت أن البلاد كانت على شفا الانهيار، وأن الشيوعية وحدها سوف تربح الساحة، وأن الضباط ذهبوا إلى مصر بحثاً عن العلاج.. وسبّب سفر الضباط غير المعلن إلى القاهرة الشعور بالخطر في أوساط الوزارة، فقد كان بعيداً عن الوضوح ما كان الضباط يعتزمون القيام به. هذا بصرف النظر عن أن خطوتهم عبّرت عن تضحية بائسة بالنفس حين قالوا لعبد الناصر: «افعل بنا ما تريد»، وأضافوا: «أنقذنا فقط من السياسيين ومن أنفسنا».

وفي ١٥ كانون ثاني نشرت صحيفة الجمهورية القاهرية تصريحاً لعفيف البزري قال فيه بأن الجيش المصري والسوري أصبحا منذ الآن جيشاً واحدا، وفي العشرين من كانون الثاني نقلت صحيفة الأهرام القاهرية أن قراراً تاريخياً قد اتخذ في خلال اجتماع استغرق أربع ساعات بين عبد الناصر وصلاح البيطار (وزير الخارجية السوري) وعفيف البزري (رئيس الأركان العامة السوري)، وأعلنت أن الاتحاد قد دخل مرحلته العملية الراسخة. وأعلن البيطار لدى امتطائه الطائرة المتجهة إلى دمشق أن الاتفاق قد تم على شكل ومحتوى الاتحاد العضوي بين مصر وسورية.

وما أن اتخذ عبد الناصر قراره حتى اتضح أنه لم يكن مهتماً بالاتحاد الذي يعطيه أقل من السيطرة الكاملة، ولم يقبل الموافقة على الزج بنفسه في مغامرة كهذه حتى يستطيع عزل مركزي القوة في سورية، الجيش والأحزاب السياسية، وكانت شروطه ببساطة تقضي بانسحاب الجيش من السياسة، وحل جميع الأحزاب. وأصر على أن تصبح أشكال الحياة السياسية في سورية على نسق مصر، وليست فوضى ضاربة الأطناب، فسورية على سبيل المثال لا يمكن أن تحتفظ ببرلمانها في الوقت الذي لا يوجد فيه برلمان بمصر. وطالب بمنحه الثقة الكاملة، وإطلاق يده للعمل. فتحقق له ذلك نظراً لطبيعة الظروف.

وقد قدّم عبد الناصر إلى البعث تأكيدات شفوية في ذلك الوقت بأن انتخابات الاتحاد القومي سوف تقام على الفور، وأتاح له أن يعتقد بما لا يخالف المعقول الفوز في الانتخابات، لأنه - أي البعث - مهندس الاتحاد الرئيسي، لقد تخيّل الاتحاد القومي أداة سياسية جديدة تضم جميع أولئك الذين يريدون بناء مجتمع اشتراكي عربي، في حين تصبح الدولة الجديدة قلعة تقدمية وقاعدة لنشر الأفكار القومية ضمن العالم العربي. وفيما يطرح البعث الأفكار يقدم عبد الناصر

الزعامـة، وسـيكون البعـث ينبوعـاً للأيديولوجيـة، وعبـد الناصـر الـزعيم والأداة العملية. ذلك هو حلم البعث لخطة التوقيع على الاتحاد.

ومن الطبيعي أن تكون صورة هذه الأشياء كريهة لخالد العظم وحلفائه، فقد أبدوا معارضة لفكرة الدمج الكامل وحل الأحزاب السياسية، ووضعت الوزارة خطوطاً عريضة لمشروع اتحاد فيدرالي، وطلبت إلى البيطار أن ينقل مسودة المشروع إلى القاهرة في الخامس والعشرين من كانون الثاني. غير أنه لم يلبث أن عاد إلى دمشق بعد يومين، حاملاً اعتراض عبد الناصر على الاقتراحات المتعلقة باقامة اتحاد فيدرالي، والطلب بقيام وحدة كاملة وفق شروطه أو لا شيء على الاطلاق.

ولتجاوز حالة الركود عقد السفير المصري وملحقه العسكري اجتماعاً في دمشق مع زعماء الجيش السوري في الأيام الأخيرة من كانون الثاني، وفيه ظهر البزري كمؤيد قوي للدمج الكامل، وجذب إلى جانبه الضباط. كما أمر بتهيئة طائرة جمع فيها أعضاء الوزارة متوجهاً بهم إلى القاهرة، وفي اليوم التالي -أي في اليوم الأول من شباط- أعلن الاتحاد بين سوريا ومصر في اجتماع عقدته الحكومتان السورية والمصرية.

وفي ٤ شباط أي بعد ثلاثة أيام من إعلان الاتحاد غادر خالد بكداش البلاد إلى أوروبا الشرقية، بينما انقلب الحزب إلى منظمة سرية، وأعلن بكداش أنه لم يعرف قط أي حزب شيوعي قام بحل نفسه [١].

ويمكن القول بعد انتهاء هذه المرحلة من ٥٤-٥٨ أن الصراع وإن كان بين الحزبيين والمستقلين لكنه كان صراعاً سنياً بحتاً، فقد ترك النصيريون الساحة

---

(١) الصراع على سورية، لسيل، مقتطفات من ٤١٧-٤٢٥.

للسنيين كي يقوموا بتصفية بعضهم ابتداء، وحين نراجع أسماء الضباط الأربعة عشر الذي مضوا لمصر وسلموا سورية لعبد الناصر، وهم خليط من الحزبيين والمستقلين، لا نجد بينهم إلا ضابطاً درزياً واحداً هو جادو عز الدين قائد أحد ألوية المشاة، بينما البقية هم: (عفيف البزري رئيس الأركان العامة، ومصطفى حمدون رئيس الشعبة الأولى، وأحمد عبد الكريم رئيس شعبة العمليات، وأحمد الحنيدي وطعمة العودة الله وحسين حدة وعبدالغني قنوت ومحمد النسر وياسين الفرجاني وعبد الله جسومة وهم قادة الوحدات المدرعة، وجادو عز الدين ومصطفى رام حمداني وهم قادة لواء المشاة، وأكرم ديري قائد الجبهة الفلسطينية، وجمال الصوفي قائد البحرية) [1] وليس بينهم كذلك ضابط واحد يمثل الحركة الاسلامية.

هوية الوحدة:

قبيل عهد الوحدة، وحينما سيطر البعثيون والشيوعيون على الجيش، كان أمين الحافظ هو مدير الكلية الحربية، وكان حزبياً منضبطاً ينفذ أوامر رؤسائه كما ترد له. ويذكر الحافظ بعد مرور ثلث قرن أن الفريق جمال فيصل الذي عيّن خلفاً لعفيف البزري في رئاسة الأركان وقيادة الجيش الأول زار الحافظ في الكلية وسأله عن طبيعة الطلاب الضباط الذين يقبلون في الكلية. فأجابه أنه ينفذ ما يرد إليه من أوامر من رؤسائه الحزبيين، وكان الحوراني آنذاك نائباً لرئيس الجمهورية في الإقليم السوري، فأي توصية ترده من الأستاذ الحوراني بقبول ضابط في الكلية ينفذ هذه الوصية ويقبله.

فنصح الفريق فيصل الحافظ، الذي صار فريقاً فيما بعد، بأن يكون قبوله

---

(١) المصدر نفسه، ٤١٧.

ضمن الاتجاه (م. ع. س.)، وكتبها في ورقة صغيرة وأعطاه إياها. وفسرها له بأن يركز في قبول الضباط على المسلمين العرب السنيين من بين فئات الشعب، فهم الأكثر وطنية وولاء لهذا الوطن من غيرهم. وقد تحدَد هذا الاتجاه من القيادات العليا في الجمهورية العربية المتحدة. ولم تكن الثقة بأبناء الطوائف الأخرى غير العربية وغير السنية قائمة. وذلك انطلاقاً من الأكثرية الساحقة السنية العربية الموجودة في الإقليم المصري، وحيث غدت سوريا إقليماً شمالياً من الجمهورية العربية المتحدة وجزءاً منها فكان من الطبيعي أن تسود الأكثرية السنية في الجيش، والأقليات المنوعة في سورية تصبح عدداً ضئيلاً لا يكاد يذكر أمام هذه الأكثرية، والظروف غير الطبيعية هي التي حدت بهذه الأقليات أن تتجمع وتستفحل في الجيش من قبل.

والحادثة الثانية التي تدل على طبيعة عهد الوحدة هي اختيار قائد للجيش الأول ورئيساً للأركان خلفاً لجمال فيصل، ويتحدث عبد الكريم زهر الدين عن هذا الحدث فيذكر أنه تقرر عزل جمال فيصل «بعد أن اتضح للقيادة العامة بأن الفريق فيصل قد استهلاك استهلاكاً كاملاً، وأنه غير كفء لهذا المنصب، وأنه عديم الشخصية أجوف، وهذا الكلام مأخوذ من الدراسة ذاتها، وتتلخص الاقتراحات حول هذا الموضوع بما يلي:

١-اقتراح باختيار جادو عز الدين لهذا المنصب، ولكن - حسب قول التقرير - هناك عقبات عديدة، أهمها كونه من الطائفة الدرزية، أي من الأقليات، ولا يجوز أن يستلم قيادة الجيش (ملاحظة: قبل الوحدة لم تعرف سورية مثل هذه العقبات أبداً). ثم لأنه كان برتبة عقيد قبل تنصيبه وزيراً. وهذا يتطلب ترفيعه ترفيعاً استثنائياً لمرتبة عالية مما يترتب عليه تسريح كل من هو أقدم منه في كشف الضباط. ثم هناك القدم أيضاً بالنسبة للواء أنور القاضي، إذ لا يجوز أن يكون

جادو (العقيد) آمراً للقاضي (اللواء).

٢-اقتراح باختيار العقيد جاسم علوان لهذا المنصب، وهنا تبرز عقبة تسريح ما لا يقل عن أربعين ضابطاً، غير أن القيادة العامة كانت جادة في هذا الأمر. حيث صممت على نقل اللواء القاضي واستبداله بضابط لآخر لم يسبق له أن خدم في سورية. وترفيع جاسم علوان إلى رتبة تؤهله لمنصب القيادة، وتسريح كل من هو أقدم منه من الضباط السوريين وأنا منهم. وكانت هذه الدراسة على وشك التنفيذ حتى إنه تم تخصيص الوظائف المدنية للضباط المزمع تسريحهم، وكان مقرراً أن تكون وظيفتي محافظاً للاذقية» [1].

وهكذا أبعد جادو عزالدين عن القيادة لأنه من الطائفة الدرزية.

لكن الجديد في هوية عهد الوحدة هو النعرة الإقليمية المصرية، والتمييز للضباط المصريين في كل شيء، حتى إن القيادة الفعلية للإقليم السوري انتهت إلى الضباط المصريين، حيث إن المشير عبد الحكيم عامر كان نائب رئيس الجمهورية للإقليم السوري.

ومن خلال هذه السياسة أمكن تكوين قاعدة ضخمة من الضباط السنيين وهي قاعدة طبيعية متناسبة مع الأكثرية السنية في الأمة.

«كان عبد الناصر قد اقتلع أحشاء السياسة السورية، فلدى موافقته على الوحدة كان قد وضع شرطين، أولهما ان ينسحب الضباط من السياسة، وثانيهما أن تحل الأحزاب السياسية، ولكن لم يصدق ضباط البعث ولا زعماؤه أن عبد الناصر يمكن أن يستبعدهم عن الوحدة التي هم صنعوها، فالضباط السوريون اعتادوا أن يعملوا بالسياسة، وكانوا يتوقعون أن يستمروا في ذلك، بل إن آمال

---

(١) مذكرات عبدالكريم زهرالدين، ص ٤٣-٤٤.

البعث كانت أكبر بكثير، إذ كان قادته يتوقعون أن يصبحوا المعلمين العقائديين للجمهورية العربية المتحدة، وأن يزودوا عبدالناصر بعقيدة متكاملة، ويعلّموا العروبة لمصر نفسها.

ولكن كل ذلك لم يكن سوى أحلام يقظة، فبدلاً من الحياة الحزبية الجاهزة التي كانت قائمة في سورية أنشأ عبد الناصر تركيباً كان في الوقت نفسه سلطوياً وكسيحاً، مخلع الأوصال، فكل القرارات كانت تتخذ عنده في القاهرة، حيث كان يعمل بواسطة مجموعة صغيرة من الضباط ورجال الأمن. أما في دمشق فكان اعتماده على رجل أمن صموت هو العقيد عبدالحميد السراج الذي رفّعه وجعله وزيراً للداخلية، وكان من نتيجة ذلك أن فقدت سورية السيطرة على شؤونها، ولم تعد دمشق أكثر من محافظة، وهذا تدنٍّ في الأهمية أبرزه إغلاق السفارات الأجنبية، وقرر عبدالناصر أن تكون شؤون الوحدة بين وزارة مركزية فيها سوريان هما الحوراني والبيطار. أما شؤون مصر وسورية اللذين أطلق عليهما اسم الإقليم الجنوبي والإقليم الشمالي، فتكون من اختصاص مجلسين تنفيذيين محليين. وأن يكون هناك مجلس أمة واحد مؤلف من أربعمائة عضو من مصر ومائتي عضو من سورية، يتم تعيين كل واحد منهم من قبل عبد الناصر شخصياً.

وهكذا لم تأت الوحدة على النحو الذي يتوقعه السوريون، وراحوا بأسلوبهم المتمرد الذي عرفوا به يعربون عن مشاعرهم، وإذ تزايدت المصاعب في سورية، فإن عبد الناصر أخذ يضرب المعارضة، وبخاصة داخل القوات المسلحة، وكان أول الذين أزيحوا هم الشيوعيون، وتلاهم البعثيون من كل نوع، وكذلك الضباط الذين اصطدموا بالسراج والمصريين المسيطرين. فزج الخطرون منهم في السجون بينما أرسل الأكثر حظاً إلى البعثات الدبلوماسية في الخارج. أما الغالبية العظمى بين هؤلاء وأولئك فقد أرسلوا إلى وظائف في الإقليم الجنوبي (أي

مصر)، حيث ساد الاعتقاد بينهم بأنهم لن يستطيعوا أن يثيروا أي مشاكل هناك.

وفي تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٥٩ أرسل المشير عبدالحكيم عامر أقرب مساعدي عبد الناصر ليحكم في دمشق بصلاحيات كاملة، فكانت تلك علامة على إفلاس الترتيبات الدستورية للجمهورية العربية المتحدة. وعند نهاية العام استقال الموظفون الصوريون البعثيون من مناصبهم الحكومية الصورية، وغادر الحوراني القاهرة بعد أن نفض يديه منها عائداً إلى بلده حماة وسط خيبة أمل كاملة من تجربة الوحدة مع مصر» [١].

لقد شعر البعثيون بخطيئتهم الفادحة، فلأول مرة يجد الحوراني نفسه عاجزاً عن القيام بانقلاب في الجمهورية العربية المتحدة، اذ قبل أخطر ضباطه -وهما مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت- أن يتركا مواقعهما في الجيش ويصبحا وزيرين في دولة الوحدة. وكما عجز البعث عن ان يفعل شيئاً في الجانب العسكري، فقد عجز كذلك عن فعل شيء في المجال المدني. إذ أن انتخابات الاتحاد القومي لم ترفعه إلى القيادة في الحكم، ولم يعطه الشعب السوري ثقته، فأدى هذا إلى الفشل في المجالين معاً. وفي حماة حين فصل الريف عن المدينة في الانتخابات فازت قائمة الإسلاميين على البعثيين، وكذلك في دمشق، إذ لم يكن للبعث أي شعبية فيها.

الإسلام وعهد الوحدة:

أولاً: قد يتبادر إلى الذهن ونحن نتحدث عن السيطرة السنية في عهد الوحدة أنها تمثل سيطرة الإسلام ودعاته كذلك، والفارق كبير جداً بين التصورين، فالحركة الإسلامية ابتداءً كانت محظورة، منذ حلّت نفسها مع الأحزاب الأخرى،

---

(١) الأسد، الصراع علىالشرق الأوسط،لباتريك سيل، ص ١٠١-١٠٢.

وقيادات الإخوان المسلمين وشبابهم يساقون دائماً للتحقيق من المخابرات التي رأسها السراج - دكتاتور سورية الخفي - إذا لوحظ عودتهم للتنظيم المحظور، أما الإخوان المسلمون في مصر فقد دمغهم عهد عبد الناصر بالخيانة، ولا يزال كبار قادتهم في السجون. والحديث عن الإخوان المسلمين أخطر من الحديث عن الشيوعيين، وهما العدوان اللدودان لعبد الناصر، ويليهما البعث وبقية الأحزاب الأخرى. وهذا يعني أن الفهم السياسي للإسلام والوجود السياسي للإسلام مفقود تماماً على الساحة.

ثانياً: وضع عبد الناصر نفسه المشرع للأمة، ووضع نفسه قائد القومية العربية وربانها، والفكر الوحيد المطروح على الساحة وعلى الأمة كلها أن تتكلم به هو القومية العربية. صحيح أن القومية العربية القائمة على الفلسفة المحاربة للدين، والداعية للإلحاد والتي نمت على يد البعث العلماني قد ضمرت، وخاصة بعد انتهاء البعثيين من الحكم. لكن القومية العربية هي البديلة عن الإسلام في الساحة السياسية، وكل التشريعات تنبثق من القومية العربية، مع الإشارة إلى فطرة الرجل المصري الذي لا وجود للإلحاد وحرب الإسلام في نفسه، كما أن مساحته تتسع لكل الشهوات وتتسع للإسلام كما يفهمه كذلك. بعكس الوضع في سورية، فمعظم دعاة الإباحية يفلسفونها على أساس عداء الدين، وفي أدنى الأحوال استخفاف به أو استهزاء بقيمه.

ثالثاً: التدين الفردي وإقامة الصلاة والطهر الشخصي هو من حرية الفرد، مثل الإغراق في الشهوات ومعاقرة الخمرة والعلاقات الجنسية المنحلة هو من حرية الفرد كذلك. فلهذا لا غرو أن نجد في أجهزة الدولة المصلي الصائم بجوار الفاجر المتهتك، لكن إذا حمل المصلي الصائم فكراً سياسياً يدعو إلى تحكيم شريعة الله في الحياة فقد فقد حريته، وأصبح مهدداً بحياته ووجوده، كما أن

الفاجر المتهتك اذا حمل فكراً سياسياً شيوعياً أو بعثياً فقد حريته وأمنه كذلك. ويكفي أن نضع هاتين الصورتين في جوار بعضهما في القيادة السورية.

فشخصية السراج كما تحدث عنها شحادة من قبل والذي كان يقيم في بيت عاهرة، والذي كان رفيقاً للخمرة. تقابلها شخصية اللواء محمد الجراح، قائد الشرطة العام، والشخصية الثانية في الدولة، الذي كان مثالاً للطهر الشخصي، يحافظ على صلواته، ويحافظ على صيامه، وينبذ الخمر ويبتعد عن العلاقات الجنسية المريبة.

وحدث ذات مرة أن أصدر اللواء الجراح أمراً بمنع الخمرة في بعض المقاهي العامة، وخاصة مقهى عين منين، وعندما كان مع الوزير طعمة العودة الله في المقهى، وطلب الوزير الخمر، فاعتذر صاحب المقهى، فسأل عن السبب فأجابه بمنع اللواء الجراح لذلك. فأصدر الوزير أمره بإحضارها والسماح بها في المقاهي العامة من جديد، وتناول الخمرة واللواء بين يديه.

هؤلاء الضباط السنة الذين كانوا ضد الضباط البعثيين الطائفيين، واستمروا في الحكم مع عبد الناصر، هم أنفسهم فيهم الفاجر المتهتك، وفيهم المحافظ. وبلغ من حقد الوزير السوري طعمة العودة الله على الإسلام، وهو من الفريق المعادي للحزبيين، أنه عندما تم حفر البئر الارتوازي في حوران وخرج الماء، قال في خطبته: «لقد أصبحنا الآن في غنىً عن السماء»، فلا حاجة للمطر ولا حاجة لله بعد التقدم العلمي المبهر بحفر هذه الآبار. وشاءت إرادة الله أن تكون السنين العجاف كسني يوسف في سورية عقب هذا التصريح.

رابعاً: في لحظات الصراع مع الشيوعيين حاول الرئيس عبدالناصر أن يفصم عرى العلاقة في سورية بين الإخوان المسلمين والعلماء، فأرسل عبر نائب رئيس رابطة العلماء الشيخ مكي الكتاني رسالة خاصة لعلماء سورية يعدهم فيها أنه

سوف يطبق الإسلام في جميع مناحي الحياة، وأنه يريدهم أن يضعوا له الدستور الإسلامي ويكونوا بجواره. وتحمس العلماء واندفعوا لذلك، وتحدد موعد سفرهم للقاهرة وشكلوا وفدهم لذلك الذي تجاوز عشرات العلماء، وأجل السفر أولاً ثم أجل ثانياً ثم ألغي.[1].

وكان الخوف في مصر من إلصاق تهمة الإخوان المسلمين بالشباب والفتيات يأخذ ظاهرتين:

الأولى: ارتداء الحجاب الإسلامي، فلم تكن امرأة أو فتاة تجرؤ على لبس الحجاب الشرعي وتغطية شعرها لأن هذا يعني الانتماء للأخوات المسلمات، حتى إن الكاتبة الإسلامية الدكتورة بنت الشاطئ جاءت لتلقي محاضراتها بكلية الشريعة بدمشق وهي حاسرة عن شعرها وذراعيها، مما دعا الطلاب إلى الاحتجاج والخروج من القاعة.

الثانية: إعفاء اللحية، اذ كان علماء الأزهر بلا استثناء ليس فيهم عالم ملتحٍ، والشاب الذي يطلق لحيته يعني هذا أنه من الإخوان المسلمين، ويعني تعرضه للحساب والمساءلة.

لقد كان الخوف يملأ قلوب الشباب الإسلامي في عهد الوحدة، غير أن هناك على الساحة السورية ظاهرة ذات دلالة كبيرة، وكانت هذه الظاهرة في مسجد الجامعة في دمشق، حيث كان قادة الحركة الإسلامية يهزون منبر الجامعة بالفكر الاسلامي ومواجهة مظاهر الفساد والإباحية، وعلى رأسهم المراقب العام للإخوان المسلمين الأستاذ عصام العطار، الذي ربى جيلاً على خطبه المستمرة، والتي كانت تهز أعماق الشباب، وترفع وتيرة الثقة في نفوسهم.

---

(١) حدثني بذلك فضيلة الشيخ محمد علي مشعل أمين سر رابطة العلماء بحمص.

وقد ألقى الدكتور مصطفى السباعي القائد المؤسس للإخوان المسلمين على مدرج جامعة دمشق محاضرته الكبرى: اشتراكية الإسلام، والتي أخرجها فيما بعد في كتابه المشهور، والتي تبنتها دولة الوحدة واستغلتها لتبرير قرارات التأميم التي أصدرتها.

عهد الانفصال

«اختطفت سورية من الوحدة في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٦١ حفنة يمينية بقيادة ضابط دمشقي هو المقدم عبدالكريم النحلاوي بدعم من الأردن والسعودية ورجال الأعمال السوريين الساخطين»[١]. وكان السبب المباشر لدى الضباط في الثورة المسلحة هو التسلط المصري على سورية والجيش من الضباط المصريين.

ولا يدرك أبعاد هذا التسلط إلا الضباط أنفسهم. فقد ذكر بيان قيادة الجيش عن أسباب الحركة، والذي أعده عبد الكريم النحلاوي وموفق عصاصة أكبر الضباط المنفذين للانفصال، والدكتور مصطفى البارودي وزير الإعلام، ذكر أن المصريين«أرسلوا لنا ضباطاً تمرسوا في أجهزة المخابرات قبل أي جهاز آخر، وجاؤونا بعقلية ضباط الاستخبارات، لا بالروح القومية التي أقبلنا نحن عليهم بها، ولا بالأخوة العربية التي تمحض الود والثقة مروءة ومودة. وبدأ هؤلاء يتمددون كالأخطبوط إلى شتى الأجهزة، ويدسون أنفسهم في مختلف الشؤون، ويفرضون أنفسهم فرضاً في كل المجالات. وعلى حين كان النظام والانضباط يفترض مراعاة التسلسل والأصول العسكرية في العمل والمقابلات والاتصال، فإن هؤلاء كانوا يتجاوزون هذا كله. وكان حكام مصر، بدلاً من أن يتصلوا بقيادة

---

(١) الأسد لباتريك سيل/ ١١٤.

الجيش وبالرؤساء الأعلين لضباطهم فإنهم كانوا يتصلون مباشرة بضباطهم، رغم أن مراكزهم ومراتبهم كانت أقل من مراتب ومراكز رؤسائهم، وقد سيطروا على جميع المراكز الحساسة بقيادة الجيش الأول وقيادة القطعات، وبات كبار ضباطنا المنتدبين إلى مصر وراء مقاعدهم الخشبية الخالية لا حول لهم ولا قوة...» [1].

«ووقفت القيادة العربية الثورية العليا أمام المسؤولين، ووضعت أمام أنظارهم أخطاء الحكم الفادحة في خطوطها الرئيسية:

-إضعاف الجيش العربي في سورية، وتصفيته الجماعية، ومحاولة إذلاله.

-الحكم البوليسي الخانق الذي يهدد حرية الانسان وكرامته، ويزج بالناس في السجون، ويتحكم في الأرزاق، ويفسد الأخلاق والذمم.

-الاعتماد في الحكم على العناصر الهزيلة التي تحقق للحاكمين التسلط في فرديتهم تسلطاً كاملاً ينحني أمامه ضعاف النفوس.

من ذلك كله يتأكد أن حركة الثورة حركة شعبية تنشد كرامة الجيش والشعب في وقت معاً، فما هي بالرأسمالية ولا الرجعية ولا الاستعمارية ولا الحزبية. انما تمثل الحركة في مبادئها وأهدافها مبادئ الشعب وأهدافه:

١-الذود عن مقدسات القومية العربية التي تفرض على كل مواطن العمل على تحقيق وحدة لا تتجزأ، وحدة تتابع عليها خطوات البلاد العربية جميعاً، لا يتهيب بلد عربي من الإقبال عليها والانضمام في سلكها.

٢-تحقيق اشتراكية صادقة بتطبيق مقوماتها الصحيحة تطبيقاً سليماً، فلا تصدر عن ارتجال ولا تكون مجرد دعاية سياسية.

٣-نشدان ديمقراطية صحيحة، لا تميع حتى تنحدر إلى الفوضوية، ولا

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ١١٤.

تتقلص حتى تتحول إلى الدكتاتورية الفردية. هذا إلى انضباط كامل وحرمة لمقدسات النظام في جيش قوي متمسك بواجبه الأساسي، إلا وهو الذود عن حياض الوطن. وتلك كلها أهداف مثلى ومقاصد قومية عليا، فما استهدفت القيادة الثورية تحقيق مغانم شخصية أو أطماع فردية أو ما شابه ذلك.

وما انطوى اليوم الأول للحركة إلا وقد تحلقت من حولها قوى الجيش في سائر أراضي الجمهورية العربية السورية، وعندئذ قامت القيادة الثورية العليا بتسليم الأمور إلى المختصين، وتم تأليف الحكومة.

تلك هي أسباب ثورتنا وخطوات حركتنا ومبادئنا وأهدافنا، وإننا نعاهد الله على أن نحافظ على هذه المبادئ والأهداف، وأن نبذل أرواحنا في سبيلها، وأن نعمل على تحقيق وحدة عربية حقيقية قائمة على التكافؤ والمساواة، وأن نضع كل امكانياتنا في سبيل الدفاع عن قضايا العرب، ونجدة كل قطر عربي ألمّت به كارثة الاستعمار أو الطغيان، فما جيشنا جيش الجمهورية العربية السورية، إلا جيش العرب، وقد نذر نفسه لتحرير فلسطين، والدفاع عن عروبة الجزائر، والاستجابة إلى كل نداء عربي في كل أرض عربية.

ذلك عهدنا أمام الله. والله من وراء القصد.

دمشق ١٩٦١/١٠/٢ - القيادة الثورية العربية العليا» [1].

«كان هذا البيان بعد خمسة أيام من انقلاب الانفصال في دمشق. وبعد أن تشكلت قيادة الجيش من عشرة ضباط، تسعة منهم سنة، وزهر الدين قائد الجيش ينتمي إلى الطائفة الدرزية، وخمسة من هؤلاء العشرة ضباط دمشقيون، «فقد وصل الضباط السنيون الدمشقيون إلى ذروة قوتهم خلال فترة الانفصال بقيادة

---

(١) مقتطفات من البيان الأول لقيادة الجيش السوري عن أسباب الحركة. نقلاً عن: مذكراتي عن فترة عهد الانفصال، للفريق عبدالكريم زهرالدين، ط اولى ١٩٦٨، ص ٧٦-٨٤.

المقدم عبدالكريم النحلاوي. ولـم يكـن مـن قبيـل الصـدفة أن يتمكـن هـذا الضـابط من تنفيذ انقلاب ناجح يفصل سورية عن مصر في ١٩٦١/٩/٢٨. وقد أسندت اليهم خلال الوحدة - صدفة أو عمداً - المناصب القيادية في الجيش السوري. واحتلوا بذلك مركزاً قوياً ممتازاً. وقد شغل النحلاوي الضابط الدمشقي السني منصباً عسكرياً رئيسياً كنائب لمدير شؤون الضباط الذي كان مصرياً، واستطاع من هذا المنصب نقل الضباط من مؤيديه إلى الوحدات العسكرية المهمة لتنفيذ الانقلاب الذي قام به فيما بعد مع مجموعة من أقرانه الدمشقيين. وهكذا كاد هذا الانقلاب أن يكون طبخة دمشقية خالصة» [١].

ولا بد من إبراز بعض الملاحظات عقب هذا البيان.

١-الهدف الرئيسي للانقلاب هو إزالة التسلط المصري في الجيش والحكم، وليس له أي ارتباط بجهات خارجية، وعندما اكتشف النحلاوي أن المقدم حيدر الكزبري كان له صلات مع النظام الاردني قام باعتقاله في سجن المزة، ووصفه «بالخائن المتآمر مع الملك حسين من أجل القيام بحركة ٢٨ أيلول وفصل عرى الوحدة. كما اتهمه بقبض الأموال الطائلة لهذه الغاية . كما تم اعتقال العقيد فيصل سري الحسيني لأن شقيقيه اعترفا بقبض ثلاثمائة وخمسين ألف ليرة سورية من الأردن من أجل القيام بحركة ٢٨ أيلول، وكان نصيب العميد فيصل من هذا المبلغ ستة آلاف ليرة سورية»[٢]. وكلا الضابطين أحد العشرة القياديين في سورية. «كما تمت اقالة الدكتور مأمون الكزبري رئيس الوزارة المؤقتة لأنه غير بريء من قبض الأموال من الأردن»[٣] .

---

(١) الصراع على السلطة في سورية، لنيكولاس فان دام، ص ٤٧-٤٨.

(٢) عن مذكرات الفريق جمال فيصل/ ١٤٤-١٤٧.

(٣) المصدر نفسه.

٢- كان تفكير النحلاوي وزملائه منبعثاً من الفكر القومي البحت، فليس لهم أهداف تخرج عن ذلك كما رأينا في البيان: وحدة لا تتجزأ واشتراكية صادقة وديقراطية صحيحة. وهذا الفكر هو الذي حكمه في كل خطواته ودفعه إلى القيام بانقلابه الثاني في ٢٨ آذار ١٩٦٢، لأن الوزارة الجديدة والمجلس النيابي الجديد لم يقوما بتطبيق الاشتراكية الصادقة والوحدة التي لا تتجزأ كما نرى فيما بعد.

الجهات التي أيدت الانفصال:

لقد اختلفت المشارب والمصالح لدى الذين أيدوا الانفصال، وقد شاركت كل الأحزاب السياسية في تأييده: البعث والشعب والوطني والمستقلون. أما الحركة الوحيدة التي رفضت التأييد ورفضت التوقيع على وثيقة الانفصال فهي حركة الإخوان المسلمين، التي كان الأستاذ عصام العطار على رأسها آنذاك. وقد اعترف الأستاذ خالد العظم في مذكراته بذلك إذ قال:

«أعلمني صديق لي وكنت إلى جانبه بأن قيادة الجيش فضلاً عن الحكومة يلحان على السياسيين إصدار بيان واضح بتأييد ما جرى، وأن المجتمعين الآن في دار الشراباتي يمثلون الأحزاب اليمينية واليسارية فيما عدا الإخوان المسلمين، وبأن كلمتهم الآن لم تجتمع على نص البيان، وذلك للخلاف الناشب بين الفرقاء على النواحي الاقتصادية والنواحي التي تألفت عليها الحكومة.

وقام السيد نجيب الأرمنازي وأمسك بيد صلاح البيطار، واختلى فيه في إحدى الغرف، وبعد ربع ساعة خرجا ومعهما نص قرآه علينا، فوافقنا كلنا عليه بالإجماع، وهو نص البيان الذي حمل تواقيعهم ونشر في الصحف» [١].

وفيما يأتي نص هذا البيان:

---

(١) مذكرات خالد العظم، ج٣، ص ٢٠٣.

«بيان إلى الشعب العربي في سوريا ومصر وفي جميع الأقطار العربية:

عقد في دمشق اجتماع ضم عدداً من العاملين في الشؤون القومية استعرضوا فيه الوضع العربي العام والوضع السوري الخاص والحالة الدولية بعد قيام الجيش العربي الأبي في سوريا بعمله المجيد، فأجمع الرأي على تأييد القوات المسلحة السورية في ثورتها المباركة وعلى توجيه الشكر إليها، ضباطاً وضباط صف وجنوداً. كما أجمع الرأي على أن حكم الطغيان والتسلط والانحراف الذي أقامه الرئيس جمال عبد الناصر في كل سوريا ومصر هو الذي أفقد الوحدة بينهما معانيها السامية، فأبعدها عن أن تكون نواة للوحدة العربية الشاملة الصحيحة التي آمن بها ويتوق إليها كل عربي، والتي لا تقوم إلا على المساواة والتكافؤ بين كل الدول العربية.

كذلك أجمع الرأي على أن هذا الحكم الذي استهدف تشويه فكرة القومية العربية والوحدة العربية وخنق الحياة السياسية والديموقراطية ووأد الحريات العامة بالرغم عما بذل من نصح وتنبيه وتحذير هو الذي دفع إلى ثورة الجيش العربي في سوريا تلبية لنقمة الشعب واستجابة لإرادته بإقامة حياة ديمقراطية دستورية حرة يمارس فيها سيادته ويتمتع بحرياته العامة في التنظيم السياسي والنقابي والاجتماعي.

ويرى المجتمعون، تحقيقاً لذلك، ضرورة الإسراع بإجراء انتخابات حيادية حرة، وأن يقتصر التشريع خلال الفترة الانتقالية على ما تقتضيه هذه الفترة لتسيير الأمور. وأن الشعب العربي في سوريا الذي دفعت عنه ثورة الجيش القومية التسلط والطغيان، يمد يده إلى الشعب العربي الشقيق في مصر الراسف في الأغلال ليتخلص من الحكم الديكتاتوري الذي أوجد التفرقة بين مصر وسوريا حتى يلتقي الشعب العربي في القطرين وفي كل قطر عربي على صعيد العمل

المجدي وبلوغ الوحدة العربية المنشودة.

ويدعو الشعب العربي في سوريا الأمة العربية في جميع أقطارها إلى أن تتبين موقفه وأن تدرك أهدافه القومية السلمية في أقامة حكم دستوري ديموقراطي صحيح يكفل للشعب سيادته وممارسة حرياته ويحقق الديمقراطية السياسية والاجتماعية والاشتراكية الصحيحة والوحدة العربية الشاملة.

دمشق في ٢-١٠-١٩٦١ .

التواقيع حسب الحروف الأبجدية: أحمد قنبر، أحمد الشراباتي، أسعد هارون، أكرم الحوراني، بشير العظمة، حامد الخوجا، حسن مراد، خالد العظم، رشاد جبري، سهيل خوري، صبري العسلي، صلاح البيطار، فؤاد قدري، محمد العايش، نجيب الأرمنازي، هاني السباعي»[١].

ومن بين رجالات السياسة الذين حضروا هذا الاجتماع: عرفان الجلاد، رياض المالكي، خليل الكلاس، أحمد عبدالكريم، منصور الأطرش، أمين النفوري، نصوح الأيوبي، شفيق سليمان، ظافر القاسمي، حبيب كحالة.

لقد وقّع البعث على وثيقة الوحدة، وهو نفسه وقّع على وثيقة الانفصال وثبت أن هواه ومصلحته فوق مبادئه. أما الإخوان المسلمون فكانوا على مستوى مبادئهم ورفضوا التوقيع على هذه الوثيقة.

ويذكر أكرم الحوراني في مذكراته أنه رفض التوقيع في البداية، وخرج من المجلس، ثم عاد ووقع تحت ضغط الحاضرين، ويقر بأن ذلك كان ضعفاً منه. ويصف سيل توقيعه وتوقيع صلاح البيطار بقوله: «بعد أيام قليلة من الانقلاب الانفصالي وقع ستة عشر من السياسيين السوريين البارزين على بيان يهاجم

---

(١) مذكرات أكرم الحوراني، ج ٤، ص ٢٩٢٥-٢٩٢٦.

عبدالناصر ويشكر الجيش على «حركته الإنقاذية المباركة»، ولم يكن بين الموقعين أكرم الحوراني فحسب - كما كان متوقعاً - ولكن أيضاً صلاح الدين البيطار، وقد ذهل الجميع عندما رأوا هذا الداعية إلى الوحدة والمدافع عنها يتبنى عملية تدميرها الآن. وقد قدّر للتوقيعين أن يتركا آثاراً عميقة على مستقبل حياة الرجلين معاً.

وأصبحت فضيحة موافقة البيطار على الوثيقة الانفصالية تقارن باللطخة السوداء في سجل رفيقه ومؤسس الحزب معه، ميشيل عفلق. ففي سنة ١٩٤٩ عندما استولى الزعيم حسني الزعيم على السلطة بدمشق كتب عفلق رسالة تملق وخضوع كان من المؤكد تقريباً أنها قد انتزعت منه انتزاعاً في ظروف الإكراه والتهديد. فقد قيل إن عفلق قد أرغم على الوقوف في برميل من الغائط، أو برواية أخرى أرغم على مشاهدة تعذيب واحد من أتباعه الشباب. ومهما يكن من أمر فإن منتقدي عفلق يوردون هذه السقطة كدليل على نقص الصلابة الفولاذية في شخصيته. وهكذا تم توجيه النوع نفسه من النقد الآن إلى البيطار»[١].

أما رجال الأعمال السوريون، فقد كان السبب المباشر لتأييدهم الانفصال هو قرارات التأميم. والتي كانوا يطمعون في الغائها في العهد الجديد، ووراءهم حزب الشعب والحزب الوطني، بينما كان تأييد قيادات البعث للانفصال هو موقف شخصي بحت وحقد دفين لغدر عبدالناصر بهم، وإبعادهم عن السلطة.

ويحسن هنا أن نشير إلى موقف العلماء من الانفصال، والذي مثله علي الطنطاوي في كلمته التي وجهها لعبد الناصر، إذ أنها تحمل طابع التأثر الشخصي، وطابع الثورة الإسلامية على مظاهر الانحلال والإباحية التي برزت

---

(١) الأسد،لباتريك سيل، ص ١١٥-١١٦.

في عهد الوحدة، فمما قاله:

«ولقد حاولنا معشر العلماء أن نقابلك، وطلبنا المواعيد مراراً، وسعينا لذلك سعياً، وسلكنا لذلك كل سبيل، فما استطعنا أن نلقاك. مع أننا كنا نراك في الرائي (التلفزيون) تمضي ليلة كاملة من ليالي رمضان، ليالي الطاعة والعبادة ترى الراقصات العاريات، وتسمع المغنيات الفاتنات، فهل اتسع وقتك لهذا وضاق وقتك عن لقاء العلماء. كنا نريد أن نشكوا اليك ما نرى من الآثام والمعاصي منك ومن حكومتك. فلم ترد أن نشكو لك، فذهبنا نشكو فيك، ورحنا نتكلم في المساجد والجوامع، وحيث ما استطعنا، وكنا نعلم أن بيدك السجن والتعذيب، وكنا نخاف منك. ولكن كنا نذكر أن الله عنده جهنم فنخاف من الله.

تمن علينا بالتقدمية الفاسقة، وبهذه القرارات الاشتراكية، إنه ما أغضبنا إلا هذه التقدمية الفاسقة وهذه القرارات الاشتراكية، إننا في بلد مؤمن متمسك محافظ على عفافه، نرفض أن نرى الرقص درساً في المدارس، وأن يأتي الفساق ليعلموا بناتنا الرقص بدلاً من تعليمهن الأخلاق والآداب والدين، وأن تذهب بناتنا ليقضين شهراً في التل في المعسكر مع الرجال الأجانب، وأن تقيم الحكومة دائرة رسمية للرقص، وأن يوضع تمثال الراقصات أمام جامع الروضة ويبقى سنة كاملة.

إننا شعب كنا نقول ما نريد، كنا نكتب ما نشاء، كنت أكتب والله سنة ١٩٣١ في جريدة الأيام إلى المسيو بونسو ما لم أعد أستطيع في أيام وحدتكم أن أكتب مثله لمدير الناحية. لقد صار الواحد منا يخشى أن يتكلم لئلا يكون جاره من رجال المباحث أو رجال المكتب الخاص، ويخشى أن يتكلم في المدرسة لئلا يكون تلميذه من رجال المباحث او رجال المكتب الخاص، ويخشى أن يتكلم

في البيت لئلا يكون أخوه من رجال المباحث او المكتب الخاص..» [1].

تسريح الضباط الحزبيين:

يقول عبد الكريم زهر الدين: «أتانا المقدم عبد الكريم النحلاوي في أحد الأيام حاملاً لائحة تضم أسماء ما يقارب مائة وعشرين ضابطاً طالباً إلينا إصدار الأوامر اللازمة لتسريحهم من الجيش، أو نقلهم إلى الوزارات المدنية، لأنهم ينتمون إلى أحزاب مختلفة، وهو يقول بأن الجيش يجب أن يكون نظيفاً من الحزبية.

طلب مني النحلاوي توقيع أوامر النقل والتسريح المذكورة فوراً، إلا أنني رفضت البت بهذا الموضوع وبهذا الشكل الفردي، بل قررت دراسة هذه القضية على صعيد مجلس الدفاع الكامل، والذي كان يضم ما يقارب الخمسين عضواً، وهم قادة الشعب في الأركان العامة وقادة المناطق العسكرية، وقادة الألوية المحاربة، ومدراء مصالح الجيش، ومدراء مدارس الجيش. وهنا شرحت الموضوع بصورة مفصلة للمجلس، وبعد النقاش طلبت ما يلي:

١-التصويت على قضية تصفية الحزبيين من الجيش أو الإبقاء عليهم، فوافقت الأكثرية الساحقة على التصفية. ٢- التصويت على أسلوب التصفية، فوافقت الأكثرية على النقل إلى الوزارات المدنية. وهنا طلب مني النحلاوي عن طريق الهمس بالأذن الاكتفاء بأخذ هاتين الموافقتين وتوقيع النشرة التي كان أحضرها لهذه الغاية، إلا أنني لم أوافق على طلبه قبل استعراض كافة الأسماء المقترح الاستغناء عنها علناً، وعلى مجلس الدفاع بكامله. وأخذ أكثرية الأصوات بالنسبة لكل فرد يرد اسمه. عارض النحلاوي هذا الأسلوب وقال بأنه سيثير

---

(١) مذكرات الفريق عبدالكريم زهرالدين/ ١٢٣-١٢٤.

مناقشات طويلة قد تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه. إلا أنني أصررت على طلبي، وأخذت اللائحة منه، ثم قلت لأعضاء مجلس الدفاع بأني سأقرأ أسماء العناصر التي اقترحت كل من شعبة المخابرات وإدارة شؤون الضباط إبعادها عن الجيش، وسأقف عند اسم كل فرد لأطلب أصوات المجلس بصدده. وهكذا كان، حيث خرجنا بعد الاجتماع بقرار يقضي بتسريح ضابطين أو ثلاثة بسبب سوء السلوك، ونقل على ما أعتقد ستين أو ثلاثة وستين ضابطاً إلى الوزارات المدنية لانتمائهم لأحزاب سياسية، ثم أوعزت بتنظيم محضر لهذه الجلسة. وقد أمرت كافة الأعضاء المجتمعين بالتوقيع على المحضر المذكور والذي يتضمن القرار المتخذ، مع أسماء العناصر التي تناولها التسريح أو النقل.

كان الجيش في ذلك الوقت لا يضم من الحزبيين إلا العناصر البعثية، وعدداً قليلاً جداً من الشيوعيين، لأن تصفية هذه الفئة الأخيرة كانت قد تمت في مطلع عهد الوحدة، كما كانت قد تمت في الوقت نفسه عملية نقل من الجيش إلى الوزارات المدنية شملت القسم الكبير من الضباط الأقطاب في حزب البعث (جناح أكرم الحوراني).

كانت لائحة عبدالكريم النحلاوي تحتوى على أسماء كل من يمت إلى البعث بصلة، غير أن جلسة مجلس الدفاع قد شطبت عدداً لا بأس به وأبقت عليه في الجيش، على أساس عدم تطرفه لحزبيته، أو عدم وجود المعلومات الموثقة التي تؤكد انتماءه للحزب» [1].

لقد كان عهد الانفصال هو العهد الذهبي للحرية في سورية، وكان استثناء من القاعدة، فالديكتاتورية ابتدأت منذ الانقلابات العسكرية قبل عهد الوحدة حين

---

(١) مذكراتي عن فترة الانفصال لعبدالكريم زهرالدين/ ١٧٤-١٧٥.

سيطر الجيش من وراء ستار على الحكم وحتى الآن، أي ما ينوف عن نصف قرن، والأفواه مكمومة، والصحافة مخنوقة، والأنفاس معدودة. ورأينا كيف أن الديمقراطية دخلت للجيش نفسه، ففي التصويت والأكثرية من كل قيادات الجيش يتم تسريح الضباط، وينقص العدد من مائة وعشرين ضابطاً إلى أقل من النصف نتيجة هذا التصويت.

لقد كان الضباط السنة يمثلون الأكثرية الساحقة لهذه القيادات، وبمنتهى الوفاء والتجرد تعاملوا مع الضباط الحزبيين، ولم يسرحوا أكثر من ثلاثة وستين ضابطاً، ولم يكن تسريحهم على أساس طائفي ففيهم السنيون وفيهم من الطوائف الأخرى.

لقد عامل الضباط السنة الضباط الطائفيين عامة بما فيهم النصيريين بأعلى درجة من التحرر والتسامح والإكرام، وسننظر كيف كان رد هذا الجميل فيما بعد.

انقلاب ٢٨ آذار وعصيان حمص وحلب:

القرارات الاشتراكية كانت هي الفتيل الذي أشعل بارود الانفجار، وأتى بانقلاب ٢٨ آذار، إذ كان رأي الجيش هو تعديل تلك القرارات وليس إلغاؤها، بينما كان رأي الحكومة هو الإلغاء الكامل كما يذكر زهر الدين: «ذهبت إلى مكتبي في الأركان العامة، وكانت جرائد الصباح على طاولتي، طالعت تلك الجرائد وواجهتني الحقيقة الراهنة، إلا وهي مسخ قانون الإصلاح الزراعي من جذوره، ومسخ القوانين الاقتصادية التي درسناها وطمأننا عليها الدكتور الدواليبي عندما هتف إلينا قائلاً بأنها حظيت بموافقته، وتصديق المجلس النيابي عليها بالإجماع. لقد صدمت إثر مطالعتي للصحف التي نشرت القوانين التي أقرها المجلس النيابي، والتي أتت خالية من كل ما يمت إلى الاشتراكية بصلة. صدمت من المراوغات السياسية وتفاقم الشك لدي، ولم أكن الوحيد الذي صدم، بل

تسابق عناصر قيادتي إلى مكتبي لدى مطالعتهم الصحف، كما تلقيت مخابرات هاتفية من قادة المناطق وقادة القطعات المحاربة راجين التدخل للحيلولة دون تطبيق القوانين بالشكل الذي نشرت فيه» [1].

وكان النحلاوي جزءاً من هذا التصور، وأغضبه الموقف، فخطط من جديد لانقلاب جديد يسقط فيه الحكومة والمجلس النيابي، ويعيد الوحدة والاشتراكية للبلد.

يقول زهر الدين: «وفي الساعات الأخيرة من ليلة ١٩٦٢/٣/٢٨ بينما كنت مجتمعاً في غرفة العمليات مع عناصر قيادتي بكاملها، إذ بالمقدم نحلاوي يدخل إلى القاعة المذكورة ويقترب مني ليهمس في أذني قائلا: لقد أوعزنا بالانقلاب، وإن المفارز بقيادة العقيد محمود عودة، والعقيد عبدالكريم العابد والمقدم هندي والرائد فائز الرفاعي قد باشرت تنفيذ المهمة التي حددناها لها، والتي تقضي باعتقال القسم الأكبر من أعضاء المجلس النيابي وأعضاء حكومة الدواليبي، كما جلبنا الدكتور القدسي بالقوة إلى القيادة، وهو الآن في مكتب وزير الدفاع» [2].

وجاء في البلاغ العسكري رقم ٢٨: «لما كان المجلس التأسيسي والنيابي لم يقم بالمهمة الموكولة إليه، وقد عجز عجزاً تاماً عن تحمل المسؤولية وتوجيه الحكم، وكل همه تأمين منافع ومصالح أعضائه الشخصية، ولم يسع سعياً صادقاً لتحقيق أهداف ثورة الثامن والعشرين من أيلول التي هي أهداف الشعب ومصدر السلطات. لذلك فإن القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة تعلن حل المجلس التأسيسي والنيابي اعتبارا من تاريخ صدور هذا البلاغ.

١٩٦٢/٣/٢٨» [3].

---

(١) مذكراتي عن فترة الانفصال، لزهرالدين/ ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ١٩٧ و٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ١٩٧ و٢٠٢.

لقد كان الضباط السنة هم الذين يملكون كل قيادات الجيش في عهد الانفصال، لكن لم يكن واحد منهم ينطلق من الإسلام والشريعة الإسلامية في قضيته. لقد ذبحوا على مبادئ الوحدة والحرية والاشتراكية، وتحرك العميد بدر أعسر قائد المنطقة الوسطى بعصيانه ضد انقلاب النحلاوي، وليس بعيداً أن يكون للحوراني ضلع في العصيان، وذلك لطبيعة المطالب التي انتهى إليها مؤتمر حمص. وأهم هذه المطالب الإطاحة بالنحلاوي وجماعته الذين أقصوا البعثيين من الجيش، والمطالبة بإعادة النظر بوضع الضباط المسرحين لإعادتهم إلى الجيش. والمؤكد أن مشارب شتى شاركت في هذا العصيان، وأن عبد الناصر كان بيده أكثر من خط لضرب الجيش ببعضه حتى ينقض زبانيته ويعيدوا الجمهورية العربية المتحدة، وتشير التقارير إلى أن انقلاب النحلاوي كان بإيعاز من عبد الناصر إن لم يكن بتخطيط منه. كما أن الانقلاب على الانقلاب كان بتخطيط منه كذلك. فقد أصبح الضباط السنة أسياد الساحة مشغولين بصراعاتهم المحمومة حول الوحدة والحرية والاشتراكية.

يقول زهر الدين: «ومن المعلومات التي تمكنا من جمعها بعد مضي فترة طويلة على هذا العصيان المسلح اتضح لنا بأن العناصر التي تعاونت في سبيل تحقيقه كانت مؤلفة من:

١-العناصر الناصرية برئاسة العقيد المتقاعد جاسم علوان الذي قيل بأنه كان قد اتفق مع القاهرة على هذا العصيان الذي استهدف إنهاء عهد الانفصال والعودة إلى الوحدة السابقة بلا قيد ولا شروط. وكان من أبرز أدلة صدق هذه المعلومات مناداة جاسم علوان عن طريق إذاعة حلب لسفير مصر في بيروت وإلى قوات الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة بضرورة دعم حركته في حلب. لقد اغتنم جاسم علوان فرصة قلق الوضع بعد ٢٨ آذار وضرب ضربته، كما كان لديه

معلومات عن مساع عناصر ٢٨ أيلول واتصالاتهم بالرئيس عبدالناصر فأراد أن يكون السباق في إعادة الوحدة.

٢-العناصر البعثية والاشتراكية التي كان عبدالكريم النحلاوي قد أخرجها من الجيش، والتي انضمت اليها نفس العناصر الحزبية التي كان عهد الوحدة قد أبعدها عن الجيش. وكانت هذه الفئة الحزبية قد تخوفت من أن يسبقها النحلاوي ورفاقه من الذين ذهبوا إلى القاهرة وقابلوا الرئيس عبد الناصر إلى إعادة الوحدة بشروط لا ترضيهم. وهم الذين قاسوا ما قاسوه من جراء تسرعهم في إقامة الوحدة السابقة. إنهم يريدون أن تعود الوحدة الجديدة على أيديهم، ولكن بعد أن يشبعوها درساً وتحضيراً، حتى ولو استغرق ذلك وقتاً طويلاً.

ج-العناصر الانتهازية والنفعية الناقمة على عهد الانفصال الذي قضى على مصالحها الخاصة ومكاسبها التي كان عهد الوحدة يغدقها عليها. وباتت تتحين الفرص للانضمام إلى الشيطان في سبيل مقاومة العهد والعودة إلى العهد الذهبي.

«وقد دلت مباحثات الوحدة التي أجريت في القاهرة بعد حركة ٨ آذار ١٩٦٣ على صدق ذلك، إذ اعترف الرئيس عبد الناصر بأنه وضع مبلغاً ضخماً من المال تحت تصرف الأستاذين عفلق والبيطار لمقاومة العهد في سورية، ثم هناك معلومات لست متأكداً من صحتها تفيد بأن القاهرة كانت قد اتفقت مع عناصر النحلاوي، أي فائز الرفاعي ومهيب الهندي وغيرهما على حركة ٢٨ آذار ١٩٦٢ التي أطاحت بالمجلس النيابي، كما اتفقت في الوقت نفسه مع جاسم علوان والعناصر المذكورة في الفقرة ج على مقاومة الذين سيقومون بحركة ٢٨ آذار، أي عناصر النحلاوي، لأنهم في هذه الفترة سيكونون أضعف ما يمكن أن يكونوا عليه، وهكذا كان، وبرزت حركة عصيان حمص مباشرة بعد انقلاب ٢٨ آذار

١٩٦٢» [1].

<u>النحلاوي لا يقرأ التاريخ:</u> عقدت قيادات الجيش وكبار ضباطه مؤتمرها في مدينة حمص للتباحث في الأوضاع الجديدة بعد التمرد والتمرد الآخر، ونصت قرارات هذا المؤتمر على ما يأتي:

١-نقل الضباط التالية أسماؤهم إلى خارج البلاد، وهم: العميد أ. ح. عبدالغني دهمان، العقيد عبدالكريم النحلاوي، العقيد مهيب الهندي، المقدم هشام عبد ربه، الرائد بسام عسلي، النقيب عادل الحاج علي.

٢-إعادة تشكيل هيئة القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة.

٣-دراسة موضوع الوحدة.

٤-تشكيل الحكومة الانتقالية التي ستدير البلاد خلال الفترة الحاضرة التي تمر بها وأسس هذا التشكيل.

٥- إعادة النظر في الضباط المحالين إلى التقاعد بعد ١٩٦١/٩/٢٨ على ضوء نتائج التحقيق في وضع كل منهم من قبل لجنة حيادية.

٦- طلب العفو العام عن العسكريين الذين اشتركوا في حوادث يوم ١٩٦٢/٣/٣١ وحتى موعد انعقاد هذا المؤتمر، والتعويض على العسكريين الذين توفوا أو أصيبوا بأحسن الشروط التي تسمح بها القوانين النافذة المفعول» [2].

لقد كان مؤتمر حمص هدفاً من أهداف زهر الدين للتخلص من سيطرة الضباط الدمشقيين عليه، وكان النحلاوي ورفاقه مسيطرين تماماً على الوضع، والألوية الضاربة والمحيطة بدمشق: قطنا والكسوة والجبهة كلها بيده ويد

---

(١) مذكراتي عن فترة الانفصال لزهرالدين/ ٢٠٩.

(٢) المصدر نفسه/ ٢١٥.

جماعته، لكن الوتر الذي ضرب عليه زهرالدين هو حفظ البلد من إراقة الدماء والإلحاح على النحلاوي ورفاقه بمغادرة البلد.

التاريخ يعيد نفسه. عندما وقف قائد الجيش شوكت شقير قبل ثماني سنوات يلح على الزعيم أديب الشيشكلي أن يغادر البلد حقناً للدماء، وصدق الشيشكلي الأكذوبة وخرج، مع أن التمرد الذي قام ضده لا يملك من مقومات القوة شيئاً، فهو تمرد في حلب وحمص، مثل هذا التمرد. وكان الضباط الشباب أبناء دورات ٥٧ و٥٨ و٥٩ يرون في النحلاوي ورفاقه زعيماً منقذاً، فرجوه وألحوا عليه أن لا يغادر سورية، ومقاليد الأمور كلها بيدهم، وهم على استعداد أن يسكتوا كل تمرد وعصيان، ولكن دون جدوى. فغلبت حنكة زهر الدين ومراوغته سذاجة النحلاوي وطيبه، ووقف زهر الدين نفس الموقف الذي وقفه قبله شوكت شقير، لإضعاف القوة السنية، وإفساح المجال للطائفيين الجدد تحت ستار المصلحة العامة ومصلحة البلاد العليا. وكما أدرك الشيشكلي المؤامرة بعد فوات الأوان، وبعد خروجه من سورية، وبعد إلحاح ضباطه الشباب على بقائه، والقوة كلها بيدهم، وحاول دخول سورية ثانية وفشل الفشل الذريع في ذلك. تتكرر المأساة نفسها، ويدرك النحلاوي المؤامرة عليه وعلى إخوانه من الضباط السنة تحت ستار المصلحة العامة ومصلحة البلاد العليا ويدركها بعد إلحاح الضباط الشباب على بقائه، وإخباره أن مقاليد القوة كلها بيدهم، وحاول دخول سورية ثانية، ودخل، ولكنه طرد طرداً بعد فوات الأوان، وبعد أن غدا مجرداً من عناصره وضباطه ومواقعه.

«ولكن نفوذ النحلاوي وجماعته من الضباط الدمشقيين ما لبث أن انهار خلال فترة الانفصال، وكان أحد أسباب ذلك فشل النحلاوي في استقطاب الدعم الطلق من غير الدمشقيين. وقد حاول فاشلاً في ٢٨ آذار ١٩٦٢ أن يحكم

قبضته المسترخية على الجيش والإدارة الحكومية بواسطة انقلاب عسكري، ولكنه طرد من سورية مع خمسة من أبرز مساعديه الدمشقيين. وأظهرت أحداث ٢٨ آذار ١٩٦٢ بوضوح استقطاب الضباط السوريين على أساس دمشقيين وغير دمشقيين. وقد جرى في الفترة التي أعقبت هذا الانقلاب الفاشل تطهير جذري للضباط الدمشقيين في الوحدات العسكرية الهامة حول دمشق والأماكن الإستراتيجية الأخرى، وحل محلهم ضباط وصفهم فيما بعد اللواء عبدالكريم زهرالدين قائد القوات السلحة السورية بأنهم (ضباط لا يضمرون لدمشق وأهلها إلا الحقد والكراهية، وهؤلاء غالباً ضباط من الريف السوري، لطالما أغاظهم احتقار الضباط الدمشقيين لهم)» [١].

«عندما انتهى انقلاب النحلاوي في ١٩٦٢/٣/٢٨ إلى طريق مسدود، وكاد أن يتحول إلى مواجهة عنيفة، تمت الدعوة إلى اجتماع المجلس العسكري في ١٩٦٢/٤/١ في حمص من أجل تفادي سفك الدماء، وحضره ممثلون عن المناطق العسكرية والقطعات الكبيرة، وقد أظهر المجلس المتكون من واحد وأربعين ضابطاً التطابق بين انتماءات هؤلاء الضباط ومصالحهم. ومن الضروري الإشارة إلى أنه من بين ٤١ ضابطا كان السنيون ممثلين بستة وثلاثين ضابطاً، منهم ثلاثة عشر ضابطاً دمشقياً كونوا أكبر مجموعة، إلى جانب أربعة مسيحيين، ثلاثة منهم من اللاذقية والرابع من حماة، وضابط علوي واحد من لواء إسكندرون. وقد طالب المقدم الدمشقي مطيع السمان الأمين العام لوزارة الدفاع ومندوب قيادة موقع دمشق بطرد ستة من الضباط غير الدمشقيين، بغض النظر عن تورطهم أو عدم تورطهم في احداث ٢٨ اذار ١٩٦٢ مقابل طرد النحلاوي

---

(١) الصراع على السلطة في سورية، لنيكولاس فان دام/ ٤٨.

والضباط الخمسة من مساعديه» [١].

بقي أن نقول إن العلوي ابراهيم العلي مع عسكري آخر[٢] هما اللذان قتلا ضباط حامية حلب صفوح الحللي وممدوح عرنوس وضابطين آخرين هما من ألمع ضباط الجيش السوري، وبشهادة زهرالدين فيهم أنه «ذهب ضحيتها أربع ضباط من بينهم ضابط كان قد قام بتفجير أنابيب البترول في الصحراء السورية عام ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثي على مصر» [٣].

ومع ذلك فإن زهرالدين ورئيس الجمهورية لم يجرؤا على تنفيذ الإعدام، وبقوا يعلفون أعداءهم حتى ابتلعوهم وابتلعوا الأمة وراءهم.

وعندما يصف سيل أحداث هذه الفترة يبرز فيها دور اللجنة العسكرية التي اجتمع فيها مجموعة من الطائفيين منهم حافظ الأسد، ويذكر إسهام أعضائها في أحداث القلعة في حلب التي قتل فيها هؤلاء الأربعة، كما يبرز فيها انتهازية أعضاء اللجنة ومراوغتهم، وهذه الصفات (القتل والانتهازية) بقيت مرافقة لكل أعمال هذه اللجنة فيما بعد، كما سنرى في الفصول القادمة، إنما سنعرض هنا ما قاله سيل عن دورهم في تمردات هذه الفترة وأحداث القلعة فحسب. «ففي غضون أيام ستة مشحونة بالتأزم من ٢٨ آذار/ مارس إلى ٢ نيسان/ ابريل ١٩٦٢ غاصت سورية في حلقة مفرغة من الانقلاب والانقلاب المضاد أوصلت هيئة الضباط التي استحوذت عليها الفئوية إلى حافة التفكك والتمزق. وبدأت الأزمة عندما قام العقيد النحلاوي الرجل الذي حطم الوحدة قبل ذلك بستة أشهر ثم

---

(١) الصراع على السلطة في سورية لنيكولاس فان دام/ ٤٨.

(٢) من المتهمين في هذه القضية حمد عبيد الدرزي وزير الدفاع وقائد الاعتداءات على مدينة حماة عام ١٩٦٤ كما سنرى فيما بعد.

(٣) المذكرات لزهرالدين/ ١٢٥.

أزيح عن المسرح، وقد أخاف هذا الاستباق الأسد ومجموعته وحلفاءهم الناصريين فقاموا بتجميع أصدقائهم ضد النحلاوي، مما اضطر القائد العام وقد غمره اليأس إلى دعوة الضباط المتحاربين إلى مؤتمر في حمص في ١ نيسان/ أبريل. وكانت نتيجة المناقشات أن نفي بعض الضباط، وأعيد الرئيس القدسي إلى منصبه. فازداد سخط البعثيين والناصريين، فعادوا إلى التمرد واقتحموا قلعة حلب في اليوم التالي وقتلوا آمر حاميتها، وانضم اليهم الأسد وجديد وعمران بعد أن استقلوا سيارة أجرة. فكافأهم المتمردون بإعطاء كل واحد منهم بزة عسكرية ورشاش كلاشينكوف، إلا أنه هالهم أن الضباط الناصريين قاموا برفع علم الجمهورية العربية المتحدة، وأعلنوا إعادة الوحدة وطلبوا من مصر أن ترسل مظليين.

وهذا لم يكن مما أخبرت اللجنة المتعاطفين معها بأن يتوقعوه، وفي غمرة من البلبلة انسحبت اللجنة من التمرد الذي سرعان ما انهار، وتخلص الأسد بسرعة من رشاشه ومن بزته العسكرية. هذا وتجدر الإشارة إلى أنه خلال فترة الكر والفر تمكن الأسد مع رفاقه من توجيه شبكتهم في الجيش، دون أن يتوفر لهم هاتف أو سيارة أو أي وسيلة اتصال أخرى إذ أنهم كانوا لا يزالون مدنيين، وليس لديهم أجهزة اتصال أو مدافع او عربات، ناهيك عن الدبابات. ولذلك فإن فشلهم والحالة هذه لم يكن مستغرباً.

وتمكن الأسد من الهرب جنوباً إلى لبنان قبل أن تعيده إلى سورية حيث وجد نفسه في سجن المزة، وقد استجوب وأبقي موقوفاً عدة أيام، ثم أخلي سبيله مع تحذيره. أما المتمردون الأصغر رتبة وشأناً فقد حوكموا، بل وحكم على بعضهم بالموت، إلا أن نظام القدسي كان أضعف من أن ينصب لهم المشانق، وظلوا قابعين في السجن إلى أن أخلت سبيلهم الثورة البعثية التي نجحت بعد

ذلك بسنة»[1].

التيار الإسلامي في فترة الانفصال:

ظهر التيار الاسلامي بعد تشكيل حكومة بشير العظمة التي جاءت لتحقيق الوحدة، ولكنها كانت عاجزة عن تحقيق شيء، لأن عبدالناصر لا يريد غير تسليم البلد له، فبدأت الحرب الإعلامية بين الوزارة نفسها وبين الجمهورية العربية المتحدة، وكان الأستاذ عصام العطار المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية قد أولته دمشق ثقتها، وفاز بأغلب الأصوات فيها بعد خالد العظم، ولم يعد أي تيار يستطيع تجاهله. وكانت الأزمة بين الوزارة والتيار الاسلامي قد بلغت ذروتها عندما أعلن بشير العظمة بعدم السماح للأحزاب على أساس ديني. ومن على منبر جامعة دمشق حدد الاستاذ العطار ساعة الصفر للحكومة وهدد بإسقاطها ما لم تتراجع عن القرار، وتراجعت عنه، ثم سقطت الوزارة بعد ذلك، وجاءت وزارة خالد العظم الثالثة في عهد الانفصال، وشارك فيها الإسلاميون من الإخوان المسلمين ومن العلماء بثلاثة وزراء، كما شارك الحوراني بثلاثة وزراء، وأصبح الذي يتحكم بمصير القرار السياسي في سوريا ثلاثة، هم: خالد العظم وعصام العطار وأكرم الحوراني. لكن هذه المرحلة اعتبرت مرحلة انتقالية وتهيئة لانتخابات جديدة.

وبدأ التنافس على أشده بين التيارات المتصارعة كلها، وقام الأستاذ العطار بزيارة للمحافظات، وكانت شهرته قد سبقته إليها، فقد كان يحضر خطبة الجمعة في مسجد جامعة دمشق قرابة ثلاثين ألف مستمع. وأصبح المنبر موطناً لعرض البيان السياسي للحركة الإسلامية. وعندما وصل العطار إلى الجامع الكبير بحلب

---

(١) الأسد لباتريل سيل/ ١١٨-١١٩.

أفتى الشيخ عبد الفتاح أبو غدة بجواز السجود للمسلم على ظهر أخيه لشدة الازدحام هناك. وبدا أن الساحة الشعبية قد تكون ملكاً للحركة الاسلامية، وستكون الشريعة الاسلامية هي الحاكمة في سورية. فكانت حركة الثامن من آذار والتي اغتالت حرية الشعب أولاً، ثم اغتالت الشعب بعد ذلك.

ولا بد من الإشارة بموضوعية كاملة إلى أن الحركة الإسلامية لم تكن تملك أي قوة في الجيش، وكانت تتصور أن التأييد الشعبي يكفيها قوة على الساحة السياسية. وقد عرض بعض ضباط النحلاوي - وذلك بعد أن فقدوا مواقعهم - على الإخوان المسلمين المشاركة بانقلاب عسكري، ورفض الأستاذ العطار هذا العرض مؤكداً أن الحركة التي تأتي بانقلاب تذهب بانقلاب. كما أكد أن قوة الحركة الإسلامية الشعبية بعد ذهاب النحلاوي وإخوانه أكثر منها في وجودهم.

لقد عايشت الأحداث في تلك الفترة، وأعتقد أن الرفض قد لا يكون حقيقة بسبب ما قاله الأستاذ العطار فقط، بل ربما لضعف ثقته بنجاح خطة الانقلاب، ولخوفه من هيمنة العاطفة على العقل عند منفذيه. ولا ندرى إذا كانت الحركة الإسلامية قد فوتت فرصة تاريخية في إمكانية الوصول للحكم عن طريق هؤلاء الضباط الشباب، لأن العلويين الذين استلموا السلطة فيما بعد لم يكونوا أحسن حظاً من الإسلاميين في الجيش، كما سنرى فيما بعد.

انقلاب فاشل قبل ٨ آذار:

وهو الذي ذكره التقرير المرفوع لقيادة الجيش العربي السوري:

يقول عبد الكريم زهر الدين: «لقد بدأ اطلاعنا على هذه الحركة منذ ثلاثة أشهر تقريباً، وقد تبين لنا من حوادثها أن عبدالناصر كان يهدف للقيام بحركة ثورية في سورية قبل أعياد الثورة في ٧/٢٣، ولم يكن يبالي بالدماء التي كانت ستراق في هذه الثورة، وقد انحصر كل همه في نجاحها بأي ثمن وبأي وسيلة،

وبالتعاون مع أي عنصر من العناصر، ولو كانت مختلفة في أهدافها وليست على تفاهم فيما بينها، مستغلاً شعور الشعب السوري تجاه الوحدة، ولقد كان ينوي الصعود على هذه الفئات، ثم ضرب بعضها بالبعض الآخر، بعد الحصول على النصر الذي حققته له. ولذلك فقد قامت السفارة المصرية بالاتصال بالفئات التالية:

١-المدنيين والعسكريين من أعضاء حركة القوميين العرب.

٢-المدنيين والعسكريين من حزب البعث العربي الاشتراكي.

٣-العسكريين من ضباط ٢٨ أيلول.

٤-المدنيين والعسكريين من بقايا العهد الماضي، وهم الناصريون والنفعيون والذين كانوا يتنعمون على حساب الشعب في العهد الماضي.

١-أما الفئة الأولى فكان على رأسها هاني الهندي الذي كانت صلته بالسفارة وطيدة، وكان يرسل إليها تقارير عما يجري معه بشكل منظم. وكان رأي هذه الفئة أن تعلن الحركة منذ الساعة الأولى لقيامها عودة سورية إلى الجمهورية العربية المتحدة، وأن يعلن ذلك في البلاغات الأولى للحركة. وكان أمل هؤلاء بنجاح الحركة امتداداً لأملهم في حركة ٢٨ آذار التي حاولوا استغلالها. وكان هاني الهندي يسعى بين بعض القائمين بها وبين القاهرة لتحقيق الغاية المرجوة منها.

٢-أما الفئة الثانية فكان أقطابها ثلاثة، مدني هو صياح عامر، وعسكريان هما المقدم محمد عمران والمقدم عثمان كنعان. وقد دفع هؤلاء للاشتراك بهذه الحركة عوامل كثيرة، أولها أنهم يتوقون للعودة للحكم ويأملون إن هم اشتركوا في هذه الحركة ان يصبحوا الساعد الأيمن لعبدالناصر، وكيف لا يؤيدون هذه الحركة وقد وعدت السفارة المصرية بإسناد منصب وزاري لزعيم حركتهم

صلاح الدين البيطار. والعامل الاخر هو انقاذ عدد كبير من ضباطهم من المحاكمة والسجن والتسريح، إذ أن كثيراً من الضباط الموقوفين بتهمة القتل والعصيان في حلب هم من هؤلاء، أمثال حمد عبيد وحسن شهوان وحاج رحمون وغيرهم. وقد كان لهؤلاء اليد الطولى في حركة حمص وحلب والجبهة بعد ٢٨ آذار مباشرة. تلك الحركة التي هدفت لفصل جزء من سورية وطلبت الاستعانة بمصر عسكرياً، وسفكت من الدماء الزكية ما يعتبر خسارة لسورية والأمة العربية قاطبة. والعامل الثالث هو انهم يأملون بعد قيام الحركة بإعادة المسرحين من الضباط البعثيين إلى الجيش. وكان هؤلاء يتظاهرون بأنهم يريدون وحدة مع مصر خالية من العيوب. ولقد كان في نية هؤلاء استغلال الحركة بكاملها لصالحهم الشخصي والحزبي، وكانوا يعتمدون على عدد من ضباطهم المبثوثين هنا وهناك، وكان محمد عمران هو لولب هذه الحركة الذي تتجمع لديه كافة إمكانيات البعثيين في الجيش.

٣-الفئة الثالثة هي ضباط ٢٨ أيلول، وهم في الأصل ضباط حياديون ليس لهم حزبيات معينة، ولكن جمعهتهم ثورة ٢٨ أيلول، ولقد حاولت السفارة المصرية في بيروت استغلالهم، وأكدت لمن بقي منهم في الجيش داخل سورية بأن النحلاوي وزملاءه يريدون العودة إلى الوحدة ويوافقون على القيام بحركة لأجل ذلك.

٤-أما الفئة الرابعة فهي التي تنعق مع كل ناعق، وتسير وراء كل داعية، ولقد اشتركت هذه الفئة بالمؤامرة أملاً في تحقيق مصلحة مادية أو شخصية، ولم تكن أبداً تؤمن بهدف أو غاية سوى الكسب والحصول على مراكز مرموقة.

تلك هي الفئات التي اشتركت في المؤامرة.

...تابعت شعبة المخابرات خيوط المؤامرة حتى كشفتها، واعتقلت القسم

الأكبر من عناصرها، وكان ذلك في أواخر شهر تموز ١٩٦٢، إذ كان من المقرر أن يتم الانقلاب في ٢٣ تموز ١٩٦٢، ثم تأجل إلى أواخر شهر آب...»[1].

انقلاب ثان فاشل:

وكان هذا الانقلاب من النحلاوي وجماعته الذي دخل سورية، وتحركت الدبابات من معسكر قطنا والكسوة باتجاه دمشق، وقامت لجنة من خمسة كلهم دمشقيون بالتفاوض مع العصاة، وأقنعتهم بالاستسلام، وانتهى العصيان في الثانية أو الثالثة من صباح ١٩٦٣/١/١٤ بعد مضي ما يقارب الاثني عشر ساعة على إعلانه، إذ كان صدقي العطار هو أحد أركانه، وهو الذي تخاذل في اللحظة الأخيرة. والجديد الذي اكتشف من خلال هذه الحركة هو أن ثلاثة من عشرة من أعضاء القيادة يحملون الأفكار الشيوعية، وهم اللواء وديع مقعبري والعميد خليل موصلي والعقيد عدنان عقيل. فمطالب العصاة كانت تصر على إخراجهم من القيادة لانتمائهم للحزب الشيوعي، وتطالب بتنفيذ الأحكام بحق المجرمين حمد عبيد الدرزي وإبراهيم العلي العلوي الذين خططوا ونفذوا قتل الضباط الأربعة في حلب.

كان الجيش منقسماً على نفسه، وكان الضباط الكبار السنة الذين بلغوا ستةً وثلاثين ضابطاً من واحد وأربعين موزعين بين الناصرية والانفصالية والوصولية والقومية والشيوعية، ولم يكن بينهم داعية إسلامي واحد. وفي هذا الجو المنحل المتخلي عن الإسلام، والمحاد لله ورسوله استطاع النصيريون أن يتحركوا في انقلابهم الرهيب الذي قلب وضع البلد رأساً على عقب، فمحمد عمران الذي

---

(١) مذكراتي عن فترة الانفصال، لعبدالكريم زهرالدين/ ٣٠٢-٣٠٥.

كشف تورطه في الانقلاب الآنف الذكر في ١٩٦٢/٧/٢٣ عاد فأطلق سراحه مع زملائه، وبدأ بتخطيطه للانقلاب الجديد.

«إن الفئة التي تظاهرت بالدعم أولاً، ثم قامت أو ضربت الحركة عن طريق التهديد كانت تعمل ضمن خطة مدروسة، لأن هذه الفئة كانت تطمع أولاً بالقيام بحركة انقلاب لصالحها، غير أنها كانت تخشى العناصر الدمشقية الموجودة في القطعات المحيطة بدمشق، ولذلك فقد اتبعت هذه الخطة، ألا وهي تحريض الدمشقيين على القيام بحركة، والتظاهر بالمساعدة، ثم قاومتهم وأصرت على ضرورة اعتقالهم أسوة بمن قام بحركة العصيان في حمص وحلب، أو العفو عنهم جميعاً. لقد درست هذه الخطة بصورة ذكية للغاية من قبل الفئة المعادية للدمشقيين التي حسبت حسابها أنها ستكون الرابحة سواءً صدر العفو الذي سيشمل عناصرها المهددة بأحكام قاسية، أو لم يصدر، وبهذه الحالة تسبب باعتقال الفئة القوية من الضباط الدمشقيين وتضمهم إلى رفاقهم القابعين في المزة منذ عصيان حمص وحلب.

وهكذا كان.

ثم إن اعتقال هذه الدفعة من الضباط الدمشقيين اعتبر كخطوة أولى. أما الخطوة الثانية فقد خطط لها العميد خليل موصلي بالاتفاق مع عناصر شعبة المخابرات الذين استفادوا من تآمر أو غباء او طيبة قلب اللواء نامق كامل كمال رئيس أركان الجيش، إذ بعد إنجاز الخطوة الأولى كما قلت (الكلام لعبد الكريم زهر الدين)، أخذ العميد خليل موصلي بصفته مديراً لإدارة شؤون الضباط بتجهيز أوامر النقل لمن بقي من الضباط الدمشقيين الموجودين في القطعات المكلفة بحماية العاصمة، وذلك لنقلهم إلى قطعات تتمركز في مناطق بعيدة عن العاصمة، واستبدالهم بضباط لا يضمرون لدمشق وأهلها إلا الحقد والكراهية.

لقد تم توقيع أوامر النقل المذكورة من قبل اللواء نامق كمال الذي كان قانون الجيش يعطيه حق توقيع كافة أوامر النقل بالنسبة لمن كان برتبة نقيب أو أقل، أي لكافة فئة الضباط الأعوان. وذلك بحكم مركزه كرئيس لأركان الجيش.

قلنا بأن العميد موصلي وشعبة المخابرات خططا للخطوة الثانية، واللواء نامق نفذ هذا التخطيط عندما وقع أوامر النقل دون علمي، وهنا لا يمكن أن أجزم فيما إذا جاء توقيع نامق عن ذكاء وإدراك للحركة، أو عن قلب طيب، أو عن غباء وعدم إدراك للموضوع كما ذكرت» [1].

بقي أن نعلم أن الشيوعيين خليل موصلي مدير إدارة شؤون الضباط، والعميد عدنان عقيل رئيس شعبة المخابرات هما اللذان نفذا إبعاد الضباط المذكورين، لقد نفذا الخطة المذكورة بدقة لان معظم صغار الضباط هؤلاء لديهم عواطف إسلامية فقط، وهم خريجو دورات ٥٧ و٥٨ و٥٩، والذين كانوا مستهدفين من النصيريين فيما بعد، والذين سقط منهم أربعة صرعى على يد المجرمين المذكورين.

وهكذا هيأ الشيوعيون الجو للنصيريين للانقضاض على السلطة.

---

(١) مذكراتي عن فترة الانفصال لزهرالدين/ ٣٧٢.

الفصل الثالث

المحاولات الأولي للدولة الطائفية

- صالح العلي

صالح العلي

لقد حوى تاريخ النصيريين في سورية هذه الأسطورة التي ضخمها أبناؤهم وغير أبنائهم لجعله على قائمة الأبطال في سورية في مقارعة الاستعمار الفرنسي، مخالفاً بذلك الخط العام الذي سار النصيريون عليه طيلة عهد الاستعمار الفرنسي. والذي نفعله هو أننا نلقي الأضواء على هذه الثورة ودوافعها من خلال ابن النصيرية (الطويل) في كتابه «تاريخ العلويين »، وغيره. نعم يمكن القول: إن صالح العلي كان بطلاً مقاتلاً للعدو، لكنه بطل نصيري في تاريخ النصيريين، لا في تاريخ سورية والسوريين. ولندع الحديث للمفكر النصيري محمد غالب الطويل، يحدثنا عن دوافع الثورة وأهدافها وأحداثها، وكيف اصطدم مع الفرنسيين، وكيف استسلم لهم:

المقدمات:

« الفوضى في أنطاكية وتأثيرها على العلويين:

كانت مدينة أنطاكية أشد المدن السورية عداوة للأتراك بعد دمشق، ولم يكد اسم الحكومة العربية الفيصلية يظهر، وكانت الجيوش العثمانية إذ ذاك ما بين حماة وحلب حتى انتفضت أنطاكية على الحكومة التركية، ونادى أهلها بالثورة، ورفعوا العلم الفيصلي العربي على مدينتهم، وقاموا بأعمال لم تكن بالحسبان، إذ نهبوا الأموال الأميرية، وطردوا الموظفين الأتراك، وجاهروا بالعدوان تجاه الحكومة العثمانية» [1].

---

(١) تاريخ العلويين، لمحمد أمين غالب الطويل، ص ٤٤٨.

«ولقد كان استيلاء العساكر الفرنسية على أنطاكية نعمة على أهلها لا تقدر، وانتبه العلويون هناك للأمر، فتلقوا الحكومة الفرنسية بالترحاب وصادقوها، وعقدوا النية على خدمتها، وتركوا مسؤولية المعارضة على عاتق السنيين.

عند أخذ الآراء من قبل اللجنة الأمريكية صوّت العلويون في أنطاكية لفرنسا، ومكنوا رابطتهم بها بقلب سليم.

عند ظهور الحركات الكمالية، وظهور الفوضى في تلك البلدة تشكلت العصابات التركية، وزحفت على النقاط التي كانت توجد بها الجيوش الفرنسية، وشملت في تعديها العلويين والمسيحيين وبعض الأتراك. وقد دام حصار أنطاكية من هذه العصابات سبعين يوماً» [١].

«الفوضى وعشيرة الدراوسة:

يقال: إن أصل الصهيونيين [٢] إسماعيليون، ولكن تمايلهم للحكومة التركية، وتظاهرهم بالتسنن، ووقوع المصاهرات المستمرة بينهم وبين مسلمي اللاذقية، أدى لالتحاقهم بأهل السنة، فالصهيونيون هم أعداء العلويين تاريخياً.

في بادئ الأمر تطوع بعض العلويين والسنيين في الجيش الإفرنسي. وعندما قويت حركات عاصم بك وعمت الفوضى في المحيط الذي يحتله الفرنسيون، ترك المسلمون السنيون ومنهم الصهاونة خدمة الجيش الفرنسي، والتحقوا بقوة عاصم بك، وحاصروا القوة الفرنسية الكائنة في صهيون، والعلويون المتطوعون ثبتوا لدى الفرنسيين. فعند ذلك جمع رؤساء الدراوسة والمهالبة عشيرتيهم، وهاجموا السنيين المحاصرين لصهيون. وما كان القصد إلا تخليص حياة أولادهم المستخدمين في الجيش الافرنسي الكائن تحت الحصار. وكانت قطعة

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٤٩.

(٢) الصهيونيون هنا: سكان قلعة صهيون.

صغيرة من الفرنسيين تحمل مدفعين تمشي مع العلويين. كانت صولة العلويين كأنها صاعقة على صهيون، واضطر السنيون لرفع الحصار، ولم يكن قصد العلويين إلا تخليص أولادهم، فلو كان قصدهم الانتقام من الصهاونة لما كانوا فتحوا طريق الغرب للسنيين والصهيونيين حتى هربوا، بل كانوا قضوا على قوة السنيين وحياة الصهيونيين. وقد تمكن الصهاينة من الفرار دون ضياع نفوس كثيرة. وانحصر الضرر بحريق بلدة (بابنا) الصهيونية» [1].

هذه هي المقدمات. فقد كان موقف النصيريين واضحاً مع فرنسا ضد تركيا، في كل من انطاكية ومنطقة جبل صهيون. فلماذا اختلف الموقف في بانياس وجبلة؟ يجيبنا عن ذلك الطويل .

الأسباب غير المباشرة:

«الفوضى في قضاء بانياس وجبلة:

إن أعظم عبرة في الفوضى هي التي نشبت بسبب عداوة العلويين والإسماعيليين في قضاء بانياس، لنرجع لمبادئ التاريخ: إنه عدا الإخشيدية والأيوبية وبعض من الأتراك فأكثر الملوك المصريين كانوا علويين، يكتمون عقيدتهم كما مألوف! ولو كانت الفروق المذهبية .. أما سجية الإسماعيلية فكانت تجعلهم دائماً مع الأقوياء، وهم يعادون إخوتهم في العقيدة، أي العلويين. حتى إن بعضهم يعادون السنيين عند الضعف، كما فعلوا في أيام الصليب.

بعد الصليبين، صادقت الإسماعيلية الأكراد الأقوياء، واتفقوا منهم في عداء العلويين، ثم خدموا الأتراك العثمانين ضد جيرانهم الضعفاء العلويين . فعليه لم يخل التاريخ من قتال العلويين والإسماعيليين . ولكن أشد قتال جرى هو في

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٥٥-

زمن العثمانيين . وهذا أسفر عن ضعف الإسماعيلية . وجلائهم عن جبل النصيرة، وهجرتهم لبقية البلدان، الهجرة التي أنتجت فيهم الالتحاق بمذهب أهل السنة.

قبل استيلاء العثمانيين، كانت القدموس مع القرى المجاورة لها ومصياف وقراها حتى جهات وادي القيون مسكونة بالعلويين. وإن مجيء الأتراك ساعد الإسماعيلية، فتملكوا كل تلك الجهات. أما اليوم فلم يبق سوى القدموس ومصياف مأهولة بالإسماعيليين.

كانت القدموس قديماً في يد المحارزة، وعندما كان العلويون المحارزة مشغولين في العبادة (في يوم الغدير الذي يجمع جميع الرجال العلويين) فاجأهم الإسماعيليون فقتلوا رؤساء المحارزة – وعددهم ثمانون - مع عدد كبير من العوام، وعليه تملكوا القدموس بصورة قطعية بل استولوا أيضاً على جميع قلاع المحارزة وهم (العليقة والمنيقة والمضيق وسيجر) لأن الحكومة أمدتهم حينئذ على ذلك بعد نكبة القدموس.

إننا نعجب كيف أن الحكومة العثمانية التي أهملت الأتراك في المنطقة اتخذت مظاهرة الإسماعيلين من أهم وظائفها. وعلى ما يظن أن هذا لم يكن من عند الحكومة العثمانية، بل هو نتيجة الروح القوية والتثبت الشخصي الموجود في سجية الإسماعيليين، وفي وقعة القدموس المذكورة أخذ الإسماعيليون سيفاً قديماً وهو عائد الأجداد المحارزة مع بعض الكتب، ومنهم كتاب النسب، واغتنموا بنات المحارزة وتزوجوهم، وأعظم سبب لدوام شدة البغض بين الإسماعيلية والمحارزة هي تلك الواقعة»[1].

---

(١) تاريخ العلويين لمحمد غالب الطويل ٤٥٨ – ٤٦٠.

الأسباب المباشرة:

«ومن المصادفات السيئة كان علوي في القدموس، فبينما كان ماراً في السوق، وإذ أصابته رصاصة فقتلته، ولم يعلم قاتله، فاتهمت الإسماعيلية، وكان شخصان من الإسماعيلية ذاهبين من مصياف إلى القدموس، فقتلوا على الطريق، ولم يعلم قاتلهما، واتهمت عائلة محترمة من مشايخ العلويين بذلك، فسببت هاتان الحادثتان هياجاً عظيماً أعقبته مقاتلات وفوضى مدة مديدة. ثم تصالح العلويون والإسماعيلية، ولكن لم تدم مدة هذا الصلح إلا قليلاً حتى غصب الإسماعيليون بعض المواشي من السنيين في جهة الخوابي، مع أن السنيين حسب أصول العشائر كانوا أصدقاء للعلويين، وبذلك ابتدأت المنافرة بين الإسماعيلية والعلويين ثانياً.

اعتمدت الإسماعيلية على أفرادها المسلحة، وباشرت بقطع الطرق، ثم أعقب قطع الطرق إحراق بعض القرى العلوية.

رأى العلويون أن هذه الإهانات لا تطاق، فعندها اجتمع رؤساؤهم في قرية الشيخ بدر، وتعاهدوا على القرآن العظيم أن لا يتأخروا عن إنفاذ الميثاق الذي جرى بينهم، وحسب الميثاق اتخذت قرية (المقرمدة) مركزاً للحركات» [1].

هذه الثورة التي أعلنها الشيخ صالح العلي بقرار من رؤساء العلويين كانت أصلاً ضد أعدائهم التقليديين، الإسماعيليين. رداً على الإهانات التي لا تطاق. وكان الفرنسيون حلفاء الإسماعيليين، فكان الاشتباك مع الفريقين، وجاء من يتحدث عن هذه الثورة فيقول:

«يذكر أحمد قدري أن الاضطرابات الجدية، بدأت بالظهور قبل منتصف شهر

---

(١) تاريخ العلويين لمحمد غالب الطويل، ص ٤٦٠-٤٦١.

مايو/ أيار ١٩١٩ في جبل العلويين حيث قاوم السكان برئاسة الشيخ صالح العلي السلطة الفرنسية بقوة السلاح الذي كان متوفراً بعد انسحاب الجيش التركي. وكان الشيخ صالح العلي قد لبى نداء الشريف حسين بالثورة على الأتراك، فبادر في قطع الطريق عليهم التي تصل طرطوس بحماة، فتوفرت له الخبرة التي ساعدته على جمع المشايخ وتنظيم ..... المقاتلين، وخوض معارك ناجحة... وقد أجمل «الكتاب الذهبي الفرنسي» ذلك بقوله: على إثر احتلالنا مدينة اللاذقية في أواخر سنة ١٩١٨ أعلن بعض العلويين العصيان علينا يقودهم ويديرهم صالح العلي، فاستطاع هذا وأنصاره أن يحتفظوا بالجبل العلوي حتى نهاية عام ١٩٢١، ولم ينفكوا طوال هذه المدة يهاجمون وينكدون مراقد جنودنا ومعسكراتنا، وأحياناً يقلقون ويعكرون صفو مدن الشاطئ» [١].

الثورة:

«وحسب الميثاق اتخذت قرية المقرمدة مركزاً للحركات، وباشروا بالحرب حتى دخلوا لبانياس، وأحرقوا فيها السرايا الكائنة على البحر.

نهب العلويون جميع ما كان للإسماعيليين من القرى والمزارع، وحاصروا القدموس. وكان جميع الإسماعيليين المجاورين مجتمعين في القدموس، وطلبوا الأمان على شرط أن يخرجوا من القدموس وهم في أمان على أرواحهم وأموالهم التي يحملونها معهم، ويملكوا القدموس لأصحابها التاريخيين، وأن يرجعوا سيف المحارزة، والكتب الدينية التي غصبت من المحارزة قبل ثلاثمائة عام.

نزل قسم من الإسماعيلية لبانياس، والقسم الأعظم هاجر لجهات مصياف

---

(١) تطور الحركة الوطنية في سورية د. ذوقان قرقوط، ص ٥١.

والسليمية، ولكن العلويين خالفوا شرائط الأمان، ورغماً عن السعي والاجتهاد في المنع والإنذار، نهب العلويون الأموال التي كانت تحملها الإسماعيلية، كأن العلويون أحبوا أن يثبتوا أن الجهل عمى...

وتصنفت روايات أسطورية بحق الحروب التي حدثت في تلك الأيام [1].

بعد ختام تلك الفوضى في قضاء بانياس، حصل نظيرها في قضاء جبلة.

وحيث ان الأسلحة كانت وفيرة في يد العلويين، حدث القيام الثاني بسهولة تامة، ونقلت التشكيلات الدفاعية من قضاء بانياس إلى قضاء جبلة، وبوشر في الحرب، وحكومة فرنسا تنتظر انتباه العلويين لأنهم لم يعلموا شيئاً عن الوضعية العمومية، ولم يكونوا عالمين بمقدرة فرنسا وحبها لهم.

في ابتداء الثورة الثانية كانت الأسلحة كثيرة للغاية، لأنه كان ورد منها عدد عظيم من الشام قبلاً، وعدا عن ذلك فقد ازداد تهريب الأسلحة حتى وصلت أعداد الماوزر إلى ثلاثين ألفاً.

اجتمعت الرؤساء في القدموس، وكرروا بينهم الأيمان على القرآن، واتفقوا أن يرسلوا رسلاً لعند الزعيم الكبير التركي مصطفى كمال باشا، ولعند الأمير الشريف عبدالله الحاكم في شرق الأردن.

ذهبت هيئتان لعند مصطفى كمال باشا، مكثت الأولى في عينتاب مدة، والثانية رجعت من أنطاليا بعد أن أخذت المواعيد القطعية في الإنجاد. وكان كتاب مصطفى كمال باشا مشحوناً بالمواعيد.

ولكن لم تتبع المواعيد معاونة مادية، لأن الكماليون كانوا نسبة لليونان ضعفاء في تلك الأيام. وكانت أنقرة أي مركز الأتراك تحت الخطر. فلتخجل

---

(١) وهذه الروايات هي التي تبناها دعاة القومية ليجعلوا من صالح العلي بطلاً أسطورياً.

روح السلطان سليم.

جاء في تلك الأيام خمسة ضباط من قبل مصطفى كمال باشا، ومكثوا في الجبل مدة شهر، ولكنهم لم يحاربوا، بل انحصرت وظيفتهم في المشورة والتنسيق، ولم يتشبثوا لتعليم عسكري واحد، حتى ولم يدخلوا الحرب بتاتاً.

وبعد شهر رحل هؤلاء الضباط الخمسة لمراقبة حروب الجسر وجبل الزاوية.

خابر العلويون مصطفى كمال باشا، وجاء الجواب شاملاً المواعيد الوفيرة، وأنه قريباً يصل العلويين اثنى عشر ألفاً من العساكر المنظمة مع ثمانية عشر مدفعاً، ويحتوي الجواب على لزوم الثبات لحين وصول تلك القوة، لذلك انتظر العلويون ثلاثة أشهر وهم قائمون بواجب الدفاع، والحرب يوماً فيوم تكتسب طوراً جديداً.

طال انتظار العلويين لوصول نجدة الأتراك، لأن الأتراك كانوا في أسوأ حال، وفي هذه الأيام جاء عاصم بك أحد رؤساء العصابات التركية في حوالي أنطاكية لنصرة العلويين، ومعه أربعة مدافع وقوة منظمة غير قليلة، ولكنه اكتفى بإحراق قرية للمسيحيين في جهات صهيون، ورجع بعد أن نهبها، لأن المنهوبات كانت وفيرة، فرجوعه هذا أدهش العلويين.

تتوجت مساعي المسيو فرانكلين بويون الممثل الإفرنسي في أنقرة بالنجاح. وانعقد الائتلاف بين الأتراك وبين فرنسا بخصوص إخلاء كليكيا، وحصلت المتاركة بينهم. فعندها ألقت الطيارات الفرنسية على العلويين أوراقاً خلاصة مآلها:

«انعقد الصلح بين الأتراك وبيننا، والأتراك الذين فديتم أنفسكم في حبهم، وأنتم رابطين آمالكم بنصرتهم، لقد تركوكم ضحية لهم، كما تركتكم ضحية

الحكومة العربية الشريفة. انتبهوا أيها العلويون لصالحكم.

استعمل العلويون آخر خرطوش عندهم. والحقيقة كانت تغلبت عليهم الجيوش الافرنسية من أربعة جوانب حتى حاصرتهم في بعض الوديان التي لا يوجد فيها ماء كافٍ. وكانت بعض العشائر العلوية أو بعض الأفخاذ التحقت بالجيوش الفرنسية. فعند ذلك تشتتت قوات الشيخ صالح العلي.

ومن ثم أرجعت القدموس للإسماعيلية بعد مدة طويلة. والحقيقة كانت القدموس خالية من السكان، لأن العلويين لم يتفقوا على تملكها فلذلك تركوها.

وباشرت الحكومة بجمع الأسلحة الحربية من الجبل، وعلى ما قيل أنها جمعت مقدار أربعين ألف ماوزر، وانحل القيام للمقاومة، وخضعت الجبال للقوة.

اختفى الشيخ صالح العلي مدة غير قليلة، ثم طلب العفو، وأعطي له في شهر حزيران سنة ١٩٢٢. وأصبحت الثورة في الجبل ذكرى في التاريخ»[١].

ومن خلال العرض السابق نلحظ أن هذه الثورة العتيدة لم تكن إلا صراعاً محموماً بين النصيريين والإسماعيليين من جهة، وعمالة لأتاتورك في تركيا، وعندما تم الاتفاق بين تركيا وفرنسا، انهارت المقاومة إلى غير رجعة.

قرار تحديد مقاطعة العلويين:

نص هذا القرار كما أورده دز قرقوط:

«إن الجنرال غورو المندوب السامي للجمهورية الفرنسوية في سورية وكليكيا وقائد جيش الشرق العام. بعد الاطلاع على القرار الرئيسي المؤرخ في ٨ آب سنة ١٩١٩. ولما كانت فرنسا بمجيئها إلى سورية لا تبغي سوى أن تتيح

---

(١) تاريخ العلويين لمحمد غالب الطويل، ص ٤٦١-٤٦٥.

للأهالي في سوريا ولبنان أن يحققوا أمانيهم المشروعة في الحرية والحكم الذاتي، ولما كان العلويون وما بينهم من الأقليات قد صرحوا جلياً ومراراً بآمالهم أن يكون لهم إدارة قائمة بذاتها تحت رعاية فرنسا، لأجل ذلك ينبغي أن تنشأ مقاطعة تجمع أكثرية هؤلاء الأهلين، لتتيح لهم أن يواصلوا السعي في سبيل مصالحهم السياسية والاقتصادية، تحقيقاً للأماني التي صرحوا بها، من أجل تلك الأسباب قد قرر:

المادة الأولى: انشئت تحت اسم مقاطعة العلويين دائرة إدارية تتألف مما يلي:

١-من سنجق اللاذقية الحالي ما عدا قضاء جسر الشغور ومديريات بو جالس وباهر (قضاء اللاذقية أو مديرية الكنيسة وقضاء صهيون).

٢-من سنجق طرابلس ما عدا البقاع التي لحقت بلبنان الكبير، وذكرت في القرار رقم ٣١٨ المؤرخ ٣ آب (أغسطس) سنة ١٩٢٠ الذي يعين حدود تلك الدولة.

٣-قضاء مصياف (عمرانية) الذي ألحق بسنجق اللاذقية بموجب القرار رقم ٣١٧ المؤرخ في ٣١ آب (اغسطس).

المادة الثانية: عينت حدود مقاطعة العلويين كما يلي مع التحفظ بشأن تعديلات الحدود الجزئية التي يجري تحديدها فيما بعد:

شمالاً: حدود مديريات نوجال وباهر وكنيسة الجنوبية.

شرقاً: حدود قضاء جسر الشغور الشرقية والجنوبية، وتتبعها حدود قضاء العمرانية الشمالية والشرقية، وحد قضاء حصن الأكراد الشرقي.

جنوباً: حدود لبنان الكبير الشمالية والشرقية.

غرباً: البحر المتوسط.

المادة الثالثة: يوضع هذا القرار موضع التنفيذ اعتباراً من أول أيلول (سبتمبر)

.١٩٢٠

المادة الرابعة: على الأمن العام ورئيس التفتيش الإداري أن يقوم كل بما يخصه بتنفيذ هذا القرار.

بيروت في ٣١ أب (اغسطس) سنة ١٩٢٠» [١]

ولكن الشيخ صالح العلي تجاوز حدوده، «ففي ٢٩ تشرين الثاني وجه الجنرال غورو حملة ضد الشيخ صالح العلي عند قرية عين القضيب شرقي القدموس، ولكن دون جدوى. إلا أن الجيوش الفرنسية دخلت منطقة الشيخ بدر واحتلتها دون مقاومة، وراحت تعتقل الزعماء والمشايخ والأعيان، وقضت على بعضهم بالإعدام، وعلى بعضهم الآخر بالسجن المؤبد. فاضطر الشيخ صالح العلي إلى التوجه إلى الشمال إلى قرية بشراغي وسنديانا وجيبول والحمام، فتعقبته الجيوش الفرنسية، ودارت بين الفريقين حرب سجال إلى أن انتهت بقيام الفرنسيين بهجوم كبير في ١٠ حزيران ١٩٢١ على بشراغي (حصن الشيخ صالح) وبسمالخ وعقبة الزرزار وجبل النبي صالح..» [٢].

وكان هذاه العصر عصر تقديم الزعماء الأصنام، فقد كانت قوات الحلفاء تتراجع أمام مصطفى كمال لتجعل منه أعظم بطل عصري حديث يقود تركية إلى التبعية للغرب. وهي تتراجع أمام صالح العلي لتجعل منه بطلاً وطنياً في عداد الزعماء الخالدين في سورية، ثم تعطيه بعض المكاسب لتحقيق الانفصال العلوي الكامل، فالمكاسب التي تحققت للعلويين خلال هذه الفترة هي قرار تنظيم إدارة المنطقة في سبتمبر ١٩٢٠ رقم ٦٣٢٧ والذي عدل في ١٦ فبراير/ شباط ١٩٢٢.

---

(١) المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، د. ذوقان قرقوط، ص ١٥٢، وثائق السفارة الفرنسية.

(٢) العلويون والنصيريون، بحث في العقيدة والتاريخ لأبي موسى الحريري، ص ٢٢٥.

«وحاول الفرنسيون القبض على الشيخ، ولكن الشيخ كان قد اختفى، وتشكلت محكمة أصدرت حكمها بالقبض عليه وإعدامه. ولما يئسوا من القبض عليه أصدر الفرنسيون قراراً بالعفو عنه وقّعه الجنرال غورو. فسلم الشيخ نفسه حتى يجنب بني قومه العذاب»[1] .

هذا هو ظاهر الأمر، لكن حقيقته هو أن الثورة انتهت بتحقيق آمال العلويين في تكوين دولتهم المستقلة، وذلك بعد مباحثات سرية في الخفاء تمت بينه وبين بيوت الذي أصبح الحاكم الأول لدولة العلويين.

«ففي ٢١ تموز سنة ١٩٢٢ أخذت الأراضي العلوية اسم دولة العلويين وكان حاكمها الأول الجنرال بيوت . وفي ١٦ أيلول من السنة نفسها تعين للعلويين قضاة ومحاكم مذهبية، وأحدث لهم مرجع باسم قاضي القضاة. وكانوا يحكمون بحسب المذهب الجعفري مع بعض الفروق. وابتدأ عهد جديد نتج عنه رغبة قد تكون غريزية في الطلب من السلطة المنتدبة بواسطة ممثليها لأن تمدد وصايتها ومراقبتها، لكي يكون للعلويين الوقت الكافي والوسائل الكفيلة ليحصلوا على قوة الإدارة والسياسة التي تنقصهم»[2].

وكان الشيخ صالح قد ذهب إلى اللاذقية لمقابلة بيوت الذي أبلغه العفو بشرط أن يقيم في منطقة لا يغادرها إلا بإذن السلطات الفرنسية، وعاد الشيخ إلى الجبل ليعتزل فيه، ولم يترك عزلته إلا بعد أن تحركت القضية الوطنية سنة ١٩٣٦ وما تلاها، وتوفي الشيخ في ١٣ نيسان سنة ١٩٥٠.[3]

---

(١) العلويون النصيريون: بحث في العقيدة والتاريخ، لأبي موسى الحريري، ص ٢٢٥.

(٢) العلويون النصيريون: بحث في العقيدة والتاريخ، لأبي موسى الحريري، ص ٢٢٥.

(٣) المصدر السابق. ص ٢٢٤.

في ظل الاستعمار الفرنسي

لقد بقي الشعب السوري مستعصياً على التجزئة، إلا النصيرين الذين وجدوا فيها أحلامهم. ولم يرض الشعب بالحلول التي طرحتها دولة الانتداب، عندما تكون مزيفة لإرادته. و«علل فارس الخوري عضو المجلس التمثيلي عن طائفة الروم الأرثوذكس بدمشق ذلك في خطبة أمام الجنرال ويغان بأن الناس يطلبون أكثر مما وعدتم به، إذ أن مجالس الحكومة التي نوهتم بها لا تفي بالغاية التي يتوخاها أهل سورية، واسمحوا لي بأن أنبئكم أنه ما من أحد راض عن الحالة التي نحن فيها: إننا نطلب انتخاب مجلس نيابي يكون له ما لبقية المجالس النيابية من حقوق». بينما طالب راشد البرازي ممثل حماة بـ «١- توحيد البلاد السورية على أساس توسيع الاختصاص ٢- انشاء مجلس تأسيسي (جمعية وطنية) يقرر شكل الحكومة ٣- تأليف وزارة مسؤولة أمام مجلس نيابي. وطلب فيضي الأتاسي (ممثل حمص) الشروع في اجراء استفتاء عام في البلاد باشراف لجنة عامة تتألف من ١٥ عضواً، باعتبار خمسة من كل منطقة، لإقامة الحجة على المكابرين من رجال الانتداب الذين يقولون أن أهالي حلب والعلويين غير راغبين في الوحدة.. وبمناسبة زيارة روبيرده كيه لدمشق طالب مستقبلوه بالوحدة السورية الحقيقية...» [٢]. وأصبحت المجالس التمثيلية المنتخبة هي الناطقة باسم حكوماتها الثلاثة، رغم مقاطعة الانتخابات.

لكن المجلس التمثيلي العلوي كان ضد وحدة سورية. بينما اتفقت آراء دمشق وحلب تماماً على ذلك «وخطب الجنرال ويفان ثالث مفوض سام بعد مضي سنة على وجوده في سورية فقال: إن مجلسي دمشق وحلب

التمثيليين اللذين أعطاه انتخابهما صورة عن أماني البلاد قد طلبا الوحدة، ورفضها مجلس العلويين، وإنه وضع برنامجاً وافقت عليه الحكومة الفرنسية، لذلك قرر إقامة الوحدة بين دمشق وحلب. وفي ٥ ديسمبر (كانون اول) ١٩٢٤ صدر قرار رقم ٢٩٨٠ بتنظيم الوحدة بين دولتي دمشق وحلب باسم الدولة السورية، وقرر إلحاق مدينتي الإسكندرونة وأنطاكية بها باسم سنجق الإسكندرون المستقل استقلالاً ذاتياً في الإدارة والمالية على أن تكون له ثلاث لغات: عربية وتركية وفرنسية. وعيّن صبحي بركات رئيس الاتحاد رئيساً للوحدة. وكان مسؤولاً أمام مندوب المفوض السامي بدمشق. وتقوم المجالس التمثيلية المتنخبة عام ١٩٢٣- وقد أصبح مقرها دمشق- بدور السلطة التشريعية، وإنما تتمتع باختصاصات محدودة، وتكون الحكومة مؤلفة من خمسة وزراء؛ للعدلية والداخلية والمالية والتربية العامة والأشغال العامة»[1].

وانعقد المجلس التأسيسي لحلب ودمشق «... في بداية العام الجديد ١٩٢٥ إيذانا بالوحدة السورية، بينما رفض ممثلو النصيريين الجلوس في المجلس، وذلك في كانون الثاني ١٩٢٥. حيث أصدر الجنرال ويغان قراراً باستقلال دولة العلويين».

المرحلة الثانية: دولة النصيريين المستقلة من ١٩٢٥/١/١ الى ١٩٣٦:

اشتعلت الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي خلال عامين ضاريين ١٩٢٥ و١٩٢٦، ولم تبق منطقة لم تشارك بهذه الثورة، إلا دولة

---

(١) مقتطفات من كتاب: تطور الحركة الوطنية في سورية، د. ذوقان قرقوط. ص ٥٦-٥٨.

النصيريين المستقلة. فقد بقيت بعيدة عن الأحداث تماماً، ولم تشارك فيها بقليل ولا كثير، وذلك لأن أهدافها كاملة قد تحققت.

«ففي سنة ١٩٢٧ كانت دولة العلويين تتألف من سنجقين:

١-سنجق اللاذقية ويتضمن مدينة اللاذقية وجبلة وبانياس ومصياف والحفة كأقضية، والأقضية تنقسم الى مديريات.

٢-سنجق طرطوس ويشمل على: طرطوس وصافيتا وتل كلخ كأقضية.

أما العلم العلوي فهو «أبيض مع شمس في الوسط صفراء وأربع زوايا حمراء، وكان عدد سكان الدولة آنذاك ٢٧٨٠٠٠ نفس موزعة كما يلي:

١٧٦٢٨٥ علوي، منهم ١٧٥٥١٤ في القرى و٧٧١ في المدن.

٥٢١٤٨ سني، منهم ٢٢٠٦٧ في القرى و٣٠٠٨١ في المدن.

٤٤٥٧ إسماعيلي، منهم ٢٨٥١ في القرى و١٦٠٦ في المدن.

٤٤٤٤ مسيحي، منهم ٣٤٤٨٩ في القرى و٩٩٥٥ في المدن.

وكانت حدود الدولة العلوية تمتد غرباً بين وادي النهر الكبير شمالاً حيث تبتدئ سهول حمص والسهول التي يرويها نهر العاصي، ثم تلال متلاصقة بعضها ببعض في علو متوسط (٩٠م) تمتد إلى أنطاكيا شمالاً، حيث تنخفض بسرعة ليمر فيها نهر العاصي. فتكون حدود دولة العلويين إذاً من النهر الكبير جنوبا، والعاصي شرقاً وشمالاً، والبحر الأبيض المتوسط غرباً» [(١)].

وعن تاريخ هذه الفترة يقول س. هـ. لونفريغ:

---

(١) العلويون النصيريون لأبو موسى الحريري/ ٢٢٧.

«حظيت بلاد العلويين التي كانت قد نجحت بصعوبة في تجنب التورط في اضطرابات ١٩٢٥-١٩٢٧ بإدارة حكومية في الفترة ١٩٢٧-١٩٣٥ أرقى من أية إدارة سبق أن عرفتها البلاد. وذلك رغم أن هذه السنوات شهدت كساداً اقتصادياً خطيراً.

وقد احتفظ السيد شوفلير بمنصب الحاكم هذه المدة، وكانت كل السلطات الفعلية في أيدي الموظفين الفرنسيين. وأفلح المجلس التمثيلي - كان نصف أعضائه. ثم ثلاثة أرباعهم بعد سنة ١٩٣٠ منتخبين - رغم طغيان الفظاظات الطائفية في القيام بمهامه على نحو معقول. وقد سجل الاهتمام بالانتخابات زيادة ملحوظة في هذه الفترة بوصفها مجالاً آخر للصراع فيما بين الطوائف [١]. وذلك رغم ان الجمهور العادي ظل على لا مبالاته تجاه أعمال المجلس.

وفي سنة ١٩٣٤ أعيد تنظيم شؤون القضاء، ولقيت إعادة العمل بمونوبل التبغ تأييداً عاماً بعد سنوات من الإنتاج الفائض، والمواسم التي لا سبيل إلى تصريفها. وفي مدينة اللاذقية تولى موظفون حكوميون مهام المجلس البلدي بعد أن أثبت عدم كفاءته. وقد عبّرت مجموعة صغيرة من المثقفين النصيريين عن استيائها من قلة استخدام موظفين من العلويين بالمقارنة مع السنة أو المسيحيين. وبمعزل عن شجارات وصراعات زعماء منطقة التلال من النصيريين، والنزاعات بينهم وبين ملاك الأراضي السنة أو جيرانهم

---

(١) توزعت المقاعد في المجلس على النحو التالي: (١٠) للنصيريين (٢) للأرثوذكس و(١) للسنة و(١) للإسماعيلية.

الإسماعيليين،فإن سياسات البلاد ظلت على حالها من حيث توحد الأغلبية العلوية في موقف انفصالي ومؤيد للانتداب، في حين ظل السنة وأغلب المسيحيين [١] وليس كلهم وحدويين وذوي نزوع وطني سوري. ورغم الردات والانقسامات الهامشية فإن هذين الحزبين (العلويين والسنة) ظلا على حالهما. وكانا يتنافسان في الاجتماعات والعرائض والوفود التي تؤم بيروت كلما سنحت الفرص. وقد قدّم الفرنسيون الدعم للحزب الانفصالي علناً وثابروا على تأييد الرب (نصف الشرير ونصف المضحك) البدين والجاهل وصانع المعجزات سليمان المرشد، لكن لم يكن أحد قادراً على أن يتصور بلاداً صغيرة ومتأخرة بالكاد، قادرة على الاكتفاء الى هذا الحد - إلى جانب انتمائها لسورية حقيقة صارخة - يمكن أن تحرز مستقبلاً معقولاً إلا إذا استمر الوجود والدعم الفرنسي لمدة غير محدودة» [٢].

سليمان المرشد: الرب المزيّف:

«عندما كان سليمان المرشد في السادسة عشرة من عمره كان راعياً في قرية يائسة في أعالي الجبال، سقط مريضاً وفقد وعيه، وعندما صحا بعد لأي، زعم بأنه قد هبط من السماء. ووسط ذهول الناس المحليين راح يعظ بقرب انتهاء العالم ومجيء المهدي، وهي رسالة مقبولة لدى العلويين استناداً إلى معتقدات مسبقة. ولذلك كان نجاحه فورياً، وفي غضون بضعة أشهر أصبح الحماس الديني سياسياً، فحمل الفلاحون سلاحهم، ورفضت

---

(١) كانت الطائفة المارونية الصغيرة الحجم والمرسلون اليسوعيون انفصاليين بقوة.

(٢) س. هـ. لونفريغ، تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ٢٦٥-٢٦٦.

قريتان دفع الضرائب، وأصبحت مزارات الأولياء بقبابها البيضاء التي هي من المعالم المميزة لمناظر جبال العلويين أماكن لعقد الاجتماعات السرية، وخاف الفرنسيون الفتنة. فأخذ ضابط مخابرات فرنسي هذا الفتى إلى اللاذقية حيث حوكم وحكم عليه بالسجن بضعة شهور، كان ذلك في سنة ١٩٢٣، وعندما أطلق سراحه في الربيع التالي عاد إلى الجبل حيث استقبل كالفاتحين، وتحلق حوله أتباعه، ثم بدأ المرشد يقوم بـ (معجزات) تركت تأثيراً قوياً على الناس السذج البسطاء الذين لم يكن معظمهم قد تجرأ على الذهاب إلى ما هو أبعد من قريته. فمثلاً كان يدهن رجليه بطلاء من الفوسفور كي تتوهجا في الليل وهو يصعد الجبل، ويخبئ في جدار من الطين جرة عسل أو سمن، ثم يعد القرويين بشيء طيب، ويرفس الجدار ليتدفق منه الطعام وسط ذهول الناس جميعاً، وانتشرت دعوته بسرعة على طول الساحل، ووصلت إلى المزارعين العلويين المشاركين في الحصاد العاملين في سهل حمص - حماة على الجانب الآخر من الجبل. وقدّم له أحد المشايخ البارزين ابنته كزوجة، وفي نيسان ١٩٢٤ في قرية جنوب حمص اسمها عليّان أخذ أتباعه يذبحون كل من يرفض الإيمان به. وأرسل الفرنسيون قوات ضدهم، ولكن أتباع المرشد المتعصبين، اعتقدوا بأن العصي التي تسلحوا بها ستنقلب في لحظة القتال إلى بنادق، وأرسل المرشد إلى المنفى في قرية نائية: الرقة على نهر الفرات. ولكن ذلك أعطى حافزاً آخر لدفع مذهبه إلى الانتشار، بحيث أصبح أتباعه لدى عودته بعد شهور قليلة يعدون بالألوف.

وعندئذ رأى الفرنسيون أن هذا الواعظ الشاب أخذ يتطور إلى سياسي يمكن أن يستخدموه، وأن كونه علوياً محضاً يجعله حليفاً محتملاً ضد الوطنيين السوريين. وهكذا بدأ الفرنسيون بتضخيمه والرفع من شأنه، فتجلت «نهاية العالم»، وأصبحت (المعجزات) أقل وأندر، وبدلاً من ذلك حصل المرشد على حريم من ثلاث عشرة زوجة في تحالفات أدت بهذه المصاهرات إلى توسيع سلطته، فأقام محاكمه الخاصة، وراح يجبي الضرائب عن التبوغ المزروعة في منطقته، وأخذ يتلقى بسرور هدايا من النقود والمواشي والبهائم والأراضي من أتباعه، وأصبح سميناً بديناً، وبنى لنفسه «فيلا» على الطراز الغربي في قريته (جوبة برغال)، وفتح طريقاً تؤدي اليها. وفي سنة ١٩٣٧ ورغم أنه كان لا زال أمياً انتخب لعضوية البرلمان في دمشق، وفي ١٩٣٩ كان لديه خمسون ألفاً من الأتباع، وترسانة من السلاح زوّده بها الفرنسيون» [١].

هذا هو الرب المزيف سليمان المرشد. وبعد أن انتهى دور البطل، صالح العلي، الذي ختم ثورته بتأسيس دولة العلويين، اختفى عن المسرح ليحل محله (الرب المزيف) سليمان المرشد. ليتم عن طريقه بناء هذه الدولة، والتي بلغت قوتها العسكرية في الذروة عام ١٩٣٩ خمسين ألفا من الأتباع. لقد كان سجنه الأول وسجنه الثاني (مسرحية) قام بها الفرنسيون ليلفتوا إليه الأنظار وليجعلوا منه (المناضل العنيد)، ويزداد إقبال الناس على دعوى ربوبيته المأفونة.

---

(١) الأسد لباتريك سيل: ٤٠-٤٢.

بجوار هذه الخطة كان هناك خطة أخرى لتأسيس القوة العسكرية العلوية. «وكانت إحدى أدوات الإغراء الفرنسية الكبرى تجنيد شباب العلويين في قوات المشرق الخاصة، وهي قوة محلية أنشئت في عام ١٩٢١ تحت إمرة ضباط إفرنسيين ليخدم فيها العلويون مع الشركس والأرمن وغيرهم من الأقليات. وكان عدد المجندين يصل إلى سبعة آلاف سنة ١٩٢٤. وإلى ضعف ذلك العدد في منتصف الثلاثينات. وقد انضم العلويون مثلهم في ذلك مثل الشراكسة والدروز إلى القوات الخاصة هذه، لأنه لم يكن هناك أي مجال أو فرصة لعمل آخر على الأغلب، ولأن الفرنسيين قد بحثوا عنهم، واستدعوهم عمداً كي يستعملوهم كفرقة مطافئ لقمع الاضطرابات في أي مكان من البلاد، وشعر هؤلاء العلويون لأول مرة بأنهم يتمتعون بدخل صغير، ولكنه ثابت. كما أنهم أصبحوا منظمين ومدربين، ومعرضين لأفكار جديدة. وأدت الخدمة العسكرية مع الفرنسيين إلى تأسيس بدايات تقليد عسكري علوي أصبح مركزياً في صعود الطائفة اللاحق فيما بعد. ومن نافل القول أن الفرنسيين بذلوا كل جهد لإبقاء هذه القوات بمعزل عن التخمرات الوطنية المتفاعلة مع المدن السورية.

وعندما أشعلت الثورة الدرزية الجنوب كله بين عامي ١٩٠٥ و ١٩٢٧، وتجاوزته حتى وصلت إلى بساتين الغوطة المحيطة بدمشق، حيث دارت أعنف المعارك الدامية، فإن العلويين لم يحركوا ساكناً. وأصبحوا أكثر نزوعاً إلى العزلة والانفصال عندما كانت فرنسا تواجه مداً متصاعداً من المعارضة

على يد الكتلة الوطنية التي قادها وجهاء المدن عند تشكيلها سنة ١٩٣٠»[١].

من ١٩٣٦ للاستقلال

عام ١٩٣٦ عام حاسم:

لا بد أن نقف ملياً عند هذا العام، فقد ظهرت مواقف للنصيريين فيه متناقضة تمام التناقض، كما تبدو للناظر لأول وهلة. لكن التعمق فيها يزيل هذا التناقض ويكشف أبعاده.

مع بداية هذا العام كانت الحركة الوطنية قد بلغت الذروة في تحقيق أمانيها، حيث أذيع البيان التالي بين الكتلة الوطنية والمفوض السامي هذا نصه:

« إن المفوض السامي وهو يثني على وطنية الشعب السوري الكريم قد نزل على الرغبة التي أبديت له، وصرح بأنه يوافق على إرسال وفد إلى فرنسا يتقدم بنظرياته إلى الحكومة الفرنسية لأجل تحضير عقد معاهدة تكون فيها الحقوق التي يتمتع فيها السوريون لا تقل عن الحقوق التي اعترف فيها للعراقيين في المعاهدة الأخيرة، مع التأكيد بأن فرنسا لا شأن لها بقضية الوحدة السورية، وضم جبل العلويين وجبل الدروز إلى الدولة السورية المشكلة من حلب ودمشق» [٢].

وترجم هذا الكلام إلى واقع عملي، حيث تحرك الوفد للمفاوضات وسافر الوفد في ٢١ مارس/ اذار ١٩٣٦ إلى باريس.

نجد الشيخ صالح العلي يبعث الآن من جديد بعد غياب لا يقل عن أربعة عشر عاماً. فقد آن الأوان له الآن ليمثل اتجاه المعارضة، وأنه مع وحدة النصيريين مع الدولة السورية.

---

(١) الأسد، لباتريك سيل ص ٤٢-٤٣.

(٢) تطور الحركة الوطنية، د. ذوقان قرقوط/ ١٥٣.

لقد أسس الدولة العلوية المستقلة، وصار في أذهان السوريين (بطلاً وطنياً)، واليوم وقد ظهرت احتمالات فرض الوحدة فجاء صالح العلي بماضيه ذلك ليبدو بطلاً جديداً من أبطال الوحدة.

«لقد قرر الفرنسيون إجراء إحصاء للسكان في تلك الأوساط (النصيرية)، وألزموا كل فريق أن يسجل نسبة الطائفية.. وكان معلوماً لدى المناضلين في سبيل الاستقلال والوحدة أن غرض الأجنبي من ذلك إعطاء الانفصاليين من قبائل الجبل فرصاً جديدة لترسيخ القطيعة بين الداخل والساحل، ومن ثم للقضاء على وحدة سورية نهائياً. ولم تفت المؤامرة فطنة الشيخ صالح يومئذ، فأوعز إلى عشيرته بالوقوف في وجهها، وذلك بالإصرار على الانتساب إلى الإسلام وحده. وهذا كان كافياً لإلغاء عملية الإحصاء. وبكل اعتزاز أعلن هؤلاء الأعيان أنهم لن يقبلوا غير الإسلام نسباً، تأييداً لموقف الشيخ» [1].

الموقف الأصيل ضد الوحدة:

عندما لاح للنصيريين أن الوفد عازم على تحقيق الوحدة السورية، وأن فرنسا قد تقف على الحياد بالنسبة لهذا الموضوع، جنّ جنون النصيريين. واجتمعت الطائفة النصيرية، وقررت أن تبعث رسالة صارخة تستغيث بالفرنسيين، راجية منهم أن لا يغادروا سورية ويتركوها طعمة للمسلمين، وندع الرسالة تنطق بنفسها دون تعليق.

«هذه الوثيقة رفعها زعماء النصيرية لرئيس الحكومة الفرنسية (ليون بلوم) محفوظة تحت رقم ٣٥٤٧ بتاريخ ١٩٣٦/٦/١٥ في سجلات وزارة الخارجية الفرنسية. وفي سجلات الحزب الاشتراكي الفرنسي صورة عنها، وننقلها حرفياً.

---

(١) الإسلام في مواجهة الباطنية لأبي الهيثم/ ٨، ط. دار الصحوة للنشر.

وإليك نصها:

دولة ليون بلوم رئيس الحكومة الفرنسية

بمناسبة المفاوضات الجارية بين فرنسا وسورية، نتشرف نحن زعماء ووجهاء الطائفة العلوية في سورية أن نلفت نظركم ونظر حزبكم إلى النقاط التالية:

١- إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس، هو شعب يختلف بمعتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم السني، ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة مدن الداخل.

٢-إن الشعب العلوي يرفض أن يلحق بسورية المسلمة، لأن الدين الإسلامي يعتبر دين الدولة الرسمي، والشعب العلوي بالنسبة إلى الدين الإسلامي يعتبر كافراً. لذا نلفت نظركم إلى ما ينتظر العلويين من مصير مخيف وفظيع في حالة إرغامهم على الالتحاق بسورية عندما تتخلص من مراقبة الانتداب، ويصبح بإمكانها أن تطبق القوانين والأنظمة المستمدة من دينها.

٣-إن منح سورية استقلالها وإلغاء الانتداب يؤلفان مثلاً طيباً للمبادئ الاشتراكية في سورية. إلا أن الاستقلال المطلق يعني سيطرة بعض العائلات المسلمة على الشعب العلوي في كليكيا وإسكندرون وجبال النصيرية.

أما وجود برلمان وحكومة دستورية، فلا يظهر الحرية الفردية. إن هذا الحكم البرلماني عبارة عن مظاهر كاذبة ليس لها أية قيمة. بل يخفي في الحقيقة نظاماً يسوده التعصب الديني على الأقليات، فهل يريد القادة الفرنسيون أن يسلّطوا المسلمين على الشعب العلوي ليلقوه في أحضان البؤس؟

٤-إن روح الحقد والتعصب التي غرزت جذورها في صدر المسلمين العرب نحو كل ما هو غير مسلم هي روح يغذيها الدين الاسلامي على الدوام. فليس

هناك أمل في أن تتبدل الوضعية. لذلك فإن الأقليات في سورية تصبح في حالة الغاء الانتداب معرضة لخطر الموت والفناء. بغض النظر عن كون هذا الإلغاء يقضي على حرية الفكر والمعتقد.

وها إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق المسلمين يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على توقيع وثيقة يتعهدون بها بعدم إرسال المواد الغذائية إلى إخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين، وحالة اليهود في فلسطين هي أقوى الأدلة الواضحة الملموسة على عنف القضية الدينية التي عند العرب المسلمين لكل من لا ينتمي إلى الإسلام. فإن أولئك اليهود الطيبين الذين جاءوا إلى العرب بالحضارة والسلام، ونثروا فوق أرض فلسطين الذهب والرفاه، ولم يوقعوا الأذى بأحد، ولم يأخذوا شيئاً بالقوة. ومع ذلك أعلن العرب ضدهم الحرب المقدسة، ولم يترددوا في أن يذبحوا أطفالهم ونساءهم بالرغم من وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسة في سورية. لذلك فإن مصيراً أسود ينتظر اليهود والأقليات الأخرى في حالة إلغاء الانتداب، وتوحيد سورية المسلمة مع فلسطين المسلمة هذا التوحيد هو الهدف الأعلى للعربي المسلم.

٥-إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري، وعلى الرغبة في تحقيق الاستقلال، ولكن سورية لا تزال في الوقت الحاضر بعيدة عن الهدف الشريف الذي تسعون اليه لأنها لا تزال خاضعة لروح الاقطاعية الدينية، ولا نظن أن الحكومة الفرنسية، والحزب الاشتراكي الفرنسي يقبلون أن يمنح السوريون استقلالاً يكون معناه عند تطبيقه: استعباد الشعب العلوي، وتعريض الأقليات لخطر الموت والفناء.

أما طلب السوريين بضم الشعب العلوي إلى سورية فمن المستحيل أن تقبلوا به، أو توافقوا عليه، لأن مبادئكم النبيلة إذا كانت تؤيد فكرة الحرية، فلا يمكنها

أن تقبل أن يسعى شعب إلى خنق حرية شعب آخر لإرغامه على الانضمام إليه.

٦-قد ترون أن من الممكن تأمين حقوق العلويين والأقليات بنصوص المعاهدة، أما نحن فنؤكد لكم أن ليس للمعاهدات أي قيمة إزاء العقلية الإسلامية في سورية. وهكذا استطعنا أن نلمس قبلاً في المعاهدة التي عقدتها إنكلترة مع العراق التي تمنع العراقيين من ذبح الآشوريين واليزيديين.

فالشعب العلوي الذي نمثله نحن المجتمعين والموقعين على هذه المذكرة يستصرخ الحكومة الفرنسية والحزب الاشتراكي الفرنسي ويسألهما ضماناً لحريته واستقلاله ضمن نطاق محيطه الصغير، ويضع بين أيدي الزعماء الفرنسيين الاشتراكيين، وهو واثق من أنه واجد لديهم سنداً قوياً أميناً لشعب مخلص صديق، قدّم لفرنسا خدمات عظيمة، مهدد بالموت والفناء.

الموقعون:

عزيز آغا الهواش	محمد بك جنيد	سليمان المرشد
محمود آغا جديد	سليمان أسد	محمد سليمان الأحمد» [1]

لقد كان هذا العرض في منتصف شهر حزيران/ يونيو، والوفد في فرنسا، وذلك في محاولة مستميتة لإبقاء الانتداب، والمحافظة على استقلال دولة العلويين. ويكفي أن ننظر إلى أسماء الموقعين لنرى فيهم (الرب المزيف) سليمان المرشد، وأبا الفريق حافظ الأسد الرئيس السوري بعد خمس وثلاثين عاماً من هذا البيان، ولا ندرى إن كان محمود آغا جديد هو والد اللواء صلاح جديد الذي حكم سورية خلال ست سنوات من موقعه في قيادة الأركان العامة.

---

(١) العلويون النصيريون لأبو موسى الحريري/ ٢٣٠-٢٣٣.

انقلاب مفاجئ

ولاح في الأفق أن المباحثات التي تعثرت - فأرسل هذا البيان أثناء هذا التعثر - أنها قد نجحت، فلا بد من موقف جديد يتناسب وأوضاع المعاهدة الجديدة. ولا بد من سلخ الجلد السابق الذي يقول:

«إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضيحات الكبيرة في النفوس هو شعب يختلف بمعتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم السني..» وأحضر جلد جديد هذا نصه:

«نحن الموقعين أدناه الشيوخ الروحيون للمسلمين العلويين، دحضاً لما يشاع عن أن المسلمين العلويين غير مسلمين، وبعد التداول بالرأي والرجوع إلى النصوص الشرعية قررنا البندين الآتيين:

١-كل علوي مسلم يعتقد بالشهادتين ويقيم أركان الإسلام الخمسة.

٢-كل علوي لا يعترف بإسلاميته، وينكر أن القرآن الشريف كتابه، وأن محمداً نبيه، فلا يعد بنظر الشرع علوياً، ولا يصح انتسابه للمسلمين العلويين.

ويلي هذا البلاغ أسماء الشيوخ الموقعين. وكان ذلك في شهر تموز ١٩٣٦ [١]. أي بعد أقل من شهر من البيان السابق.

وهذا هو نص بيان آخر أو مقتطفات منه:

« مذكرة من العلويين إلى وزارة الخارجية الفرنسية في ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٣٦ ».

صاحب المعالي: تعلمون ولا ريب يا صاحب المعالي مطالب الأمة السورية بتحقيق وحدتها واستقلالها وعقد معاهدة بين فرنسا وبينها شبيهة بالمعاهدة

---

(١) جريدة القبس ٢٧ تموز ١٩٣٦. و(المسلمون العلويون: من هم وأين هم) لمنير الشريف، ص ١٠٨.

العراقية الإنجليزية. هذه المعاهدة التي تسود العلاقات السياسية بين هاتين الدولتين. وإن أكثرية العلويين التي نمثلها لسعيدة بمعرفتها نقل وجهتي النظر الفرنسوية والسورية في المفاوضات الجارية آنياً في باريس لعقد المعاهدة الفرنسية السورية. وإنها تأمل أن تؤول هذه المفاوضات إلى النجاح. ومن جهة اخرى فإنها تجدد ثقتها بالوفد السوري، وتعرب عن عرفان جميلها نحو الاستعدادات الطيبة التي أظهرتها الأكثرية البرلمانية الفرنسية نحو مطالب سوريا الحقة المشروعة، ونعتبر هذه الاستعدادات الطيبة برهاناً على دوام تقاليد فرنسا بتحرير الشعوب.

... إن العلويين شيعة مسلمون، وقد برهنوا طوال تاريخهم عن امتناعهم عن قبول كل دعوة من شأنها تحرير عقيدتهم، فهم يحتفظون بشدة بالعقيدة الشيعية الإسلامية.

وكأن الصدف يا معالي الوزير ساقت بتبشير الآباء اليسوعيين إلى جبالنا، وأخذ التبشير يتسرب إليها منذ عام ١٩٣٠. ومن المفيد إحاطة معاليكم أن الكثير من الموظفين الإداريين الفرنسيين يرون بعين الارتياح أعمال الآباء اليسوعيين، وبعدة مناسبات منذ عام ١٩٣٠ استلفتنا نظر السلطات العليا في باريس وبيروت إلى هذه الحوادث التبشيرية التي تكون معذورة لو أن الدافع لها اليقين والإيمان، إلا أن الشيء المشين في هذه الحوادث، وهنا موضع استيائنا، وعليه احتجاجنا، هو استثمار واستغلال فاقة شعب فقير، وشراء ضمائر ضعيفة كما تشترى السلع لتمرق من دين إلى دين آخر...

وبعد أن جربنا الانفصال عن سورية ستة عشر عاماً لا يمكننا إلا أن نلمس الأمور التالية:

أولاً: لم يكن العلويون قط منفسخين كما هم اليوم. وهذا الفسخ نتيجة

الإدارة الانفصالية.

ثانياً: إن بلاد العلويين تحمل أبهظ ضرائب في سورية، وذلك لتغذية (الأوتونومي: الاستقلال الاداري) الذي لا يؤمن حاجة من حاجاته، والذي أوجد سوء حالتنا المادية والمعنوية.

ثالثاً: إن هذا الانفصال يحول دون تحقيق وحدتنا القومية، هذه الوحدة التي هي حجر الزاوية في تحريرنا واستقلالنا ...

إن فرنسا التي أحببناها، والتي نحبها، فرنسا محررة الشعوب، فرنسا خادمة الإنسانية، والمثل الأعلى، فرنسا عام ١٧٨٩، لا يمكن أن تقبل أن يقدم بعض موظفين فرنسيين همهم استبقاء مناصبهم الجميلة عن طريق استبقاء الانفصال وتقوية الحجة القائمة على دفع بعض النواب العلويين الخنوعين لإنكار دينهم الإسلامي، وعرفهم العربي، وذلك ليخلعوا على الحجة الانفصالية ظواهر الحجة المعقولة.

إننا نقول لك يا معالي الوزير، والألم يحز نفوسنا: إن بعض النواب العلويين، كي يبرروا الانفصال، حارس منافعهم الشخصية، قدموا لمعاليكم، ولمعالي رئيس الوزارة مذكرة ينكرون فيها أية رابطة تربطهم بالإسلام والعروبة، ويزعمون أن فقدان رابطة عامة دينية وعرقية بينهم وبين السوريين يعرضهم لاضطهاد المسلمين العرب ضمن الوحدة السورية.

إن هذه المزاعم يا صاحب المعالي تناقض ذاتها، وتكذب نفسها بنفسها، فلكي يكون العلوي علولاً، يجب عليه أن يكون مسلماً، فالدين الإسلامي شرط التزامي للانتساب للعلويين، والتشيع لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

ذلك أن العلويين ليموا سوى أنصار الإمام، وما الإمام علي سوى ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره ووحيه، وأول من آمن بالإسلام، ومن مكانه في الجهاد

والفقه والدين الإسلامي مكانه ليس الكاثوليكي أو الأورثوذكسي أو البروتستانتي مسيحيين، وليس العلوي أو السني سوى مسلمين، ففي المثل الأول لاتبطل الكثلكة أو الأرثوذكسية أو البروتستانتية مسيحية المسيحي، وفي المثل الثاني القول برأي الشيعة أو برأي السنة إسلام المسلم. إن القرآن الشريف هو كتاب العلويين سواء كانوا طلاب وحدة أم طلاب انفصال، ومن كان القرآن الكريم كتابه فهو مسلم، أحب أم كره، إلا أن يرتد عن الإسلام، وإن إخواننا الانفصاليين يصفون أنفسهم بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يكونوا مسلمين علويين، وإما أن ينكروا القرآن الشريف، وعندها لا يمكن لهم أن يكونوا مسلمين علويين، ولا أن ينتسبوا لأي فرقة من فرق الإسلام.

وإنه لمن المحزن يا صاحب المعالي -وهذه هي ويا للأسف حالتنا – أن يصادف المرء بين قومه أناساً يتخذون أقدس العقائد بضاعة للاتجار بها في سوق التجارة السياسية.

يعلم الانفصاليون العلم الكافي بالروابط المتينة التي تربطهم بالعرق العربي، وبالدين الإسلامي، إنهم ينكرونها خشية أن يقضي عدل فرنسا، حتى ساعد هذا العدل سوريا على تحقيق وحدتها، وأقيم في بلاد العلويين نظام منصف مؤسس على احترام حق كل فرد بزوال المنافع التي أغدقوها عليهكم ليديموا التغني بمحاسن «الأوتونومي» المزعومة.

ومما يلفت الانتباه، أن الانفصاليين يعتبرون أنفسهم مسلمين أو غرباء عن الإسلام تبعاً لمصلحة سياسية ومقتضياتها، فعندما يجلب لهم الاعتراف بالإسلامية وظائف لا يمكن أن تسند إلا لمسلمين ولشيوخ، لأن مهمة القائمين على هذه الوظائف تطبيق الشريعة الإسلامية، كوظيفة القاضي والمفتي، فإنهم لاينكرون إسلاميتهم. وقد انتقت الإدارة لتدعم النظام الانفصالي أغلبية القضاة

والمثقفين من الفئة الانفصالية، فلماذا إذن يعترف بصراحة زعماء هذه الفئة، هؤلاء الزعماء الذين خلفتهم السياسة لتجعلهم جنوداً لها، أنهم مسلمون، وذلك بحملهم علماءهم على إشغال وظائف إسلامية، غاية جهودها تطبيق الشريعة الإسلامية؟! إذا كان الانفصاليون ينكرون الإسلام عن عقيدة لا عن خنوع وتهوس سياسي فلماذا لا يهدمون الجوامع القائمة في القرى الانفصالية ؟ ولماذا يتظاهرون تجاه أنصارهم بالتعبد وشدة الإيمان بالإسلام؟ ولماذا يخشون أن يقولوا لهؤلاء الأنصار إنهم انفصلوا عن الإسلام؟

إننا دون أن نرغب بالدخول في بحث علمي عن أنساب العلويين، فإنه لا يسعنا البتة إلا أن ندحض دحضاً مطلقاً الرأي الانفصالي القائل إن العلويين منحدرون من أقوام غير عربية، وإن في السكوت على هذا الادعاء الانفصالي الوهمي ثلمة لكبريائنا ولكرامتنا.

من الثابت أن العلويين نزحوا إلى جبالهم من العراق الذي هو مهد التشيع، كما هو بذات الوقت ولذات الأسباب التاريخية موطن من مواطن العروبة. كل شيء يقيم الدليل على أن العلويين عرب أقحاح، وهذه تقاليدنا وعاداتنا وأخلاقنا، وشكل هيئتنا الاجتماعية ولغتنا وأميالنا وثقافتنا، والرويات الشفوية المتداولة في كل عشيرة من منشأ إلى منشأ تؤيد انتسابنا للعرب كما يؤيده التاريخ. وما العلويون سوى أحفاد القبائل العربية التي ناصرت الإمام علي بن أبي طالب فوق صعيد الفرات.

لا بد من التساؤل يا معالي الوزير، لم يخشى الانفصاليون أن تكون الوحدة السورية سبباً لاضطهادهم من قبل الأكثرية الإسلامية العربية، بينما يرون إخواننا النصارى في دمشق وحماة وحلب متمتعين بذات الحقوق التي يتمتع بها المسلمون. وبينما يعيشون مع هؤلاء المسلمين بسلام، وبينما يعيش علويون

آخرون في حمص وحماة وأنطاكية مع السنيين على قدم المساواة، وفي جو مفعم بالوئام والمحبة.. إننا طلبنا يا صاحب المعالي إلحاق بلاد العلويين بسوريا، على أساس الوحدة اللامركزية الإدارية. وإننا نجدد هذه المطالب، ونعتبر كل نظام ووضع غير الوحدة السورية اللامركزية الإدارية متنافياً مع وجودنا كعلويين وكسوريين.

إن الوحدة القومية هي لنا كما هي لكل شعب مبدأ حفظ حياته. وإنه لا يمكننا أن نجد خارج الوحدة اللامركزية الإدارية أي ضمان لصون حقوقنا السياسية، ولصون حياتنا الاقتصادية والدينية والاجتماعية. إن الوحدة السورية هي مبدأ حياتنا. إننا واثقون أن فرنسا ستساعدنا على أمانينا القومية المشروعة.

إن مئتي ألف علوي ينظرون اليوم الذي يعلمون به أن الوحدة والاستقلال والمعاهدة الفرنسية السورية أصبحت أموراً محققة، وإن هؤلاء المئتي ألف علوي يرسلون إلى فرنسا تحية مفعمة بالأمل ويقدمون لمعاليكم أسمى الاحترام.

التواقيع»[1].

ولنا على هذا البيان الملاحظات التالية:

١-العلوية والعلويون كلمة طارئة دخلت بدخول فرنسا، وإن اسمهم التاريخي هو النصيريون والنصيرية. وقد صدرت هذه التسمية بقرار من المفوض السامي الفرنسي، فالادعاء بأنهم شيعة وأنهم أنصار الامام علي ﵁، ادعاء سياسي رخيص يلجؤون اليه بالمناسبات. وكلما قرروا أن يدخلوا في جسم الأمة لينخروا كيانها، ويحققوا مكتسبات سياسية أو عقيدية وراء ذلك، وتنفيذ مخططات هؤلاء الأعداء كما م مر معنا في الفصول السابقة.

---

(١) المشرق العربي في مواجهة الاسعمار. د. ذوقان قرقوط. من وثائق الخارجية الفرنسية. ص ص ٣٩٩-٤٠١.

٢-إن هذه الاتهامات العنيفة ضد الانفصاليين وضد الذين قدموا العريضة، إما أن تكون كاذبة، وهذا هو الأصل، لأن هذه الأصوات لم تسمع خلال ستة عشر عاماً من الانفصال، إنما سمعت عندما رأوا أن حاميتهم فرنسا تغادر سورية على ضوء المعاهدة الفرنسية السورية، وأن الشعب سوف يحاسبهم على خيانتهم وعمالتهم لفرنسا طيلة هذه الأعوام. فتداركوا الأمر بهذه العرائض والمذكرات ليثبتوا وطنيتهم وعروبتهم وإسلامهم.

٣-وإما أن تكون صادقة - وهو ما نقره جدلاً فقط - فإن قادة الانفصال هم أجداد حكام سورية الحديثين، هم أجداد الأسد وجديد وعمران أو آباؤهم، وهذا يعني أن طغاة سورية هم حفدة وأبناء هؤلاء الخونة العريقين المغرقين بخدمتهم وتمالئهم مع الاستعمار كما رأينا من روح المذكرة السابقة.

٤-ودعاة الوحدة هؤلاء الذين يزعمون الوطنية والعروبة والإسلام هم يطالبون باللامركزية الإدارية. فهم لا يرضون وحدة شاملة. إنما يرضون وحدة تقوم على أساس المحافظة على حريتهم واستقلالهم في الحكم والإدارة داخلياً، وارتباطهم خارجياً في الأمور العامة والاقتصاد والدفاع في الدولة الأم، فهم لا يريدون وحدة شاملة تقضي على كل عوامل الفرقة بين أبناء الشعب الواحد.

٥-وظاهر أن فرنسا أرادت أن تبث في صفوف النصيريين النصرانية، فكان المبشرون اليسوعيون يستغلون فاقتهم وفقرهم ويبثون النصرانية فيهم. فكان احتجاجهم شديداً على هذا الموقف وعلى سند السلطات لهم بذلك.

٦-ولا شك أن معاناة النصيريين من مشايخهم وطغاتهم معاناة لا تقل عن معاناتهم من السلطات الحاكمة، فمشايخهم يبتزون أموالهم، ويتحكمون في مقدراتهم، ويسلبونهم ثرواتهم، ويستنزفون خيراتهم، وليست هذه الصيحة إلا صيحة تعبر عن الكبت الذي يعانونه من هؤلاء الشيوخ.

٧-وقد مضت فرنسا إلى غير رجعة، فأين الدين الذي أعلنوا الغيرة عليه؟ لقد كان الرجل يمضي في الجبل كله، فلا يسمع صوت آذان بـ لا اله الا الله، ولا يرى مسجداً تقام فيه الصلوات، ولا يرى شعيرة من شعائر الإسلام تقام. وعلى زعمهم أنهم شيعة. فلماذا لا تبدو طقوس الشيعة عندهم؟ والقرى التي دخلها الإسلام من قرى النصيريين هي الوحيدة التي كانت تظهر فيها كلمة التوحيد وتعلم فيها الشعائر، وكانت تتعرض للغزو والسلب والنهب من النصيريين الذين يعتبرونهم مرقة مرتدين.

٨-وفي عهد الشيشكلي عندما أرادت الدولة ان تتعامل معهم بصفتهم مسلمين وفرضت عليهم بناء المساجد، فما أن انتهت تلك السلطة حتى هجروا المساجد، وجعلوها مأوى لدوابهم ومواشيهم، وكانوا ينزلون بمن يسلم منهم ألوان العذاب وصنوفه.

ووصل النصيريون للسلطة، وسنرى في الفصول القادمة كيف أن حربهم كانت على دعاة الإسلام وحملة رايته، وكيف أن رسالتهم الحقيقية هي القضاء على الإسلام، والقضاء على الأخلاق الإسلامية التي كانت تحكم المجتمع كله بكل طوائفه وفئاته.

يقول مؤلف: الإسلام في مواجهة الباطنية:

«بدأ الحديث عن الجعفرية قبل بضع عشرة سنة فقط في هذا الجبل، ثم أخذت تظهر كعامل تطوري في حياة بعض هذه المناطق منذ العهد الشيشكلي الذي استهدف تصفية الفوضى الضاربة في أوساط رجال الدين. فأقام لجاناً لامتحان المدرسين والخطباء والأئمة. وحظر على أي كان اتخاذ المظهر الخاص بهم إلا إذا كان يحمل إجازة من إحدى هذه اللجان. والحق أن دعوى الجعفرية لم تكن سوى ستار ألقي على مصنع الباطنية القديم ليمكن له من الاستمرار في

العمل بعيداً عن الأعين. والكسب الوحيد بهذه اللافتة إنما كان من حظ الباطنية وحدها، إذ أن كهنتها ما لبثوا أن واصلوا طريقهم في تحذير الأشياع واستنزاف عرق جباههم على الأسلوب القديم، إلا أنهم أصبحوا على أتم الاطمئنان بما كسبوا من الصفة القانونية، والتي تهب لهم ما كانوا في أمس الحاجة إليه من حرية التصرف.

ونحن على أتم الاستعداد لاعطاء أوثق البراهين على أن بعضاً من كبار شيوخ الجعفرية في الجبل لا يزالون كشأنهم من قبلها يدعون إلى الباطنية، ويعملون جاهدين لتحطيم كل تنبه فكري بين أتباعهم. ولئن غرر بهم الوهم فعمدوا إلى أي محاولة لإنكار هذا الواقع. كان علينا إذن أن نطلع عليهم بأسماء شباب ثقات، حاولوا استجرارهم إلى ظلمات الضلال القديم، القائم على تأليه علي، وعلى العبث بما في القرآن، وربما اضطررنا في هذه الحالة إلى الجهر بأشياء يسودّ لها كثير من الوجوه، التي تتظاهر اليوم دون حق بالانتساب إلى الجعفرية» [١].

قرار النصيريين بحكم سورية:

حين نجحت المفاوضات في فرنسا، وتم توقيع المعاهدة في ٩ سبتمبر/ ايلول ١٩٣٦، لاحظنا في الفقرة السابقة كيف لجأ النصيريون مباشرة إلى التقية، وأعلنوا أنهم مسلمون موحدون قرآنيون محمديون. والذي تؤكده الأحداث أنهم في هذه الأشهر الثلاثة (تموز ـ آب ـ أيلول) قرروا أن يحكموا سورية، وأعلنت طائفتهم الروحية أنها جزء من الإسلام، وأن بلادهم جزء من سورية، وتتحرك الوفود من النصيريين لاستقبال الوفد العائد من فرنسا. ونأتي هنا ثانية بشهادة -

---

(١) الاسلام في مواجهة الباطنية، لأبي الهيثم/ ٩٩ - ١٠١ مقتطفات.

أبي الهيثم - الذي حدثنا عن وطنية صالح العلي من قبل. هو نفسه يسوق لنا الشهادة المعاكسة فيقول:

«عام ١٩٣٦ وقد عاد وفد المفاوضات من باريس يحمل صك الحرية، كنا مع الشيخ صالح العلي وآل المحمود نؤلف أحد الوفود القادمة إلى دمشق للمشاركة في استقبال قادة النضال. وفي طريقنا من فندق الأندلس لزيارة البطل العربي الآخر (سلطان الأطرش) في فندق فيصل بالسنجقدار وقف الشيخ صالح وسط ساحة المرجة، وجعل يدير عينيه المهيتين في تلك الأرجاء، ثم التفت اليّ يقول:

أي فلان: هذا البلد سنحكمه نحن العلويين ذات يوم.

قلت: لو أوضحت ما تريد.

قال: ذلك ما يقرره الجفر.

وكانت كلمة كشفت اسراراً.. فعلى أنباء الجفر يستند قادة الفكر الديني في أوساط القوم، وليس من المعقول أن يستقل الشيخ صالح بهذه النظرة إلى المستقبل، الذي يتراءى له من خلال الورقات المقدسة... بل لا بد أن يشركه فيها الآخرون من أمثاله. وهذا ما يجعلنا نتصور أن فكرة الاستيلاء على الحكم في ديار الشام لا تقل عن كونها أحد الحوافز العميقة التي حملتهم إلى قمة السلطة، فهي فضلاً عما وراءها من دوافع الصراع السياسي إنما هي في ظل هذه الرؤية حركة صادرة من منطلق العقيدة الدينية، أي انها حركة تلتقي مع التطلعات التي خططت - منذ ألفي عام - لقيام دولة إسرائيل. ومع ذلك ما كان الشيخ صالح ليرى يومئذ داعياً لكتمانها عني كما تقتضي بذاك موجبات التقية، التي يعتبرونها

من أساسيات الدين»[1].

ونحن نرى أن هذا العام ١٩٣٦ وهذا الشهر (يوليو/ تموز وآب/ اغسطس وسبتمبر/ أيلول) هي الأشهر التي صدر فيها قرار الطائفة بوضع الخطة لإقامة الدولة العلوية التي تحكم كامل سورية.

في الجسم السوري:

كانت المعركة سجالاً بين الوطنيين الذين يريدون ضم جبل الدروز وجبل العلويين إلى جسم سورية، وبين الانفصاليين الذين يحاولون أن يحافظوا على دولتهم مستقلة.

في ١٩٣٦/١٢/٥ ضمت دولة العلويين إلى حكومة دمشق، وصارت جزءاً من الدولة السورية بالقرار رقم ٢٧٤ ل.ع الموقع من المفوض السامي «دي مارتيلي»[2].

«وبعد اكتمال الشكل الوطني للحكم: مجلس نيابي منتخب، رئيس جمهورية، وزارة دستورية، وطوال السنوات الثلاث التالية ظلت سلطات الانتداب تعرقل الإجراءات الوطنية لاستكمال مظهر الاستقلال. فلم توافق على اشتراك سورية في مؤتمر فلسطين، ولم تفعل شيئاً من أجل إنشاء نواة الجيش الوطني. واستمرت تمارس سلطاتها كاملة في شؤون الدفاع والخارجية، إلا أن الحكومة الوطنية قطعت بعض الخطوات في سبيل توحيد سورية بشيء من الحذر. فقد ترك لها تعيين محافظين في «جبل الدروز وبلاد العلويين»، وكانت التعليمات الصادرة للمحافظين: نسيب البكري في السويداء، وإحسان الجابري في اللاذقية هي مراعاة خواطر الزعامات المحلية الموالية للانتداب، مع تنشيط

---

(١) الاسلام في مواجهة الباطنية، لأبي الهيثم/ ٨-٩.

(٢) مراحل استقلال دولتي لبنان وسورية، جمع وجيه علي الدين/ ٧٦-٧٧، بيروت، ١٩٦٧.

الـروح الوطنيـة دون إثـارة الآخـرين. وعـدم إتاحـة الفرصـة، أو إعطـاء الأعـذار للوقوف في وجه الحكم الوطني، والتقليل ما أمكن من استخدام الموظفين من خارج المحافظة. لكن هذا الأمر لم يكن سهلاً مع وجود المستشارين الإداريين المتمتعين بصلاحيات واسعة من جهة، والنوايا المبيتة لدى سلطات الانتداب من جهة اخرى.. وأصر الفرنسيون في اللاذقية على اختيار محافظ من أبناء المنطقة استنادا إلى تحقيقات المفوض السامي» [١].

كـان الـدور الرئيسـي فـي هـذه المرحلـة هـو دور (الـرب المزيـف) سـليمان المرشد، ورأت فيه فرنسا ضالتها المنشودة ليحافظ على دولة النصيريين المستقلة ويكـافح بقـوة ضـد القـوات الوطنيـة التـي تريـد ضـمها. ومـع ذلـك فكـان متعـدد الأدوار، فهو عضو في البرلمان السوري المنتخب، ومع القوى الوطنية، وجزء من الوحدة السورية. «ففـي سـنة ١٩٣٧ ورغـم أنـه كـان مـا زال أمياً انتخب لعضـوية البرلمان بدمشق» [٢].

أما عام ١٩٣٨ فقد أصبح سيد الجبل بلا منازع.

«لقد جاء يوم على المرشدية كانت فيه سيف الفرنسيين المصلت على رقبة كل وطني في هذه المحافظة، وكان ذلك عام ١٩٣٨، إذ أقام ربها سلمان لنفسه دولة ضمن الدولة، يفرض الإتاوات، ويجبي الضرائب، وينصب المحاكم، وينفذ أحكـام الإعـدام، ويقطـع طـرق المواصـلات بـين اللاذقيـة وبقيـة الأنحـاء، ومـرّت أوقات هول على اللاذقية كانت تتوقع خلالها غزو المرشدين ومذابحهم بين ليلة وليلة» [٣].

---

(١) تطور الحركة الوطنية في سورية/ ١٦٨-١٦٩ لـ د. ذوقان قرقوط.

(٢) الأسد لباتريك سيل/ ٤٢.

(٣) الاسلام في مواجهة الباطنية لأبي الهيثم/ ١٠٣.

ونمت قوة سليمان المرشد، حيث كانت فرنسا تغذيها بكل قوة «وفي سنة ١٩٣٩ كان لديه خمسون ألفاً من الأتباع، وترسانة من السلاح زوّده بها الفرنسيون» [١].

وأمام هذه القوة التي أعادت للجبل وجوده المستقل كانت السياسة الفرنسية تمضي في عودة الجبل إلى ما كان عليه، وكانت أولى هذه الخطوات هي فرض محافظ علوي على المنطقة ليقودها عوضاً عن المحافظ الوطني، وهذه وثيقة الانفصال الجديدة التي أعلنها المفوض السامي الفرنسي عام ١٩٣٩:

«دمشق في ١٢ مارس ١٩٣٩

سيدي الرئيس

عهد إليّ حضرة المندوب السامي على إثر الحديث الذي جرى بينه وبينكم وبين أعضاء الحكومة السورية أن أدرس بقصد التوصل إلى حل نهائي للمسائل الثلاث التي أثيرت في تلك المناسبة، ألا وهي:

١-تعيين محافظ اللاذقية.

٢-تعيين قضاة في جبل الدروز.

٣-تسوية الحالة في الجزيرة العليا.

١) لقد ذهبت إلى منطقة العلويين لكي أكوّن لنفسي رأياً مباشراً وواضحاً في مسألة تعيين محافظ اللاذقية، فأجريت تقصياً لذلك لدى ممثلي جميع الأحزاب ومختلف الجماعات في تلك الربوع، وأدى بحثي إلى الملاحظات التالية:

إن العلويين مصممون تصميماً لا يتزعزع على أن لا يقبلوا إلا بمحافظ من عنصرهم، ويرشحون شوكت العباسي، والزعماء العلويون الذين أتيح لي أن

---

(١) الأسد لباتريك سيل/ ٤٢.

أجتمع إليهم عازمون على اختلاف ميلهم على العمل لتحقيق نجاح قضية مرشحهم، وأزيد على ذلك بأن شوكت العباسي، بالرغم من صغر سنه قد ظهر لي أنا شخصياً معتدلاً في آرائه، ومقدراً للظروف، وأعتقد أنه لا يوجد علوي أقدر منه على القيام بمهمة إدارة المنطقة، تلك المهمة الدقيقة ضمن نطاق الوحدة السورية.

ويكاد المسيحيون مع التحفظ بمراقبة دقيقة من قبل السلطة الفرنسية أن يجمعوا تقريباً على ترشيح شوكت العباسي.

أما السنيون، ولرأيهم بلا شك قيمة خاصة لدى حكومة دمشق، فقد استطعت أن أتأكد من أن نصف عددهم تقريباً يعتبر أن تعيين علوي وبالأخص شوكت العباسي هو أحسن حل لإعادة الأمن والهدوء بتلك المنطقة. أما النصف الاخر فقد صرحوا اليّ، ما عدا بعضهم بأنهم يقبلون من يتم انتخابه لهذه الوظيفة بالاتفاق بين حكومتكم والمفوضية العليا، ولم يعربوا عن أي تحفظ ضد أي شخص. فمن الممكن إذن الاستنتاج بأن الاكثرية الساحقة من سنيي منطقة اللاذقية تقبل بقرار يصدر بتعيين شوكت العباسي محافظاً من الحكومة السورية. وإني لأذكر بهذه المناسبة نفسها بأن ممثلي الحزب السني من السكان أجمعوا تقريباً أمامي على انتقاد إدارة المحافظ السابق المعين من قبل دمشق. وكان هذا الانتقاد في بعض الأحيان شديد اللَّهجة، فنظراً لتلك الأسباب يرى المفوض السامي بعد أن أطلعته على نتيجة تحقيقي أن تعيين شوكت العباسي محافظاً للاذقية لا يمكن أن يؤجل. وفي الظروف الحالية إن هذا التعيين هو الوحيد الذي يمكن أن يوافق عليه سكان اللاذقية، وقد وعد ممثلو الكتلة الوطنية أثناء مباحثات سابقة جرت في سنة ١٩٣٦ أن يحترموا رغبات هؤلاء السكان، وكان المفوض السامي كفيلاً بهذا الوعد ...

مندوب المفوض السامي: هوتكوك» [1].

ثم أتبع ذلك خطوات رسمية وقرارات إدارية بترسيخ الانفصال:

«ومع ذلك لم تخمد نار الانفصاليين، ولم تتوقف الاضطرابات في البلاد العلوية، مما ألزم المفوض السامي إصدار أنظمة سياسية جديدة تناسب الوضع المستجد، واتضح ان باريس وافقت على توصياته القائلة بعودة المنطقتين الدرزية والعلوية إلى الحكم الذاتي، والاحتفاظ بالقوات الفرنسية، وأصدر المفوض السامي في ٧ تموز ١٩٣٩ أنظمة أساسية جديدة ونصف انفصالية لمناطق اللاذقية وجبل الدروز، تكرس أوضاعها على نحو لا يختلف كثيراً عما كان سائداً قبل ١٩٣٩. وفي اليوم نفسه أرسل الرئيس الأتاسي برقية احتجاج إلى باريس، واستقال من منصبه، وتوجه إلى منزله في حمص. وامتنع الوزراء من التوجه إلى مكاتبهم، في حين كانت دورة انعقاد المجلس في أيامها الأخيرة، وحين لم يجد المفوض السامي مخرجاً فإنه نشر في ١٠ تموز مراسيم تتضمن تعليق العمل بالدستور السوري، وتعيين مجلس مكون من المدراء العاملين للوزارات برئاسة بهيج الخطيب» [2].

ولكن في أعقاب رحيل آخر جندي فرنسي من سورية عند الجلاء في نيسان/ ابريل ١٩٤٦ بدأت دمشق بإخضاع تلك الأجزاء التي سادت فيها النزعة الإقليمية المحلية، والتي شجعها الفرنسيون على الميل للانفصال مثل جبل الدروز، وبدو

---

(١) تطور الحركة الوطنية في سورية لـ د. ذوقان قرقوط/ ٣٠٤-٣٠٦، المصدر: مركز الوثائق التاريخية بدمشق، ملف الإدارة في عهد الانتداب. كتاب بالآلة الكاتبة صادر عن المفوضية العليا بدمشق إلى رئيس الوزراء لطفي الحفار تاريخ ١٢ مارس ١٩٣٩، هذا نص ترجمته عن الفرنسية.

(٢) العلويون النصيريون لأبي موسى الحريري، عن لونفريغ، تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي/ ٢٩٦.

العشائر في الصحراء، وبالطبع جبل العلويين. فأرسلت قوات ضد مقر قيادة المرشد، حيث كانت إحدى زوجاته (أم فاتح) التي تشير كل الروايات إلى قوة شخصيتها، تقود جيشه الخاص، فرفضت الاستسلام، ويقال إن المرشد نفسه أطلق النار عليها» [١].

«وكان على المرشدية أن تدافع عن وجودها الذي لا بقاء له إلا بحراب الأجنبي ودسائسه. فاعتصم ربها بعاصمة الألوهية (الجوبة)، وعالن الحكم الوطني الطفل عداءه من هناك، وظل في تمرده ومقاومته حتى أسقط الله قلعته في قبضة فريق من أشاوس الدرك الوطني بقيادة البطل الضابط (محمد علي عزمة)، ومن ثم وقع الإله في عين العدالة التي قضت عليه بالإعدام شنقاً. ثم ما لبث أن نفذ به الحكم في ساحة المرجة بدمشق» [٢].

كان إعدام سليمان المرشد في تشرين الثاني ١٩٤٦، «وفي عام ١٩٥٢ وخلال عهد العقيد أديب الشيشكلي قتل أحد أبناء المرشد واسمه مجيب بعد أن زعم أنه كان يحاول إحياء مطامح أبيه الانفصالية»[٣].

---

(١) الأسد لباتريك سيل/ ٤٢.

(٢) الإسلام في مواجهة الباطنية/ ١٠٣.

(٣) الأسد لباتريك سيل. ص ٤٢.

الشيشكلي والنصيريون:

لقد كان النصيريون يعملون بصمت مطبق، دون أن يبرزوا عضلاتهم على الساحة، غير أنهم تغلغلوا مباشرة في القوى الجوية، «ومن عام ٥٠ إلى عام ١٩٥٢ توصلوا إلى قيادة القوات الجوية»، وكانت عينا الشيشكلي اليقظتين لا تغفلان عن هذا التقدم المفاجئ. وبعد أن قام بانقلابه الأول «وفي ٣١ تموز قتل العقيد محمد ناصر قائد القوى الجوية السورية، قرب دمشق عن عمر يناهز السابعة والثلاثين، وكان يعتبر أقوى وأهم منافس للشيشكلي. وقد أوردت صحف بغداد والقاهرة وبيروت أنه قد سمى قبل أن يموت رئيس المكتب الثاني إبراهيم الحسيني، ونائبه عبدالغني قنوت باعتبارهما قتلته، ولكن وزارة الدفاع السورية منعت أي تعليق صحفي، وقد برّئ الرجلان اللذان ظهر اسمهما على هامش التاريخ السوري لنقص الأدلة الثبوتية»[1]. وكانت هذه هي الضربة الأولى للنصيرية في عهد الشيشكلي.

أما الضربة الثانية فكانت مقتل مجيب المرشد الذي ادعى الربوبية بعد أبيه سليمان. يحدثنا عنها بطلها عبدالحق شحادة في مذكراته فيقول:

«كانت تردني أخبار غريبة تكاد لا تصدق عن أن مجيب المرشد بن سليمان المرشد يدّعي الألوهية، ونحن نعلم في سورية أن سليمان المرشد والد مجيب المرشد كان قد ادعى الألوهية، ثم أعدم في مستهل عهد الاستقلال عام ١٩٤٦.

انتهزت فرصة وجودي في اللاذقية بمناسبة احتفالات خطابية قامت بها حركة التحرير العربي للدعوة اليها والتوعية بأهدافها، وحضرها أديب الشيشكلي. ولما

---

(١) الصراع على سورية، لباتريك سيل. ص ١٨٢.

انقضت هذه الاحتفالات وعاد كل واحد إلى مقره، لم أعد مع الشيشكلي في طائرته، ولما علم عبدالكريم يحيى صديق قديم من جسر الشغور بنيتي للصعود إلى الجبل ألحّ عليّ بمرافقتي.

واصلت السير في الطريق الموحش الوعر نزولاً في الوادي حتى وصلت إلى مخفر قريب جداً من قرية الشطمة التي قيل إن الرب مجيب المرشد يعقد فيها جلسة عبادة بمناسبة الاحتفال بأحد الأعراس. وهناك على بعد نصف كيلومتر تقريباً شاهدت جمعاً من الناس يقدر عددهم بـ ٢٠٠ شخص تقريباً جالسين على الأرض حول دكة كان يجلس عليها رجل ضخم بلباس أبيض، وشعرت بأن هذا هو الرب مجيب المرشد. ثم أكد لي ذلك من معي من الدرك.

تركت السيارة على بعد ٥٠م تقريباً من الجمع، واتجهت نحوه وحدي دون سلاح، ولكن بلباسي الرسمي، وكان هذا الجمع قد التفت إليّ وبدأ يراقبني وأنا أمشي نحوه، ومشيت حتى وصلت إلى الجمع، ثم تخطيته شاقاً طريقي بينهم حتى وصلت إلى مسافة متر واحد تقريباً من الجالس فوق الدكة. فسألته فجأة وعلى مسمع من الجمع: من أنت؟ فأجابني: أنت من؟ فقلت له: أنا الرئيس عبدالحق شحادة. وكان النقيب يسمى بالرئيس. فأجاب: نحن هنا لا نعترف بأحد! فما كان مني إلا أن صفعته صفعة قوية على وجهه. وكان رد فعل هذه الصفعة ذهولاً وجموداً وسكوتاً مطبقاً! استمر عدة ثوان دون أن يتحرك أحد. فانسحبت بهدوء شاقاً طريقي وسط هذا الجمع الحاشد الساكن، مكتفياً بهذا الدرس البليغ القاسي لهذا الرب المزعوم! ولكن ما أن ابتعدت قليلاً حتى نهض الرب فنهض الجميع معه، واتجهوا نحوي مهاجمين.

وفي هذه اللحظة الحرجة كان سائق سيارتي الجيب قد سارع وقدّم لي الرشيش الخاص بي، وما أن استلمته إلا وأطلقت النيران بكثافة نحو أعلى

الرؤوس ثم نحو الأرض، ولو كنت غير مسيطر على أعصابي فأطلقت النيران نحوهم مباشرة لقتلت العشرات لا سمح اللّه، ثم صرخت بأعلى صوتي فيهم أن يتوقفوا! فوقفوا جامدين فأشرت إلى مجيب أن يتقدم نحوي وأنا أشهر السلاح في وجهه. ولما تقدم قلت له ضاجاً: اجلس. فجلس ثم قلت له: ضع رأسك على الأرض فسجد على الأرض، ولما رفع رأسه بعد هنيهة، قلت له: أبق رأسك ساجداً على الأرض. فأطاع. وهنا أخذت أرجع إلى الخلف بضع خطوات نحو سيارتي مكتفياً بهذا الدرس الثاني البليغ لهذا الرب المزعوم.

ولكن ما كدت أخطو ثلاث خطوات تقريباً إلا ورفع رأسه صارخاً بالناس أن يهجموا، عند ذلك فقط أفرغت نار رشيشي في جسمه. فابتعد الناس عني قليلاً، ثم عادوا إليّ مهاجمين عندما رأوني أسير نحو السيارة. فما كان مني الا أن رميت الأقرب فالأقرب مني. وتوقف الهجوم.

وإن أنسَ لا أنسى استعصاء الرشيش خلال هذه الفترة الحرجة، فأصلحت الاستعصاء بهدوء عجيب وبسرعة نادرة، وكأن قوة خفية تساعدني على إصلاح هذا الاستعصاء. وكان الناس ينظرون إليّ وهم على بعد بضعة عشر متراً جامدين وأنا أصلح هذا الاستعصاء، ثم عدت إلى رمي من يقترب مني. وأنا أرجع لأركب السيارة عائداً إلى المخفر القريب.

وفي هذه الفترة الحرجة، التي لم تستغرق أكثر من أربع دقائق، استطاع بعض المهاجمين أن يصلوا إلى أحد أفراد الدرك، فقتلوه بعد أن انتزعوا منه سلاحه.. كما استطاعوا أن يرموا بسلاح أحضروه بسرعة من منزل قريب الشخص الثاني من الدرك (الشرطة).

وعرفت فيما بعد أن الذين قتلوا مع الرب مجيب المرشد هم ثلاثة من أنبيائه ورسله.

وأمر الشيشكلي أن ترسل لي سريتان عسكريتان من اللاذقية لنجدتي حين بلغه الخبر، فوصلتا بعد أقل من ٢٤ ساعة. وبعد أحرقت الجثث، وكانوا على ما أذكر ثلاث جثث مع مجيب المرشد، وكان الإحراق ضرورياً حتى لا يعبدوهم معه إذا دفنوا في القبور فأصبحت أضرحة للعبادة، ثم عدت مع السريتين. ثم قابلت الشيشكلي في دمشق وكان غاضباً. فقلت له: دافعت عن نفسي، ولو لم أفعل ذلك لكنت أنا الضحية. وكيف لا أدافع عن نفسي أمام رب يزعم أنه يحيي ويميت. ثم طلبت التحقيق وتقديمي للمحاكمة فإما أن أدان، وإما أن أبرَا. وفعلاً تكوّن ملف التحقيق ولكن لم يحل إلى المحكمة، ثم قام الانقلاب ضدنا وخرجنا من سورية، فأعيد التحقيق، ثم حوكمت غيابياً بالإعدام عام ١٩٥٥. وبلغني ذلك وأنا في باريس» (١).

محاولة أولى للدولة النصيرية:

بعد مرور عشرين عاماً على قرار استلام سورية لتكون أساساً للدولة النصيرية، وبشكل مفاجئ تظهر القوة النصيرية على الساحة تحت ستار الحزب القومي السوري، لقد توزع النصيريون الأدوار تحت راية الحزب القومي السوري، وتحت راية حزب البعث العربي الاشتراكي، ففي الجانب المدني قد شاركوا في الوزارة من خلال وهيب الغانم وزير الصحة وممثل البعث في الوزارة الثانية. أما في الجانب العسكري فقد كان التخطيط يقوم على أساس استلام الحزب القومي السوري الحكم بعد الإطاحة بالبعث وحلفائه، تسندهم الدول الغربية، وممثلتها في الأرض العربية العراق. ولكن أكبر عقبة في طريقهم هو نائب رئيس الأركان عدنان المالكي الذي يقف على رأس الصراع ضدهم في

---

(١) من مذكرات الضابط الكبير الآخ عبدالحق شحادة، المخطوطة ص ٤٨-٥٢ باختصار.

الساحة العسكرية، فكان المخطط لاغتياله النصيري العنيد المقدم غسان جديد، والمنفذ للاغتيال النصيري يوسف عبدالرحيم، والمكلف باخفاء معالم الجريمة بقتل القاتل نصيري كذلك. وكان المالكي أقرب المقربين إلى اليسار السوري الممثل الآن في الرباعي: الحوراني والعظم وبكداش والعسلي. حيث إن أخاه رياضاً المالكي كان عضواً قيادياً في البعث، فـ «جاء اغتيال المالكي البالغ من العمر ٣٧ عاما نائب رئيس الأركان رمياً بالرصاص في مباراة كرة القدم في ٢٢ نيسان ١٩٥٥ صدمة كبرى. فالرقيب العلوي الذي اغتاله عضو في الحزب القومي السوري، الحزب الذي كان منذ شهور قبل مقتل المالكي يسابق حزب البعث للسيطرة على الجيش أمام معارضة المالكي الشديدة. وفي الحقيقة فإن المالكي كما جاء في التقارير قد ألف قبل مقتله بقليل مجلس ثورة على الطراز المصري ليستأصل العناصر العسكرية الموالية للحزب القومي السوري وينسف خلاياه الحزبية، وفي سلوكه عداء شخصي ضد الضابط الذي يساند اتجاه الحزب القومي وهو المقدم غسان جديد. كذلك كان معادياً لرئيس الحزب في سورية جورج عبد المسيح، وقد سرّح جديد من الجيش قبل مقتل المالكي بأسبوعين، في حين هدّد (المالكي) عبد المسيح بتسليمه للحكومة اللبنانية التي حكمت عليه بالإعدام. وربماكان حافز الرجلين هو الانتقام غير أن الجريمة يجب ان توضع ضمن قرينة أوسع، ويظن أن الحزب القومي اعتقد بأن إبعاد المالكي واستبداله بضابط قومي سوري يمكن ان يقرّبه من السلطة. وكانت قوتهم تقدّر آنذاك بثلاثين ضابطاً، ومائة ضابط صف، وعلى ذلك فالصورة وراء مقتل المالكي كانت عبارة عن صراع من أجل السيطرة على الجيش، وهو العامل الحاسم في السياسة السورية. ويمكن أن يرى الأمر على أنه محاولة لشل العناصر والفئات التي آمنت بالحياد والعروبة كحركة نضالية، وبالتحرر من الأحلاف العسكرية

الأجنبية، وبالتالي القضاء على التيار المعادي للغرب في سورية» [١].

لقد كانت الأرضية مؤهلة وخصبة للانقلاب، فثمرة جهد عشرين عاماً من التخطيط النصيري في قواعد الجيش آتت كلها «ففي عام ١٩٥٥ وبعد اغتيال عدنان المالكي على يد الرقيب العلوي يوسف عبدالرحيم، اكتشف رئيس المخابرات العسكرية العقيد عبد الحميد السراج فجأة ان حوالي ٦٥٪ من المتطوعين في الجيش هم من الطائفة العلوية» [٢]. «فلقد لعبت العائلات السنية من التجار وملاك الأراضي دوراً غير مباشر في زيادة عدد الأقليات في الجيش السوري، عندما رفضت بحزم انخراط أبنائها في الجيش حتى كضباط لأن في ذلك خدمة للاستعمار الفرنسي، وكانت بالإضافة إلى هذا تحتقر مهنة الجندية. واعتبرت الكلية العسكرية في حمص - على ما ذكره باتريك سيل - مأوى الكسالى والمتمردين والمتخلفين والمغمورين اجتماعياً. ولم يفكر معظم أبناء العائلات الراقية بالانتساب إليها ما لم يكونوا فاشلين في دراستهم أو قد طردوا من مدارسهم. بالإضافة إلى ذلك هناك عامل اجتماعي اقتصادي أدى إلى زيادة عدد أفراد الأقليات في الجيش السوري. وهو أن مهنة الجندية قدمت للعديد من الأشخاص من المناطق الريفية الفقيرة -حيث تقطن معظم الأقليات- فرصة سانحة لصعود السلم الاجتماعي، وحياة أكثر دعة من تلك داخل القطاع الزراعي، بينما كان هذاه الحافز أقل أهمية لدى سكان المدن الكبرى وأغلبيتهم من السنة. كذلك كان من السهل نسبياً على أهل المدن الميسورين دفع البدل النقدي وتجنب مشاق الخدمة العسكرية» [٣]. ويمكن القول كذلك إن القيمة

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٣١٤.

(٢) حافظ الأسد لموشي ماعوز.

(٣) الصراع على السلطة في سورية، لفان دام/ ٥٠.

الاجتماعية للفرد عند النصيريين، من خلال تخطيطهم البعيد، كانت مرتبطة بالجيش. فلا يزوّج الفتى النصيري إلا إذا كان متطوعاً في الجيش، فهو بذلك ذو موقع اجتماعي محترم.

لكن الثورة ضد اغتيال المالكي كانت عنيفة، ووظفها البعث وحلفاؤه لصالحهم وصالح أفكارهم خير توظيف. فكان قرار الإدانة كفيلاً بإنهاء الحزب القومي السوري من الحياة العسكرية والسياسية في سورية.

«وفي التاسع والعشرين من حزيران نشر قرار الاتهام الموجه إلى حوالي ١٤٠ عضواً من أعضاء الحزب، اعتبروا مسؤولين عن ارتكاب جنح وجنايات تتعلق بمقتل المالكي. وقد اتهم البيان ثلاثين منهم بجرائم عقوبتها الإعدام، ومن هذه الجرائم: القتل، والاتصال بدولة اجنبية، وتعريض سورية لأعمال عدوانية، وتعكير صفو علاقاتها بدولة أجنبية، وحض أفراد الجيش على العصيان. وكان في طليعة المتهمين جورج عبد المسيح رئيس الحزب، وجوليت المير أرملة أنطون سعادة، وعصام المحايري الأمين العام للحزب، وغسان جديد، والدكتور سامي خوري. واعتبر قرار الاتهام الحزب القومي السوري جمعية سرية خرقت الدستور والنظام. كما اعتبر أن هدف الحزب الاستيلاء على السلطة بواسطة التسلل إلى الجيش، واتهم أيضاً بإجراء عدد من الاتصالات بالحكومة العراقية، وبعرض خدماتهم لتنفيذ السياسة العراقية في سورية، وبإجراء اتصالات مع الحكومة الأمريكية بغرض القيام بانقلاب في سورية، وفرض سياسة ترضي الولايات المتحدة عنها. وبهذا الخصوص اتهمت اللجنة التنفيذية للحزب بأنها أصدرت قراراً بارسال عصام المحايري إلى أمريكا لاجراء اتصالات على مستويات عليا، وبالاتصال بموظفين رسميين في سفارة الولايات المتحدة في دمشق. وأعلن قرار الاتهام ايضا أن شبكة التجسس قد جرى كشف النقاب عنها، وهي تتألف من أعضاء الحزب العاملين في الجيش، وأن الوثائق التي

صودرت قد كشفت عن أن الحزب قد جرى على تزويد مكتب المعلومات الأمريكي في دمشق بتقارير عن نشاطات الإخوان المسلمين في سورية والحزب الشيوعي في سورية ولبنان منذ بداية عام ١٩٥٥. وعلى ذلك فقد قرر الشيوعيون والبعثيون أن القيام بعمل سريع ضد الحزب القومي السوري أصبح لازماً. وبالنسبة للشيوعيين فهذه فرصة مناسبة جداً للتخلص من أعدائهم الأيديولوجيين، وإضعاف مركز الغرب في سورية، وتمهيد الطريق لإقامة علاقات أوثق مع الاتحاد السوفيتي. كما أن تدمير الحزب القومي السوري بالنسبة للبعث كان يعني خطوة أقرب باتجاه الحياد وإسكات صوت القومية السورية التي تتصارع مع مبادئه القومية العربية. وقد أشاع الحزبان كلاهما أنه اذا ما بدت العدالة مترددة أو بطيئة، فإن العناصر القومية الديمقراطية في الجيش وبين صفوف المدنيين سوف تعمل على تثبيط عزائمها في الوقت الذي يتجرأ فيه الحزب القومي وأصدقاؤه على محاولة القيام بانقلاب. وبهذه الأفكار صرخ الشيوعيون والبعثيون طالبين الانتقام، فاعتبر الحزب القومي السوري حزباً غير مشروع، ثم اعتقل عدد كبير من أعضائه، وأغلقت مكاتب الحزب بالشمع الأحمر، وأحرقت جماعة من الشعب مطبعته، وسرّح أنصاره من الجيش والدولة، كما شكلت محاكم مؤقتة تتمتع بسلطات خاصة لمحاكمة المتهمين، واستمع خمسون ألف شخص في حفل تأبين المالكي إلى اللواء شوكت شقير وهو يأخذ على نفسه عهداً بأن دم الشهيد سوف يثأر له. كما اتهمت الصحافة والمحاكم والرئيس نفسه الحزب القومي السوري بالتآمر مع دولة أجنبية للاطاحة بالحكومة. وهكذا استؤصل الحزب القومي السوري من الحياة العامة في سورية»[1].

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٣٢٤-٣١٧ بتصرف.

محاولة ثانية للدولة الطائفية:

«كانت عمليات التطهير التي تلت التقلبات السياسية في سورية منذ عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٥٥ كثيرة، ومن كل هؤلاء المنفيين السياسيين غير المنسجمين يشكل الحزب القومي السوري أشد المجموعات العسكرية تلاحماً، وكان عدد من زعمائه أمثال العقيد غسان جديد قد هربوا إلى بيروت بعد أن طاردتهم سورية بعد مقتل المالكي، حيث تابعوا من هناك مصرع حزبهم في دمشق، ووضعوا الخطط لانتقامهم، فوضعوا بياناً يتضمن الأهداف التي يمكن أن توحد قوى المعارضة في سورية، وقد جرّوا صلاح الشيشكلي ومحمد معروف إلى جلساتهم، وظهر أيضاً من نص البيان أن بعضاً من السياسيين كان يتعاطف معهم، أمثال عدنان الأتاسي ابن رئيس الجمهورية السابق هاشم الأتاسي. وقد دعا نص البيان الذي اتفقوا عليه في النهاية إلى ثورة شعبية تطيح بالدستور السوري وتحل البرلمان، وتقيم حكماً جمهورياً رئاسياً، ثم تشكل حكومة جديدة من موقعي البيان، وتلغي الأحكام التي صدرت في قضية المالكي، وتتخذ الخطوات لإقامة وحدة الهلال الخصيب. وقد دعا البيان أيضاً إلى تشكيل لجنة عسكرية وسياسية لربط الجنود والمدنيين في الحركة، ورسم خطط مفصلة للانقلاب» [١].

وبرز أديب الشيشكلي في المرحلة الأولى عنصراً رئيسياً من المؤامرة حيث وضع يده مع أعدى أعدائه من الدروز الذين مثلهم الضابطان محمد معروف ومحمد صفا، والعلويين الذين مثلهم المقدم غسان جديد، وحزب الشعب الذي مثله عدنان الأتاسي وفيضي الأتاسي، غير انه انسحب في اللحظات الاخيرة وفي

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٣٥٣.

ظروف غامضة يصعب التثبت من أسبابها.

وتمت متابعة القضية في اللجان العسكرية بعيداً عن مجموعة الشيشكلي والتي نفذت من خلالها أنباء المؤامرة[1]. أما الثورة الشعبية، فقد تقرر أن يشارك فيها ثلاث طوائف، حيث تقدمت القيادات السياسية للمشاركة فيها، وكان المهندس الأكبر للانقلاب والمنسق بين الفئات المختلفة هي عراق نوري السعيد الممول المادي والعسكري، حيث قدم ٢٠٠٠٠٠ دينار أو هيأ لتقديمها، و٥٠٠٠ قطعة سلاح توزع على الطوائف الشعبية المعدة للثورة وهي:

أ-الطائفة النصيرية وقد مثلها في المجال العسكري غسان جديد. وفي الجانب المدني محمد الفاضل، وكان المطلوب تعبئة النصيريين لمواجهة النظام، حيث كان الفاضل سابع سبعة في اللجنة الشعبية.

ب-الطائفة الدرزية وقد مثلها في المجال العسكري العقيد محمد صفا وفضل الله أبو منصور وشكيب وهاب، وفي الجانب المدني الأمير حسن الأطرش.

ج-العشائر، وقد مثلها نائب العشائر هايل سرور.

بينما مثل الجانب المدني حلفاء العراق في سورية ميخائيل اليان من الحزب الوطني، وفيضي الأتاسي وعدنان الأتاسي ومنير العجلاني وسامي كبارة.

«وقد ضاعف المتآمرون في بيروت نشاطهم في أواخر صيف ١٩٥٦، مجندين أعضاء جدداً في اللجنتين العسكرية والسياسية، ومتصلين بالدروز والعلويين والعشائر، ينفقون الاموال على الدعاية على أمل كسب الدعم لقضيتهم، وتدفقت الأسلحة والذخيرة من العراق لتغص بها مستودعات الحزب

---

(١) استدعى الشيشكلي سراً من دمشق إلى بيروت رجلين وأطلعهما على المؤامرة، ولم يدر أنهما صارا مخبرين في البوليس السوري.

القومي السوري في لبنان، لتهرب من ثم إلى سورية»[1].

وفي ٢٣ تشرين الثاني شعر السراج بثقة كافية لإعلانه اكتشاف مؤامرة من راديو دمشق:

«في الوقت الذي كانت فيه قوى الإثم والعدوان البريطانية والفرنسية واليهودية تنقض بوحشية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً على الشقيقة الباسلة مصر، في هذا الوقت بالذات وفي هذه اللحظات الرهيبة وضعت السلطات العسكرية يدها على شحنات كبيرة من الأسلحة الحربية الخطيرة أثناء محاولة نقلها من بلد عربي مجاور إلى سورية، فوضعت اليد عليها، وباشرت فوراً في التحقيق ومطاردة الجناة الذين كانوا يعدون العدة لطعن أمتهم ووطنهم وجيشهم من الخلف عندما تكون الأمة والوطن والجيش في خضم المعركة، وإن التحقيقات الأولى كشفت الستار عن الجهة التي يتعامل معها هؤلاء الجناة، والتي نقول والألم يحز في نفوسنا ويدمي قلوبنا بأنها حكومة كنا نعتقد إلى أمد قريب بأنها مهما ضلت الطريق، ومهما غررت بها سياسة الأحلاف والمستعمرين، فإنها لا بد وأن تكون بجانبنا في الصف يوم المعركة...»[2].

وفي ٢٢ كانون الأول من عام ١٩٥٦ نشرت قائمة الاتهام، وتضمنت أسماء ٤٧ متهماً، منهم الدكتاتور السابق أديب الشيشكلي، وزعماء التآمر الفعالين محمد صفا وغسان جديد ومحمد معروف وصلاح الشيشكلي وسعد تقي الدين وحسن الأطرش والرئيس القبلي هايل سرور وأعضاء بارزون من اللجنة السياسية أمثال ميخائيل اليان وعدنان الأتاسي ومنير العجلاني وسامي كبارة. وافتتحت الجلسة

---

(١) الصراع على سورية، لسيل/ ٣٦١.

(٢) الصراع على سورية، لسيل، ص ٣٦١.

في الثامن من كانون الثاني ١٩٥٧ على مدرج جامعة دمشق، وكان العقيد عفيف البزري رئيساً لهذه المحكمة العسكرية. وانتهت الإفادات بعد خمسة أسابيع، وصدرت الأحكام في ٢٧ شباط، وهنالك ثمانية عشر من المتهمين بمن فيهم عدد من الشخصيات الرئيسية خارج البلاد، وحكم عليهم (أو على كثير منهم) بالموت غيابياً، وقبل ذلك بأسبوع أو أقل قتل غسان جديد في شوارع بيروت»[١].

لقد فضح دور الدروز في المؤامرة لأن فارس دوبر الدرزي هو الذي قام بنقل شحنات الأسلحة إلى جبل الدروز والبدو باسم حسن الأطرش وهايل سرور، وأما العلويون فقد بقي دورهم مخفياً إلا من خلال القيادات، ودفن الدور مع مقتل غسان جديد أكبر عناصر المؤامرة ليعودوا إلى الساحة من جديد بعد عشرة أعوام على هذا التاريخ، وتخلو لهم الساحة وحدهم في الجيش.

الطائفية تحت ستار البعث:

عندما فشل القوميون السوريون في انقلابهم عام ٥٦ رأى النصيريون أن الحزب القومي السوري قد أفل وانتهى، وأن التركيز يجب أن يكون علىالانخراط في حزب البعث لأن المستقبل له. وهذا مما حدا بالملازم الثاني صلاح جديد أن يترك مواقعه في الحزب القومي السوري وينتقل إلى حزب البعث في أواسط الخمسينات. وعندما تم اغتيال أخيه غسان جديد قرر الثأر والانتقام من الحزب الذي قتل أخاه باسم الحزب نفسه. وكان محمد عمران الضابط الأعلى من صلاح جديد يتلقى الأوامر من قيادة طائفته بالتحرك المناسب. ومن خلال السياسة الناصرية في سورية ضد الضباط الحزبيين والطائفيين كان أن جمعت القاهرة بين الضباط الخمسة الطائفيين المبعدين من سورية إلى مصر ليكونوا

---

(١) المصدر نفسه: ٣٦٤-٣٦٥.

النواة الجديدة الأولى لاستلام سورية بعد فشل الحزب القومي السوري. وكان هذا عام ١٩٦٠.

«كانت بدايات اللجنة العسكرية متواضعة حقاً، فلم يكن فيها سوى خمسة ضباط، النقيبان الأسد والجندي والرائدان جديد والمير والمقدم عمران، وكان أول عمل قاموا به هو أنهم أقسموا على السرية، وكانت أعمارهم تتراوح بين الثامنة والعشرين والثامنة والثلاثين. وكان لديهم جميعاً تجربة في التعرجات السياسية، وكانوا مشتركين في غريزة قديمة هي غريزة الكتمان والتقية التي تتصف بها مجتمعات الأقليات المضطهدة في الشرق الأوسط. كان ثلاثة من الخمسة علويون واثنان من فرقة شيعية (باطنية) أخرى هي الإسماعيلية، وكانت خليتهم في عزلتها أشبه ما تكون بالمحفل الماسوني، ولكنهم في غضون بضع سنوات راحوا يقتلون ويدمرون بعضهم بعضاً أثناء تسلقهم إلى القمة».

كان أكبرهم والدماغ الموجه لهم هو المقدم محمد عمران المولود عام ١٩٢٢، كان رجلاً ضخماً حسن البنية، ذا بشرة صبوحة وعينين زرقاوين كالكثير من العلويين، وهو ينحدر من عائلة من صغار ملاك الأرض، تنتمي إلى عشيرة الخياطين في قرية مخرم على السفوح الشرقية من الجبال بمواجهة الداخل. وفي شبابه شارك عمران في حرب فلسطين قبل أن تمتصه السياسة خلال انقلابات الجيش في أعقاب الحرب، ولعب تحت تأثيرا أكرم الحوراني دوراً صغيراً في الانقلاب ضد الشيشكلي عام ١٩٥٤. ولكن عمران لم يكن عسكرياً من النمط المعتاد فهو مولع بالقراءة والنقاش، مهذب دمث المعشر، بل يمكن اعتباره إلى حد ما مفكراً يبهر رفاقه بما يأتيهم به بالعويص والمعمق من المعلومات. وعندما أوفد في وقت مبكر إلى فرنسا لمتابعة دورة تدريبية أدهش أصدقاءه بتفضيله الذهاب إلى المكتبة العامة بدل الحانات والمقاهي. ولكن كان ينقصه مقدار من

القسوة ليتماشى مع الخشونة التي راحت تتزايد داخل مجموعته، وقد دفع فيما بعد ثمناً غالياً لانعدام القسوة عنده.

أما صلاح جديد الأنيق ذو الشعر الناعم فكان شخصية مناقضة لعمران، كان يابساً صموتاً دقيقاً، وكانت له سمة الضابط البروسي، كان يؤثر الاستماع أكثر من الكلام. ولذلك كان يجعل الآخرين يحسون وكأنه يحصي عليهم كلماتهم ليستعملها ضدهم ذات يوم. كان ذكياً ذا مبادئ، وله آراء واضحة اليسارية، وحين احتدم الصراع على السلطة قدر له أن يكون منافس الأسد الرئيسي. ولد جديد عام ١٩٢٦ في قرية دير بعبدا قرب بلدة جبلة الساحلية، وينتمي إلى اسرة متوسطة من عشيرة الحدادين التي هي أكبر العشائر العلوية. أما سياسياً فكان ولاؤه الأول للحزب القومي السوري، ثم أبدل موقعه وانضم إلى البعث عندما كان ملازماً ثانياً في الخمسينات» [١].

«في البداية لم يساور اللجنة العسكرية أي تفكير بالاستيلاء على السلطة في دمشق، فهذا كان بلا شك برنامجاً طموحاً جداً بالنسبة لحفنة من الضباط الصغار الموجودين على بعد مئات الأميال من بلدهم، كانت أهدافهم هي إعادة بناء حزبهم المشتت، وحماية الوحدة وإسقاط النظام القديم في سورية، وبذلك يكونوا قد كفلوا استمرار صعودهم وصعود طوائفهم، فأبناء الطوائف المغبونة هم الأكثر خسارة فيما لو عادت الساعة السياسية في سوريا إلى الوراء، واسترجعت النخبة في المدينة نفوذها الضائع. فلا بد من المتاجرة بالوحدة، وهذا يفسر لنا ثانية حضور صلاح جديد المؤتمر الثاني للبعث والذي عقد في آب ١٩٦٠ بعد

---

(١) الأسد، الصراع على الشرق الأوسط، لسيل/ ١٠٧، ١٠٨. ويذكر سيل سبب تغيير الموقع من القومي السوري للبعث، ونعتقد أنه سبب ظاهري فقط، والحقيقة هي العمل للوصول للسلطة عن طريق البعث بعد فشل الحزب القومي السوري في ذلك.

تشكيل اللجنة العسكرية حيث تقرر في هذا المؤتمر تخفيف حدة انتقاد عبد الناصر والعمل على إعادة الديمقراطية في الجمهورية العربية المتحدة. لكن أكرم الحوراني رفض الموافقة على هذا القرار، وراح يوجه أقسى سهام لومه ويصب جام حقده على عبد الناصر، ويحمله كل الأخطاء ويطالب بقطع العلاقة معه» وهكذا دق صلاح جديد الإسفين الأول في البعث حيث مضى الحوراني أكبر زعماء البعث بعيداً عن قرارات حزبه ليجد نفسه بعد ذلك خارج الحزب أيام الانفصال.

إنها الباطنية الذكية لصلاح جديد الذي راح ينفذ مخططه بتدمير الحزب باسم الحزب.

وكان من الخطة كذلك سفر عمران وجديد إلى سورية، حيث التقيا سراً ببعض البعثيين المدنيين في محاولة لإعادة الحزب، وذلك بعد أن تقرر في مؤتمر البعث الثاني إدانة عفلق لموافقته على حل الحزب، وكان هذا الإسفين الثاني الذي دقّه جديد في نعش الحزب حيث وجه الهجوم واللوم على القائد الملهم، وفسح المجال لتحطيم وتهشيم القيادات الحزبية، وكانت هذه الاتصالات الجديدة والامتدادات مع البعثيين المدنيين لربط الخيوط كلها بيد اللجنة العسكرية.

والشيء الذي يتجاهله (سيل) في كتابه (الأسد) هو أن أشد الناس عداء للوحدة هم النصيريون، فقد كانوا مع غيرهم من الطوائف مستهدفين من نظام عبد الناصر، فقد كانت نسبة الوجود السني في نظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة ٩٤.٧٪، وهي أعلى نسبة سواءً قبل الوحدة أو بعدها.

كان مخطط النصيريين يتضمن التعاون مع الإسماعيليين والدروز، فقد انضم للجنة العسكرية مع عمران وجديد والأسد، الضابطان الإسماعيليان المقدم أحمد

المير المولود عام ١٩٢٢، والذي قاده حظه العاثر ليكون قائد القوات السورية في حرب الجولان عام ١٩٦٧، والرائد عبد الكريم الجندي الذي استلم مقود المخابرات في سورية فترة من الوقت انتهت باتهامه بالخيانة وانتحاره، ولنا عودة لهذين الضابطين فيما بعد.

المهم في الأمر أن اللجنة العسكرية سرية حتى على الحزب نفسه كما يذكر العيسمي الأمين العام المساعد للحزب، واللجنة العسكرية كلها طائفية من النصيريين والإسماعيليين، وليس فيها سني واحد، ومهمتها في الظاهر أن تصل بالحزب إلى السلطة، وفي الحقيقة تدمير الحزب والوصول بالطائفة إلى السلطة من خلاله.

وتحرك صلاح جديد ومحمد عمران في تغذية الانشطار في الحزب «فالأعضاء العراقيون كانوا يطالبون بمساعدة الحزب ضد الديكتاتور العراقي عبد الكريم قاسم الذي اعتبروه عدواً أشد خطراً من عبد الناصر. أما أمين الحزب في الأردن عبد الله الريماوي فقد قال بأن عبد الناصر هو على حق وأن الحزب على خطأ، وانفصل عن البعث. وهناك أعضاء آخرون اتجهوا نحو الماركسية، واعتزل البعض الآخر السياسة تماماً. ولكن بقيت هنا وهناك في سائر أنحاء سورية بعض الخلايا التي راحت تكافح للحفاظ على وجودها السري، ولكن دونما توجيه أو خط موحد. ومع هذه الخلايا المعزولة حاولت اللجنة العسكرية في القاهرة الاتصال مجدداً وهي تبحث عن حلفاء» [1].

ويعطينا الأستاذ جمال الشاعر أحد القياديين البعثيين صورة عن هذه المرحلة فيقول:

---

(١) الأسد، الصراع على الشرق الأوسط، لسيل/ ١١٣.

«لم يكن الأساتذة الثلاثة (الحوراني وعفلق والبيطار) كما سماهم البعثيون دائماً على اتفاق في الرأي بالنسبة للعمل السياسي في سورية بشكل خاص، ولكن معارضة الأستاذ ميشيل لسياسات الحزب القومية لم يكن من السهل أن يكتب لها النجاح رغم صورة العميد أو الأخ الأكبر الذي يكون له حق القول الفصل، ومخالفة القرارات أو آراء الأكثرية كانت القاعدة الدائمة في العمل الحزبي.

عدنا إلى دمشق لنعيش الصراع المتعدد الجوانب على مسرح السياسة في الجمهورية العربية المتحدة، فقد أعلن الريماوي عن تأسيس القيادة القومية الثورية التي اعتبرت نفسها الممثل الشرعي لحزب البعث العربي الاشتراكي، ثم صعدت حدة الصراع بين البعثيين السوريين من جهة، وعبد الناصر وعبد الحميد السراج من جهة أخرى. وكان القوميون العرب قد حاولوا مع البعثيين إنقاذ الوضع. وتألفت لجنة مشتركة من الدكتور جورج حبش والسيد هاني الهندي والأستاذ الحكم دروزة من جهة، ومن الأستاذ ميشيل عفلق والدكتور سعدون حمادي ومني من جهة أخرى، وذلك من أجل التباحث وتوحيد وجهات النظر. ولكن الأمور كانت قد ساءت كثيراً، وبدأت المعركة مع مصطفى حمدون الذي كان وزيراً للاصلاح الزراعي في الحكومة التنفيذية للإقليم السوري. فتحرك الأستاذ ميشيل عفلق بين الوزراء البعثيين الآخرين من أعضاء الحكومة المركزية معلنين الاستقالة الجماعية، وفي صباح اليوم التالي زارني باكراً الدكتور جورج حبش، ولم يقبل أن يدخل بيتي، بل اكتفى بالقول وهو خارج الباب أن الاستقالات هي موقف خيانة وطنية قومية، وهكذا انقطع الحديث وتوقفت أعمال اللجنة المشتركة.

وعاد الأستاذ أكرم الحوراني إلى بيته، فزرته مرة مع الأستاذ كمال ناصر،

وكان ملخص حديثه له أن المشكلة الرئيسية كانت في محاولة تمصير سورية وليس في اللقاء الناصري - البعثي الذي كان مطلوباً منه أن يكون الأساس الفكري للوحدة المصرية السورية. وقال أيضاً بأن السياسيين المحترفين والبعثيون منهم، وهو من بينهم قد دخلوا الوحدة بقلوب أطفال، ولم يلعبوا كما فعلوا في الحياة السياسية السورية قبل الوحدة.

بدأ عبد الحميد السراج سياسة إحكام سيطرته على سورية، وبدأت بذلك حملة إضعاف البعثيين، وتقريب مختلف الفئات الأخرى من مواقع النفوذ السياسي والعسكري والاقتصادي، وغادر الأستاذ ميشيل عفلق دمشق إلى بيروت، والتقى بعض البعثيين السوريين، وتبادلوا وجهات النظر، بينما رفض البعض الآخر المشاركة في هذه اللقاءات. وأذكر أنني زرت الدكتور نور الدين الأتاسي والدكتور إبراهيم ماخوس حيث عملا مقيمين في مستشفى المجتهد الحكومي، وكان رأيهما أنهما يفضلان الانتظار ريثما يخرج للمسرح أشخاص غيرهم» [1].

وعودة ثانية إلى اللجنة العسكرية...

فقد رأينا أثر توجيه شيوخ الطائفة لأبنائهم جديد وعمران والأسد بضرورة التعاون مع الإسماعيليين الباطنيين. وقد انضم معهم المير وعبد الكريم الجندي. فهل كانت الطائفة الدرزية بعيدة عن هذا التنظيم في الوقت الذي تلح فيه خطة شيوخ الطائفة على ضرورة المشاركة الدرزية؟

«حسب معلومات بعض الرواة فإن قائد المجموعة (اللجنة العسكرية) في البداية كان درزياً هو المقدم فريد هنيدي، ولكنه نقل إلى خارج الجيش بعد وقت

---

(١) سياسي يتذكر، تجربة في العمل السياسي، لجمال الشاعر، ٨٩-٩٠.

قصير، وعيّن بعيداً عن المشاكل في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في جاكارتا، وفي ٢٩ آب/ أغسطس ١٩٨٣ توفي في السويداء دونما اهتمام ولا رثاء» (١).

وماذا كانت نتيجة اتصالات عمران وجديد بعد سفرهما السري إلى دمشق؟ يتحدث عنها الأسد نفسه فيقول:

«ولم يكن الضباط الذين اتصلت بهم يدركون بأن هناك تنظيماً وقيادة، رغم أنهم كانوا يعرفون أنني اشتغل بالسياسة كعضو في الحزب، وكانوا يرون أن اقترابي منهم ليس عفوياً، وبعد مدة تشكلت ثقة كافية لجعلهم يحتفظون لأنفسهم بأية معلومات نقلتها لهم. فالبعثيون ولا سيما العسكريون من بينهم لديهم إحساس بمشاكل الأمن، ولم يسألني أحد: من أنت بالضبط؟ ومن تمثل؟! وبمرور الزمن وبسرية عظيمة أقامت اللجنة العسكرية شبكة من دزينتين أو ثلاث دزينات من الضباط الذين نجم من بين صفوفهم بعد عقد من الزمن عدة شخصيات هامة في الحياة العامة في سورية، كان معظمهم من خلفية ريفية، مثل أعضاء اللجنة الخمسة أنفسهم. ولم يكن هناك أحد من دمشق أو المدن الأخرى وكان عدد كبير منهم من الأقليات الدينية» (٢).

لقد توسعت اللجنة العسكرية فيما بعد نتيجة هذه الاتصالات لتبلغ خمسة عشر عضواً. لكن العشرة الآخرين لم ينضموا فعلاً للجنة العسكرية إلا بعد أن استلم البعث السلطة بعد ٨ آذار/ مارس عام ١٩٦٣.

وكان قرابة الثلثين من هذه اللجنة من الطوائف الثلاثة: العلويين والدروز

---

(١) هوامش سيل في كتابه (الأسد)، ص ١٢١، هامش (١٣).

(٢) المصدر نفسه/ ١١١.

والإسماعيليين، والثلث فقط من السنة. وهذا هو تركيب اللجنة التي كانت تقود الحكم والسلطة في سورية باسم البعث (خمسة علويون وهم محمد عمران من المخرّم (حمص) وصلاح جديد من (دير بعبدا - اللاذقية) وحافظ أسد من (القرداحة - اللاذقية) وعثمان كنعان من (الإسكندرون). وسليمان حداد. واثنان إسماعيليان وهما عبد الكريم الجندي من (سلمية حماة) وأحمد المير من (مصياف - حماة)، واثنان درزيان من جبل الدروز وهما سليم حاطوم من ذيبين، وحمد عبيد . وستة سنيون: ثلاثة منهم من حوران وهم موسى الزعبي، ومصطفى الحاج علي وأحمد سويداني، واثنان من حلب: أمين الحافظ وحسين ملحم، وواحد من اللاذقية وهو محمد رباح الطويل» [١].

ولا بد من ملاحظتين اثنتين عن اللجنة العسكرية:

الأولى: انضم هؤلاء الرجال (العشرة الجدد) إلى اللجنة العسكرية بعد أن تم الاستيلاء على السلطة عام ١٩٦٣، «وانتهت بذلك المرحلة الأولى من العمل السري» [٢].

الثانية: كان «احتكار القيادة العليا للجنة العسكرية (بعد توسعها) في أيدي ثلاثة علويين، هم محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد» [٣].

وبذلك اتضحت الهوية الكاملة للتخطيط النصيري لاستلام سوريا تنفيذاً لمقررات الطائفة.

---

(١) الصراع على السلطة في سورية، لنيكولاس فان دام/ ص ٤٩.

(٢) الأسد، لسيل/ ١٢١.

(٣) الصراع على السلطة في سورية، لنيكولاس فان دام/ ص ٥١.

الباب الرابع

العهد الطائفي

الفصل الأول: انقلاب ٨ آذار.

الفصل الثاني: الصدام الأول مع الإسلاميين.

الفصل الثالث: الصراعات داخل البعث.

الفصل الرابع: زعيم الباطنية القادم: حافظ الأسد.

الفصل الخامس: التفرد النصيري في السلطة: القضاء على الدروز.

الفصل السادس: أول ثمار التفرد النصيري في السلطة: الحرب على اللَّه.

الفصل السابع: ثاني ثمار التفرد النصيري في السلطة: سقوط الجولان والتسليم لليهود.

الفصل الثامن: ثالث الثمار: الصراع النصيري النصيري وخيانة الفدائيين الفلسطينيين.

الفصل الأول

انقلاب ٨ آذار

عندما قرر النصيريون الانقضاض على السلطة كان لابد لهم من معاونة كتل أخرى داخل الجيش لضمان نجاح انقلابهم وإسقاط حكم الانفصال، وقد اختاروا التعاون مع الناصريين والمستقلين، «فالضباط الدمشقيون هم العدو، والحورانيون لا يمكن الاقتراب منهم ايضا لا لأنهم انحازوا إلى الانفصاليين، وإنما لأن اللجنة العسكرية كانت ترى فيهم المنافسين لها، وهكذا لم يبق أمام اللجنة سوى الناصريين والمستقلين، وبالرغم من تحفظات اللجنة على عبد الناصر، ومن سوء إدارة محاولة انقلاب ربيع ١٩٦٢، فإنها قامت باتصالات سرية مع ضابطين بارزين، هما العقيد راشد قطيني رئيس المخابرات العسكرية، والعقيد محمد الصوفي آمر لواء حمص. واقترح عليهما الاشتراك في الهجوم على الحكومة، وبعد أخذ ورد تم كسب هذين الضابطين.

ولكن ذلك لم يكن كافياً، ولهذا وبناءً على أوامر اللجنة طلبت مجموعة من صغار الضباط البعثيين مقابلة زعيم المستقلين في الجيش العقيد زياد الحريري، آمر قطاع الجبهة مع إسرائيل، حيث أخبروه بأنهم يخططون للإطاحة بالحكومة، وعرضوا عليه قيادة حركتهم. قالوا: «إذا نجحنا، فلسوف تصبح رئيساً للأركان، وإذا فشلنا فباستطاعتك أن تتنصل وتتبرأ منا»، وقد جاء هذا العرض في لحظة مناسبة، ذلك أن رئيس الوزراء خالد العظم وهو خصم صلب وعنيد لفكرة تدخل الضباط في السياسة كان ينوي أن يجعل الحريري عبرة للآخرين بتجريده من منصبه المتنفذ، وإرساله كملحق عسكري إلى بغداد، وهكذا انضم الحريري إلى المؤامرة.

وكانت نتيجة هذه المفاوضات السرية أن تجمعت عصبة مؤلفة من ستة

رجال في أواخر ١٩٦٢ هم الأسد وعمران وجديد، والحريري وقطيني والصوفي. ولكن كانت لديهم أهداف مختلفة، فالحريري يريد إنقاذ مستقبله، والناصريون يريدون إعادة عبد الناصر، بينما كانت أهداف اللجنة العسكرية أكثر تعقيداً وطموحاً، فهي وحدها بين الفئات الأخرى كانت تملك كياناً متماسكاً وقيادة موحدة وبرنامجاً، فهي تهدف أولا إلى إعادة البعث إلى السلطة، وثانياً إلى أن يضع أعضاؤها أنفسهم على طريق الصعود من جديد، وبعد ذلك ينظر في أمر قضية الوحدة العربية البالأمام» (١).

ويرى سيل أنه «بالرغم من أن كونهم يعرفون ما يريدون ميزة كبيرة، فإن ذلك لم يكن كافياً ليعوض حقيقة أنهم بالنسبة للناس مجرد شبان مجهولين، ينتمون إلى طائفة قليلة الشأن، ومسرحين من الجيش، بل إنهم لم يكونوا موضع ترحيب حتى في المحيط المدني للبعث. ثم إن الحزب عمد مثل الأحزاب العقائدية الأخرى إلى تجنيد أنصار عسكريين له باعتبار أن الجيش أصبح هاماً بحيث لا يمكن تجاهله من ناحية، ومن أجل الحصول على وسيلة للدفاع عن النفس من ناحية أخرى، فالعمل السياسي العربي ليس مجرد نزهة.

هذا ما كان عليه جانب من خلفية علاقات اللجنة العسكرية مع عفلق حينذاك، كان الأسد وأصدقاؤه لا يكنون حباً لعفلق، أما هو فكان لا يثق بهم، إلا أن الجانبين كان يحتاج كل منهما إلى الآخر. فهم كانوا بحاجة إلى اسمه لأنه بالنسبة للعالم الخارجي لا يزال يرمز إلى البعث، كما أنه يمثل ما تبقى من الجهاز الحزبي الذي بإمكانه أن يضارع أي استعراض للقوة قد يقوم به عبدالناصر في

---

(١) الحقيقة أن تماسك اللجنة العسكرية هو لطائفيتها أولاً وأخيراً، وهدفها إيصال الطائفة النصيرية إلى السلطة تحت ستار البعث، كما سيظهر لنا فيما بعد، ولذلك وجدنا العلويين الثلاثة من اللجنة الخماسية الآن هم على رأس الانقلاب.

الشوارع. أما عفلق فكان يعلم بدوره أنه بدون دعم الجيش لا يملك أي خط للعودة إلى المسرح السياسي.

في ربيع ١٩٦٢ وبعد أربع سنوات بائسة من النضال للعودة إلى الميدان السياسي، دعا عفلق إلى عقد مؤتمر في حمص، وهو أول مؤتمر يعقد على الأرض السورية منذ حل الحزب عام ١٩٥٨، ولم يُدعَ إليه لا أكرم الحوراني، ولا البعثيون الذين انضموا إلى عبدالناصر، ولا أولئك الذين خالفوا أوامر عفلق، وحاولوا إبقاء فروع الحزب على قيد الحياة خلال سنوات الوحدة، وارسلت اللجنة محمد عمران ليدوّن ملاحظاته على وقائع المؤتمر. وانتهى المؤتمر بأن أعاد عفلق بطريقة قلقة إلى كرسي قيادة الحزب، وبمساعدة وفد البعثيين العراقيين الخشنين استطاع عفلق أن يمرر قراراً يقضي بإصلاح الحزب في سورية. وآخر يتماشى مع مبادئ الحزب ولكن لا يخلو من النفاق، ويقضي بدعوة مصر إلى وحدة جديدة، وبعيدة عن حكم الفرد، وعن حكم الدولة البوليسية، وبالطبع لم يكن ذلك اقتراباً ودياً من عبدالناصر.

وفي أعقاب المؤتمر جرت اتصالات بين عفلق واللجنة العسكرية التي لم تطلع الزعيم العجوز على سرها ولا على تفاصيل خططها، إلا أن الضباط حصلوا منه على تعهد بدعمهم للقيام بانقلاب، وكان هناك الكثير من المخادعة بين الجانبين، إلا أن الرابط الذي جمع بينهما هو التفاهم الصامت على أنه بعد أن يتم استخدام الناصريين للتخلص من الانفصاليين فإنهم لن يكرروا غلطة تسليم السلطة إلى الزعيم المصري، ولكنهم لم يتفقوا على مقدار السلطة التي سيتقاسمونها، إذ ترك الأمر معلقاً» [1].

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ١٢٥-١٢٨.

ولنا العديد من الملاحظات على هذا العرض:

أولاً: لقد كان سيل دقيقاً حين حدد الأعداء الحقيقيين للجنة العسكرية، وقال إنهم الضباط الدمشقيون والحورانيون، وذلك لأن الطرفين ابتداءً هم من الضباط السنة، ولأن العواطف الإسلامية قد برزت لدى الدمشقيين، وهم الذين أصروا على تنفيذ العقوبات بالعلويين وشركائهم الذين قاموا بعصيان حمص وحلب، وتنفيذ حكم الإعدام بقتلة الضباط الأربعة. وأما الحورانيون فشخصية أكرم الحوراني القوية لا تهيئ لهم أن يلعبوا عليها ويغرروا بها، كما أن عصبيته الحموية تجعل الفريقين يفكران بالانقضاض على بعضهما من خلال هذه العصبية.

وفي الوقت الذي وجه النصيريون المؤتمر السابق للحزب بإدانة عفلق لحل الحزب عن طريق جديد الذي حضر ذلك المؤتمر، ها هم الآن يعيدون عفلق للزعامة بعد تبادل الأدوار بين جديد وعمران، ويبعدون الحوراني الشخصية القوية عن الحزب. وبذلك يحس عفلق أنه مدين لهم بذلك.

والشيء الذي مر عليه سيل أو مرره هو أن النصيريين الثلاثة الذين أصبحوا هم محور المؤامرة الجديدة كانت الخطوة الأولى عندهم هي ضرب الانفصاليين بالناصريين. والخطوة الثانية ضرب الناصريين بالبعثيين. والخطوة الثالثة ضرب البعثيين بالنصيريين ليخلو لهم الجو وتسلم لهم البلد. لقد أشار إلى ذلك إشارة خفيفة حين تحدث عن المخادعة بين عفلق واللجنة العسكرية، وتحدث بصراحة حين أكد أن أسرار اللجنة العسكرية لم يطلع عليها رئيس الحزب، فهؤلاء منذ الآن وإلى آخر لحظة ستبقى أسرارهم دفينة لا يطلع عليها إلا شيوخ طائفتهم اذا اقتضى الأمر.

تنفيذ الانقلاب:

يروي سيل قصة الانقلاب فيقول: «في ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣ أفاق الأسد على الأخبار المبهجة للقلب بأن رفاق حزبهم في بغداد قد أسقطوا وصرعوا الدكتاتور العراقي عبد الكريم قاسم. وهكذا فتحت الدراما الدموية في بغداد الطريق أمام نجاح مماثل في دمشق، وأدت أحداث بغداد إلى تغيير مجرى السياسة العربية، فالعراق الذي عزله قاسم ووضعه خارج المسار العربي، عاد ودخل إلى التيار الرئيسي للسياسة العربية، كما أدت الأحداث إلى تغيير حزب البعث نفسه، فبعد أن كان ممزق الأوصال ولا يوجد منه إلا بقايا مهلهلة بدا على حين غرة كقوة رئيسية راديكالية قومية تضاهي عبد الناصر ذاته. وكان هذا التغيير المصيري لمصلحة الرفاق السوريين، وبخاصة للأسد وزملائه، فقد منحهم تشجيعاً معنوياً كبيراً باعتبار أن السوريين خلافاً للبعث العراقي لم يكن عندهم ميليشيا حزبية ولا حزب بالمعنى الصحيح، بل مجرد شبكة عسكرية هزيلة، وقليل من الدعم من قبل المهنيين والطبقة الوسطى.

والواقع أن عفلق كان يعي هذا الضعف، فحذّر الضباط من مغبة العمل المتسرع، إلا أنهم تجاهلوه، فقد كانت اللجنة العسكرية على أهبة الاستعداد لتحذو حذو العراق.

وقرر عصبة الرجال الستة أن يقوموا بانقلابهم في ٧ آذار/ مارس أي بعد مضي شهر واحد على الانقلاب العراقي.

إلا أنه قبل ساعة الصفر داهمت المخابرات العسكرية الشقة التي كان المخططون يجتمعون فيها، فألقي القبض على بعضهم، واختبأ البعض الآخر، وبذل الأسد وبوسائل اتصال هزيلة جهداً هائلاً لإبلاغ الوحدات التي كانت على أهبة التحرك بأن الانقلاب أرجئ يوماً واحداً.

وفي ليلة ٧-٨ آذار/ مارس بدأت الدبابات والمشاة تتحرك للانقضاض على دمشق، وقاد العقيد زياد الحريري لواء من الجبهة مع إسرائيل، بينما تحرك لواء ثان من السويداء في جبل الدروز باتجاه العاصمة بعد أن سيطر على قيادته الضباط البعثيون، وانحصر اللواء المدرع السبعون القوي المتميز في الكسوة بين فكي الكماشة، فاستسلم قائده المقدم عبد الكريم عيد، وفي الحال استولى محمد عمران عليه، وهكذا عاد المخطط الإستراتيجي الرئيسي للجنة العسكرية ببزته الرسمية على رأس أكبر وحدات الجيش هيبة ونفوذاً. وكان في قطنا على المشارف الجنوبية الغربية لدمشق لواء كان من المحتمل أن يكون معادياً، غير أنه لم يتدخل، ربما لأن وداد بشير البعثي الذي كان في مصر مع الأسد -ولكنه تمكن من تفادي التسريح- قد سيطر على مركز اتصالات الجيش في منطقة دمشق.

ومع استثمار الكسوة، وتحييد قطنا سارت قوة الحريرى إلى دمشق، وأقامت حواجز في المدينة، واستولى النقيب سليم حاطوم وهو من أعضاء الحزب الدروز ومن ذوي الرؤوس الحامية على محطة الإذاعة، وتم احتلال وزارة الدفاع ومقر قيادة الجيش بلا قتال، ووضع القائد العام زهر الدين قيد الاعتقال. وكذلك ألقي القبض على الرئيس ناظم القدسي وأكرم الحوراني وحفنة من الشخصيات الانفصالية الأخرى. وفي ذلك الصباح وصل صلاح جديد إلى المدينة على دراجة هوائية ليتسلم مسؤولية مكتب شؤون الضباط، وهو مكتب هام وحساس.

وكانت اللحظة المظفرة للأسد هي لحظة استيلائه على قاعدة الضمير الجوية، حيث كانت القوة الجوية بكاملها متمركزة فيها، والتي كانت تشكل المقاومة الجوية الوحيدة ضد الانقلاب. فقد أرسلت بعض الطائرات لقصف المتمردين. وكانت الخطة تقضي بأن يتحرك الأسد ضد الضمير على رأس سرية من لواء الحريري مستهدفاً الوصول قبل الفجر لتجنب وقوع هجوم عليه من

الجو، ولكن مرة أخرى حصلت مشكلة معرقلة لم تكن في الحسبان، فقد استغرقت المفاوضات في الكسوة أطول مما كان متوقعاً، ولذا فقد كان في وضح النهار عندما أوقف قوته الصغيرة على بعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات من القاعدة التي كانت الدبابات قد وجدت الوقت لتتمركز حولها، وكان الأسد لا يزال بالملابس المدنية.

يقول مستذكراً: «...لقد أرسلت اليهم مبعوثاً برسالة تحذيرية بأنني سأباشر القصف إذا كانت هناك أية مقاومة، وبعد بضع دقائق جاء اثنان من ضباطهم في سيارة ليقترحا التفاوض، فهرعت على الفور معهما إلى حيث آمر القاعدة، وقلت له: لقد انتهى الأمر بالنسبة لكم، ونحن لا نريد أن نقتل أحداً، ولكن ما لم تستسلموا فاننا سنستعمل القوة، ثم نصحته بأن يأمر بإنزال الطائرات.

ويتابع الأسد: وصاح أحد الضباط: «هل تعتقد بأننا سنستسلم للناصريين؟ وكان السائل مسجوناً معي في القاهرة عند انهيار الوحدة، فقلت له: بالأمس فقط كنا في السجن معاً، وأنت تعلم أني بعثي لا ناصري. وتوتر الجو كثيراً. ولكن بعد فترة من الصياح والصراخ المتبادل استسلموا، وكان بإمكانهم أن يقاوموا فالقوات التي تحت تصرفهم كانت أقوى من وحدتي الصغيرة، ولكنهم كانوا جبناء، وعندما دخلت قواتي إلى القاعدة كانت على وشك أن تفتك بالضباط الانفصاليين لولا أن تدخلت وحميتهم».

عند ضحى ذلك اليوم اجتمع صانعو الانقلاب في مقر قيادة الجيش للاحتفال بانتصارهم الخاطف، فالانقلاب كان عبارة عن نزهة دونما كبير مشقة، ودون إراقة دماء. وقوبل من الشعب بلا مبالاة، وقبل أسبوع واحد فقط كان الأسد والآخرون يعيشون في الظل حياة المتآمرين المجهولين المحفوفة بالمخاطر، ويكاد لا يتوفر لديهم هاتف أو سيارة تصل فيما بينهم، وها هم الآن

قد اصبحوا أقوى قوة في السياسة السورية، لقد فازوا في محاولتهم، ونجحت ثورتهم، وكتب أولى بيانات النظام الجديد وأذاعها الدكتور صابر فلحوط، وهو أديب درزي كثير الحماسة، أصبح يعرف باسم شاعر الثورة (وظل لسنوات عديدة فيمابعد مديرا للوكالة الوطنية للأنباء (سانا)) وكان للبيان التاسع الذي أذيع في الساعة ٨.٤٠ صباحاً أهمية خاصة للجنة العسكرية، فقد أعيد بموجبه أعضاؤها الخمسة إلى القوات المسلحة مع حوالي ثلاثين ضابطاً آخرين، ورفّع النقيب الأسد إلى رتبة مقدم، وعين آمراً لقاعدة الضمير الجوية. وكان الأصغر سناً والأقل رتبة من زميليه عمران وجديد، ولذلك كان خلال التخطيط للانقلاب يأتمر إلى حد ما بأمرهما. غير أنه كان الوحيد الذي يملك خبرة الطيران، كما يملك أيضاً أصدقاء وأتباعاً في القوات الجوية. وكان لذلك أهميته وجعله يفوز بآمرية قاعدة الضمير، مما زاد من شأنه داخل اللجنة، ولم تلبث أن أصبحت القوات الجوية في التالي من الأيام إقطاعيته ومجال نفوذه، والمنصة التي وثب منها نحو أشياء أكبر» [1].

وتصوير انقلاب ٨ آذار بأنه تم بعبقرية نادرة من هؤلاء الستة هو تصوير فيه مجافاة للحقيقة، ولكن الأجواء السياسية العامة والتفكك بين الضباط في سورية وتشرذمهم العجيب هو الذي أدى إلى نجاح الانقلاب، وكما يقول زهر الدين: «وخلاصة القول: يكفيك أيها القارئ أن تعلم بأن القطعات التي كانت مكلفة بالدفاع عن العاصمة كانت تزيد في تعدادها عن العشرين ألف مقاتل، بينما القطعات التي دخلت دمشق صباح ٨ آذار لم تكن لتزيد عن الألف مقاتل، مع فارق كبير بالمعدات لصالح القطعات المدافعة، وإن دلّ ذلك على شيء، فإنما

---

(١) الأسد لباتريك سيل/ ١٢٨-١٣٢.

يدل على التواطؤ الواضح.

أما خاتمة القدر فكانت تلك الاشاعات التي اختلقها بعض المغرضين والتي قالوا فيها إن زهر الدين هو الذي تخاذل وجبن ولم يعطنا أوامر بالمقاومة» [(١)].

ومسؤولية زهر الدين كما ذكر في كتابه هي مسؤولية غير مباشرة. وذات دور كبير في إنجاح الانقلاب، فهو الذي رفض ابتداء تسريح ١٢٠ ضابطاً واكتفى بتسريح نصفهم، ولا شك أن هذا النصف الباقي بعناصره المنبثة بكافة القطعات قد ساهم مساهمة فعالة في إنجاح الانقلاب، إذ أن هذه العناصر كلها من البعثيين او المتعاطفين تعاطفاً تاماً معهم.

وهو الذي رفض أن يغير ضباط قيادته والذين جبنوا أمام محاولة انقلاب النحلاوي الثاني، وكان من أهم المطالب هو تغيير ضباط القيادة جميعاً، وحافظ عليهم فخذلوه وغدروا به، وهو الذي حافظ على الثلاثة الشيوعيين في قيادته: خليل الموصلي في إدارة شؤون الضباط، وعدنان عقيل رئيس شعبة المخابرات، ووديع نصيبري آمر لواء الطيران. وباعترافه هو أن عدنان عقيل هو الذي عمّى عنه كل خطوات الانقلاب حتى تم نجاحه.

وهو الذي سكت على خليل موصلي الآنف الذكر، والذي قام بإبعاد كافة الضباط الدمشقيين عن مدينتهم، وجاء بالحاقدين عليها ليدافعوا عنها بالاتفاق مع اللواء نامق كمال رئيس الأركان، فماذا فعل أمام هذه الظاهرة؟ لم يفعل شيئاً إلا إبداء الملاحظة.

ولا بد من الإشارة إلى أن دور الدروز واضح وقوي في المشاركة في انقلاب ٨ آذار، فهم العنصر الأول فيه، لأن النصيريين كان قد شملهم التسريح، ولم

---

(١) مذكراتي عن فترة الانفصال لزهرالدين/ ٤٢٨.

يشمل الضباط الدروز. ومن هنا فلا نستبعد أن يكون راضياً بما حصل طالما أن طائفته لها القدح المعلى في الانقلاب.

ولا ننسى أخيراً المعالجة المائعة لكافة المحاولات الانقلابية، فمحمد عمران المخطط الأول في انقلاب ٨ آذار هل اعتقل بعد أن كشف دوره في المحاولة التي سبقتها بعدة شهور؟ فلماذا لم يعتقل؟ وإذا اعتقل فلماذا أفرج عنه؟ وذلك منذ تموز ١٩٦٢. وحافظ أسد الذي شارك في عصيان حلب، لماذا بقي حراً لم يمس بعد تلك المشاركة.

إننا نعتقد أن لزهر الدين دوراً كبيراً في نجاح الانقلاب نتيجة سياسته الضعيفة المتخاذلة مع أعداء العهد، وهو الذي مكنهم من ذلك، إن لم نقل أنه جزء من اللعبة، أتي به لتمرير مرحلة، ونفذ الخطوات المطلوبة لها ليفسح المجال أمام دولة طائفية جديدة للدروز الدور الكبير فيها.

والسفارة الأمريكية التي لم تكن غائبة عن الساحة آذتها تلك المعركة المشرفة، أي معركة تل النيرب مع إسرائيل، والتي خاضتها القوات السورية ببسالة نادرة «فهي من المعارك التي تشرف الجيش العربي السوري، وتشرف الأمة العربية بأجمعها، لأن الخسائر التي تكبدها اليهود في هذه المعركة والتي شاهدناها ولمسناها (الكلام لزهر الدين) إضافة إلى التي أخبرنا عنها الجنرال فون هورن كبير مراقبي الهدنة، والتي لحقت بالمستعمرات اليهودية، قد تجاوزت الأربعمائة قتيل، عدا عن الخسائر المادية، وهي عبارة عن معمل، ومولدات كهرباء، ومزارع أبقار، وغيرها، يضاف إلى ذلك الغنائم الحربية التي ربحناها. أما خسائرنا فكانت أحد عشر شهيداً منهم المرحوم الملازم دباس وعشرة جرحى»[1].

---

(١) مذكراتي عن فترة الانفصال لزهر الدين/ ١٨٢.

أقول: هذه المعركة قد لفتت أنظار أمريكا على خطورة الوضع، فطيلة عهد الوحدة لم يقع أي اشتباك مع إسرائيل، وأرادت أمريكا أن تدجّن سورية. وتبعد هؤلاء الضباط عن الساحة، وتعمل جاهدة على تفكيك الجيش السوري، وليس بين أيدينا دليل مادي على الدور الأمريكي في الانقلاب. وكل ما بين يدينا هو قول زهرالدين في مذكراته: «ناصريون وبعثيون وانتهازيون وأمريكيون يدبرون عصيان حمص» وقوله: «السفارة الأمريكية في دمشق وقنصليتها في حلب، لأن هم أمريكا الاستعمارية الوحيد وشغلها الشاغل كان وما يزال يهدف إلى حماية إسرائيل ومصالحها. وقد أدركت أمريكا أن استقرار سورية يعني القضاء على إسرائيل، وعدم الاستقرار يعني تطور إسرائيل وترسيخ أقدامها في الأرض التي اغتصبتها، وعلى هذا الأساس كانت الشخصيات الأمريكية لا تنقطع عن دس الدسائس على سورية كما كان شأنها قبل الوحدة وفي عهد الانفصال. هذه هي الفئات التي تعاونت لإزالة العهد الذي أطلقوا عليه اسم الانفصال. وقد علمنا بأن الممول والمخطط المستتر هو أمريكا. أما المخطط الممول والظاهر فكان القاهرة. وقد دلت مباحثات الوحدة التي أجريت في القاهرة بعد حركة ٨ آذار ١٩٦٣ على صدق ذلك، إذ اعترف الرئيس عبد الناصر بأنه وضع مبلغاً ضخماً من المال تحت تصرف الأستاذين عفلق والبيطار لمقاومة العهد في سورية» (١).

ولا نشك أبداً أن خوف أمريكا من انتخابات حرة في سورية يصل الإخوان المسلمون فيها والتيار الإسلامي إلى الحكم قد حدا بالجميع إلى تنفيذ الانقلاب قبلها، وبالسرعة المطلوبة. فقد كان عدد نواب الكتلة الإسلامية لا يتجاوز في المجلس النيابي في عهد الانفصال عشرين نائباً، ومع ذلك برز الإخوان

---

(١) المصدر السابق/ ٢٠٨-٢٠٩.

المسلمون علىالساحة نداً عنيفاً للاشتراكيين. وأصبح القرار السياسي لا يمكن أن يمر دون موافقة الأستاذ عصام العطار المراقب العام للإخوان المسلمين عليه، فكان العظم والعطار والحوراني هم أصحاب القرار السياسي في سورية في أواخر عهد الانفصال، حتى إن انقلاب ٢٨ آذار ١٩٦٢ وانقلاب ٨ آذار عام ١٩٦٣ لم يكن يجرؤ على مواجهة التيار الاسلامي. فلم يجرؤ النظام بعد هذه الانقلابين أن يعتقل أحداً من الكتلة الإسلامية، أو ينفذ في أحد منهم قرار العزل السياسي، والصحيفة الوحيدة التي بقيت مستمرة بعد انقلاب ٨ آذار من الصحف التي كانت تصدر في زمن الانفصال هي صحيفة «اللواء» الناطقة باسم الإخوان المسلمين، أما البعث والوحدة فهما مجلتا العهد الجديد.

بقي علينا أن نسأل بصورة هادئة: ما هي مسؤولية الحركة الإسلامية تجاه الأحداث، وخاصة بعد المنعطف الجديد في ٨ آذار الذي غيّر هوية سورية كاملة؟

نحن نعذر الحركة الإسلامية لحد ما في عدم تغلغلها في الجيش، فمنذ الاستقلال وحتى ساعتنا هذه لم تأت فترة لم يكن الطريق مسدوداً فيها أمام الإخوان المسلمين في الجيش، وكان من الاستحالة بمكان وصول عنصر واحد إليه من الإخوان.

وقلنا: «لحد ما» لسببين:

السبب الأول: هو أن الحركة الإسلامية لم تضع الخطة المقابلة لهذا السد المنيع دونها في الجيش، بحيث تتمكن من مواجهته أو القفز والالتفاف عليه. وطالما أنها أدركت طبيعة الجيش وتركيبته وسيطرة المنحرفين والشاذين خلقياً عليه من جهة، والطائفيين من جهة أخرى، كان عليها أن تعمل لإيصال ما يمكن إيصاله من الضباط بحيث تربيهم منذ صغرهم في السر، دون أن يظهر أي ارتباط

لهم معها في أي مكان، وتعدّهم للوقت المناسب. وإن كانت فعلت هذا في وقت متأخر وبعد أن فات الأوان.

السبب الثاني: أنها خوفاً على شبابها من الانحراف السلوكي والفكري في الجيش لم تكن توجههم أو تشجعهم للانخراط في الجيش، أو تتبنى دخولهم، وكثير من هؤلاء الشباب أقدموا على الجيش بمبادرة فردية، دون خطة مركزة، ولم يكن بارزاً في حياته المدنية بصلته بالإخوان المسلمين، أو انه صلح وهو داخل الجيش، وكانت تعتمد الوصول للحكم عن طريق الديمقراطية، فعندما كانت تجد جو الحرية قائماً سرعان ما تكشف كل شبابها وأعضائها، وما أسهل القضاء عليهم بعد ذلك عندما تخنق هذه الحرية.

ولا شك أنه قد مرّت فترة ذهبية للضباط السنة في منتصف العقد الثاني من الخمسينات، ولو كانت الخطة مركزة والتنظيم الإسلامي للشباب المعد للجيش قائماً لأمكن دخول العشرات بل المئات منهم في الجيش. ومن أجل هذا كنا نرى الصراع كله حتى انقلاب ٨ آذار صراع سنياً - سنياً، ومع ذلك فلا نرى أثراً للتيار الاسلامي فيه، وعهد الوحدة بالذات كان عهداً ذهبياً لدخول الشباب الإسلامي في الجيش لو كان غير واضح الولاء للحركة الإسلامية. وحتى عهد الانفصال الذي كان للإخوان المسلمين دور سياسي فيه، كانوا عاجزين عن إدخال شبابهم فيه. فرغم النجاح في كل الفحوص الطبية كان التقرير السياسي يقول عن المتقدم للجيش: من الإخوان المسلمين، أو متستر بستار الإخوان المسلمين. ليمنع من دخول الجيش.

الأشهر الخمسة الأولى بعد الانقلاب

الخطوة الأولى:

يقول سيل: «كان للبيان التاسع الذي أذيع في الساعة ٨.٤٠ صباحاً أهمية خاصة، فقد أعيد بموجبه أعضاءاللجنة العسكرية الخمسة إلى القوات المسلحة مع حوالي ثلاثين ضابطاً آخرين، ورفع النقيب الأسد إلى رتبة مقدم، وعين آمراً لقاعدة الضمير الجوية، وكان الأصغر سناً والأقل رتبة من زميليه عمران وجديد» [١]. «وفي ذلك الصباح وصل صلاح جديد إلى المدينة على دراجة هوائية ليتسلم مسؤولية مكتب شؤون الضباط، وهو مكتب هام وحساس» [٢]، «وفي الحال استولى محمد عمران عليه (اللواء السبعين)، وهكذا عاد المخطط الإستراتيجي الرئيسي للجنة العسكرية ببزته الرسمية على رأس أكبر وحدات الجيش هيبة ونفوذاً »[٣].

لقد استطاع هؤلاء الثلاثة أن يمسكوا أخطر المواقع، فقاعدة الضمير تؤمن الحماية الجوية للعاصمة، واللواء المدرع السبعون هو أقوى الألوية وأقربها من دمشق فيما لو دهمها خطر انقلاب معادٍ لهم، ومكتب شؤون الضباط هو الذي يملك التسريحات والتعيينات في الجيش.

الخطوة الثانية:

«واجه الحكام الجدد مهمة تسيير الجيش، بل إدارة الدولة نفسها، ولم يكن لديهم الكثير من التجربة أو من التدريب من أجل هذه المهمة، وكان أول عمل قاموا به هو وضع السلطة بين هيئة سرية مؤلفة من عشرين عضواً هي المجلس

---

(١) الأسد لباتريك سيل/ ١٣١.

(٢) المصدر نفسه/ ١٣٠.

(٣) المصدر نفسه/ ١٣٠.

الوطني لقيادة الثورة، منهم اثنا عشر بعثياً وثمانية من الناصريين والمستقلين، ويعكس هذا التشكيل الفئات التي عملت معاً لإسقاط الرئيس القدسي، وظلت تركيبة المجلس لعدة شهور لغزاً بالنسبة للجمهور. وفي صبيحة الانقلاب أمر الضباط صلاح البيطار بتشكيل حكومة لتنفيذ سياسة المجلس الوطني لقيادة الثورة، وبعد بضعة أيام ولأغراض شكلية إلى حد كبير، تم توسيع ذلك المجلس ليضم حفنة من المدنيين، عفلق والبيطار نفسه، ومنصور الأطرش، وكذلك قادة ثلاث مجموعات ناصرية منشقة. ولكن المدنيين منذ البداية كانوا مجرد وجوه وصور رمزية، كانت السلطة في يد العسكر، ويستذكر منصور الأطرش ابن الزعيم الدرزي سلطان باشا -وهو من خريجي السوربون وحزبي قديم- كيف كان الأعضاء المدنيون في مجلس قيادة الثورة يضيقون ذرعاً بالأساليب السرية التي كان ينتهجها الضباط، فيقول عن طريقة عمل المجلس في أيامه الاولى: وكان الضباط يتركوننا نتكلم مع أنهم حسبما اكتشفنا فيما بعد، يكونون قد اتفقوا فيما بينهم سلفاً على القرارات التي ستتخذ، وذات يوم فقدت أعصابي وقلت لهم: لماذا لا يتكلم هؤلاء السادة؟ هل لي أن أقترح أن يعينوا ضابط ارتباط ليوصل لنا آراءهم؟ وتنازل عمران في النهاية، وأعطانا نحن المدنيين بعض المعلومات غير الواضحة عن مخططاتهم. أما في اللجنة العسكرية فلم يبد آنذاك ما يشير إلى الشجارات في داخلها، والتي قدر لها فيما بعد أن تدمرها، وكما كان عليه الأمر في القاهرة كانت القرارات تتخذ بشكل جماعي وسري.

كانت السياسة في الأيام الأولى للثورة قضية مساومة على المناصب وتقاسمها بين فئات الجيش المختلفة، في جلسات غالباً ما كانت تستغرق الليل بطوله، ولكي يغطوا شقاق خلافاتهم بالورق اختاروا لمنصب القائد العام ورئيس مجلس قيادة الثورة ضابطاً محبوباً ولا يشكل خطراً على أي منهم، هو العقيد

لؤي الأتاسي، الذي أطلقوا سراحه من السجن في الثامن من آذار/ مارس في يوم الثورة التي لم يشترك فيها، ورفعوه إلى رتبة فريق، ورفع إلى الرتبة نفسها أحد مدبري الانقلاب الرئيسيين: زياد الحريري الذي حصل على منصب رئيس الأركان، ولما كان الأتاسي والحريري لا يملكان أي قاعدة للقوة السياسية أو الشخصية في القوات المسلحة، فإن التنافس الحقيقي كان بين البعثيين والناصريين.

ولقد أمن الضباط الناصريون الحصول على مناصب ملفتة للنظر، فمحمد الصوفي أصبح وزير الدفاع، وراشد القطيني نائباً لرئيس الاركان، غير أن اللجنة العسكرية تأكدت من كون البعثيين يمسكون المقابض والمفاصل الحقيقية للقوة والسلطة، وكخطوة أولى وسعت اللجنة نفسها، فضمت خمسة ضباط آخرين. وبذلك قوّت فئة البعثيين داخل المجلس الوطني لقيادة الثورة. ومنذ ذلك الحين أصبحت اللجنة العسكرية مجلساً داخل المجلس، تقرر خط سياستها قبل اجتماعاته، وتضع رجالها في المواقع المؤثرة.

حصل عمران على قيادة اللواء الخامس في حمص، وانتقل في حزيران إلى قيادة اللواء السبعين المدرع، الذي كان قد استولى عليه مدة قصيرة خلال الانقلاب. وفي مكتب شؤون الضباط شرع صلاح جديد في تطهير الأعداء وترفيع الأصدقاء، فأعاد إلى الخدمة الفعلية أعداداً كبيرة من ضباط الاحتياط البعثيين، كل ذلك بأسلوب هادئ ورشيق، أما أحمد سويداني الذي جندته اللجنة العسكرية، فقد سيطر على المخابرات العسكرية، وأما الكلية العسكرية بحمص، الحاضنة التي كانت ترعى وتفرخ قوة الحزب وسلطته، فقد وضعت هي الأخرى في أيد بعثية، ولدى التخرج من الثانويات في ذلك الصيف قبل في الكلية مئات من الطلاب البعثيين ذوي الخلفيات المتواضعة، وكان من بينهم رفعت الأخ

الأصغر لحافظ الأسد، ونظمت لهم دورات مكثفة لتمكينهم من الحلول محل أعدائهم الطبقيين. أما الأسد فقد أصبح من الناحية الفعلية (إن لم يكن من الناحية الاسمية) القائد الحقيقي للقوة الجوية» [1].

إن عمران وجديد والأسد - النصيريين الثلاثة - لن يتمكنوا من أن يحكموا سورية وحدهم، فلذلك وحسب تعليمات الطائفة، امتدوا أولاً لإخوانهم الإسماعيليين الطائفة الثانية، وضموا اثنين منهم إلى طبقتهم العسكرية وهما عبد الكريم الجندي وأحمد المير. ومع ذلك فلن يستطيع هؤلاء الخمسة أن يتحكموا في مصير سورية. وقد ربحوا عودتهم إلى مواقعهم في الجيش، ولا ندري ما هي المواقع التي احتلوها بعد ثورة الثامن من آذار مباشرة، لكن مع الثامن من آذار وحسب توجيهات شيوخ الطائفة، كان التعاون مع الطائفة الثالثة من الأقليات: الدروز، وانضم اثنان للجنة العسكرية، هما حمد عبيد وسليم حاطوم، مع إضافة نصيريين آخرين هما عثمان كنعان، وسليمان حداد، وبذلك أصبح عناصر الطوائف الثلاثة هم تسعة، مقابل ستة من السنيين، هم موسى الزعبي ومصطفى الحاج علي وأحمد سويداني ورباح الطويل وأمين الحافظ، وحسين ملحم . لكن المعلومات التي أكدها الأسد حسب رواية سيل أن اللجنة لم تبلغ في أقصى توسعاتها ثلاثة عشر، وسيكون الحكم الآن على أن أعضاء اللجنة العسكرية ثلاثة عشر فيها أربعة سنيون، إذ لم تكن عضوية أمين الحافظ وحسين ملحم موضع اتفاق بين مؤرخي تلك المرحلة وما قبلها. وكما ذكر من قبل، فقد توزعوا المواقع المهمة في الجيش، فقد كان منهم:

١-محمد عمران: قائد اللواء الخامس في حمص، نصيري.

---

(١) الأسد لباتريك سيل/ ١٣٢-١٣٤.

٢-صلاح جديد: مدير شؤون الضباط، نصيري.

٣-حافظ الأسد: قائد قاعدة الضمير الجوية، نصيري.

٤-سليم حاطوم: قائد قوات البادية، درزي.

٥-أحمد سويداني: مدير المخابرات العسكرية، سني.

وقد أشرنا سابقاً إلى وجود احتمال لأن يكون من أعضائها فريد الهنيدي، وهذا كان قائد الشرطة العسكرية.

وحسب العرض السابق فاثنا عشر بعثياً هم أعضاء اللجنة العسكرية يمثلون البعث في المجلس الوطني لقيادة الثورة مقابل ثمانية ضباط من الناصريين.

لقد كان القرار ابتداء بين النصيريين، فهو التجمع الأكبر في المجلس الوطني في تجانسه وطائفيته، ثم بيد الطائفيين من الطوائف الثلاثة الذي شكل تسعة من عشرين. ثم بيد البعثيين الذين شكلوا اثنا عشر من عشرين. وسنجد أن التغير سيأتي فيما بعد على هذا التركيب نفسه.

«وما لبث عدد أفراد الأقليات أن ازداد كثيراً على حساب الضباط السنيين في سلك الضباط السوري، والسبب الرئيسي لهذا هو أن قادة الانقلاب العسكريين البعثيين استدعوا بسرعة العديد من احتياطي الضباط وصف الضباط ممن تربطهم بهم الولاءات العائلية أو العشائرية أو الطائفية، وذلك لتقوية مراكزهم المكتسبة حديثاً، ولم يكن غريباً أن يكون معظم الذين تم استدعاؤهم من الأقليات، ولا سيما من العلويين والدروز والإسماعيليين، فقد كان معظم أعضاء اللجنة العسكرية البعثية التي تشرف على نشاطات التنظيم العسكري من أبناء الأقليات. وقد وصفت وثيقة حزبية داخلية فيما بعد أسلوب التجنيد بقولها: ألحت ظروف الثورة الأولى ومرحلتها الصعبة على دعوة كبير من العسكريين الاحتياطيين (ضباط وضباط صف) حزبيين ومؤيدين لملء الشواغر التي نجمت عن تصفيات

الخصوم، ولتدعيم مواقف الثورة وحمايتها، ولم يسمح ذلك الإلحاح آنذاك باعتماد أسس موضوعية في عملية الاستدعاء، وإنما كانت عوامل الصداقة والقرابة وأحياناً مجرد المعرفة الشخصية هي الأساس، مما أدى إلى تسرب عدد معين من العناصر الغريبة البعيدة عن منطق الحزب ومنطلقاته، وسبب بالنتيجة وبعد تجاوز المرحلة الصعبة استخدام هذا الموضوع سلاحاً للطعن في نوايا بعض الرفاق والتشكيك بهم». ومن الواضح أن الجملة الأخيرة هي رد على الاتهام بأن بعض أعضاء اللجنة العسكرية ملأوا الجيش بأبناء طوائفهم وفق منطلق طائفي. ويذكر أحد التقارير أن معظم الضباط الذين ملأوا الثغرات الناتجة عن تطهير المعارضين السياسيين في الجيش كانوا من العلويين الذين احتلوا حوالي نصف المناصب التي خلفها وراءهم سبعمائة ضابط مسرح. ولا ننسى أن اللجنة العسكرية البعثية كانت تتألف وقت الانقلاب من أربعة عشر عضواً منهم خمسة علويون» [1].

فقد كانت الخطوة الثانية تجنيد مئات من البعثيين من خلال الكلية العسكرية وأغلبيتهم الساحقة من النصيريين.

المواجهة مع الناصريين:

بالاتفاق مع الناصريين تم القضاء على الانفصال والانفصاليين، والآن جاء دور الناصريين مع الوضع بالاعتبار أن الانفصاليين والناصريين هم من السنة، وليس بينهم إلا أفراد قلائل من غيرهم.

يقول سيل: «وتابع الأسد ورفاقه بناء قلعة تمتنع على الهجوم الخارجي،

---

(١) الصراع على السلطة في سورية لنيكولاس فان دام/ ٤٩-٥٠.

ولكنهم ظلوا بحاجة إلى الشخص الواجهة فهم جميعاً ذوو رتب صغيرة، وغير معروفين تماماً، وهذا لا يمنحهم مصداقية في أعين الناس كي يكونوا حكام سورية الحقيقيين، وفي هذه الظروف كانت ضربة المعلم التي قامت بها اللجنة العسكرية هي تأمين تعيين العقيد أمين الحافظ في المنصب الحساس: وزيراً للداخلية. كانت اللجنة العسكرية قد وضعت عينها منذ سنوات على هذا الضابط الصريح الصارم الجاد العنيد. كان الحافظ سنياً وابن شرطي من حلب. وفي كانون الأول ١٩٦١ قام نظام القدسي بنفي أمين الحافظ كملحق عسكري في بيونيس آيرس حيث كان موجوداً عندما استدعي للعودة إلى دمشق بعد انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣، فأصيب بنوع من الذهول حينما وجد نفسه يرقى إلى رتبة فريق ويعهد إليه بمنصب وزير الداخلية، بالرغم من أنه لم تكن له علاقة لا بالحزب [١] ولا باللجنة العسكرية. كانت اللجنة تريده أن يكون الواجهة لها وتبقى هي التي تحرك الخيوط من ورائه.

كان انتصار البعث في كل من دمشق وبغداد يهدد بأن يحشر عبدالناصر بين المطرقة والسندان كما قال، فإذا ما اتحدت دمشق وبغداد فإن نفوذ عبد الناصر سينحسر عن آسيا العربية... وتحت ضغط التطلع الشعبي العام شرع في محادثات للوحدة في غضون أسبوع واحد من الانقلاب السوري، وكان الهدف الظاهر هو اقامة دولة عربية اتحادية، وأخيراً وفي ١٧ نيسان/ ابريل ١٩٦٣ بعد شهر من المحادثات المتقطعة أعلنت الخطوط العامة لدستور ينص على جمهورية عربية متحدة جديدة ثلاثية، تولد في أيار/ مايو سنة ١٩٦٥... ولم يؤمن أي من المتفاوضين الرئيسيين بأن الخطة لها مستقبل... وبعد محادثات القاهرة

---

(١) وينفي الفريق أمين الحافظ هذه المزاعم ويؤكد أنه حزبي قديم ملتزم مع البعث.

أصبحت تكتيكات عبدالناصر أكثر خشونة. فقد أطلق حملة دعائية ضد البعثيين السوريين، وشجع أنصاره ليتظاهروا في دمشق، وهدد بسحب الناصريين من الحكومة السورية، وصار ميشيل عفلق هدفاً لسخرية لاذعة، فقد وصف وصفاً ساخراً بأنه يتصرف كأباطرة الرومان المجانين، وبأنه قبرصي مشكوك في صحة انتمائه العربي، ولديه من الوقاحة الحمقاء ما يجعله يتطلع إلى زعامة العرب.

كانت القوة الناصرية تقوم على بضع عشرات من الضباط، وثلاثة تجمعات سياسية مدنية كان أهمها حركة القوميين العرب، وهي حزب قومي عربي، وكانت هذه الحركة أخطر منافسي البعث في سورية والعراق وفي معظم الأقطار العربية، إذ أنها كانت تنظم في صفوفها بصورة رئيسية السنيين [1] من يمين الوسط ذوي المنحى القومي.

وجد الأسد ورفاقه في أعمال الاهتياج التي عمد اليها مؤيدو عبدالناصر نذير خطر، فقاموا بعمل ما يمكن أن يوصف بأنه انقلاب آخر. فما بين ٢٨ نيسان/ ابريل و٢ آيار/ مايو ١٩٦٣ قاموا بتسريح أكثر من خمسين من الضباط الموالين لمصر، مما حدا بالناصريين البارزين وزير الدفاع محمد الصوفي، ونائب رئيس الأركان راشد القطيني على الاستقالة من مجلس قيادة الثورة احتجاجاً على ذلك، ولحق بهما خمسة وزراء ناصريين، ومن ثم نظم الناصريون اضطرابات واسعة النطاق في دمشق وحلب يومي ٨ و٩ آيار/ مايو. وهنا طلبت اللجنة العسكرية من وزير الداخلية أمين الحافظ أن يقمع الاضطرابات ويعيد النظام. فكان أن قُتل خمسون شخصاً بالرصاص وأغلقت مكاتب حركة القوميين العرب، وأغلقت جريدتهم، فهرب بعض أعضائها، وألقي القبض على الآخرين، وحكموا بالسجن

---

(١) رغم أن من مؤسسيها الرئيسيين نصر انيين هما جورج حبش ونايف حواتمة، ولكنها استغلت عواطف العامة مع عبد الناصر، وبرزت بثوب سني.

لمدة طويلة. وتم تطهير جميع القطاعات العامة من الموالين لعبد الناصر، وحل محلهم بعثيون. وفي ١٨ تموز/ يوليو قام الناصريون بقيادة جاسم علوان وبدعم من حركة القوميين العرب، والمخابرات المصرية بهجوم في وضح النهار على محطة إذاعة دمشق، ومبنى الأركان العامة. فخرج أمين الحافظ ورشاشه بيده ليقود عملية الدفاع، مما أدى إلى قتل وجرح المئات، وكثير منهم أبرياء وقعوا في نيران المشتبكين، وذلك قبل وصول دبابات البعثيين، وعناصر الحرس القومي وسيطرتها على الموقف، وتمكن علوان من الإفلات. وخلال ساعات مثل سبعة وعشرون ضابطاً أمام محاكم عسكرية، وأعدموا على الفور في نفس الزمان والمكان. وكان ذلك خروجاً عن عرف يقضي بنفي الخاسرين إلى سفارات في الخارج. وفي ٢٢ تموز/ يوليو هاجم عبد الناصر البعثيين السوريين، ووصفهم بأنهم فاسقون وقتلة، وأعلن رسمياً انسحابه من اتفاقية ١٧ نيسان/ أبريل، القاضية باقامة الوحدة، وكان هذا الافتراق النهائي» [1].

إنها خطوات متلاحقة تقرر من قيادة اللجنة العسكرية الثلاثية، محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد، تطلع ما تراه مناسباً لزملائها وتخفي ما تراه مناسباً. فتسريح خمسين ضابطاً ناصرياً لم يتم من خلال المجلس الوطني لقيادة الثورة، والذي يوجد فيه ثمانية من الضباط الناصريين، انما تم بقرار نصيري، فالقضاء علىالناصريين السنة هدف رئيسي، إن تم بدون مقاومة فهو المطلوب، وإن احتاج إلى مقاومة فمخلب القط موجود وهو أمين الحافظ، والعباءة موجودة وهي البعث. وعلى الطريقة السنية في الميوعة واجه محمد الصوفي وراشد قطيني هذا الموقف على الطريقة النحلاوية في الانسحاب أو الاستقالة. لقد كان قطيني أعلى

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ١٣٥-١٣٩ مقتطفات.

منصباً من جديد مدير شؤون الضباط، والأصل أن لا يتم التسريح إلا بموافقته. ورئيس الأركان إلى الآن هو زياد الحريري فكيف تم الأمر؟ لا ندري. وكان الاحتجاج أو الاستقالة هي الطريقة المهذبة السنية لمعالجة الموقف مع انسحاب الوزراء الناصريين الخمسة. وهو الذي يريده النصيريون الثلاثة أصحاب القرار الخفي بل ساعدوهم بذلك على تنفيذ خطتهم.

وكانت الخطوة الثانية هي تحرك أصحاب الدم والحديد والنار، أو أصحاب (وحدة - تحرر - ثأر) كما هي أهدافهم، تحرك القوميون العرب في المستوى الجماهيري، فقدّم النصيريون الزهاد في الحكم الفريق أمين الحافظ ليقمع المظاهرات بالرصاص، لا بد من الإرهاب وليكن بطله الحافظ، الضابط الصارم العنيد الذي لن يضحي بالبعث تحت أقدام الناصريين، ولتضرب السنة بالسنة وهم يتفرجون، وهم يوقدون النار من الخلف ويضرمون الحطب.

وكانت الخطوة الثالثة من عشاق عبدالناصر الذين يرون به قدر الأمة وبطلها:

إن كان كفراً حب عبد الناصرفليشهد الثقلان أني كافر

هؤلاء الناصريون قاموا بتنظيم انقلاب اشترك فيه مئات الضباط، وحيث إنهم دعاة قومية عربية، ووحدة صوفية، فهم ضد الطائفية، ولن يفرقوا بين الوحدويين لأن الطائفية خيانة. ووجدوا في الضابط النصيري محمد نبهان، روحاً ناصرية قوية، واندفاعاً وحدوياً عظيماً فأدخلوه في تشكيلاتهم، بل لعله في قيادتهم، وتعرف من خلال ذلك على جميع الضباط الناصريين السنيين في الجيش. وأعلم قيادته النصيرية بالحركة قبل وقوعها. وحسب الفريق الحافظ أنه يحافظ ببطولته النادرة على البعث، وقد فاته أنه يعدم نفسه على مذبح النصيرية، فقاتل ببسالته النادرة، وتحركت القوات البعثية والتي يشارك فيها الدروز في هذه المرحلة بنفس التكافؤ مع النصيريين والإسماعيليين. فالطوائف الثلاثة لها القدح المعلى في

اللجنة العسكرية، وفرّ جاسم علوان وألقي القبض على اللواء محمد الجراح، ثم ماذا؟ كانت الضربة القاضية.

فلم يضعف أمين الحافظ حقناً للدماء ويغادر البلاد كما فعل صاحبنا النحلاوي، إنما قاتل وقاد سبعة وعشرين ضابطاً سنياً إلى المقصلة. وتم تسريح ألف ومائة ضابط كانت أسماؤهم جميعاً عند محمد نبهان النصيري الذي زج في السجن على أعين الناس. وتتراوح الأرقام بين سبعمائة ضابط وجندي وبين ألف ومائة. وهذا الرقم هو الذي يقدمه الناصريون. وتم تسريح ألف ضابط وضابط صف سني ليحل محلهم علويون. فقد قبلوا بالمئات في الكلية العسكرية في صيف ١٩٦٣. وجديد الضابط الرهيب الذي يملك شؤون الضباط عنده هدف محدد: أن يحول الجيش إلى جيش طائفي نصيري. وفي غفلة من الأمة - وفي خلسة من الزمن - ضرب بمعوله الرهيب هذا الجيش. وسرح المئات من السنة تحت شعار الناصرية، وأدخل المئات من النصيريين تحت عباءة البعث.

إنها أشهر فقط وترنح الضباط السنة وترنح الجيش السني من ضربة جديد، وهو الزاهد الصوفي المترفع عن السلطة. إنما تم التنفيذ على يد الفريق السني أمين الحافظ، فهو حتى هذه اللحظة لم يَغدُ بعد عضواً في اللجنة العسكرية، ولكنه الزعيم الأعلى.

وعلى طريقة المدرسة النحلاوية خوفاً من إسالة الدماء، والطريقة الشيشكلية حقناً للدماء، انسحب بأدب وانتظام اللواء زياد الحريري الذي صار وزيراً للدفاع بعد استقالة الصوفي ورئيساً للأركان، «وعندما تهور الحريري بمغادرة القطر في ٢٣ حزيران ١٩٦٣ على رأس وفد للجزائر استغلت اللجنة العسكرية غيابه لتقوم بتطهير ونقل خمسة وعشرين من أهم مؤيديه، وعرضت عليه كمكافأة ترضية وظيفة ملحق عسكري في واشنطن، ولكنه اختار التخلي عن السياسة والتقاعد في

المنفى بباريس. واستقال بعده لؤي الأتاسي رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة. انسحب الحموي الحريري، والحمصي الأتاسي، تاركين الساحة للبطل الجديد الحافظ، وليقفز جديد من موقع مدير شؤون الضباط إلى رئاسة الأركان ويملك مقود البلد بيديه، وذلك في آب ١٩٦٣.

«وليس غريباً أن يلعب الضباط العلويون دوراً هاماً في الجيش، حتى وصل الأمر إلى حد احتكار القيادة العليا للجنة العسكرية في أيدي ثلاثة علويين، هم: محمد عمران وصلاح جديد وحافظ أسد. وكان صلاح جديد رئيس أركان الجيش ما بين آب ١٩٦٣ وأيلول ١٩٦٥، وأصبح الأسد قائد القوى الجوية، أما عمران فقد قاد اللواء السبعين المتمركز جنوبي دمشق والذي بقي لفترة من الزمن ركيزة المنظمة البعثية، وقد لعب ثلاثتهم عبر هذه المراكز العسكرية الهامة دوراً هائلاً في التحول البعثي الشامل للقوات المسلحة السورية بعد ٨ آذار ١٩٦٣.

وقد تمكن قادة اللجنة العسكرية من تعزيز مراكزهم الجديدة بسرعة، وفق تنظيمهم الجديد وتخطيطهم واستدعائهم أنصارهم العسكريين. وقد نجحوا خلال أشهر قليلة في تطهير أبرز معارضيهم العسكريين من الناصريين والوحدويين، الذين شاءت الظروف أن يكون معظمهم كذلك من السنيين. وقد وصل التفرد البعثي بالسلطة إلى ذروته في ١٨ تموز ١٩٦٣، حينما قامت مجموعة من الضباط الناصريين ومعظمهم من السنيين بزعامة جاسم علوان بانقلاب فاشل تم قمعه -ليس دون إراقة دماء- على يد ضباط ينتمي معظمهم إلى الأقليات، ويلعب العلويون منهم الدور الرئيسي. وقد استغل الخصوم السياسيون السنيون ما حصل رغم بعد علاقته عن الطائفية للتنفيس عن استيائهم من البعث، ومن أبناء الأقليات بين الحكام الجدد، وحاولوا تشويه سمعة حزب البعث وإضعاف مركزه في أعين الأغلبية السنية، مدّعين أن التطهيرات المتتالية

للضباط السنة قامت أساساً على دوافع طائفية، رغم اشتراك ضابط علوي كبير في الانقلاب الناصري المحبط. وقد فسر هؤلاء المعارضون في حماسهم الشديد لتتبع المكائد والمؤامرات اشتراك الضابط العلوي محمد نبهان وكأنه في الواقع أراد فقط خدمة أبناء طائفته، وقد تركت هذه التفسيرات السياسية آثاراً لا تمحى في انعدام الثقة بين كثيرين من الأغلبية السنية والشعب السوري وبين البعثيين من الأقليات الدينية.

وتصف أمانة مكتب التنظيم العسكري البعثي الوضع في تقرير مؤرخ بـ ١٩٦٥/١٠/١٩ فتقول: «وجاءت ثورة الحزب في الثامن من آذار، فوجدت القيادات الحزبية أنه أصبح من المحتم إقامة تنظيم حزبي عسكري موسع في الجيش يضم كافة العسكريين من أصدقاء الحزب، والذين وقفوا إلى جانبه وأسهموا بثورته. وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه قد وقعت أخطاء في طريقة التنظيم. وكانت صفة العضوية، تعطى هبة للعشرات بل للمئات، لأن الأسس التي قام عليها التنظيم لم يكن هدفها الإيمان بالحزب، بل كانت مع الأسف لحماية قادة التنظيم على كافة المستويات، من قائد فرقة حتى القيادات العليا، ولتجميع الأتباع والمحاسيب بالجملة وخاصة بعد ١٨ تموز».

«ولكن روائح التكتيل الطائفي بدأت تفوح، وبدأ الحديث عنها أول الأمر همساً ثم بدأت الأصوات ترتفع حينما ظهرت بوادر مادية تسند الاتهام. إن العسكريين في صراعهم على السلطة استغلوا الروابط الطائفية بطريقة أريد منها الإضرار بالسنيين خاصة.

يتضح مما سبق أن تسريح الضباط وصف الضباط الذين استدعوا للخدمة عقب انقلاب ٨ آذار تم على أساس طائفي، وكان موجهاً نحو العسكريين السنيين عند تقدمهم إلى الكلية الحربية أو المعاهد العسكرية الأخرى. وتكرر الأمر عند

قبول عسكريين جدد في عضوية التنظيم العسكري الحزبي، أو عند تجنيد أفراد جدد في الحرس القومي البعثي أو الشعبة السياسية أو المخابرات أو غيرها من مؤسسات السلطة التي يسيطر عليها البعثيون. وكانت الأفضلية غالباً للعلويين والدروز والإسماعيليين والروم الأرثوذكس» [(١)].

خلال خمسة أشهر اختل التوازن تماماً في تركيب الجيش السني، وأصبح الوجود النصيري هو الوجود الغالب في ضباطه. ولا ننسى كذلك أن وصول صف الضباط للأكثرية في الجيش هو أمر متقدم، وحين اكتشف السراج كما مر معنا من قبل أن ٦٥٪ من ضباط الصف في الجيش السوري هم من النصيريين.

«تخبط السوريون تخبطاً مماثلاً (للعراق)، فلم يكن باستطاعة ضباط اللجنة العسكرية أن يتجهوا إلى عفلق والبيطار طلباً للإرشاد، لأنهم كانوا يحتقرون رؤيتهما الإصلاحية البورجوازية، وهكذا كانوا بدون عُدة نظرية، وبحاجة إلى مساعدة عقائدية تضاهي ميولهم الثورية واتجاهاتهم الراديكالية، فأمسكوا بما كان يسمى بالفئة الماركسية التي تشكلت على أيدي عدد من البعثيين السابقين بعد حل الحزب، وكانت هذه المجموعة من (المفكرين) يتزعمها معلم مدرسة درزي شديد الحماسة في السادسة والثلاثين اسمه حمود الشوفي، وقد جعلته القراءة النهمة للأدبيات الاشتراكية أو تجربته القاسية في السجن خلال سنوات الوحدة يسارياً بكل معنى الكلمة، وقد استطاع رغم كثير من العقبات الضخمة أن يبقى على خلية بعثية سرية في السويداء، وأصبح مثير شغب في منطقته، وقد تأثر كثيراً بعلي صالح السعدي الثوري العراقي، وبياسين الحافظ المنظر الماركسي السوري من دير الزور.. كان واضحاً أن اللجنة العسكرية والماركسيين قد اعتقدوا بأن

---

(١) الصراع على السلطة لنيكولاس فان دام ٥٠-٥٥ مقتطفات. وعن التجربة المرة للرزاز، ص١٥٩.

لديهم أشياء كثيرة مشتركة، ولذلك وحدوا قواهم، فسيطروا على مؤتمر القيادة القطرية الذي انعقد في أيلول/سبتمبر ١٩٦٣، والذي انتخب الشوفي أميناً قطرياً، والأسد عضواً في قيادة قطرية جديدة تألفت من ثمانية أعضاء. ولم يستطع عفلق ولا البيطار، ولا أي أحد من مؤيديهما أن يجعل نفسه فيها.

لقد صمم عفلق حزبه على شكل هرمي، تكون القيادة القومية على ذروته مع أمينها العام الذي كان هو نفسه منذ تأسيس الحزب، ومهمتها إدارة شؤون الحزب في أرجاء الوطن العربي، وتكون هناك في كل قطر قيادة قطرية تتمتع ببعض الاستقلالية عن القيادة القومية، إلا أنها في النهاية تكون تابعة لها. أما الذي حدث الآن فهو أن أعضاء القيادة القطرية نالوا مقداراً من حرية العمل أكبر مما كان في ذهن عفلق...

ومن المؤتمر القطري الأول بعد انقلاب سنة ١٩٦٣ خرجت إشارة تفيد بوضوح أن تمرد الضباط كان ضد عفلق بقدر ما هو ضد النظام القديم. فلم يكونوا يحبونه، ولا يحبون أفكاره ولا قيادته، وكانوا مصممين على أن يأخذوا منه الحزب الذي خلقه، بحجة أنهم يريدون إنقاذ الحزب من الأيدي التي اعتراها الضعف والفساد. وكان عفلق يعي التهديد الذي يتعرض له، ويزعم بعض الكُتاب أن هذا الاستيلاء على الحزب لم يعد له أي صلة بالحزب الذي أنشأه عفلق، ولهذا يجدر أن يسمى البعث الجديد.

واتضح أن المؤتمر القطري الذي اندحر فيه عفلق كان «بروفة» أو تمريناً للمؤتمر القومي السادس الذي انعقد بدمشق في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٣، وقد استطاع عفلق فيه أن يتدبر أمر الاحتفاظ بمنصبه كأمين عام، ولكنه من جهة أخرى غرق في وسط تحالف من الوفدين السوري والعراقي، المتشددين في ميولهم اليسارية بقيادة الشوفي والسعدي على التوالي. كانت القيادة القومية

المنتخبة في هذا المؤتمر تعكس مثل ما حدث في المؤتمر القطري تغيّر ميزان القوى بين الفئات والأجنحة، فالبيطار رفيق عفلق القديم، سقط تماماً، بينما صعد إلى القيادة للمرة الأولى بعثيون عسكريون في أشخاص صلاح جديد وأمين الحافظ السوريين، وأحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش العراقيين.

وبما أن البعث كان جديداً على السلطة في بغداد، فإنه كان حريصاً على تأكيد دوره في القضايا العربية التي تبناها المؤتمر. وقد أعد هذه الوثيقة الحلفاء الماركسيون للضباط ولا سيما ياسين الحافظ، وكان عنوانها فخماً طناناً: «بعض المنطلقات النظرية» ولم يكن من المستغرب أن يشغل ضباط اللجنة العسكرية أنفسهم بالمقاطع الخاصة بالعلاقات بين الحزب والجيش، فقد كان الضباط حساسين من تهمة اختطاف حزب عفلق التي وُجهت إليهم. قالوا: إن تدخل الجيش في السياسة كان هبة من السماء لأن التلاحم العضوي بين القطاعين الطليعيين المدني والعسكري هو شرط ملح وضروري للبناء الاشتراكي. هكذا أعلنت المنطلقات، واعتبرت أن تشبّع الجيش العقيدة الأساسية لا يقل أهمية عن التدريب العسكري نفسه.

ورفعت تلك (المنطلقات النظرية) الحزب رسمياً الى مكانة (الحزب القائد) في المجتمع السوري الذي التف حول المجموعات والقوى السياسية ذات التفكير المماثل والمكانة التي تلي وتتبع البعث، وتقرر حشد وتعبئة الجماهير في منظمات شعبية يسيطر عليها البعث من العمال والفلاحين، والطلبة والنساء والشبيبة وما شاكل باعتبارها أدوات بناء الديمقراطية الشعبية التي استهدف البعث إنشاءها. وبالمقارنة مع ذلك هوجمت الديمقراطية البرلمانية على الطراز الغربي باعتبارها مجرد واجهة للإقطاع والبورجوازية الكبيرة، ورُفضت باعتبارها عاجزة عن فتح الطريق للتحول الاشتراكي. وهكذا زُرعت بذور مؤسسات ستقوم في

دولة البعث في وقت لاحق، كما وضعت الأسس النظرية لحرب قاسية على وشك أن يشنها القادمون الجدد على طبقات الملاك في المدن.

وانحنى صلاح البيطار للقوى الجديدة التي ظهرت في المؤتمرين القطري والقومي وقدم استقالته من رئاسة الوزارة، وحلّ محله الفريق أمين الحافظ الذي شكل وزارة وضعت فيها اللجنة العسكرية محمد عمران نائباً له كي يراقبه. أما صلاح جديد الرجل الثاني في اللجنة، فقد رُفع من رتبة مقدم إلى رتبة لواء. وهكذا أصبح أعضاء اللجنة العسكرية في أهم وأخطر المناصب، فعمران راح يراقب جهاز الحكومة، وجديد راح يدير الجيش. أما مهمة الأسد الخاصة في ذلك الحين، فكانت توسيع شبكة مؤيدي وأنصار الحزب في القوات المسلحة»[1].

ولنقف ملياً عند هذه التطورات:

لقد خطط النصيريون الثلاثة قادة اللجنة العسكرية على السيطرة على المرافق الثلاثة؛ الحزب، الجيش، الحكومة. فكيف تمت السيطرة على هذه المرافق؟

المنطلقات النظرية:

لا بد -ابتداء- للسيطرة على الحزب من السيطرة على فكره، وحتى يتم تدعيم الحزب من الداخل، فلا بد من طرد القيادات القديمة بما تحمل من أفكار، وتبني فكر جديد. وكان هذا الفكر هو الفكر الشيوعي، وفي هذه الحالة فلا ميزة للقيادات القديمة أمثال عفلق والبيطار، بل إنهما عقبة كأداء في طريق التطور الثوري.

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل / ١٤٦-١٥٠ .

وفعلاً طُرح فكر جديد في السنة الأولى لثورة ٨ آذار، والتي استلم البعث فيها الحكم، وهدم كل الأفكار السابقة عن الوحدة والحرية والاشتراكية:

الـ حدة: وماذا يقول البعث عن الوحدة بعد أن اقتلع الناصريين من جذورهم من الجيش، وأعلنت الحرب العنيفة بين مصر وسورية، حيث ولدت الوحدة الأولى في القرن العشرين. صارت الوحدة هي ـكما تذكر المنطلقات النظريةـ:

«إن تحقيق الوحدة رهن بتوحيد المنطلقات النظرية التي ستبنى عليها، وبوحدة الأسلوب النضالي المؤدي إلى تحقيقها... إلا أن التوحيد على أساس فرض إطار مسبق يصدر عن قطر يؤدي عملياً إلى نسف كل إمكانية صهر جدية للقوى الثورية الجماهيرية. وبما أن الوحدة ستأتي حصيلة لقاء هذه القوى لذا ينبغي أن يتم هذا اللقاء على أساس ديمقراطي» (١).

لقد مسخت وحدة الوطن العربي من الخليج إلى المحيط في دولة عربية واحدة إلى:

١ -وحدة القوى القومية الثورية.

٢ -توحيد المنطلقات النظرية لهذه القوى التقدمية.

٣ -توحيد الأسلوب النضالي المؤدي إلى تحقيقها.

٤ -ينبغي أن يتم هذا اللقاء بين القوى التقدمية على أساس ديمقراطي.

ولذلك وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً من حكم البعث عجز عن إقامة وحدة بين دولتين متجاورتين.

وهذا ما يريده النصيريون بالضبط، لأن أي وحدة بين قطرين عربيين تعني انتهاءهم من الساحة.

---

(١) المنطلقات النظرية / ص ٤٠ .

الحرية: وكم حلم الناس بالحرية التي منّى البعث بها الناس كما يقول في دستوره:

«المادة ١٤: نظام الحكم في الدولة العربية هو نظام نيابي دستوري، والسلطة التنفيذية مسؤولة أمام السلطة التشريعية التي ينتخبها الشعب مباشرة.

المادة ١٦: نظام الإدارة في الدولة العربية نظام لا مركزي.

المادة ١٧: يعمل الحزب على تعميم الروح الشعبية (حكم الشعب) وجعلها حقيقة حية في الحياة الفردية، ويسعى إلى وضع دستور للدولة يكفل للمواطنين العرب المساواة المطلقة أمام القانون والتعبير بملء حريتهم عن إرادتهم، واختيار ممثليهم اختياراً صادقاً، ويهيء لهم بذلك حياة حرة ضمن نطاق القوانين.

المادة ١٨: يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدولة العربية منسجم مع روح العصر على ضوء تجارب الأمة العربية في ماضيها» [١].

فماذا قدّم لنا الحزب من الحرية عندما حكم؟ وكيف غيّر كل مبادئه عن الحرية؟

الحرية كما يريد النصيريون والدروز آنذاك أن تكون:

أ -الحزب القائد: «إن ربط قضية الديمقراطية على نحو مجرد مطلق بمبدأ تعدد الأحزاب يمثل المنطق البورجوازي في فهم الديمقراطية. إن حزباً رئيسياً يقود جبهة من القوى السياسية تمارس السلطة الثورية لا يؤدي بالضرورة إلى الابتعاد عن الديمقراطية. إن مبدأ الحزب القائد أصبح أمراً تمليه الضرورة المرحلية لوجود سلطة مركزية ثابتة تقود عملية البناء الاشتراكي» [٢].

---

(١) الدستور عن كتاب نضال البعث لميشيل عفلق، ج١، ص ١٧٢ .

(٢) المنطلقات النظرية، ص ٦٢-٦٣ز

ب -الجيش يقود الحزب: «إن النضال الثوري الذي خاضته الجماهير العربية قد لقي انعكاساته وصداه في القطاع العسكري في عدد من الأقطار العربية، وتكونت في بعض الأقطار جيوش ثورية بكل ما في كلمة ثورية من معان وأبعاد. لذا أصبح العمل السياسي في القطاع العسكري حقيقة أساسية في التطور التاريخي للنضال العربي، وكل محاولة لإنكار هذه الحقيقة لا بد أن يكون تخريباً للثورة وعرقلة لسير التحول الاشتراكي» (١).

وهكذا صار مفهوم الحرية حرية الحزب القائد، وحرية الجيش الذي يقود الحزب. وبذلك أخذ النصيريون زمام المبادرة في المؤسستين على ضوء هذه المنطلقات. وما زالت اللجنة العسكرية النصيرية الثلاثية تقود كل شيء، فقيادة الجيش ورئاسة الأركان لجديد، وقائد الجيش هو نفسه رئيس الوزراء الفريق أمين الحافظ، لأن الوقت لم يحن بعد أن يحكم النصيريون مباشرة، وكان نائبه محمد عمران.

وهكذا توزعوا الجيش والحكومة. أما الحزب، فقد صعد الأسد إلى القيادة القطرية وصعد جديد إلى القيادة القومية، وتفرغ عمران ليحكم من وراء ستار نيابة عن الحافظ الرئيس، وتفرغ جديد ليحكم من وراء ستار نيابة عن الحافظ الفريق في الجيش، وتحققت المبادئ النظرية في حرية الحزب القائد والجيش القائد للحزب.

الاشتراكية: هكذا قال البعث قبل أن يحكم في دستوره:

«المادة ٣٤: التملك والإرث حقان طبيعيان ومصونان في حدود المصلحة القومية» ولكنه عندما حكم قال عن التملك والملكية ما يقوله الشيوعيون تماماً:

---

(١) المصدر نفسه: ص ٦٧-٦٨ .

«إن الاعتراف بالملكية الفردية بشكلها المطلق، ورغم تضييق نطاقها هو ضرب من المفهوم البورجوازي الصغير، لأن المفهوم الاشتراكي العلمي يعتبر العمل الإنساني المصدر الوحيد للقيمة، ولذا فإن الملكية الفردية إذا تعدت نطاق الاستعمال الشخصي لا بد أن تكون مستغلة مهما كانت الرقعة التي تمارس فيها الملكية نشاطها ضيقة، ونسبة المردود الذي تعطيه منخفضة» (١).

«ولكي تكون الاشتراكية حلاً كلياً جذرياً لمشكلة الإنسان العربي لا بد أن تتوافر في النظام الجديد الظروف التي تهيئ:

أ -إلغاء ظروف الاستغلال المادية التي تسلب المواطن جوهره الإنساني.

ب -تعميق المضمون الديمقراطي للاشتراكية، لأن الحرية هي الأساس الراسخ الذي تبنى عليه الاشتراكية.

ج -تربية المواطن تربية اشتراكية علمية تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة، لكي يمكن خلق إنسان عربي جديد بعقل علمي منفتح، ويتمتع بأخلاق اشتراكية جديدة، ويؤمن بقيم جماعية.

التحويل الاشتراكي للمجتمع يعني من حيث المبدأ تحويل ملكية وسائل الإنتاج الخاصة إلى ملكية عامة للشعب بأسره، ويلغي الحاجة للوسيط الرأسمالي بصورة نهائية، ويجعل دخل الفرد يرتبط مباشرة بعمله وكفاءته، ويصهر سائر الطبقات في بوتقة واحدة، وهو أخيراً يلغي اقتصاد الربح، ويخلق اقتصاداً يرتكز على الحاجات» (٢).

إن اعتبار الملكية مستغلة ما عدا ملكية الاستعمال، والقناعة بتحويل وسائل

---

(١) المنطلقات النظرية، الاشتراكية / ص ٧٦٧ .

(٢) المنطلقات النظرية، الاشتراكية / ٧٧ .

الإنتاج الخاصة إلى ملكية عامة للشعب بأسره، هي إلغاء للنظام الاقتصادي في الإسلام كله، لأن الأساس الذي يقوم عليه النظام الإسلامي في الاقتصاد هو الملكية، وإن كانت هذه الملكية مقيدة بقيود محددة، لكنها أساس النظام الإسلامي كله.

«إن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، اللَّهم هل بلغت؟ اللَّهم فاشهد»[1].

ويجب أن لا ننسى أن هذه النظرة للملكية عند البعث الجديد هي نتيجة تقوم على أساس التفسير المادي للتاريخ، الذي يجعل صراع البشرية كله من أجل لقمة الخبز. وبالتالي، فالقيم نسبية، والدين والأخلاق من نتاج المجتمع الرأسمالي، يؤكد هذا المعنى ما تعبّر عليه هذه الاشتراكية في قولها: «تربية المواطن تربية اشتراكية علمية تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة».

فلئن كان الحزب من قبل يعتز بالعادات والتقاليد العربية، ويعتبرها من مقومات القومية العربية، فإنه الآن يهدف إلى أن يعتق المواطن من كافة الأطر والتقاليد السابقة.

إنه إعلان سافر لا يحتاج إلى بيان، ولا يحتاج إلى إيضاح أنه يسلخ هذه الأمة عن ماضيها وتراثها وهويتها ودينها وأخلاقها.

يؤكد هذا المعنى أن هدف هذه الاشتراكية تكوين إنسان جديد.

«ولكي يمكن خلق إنسان عربي جديد بعقل علمي متفتح، ويتمتع بأخلاق اشتراكية جديدة، ويؤمن بقيم جماعية».

إن هذا الخلق الجديد للإنسان بأخلاقه الاشتراكية وقيمه الجماعية، لا يدع

---

(١) متفق عليه.

أدنى ذرة من الشك في الالتزام التام بالشيوعية، فكراً وعقيدةً، وليس نظاماً اقتصادياً فقط.

فمن هو الذي ينادي بالأخلاق الاشتراكية، والأخلاق البورجوازية غير الفلسفة الشيوعية؟

إننا لسنا بحاجة إلى بيان، أن حزب البعث العربي الاشتراكي قد انقلب إلى منظمة شيوعية في الفكر والفلسفة والعقيدة والنظام، بعد أن كان حزباً قومياً.

وهو في كلا الحالين تخلى عن الإسلام.

ولكنه في المرحلة الأولى يعلن هذا بشكل سلبي، حين لا يعرض للإسلام بشيء، أما في هذه المرحلة الجديدة فهو يعلن هذا بشكل إيجابي.

١ -تربية المواطن تربية اشتراكية علمية (وهو مصطلح الاشتراكية الشيوعية).

٢ -تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة.

٣ -لكي يمكن خلق إنسان عربي جديد بعقل علمي متفتح.

٤ -ويتمتع بأخلاق اشتراكية جديدة، ويؤمن بقيم جماعية.

وقبل أن نختم هذا البحث يحسن أن نتحدث عن الدور الذي أوكل للأسد في هذه المرحلة والخطة التي اتفق عليها في إبراز الصنم الجديد زكي الأرسوزي بعد حرق الصنم السابق ميشيل عفلق. فزكي الأرسوزي نصيري، فلا بد من بعث أفكاره، وتقديمه البديل لعفلق وحزب البعث القديم المتعفن.

«ومن أجل الاسترشاد العقائدي في هذه المهمة لجأ الأسد إلى خصم عفلق القديم الفيلسوف زكي الأرسوزي، الذي ألهم الأسد خطاه السياسية الأولى عن طريق الدكتور وهيب الغانم.

وكان الأرسوزي حينذاك متقاعداً منذ فترة طويلة، إلا أن الأسد أخرجه من عزلته وراح يصحبه معه في جولاته على معسكرات الجيش، وجعله يحاضر في

الجنود ويلتقي بالضباط. وقد ابتهج الأرسوزي العجوز باهتمام الأسد، فراح يكتب المقالات الافتتاحية في صحيفة الحزب والجيش، كما أنه أعطى الأسد نفسه لمحات عقائدية كان لها أهميتها في تطوره في ذلك الوقت، وعمل الأسد فيما بعد على تأمين معاش تقاعدي للأسوزي ظل يتقاضاه حتى وفاته بدمشق في ٢ تموز/يوليو ١٩٦٨. وقال الأسد حين رثاه: لقد عاش فقيراً، ومات فقيراً، ولكنه كان يتمتع باحترام كل الذين عرفوه. وفي هذه الأثناء كان الأسد يعمل على وضع كل وحدة من وحدات الجيش تحت مراقبة اللجنة العسكرية التامة، وذلك عن طريق وضع ذوي الولاء في القيادات الحساسة، وعدم إهمال عملية التثقيف السياسي للقوات، ولدى قيامه بهذه المهمة، أظهر الأسد براعة فائقة في التفاصيل، واهتماماً بالتخطيط المتأني الذي يتم عن عقل ضابط يتمتع بالذكاء، وقد ساهمت معرفته العميقة والمعمقة بالقوات المسلحة في صعوده المقبل»[(١)].

فنحن لسنا إذن أمام طلاب سلطة فقط، أو أمام عشاق حكم فقط، أمام طائفة أفرزت هذه القيادات، لتهدم عقيدة الأمة، وتخلق إنساناً جديداً متحرراً من كافة الأطر السابقة. نحن أمام اللجنة العسكرية التي تعمل على المجال الثقافي والفكري كما تعمل على المجال السياسي والعسكري.

فمن هو الأرسوزي الذي راح الأسد يرفعه من حضيضه إلى القمة لينهيه الفيلسوف الأعظم ويقيم له النصب التذكاري في دمشق؟

يحدثنا عنه تلميذه البار الذي تربى على يديه الدكتور سامي الجندي فيقول عنه:

«كنا مثاليين، نقيم علاقة المجتمع على الحب. كان الأستاذ (أي الأرسوزي) يتحدث كثيراً عن المسيح، وأظنه تأثر بأفكار نيتشة (منشأ التراجيديا اليونانية)،

---

(١) الأسد، لباتريك سيل، ص ص ١٥٠-١٥١.

يرى الجاهلية مثله الأعلى، يسميها المرحلة العربية الذهبية، يذهب مثل نيتشة إلى أن سقراط بداية المنطق والديالكتيك التي أفسدت عفوية اليونان، وفي الكلام انحطاط العرب، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فتبنى ما كان جاهلياً في الإسلام فقط، كان إنسان الرفض ورفضنا معه.

ناقشته سنة ١٩٤٥ بالقرآن، فعاب عليّ نزعتي الدينية قائلاً: أنت راهب في ثياب ثوري . اعترضت قائلاً: إن الإيمان بالأفكار ديني الملامح. فأجاب: «إن الثورة نفسها إيمان صوفي». وجدت في الحديث إلي أنه لم يقرأ حتى إذٍ القرآن قراءة جدية، حتى إذا فعل فيما بعد تبدل كثير من أفكاره. وقد لا يعلم كثيرون أنه بدأ يدرس العربية عام ١٩٤٠ كان يفضل الحديث قبل ذلك بالفرنسية» [1].

هذا هو الأرسوزي الفيلسوف العجوز الذي اختاره الأسد ليكون البديل عن عفلق.

الفيلسوف الذي كان يفضل الحديث باللغة الفرنسية.

الفيلسوف الذي يرى الجاهلية مثله الأعلى، ويراها العصر الذهبي للأمة، ولا يأخذ من الإسلام إلا ما هو جاهلي فقط.

الفيلسوف الذي يعرف الكثير الكثير عن المسيح والانجيل، ويكون أبعد ما يكون عن القرآن.

ولقد كرّم هذا الفيلسوف تكريم الأبطال، فلم ينشئ حزب البعث تمثالاً لبطل معاصر إلا لزكي الأرسوزي، لفكره الفذ، وجاهليته العريقة، وتعرفه على العربية عام ١٩٤٠م وجهله للقرآن وعمره ينوف عن الأربعين.

ونعود فنقول: كل هذا قد تم، وأصبح الأرسوزي فيلسوف الثورة ولم يمر

---

(١) البعث، لسامي الجندي، ص ٢٣.

عام واحد على ثورة الثامن من آذار.

وفي هذه المرحلة أيضاً يرفع الرائد جديد خلال عام واحد إلى لواء، متجاوزاً المقدم والعقيد، والأسد يصبح القائد الفعلي للقوى الجوية. وعمران المهندس الاستراتيجي يصبح ظاهراً الرجل الثاني في الدولة بعد الفريق الحافظ، وحقيقة الرجل الأول في الجيش.

خلال عام واحد فقط، يدفن البعث القديم، وينشأ البعث الماركسي الجديد تحت اسم المنطلقات النظرية للحزب، ويتسلق الماركسيون الشيوعيون فيسيطرون على القيادتين القطرية والقومية، ويسقط البيطار الرجل الثاني في الحزب، ويقود النصيريون دفة المؤسسات الثلاث: الحكومة والحزب والجيش.

وخلال عام واحد تترنح السنة، فيسرّح منها مئات الضباط، وتتغير تركيبة الجيش كله، ليدخل مكانهم المئات من الضباط النصيريين وأقلية من الدروز والإسماعيليين.

فماذا بعد ذلك؟

الفصل الثاني

الصدام الأول مع الإسلاميين

جرى التغيير السابق كله في العام ١٩٦٣، في خلسة من الزمن، وغفلة من الأمة، وظاهر الأمر لم يتغير في الساحة شيء، فما زالت صحيفة اللواء الناطقة باسم الإخوان المسلمين تصدر في دمشق -مع بعض المضايقات-، وما زال الأستاذ عصام العطار يلقي خطبه النارية بمسجد الجامعة بدمشق، وتتجمع الألوف حوله، بينما تغلق جميع صحف العهد البائد -عهد الانفصال-، ويقرر العزل المدني والسياسي ومصادرة الممتلكات على جميع الشخصيات السياسية السورية، باستثناء الأستاذ العطار وإخوانه، فهم لا يريدون أن يفتحوا جبهة ظاهرية مع الإخوان المسلمين في الساحة السياسية، لأنهم يريدون الآن أن يتم تطهير الجيش من السنة تحت راية الانفصاليين والناصريين، ثم يتفرغوا بعد ذلك للإخوان المسلمين.

وحسب الإخوان أن القوة السياسية الشعبية كافية لتحميهم على الساحة، ولو كان ظهرهم مكشوفاً عارياً من القوة العسكرية. ولم يكن يظهر على الساحة ما يثير الانتباه والفزع أو يدعو إلى الاستفزاز إلا بروز الحرس القومي الذي راح يشكل جيشاً جديداً رديفاً للجيش العقائدي الذي تتم فيه عمليات السلخ الحية.

وهذا الحرس القومي قوامه البعثيون فقط، وعلى رأسه الرائد حمد عبيد الدرزي. وغدا الحرس القومي برجاله ونسائه يتحدى مشاعر الشعب ويستفزه أحياناً لاعتداده بسلاحه وقوته. كما كانت العراق تعج بالتحدي نفسه، حيث كان علي صالح السعدي يتحدى الجيش نفسه بحرسه القومي. ومن أجل ذلك جرى الانقلاب الصامت الأول في العراق حيث قامت مجموعة من الضباط العراقيين

الغاضبين بالتواطؤ مع وزير الخارجية طالب شبيب وغيره من البعثيين المعتدلين بالقبض على السعدي، ووضعوه في طائرة بدون أي شيء من ممتلكاته وحتى بدون جواز سفره ونقلوه إلى مدريد، وكرد فعل على ذلك ثار الحرس القومي وأعضاء الحزب في القواعد دفاعاً عن زعيمهم المنفي، وكان هذا الانقسام داخل الحزب في العراق يهدد البعث كله. هنا سارع عفلق إلى بغداد ومعه خمسة من أعضاء القيادة القومية، وعلى أمل أن يهدئ القاعدة بدون أن يهين الضباط، قام بحل القيادة القطرية العراقية، ونفى طالب شبيب وأصدقائه إلى بيروت ليعدل ميزان الحساب. وأعلن أنه والقيادة القومية سيقوم بادارة شؤون العراق إلى أن يتم إجراء انتخابات حزبية جديدة. وأدت فكرة حكم العراق من قبل عفلق، المنظِّر الدمشقي المسيحي الصغير إلى جدل صاخب على موائد الضباط، فقد رأوا فيه إهانة لوطنية العراق، ولعواطف المسلمين ولكرامة الجيش العراقي وعزة نفسه، وحتى للمنطق السليم. وهكذا قامت مجموعة من الضباط بقيادة عبدالسلام عارف بوضع ميشيل عفلق جانباً والاستيلاء على السلطة في ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر، ثم حدث ما هو أسوأ أيضاً من وجهة نظر البعث، فقد أعلن عارف على الفور مصالحة مع عبدالناصر، وأعلن أنه مخلص لمشروع الوحدة الموقع في ١٧ نيسان/ابريل ١٩٦٣، وهكذا طرد البعث، ودعا أحمد سعيد -المذيع الناري في صوت العرب- الى ذبح عفلق وزملائه قبل أن يغادروا بغداد. فاضطروا إلى الخروج بسرعة، وبطريقة غير كريمة. وبدلاً من التمدد في الساحة العربية نحو التوسع، أصبح مجرد البقاء على قيد الحياة هو الأولوية التي يسعى إليها البعث. وانهار حلم محاصرة عبد الناصر لتحل محله الحقيقة غير السارة، وهي أن البعث السوري نفسه هو الذي أصبح محاصراً.

وكانت الكارثة في العراق صدمة مطهرة وضربة مؤلمة، أرغمت اللجنة

العسكرية، والأسد على وجه الخصوص، على إعادة النظر في التحالف مع الماركسيين الذين كان يجلس معهم في القيادة القطرية. لقد كان من الواضح أن نوع نزعتهم اليسارية لم تكن لها شعبية، فالمتشددون السوريون من نوعية الشوفي لا يمكن السماح لهم بخلق الاضطرابات والمشاكل المدمرة كالتي خلقها السعدي في العراق، وتطايرت الاتهامات هنا وهناك حول المسؤول عن كارثة العراق، وكان الاتجاه يميل إلى لوم اليسار المتطرف. وقد أدى هذا الهبوط المفاجئ في خطوط الحزب إلى أن يتناسى عفلق والضباط خلافاتهم ويدخلوا في تحالف تكتيكي فيما بينهم ضد الماركسيين، ففي شباط/فبراير ١٩٦٤ طُرد السعدي وتلميذه الشوفي من الحزب ومعهما مؤيدوهما، وذلك في مؤتمرين طارئين قطري وقومي، وبذلك تعززت نزعة الأسد البراغماتية الطبيعية، ولكن التزامه باليسار لم يتزعزع، وإن كان درس الأزمة قد علمه أن حلول الماركسيين الجاهزة لم تكن مناسبة وله ولا لبلده. أما فيلسوف سوريا الماركسي ياسين الحافظ الذي رفض في دمشق فقد غادرها ليبحث عن فجر اشتراكي جديد في جو بيروت الأكثر حرية. وأما في العراق فقد تم تعيين قيادة مؤقتة لإعادة بناء الحزب ثانية في الخفاء تحت قيادة الشاب صدام حسين التكريتي الذي لم يكن متورطاً في ذلك الفشل» [١].

هذا ظاهر الأمر، لكن حقيقته هي أن النصيريين قد أحسوا بشيء من الحصار، والقوة للدروز، فالشوفي المنظر الماركسي درزي، وقائد الحرس القومي حمد عبيد درزي، وقائد لواء المغاوير سليم حاطوم درزي، ولا بد من فك هذا الحصار قليلاً، فعاد الأسد ليقف في الصف المواجه للماركسية، ويكون وراء التحالف مع

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل/ ١٥٣-١٥٤.

عفلق للتخلص من حمود الشوفي كمرحلة على الطريق، بينما بقي محمد عمران لا يزال يبدي بعض التعاطف مع الناصريين، أما صلاح جديد فبقي على الخط نفسه، الخط الماركسي، ليتوزعوا الأدوار في جميع الاتجاهات.

حماة .. الاصطدام الأول:

غادر الأستاذ عصام العطار المراقب العام للإخوان المسلمين سورية للحج[1]. وكان هذا آخر عهده بسورية، فقد منع من دخولها، وتنفس البعث الصعداء، فقد ارتاح من أكبر خصومه وأخطرهم على الساحة الشعبية في العاصمة دمشق، وتبعها احتجاب جريدة اللواء عن الصدور. لكن النصيريين يعرفون أن حماة هي أكبر المعاقل الإسلامية في سورية، وخاصة إذا احتاج الأمر لاستعمال العنف، وبينها وبين النصيريين ثارات قديمة، فهم يعتبرون أن حماة كانت تستذلهم وتستغل نساءهم خدماً في بيوتاتها الاقطاعية. ولكن النصيريين يحرصون في هذه المرحلة على تجنب الاصطدام، وإن اضطروا لذلك فعلى الأقل تجنب المواجهة النصيرية الإسلامية، فليكن الصراع بعثياً سنياً. وكان شخص أمين الحافظ هو الواجهة السنية المعدة لذلك، فباسمه وبوجوده تمت كل التسريحات السنية المطلوبة باسم الانفصاليين والناصريين. «وبدأ وقت الامتحان في أوائل ربيع سنة ١٩٦٤ بحملة من التحريض ضد الحكومة في المدن السورية، وكانت العناصر الأساسية الثابتة فيه هي الخطب الملتهبة في المساجد ضد البعث اللاديني والاشتراكي، مما أذكى الاضطرابات في الشوارع، وأغلق الأسواق. وراحت السفارات المصرية والعراقية في الأقطار المجاورة توزع الأموال للنفخ

---

(١) كانت المغادرة قبل اشتعال أحداث حماة بيومين.

في اللَّهيب. ولكن كانت هناك على أية حال مواد وأسباب كثيرة للسخط، فقد كان الاقتصاد راكداً لأن التجار خافوا من الإجراءات الاشتراكية، وشعروا بتهديدها لهم فأمسكوا أموالهم وجمدوها ولم يشغلوها. أما وجهاء المدن والقرى فقد ساءهم ارتفاع شأن حديثي النعمة من الأقليات وحلفائهم من السنيين ذوي الخلفية المتواضعة، أما الناس العاديون فكان ضيقهم الشديد نتيجة جهلهم بما يدبر حكامهم الجدد خلف الأبواب المغلقة» [١].

لكن السبب المباشر في الحقيقة هو وجود الحرس القومي، لقد كان الحرس القومي يمثل سفهاء كل بلد وقرية وشبابها الفجار المستهترين، لأن الأحزاب اللادينية هي مأواهم. ولو كان الأمر كذلك فقط لهان الأمر، لكن هؤلاء السفهاء والفجار والفسقة أصبحوا بيدهم السلاح يتحدون الشباب المؤمن، ويلاحقونه في المسجد. وحيث إن هؤلاء يعرفون أنفسهم من قبل، وكان شباب البعث وحلفاؤه متساوين في الإمكانات مع الشباب المسلم الملتزم، وكان كثيراً ما يركن إلى الخوف والمسكنة حين تكون المواجهة اشتباكاً بالأيدي أو صراعاً بالعصي، لكن الجديد الذي قدمه البعث الآن هو الأسلحة والمدافع الرشاشة والمسدسات يحملها شباب الحرس القومي باسم الثورة العتيدة، يروّع الآمنين، ويوقف الناس يسائلهم ويتهمهم بعداء الثورة. فأدى هذا الى احتكاك عنيف على الساحة الشعبية، وشعر شباب الحركة الإسلامية أنهم مستهدفون لإذلالهم أو إجبارهم على التصفيق للثورة العتيدة.

وحماة بالذات، لم يكن فيها للعصاة والفجرة وجود، فالمعالم الإسلامية هي المسيطرة فيها. حتى الشباب الفاجر كان يمارس فجوره وفسقه سراً دون أن

---

(١) الأسد، لباتريك سيل، ص ١٥٥.

يتحدى المشاعر الإسلامية، فكان طبيعياً والحالة هذه أن يسود التوتر فيها، فقد رفع الفاسقون رؤوسهم تحدياً للمسلمين لأنهم غدوا يحتمون بالسلاح ويعتزون به. وما كان جو حماة الإسلامي يطيق مثل هذا التحدي.

الأحداث بلسان المشاركين فيها:

ابتدأ التوتر في حماة عندما أقدم الطالب في ثانوية عثمان الحوراني على كتابة جملة مثيرة، وهي نص الآية القرآنية (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وكتب تحتها: ميشيل عفلق. فضجت الإدارة الحزبية في المدرسة. وبعد التهديد والتحقيق أجرت محاكمة للطالب، وصدرت بحقه أحكام عجيبة، تقضي بسجنه ثمانية أشهر وفصله من المدارس السورية قاطبة. ولم يكتف بذلك، بل تحدّت وزارة التربية الإسلاميين فأصدرت قراراً بنقل اثنين من مدرسي التربية الإسلامية الحمويين خارج حماة، وهما الأستاذان نافع علواني، وبشير الشقفة إلى دير الزور وحلب، وكانت هذه الشرارة الأولى للمواجهة، إذ اعتبرت هذين المدرسين هما المحرضان للطالب على كتابة هذا التحدي.

ابتدأ الطلاب بإضراب شامل في الثانوية، ورفض المدرسان تنفيذ القرار، وتحرك الشيخ مروان حديد يعبئ القوة الشعبية ضد النظام. فسارع المحافظ عبدالحليم خدام إلى مواجهة التحدي. وهدّد في اجتماع حاشد باستعمال القوة وتدمير المدينة إذا استمر الإضراب وتفاقمت الاضطرابات. فتصدى له أحد علماء حماة قائلاً له: إن فرنسا عجزت عن فرض وجودها علينا، ولا تحل الأمور بهذا التهديد، مما حدا بالمحافظ أن ينسحب من الاجتماع غاضباً حانقاً، ويمضي إلى دمشق لينقل صورة الوضع في حماة، وبقي قرابة خمسة عشر يوماً في دمشق، والأحداث تتفاعل في حماة.

ودعا الشيخ مروان حديد إلى الاعتصام في المسجد، وتقاطر الناس إلى زاويته التي يقيم فيها من كل مكان، وشكل أهل حماة لجنة لتتخذ الموقف المناسب وهي تمثل جميع الاتجاهات في حماة من الإسلاميين والاشتراكيين والتجار. وخطب الشيخ سعد المراد من كبار علماء حماة خطبة حماسية، وذكر فيها أن الدم غال علينا ولا نريد إثارة القلاقل، ولا نريد إراقة الدماء، ونرجو من المسؤولين عدم إثارة فتنة في البلد.

مع عودة خدام كان قد بيّت مع السلطة أمراً، وهو ضرب المدينة، فقد حانت الفرصة للانتقام من هذه المدينة الإسلامية الباسلة، وآن الأوان للثأر منها. وحاول وفد المدينة أن يقابله بعد عودته فرفض. واقتحمت الشرطة العسكرية مع قوات الحرس القومي الزاوية التي يقيم فيها الشيخ مروان حديد فاصطدموا مع الجماهير، وانسحب الشيخ مروان إلى مسجد السلطان واعتصم فيه مع أعداد ضخمة من الناس. وكانت السلطة تستدرج الجماهير لتتخذ الذريعة المناسبة لضرب المدينة والقيام بحمام دم رهيب فيها.

قيادة الإخوان تقرر عدم المواجهة:

في هذه الأثناء رفع مكتب حماة إلى المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في سورية أوضاع حماة. وبعد دراسة مستفيضة قررت قيادة الإخوان المسلمين في سورية تجنب الصدام مع السلطة، وأبلغت هذا القرار لممثل حماة ليقوم بدوره بتبليغ الإخوان في مركز حماة ذلك. واجتمع فرع حماة قبل الأحداث بيومين، ووصله قرار القيادة. وكُلّف الشيخ سعيد حوّى رحمه الله بحضور الاجتماع الحاشد لرجالات حماة في مسجد الشيخ زير بالشمالية بأمر من قيادة فرع حماة لتهدئة الموقف. غير أنه وفي غمرة الانفعالات العاطفية أعلن النفير العام حتى لا

يستغل الاشتراكيون -حسب اجتهاده- الموقف، ودعا إلى إقامة حلف شبيه بحلف الفضول، بحيث يكون الجميع يداً واحدة على الظالم بجميع اتجاهاتهم. وأعلن الاشتراكيون مساندتهم للإضراب العام، وأنهم أول من يُغلق وآخر من يفتح، وكانت المخابرات تنقل بصورة مستمرة لقيادة السلطة تطورات الموقف. ووصل أمين الحافظ شخصياً إلى حماة لمعالجة الموقف، وبدأت أرتال الجيش تزحف لدخول حماة.

وعقب انفضاض الاجتماع، أصدرت الدولة قراراً بالحكم بالإعدام على أربعة عشر رجلاً من أبرز الشخصيات في حماة ومصادرة ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة. واستطاع الاشتراكيون الحورانيون تصعيد الموقف ليكون الإسلاميون وقود المعركة. فقطعوا الطريق الرئيسي بين حماة ودمشق ونصبوا المتاريس، وابتدأت المعركة الفعلية، وصدرت الأوامر باقتحام جامع السلطان وتدميره. فضُرب المسجد بالمدافع، وهوت مئذنته، وتهدمت جدرانه، وفرّ بعض من كان فيه، واعتقل بعضهم، وكان الشيخ مروان حديد على رأس المعتقلين.

لقد كان النصيريون قد أعدوا العدة لضرب حماة، وفي فترة الهياج هذه وقع في يد شباب حماة أحد شباب الحرس القومي واسمه منذر الشمالي، وعقب تهديم مسجد السلطان ومقتل من قتل فيه قاموا بقتل الشمالي هذا والتمثيل بجثته ثأراً للشهداء الذين سقطوا في المعركة، والذين بلغ عددهم حوالي سبعين قتيل،اً أكثرهم من الشباب الإسلامي في حماة.

كان فضيلة الشيخ محمد الحامد قد أصدر بياناً لعلماء حماة يدعو فيه أهل حماة الى الاعتصام بالصبر وعدم المواجهة، لكن الاشتراكيين زعموا أن هذا البيان مكذوب على لسان العلماء، واعتصم الشيخ الحامد رحمه الله في بيته، فاتصل به أحد ممثلي السلطة ليبلغه بدء تنفيذ تدمير المدينة المتمردة، فجاء سريعاً

ليقابل المسؤولين وينقذ المدينة من الدمار، وبعد مفاوضاته مع السلطة طلبوا منه إيقاف الحرب، واستسلام المدينة، ورفع الرايات البيضاء على البيوت، وإلا فسوف تسوّى المدينة بالأرض.

وتحرك الشيخ العظيم المجاهد لينقذ الموقف بصوته وشخصه يدور على البيوت، ويدعو إلى الهدوء وإلى إلقاء السلاح، ورفع شارات بيض على البيوت، وفوّت الفرصة على السلطة في التدمير الذي تم فيما بعد.

أمين الحافظ ودوره في إنقاذ حماة:

لقد كان أمين الحافظ هو الشخصية الأولى في السلطة أثناء أحداث حماة، لكنه يدرك أنه ليس هو الحاكم الفعلي، وأن النصيريين في النهاية هم أصحاب القرار، فكان يتصرف بذكاء، ويتصرف بفن الممكن ومحاولة إنقاذ المدينة.

اقتيد الشيخ مروان رَحِمَهُ ٱللَّهُ والمجموعة معه، حتى وصل إلى أمين الحافظ، وحاول الحافظ للتغطية على موقفه أن يثور بعنف في وجه مروان حديد ويوجه له كلاماً قاسياً ونابياً، فما كان من الشيخ مروان إلا أن أوقفه قائلاً: يا أمين اجعل المعركة بيننا شريفة.

أما قائد الحملة النصيرية الذي يتلمظ غيظاً ويفح سماً على حماة وأبنائها فهو عزت جديد قائد القوة التي جاءت لضرب حماة وإغراقها في حمام من الدم، وما أن رأى مروان حديد حتى ضربه، فلم يكن من مروان إلا أن ردّ الضربة على وجه عزت جديد بيديه المكبلتين بالحديد. وأراد الجمع النصيري وقد فاته أن يضرب المدينة أن يُعدم الثائرين مباشرة ودون محاكمة، لكن بعض الضباط السنة أشار بأن الإعدام إذا تم بدون محاكمة فهو سبة على الحزب، كما ذكر ضابط آخر أن إمكانات الإعدام غير متوفرة، وأن يتم الاعدام في شجرة أو غيرها هو عار

عالمي. وتدخل الحافظ وقرر إجراء المحاكمة، وسير بالأسرى إلى حمص حيث كان المقدم مصطفى طلاس هو قائد المنطقة الوسطى. وتشكلت محكمة برئاسته، وتمت المحاكمة العلنية في المركز الثقافي في حمص. وكان الأسرى في المسجد البولوني هناك، وكانت محاكمة تاريخية في البداية، حيث سمح بالحضور للصحفيين والجماهير، وأثبت الشيخ مروان حديد بسالة منقطعة النظير في مواجهة القضاة القتلة. ومضى موقفه في هذه المحاكمة مثلاً رائعاً في تاريخ المحاكمات في سورية، ومما يذكر منه أن رئيس المحكمة قال له: أنت عميل تتحرك باسم الاستعمار. فأجابه:

الدنيا كلها تعرف من العميل، والثلاثون ألف جنيه التي سلمها عبدالناصر لميشيل عفلق ليست سراً، وقد فضحتها الإذاعات. لكن ميشيل عفلق رئيسكم قد بلعها كلها، ففاتتك حصتك.

وعندما هدّده أحد أعضاء المحكمة بالموت والحكم بالإعدام قال له مبتسماً:

لو كنت أعلم أنك تملك موتي وحياتي لعبدتك من دون الله. وما تدري، فلعلك تموت قبلي ولو حكمتني بالإعدام.

وأحس البعث بخطورة المحاكمة العلنية، فألغاها بعد جلستين، ثم أصدرت المحكمة أحكامها بإعدام ثمانية وعشرين شخصاً، ومصادرة أملاكهم، مع أحكام أخرى بالاشغال الشاقة والمؤبدة والمدد المختلفة على آخرين. وأثبت طلاس أنه خادم نصيري قذر -رغم زعم سنيته- فقد كان قذراً في رئاسته للمحكمة، وكان خدام وهو محافظ حماة، قد باعا أنفسهما للشيطان النصيري وسارعا في تنفيذ مخططاته. وصارا فيما بعد من أهم أركان حكم الأسد في سورية. ولا ندري إن كانت الأيام تكشف أنهما نصيريان مكتومان، أو أنهما عميلان قذران للنصيرية.

كان الفريق أمين الحافظ قد غادر حماة، وبقي على صلة بالأحداث، ورأى

النصيريون أنه مع بقاء هؤلاء العمالقة مروان وزملائه لا حياة لهم ولا استقرار لحياتهم. فكانت الخطة الرهيبة أن تحرك عزت جديد مباشرة مع قوة مسلحة ومضى إلى مدير السجن يطالب بالجناة لتنفيذ أحكام الإعدام فيهم، وذلك ليلة صدور الأحكام. وكان لدى مدير السجن بقية من ضمير، فرفض تسليمهم بحجة أن ليس لديه أوامر بذلك، واتصل بالعميد عبدالرحمن خليفاوي قائد المنطقة الوسطى يعلمه بذلك، حيث اتصل خليفاوي بالفريق الحافظ وأعلمه بالأمر، فأصدر الفريق الحافظ أوامره برفض تسليم الشيخ وزملائه لعزت جديد تحت طائلة المسؤولية، وأمر بأن يمضوا بهم إلى سجن تدمر بعيداً عن التوتر النصيري في قلب حماة. وجنّ جنون عزت جديد النصيري لما فاته من أمر إعدامهم.

وكان الشيخ الحامد رحمه الله على صلة مستمرة بالأحداث، وتناهى الى سمعه سوء معاملة الأسرى في تدمر، فاتصل بالعميد خليفاوي، وأعلمه أنه لا يضمن استقرار المدينة -حماة- أمام أخبار التعذيب الوحشي في السجن، وصدرت الأوامر بتغيير مدير السجن الذي كان درزياً حاقداً بمدير سني، وتحسنت معاملة الأسرى، وأخرجوا من الزنزانات الفردية.

وكان الشيخ الحامد -سيد حماة بلا منازع- قد اجتمع بعلماء حماة، وعرف شخص أمين الحافظ الذي يحمل في ثناياه مروءة العرب، وشهامة سنية، تدفعه أن لا يذبح السنة بيده، وعرض على العلماء التدخل والتوسط لدى الحافظ لحماية رجالات حماة من الإبادة. كان موقف العلماء أن يطلبوا الوساطة بتخفيف الأحكام من الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة أو غيرها. ورفض الشيخ الحامد ببصيرته النافذة هذا الموقف، وقا : أبداً، نحن نطالب بالعفو الشامل عنهم، لأننا إذا عرضنا تخفيف الأحكام فهذا يعني أننا نحن الذين حكمنا عليهم بالجريمة. وحين يبدي الشيخ رأيه ما كان يجرؤ أحد على مواجهته، ومضى فعلاً إلى القصر،

واستقبله الفريق الحافظ بحفاوة بالغة، فبقي واقفاً ينتظره مع أركان دولته، حتى سلم على الحضور وجلس فجلسوا.

لم يكن الحامد رَحِمَهُ اللهُ يعرف الرهبة من السلطان أو الخوف من الحاكم، رغم بريق النجوم الذهبية على أكتاف الطغاة. وعندما بدأ حديثه الذي أعده للمطالبة بالعفو عنهم، وقف منتصباً على قدميه ليتحدث، فما كان من الفريق الحافظ إلا أن وقف لهيبته واحتراماً لوقوفه، ووقف الحاضرون جميعاً بعد وقوف الفريق الحافظ، ودعاهم الشيخ الحامد للجلوس لأنه وقف من أجل الكلام، فرفض الحافظ الجلوس احتراماً لهيبة الشيخ، وتحدث ببلاغة وشجاعة وبساطة، وطالب الدولة بالعفو عن الشيخ مروان وإخوانه جميعاً، حتى يلتئم جرح حماة، ويهدأ الرعيف فيها، ووجد الفريق الحافظ نفسه في موقف حرج وصعب، فهو يعلم الحقد النصيري الدفين على مروان وإخوانه الذين معه، ونظر في وجوه زملائه رجال السلطة فوجدها تقطر بالسم والحقد على هذا الطلب، ولكنه ذكر أنه الفريق الحافظ سيد سورية الأول والشخصية الأولى فيها فلم لا يستغل سلطته؟ ورغم معرفته بأن النصيريين هم الذين جاؤوا به، وهم الذين يبعدونه، أبت شهامته عليه أن يخضع لهذه الضغوط، واتخذ القرار الفردي مباشرة، وبعد توقف بسيط قال للشيخ الحامد: طلبك نافذ وقد قررنا العفو عنهم. واهتبلها الشيخ الحامد قائلاً: ولتتموا معروفكم، وتطلقوا سراحهم الآن وتسلمونا إياهم مباشرة. فذكره الفريق الحافظ أن المحكومين ليسوا في دمشق، إنما هم في تدمر. فقال الشيخ: ننتظرهم هنا حتى تحضروهم، ولن نسافر إلى حماة إلا معهم.

وفعلاً صدرت أوامر الفريق الحافظ بتسليم المحكومين، حيث جاؤوا من تدمر إلى حمص، وهناك أبلغوا بالعفو عنهم، ولم يدخل الشيخ الحامد حماة إلا ومعه المحكومون جميعاً في رتل شعبي من السيارات أعاد لحماة كرامتها

المثلومة.

أزمة داخل اللجنة العسكرية:

وأدى قصف مسجد السلطان إلى إغضاب البلد، فأشعل موجة جديدة من الاضطرابات والمظاهرات في المدن الرئيسية، وأنزل إلى الشوارع الحرفيين مع أصحاب الدكاكين والعمال وأصحاب الصناعات اليدوية المتواضعين. كانوا يطالبون بالحريات السياسية، وإطلاق سراح السجناء السياسيين، وإنهاء حالة الطوارئ الطويلة التي فرضها البعث غداة انقلابه قبل عام. ولا شك أن البعثيين كانوا يتوقعون العداء من طبقات ملاك الأراضي وأبناء طبقات النخبة الأقدمين من سياسيين ورجال دين، ولكنهم فوجئوا باتساع مدى المعارضة لهم في المجتمع السوري التي لم تشمل الطبقات الوسطى فحسب، بل امتدت الى صفوف الطبقات العاملة من السنة في المدن. ولأول مرة استطاع حكام سورية الجدد أن يقيسوا مدى افتقارهم للشعبية، ولتخفيض درجة حرارة الجو المتأزم، وإيقاف مد الضغط الشعبي تخلى الفريق أمين الحافظ عن رئاسة الوزراء لشخص يمكن أن يطمئن اليه الناس، وهو صلاح الدين البيطار الدمشقي السني، والمنحدر من الطبقة الوسطى، الذي أذاع تعهداً بحماية الحريات الشخصية والعامة، ثم جرى إعداد دستور مؤقت على عجل، وكان واضحاً أن النظام قد أحس بحاجته إلى كسب الوقت. كما كان واضحاً بالنسبة لعفلق أن البعثيين المدنيين كانوا لا يملكون سوى القليل من التأثير على الأحداث. وبعد أن أحس بكآبة عميقة بسبب السجل المؤسف لثورة البعث، غادر سورية في شهر حزيران/يونيو ١٩٦٤ ليقضي عدة أشهر مع أخيه في ألمانيا الغربية. وكان لمخاوفه ما يبررها. ففي نهاية أيلول/سبتمبر استعاد أمين الحافظ رئاسة الوزارة من البيطار.

وخلال الشهور الثمانية عشر الأولى من الحكم تمكنت اللجنة العسكرية من التخلص من ثلاث أزمات كبرى هي: المعركة حتى الموت مع الناصريين، وسقوط رفاقهم في العراق، وأخيراً انتفاضة حماة. وكان من المحتم أن تقع خلافات بين الضباط عندما كانوا يتناقشون فيما بينهم في هذه القضايا ويكافحون للحفاظ على بقائهم. ولم يكن لدى محمد عمران أكبر هؤلاء رتبة ميل للكفاح القاسي من أجل البقاء، فقد كان يريد المصالحة مع الناصريين، وعارض استعمال الدبابات في حماة. وقد ساءه بروز أمين الحافظ الذي أحس بأنه غطى على زعامته هو. ولما كان عمران من الجانب المواجه لحماة من جبال العلويين فانه يعرف المدينة جيداً، وكان يرى بأن أهاليها يمكن كسبهم بدلاً من إخضاعهم بالقوة. وهكذا كانت مسألة كيف يجب أن يحكم الناس هي الموضوع الأهم في اللجنة، فهل يمكن تنفيذ برنامج قلب السلطة التقليدي رأساً على عقب كما يرغب هؤلاء الشباب الريفيون بأسلوب المصالحة؟ وهل أصحاب المال والنفوذ سيستسلمون دونما قتال؟ كان صلاح جديد يرى بأنه لا مفر من استعمال القوة، ولذلك فقد أقرّ أسلوب أمين الحافظ في البطش. ورأى في أحداث حماة سبباً لمتابعة التحرك وتحطيم طبقة الأعداء قبل أن يتم الإجهاز على اللجنة نفسها. ويبدو أن عمران كان أقل التزاماً بنهج جذري، وكان يحجم عن سفك الدماء، ومن هنا ساءت العلاقة بينه وبين جديد، وتخلخل التماسك فيما بين رفاق ١٩٦٠ الذين حافظوا منذ ذلك الحين على أسرار بعضهم بعضا.

أحداث الجامع الأموي بدمشق:

كان في دمشق ثلاث مجموعات إسلامية تتحرك في الساحة غير الإخوان المسلمين، وهذه المجموعات هي:

١ -جماعة المرابط، وعلى رأسها الدكتور أمين المصري، ومن أهم قياداتها الأساتذة عبدالرحمن الباني وجودت سعيد ومحمد القاسمي، وهي قريبة في فكرها مع الإخوان المسلمين، وكانت تقوم بمحاولات مستمرة للتنسيق معهم.

٢ -جماعة كتائب محمد: وهي جماعة تدعو إلى عمل مسلح لمواجهة النظام، ومن قادتها د. عدنان المصري وعبدالرحيم الطباع ومحمد كمال الخطيب.

٣ -مجموعة العلماء: وعلى رأسهم الشيوخ الأجلاء حسن حبنكة، وعبدالكريم الرفاعي وأحمد الدقر. وكان الجميع مستائين للتحول الكبير في سورية نحو الشيوعية، والانحلال والإباحية، وتحدي مشاعر الناس واستفزازهم من الحرس القومي المسلح، حيث كانت هناك حوادث فردية في الاعتداء على الشباب، والتحدي لمشاعر الشعب المسلم والاستهتار بعقائد الناس ومشاعرهم.

وقبيل أحداث حماة كان علماء دمشق قد اتخذوا قراراً مفاده أن لا يجري أي حدث في سورية إلا بعد قرار جماعي من علمائها. ومضى وفد فأبلغ هذا القرار للعلماء في حمص وحماة وحلب، وتلقى جميع العلماء هذا القرار بالموافقة والتحبيذ. غير أن العلماء كلهم بما فيهم علماء حماة فوجئوا باشتعال الأحداث في حماة. وعندما اتخذ القرار في دمشق بمساندة الإسلاميين في حماة أعلن سقوط حماة واستسلام الناس في الليلة نفسها التي تم فيها اتخاذ القرار.

ووضعت السلطة النصيرية خطة لضرب دمشق وإرهاب أهلها بعد أن أنْقذت حماة. فراحت تعمل بواسطة عملاء لها في صفوف العلماء والسذج من الناس لإثارتهم على السلطة، ومعرفة من يتجاوب مع الحركة الإسلامية. ويحدثني أحد القادة الذين عاشوا هذه المرحلة وشهدوا أحداثها فيقول: كنا نجتمع مع العلماء لاتخاذ القرار المناسب، وبث التوعية الإسلامية في صفوف المسلمين. وحدث

أن رسولاً لنا اعتُقل في طريقه إلى بيروت لمقابلة الأستاذ عصام العطار المراقب العام للإخوان المسلمين، ومعه بعض المبادئ الأساسية التي قررها مجلس شورى جماعة المرابط في محاولة توحيد الجماعتين، وتبع ذلك اعتقال قيادة الجماعة في ليلة واحدة في صلاة التراويح وهم د. أمين المصري، وجودت سعيد، وعبدالرحمن الباني. فقمت بإبلاغ ذويهم بعد الاعتقال وعرضت خدماتي عليهم. وفي اليوم الثاني من الاعتقال، فوجئت بإعلانات تدعو إلى محاضرة لي في جامع دنكز، وقد وزعت هذه الإعلانات في الجامعة والشوارع العامة. فتوقعت أن هناك مؤامرة تحاك للإيقاع بالإسلاميين، فكيف يعلن عن محاضرة لي دون علمي؟! ومضيت إلى المسجد متنكراً، فوجدته مزدحماً بالناس ينتظرونني، فأوعزت إلى بعض من أعرفهم بصرف الناس، وخرجت من الباب الآخر. ثم فضحت مؤامرة السلطة أكثر، حيث أعقب ذلك إعلانات مطبوعة موزعة في أنحاء دمشق باسم العلماء تدعو الناس إلى الاجتماع بالمسجد الأموي في اليوم التالي، فاستغربت ذلك كثيراً، ومضيت إلى بيت الشيخ حسن حنبكة -رحمه الله- لأعرف هل للعلماء علاقة في الأمر أم لا، وكانت صلتي بهم مستمرة، ووصلت إلى بيته بعد المغرب، ومكثت عنده حتى قرابة الفجر، دون أن أتمكن من الخلوص إليه، فالناس يتقاطرون نحوه والمخابرات تعج بينهم. ثم صليت الفجر، واختلست لحظة معه خلوت فيها إليه، وسألته عن اجتماع العلماء في المسجد الأموي. فكان جوابه قاطعاً وحاسماً: لا، وليس هذا هو الطريق. فعدت إلى الحي لأبلغ من أعرفهم بذلك، فقالوا لي إن الدكتور أمين المصري قد أفرج عنه من المعتقل، ومضى إلى بيت الشيخ أحمد القادري الذي لم أكن أعرفه من قبل، وشككت في الوضع أكثر من ذي قبل.

سألت عن بيت الشيخ المذكور ومضيت إليه، ولم يكن لي به سابق معرفة.

والتقيت بالدكتور المصري هناك مع بعض العلماء، وبعض النكرات الذين لا أعرفهم، ولا ندري كيف حضروا ومع من. وبعد التداول، تقرر مضي العلماء لبيت الشيخ أحمد الدقر. فانتقلنا إلى هناك، ثم تم الاتفاق على المضي إلى فضيلة الشيخ حسن حنبكة لاتخاذ القرار المناسب حول حضور الاجتماع المقرر في المسجد دون أن ندري من قرّره.

وعرضت على الإخوة العلماء أن أسبقهم إلى المسجد، وأهدئ الناس حتى لا تستغل السلطة هذا الحدث وتضرب الإسلاميين كما خططت. فوافقوا على ذلك. ومضيت للمسجد الأموي، حيث وجدته يعج بالناس والناس لا يزالون يتقاطرون إليه حسب الدعوة الموجهة.

فوجئت بعراك داخل المسجد بين الناس وبين الحرس القومي وبعض عناصر الجيش. بعض شباب الحرس القومي ينضم للشعب، ويسلم الحرس سلاحه بسهولة. صعدت المنبر، وخطبت بالناس، ودعوتهم إلى الهدوء قائلاً لهم: نحن بانتظار رأي العلماء، وهم مجتمعون الآن ليبلغونا قراراتهم. وحتى لا تحدث أي فوضى وضعت بعض الشباب حول المنبر ليحولوا دون وصول عناصر مشبوهة إليه، وتعود الفوضى ثانية، وأصعد ثانية الى المنبر، وبينما أنا أخطب، قطعت الكهرباء عن المسجد، ثم عن الحي كله، وأسمعت بصوتي جنبات المسجد كله، ودعوت إلى الهدوء والانشغال بقراءة القرآن.

وبدأت ملامح المؤامرة تتضح، فالشيخ أحمد القادري يصعد المنبر، ويدعو إلى المواجهة وحمل السلاح، وفي حركة مسرحية يتحدث عن ألفي ليرة سورية حاولت المخابرات أن تغريه فيها عندما دخل المسجد وقد أخذها، ويرفعها أمام الجماهير ويضعها عربوناً لشراء السلاح ومقاومة الثورة. ويدعو الناس إلى التجمع في مسيرة عارمة إلى بيت الشيخ حسن حنبكة. وسألته هل هذا هو قرار

العلماء. فقال لي: نعم هم أخبروني بذلك. وببساطة متناهية وافقنا على ذلك، وتداركت الأمر بأن طلبت الاتصال بالقصر والاستئذان من اللواء أمين الحافظ في هذه المسيرة. وخرج القادري وشيخ آخر اسمه جواد المرابط زعما أنهما اتصلا بالقصر ووافق على ذلك، وفي ساحة المسجد الأموي الكبير رحنا نصف الناس عشرين عشرين لنتحرك بالمسيرة. ولشدة الإعياء عندي دخلت المسجد لأغفو قليلاً ريثما تتم التعبئة لخمسة آلاف رجل تقريباً قد تجمعوا هناك.

ثم كانت المفاجأة الصاعقة التي صحوت عليها، الدبابة تدك باب المسجد، ويدخل الرائد سليم حاطوم مع مئتين من أتباعه، ويبدأ إطلاق النار من الرشاشات في المسجد على الناس، ويسقط بعض القتلى. فيتقاطر الناس مذعورين داخل المسجد، حتى يحصروهم في إحدى زواياه، ويطالبوهم بالاستسلام الكامل. ولم تُجدِ المقاومة، وقذائف السباب والشتيمة تملأ الأفق، واقتادوا الناس أذلاء إلى السجون، حيث كنت في إحدى الشاحنات التي تكدست بالناس. وقام أحد ضباط الحرس بالمشي فوق رؤوسنا بنعاله الغليظة، ورشاشه بيده، يصرخ بالناس كي يهتفوا للبعث. وعندما تلكأ البعض بدأ الضرب على الرؤوس بأكعبة الرشاشات وأخامص البنادق من عدد من الحرس القومي حتى راح كل من في الشاحنة يهتف: بعثية، بعثية . وآلمني المنظر فكبّرت، ومع التكبير انهال الضرب عليّ بأخمص البنادق حتى تجلل وجهي وثيابي بالدم، وزدت غضباً واشتعالاً فوقفت. فتوجهت الرشاشات صوبي، فأمسكت بفوهتي الرشاشين بكلتا يدي، وكأني أعطيت قوة ربانية، ورحت أصرخ بالجماهير المحتشدة حولنا والشاحنات تقطع بنا الطريق نحو السجون: لا اله إلا اللّٰه وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، لا إله إلا اللّٰه، واللّٰه أكبر. وعجز الحرسيان أن يفلتا رشاشهما من قبضتي، وتابعت التكبير والذكر حتى نزلوا بنا إلى الأقبية. وهناك ثأروا مني

بالبصاق علي ومتابعة ضربي وركلي.

ثم تم توزيعنا حسب الأعمار. وقبل المسير بنا إلى المزة. صلينا العصر في هذه الأقبية، وجاءنا اللواء الحافظ واللواء أحمد سويداني يلقون علينا محاضرة عن الاشتراكية والبعث، ووقفت لأتكلم، والدم يغمرني في ثيابي ووجهي، فجذبني الحاضرون ومنعوني عن الكلام، وصرخت بالحافظ أحدثه عن الضرب بالنعال والسلاح المستمر علينا، فأصدر أوامره بتضميد جراحنا، وساروا بنا إلى المزة. حيث نزلوا بنا إلى أقبية التعذيب تنفيذاً لأوامر الحافظ القاضية بتضميد الجراح.

ويبدأ التعذيب بالكهرباء. وعندما تابعت التكبير والذكر صارخاً في وجوه الزبانية، هددوني بنقل الكهرباء إلى قبلي ودبري، فصمت قابلاً باستعماله في يدي وجسمي كله.

اقتادونا بعد بضعة أيام إلى المحاكمة، والتي كانت في المسرح العسكري بالربوة، وكان قضاة المحكمة هم الجلادون أنفسهم الذين دكوا المسجد بالدبابات، وأطلقوا النار على الآمنين العزّل من السلاح. كان القاضيان هما الرائد سليم حاطوم، والمقدم صلاح الضلي. وبعد جولة من المحاكمات الرخيصة قدّر لي أن أجتمع في مهجع واحد مع إخواني في القيادة، الدكتور المصري، والأستاذان عبد الرحمن الباني وجودت سعيد، وقد تهشمت الوجوه، وتورمت من اللكمات والتعذيب المستمر. وكان الزبانية يقومون بنتف اللحى كلما عنّ لهم ذلك، ولقصر لحيتي لم يشفوا غليلهم إلا بالبصاق المستمر في وجهي، وأكثر من مرة كانوا يدخلون الأحذية في أفواهنا لزيادة الإهانة. وكانوا يعودون بنا إلى سجن المزة حيث وزعنا على زنانين منفردة، والبرد القارس يذبحنا، ولا غطاء ولا وطاء إلا بطانية واحدة. وفي إحدى الزنزانات قرأت وصية الشيخ محمد بن كمال

الخطيب الذي أبلغ بالحكم عليه بالإعدام مع مجموعة من كتائب محمد التي حوكمت بصفتها تنظيماً مسلحاً.

ثم هدأت المعاملة، وعادوا بنا إلى مهجع كبير نعيش مع بعضنا، حيث أعدنا حياتنا الاسلامية فيها. وطلبوا منا كتابة تاريخ حياتنا في مراحل من التحقيق، ولكن التعذيب كان لا ينقطع كل فترة وفترة. حيث أمضينا اثني عشر يوماً في التعذيب والزنزانات، واثني عشر يوماً أخرى في المهاجع العادية. ولعل بعض الوساطات قد تمت، فأفرج عن تنظيمنا (جماعة المرابط) بالبراءة. بينما حكم على آخرين بالإعدام، ومدد مختلفة بالسجن. غير أن الفريق الحافظ تدخل وأطلق سراح الجميع. بينما رافق هذه المحاكمات عرض قضية كوهين، وقصد من ذلك تلويث سمعة الإسلاميين لإيهام الأمة بتعاملهم مع دولة أجنبية، وكان ذلك في أوائل كانون الثاني ١٩٦٥.

وفاة الدكتور السباعي:

كان لوفاة الدكتور مصطفى السباعي في ١٩٦٤/١٠/٣ أكبر الأثر في خلو الساحة الإسلامية من رجالها الكبار. فقد كان المؤسس لحركة الإخوان المسلمين في سورية، وأول مراقب عام لها. واستمر على رأسها حتى وفاته رحمه الله. وكان ملء الدنيا الإسلامية، وفارس الساحة فيها في كل المجالات العلمية والثقافية والسياسية والحركية، ولم تشهد سوريا حتى اليوم نظيراً له في كفاءته وقيادته وحيويته. وقد اعترف بعظمة هذه الشخصية أعداؤه قبل أصدقائه.

وسأعرض هنا فقط لكلمتين قيلتا في تأبينه بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته، حيث أقيم له على مدرج جامعة دمشق حفل تأبيني كبير لم تشهد سوريا مثيلاً له، وكان تحت رعاية وزير التربية والتعليم السوري.

كلمة وكيل الجامعة: كان وكيل الجامعة الدكتور إسماعيل عزت هو الذي اختاره البعثيون ليكون في هذا المنصب الهام، فماذا قال في السباعي؟

«.. مات رجل الجامعة .. عزيز على الطبيب الذي يعيش حياته في صراع مع قوى الفناء أن يلقي سلاحاً ويؤبن انساناً أصابته مصيبة الموت، وعسير على المرء أن يقف موقفاً يرثي به زميلاً صديقاً، فاعذروني اذا أوجزت، وحسبي كلمات هي عصارة القلب الجريح.. يقطر دماً مخضباً بالدموع.

ماذا عساي أن أقول عن مصطفى السباعي؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يفي الرجل حقه؟ أأتحدث عما فعل مصطفى السباعي للجامعة؟ وهل أستطيع؟ لقد كان الرجل وحده جامعة. كان معلماً. ويسير على المرء أن يكون مدرساً يلقي الدروس بلا عدد، ويسير عليه أن يكون مؤلفاً يضع الكتب الضخام، ويسير عليه أن يكون بحاثة يغوص على النفيس. لكن أن يكون معلماً أمر عسير.

المعلم ينفذ إلى أعماق طلابه، يصهرهم ويصوغهم بقالبه، يصنعهم كما يشاء، يحيا فيهم، يجعلهم أناساً غير الناس، يفتح لهم آفاقاً جديدة، ينقلهم إلى عالم جديد.

وهكذا كان مصطفى السباعي، كان معلماً، كل طلابه يقولون ذلك، من كان منهم في صفه ومن لم يكن، ومن مشى على دربه، ومن مشى على غير دربه.

كان معلماً، كان بناءً، أنشأ في الجامعة كلية، وإنشاء كلية ليس بالأمر الهين. ورعاها حتى آتت أكلها، وأينعت ثمارها، واستمر يرعاها، ويهبها من روحه وقلبه ما شاءت.

ثم عدا عليه المرض - ويح المرض - منذ سبع سنين. المرض لا يقعد النفوس الكبار. لقد ظل مصطفى السباعي رغم المرض ورغم الألم ورغم السقام يغالب المرض والألم والسقام بيد، ويمسك باليد الأخرى قلمه يكتب به للعلم

كل يوم جديداً ونفيساً، ويقدّم إلى طلابه ما يستطيع وأكثر مما يستطيع.

والجامعة التي تحاول اليوم أن تحيي ذكرى مصطفى السباعي، ستحاول أن تعدد بعض ما فعل، وسيحاول الخطباء أن يذكروا باسم كلياتهم عنه الكثير. ولكن الجامعة لا تزعم بعد ذلك أنها وفّته حقه. كل ما في الأمر أنها محاولة وفاء. وسيمضي الزمن ويرى الناس من نتاج كلية الشريعة في الجامعة ما يروقهم، ويبقى طلاب الشريعة والحقوق تلامذة العلم الذي ضمنه الرجل في كتبه، وشمله بمحاضراته... فهل سيبقون يذكرون مصطفى السباعي منشئ كلية الشريعة وعميدها الأول ورائدها، ومؤلف هذه الكتب القيمة وشارحها؟ لو أنهم فعلوا ذلك لكان له الفضل أن جعلهم يذكرون صاحب الفضل، والرجل ليس بحاجة إلى أن يذكره الناس.

لقد كان العلم عنده فريضة بكل ماتضمه كلمة الفريضة من معاني الطهارة والنظافة والإخلاص، ولقد عاش للعلم خالصاً، لم تشب علمه شائبة رياء، ومات والمداد لم يجف...

كان يكتب ومات، هذه حياة عالم.

لقد قلت إنني لن أطيل، لأنني لا أستطيع أن أطيل.

الحزن يمنعني... يلجمني... يمسك لساني عن البكاء.

رحمة الله عليك يا مصطفى وبركاته في الخالدين» [(١)].

الدكتور محمد الفاضل: وكانت كلمة عميد كلية الحقوق في جامعة دمشق الدكتور محمد الفاضل هي الكلمة الثانية بعد كلمة وكيل الجامعة. وعنوان الكلمة: السباعي رائد الطليعة في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي.

---

(١) مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه. جمع: محمد مصطفى السباعي، دار الوراق. ص ص ٦١-٦٣.

وما أعلم خصماً أنصف خصمه كما أنصف الفاضل خصمه السباعي، كما لا أعلم أن كاتباً وفى السباعي حقه – خصماً أو محباً أو تلميذاً – كما وفاه الدكتور الفاضل. والخصومة جذرية بين الرجلين، فالسباعي هو المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية، والفاضل أحد أعمدة حزب البعث في سورية، والسباعي من المسلمين السنة، والفاضل من الطائفة النصيرية، ومن أركانها وأعمدتها، وكان المستشار السياسي لحافظ الأسد الرئيس السوري.

وقد قضى الدكتور الفاضل غيلة في مراحل الصدام بين النظام السوري والإسلاميين، وإن كان الشباب الإسلامي المتحمس المجاهد هو الذي اغتاله، فقد أخطأ بحقه وحق الأمة، لأن من يكون بهذه الموضوعية لا بد أنه سيخدم أمته، بغض النظر عن اتجاهه ومبدئه، والذي يحمل هذه القيم عن الإسلام، لا يفرط بحق العروبة والإسلام. ولو لم يكن له إلا هذه الكلمة لكانت تشفع له من أن يمس بسوء من مخلص من أبناء هذه الأمة. ولكنها الفتنة.

فماذا قال الدكتور الفاضل عن السباعي؟

«السيد وزير التربية والتعليم. السادة الوزراء والسفراء. أيها الحفل الكريم

إن الشعور بمرارة الفجيعة، وفداحة الخطب، يزداد على الزمن عمقه، واتساعه وامتداده، كلما كانت شخصية الفقيد عميقة الاتصال بآفاق الحياة، ممتدة الجنبات في رحاب المعرفة.. والفقيد الراحل من هذا الطراز الإنساني الرفيع: كلي النظرة، قوي الإحاطة والشمول، متعدد الجوانب، متشعب المواهب، رائد.. في الطليعة من رواد الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي في العالمين العربي والاسلامي.

حمل زنده راية الدعوة الاسلامية زهاء ربع قرن، دون أن يهن الزند ويلتوي، ورفع ساعده راية محمد، فلم يضعف الساعد، وبقيت راية محمد -صلى الله

عليك يا محمد- خفاقة تزحم النجوم.. ودعا لسانه الجريء الحر المتدفق إلى الوحدة تحت علم القرآن، فنديت العربية بالحق على لسانه، واعشوشبت المنابر بالمعين الثر من بيانه، وكان في ذلك كله عزمة لا تسعها قدرة، وشعاعاً لا يحصره أفق، وحيوية مؤمنة دافقة صمدت في وجه الشدة حتى خجلت الشدة ذاتها من الصمود.

ثم قضى الفارس الكبير كما يقضي الفارس المعلم في قلب المعركة، كبرياء النصر في عينيه، ودعوة الحق بين شفتيه، ووهج العقيدة المؤمنة يغمر جنبيه، ولواء المعرفة مشرع بين زنديه، وهذا الأمل العريض، بمستقبل كتائب الايمان في الأجيال الصاعدة من بعده يملأ شغاف نفسه، ويأخذ بمجامع لُبّه... فلا والله ما بقيت ريحانة من رياحين الغوطتين إلا تمنت أن تكون ضفيرة من ضفائر المجد على جبينه، ولا والله ما بقيت مزنة طيبة عطرة من سحائب رياض الفيحاء إلا رجت أن يضمخ بها جثمانه، أو أن يندى بها ضريحه.

ومن هنا كان مأتم الفقيد الكبير السباعي مأتم الأمة العربية جمعاء، ويوم ذكراه من أيام ثكل الأمة جمعاء.

أيها السيدات والسادة..

لقد كانت لي غبطة الاتصال بالفقيد الكبير منذ أن عين مدرساً في كلية الحقوق في جامعة دمشق، ولم أكن أعلم عنه إلا ما روته لنا آيات جهاده ضد الانتداب وزبانيته، وكانت شخصية السباعي، كشخصية كل نابغ عظيم في هذا البلد، يلفها خصومه بأوشحة من الخرافات والأساطير والحكايات التي تمليها المصالح والأحقاد. وأشهد إنني ورعيلاً من زملائي أعضاء هيئة التدريس لم نقرب الفقيد الكبير في السنوات الأولى من معرفتنا به إلا على حذر شديد، ثم لم يلبث أن تبدّد هذا الحذر. وغدونا بحكم الاتصال الدائم والنقاش العلمي

المنهجي الهادئ، كلما ازددنا من الفقيد الغالي قرباً، ازددنا له حباً وبه تقديراً وإعجاباً.

وكانت له يرحمه الله آراء، وكانت لنا آراء. فكنا نتقارب في النظر تارة، ونتباعد تارة أخرى، وأشهد أن اختلاف الرأي لم يفسد علينا مودتنا، ولم ينتقص من الشعور المتبادل بالاحترام والتقدير، وأشهد أنه قد كان -طيب الله ثراه- رقيق الإهاب، متفتح الذهن، يتكلم فيشعّ عقله في معانيه ويُشيع ذكاؤه في مراميه، ويسيل شعوره الحي على ألفاظه وعباراته، ويحيا القضية التي يعمل لها بكل حواسه ومشاعره، بديهة حاضرة، وذهن متوقد نفاذ، واطلاع شامل، ومنطق مستقيم، ورجولة بعيدة الغور، سنية المقصد. كان -نضّر الله مثواه- ذكياً إلى درجة الحكمة، مشبوب العزم إلى درجة المغامرة، طموح النفس فلا يحصر أفقه بأس، ولا يحدّ غايته مطلب، بعيد الهمة فلا يُضلّه كغيره شارد الخيال، ولا يغرّه كغيره خادع الامل، كبير القلب فلا يشوب غرضه سوء، ورث شمائل العروبة الأصيلة، ورث حفظ الكرامة ورعاية الحق، والإنصاف بالأريحية والنجدة، فكان عربياً بدمه، مسلماً بخلقه وعقيدته، ولم يكن -والعياذ بالله- من أولئك الشعوبيين الذين يعيشون على الأمة العربية ولا ينتسبون إليها.

لقد اعتنق السباعي في رأيي- وهذا ما يجعله عظيماً في عيني -عقيدة، وظل أمينا لها بلسانه وقلمه حتى آخر نسمة من حياته، عقيدته: أن دعوة القومية العربية التي بعثت من جديد لتلم شتات العرب في كل قطر، وتجعل منهم أمة موحدة الرغائب والقوى يجب أن تقوم على أساس من قيم الإسلام الروحية وتعاليمه الأصيلة، وتراثه الحضاري الخالد.

إن الإسلام كان وسيبقى، ويجب أن يبقى ظئراً للعروبة، حِماها حِماه، وقيمها مشتقة من قيمه مستلهمة منها، متساوقة ومنسجمة معها.

هل تريدون أيها السيدات والسادة، برهاناً أدل على عقيدة الفقيد هذه مما خطه بقلمه الناري في كتابه القيم اشتراكية الإسلام، وهو الكتاب الذي نال جائزة الدولة التشجيعية في ظل الوحدة. اسمعوه يقول: إن اشتراكية الإسلام أخذت من العرب وثنية متردية، وقبائل متفرقة، وحياة خشنة، وعزلة موحشة، وأعطتهم توحيداً متسامياً، وعيشاً رخياً، وأمة واحدة، وقيادة لمواكب النور في تاريخ الإنسانية كلها.أخذت من العالم عقائده المتفسخة، وملوكه الظلمة، وحيوانيته المتقاتلة، وأعطته عقيدة محررة، وقيادة ساهرة، وإنسانية بالنبل والخير زاخرة.

أخذت من العرب (أبا جهل) وأعطتهم (أبا بكر). أخذت من الفرس (مزدك) وأعطتهم (أبو حنيفة)، أخذت من العراق (رستم) وأعطتها (سعداً)، أخذت من مصر (المقوقس) وأعطتها (عمراً)، أخذت من الشام (هرقل) وأعطتها (معاوية)، أخذت من قيادة العالم (كسرى وقيصر) وأعطتها (خالداً وعمراً)، أخذت من العالم إمبراطوريتين أفنتا الشعوب: إمبراطورية الفرس في الشرق، وإمبراطورية الروم في الغرب، وأعطت العالم (حضارتين) بعثتا المشرق الوثني والغرب الهمجي من رقدتيهما: حضارة (بغداد) في المشرق (وقرطبة) في المغرب.

وثمة عقيدة ثانية ما حاد عنها السباعي في كل ما عرفته من حياته وهي: أن الإنسان ما خلق إلا ليكون حراً. فمن أقدس واجباته أن يجاهد في سبيل حريته بغير هوادة ولا ملل، ولا سيما حرية الفكر والضمير. بيد أن هذه الحرية في رأي السباعي يجب أن تمارس في إطار من القيم الخلقية، والفضائل الروحية. فشرف الكلمة يجب أن يقدم على حريتها.. لنخشع أمام هذه العبارة الفذة من عباراته:

«إن الذين يزعمون أن من حقهم أن يقولوا ما يشاؤون باسم حرية الكلمة ينسون أن شرف الكلمة قبل حريتها، ولم أجد أمة تسمح بالخيانة الوطنية باسم الحرية. ولكن نفراً عندنا يريدون خيانة الشرف الاجتماعي باسم الحرية، ولو كان

عندنا رأي عام واع لحاكمهم كما يحاكم خونة الوطن في قضاياه الوطنية» [1].

ثم إن ثمة عقيدة ثالثة، تكاد تكون صفوة حياة الفقيد الكبير، بل هي جوهر دعوته الإصلاحية التي تعتبر -في نظري- امتداداً لدعوة كبار المصلحين في العالمين العربي والإسلامي، وتكاد تسلكه في العقد الثمين الذي من بعض لآلئه جمال الدين الأفغاني وعبدالرحمن الكواكبي ومحمد عبده.

اسمعوه -تغمده الله برحمته- يعرب عن رأيه فيقول:

« الذين يطمسون وجه الشريعة المشرق بجهودهم أسوأ أثراً من الذين يطمسونه بجحودهم » [2]. ثم اسمعوا من حكمه الغوالي:

« الذين يلبسون لبوس الدين ثم يستغلونه أشد خطراً على الدين ممن يكشفون عن وجوههم فيحاربونه » [3].

ويضيف فقيدنا الكبير:

« مصيبة الدين في جميع عصوره بفئتين: فئة أساءت فهمه، وفئة أتقنت استغلاله.. تلك ضللت المؤمنين به، وهذه أعطت الجاحدين حجة عليه » [4].

ويبلغ فقيدنا الغالي القمة في الدعوة إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً، وفي التحرر مما علق بالدين في عهود الانحطاط، وما يبعده عن أصالة الرسالة المحمدية فيقول:

« حين تضيع معاني الدين، وتبقى مظاهره، تصبح العبادة عادة، والصلاة حركات، والصوم جوعاً، والذكر تمايلاً، والزهد تخايلاً، والخشوع تماوتاً، والعلم

---

(١) من كتاب هكذا علمتني الحياة، القسم الأول/ ١٣٩.

(٢) المصدر نفسه /٨٣ .

(٣) المصدر نفسه /١٧٧ .

(٤) المصدر نفسه /١٧٧ بند ٦٩٧ .

تجملاً، والجهاد تفاخراً، والورع سخفاً، والوقار بلادة، والفرائض مهملة، والسنن مشغلة.

وحينئذ يرى أدعياء الدين عسف الظالمين عدلاً، وباطلهم حقاً، وصراخ المستضعفين تمرداً، ومطالبتهم بحقهم ظلماً، ودعوة الإصلاح فتنة، والوقوف في وجه الظالمين شراً.

وحينئذ تصبح حقوق الناس مهدرة، وأباطيل الظالمين مقدسة، وتختل الموازين، فالمعروف منكر، والمنكر معروف.

وحينئذ يكثر اللصوص باسم حماية الضعفاء، وقطاع الطرق باسم مقاومة الظالمين، والطغاة باسم تحرير الشعب، والدجالون باسم الهداية والإصلاح، والملحدون بحجة أن الدين أفيون الشعوب» [1].

أيها السيدات والسادة ..

هذه قبسات يسيرة من الدعوة الإصلاحية الحرة التي حمل مشعلها نسرنا الصريع في آفاق دنيا العرب والمسلمين، وما أخالني -مهما أفضت فيه- إلا أن كلمتي تضيق عن استيعاب كنهه. وتنكمش حواشيها عن عميق ذاته، وحسبي أن أقول لكم: إذا ما ذكرتم الفقيد الكبير مصطفى السباعي فاذكروا الداعية المصلح في زمن عز فيه الدعاة المصلحون، واذكروا فارساً من فرسان المنابر، وكاتباً أديباً، ومؤلفاً بارعاً، وفقيهاً مجدداً، وأستاذاً جامعياً عالماً، قضى نحبه في طلب العلم ومن أجل العلم، واذكروا له فكرته الخلاقة المبدعة في إنشاء موسوعة للفقه الإسلامي، واذكروا له دفاعه عن (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) وشرحه الرائع لقانون الأحوال الشخصية، واذكروا له (اشتراكية الإسلام)، و(المرأة بين

---

(١) هكذا علمتني الحياة، للدكتور السباعي رحمه الله / ٢٢٦ .

الفقه والقانون)، وما باهى به الملأ (من روائع حضارتنا) وما نثره من خواطره وأفكاره الاجتماعية في كتابه المليء بالتجربة والحكمة: (هكذا علمتني الحياة)، وما وقف له جهده العلمي القيم من بحوث وآراء في مجلته (حضارة الإسلام).

ثم اذكروا -أيها السيدات والسادة- فوق كل هذا، وبعد كل هذا، اذكروا رجلاً سار في مقدمة الرعيل الأول من فرسان اليقظة الحديثة في دنيا العرب،حيث المسالك وعرة، والعقبات في وجه المصلحين أكثر من أن تحصى، فما لوى عنان جواده يمنة ولا يسرة، ولا ارتد منهوكاً عن المقدمة إلى المؤخرة، بل ظل فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي طيلة حياته ضميراً حياً لا يسخّر، وجبيناً عالياً لا يعفّر.

ولقد شوهد السباعي، وإخوان السباعي في حومة فلسطين -رعى الله فلسطين- يتسعرون بالإقدام، ويتفجرون بالحمية الوطنية، ويهتفون بالتضحية، ويجدعون بالإيمان أنف النكبة بينما كان الغواة المضللون يلتهمون زاد الأمة العربية مع الوحش، وينضجون شواءهم في حريقها.

(يتوجه الدكتور الفاضل في هذه اللحظة إلى صورة الفقيد السباعي في القاعة يخاطبه أمام الجماهير).

«فيا أخي وزميلي أبا حسان

لطالما صارحتني الحديث، ولشدّما اختلفنا حيناً، واتفقنا حيناً، فللَّه أنت اليوم ما أفصحك ساكتاً، وما أعياني متكلماً، ما أحراك بالكلام، وأحراني بالصمت والإصغاء، لست أبكيك لأنك حيث أنت في غنى عن دموعي، ولأنك حي في ضمائر إخوانك الجامعيين وغير الجامعيين، حي في وجدان البقاء.

ولست أرثيك يا زميلي، فنحن الأحياء أجدر بالرثاء، وأحق بالدموع منك، لأنك نزعت عنك خوف الموت، أما نحن فما برحنا كالقصبة المرتجفة على

سبيل الموت والحياة.

أنا واثق يا صديقي أنه لن يرضيك ولن يرضينا أن يكون كل وفائنا لك حفلة تأبينية، وبضع كلمات رثاء لك.. ولكن الوفاء حق الوفاء أن يعمل المسؤولون في جامعة دمشق على تخليد ذكراك بتخليد دعوتك، ونشر رسالتك، والإبقاء على مؤلفاتك، والسهر على تحقيق مشروعك العظيم في موسوعة الفقه الإسلامي. فهذا الذي يجدي، وهذا الذي يرضي..

رحمك الله يا أبا حسان رحمة واسعة، ورضي عنك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وجزاك خيراً عن جهادك ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾[1] صدق الله العظيم» انتهت الكلمة.

وأعتقد لو أن حفلة التأبين هذه تمت في ظل دولة الإخوان المسلمين لن تكون أعظم من ذلك.

---

(١) سورة الحديد، الآية ١٢.

الفصل الثالث
الصراعات داخل البعث

سقوط محمد عمران:

«تمت هندسة سقوط عمران بسرعة لا رحمة فيها، فعندما شعر عمران بالعزلة داخل اللجنة العسكرية، اتجه إلى القيادة القومية للحزب للحصول على الدعم، وهي حركة جعلت عفلق يعود مسرعاً من ألمانيا في تشرين الثاني على أمل أن يقلب الطاولة على الضباط الذين حطوا من قدره، وعندئذ قام عمران بحركة خاطئة، فحنث يمين المحافظة على السرية، وكشف الغطاء عن اللجنة العسكرية، وباح لعفلق وجماعته بخططها القديمة التي وضعت في القاهرة، وأساليب عمل اللجنة الداخلية، وطموحها في السيطرة السرية على قواعد وأجهزة الحزب، وتكتيكاتها في التحرك وراء الكواليس، ولا بد أن عفلق كان أصلاً يشك بالكثير من الأمور. أما بالنسبة للآخرين، ولا سيما أعضاء القيادة القومية غير السوريين فقد كانت مكاشفات عمران صدمة قاسية. ولقي عمران عقوبة فورية على يد زملائه السابقين، ذلك أن اللجنة كانت تطبق عدالة قاسية خاصة بها، فجردته من مسؤولياته السابقة، وأرسلته دون المزيد من الضجيج ليخدم الثورة كسفير لسوريا في إسبانيا، البلد الذي أصبح معروفاً لدى السياسيين العراقيين والسوريين غير المرغوب فيهم. وكان إذلال عمران إذلالا لعفلق، وفي محاولة فاشلة لتأكيد سلطته كأمين عام طلب من القيادة القومية أن تُحل القيادة القطرية التي يسيطر عليها الضباط، ولكن الحزب هبّ ضده في القطر، فأرغمه على الرجوع عن قراره، وفي هذا الوقت سأل بعثي قديم عفلق عن الدور الذي يلعبه حزبه في

الحكومة، ويقال إن عفلق أجاب: (حوالي واحد على ألف من واحد بالمائة)»[1].

إن هذا الكلام يعني أن محمد عمران خان طائفته، ولا حل لمن يخون طائفته إلا الإسقاط.

«وبنفي عمران وإسكات عفلق تحرك المتشددون على الفور لتحطيم قاعدة القوة الاقتصادية لبورجوازيي المدن. وذلك في رأيهم هو الشرط الأول لبناء نظام جديد أكثر مساواة.

وفي الأسبوع الأول من كانون الثاني ١٩٦٥ جرى تأميم حوالي مائة شركة، كان كثير منها مجرد ورشات، تستخدم في مجموعها اثني عشر ألفاً من العمال. وقال المنتقدون ساخرين بأن أسماء الشركات التي تقرر الاستيلاء عليها قد أخذت من دليل التلفون.وعلى كل حال فسرعان ما امتدت ملكية الدولة إلى توليد الكهرباء، وتوزيع النفط، وحلج الأقطان، وحوالي سبعين بالمائة من تجارة التصدير والاستيراد.

وشعر تجار دمشق بأنهم مهددون بالدمار، فاستجمعوا قواهم مرة أخرى. ومن جديد قاموا بدعم من الوعاظ المسلمين بإغلاق دكاكينهم كإشارة تقليدية للتحدي. غير أن الحرس القومي للحزب، وكتائب العمال المسلحة حديثة التشكيل كانوا لهم بالمرصاد هذه المرة. فقامت زمر من البعثيين الشباب بتكسير واجهات الدكاكين المغلقة[2]، وصودرت عشرات المتاجر فوراً. ولتحييد

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل / ١٦٠ .

(٢) لا بد من الإشارة إلى أن هذه الإجراءات في تكسير واجهات المحال التجارية بالقوة، لم يسبق أن شهدت سورية مثيلاً له في عهد الاستعمار الفرنسي المدجج بالسلاح. كان الإضراب يستمر أربعين يوماً دون أن تجرؤ الدولة المحتلة على ذلك. والسيطرة على الأوقاف إجراء جديد كذلك حوّل العلماء خارج المساجد، وترك فيه أبواق السلطة.

المساجد أمسكت الدولة لنفسها بحق تعيين وعزل أئمة المساجد، وسيطرت على إدارة الأوقاف (المؤسسات الدينية) المصدر الأساسي للوصايا المالية الإسلامية»[1].

سقوط البعث والبعثيين السنة في انقلاب ١٩٦٦

يحدثنا (سيل) عن سقوط البعث، بينما يحدثنا (فان دام) عن سقوط البعثيين السنة، حيث تكتمل الصورة بعد ذلك من خلال القائد الفعلي لسورية آنذاك اللواء صلاح جديد. ونقول نحن ابتداء: إن صلاح جديد شقيق غسان جديد قائد القوميين السوريين، والذي اغتاله البعثيون آنذاك. نقول: إن صلاح جديد قد خطط للثأر لأخيه بإنهاء حزب البعث. واستطاع بعد عشر سنوات أن يحطم الحزب من داخله وينهيه على الساحة. ومن جهة ثانية، فقد كانت خطة الطائفة إنهاء (السنة) تحت أي ستار، ولو كانوا بعثيين، فكان لا بد من هذا الانقلاب لمسح وجودهم من الجيش.

ولإيضاح هاتين المقولتين، نستعرض الساحة السورية من هذين الكاتبين.

الصراع مع عفلق: مرت الزعامة المدنية في حزب البعث بفترة أكثر صعوبة وقسوة بعد إبعاد عمران. فالأسد وجديد، وقد رأيا أن الأعداء يهددون من الداخل ومن الخارج لم يعد لديهما أي صبر على تحيز هؤلاء المدنيين ضد الجيش، وكانا مستعجلين لتنحية قادة الحزب الذين يعتبرانهم مشوشي الفكر وسيئي السمعة. وكان السؤال الملح: لمن سيكون الحزب؟

وبالرغم من أن قيادة عفلق القومية قد صارعت في سبيل كبح اللجنة

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل / ١٦١.

العسكرية، وذلك عن طريق الاحتكام إلى أنظمة الحزب وقواعده، واستعمالها ضد الضباط، فقد كان واضحاً أن المبادرات كانت في أيدي القوة المعادية لعفلق، وهم البعثيون من قواعد الحزب في المناطق النائية مثل دير الزور على نهر الفرات، وحوران في الجنوب، واللاذقية على الساحل. وكان هؤلاء قد أبقوا بصورة سرية على فروع الحزب في مناطقهم خلال الوحدة، وعجز عفلق عن كسب ولائهم من جديد بعد إعادة إحياء الحزب، وكان نفورهم من عفلق كبيراً لدرجة أنهم أول الأمر رفضوا المشاركة في أنشطة الحزب حتى بعد انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣، وقد وصفهم الأسد بأنهم الخلايا الحقيقية للحزب. وكان هؤلاء هم الذين حاولت اللجنة العسكرية أن تجري اتصالات معهم عندما كانت بصدد إنشاء شبكاتها. وهكذا راح الأسد يخطب ودهم، فبرهنوا على أنهم حلفاء جيدون للجنة العسكرية في مبارزتها الوشيكة مع الزعماء القدامى.

ولكن ما هو السبب الجوهري لنزاع الضباط مع عفلق؟ بعد سنوات عديدة، وبعد انتصاره في المعركة بزمن طويل، أظهر الأسد شعوراً قوياً يشير إلى الهوة الواسعة بين عفلق وبين الضباط. كانوا يشجبونه لأنه أوتوقراطي لا يتواصل مع قواعد الحزب، ولأنه قام بحل الحزب، ولكونه ذا نزعات يمينية. إلا أن هناك أيضاً الفجوة التي تفصل بين جيلين وثقافتين وأسلوبين، فعفلق والبيطار، اللذان ولدا ونشآ في دمشق، وتشرّبا بالدماثة والسلوكيات الدمشقية، كانا في الخمسينات من عمرهما في حين كان الضباط أصغر منهما بحوالي عشرين عاماً، وكانوا ينحدرون من فلاحين. وبينما كان القادة الكبار قد درسوا في الصوربون وتأدبوا بآداب أوربا وفلسفتها، وكانوا يشعرون بأنهم في مجالهم في عالم الأفكار المجردة، فإن العسكريين لم يكونوا كذلك ولم يحصلوا -فيما عدا تدريبهم العسكري- على أي ثقافة تتجاوز مناهج الدراسة الثانوية في المحافظات. ولذا

فقد كان الاحتمال ضئيلاً أو معدوماً في أن يَكنّ رجال مختلفون هذا الاختلاف احتراماً لبعضهم البعض...

وقد خاض الطرفان صراعهما في إطار الحزب. وعندما تحدى الضباط عفلق، فإنهم قلبوا هرم الحزب رأساً على عقب، وانتزعوا السلطة النهائية من يد قيادته القومية، ووضعوها في يد القيادة القطرية، أي في أيديهم هم، ثم عقدوا مؤتمراً قطرياً في آذار/مارس ١٩٦٥ لإقرار مبدأ كون الحكومة خاضعة كلياً للحزب، وأن الأمين القطري يجب أن يكون حكماً رئيساً للدولة، وأن القيادة القطرية هي التي تعيّن رئيس الوزراء والوزراء ورئيس الأركان العامة وكبار القادة العسكريين، وهكذا لم يبق لعفلق وقيادته إلا أقل القليل.

وشعر عفلق باضطراب وقلق بالغين من الطريقة التي كانت تتحرك بها الأمور. وكان متلهفاً إلى إحداث مواجهة مع الرجال الذين رأى أنهم سرقوا منه حزبه. فدعا إلى مؤتمر قومي في أيار/مايو ١٩٦٥ بهدف شجب العسكريين الذين تحدوه. غير أن عدداً من أعضاء القيادة القومية غير السوريين نصحوه بالحذر في تلك اللحظة الحرجة والدقيقة. فقد شعروا بأن العسكريين إذا تعرضوا لضغط حاد أكثر من اللازم، فربما يكتسحون المدنيين، ويبعدونهم بصورة كلية كما حدث في العراق. كانت سورية البعثية -في منطقة معادية للبعث عموماً- موئلاً وملاذاً لهؤلاء الحزبيين القدامى، وهكذا أقنعوا عفلق بأن يلتزم الهدوء، وبأن يتخلى، لأساه العميق، عن منصب الأمين العام الذي احتله طيلة ثمانية عشر عاماً. ووقع الخيار على منيف الرزاز الذي كان يومها في السادسة والأربعين... وعندما تم انتخاب الأسد في القيادة القومية ليصبح رقيباً كعين للضباط على المدنيين القدامى فإن ذلك لم يساعد المدنيين على الإطلاق.

وعند هذه المرحلة في الصراع بين الضباط وعفلق، أعيد خلط الأوراق

بشكل غير متوقع على يد شخص لم يكن سوى الفريق أمين الحافظ نفسه. فقد كان الحافظ أمام العالم الخارجي رجل سورية القوي.! إذ كان يمسك بيديه مناصب رئيس مجلس الرئاسة، ورئيس الوزراء، والأمين العام للقيادة القطرية، والقائد العام للجيش. ولكنه بالنسبة للجنة العسكرية كان رجلاً من قش بدون قاعدة سياسية أو خلفية حزبية. فقد كانوا يمسكون بلجامه من خلف الكواليس، حتى إن الأسد ذكر بأن أمين الحافظ لم يكن يستطيع نقل جندي واحد بدون موافقتنا. إلا أن هذه المعاملة لم تعد تتناسب في رأيه مع نفسه، ولما كان يعلم أن قدامى الحزب من المدنيين كانوا بحاجة إلى حليف عسكري، وكان غير مستريح إلى صحبة اللجنة العسكرية، فإنه غيّر من مواقفه، وتخلى عن اللجنة العسكرية، وانضم إلى الأعضاء القدامى، وهي خطوة وضعته فوراً على طريق المواجهة مع رجل النظام القوي صلاح جديد الذي كان سيّد القرار في الشؤون السورية منذ أواخر صيف ١٩٦٥. وكان يخفي قوته وسلطانه وراء صفة متواضعة هي الأمين القطري المساعد، ولكنه بنى لنفسه قاعدة شخصية هامة، فقد قام بمراقبة الجهاز الحكومي من خلال صديقه الاشتراكي الدكتور يوسف زعين الذي عيّنه رئيساً للوزراء في شهر آب وهو في الرابعة والثلاثين، وكان يراقب التنقلات والترفيعات العسكرية بواسطة وزير الدفاع حمد عبيد (الدرزي)، وأخيراً من خلال الأسد وجهازه الحزبي في القوات المسلحة كان جديد مطمئناً إلى ولاء هذه القوات.

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٥ التقى حوالي ثمانين من الحزبين الموالين لعفلق، ودون وجود ضابط واحد، على غداء في الهواء الطلق في قرية سرغايا في التلال الواقعة شمالي غربي دمشق، وذلك من أجل استعراض توقعات المستقبل. وتم ذبح ستة خراف للمأدبة، وكانت مناسبة مثيرة للحنين، إذ كانت - إلى حد- آخر مرة شعر فيها هؤلاء الرجال أنهم في وطنهم حقاً. وتشجعت

القيادة القومية بهذا التجمع، فأصدرت قراراً في كانون الأول منعت بموجبه القيادة القطرية من إجراء أي نقل أو طرد للضباط من الخدمة بدون الحصول على إذن من القيادة القومية. وتمرّد صلاح جديد فوراً على هذا التحدي، وأمر العقيد مصطفى طلاس بالقبض على آمر حامية حمص ونائبه، وكلاهما كانا معروفين بولائهما للقيادة القومية.

كانت الكرة الآن في ملعب الحزبيين القدامى، فلعبوها بشجاعة المستميت الذي يعرف مصيره المحتوم، فدعا منيف الرزاز القيادة القومية إلى اجتماع طارئ لإصدار قرار بحل القيادة القطرية المتمردة، وفي مكانها أقاموا، أو على الأقل عينوا على الورق قيادة جديدة لسورية! إذ أعادوا البيطار إلى رئاسة الوزارة، وجعلوا الفريق أمين الحافظ رئيساً لمجلس رئاسي جديد انتقوا أعضاءه باليد، واستدعي محمد عمران المطرود من اللجنة العسكرية من مدريد وعُيّن وزيراً للدفاع وقائداً أعلى للقوات المسلحة، وتم تعيين منصور الأطرش رئيساً لمجلس وطني موسع للثورة استُبعد منه أعضاء اللجنة العسكرية. ولا حاجة للقول إن جديد ورفاقه لم يعبؤوا قط بهذه التعيينات. وهكذا أصبح الطرفان في حرب. وكانت القوة وحدها هي القادرة على حسم الأمر.

انقلاب ١٩٦٦: بدأت المصادمات بين عفلق والضباط في ٢١ شباط سنة ١٩٦٦ عندما حاول اللواء محمد عمران أن يختبر سلطاته الجديدة فأصدر أمراً بنقل ثلاثة من أهم مؤيدي صلاح جديد، وهم اللواء أحمد سويداني، المدير السابق للمخابرات العسكرية الذي كان عندئذ في إدارة شؤون الضباط، والعقيد عزت جديد آمر سلاح الدبابات، والرائد سليم حاطوم الذي كانت وحدته الفدائية تقف في حراسة القصر الجمهوري، ومحطة التلفزيون، ونقاط استراتيجية أخرى، وفي ٢٢ شباط قامت اللجنة العسكرية بالرد على الضربة، إلا أنها قامت أولاً

بحركة تمويهية لإفقاد الخصوم توازنهم.

تمت هذه الحركة بواسطة خدعة قام بها قائد الجبهة المواجهة لإسرائيل الضابط العلوي عبد الغني إبراهيم، الذي اتصل بقيادة الجيش بدمشق ليفيد بأن شجاراً نشب بين ضباط الجبهة في خط المواجهة، وأنهم سحبوا السلاح وشهروه في وجه بعضهم البعض. وجعلت هذه الخدعة الفريق أمين الحافظ ووزير الدفاع عمران ورئيس الأركان يهرعون ليحلوا هذه المشكلة. وبعد أن طافوا بالوحدات واشتركوا في نقاشات مطولة، عاد الثلاثة إلى دمشق منهكين، واتجهوا إلى فراشهم في الثالثة صباحاً يوم ٢٣ شباط، وبعد ساعتين فقط استيقظوا بصدمة قاسية على صوت الرصاص. فقبيل الفجر، قام فدائيو سليم حاطوم، تعززهم قوة رفعت الأسد الضاربة، وكتيبة دبابات يقودها عزت جديد بشن هجوم على منزل الفريق أمين الحافظ. ومن داخل المنزل قام الفريق وحراسه بدفاع شجاع، واستمر إطلاق النار في هذه المنطقة من وسط دمشق حتى الظهيرة، إذ كان أفراد المغاوير يأتون موجة بعد موجة للانخراط في القتال. وأخيراً عندما نفدت ذخيرة المدافعين، وقتل الحراس، وتهدم المنزل بقنابل الدبابات، وجرح أطفال أمين الحافظ (وقد فقدت إحدى بناته عينها فيما بعد) استسلم الفريق. وكان قائد حرسه الملازم محمود موسى قد جرح ونقل إلى المستشفى حيث لحق به عزت جديد بقصد الإجهاز عليه، إلا أن موسى سبق له أن كان فدائياً، لذلك تدخل حاطوم لإنقاذه، وهرّبه فيما بعد إلى بيروت، وكانت حصيلة القتال خمسين شخصاً.

وتحدى الناس منع التجول، وشقوا طريقهم عبر الركام ليحدقوا بذهول إلى المنزل المتهدم وأثاثه المطل بجنون من الطوابق المنهارة، والماء يتدفق من الأنابيب المتفجرة. ووقعت صدامات مماثلة في المدن الأخرى. وصمد في حماة بعض الضباط الموالين للقيادة القومية حتى أخضعتهم قوة من حمص يقودها

مصطفى طلاس. وفي حلب سيطر الموالون لعفلق فترة قصيرة. بينما قيل إن مقاومة رمزية تم التغلب عليها في اللاذقية ودير الزور.

تبع القتال فوراً تطهير كامل للجيش والحزب والحكومة، أُقصي بموجبه أربعمائة ضابط وموظف، واقتيد أمين الحافظ ومحمد عمران والقادة الموالون لهما إلى سجن المزة، القلعة الكائنة في دمشق على قمة تل، حيث يحبس السجناء السياسيون البارزون. كما اعتقل في دار الضيافة بشارع بغداد ثلاثون من البعثيين القدامى، من بينهم البيطار والأطرش وشبلي العيسمي، وكذلك أعضاء القيادة القومية اللبنانيون والسعوديون والأردنيون. ومن بين القادة الكبار في القمة ظل منيف الرزاز وحده يقاوم متنقلاً من مخبأ إلى مخبأ، وهو يصدر بيانات تهاجم الانقلاب. كان مريضاً وفي رجله عرج بحيث لم يستطع أن يقوم بالرحلة الخطرة التي قام بها آخرون عبر الجبال إلى لبنان في تلك الأيام.

وبعد الانقلاب، وإلقاء القبض على أتباع ميشيل عفلق، جلس عفلق في بيته ينتظر الاعتقال، غير أن النظام الجديد قاوم هذا الإغراء، فاتخذ طريقه في الوقت المناسب إلى لبنان ومنها إلى البرازيل، وأخيراً إلى العراق حيث قدّم له البعثيون الموالون له، والمعارضون لرفاقهم السوريين ملجأ احترموه فيه بعد استيلائهم على السلطة في عام ١٩٦٨. ولكن لم يقدّر له أن يرى أرض موطنه ثانية قط. وهكذا بعد ربع قرن من النضال انتهى عمل أشهر منظري الحزب بالنفي والطرد[١].

هذا هو الحديث عن سقوط البعث وقيادته عند سيل. أما الصورة المقابلة التي تتحدث عن سقوط البعثيين السنة فهي:

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل / ١٦١-١٧٠ مقتطفات.

«**الاستقطاب الطائفي في القوات المسلحة**: كان على أمين الحافظ وصلاح جديد أن يواجها بعضهما البعض بعد نجاحهما في إبعاد محمد عمران أبرز منافس لهما في اللجنة العسكرية.

وتبلورت المواجهة بين أهم المتنافسين العسكريين داخل النظام، وذلك خلال اللقاءات الحزبية أو العسكرية في النصف الثاني من سنة ١٩٦٥، فأمين الحافظ يطرح موضوع الطائفية باستمرار، ويتهم بشكل عنيف ومحرج صلاح جديد ببناء كتلته الطائفية العلوية في الجيش. وكان لأمثال هذه الاتهامات تأثير عكسي على موقف أمين الحافظ وأدت عموماً إلى ابتعاده عن الضباط العلويين الذين بدأت مجموعاتهم في التحول دون أي تحفظ إلى معسكر منافسه صلاح جديد، وفي المقابل ولأسباب مماثلة تجمع العديد من الضباط السنيين حول أمين الحافظ، شاعرين -على تفاوت معارضتهم للتكتل الطائفي- باطمئنان أكثر في جانب عسكري يترأسه أحد أبناء طائفتهم. حاول أتباع أمين الحافظ السنيون في الجيش إنشاء كتلة سنية متماسكة، تعارض الضباط العلويين والدروز بشكل خاص. وقد حاول عدد من هؤلاء الضباط السنيين -كما تبين من التحقيقات التي أجريت معهم فيما بعد- تشجيع النزاع الطائفي داخل وحداتهم العسكرية وفي الوحدات الأخرى قائلين لصف الضباط والرتب الدنيا: إن العسكريين العلويين والدروز -يهيئون لانقلاب- يهدف إلى إسقاط الرئيس السني أمين الحافظ، والسيطرة على الشعب السني، وإذلاله في النهاية. وكان هدف هؤلاء المحرّضين هو إعطاء انطباع دائم بأن صراع السلطة كان حول مطلب ديني، وليس العكس، وهو إثارة الشعور الديني بهدف الحصول على سلطة سياسية.

حاول أمين الحافظ تقوية مركزه بمساعدة بعض أنصاره السنيين في جهاز المخابرات السورية، وزوّد بالسلاح والدعم مجموعات مختلفة ذات أغلبية سنية

كانت تعادي البعث في الفترة السابقة من حكمه، وقد وصفت إحدى النشرات الداخلية للحزب في عام ١٩٦٦ هؤلاء (بالرجعيين والناصريين والحورانيين والحياديين) بل اتهمت أمين الحافظ بتشجيع هذه المجموعات لإثارة عصيان مدني... سبّب التلاعب بالولاءات الطائفية والإقليمية والعشائرية خلال صراع السلطة بين الحافظ وجديد ازدياد التوتر داخل القوات المسلحة السورية إلى درجة كبيرة، نتج عنه استقطاب واسع النطاق بين السنيين وأفراد الأقليات الدينية، وغطّت التفرقة الطائفية المتبادلة بين الفريقين كل ما عداها من اختلافات. وانقسم سلك الضباط إلى معسكرين متنافسين أحدهما ذو أكثرية سنية، ويسيطر على الآخر العلويون والدروز والإسماعيليون... ولم ينعكس التنافس بين أمين الحافظ وصلاح جديد على القوات المسلحة والتنظيم العسكري الحزبي فحسب، بل انعكس أيضاً على العلاقات بين أهم مؤسسات الحزب الحزبية، ولا سيما التنافس بين القيادة القطرية السورية التي يسيطر عليها جديد وأنصاره وبين القيادة القومية التي يسيطر عليها أمين الحافظ وقدامى البعثيين بقيادة ميشيل عفلق. وقد فقدت القيادة القومية في السنوات التي تلت عام ١٩٦٣ أغلب سيطرتها على التنظيم الحزبي السوري الذي يفترض أن يكون خاضعاً لها. وحاولت القيادة في النصف الثاني من ١٩٦٥ التوسط بين جديد والحافظ لتقوي بذلك مركزها. كما حاولت استغلال تنافسهما وتحريضهما على بعضهما لنفس الغرض. وعندما عزل أنصار جديد أمين الحافظ من القيادة القطرية السورية، حاول الأخير مثل ما فعل عمران في كانون الأول ١٩٦٤ التقارب مع القيادة القومية أملاً في تقوية مركزه داخل التنظيم الحزبي القطري السوري. وفي محاولة لتحطيم سيطرة جديد على التنظيم الحزبي السوري، قررت القيادة القومية في ١٩٦٥/١٢/١٩ استرداد كل صلاحياتها، وحلت القيادة القطرية السورية، ثم طالبت بعودة الانضباط العسكري

إلى الجيش، وأعلنت في بيانها الموجه للعسكريين: «إن القيادة تشجب بشدة التسريحات في صفوف الرفاق، وسوف نحميهم جميعاً من كل محاولات التصفية، ولن نسمح في نفس الوقت باستملاك الوحدات العسكرية، وتحويلها إلى كتل شخصية، كما نعارض كل ولاء إلا الولاء للحزب، وهي ضد الطائفية والمطالب الشخصية والولاءات الشخصية والكتل العشائرية. لا ولاء إلا للحزب. وستكون في هذه المرحلة الراهنة مع رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع السلطات المعنية بحل مشاكل الجيش، والقضاء على تدخله في السياسة وشؤون الحكومة، وإعادة الروح العسكرية إليه. وستجري القيادة القومية مع رئيس الوزراء ووزير الدفاع المناقلات العسكرية اللازمة للقضاء على حالة التوتر والخوف والتدخل» [١].

كان من العسير أن تجد القيادة القومية وزير دفاع جديداً يقبله الطرفان، ويكون قادراً في نفس الوقت على إعادة الانضباط العسكري، بعد أن أحال الاستقطاب الطائفي الجيش إلى معسكرات متنافسة.

ويروي الدكتور الرزاز أن محمد عمران وفهد الشاعر (درزي) كانا الضابطين البعثيين الكبيرين الوحيدين المؤهلين لهذا المنصب، لعدم انتمائهما إلى معسكر، فقد كان عمران الضابط العلوي الكبير الوحيد الذي لم ينحز إلى المعسكر الذي سيطر عليه جديد، لأن جديد كالأسد والحافظ كان من بين المسؤولين عن طرد عمران من سورية في كانون الأول ١٩٦٤. ولما كان من المرجح أن ينظر العلويون إلى تعيين ضابط سني وزيراً للدفاع كتحد شخصي لهم، الأمر الذي من شأنه أن يرسخ الطابع الطائفي لصراع السلطة. فقد رفضت القيادة تعيين محمد

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي، القيادة القومية، نشرة الرفاق العسكريين رقم ١ كانون ثاني ١٩٦٦.

رباح الطويل السني من اللاذقية وزيراً للدفاع. وفي النهاية فضّلت بأغلبيتها بما فيها أمين الحافظ تعيين محمد عمران وزيراً للدفاع. وهكذا ظهر عمران وزيراً للدفاع في وزارة صلاح الدين البيطار في ١٩٦٦/١/٢. وكانت حجة الذين أيدوا تعيينه هي أن ذلك سيؤدي إلى اطمئنان الضباط العلويين، وسينهي الطائفية في صراع السلطة. وقد استفاد أمين الحافظ ومعظم القيادة القومية من تعيين عمران، لاحتمال أن ينتج عن ذلك تخلخل في الإجماع النسبي بين الضباط العلويين الذين قد تجمع بعضهم حول عمران، بينما قد بقي الآخرون موالون لجديد. ومثل هذا الانشقاق سوف يقوي مركز أمين الحافظ وأغلبية القيادة القومية، ويمكنهم من تنفيذ خططهم» [١].

لكن النظرة العدائية التي تطورت لدى أمين الحافظ تجاه الضباط العلويين وفقد ثقته بمعظمهم، جعلت أي تعاون بينه وبين محمد عمران أمراً بعيد الاحتمال، ولم تمض أيام قليلة على تعيين عمران وزيراً للدفاع حتى ازدادت علاقاتهما توتراً إلى حد كاد أن يستحيل معه نقل الضباط المعادين للقيادة القومية أمثال سليم حاطوم الدرزي وعزت جديد العلوي وأحمد سويداني السني إلى وحدات عسكرية ثانوية، ويرى منيف الرزاز أن نقل أولئك الضباط الثلاثة كان من الممكن أن يتم في ٢٠ شباط ١٩٦٦ بمساعدة علي مصطفى قائد إحدى كتائب اللواء المدرع السبعين وأبرز أنصار عمران والذي كان يؤيد الأغلبية في القيادة القومية، إلا أن أمين الحافظ الذي أصبحت لديه عقدة نفسية ضد العلويين، وصار يعتبرهم أعداءه الشخصيين، رفض أن يحرك أحد أنصار القيادة القومية العلويين المعارضين لسيطرة العسكريين أمثال حاطوم وجديد وسويداني وحدته العسكرية،

(١) من مقابلة مع منيف الرزاز في عمان ١٩٧٤/١٠/٢٢ للمؤلف فان دام. ومن كتاب التجربة المرة ص١٦٠ .

وعندما حرك علي مصطفى وحدته على الرغم من ذلك بناءً على طلب الرزاز، طلب أمين الحافظ إلغاء ذلك التحرك فوراً، وكان من المستحيل اتخاذ التدابير الاحترازية اللازمة لنقل أخطر المعارضين العسكريين للقيادة القومية، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام أنصار جديد بانقلاب عسكري ناجح.

وأثبتت الأحداث ضعف كتلة الضباط العلويين التي تجمعت وراء عمران بعد عودته، فلم يحدث تعيينه شرخاً كبيراً بين الضباط العلويين على عكس آمال وتوقعات أمين الحافظ والأغلبية في القيادة القومية، كذلك قابلت القوات المسلحة تعيينه بالنقد الشديد، وظهر أنه غير مرغوب فيه، سواء بين الضباط غير العلويين، أو بين الأغلبية الساحقة للضباط العلويين. وانتقد الجميع بشدة ممارساته الطائفية ومؤامراته خلف الكواليس، وفضلوا رحيله على رؤيته في مثل هذا المنصب العسكري الهام.

كانت عملية إعادة الانضباط العسكري إلى القوات المسلحة إحدى مهام عمران الرئيسية في المنصب الجديد. ولكن التوتر الطائفي ازداد بعد تعيينه، وطالب بعض أعضاء الحزب العسكريين بطرده من الحزب والحكومة معاً بسبب ممارساته الطائفية العلنية، ورفض هؤلاء الأعضاء كل أشكال الطائفية والإقليمية، واقترحوا إعدام كل من يعمل على أساس هذه العوامل. وكل هذه مؤشرات واضحة على الموقف المتأزم الذي سيطر آنذاك على القوات المسلحة السورية. وفي ٢٣ شباط ١٩٦٦ أطاح انقلاب عسكري لعب فيه سليم حاطوم وعزت جديد الدور الرئيسي بالرئيس أمين الحافظ ومعارضي صلاح جديد في القيادة القومية، وقد أيدت الوحدات المتمركزة حول دمشق، والتي يسيطر على معظمها علويون ودروز الانقلاب على الفور. بينما أتت أغلب المعارضة من وحدات الجيش البعيدة عن العاصمة في اللاذقية وحماة وحمص وحلب، حيث حاول

عدد من الضباط السنيين المؤيدين لأمين الحافظ أن يقلبوا الموقف العسكري والسياسي لصالحهم.

كانت المقاومة الطفيفة أو المعدومة، التي أبدتها ضد الانقلاب الوحدات العسكرية المتمركزة حول دمشق نتيجة واضحة للسياسة التي انتهجها أبناء الأقليات في القيادة العسكرية السورية، والتي أشرنا إليها سابقاً، وهي أن يعهد بإمرة الوحدات الهامة القريبة من دمشق إلى ضباط (موثوقين) من أبناء الأقليات الطائفية، بينما يوضع غير الموثوق بهم -لأنهم سنيون- بالقرب من الجبهة الإسرائيلية، أو في شمال البلاد بعيداً عن العاصمة.

أسفر الانقلاب الجديد عن تطهير بعض أبرز كتل الضباط السنيين مع أبرز أفراد كتلة عمران، ثم فصل هؤلاء رسمياً من التنظيم الحزبي العسكري خلال عام ١٩٦٦ بتهمة ضلوعهم في تكوين كتل طائفية أو إقليمية أو عشائرية داخل القوات المسلحة. وهناك نسبة عالية ملفتة للنظر لعدد الضباط السنيين المسرحين في هذه المرحلة. وقد أدى هذا مرة أخرى إلى ازدياد مضطرد في عدد أبناء الأقليات الدينية وبالأخص الأقليات الإسلامية غير السنية، مقابل تناقض عدد السنة في الجيش. [١]

لقد كفانا باتريك سيل إيضاح صفحة إنهاء حزب البعث في انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦، وكيف استطاع صلاح جديد أن يحطم هذا الحزب ويثأر منه لشقيقيه غسان وفؤاد اللذين كانا في قيادة الحزب القومي السوري الاجتماعي. ونأتي هنا بشهادة الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي شبلي العيسمي الذي ينقل لنا من وثائق الحزب رأيه بثورة ٢٣ شباط ١٩٦٦.

---

(١) الصراع على السلطة ل: فان دام / ٦٠-٦٩ مقتطفات.

يقول العيسمي: «لمعرفة رأي الحزب بانقلاب ٢٣ شباط، وما كان من نتائج وأبعاد على الصعيدين الحزبي والقومي، يحسن بنا أن نذكر بعض المقتطفات من بيانات القيادة القومية الشرعية، وما صدر له من تقويم في أول مؤتمر قومي أعقبه، وهو المؤتمر القومي التاسع عام ١٩٦٨م.

في اليوم الذي حدث فيه الانقلاب، أصدرت القيادة القومية بياناً اعتبرت فيه «ما جرى انقلاباً عسكرياً وخيانة قومية ضد الحزب والشعب والجيش. وأن الذين قاموا به لا يمتّون إلى حزبنا بأية صلة حزبية، وإنما هم فئة تستّرت بشعارات الحزب.»

وفي بيان آخر بعد خمسة أيام ورد أيضاً: «أن من لم يحترم الحزب وقيادته الشرعية، ومؤتمراته، لا يمكن أن يحترم الشعب ونضاله». وفي نشرة داخلية أصدرتها القيادة ورد «أن ما جرى حركة رجعية يمينية تلتقي بمخططات السياسة الاستعمارية للقضاء على وحدة الحزب والجيش والشعب، وهي كاذبة في يساريتها وثوريتها وفي انتسابها للحزب، وتجمع كل خصائص العصابة المجرمة». وفي بيان آخر موجه بالدرجة الأولى إلى قواعد الحزب جاء فيه «هنالك عدوان وقع على شرعية ربع قرن من نضال البعث العربي، لا يفسر إلا من خلال ظروف الردة الاستعمارية اليمينية، والانقلابات العسكرية ضد الأنظمة الشعبية التقدمية. فإذا لم يحاسب مرتكبو هذه الأعمال فالحزب سينتهي [(١)]. لأن القيمة أصبحت للسلاح وليس للمبادئ، ولن يغلق باب الانقلابات واستعمال القوة وأعمال الغدر. ويطمح الانقلابيون إلى إلحاق المنظمات القومية لحزبهم القطري بأسلوب شراء العملاء ومساومة المناضلين الشرفاء على عقيدتهم،

---

(١) ولم يحاسب أولئك وانتهى الحزب.

وبالإغراءات المادية، والتهديد بقطع الأرزاق، والانقلاب الأخير هو ذروة التسلط من فئة عسكرية على الحزب والحكم والجيش، وأرادوا أن يُحلّوا محل الحزب حزباً آخر بعقيدة تحركها روح طائفية شعوبية بأخلاق الهمجية والغدر مع هذه الزمرة العسكرية» [1].

ولعل من المناسب والمفيد بآن واحد أن نلخص أبرز ما ورد في نشرة القيادة القومية حول تقويم أزمة الحزب الصادرة في نيسان عام ١٩٦٨ بعنوان: ماذا جرى في ٢٣ شباط؟

وتكتسب هذه النشرة أهميتها في أنها خلاصة للتقارير التي قدمت إلى المؤتمر القومي التاسع الذي أنهى أعماله قبل شهر من صدورها، ثم أصدرتها القيادة القومية في كراس خاص بعنوان: تقييم أزمة الحزب. ويشير هذا التقويم إلى الأسباب البعيدة للأزمة: كضعف تنظيم الحزب منذ نشأته، وعدم الانسجام في قياداته العليا، ونمو التيار المتطلع للسلطة والفارق في الشؤون القطرية منذ الخمسينات، والدخول في تجربة الوحدة بصورة مرتجلة، وحلّ الحزب وما نتج عنه من بلبلة واسعة في صفوف البعثيين، واستفحال التكتلات الانتهازية، والتصرفات القطرية، والصراع على السلطة بعد أن وصل إليها الحزب في الستينات. وبعد ذلك تنتقل النشرة إلى تقويم انقلاب ٢٣ شباط ونتائجه على الوجه التالي:

على الصعيد الحزبي: تعتبر تمرداً على الشرعية النظامية، وتسلطاً بقوة السلاح على الحزب، وتنفيذاً لمخطط انقلابي قديم للتخلص من قيادته التاريخية، وإجهاض محاولات التصحيح من داخله، ومؤامرة داخلية قام بها تكتل

(١) تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي ج٣/٣٦٤ لـ: شبلي العسيمي الأمين العام المساعد للحزب.

عسكري طائفي انتهازي ضد الحزب، وتمرد القيادة القطرية على القيادة القومية، وسيطرة العسكرية البونابرتية بثوريتها المضادة على الثورة. أو أنه بصورة عامة كان بسبب عجز الحزب عن التغلب على أمراضه، أو تباطئه في ذلك، فتغلبت أمراضه عليه حتى أصبح للسفهاء بغير سياج أوحراسة، يغري الطامعين والمغامرين بنهبه والسطو عليه. وهكذا كان انقلاب ٢٣ شباط نتيجة لهذا، وعقوبة للحزب على عجزه وضعف قيادته العليا وبطئها الشديد في معالجة الأخطاء والأزمات التي تفاقمت وتراكمت، وإخفاقها في وضع حد للتجاوزات والانحرافات التي قام بها المتكتلون بعد تسلم الحكم في كل من العراق وسورية. ثم قبول تسلم الحكم بعد انقلابات عسكرية دون أن تنضج ظروف الثورة، وكما يشير إلى الأخطاء التي سبقت ٢٣ شباط بقليل. فالسياسة التي انتهجها الأستاذ البيطار، والمقالات التي كتبها بعد تشكيل الوزارة ودخوله في القيادة السياسية العليا، قد أوحت بأنها خط جديد يتعارض مع بعض المنطلقات التي أقرّها المؤتمر القومي السادس في الجانب الاقتصادي، هذا بالإضافة إلى أن القيادة القومية انساقت في اعتبار الحكم هو الأساس وليس الحزب» [1].

إن ما ذكرناه عن تخطيط صلاح جديد لتدمير حزب البعث العربي الاشتراكي ثأراً لأخويه يؤيده ما ذكرته الفقرة الآنفة الذكر «وتنفيذ لمخطط انقلابي قديم للتخلص من قيادته التاريخية وإجهاض لمحاولات التصحيح من داخله، ومؤامرة داخلية قام بها تكتل عسكري طائفي انتهازي ضد الحزب، وتمرد القيادة القطرية على القيادة القومية، وسيطرة العسكرية البونابرتية بثوريتها المضادة على الثورة».

ويقوم محمد عمران الحزب في تلك المرحلة تقويماً مشابهاً، فهو يقول في

---

(١) تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي ج٣/٣٦٦-٣٦٧.

كتابه الذي عنونه «تجربتي في الثورة»:

« **وهكذا وقع انقلاب ٨ آذار بعد انقلاب البعث في العراق في شهر شباط ١٩٦٠ على يد فئات عديدة اشتركت في تنفيذ انقلاب الثامن من آذار، إلا أن الكتلة البعثية كان لها دور أول في التحريض عليه وفي التخطيط والتنفيذ أيضاً** »[١].

وبعد شهر ونصف أو أقل كان ميثاق ١٧ نيسان في الوحدة بين سوريا ومصر والعراق، «وأدى ذلك إلى نزاع مكشوف بين القاهرة والبعث، انتهى إلى سقوط ميثاق ١٧ نيسان وانقطاع الطريق مؤقتاً دون اللقاء بينهما... واستعيض عن الدعوة إلى الوحدة الثلاثية ما بين مصر وسوريا والعراق بدعوة إلى وحدة بعثية بين كل من سورية والعراق»[٢]. وهكذا انتهت الوحدة العربية.

والبعث قبل الحكم هو هو نفسه بعد الحكم كما يتحدث عنه أبو ثورته وسلطته:

« وهكذا أمام هذا المشهد من أشكال الصراع والانقسام داخل الحزب، ومحاولة استعداء العسكريين من قبل تيارات الحزب على بعضهم البعض، وضعف الوعي عند القاعدة الحزبية، وعجزها عن معالجة هذه الانقسامات الفوقية، فقد شعرنا بأن تجربة الثامن من آذار جاءت لتتوج خيباتنا السابقة بخيبة أكبر وأفجع، على صعيد السلطة والحزب، وخلال منعطفات خطيرة من تاريخ النضال العربي. وقد زاد في هذه الخيبة مشاهد الصراع المكشوف بين العناصر التي اشتركت في عقد المؤتمر القطري الأول، بعد انفراد الحزب بالحكم

---

(١) تجربتي في الثورة لمحمد عمران، ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٢١-٢٢.

والسلطة. وانكشفت ضحالة التنظيم الحزبي. وكذلك تبين لنا غياب الوعي الفكري لدى القاعدة، وسيطرة المزايدات اللفظية على أقطاب الانقسامات المتوالية، مما جعلني شخصياً أستكمل قناعتي بعجز هذا الحزب عن القيام بالمهمة الثورية التي ادعاها لنفسه... فإذا بهدف الوحدة يتراجع أمام ظروف الانتكاس العام. وكذلك ظهر مبدأ الحرية أنه يتعارض تعارضاً مطلقاً مع إيغال الحزب في سياسة القمع والإرهاب والتعذيب وتسليط أجهزة المخابرات على الشعب والفئات المعارضة وبعض فئات الحزب ذاتها »[1].

لقد بدأ يشكو من الفئة المتسلطة، «وهكذا عمدت هذه الفئة المتسلطة إلى إبعادي عن سوريا بالقوة في اللحظة التي تم فيها قرارات الإصلاح، وأجبرتني على السفر في طائرة خاصة إلى قبرص»[2].

لا شك أن رفيق عمره ودربه صلاح جديد هو الذي فعل به ذلك، فهو الذي سيطر على الجيش والحزب وأبعد القيادة القومية (إن كان هذا صحيحاً لا تمثيلاً).

وبعد أن طرد من السلطة في الصراع النصيري النصيري بينه وبين صلاح جديد قال عن الحزب النصيري المتسلط: « ولقد قررت منذ وقوع انقلاب شباط أن أجتث من ذهني كل أثر للقول بالإصلاح من داخل الحزب... وكثيراً ما التقى الانتهازيون والمغامرون بالجهلة، وقاد الأولون الآخرين، واندفعوا معاً عبر عواصف الصراع على السلطة، فأصموا آذانهم عن النصح، واتهموا المحذرين بالانهزامية والتردد، ثم تساقطوا على الطريق الوعر الذي اختاروه واحداً بعد

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤.

الآخر، وفئة بعد فئة، مخلفين ورائهم دمار المطامح الجماهيرية، وحطام الآمال التاريخية. ونظرة إلى مسيرة الثورة العربية سابقاً وهي تنتقل من موقع خاطئ إلى موقع خاطئ تطلعنا على طابع العفوية في ردود فعلها على الفشل والانتكاس بالجموح الانفعالي، وتغطية مركبات الجهل بالمزايدات والشطحات اللفظية من خلال رفع شعارات وخفض شعارات أخرى»[1].

لقد جاء البعث ليعالج أمراض مجتمعه فإذا به معمل تفريخ هذه الأمراض:

« إن ما آلت إليه الثورة العربية من تخلف وتراجع جعلها تستنجد بأمراض المجتمع المتخلف، فتنعشها وتستخدمها كأدوات دفاع أو هجوم عن حصائل الفشل والانتكاس، وتنظمها وتزوقها بمظاهر الألوان الشعارية. هكذا عادت الإقليمية والطائفية لتلعب أدواراً خطيرة من وراء اليافطات الثورية. وسارت معها الغوغائية والسطحية، والتحالفات السرية المشبوهة لتنفيذ مخططات بعيدة المدى. وانطلقت كذلك أمراض المحسوبية والسمسرة لتحتمي بشعارات التقدمية. كل ذلك جعلني ألجأ إلى عرض آرائي في هذا الكتاب علني أستطيع أن أساهم في إيقاف التدهور الشامل الذي تتعرض له مؤسسات الثورة في وطننا، عن طريق إثارة النقاش والحوار والبحث عن حلول أكثر جذرية»[2].

وانتهى الحوار بقتله واغتياله قبل أن يبرز الجزء الثاني من الكتاب، والذي وعد أن يتحدث فيه عن الأحداث والأشخاص والمواقف، « وأتوقف هنا لأشير إلى أنني في هذه المقدمة لم أعمد إلى سرد أحداث، وعرض تفاصيل المواقف والتناقضات الفردية، إذ أنني أرجأت ذلك إلى كتاب آخر أخصصه بموضوع

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٨.

التاريخ الخفي لأحداث الحزب خلال عشرين عاماً من العمل والمحاولة والخطأ، على صعيد الحكم والجيش معاً. بينما حددت الحديث في هذه المقدمة بعرض الأطر العامة للتجربة التي عشتها، والتي كانت مبعث وجهة النظر الفكرية التي سأطرحها في هذا الكتاب »[1].

لقد قضى حافظ أسد على رئيسه وزميله الأول محمد عمران قبل أن يخرج الخفايا عن الحزب والنظام والطائفة، ولتبقى معه في قبره. كما قضى على زميله الثاني ورفيق دربه صلاح جديد الشاهد الأكبر وليس الأوحد على خيانته، فأخرجه من السجن إلى المقبرة دون أن يرى الحياة لمدة ثلاث وعشرين عاماً، ولتذهب الأسرار والخفايا معه إلى قبره. ودفع كلاهما ثمن تآمره منذ البداية، وثمن استمراره في المؤامرة مع شركائه الباطنيين يوم أن أدى دوره في المسرحية. أما حافظ الأسد فقد تفرد بالسلطة ليثبت العهد الطائفي، ولتكون على يديه الضربة الكبرى للحكم الباطني ضد الإسلاميين.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤.

الفصل الرابع

زعيم الباطنية القادم: حافظ الأسد

الوحش:

يقول باتريك سيل: «في أواخر القرن الماضي نزل ذات يوم مصارع تركي متجول قرية من قرى جبال سورية الشمالية الغربية، وبصوت راح صداه يرن في أرجاء القرية عرض أن يتحدى كل القادمين.

وتجمهر القرويون حوله للتفرج والتمتع، ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا يتأوهون وهم يشاهدون أقرانهم يتساقطون واحداً بعد الآخر أمام التركي الذي بدا أنه لا يقهر. وفجأة برز إليه من بين الصفوف رجل قوي البنية في الأربعينات من عمره، وأمسك به من وسطه ورفعه بقوة في الهواء ثم طرحه أرضاً فصاح القرويون معجبين: « يا له من وحش ». كان اسم بطلهم هذا سليمان، ولكنه منذ ذلك الحين أصبح يعرف باسم «سليمان الوحش» وظل الوحش لقبه العائلي حتى العشرينات ، كان ذلك الرجل هو جد حافظ الأسد». [1]

ولا ندري بالضبط ماذا كان اسم عائلته قبل ذلك. لكننا ندري أن سليمان الأسد أحد الموقعين على وثيقة العار عام ١٩٣٦، [2] والتي يطالبون فيها ببقاء فرنسة في احتلالها لسورية، خوفاً من بعبع المسلمين السنيين أن يقضوا عليهم. ولا ندري هل تم تغيير الاسم حقاً في العشرينات أم في الثلاثينات. والذي يرويه سيل عن هذا الموضوع هو أن علي سليمان الأسد والد حافظ الأسد هو الذي

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل / ٩ .

(٢) عرضت هذه الوثيقة مع توثيقها في كتاب: العلويون النصيريون: بحث في العقيدة والتاريخ. لأبي موسى الحريري. ص ص ٢٢٨-٢٣١.

أطلق عليه لقب (الأسد)، كنوع من المكافأة على الاحترام الذي كسبته عائلته عبر جيلين من الزمن وكان من رموز هذا التحول الصاعد تغيير اسم عائلته سنة ١٩٢٧ من «الوحش» إلى «الأسد»، وهناك عدة روايات حول كيفية حدوث ذلك، وكلها تمتدح شخصية علي سليمان. تقول إحداها بأنه برز بشكل متميز كواحد من أركان مجتمع القرية بحيث جاء زعماء الأسر الأربع الرئيسية في القرية وقالوا له: «انك لست وحشاً بل أنت أسد» [(١)].

والذي يعنينا من هذا الكلام كله، أن لقب الأسد لم يكن أصيلاً فيهم. وهذه نقطة على الطريق نعرض لها فيما بعد. وعندما وقع سليمان الأسد على وثيقة العار الآنفة الذكر عام ١٩٣٦ كان عمر حافظ أسد ست سنوات. فهل يا ترى كان معداً لشيء من ذلك منذ ذلك الوقت؟

الظهور الإلهي:

نقطع الطريق على الحديث عن الأسد لنقتطف جانباً من عقيدة النصيريين في الحلول الإلهي في البشر. إذ «يعتقد القوم أن مجموع القباب -الظهورات- الماضية سبع، وأن كلاً من هؤلاء كان يمثل أقنوم المعنى -الألوهية- في حينه (وهي: هابيل، وشيث ويوسف ويوشع وآصف وشمعون وعلي) وهم ينتظرون القبة الثامنة بين حين وحين.» [(٢)]

وحيث إن تاريخهم لم يصْفُ لهم، فلا يزالون ينتظرون هذا الأقنوم الإلهي أن يظهر على أسد، وإلى هذا يشير أحد شعرائهم إذ يقول:

---

(١) الأسد لسيل / ١٧ .

(٢) الإسلام في مواجهة الباطنية: لأبي الهيثم/ ١٠١.

وســوف يظهــر مولانــا علــى أســد مـن عـين شـمس لـه بـالأنفس الرَّهَـبُ
ظهــور كشــف بــه يصــفو لشــيعتنا ولا يــنالهم مــن بــعده نَصَــبُ [1]

فهل يا ترى أعطي علي سليمان الأسد هذا اللقب تيمناً بأن يكون الظهور الأقنومي منه أو من نسله؟ لا ندري. لكنا نعرف أن هذا اللقب مبعثه الإعجاب والحب كما ذكر لنا سيل من قبل. ولذلك نحن بحاجة إلى محطات ثانية توضح الاتجاه العالمي لاختيار أسد لدور قيادي على مستوى المنطقة كلها. وفعلاً لم يشهد تاريخ النصيريين استقراراً واستعلاءً وتسلطاً وجبروتاً كما شهد في عهد الأسد، والذي دام قرابة أربعين عاماً، وهو نصف تاريخ سورية الحديث.

«ويحسن الإشارة إلى أن بعض الباحثين في النصيرية قد أخطأوا في تعيين أشخاص الظهورات، فجعلوهم (شمعون وهارون وإسماعيل وشيث وهابيل) ونحن نفضل روايتنا التي أخذناها من أفواه بعض المشايخ المهتدين مباشرة. وقد تأيد ذلك فيما وجدناه في مخطوطة (خرندة النذر)»[2]. وهذا الكلام لمؤلف «الإسلام في مواجهة الباطنية».

حافظ الأسد الطالب الضابط:

«دخل الأسد الكلية العسكرية بحمص في خريف ١٩٥١، كان واحداً من دفعة مكونة من تسعين طالباً. ومما دفع الأسد في آخر الأمر إلى القوات المسلحة رغبته في أن يطير. ولكن القوة الجوية التي أراد الانضمام إليها كانت لا تزال في طفولتها، ولم تكن هناك كلية للقوة الجوية، بل مجرد مدرسة للطيران في

(١) الإسلام في مواجهة الباطنية لأبي الهيثم / ١٠١-١٠٢ .

(٢) الإسلام في مواجهة الباطنية لأبي الهيثم / ١٠١-١٠٢ .

حلب نقل إليها عدد قليل من طلاب الكلية الحربية بحمص بعد اجتياز فحص طبي. وكان الأسد واحداً من خمسة عشر طالباً تم اختيارهم.. وفي ذلك العام تم تحويل مدرسة الطيران التي انتسب اليها الأسد الى كلية وتمت صياغة برنامج خاص بها..» [١].

ويؤكد لنا بعض رفاقه الذين كانوا معه وهم يتسابقون لدخول الكلية الحربية أنه قال لهم حيث كانوا يخشون رفضهم دخول الكلية، أنه قال لهم وقبل دخول الامتحان: أنا ناجح ومقبول رغم جميع المعترضين. فهل يستند إلى وصاية قوية ووساطة رفيعة. لا ندري أبعادها محلية أو غير محلية؟ ومن حقنا أن نشك في هذه الأبعاد، لأنه دخل دوامة المؤامرة الدولية بعد عامين فقط من دخوله الكلية الحربية.

حافظ أسد الملازم:

تخرج حافظ أسد ملازماً بعد سنتين من تدريبه مثل بقية زملائه، ويحدثنا أحد زملائه عن رحلة سرية لحافظ رافقه بها إلى بريطانيا، حيث كان التقرير أن لديه بعض التحليلات الطبية هناك، فمضى مع مرافقين إلى بريطانيا. ولكن المذهل في الأمر أنهم وجدوا وزير الدفاع البريطاني ينتظرهم مستقبلاً في المطار، أما المرافقان فقد مضيا إلى أحد فنادق العاصمة تروح وتجيء عليهما وجبات الطعام. وأما حافظ أسد فلا يدرون أين ذهب، حيث أمضى ثلاثة أيام دون أن يروه بحجة إجراء التحليلات الطبية، والمعالجة، وبعد ثلاثة أيام عاد إليهم، وتوجهوا بعدها عائدين إلى دمشق بوداع وزير الدفاع البريطاني.

---

(١) الأسد لـ: سيل/٦٩ .

لقد كان حافظ أسد يعد الإعداد المناسب ليؤدي دوراً في تاريخ سورية منذ أن كان في أوائل العشرينات من عمره. ولا شك أن له مواهب وطاقات فائقة، ولذلك وقع الاختيار عليه لتأدية هذا الدور. ويكاد سيل يلمس هذا الموضوع لمساً مباشراً، ثم يخفيه. فيقول: «وكان لاغتيال المالكي نتائج حاسمة في تاريخ سورية الحديث، فبعد ازاحة خصمه الرئيسي والحزب القومي» وجد حزب البعث نفسه أكبر قوة في القوات المسلحة مما خدم بالتالي مستقبل الأسد وبعثيين آخرين، إذ وقع عليه الاختيار وحده من أجل الترفيع، كما تقرر أن يعطى تدريباً اضافياً. وقد أتاحت قاعدة المزة مجالاً واسعاً لإبراز روح المنافسة الطبيعية لديه. ويتذكر كيف قال له مدربه الألماني الذي كان يعلمه الطيران بطائرة مقاتلة ذات محرك من نوع -فيات-٥٩: يا حافظ لقد تناولنا إفطارنا، دعنا نرى من سيجعل الآخر يفقد إفطاره أولاً، وهكذا أقلعا وراح كل منهما يطارد الآخر عبر السماء مع التقلب والمداورة كأنهما في معركة جوية. وكان سرور الأسد عظيماً حين وقع عليه الاختيار عام ١٩٥٥ للذهاب إلى مصر من أجل مزيد من التدرب على الطيران. كانت تلك أول رحلة له إلى الخارج تتضمن الترقي من العمل على الطائرات ذات المحرك التي أصبحت قديمة إلى العمل المثير في الطيران النفاث. ولو تم الإيفاد قبل عام لكان الأسد قد اتجه إلى إنكلترا حيث كانت سورية ترسل طياريها للتدرب على القتال الجوي ولتلقي دورة سريعة لتعلم المصطلحات الفنية بالإنجليزية. ولكن الترتيبات قد انهارت فجأة عندما كان الأسد وزملاؤه الخريجون قد بدؤوا استعدادهم، وكان السبب هو انزعاج حكومة أنطوني إيدن من ميل سورية إلى فلك جمال عبد الناصر القائد المصري الصاعد الذي أسقط

هو ورفاقه الضباط الأحرار الملكية المصرية عام ١٩٥٢، والذي أكسبه تحديه لبريطانيا الإمبريالية أتباعاً متحمسين في العالم العربي»[١] .

ولئن فات الأسد كما ذكر سيل أن يكون مبتعثاً رسمياً عام ١٩٥٥ إلى بريطانيا لسوء العلاقة بين الدولتين، فلم تفته الزيارة الآنفة الذكر للتدريب على شيء آخر غير الطيران، ولا ندري إن كان هناك رحلات أخرى أطول وأعمق، لكن هذه الرحلة هي حديث شاهد عيان. ولعله بعد عودته من بريطانيا هو الوحيد الذي ترفع كما ذكر سيل، وهو الذي تلقى تدريبات إضافية خاصة من دون زملائه جميعاً، أو أن الرحلة تمت على ضوء اختياره وحده ابتداء وترفيعه واعطائه تدريبات خاصة.

لقد كان هذا العام ١٩٥٥ عام حسم بالنسبة لحزب البعث، فقد راح يصفي أنصاره جسدياً وهم في مرحلة الضباط الصغار، إذ أقدم على اغتيال ثلاثة من الضباط الإسلاميين، وأحد هؤلاء شقيقي الذي كان مدرباً في كلية ضباط الاحتياط بحلب، فاغتيل أثناء التدريب الليلي، بينما اغتيل آخر في حادث سيارة، والثالث قامت إسرائيل بتصفيته في مواجهة مباشرة.

وتزوج الملازم الأسد عام ١٩٥٨م من أنيسة مخلوف، وهي من عائلة أبرز وأغنى من عائلته، وقد تلقت ثقافتها في دير راهبات القلب الأقدس الفرنسي في بانياس على الساحل. «وبعد أسابيع قليلة من الزواج كان على الزوجين أن يتحملا فراقاً استمر أحد عشر شهراً. ففي منتصف سنة ١٩٥٨ كان الأسد واحداً من مجموعة صغيرة من الطيارين السوريين وقع عليهم الاختيار للذهاب إلى الاتحاد السوفييتي للاشتراك في دورة تدريب على الطيران الليلي بطائرات ميغ

---

(١) الأسد لـ: سيل/ ٨٩-٩٠.

١٥ وميغ ١٧ التي كانت سوريا قد تزودت بها حديثاً.

كانت رحلة الأسد إلى الاتحاد السوفييتي هي أول اتصال له ببلد قيّض له أن يكون فيما بعد الحليف الأساسي لرئاسته» [١].

«وفي آخر سنة ١٩٥٩ نُقل سربه للطيران الليلي المؤلف من طائرات الميغ ١٩ إلى مصر» [٢].

حافظ أسد النقيب:

عام ١٩٦٠ غدا الأسد في الثلاثين من عمره، وكانت القضية النصيرية هي التي تقلقه، فالزعيم الذي يجب أن تسلط عليه الأضواء للمستقبل السوري هو زكي الأرسوزي النصيري، ولا بد من تحطيم ميشيل عفلق وأكرم الحوراني وصلاح البيطار، لتتحول الولاءات كلها للباطنيين. ومن أجل ذلك كان تركيب اللجنة العسكرية من النقيبين الأسد والجندي، والرائدين جديد والمير، والمقدم عمران. فثلاثة منهم نصيريون، واثنان منهم إسماعيليان وهما أحمد المير وعبدالكريم الجندي. ويغذي الجميع حقد دفين على الإسلام وأهله قبل كل شيء، وعلى السنة بشكل خاص. ولكن للوصول إلى الهدف البعيد فلا بد من خطوات منتظمة. «أما بالنسبة للأسد ورفاقه الذين كانوا قد أسقطوا عفلق والبيطار من حسابهم فقد تأثروا أكثر بسوء الحظ الذي حل بالحوراني، فالضباط الذين كانوا يحترمونه ويثقون به صدموا عندما رأوه يرفع رايته على السارية الانفصالية، وذهلوا لرؤيته يقف إلى جانب الرجعيين، إن توقيعه على ذلك البيان (الانفصال) كان الآفة التي دمرت مستقبله السياسي. إلا أن الأمر أصبح بالنسبة للجنة

(١) الأسد: لـ باتريك سيل / ٩٩-١٠٠ .

(٢) المصدر السابق / ١٠٣.

العسكرية كأنه هبة من الله.. فالعار الذي لحقه أفسح للجنة العسكرية مجالاً غذّت فيه طموحاتها الشخصية» [1]. «وبعد انفصال الوحدة أودع الأسد وزملاؤه السجن إذ كانوا لا يزالون في مصر، وقضى الأسد أربعة وأربعين يوماً رهن الاعتقال، فأوكل إلى مصطفى طلاس صديقه في أيام الكلية العسكرية في حمص، مهمة مرافقة زوجته وابنته إلى سورية عبر طريق البحر.. وعندما عاد الأسد وزملاؤه إلى دمشق لم تكن تنتظرهم معاملة أفضل.. ولذا فإنه لم يكد يعانق عائلته في القرداحة حتى عاد أدراجه مسرعاً إلى العاصمة، وأخذ يتردد على كواليس مقر قيادة القوة الجوية، وهناك علم لخيبة أمله بأن ثلاثة وستين ضابطاً بعثياً (بمن فيهم أعضاء اللجنة العسكرية جميعاً) قد تقرر صرفهم من الجيش، وتعيين معظمهم في وظائف ذات طرق مسدودة في ميزان الدولة» [2].

«وعندما تحرك انقلاب الناصريين بعد ستة أشهر من الانفصال، غامر أعضاء اللجنة العسكرية بالاشتراك معهم. ولكن إعلان جاسم علوان دولة الجمهورية العربية المتحدة من إذاعة حلب كان مرفوضاً عند النصيريين واللجنة العسكرية، فانسحبوا في اللحظات الأخيرة من التمرد الفاشل، وتخلص الأسد بسرعة من رشاشه وبزته العسكرية.. وتمكن من الهرب جنوباً إلى لبنان عن طريق ميناء طرطوس السوري، إلا أن السلطات اللبنانية قبضت عليه وسجنته لمدة أسبوع في بيروت قبل أن تعيده إلى سورية، حيث وجد نفسه في سجن المزة، وقد استجوب وأبقي موقوفاً بضعة أيام، ثم أخلي سبيله مع تحذيره.. وهكذا وخلال بضعة شهور عرّض نفسه للسجن في مصر ولبنان وسورية» [3].

---

(١) الأسد ل: سيل/١١٦.

(٢) المصدر نفسه / ١١٦-١١٧ .

(٣) المصدر نفسه / ١٢٠.

والذي يهمنا من العرض كله هذه الفقرة:

«وفي اليوم التالي استدعاه واحد من كبار الضباط إلى مقر القيادة من أجل أن يهدئ من خاطره، حتى أنه عرض عليه إعادة مسدسه إليه، ولكن الأسد رفض أن يأخذه قائلاً إنه سيكون هناك متسع من الوقت لاستعادته عندما يرجع إلى القوات الجوية»[1].

ومن أين جاءت ثقة الأسد بنفسه أنه سيعود إلى القوات الجوية، ويرفض أن يستلم مسدسه الخاص به، وهو في جو الملاحقة والاضطهاد والاتهام بالمشاركة في تمرد على النظام وثورة عليه. إن الجواب الطبيعي والمنطقي أن تأتي هذه الثقة من العلاقات الدولية السرية والعلنية التي دفعت بحافظ أسد إلى الأمام ابتداء، ثم يتراجع بعدها ليعود إلى المواقع الأولى بعد انقلاب الثامن من آذار. وهكذا تتم صناعة العملاء، فهو يدخل السجن ويخرج، ويعتذر له.

حافظ أسد الرائد المقدم العقيد:

لم يمر حافظ الأسد على رتبة الرائد، ففي اليوم الأول من الثورة أي في ٨ آذار ١٩٦٣ «كان للبيان التاسع الذي أذيع في الساعة ٨.٤٠ صباحاً أهمية خاصة للجنة العسكرية، فقد أعيد بموجبه أعضاؤها الخمسة إلى القوات المسلحة مع ثلاثين ضابطاً آخرين. ورفّع النقيب الأسد إلى رتبة مقدم، وعيّن آمراً لقاعدة الضمير الجوية، وكان الأصغر سناً والأقل رتبة من زميليه عمران وجديد»[2]. فاختصر بذلك ما لا يقل عن خمس سنوات من الزمن، لأن كرسي الرئاسة في سورية بانتظاره، وخلعت رتبة المقدم على حافظ أسد الذي لم يجلس فيها أكثر

---

(١) الأسد لـ: سيل/ ١٣٢.

(٢) الأسد لـ: سيل/ ١٣٢.

من عدة أشهر بدلاً من عدة سنوات أخرى. ففي أيلول/سبتمبر ١٩٦٣ عقد مؤتمر الحزب الذي انتخب فيه الشوفي أميناً قطرياً والأسد عضواً في قيادة قطرية جديدة تألفت من ثمانية أعضاء، ولم يستطع عفلق ولا البيطار ولا أي واحد من مؤيديهما أن يجعل نفسه فيها[1]. وهكذا أصبح الأسد من الشخصيات الأولى في سورية، ففي الحزب هو أحد الثمانية الكبار أعضاء القيادة القطرية، وفي الجيش هو الشخصية الثالثة التي أصبحت دمشق العاصمة تحت رحمته، لأن آمر قاعدة الضمير الجوية هو حامي حمى الثورة في دمشق. وهكذا أدخل القيادة القطرية برتبة جديدة -عقيد- أو كوفئ بهذه الرتبة على ضوء فوزه بالقيادة القطرية، ليس هذا هو المهم، إنما المهم أن حافظ أسد الرائد المقدم العقيد قد نال هذه الرتب الثلاث في عام واحد، العام الأول للثورة عام ١٩٦٣.

حافظ أسد العقيد العميد اللواء:

إنها عبقرية عجيبة رفعته من ٨ آذار ١٩٦٣ إلى كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٦٤ من رتبة نقيب إلى رتبة لواء، أي في أقل من سنتين وفي غضون اثنين وعشرين شهراً فقط، «صعد درجة أخرى على سلم التقدم، فقد عُيّن آمراً لسلاح الجو السوري وأعطي رتبة لواء»، ولا ندري ما هي المهام الضخمة التي قام بها حتى حاز هذا الشرف في أقل من عامين، فهل حرّر شبراً واحداً من أرض فلسطين؟ أو خاض عملية فدائية ضد اليهود؟ كل الذي عمله حتى حاز على هذا الشرف الكبير أ نه سيطر -إن صح هذا الزعم- على قاعدة الضمير الجوية ليلة الثامن من آذار.

---

٣ المصدر السابق، ص ١٤٦.

والأيام تمضي به سراعاً، والكواليس الدولية تقذف به إلى الأمام ليصل إلى القمة. فقد اقترب اللواء محمد عمران من إنهاء مهمته، ليكون أسد الرجل الثاني بعد جديد، حيث اتفق معه –حسب فصول المسرحية– على إقصاء اللواء محمد عمران، إذ صعد الأسد إلى رتبة لواء بنفس الشهر الذي أقصي فيه عمران. ويقول سيل عن هذه المسرحية: «في أثناء ذلك كان الأسد ينصت إلى شجار زميليه الضابطين الأكبر سناً ورتبة منتظراً فرصته الملائمة. فحين قامت اللجنة بادئ ذي بدء كان لأعضائها أصوات متساوية، إلا أن الرتبة مع ذلك كانت تدخل في الحسبان، وكان الأسد حينذاك أصغر رتبة من جديد وعمران، ولم يكن بعد مرشحاً للمركز الأول. وخلال خريف ١٩٦٤ كان يتوسط بينهما، وينتقل من أحدهما إلى الآخر في محاولة لرأب الصدع، فقد كانت اللجنة هي محور حياته. وكانت غريزته تدفعه للحفاظ عليها، إلا أنه اضطر في نهاية الأمر إلى الانحياز لأحد الجانبين، فاختار أن ينحاز مع جديد، وتبين فيما بعد أن هذا الاختيار كان إلهاماً من علم الغيب. أما لماذا فعل ذلك فلا يمكن معرفة السبب بصورة دقيقة، ولعله كان يشاطر جديد وجهة نظره بأن أمين الحافظ رجل الواجهة، الذي اضطره ضغط الأحداث إلى أن يتخذ إجراءات غير شعبية، لا يزال بالإمكان أن يقوم بدور مفيد في حجب اللجنة عن أنظار الناس، وربما رأى في جديد شخصية أقوى وأصلب من عمران، بل قد يكون الأصل المشترك هو الذي تحكم بقراره، فجديد مثله من الساحل. بالإضافة إلى ذلك كله كان الأسد حينذاك لا يزال ذا نزعة راديكالية، ولا تزال تحرك مشاعره المظالم القديمة التي حلت ببلده. كما أن برنامج جديد للتأميمات الواسعة كان أقرب إلى نفسه من أسلوب عمران التوفيقي مع فئة رجال الأعمال السنيين، ورغم أنه في سنوات لاحقة تبع أسلوب عمران في نهجه . ومهما يكن وزن هذه الأسباب المختلفة، فإن الأسد وضع مصيره مع

جديد، وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٤ صعد درجة أخرى على سلم التقدم، فقد عُيّن آمراً لسلاح الجو السوري وأعطي رتبة لواء»[١].

حافظ أسد وزير الدفاع:

حين احتدم الصراع بين القيادتين القومية والقطرية كان حافظ أسد عضواً في القيادة القومية، وظاهر الأمر أنه ضد اللواء صلاح جديد زعيم القيادة القطرية، وظاهر الأمر كذلك أن الصراع على أشده بين اللواء محمد عمران وزير الدفاع الذي اختارته القيادة القومية، وبين اللواء صلاح جديد رئيس الأركان. ولكن حقيقة الصراع كما ذكرنا من قبل هي بين البعث، والبعثيين السنة الذين يتزعمهم الفريق أمين الحافظ، مع القيادة القومية من جهة وبين صلاح جديد الأمين العام المساعد للقيادة القطرية، ومعه حافظ أسد وإبراهيم ماخوس عضوا القيادة القومية، ومحمد عمران وزير الدفاع من جهة أخرى. ورأينا كيف تم ذلك من قبل ولا ضرورة لإعادته، لكننا في هذا الفصل وراء حافظ الأسد الذي تخلى له المواقع وتفتح أمامه الآفاق، ليصبح الرجل الأول في الدولة والجيش والحزب. وفي صراع الحافظ وجديد، كانت مهمته أن يكون على الحياد، أو هكذا صدرت الأوامر إليه، ليغدو الرجل الأول فعلاً بعد هذا الصراع.

يقول سيل: «ومع اقتراب بوادر البت في النزاع القائم بين الضباط وبين القيادة القومية بقي الأسد بعيداً، إما بداعي النفور، أو بداعي الحذر. ولمثل هذه الأسباب أخذ في ذلك الصيف إجازة من مهماته كآمر للقوة الجوية، وذهب إلى لندن لمدة ثلاثة أشهر، واصطحب معه أحد كبار ضباط السلاح الجوي ناجي

---

(١) الأسد لـ: سيل/ ١٥٩-١٦٠ .

جميل، وآمر الشرطة العسكرية حسين ملحم، والطبيب يوسف صايغ. وكانت تلك هي وحتى كتابة هذه السطور أول وآخر زيارة له إلى بريطانيا، وأقام الرجال الأربعة في شقة بمنطقة (كنزنغتون). والذي عرف حتى الآن أن اتصال الأسد الوحيد بالرسميين البريطانيين كانت زيارة لوزير الدولة للشؤون الخارجية - جورج طومسون- في مكتبه بالوزارة. وقد كان لبريطانيا علاقة قصيرة الأمد مع السلاح الجوي السوري حين زودته بطائرات وتدريبات فيما بين ١٩٥٣ و١٩٥٥، إلا أن هذه العلاقة انقطعت بعد تحالف سورية مع مصر عبد الناصر. أما السبب الظاهري لرحلة الأسد إلى بريطانيا فكان لتلقي علاج لألم في ظهره وفي رقبته نتج عن هبوط اضطراري عندما كان طياراً متدرباً، إلا أن أوجاع الأسد وآلامه ربما كانت من نوع المرض الدبلوماسي» [١].

إما أن سيل يتجاهل الحقيقة عن زيارة الأسد الأولى لبريطانيا أو أنه يجهلها حقيقة، لكنه يعطينا معالم مهمة لتوضيح هذا التطور، فهو يؤكد أنه ما بين عام ١٩٥٣-١٩٥٥ كان لبريطانيا علاقة قصيرة الأمد مع السلاح الجوي السوري حين زودته بطائرات وتدريبات فيها. وخلال هذه الفترة كان الملازم حافظ الأسد يعد الإعداد المناسب لمستقبل سورية. وكانت تلك الزيارة القصيرة لعدة أيام لا تكفي إلا لملامح عامة للإعداد المطلوب. أما الآن فهو يأتي قائداً للسلاح الجوي السوري، ولا يكشف لنا سيل إلا زيارته لوزير الدولة للشؤون الخارجية البريطاني. وهذا الذي يكشفه على ندرته هو عجيب حقاً، فما علاقة قائد السلاح الجوي في سورية بوزير الخارجية في بريطانيا، إلا أن يكون ذلك الإعداد السري ليكون رجل سورية الأول، وأن يبقى لمدة ثلاثة أشهر في لندن ببريطانيا أمر مثير

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل/ ١٦٧ .

حقاً. وسورية تعج بأخطر التطورات والصراعات وهو الرجل الثاني في الدولة لأن الجيش حقيقة هو الدولة في عالمنا الثالث.

ولا ينسى سيل أن يؤكد أن المرض الذي مضى الأسد ليتعالج منه هو صورة ظاهرية، وحقيقته مرض دبلوماسي. فهو يرى أن هذه الزيارة غامضة مليئة بالأسرار. ولذلك يكتفي بالقول «والذي عرف حتى الآن». فلم يئن الأوان بعد لكشف الأسرار السياسية، ووزارة الخارجية لبريطانية لا تفصح عن وثائقها إلا بعد مرور ثلاثين عاماً على الأحداث الغامضة.

ولسنا نبالغ في الأمر، بل يمكن القول إن الأمر أكبر من تصوراتنا، فإعداد رجل مثل أسد ليس قضية بسيطة، وليس إعداد زعيم عادي لدولة متخلفة فقط، فقد فشلت خطط الإعداء كلها التي رسمت لقيادات سورية، لأن الانقلابات العسكرية والتقلبات السياسية، لم تبق زعيماً في سدة الحكم في سورية أكثر من خمس سنوات على أبعد تقدير، بينما كان بعض زعمائها يسقطون بعد بضعة أشهر. وكيف تستطيع أن تعمل لتنفيذ مخططاتها فيها.

وحين نكتب هذا الكلام بعد أن حكم حافظ أسد سوريا ثلاثين عاماً أو أكثر ندرك أن حافظ أسد هو أكثر من نصف تاريخ سوريا. فبعد زيارته هذه للندن، عاد ليتسلم منصب وزير الدفاع، ويرقى منه إلى رئاسة الدولة، فقد غدا عملياً بعد هذه الزيارة الشخص الأول في سورية، رغم أنه لم يستلم ذلك رسمياً إلا بعد سنوات من هذا التاريخ. فإذا كانت سورية قد نالت استقلالها عام ١٩٤٦. فهو قد استلم سورية عام ١٩٦٦، أي بعد عشرين عاماً من الاستقلال والقيادات المتغيرة المتقلبة، وقد تربع على عرش سورية بعد أن سيطر النصيريون على الحكم في سورية، وصاروا السادة الوحيدين فيها في العام نفسه.

يقول سيل: «وكان من أول أعمال النظام الجديد (بعد ثورة ٢٣ شباط

١٩٦٦)، تعيين الأسد وزيراً للدفاع، وبدافع من دماثته قام بزيارة منصور الأطرش وجبران مجدلاني وغيرهما من رفاقه السابقين في القيادة القومية في مكان اعتقالهم ليستفسر عن صحتهم، ويتكلم معهم حول ما جرى من أحداث. ويتذكر الأطرش أن الأسد كان مبتهجاً، ولا بد أن الأسد شعر بالارتياح لكون الصراع الذي شلّ الحزب قد تم حلّه في نهاية المطاف، ولكنه يقول إنه لم يوافق على الأساليب التي استخدمت لحسمه. وراح بعد ذلك يلقي مسؤولية دموية الانقلاب على قائد المغاوير المتهور سليم حاطوم، ويمثل لومه هذا مؤشراً على مشاعره حيال ما حدث، فبعد بضعة أشهر من تلك الأحداث أخبر مراسل صحيفة (لوموند) بأن تدخل الجيش كان أمراً مؤسفاً نظراً -كما قال- لأن البعث كان في جوهره حزباً ديمقراطياً، ولكن هذا التدخل كان ضرورياً لإنهاء دكتاتورية القيادة القومية (وكان عضواً فيها). بالإضافة إلى أنه في عام ١٩٦٩ بيَّن أمام مؤتمر حزبي أنه تردد في الاشتراك في أحداث شباط/فبراير ١٩٦٦، وأنه رفض في بادئ الأمر وزارة الدفاع. على كل حال ومهما يكن من أمر وخزات الضمير هذه فإن الأسد أصبح على مقربة من القمة»[١].

ولا ندري كيف أنه لم يوافق على الأساليب التي استخدمت في حسم الصراع، ولم يكن مرتاحاً لذلك وكان في إجازة سياحية في لندن ثم يعود ليصبح وزيراً للدفاع لهذا الانقلاب.

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل/ ١٧٠ .

الفصل الخامس

التفرد النصيري في السلطة

- القضاء على الدروز

الدروز في البدايات:

لقد كان الدروز منذ المراحل الأولى شركاء للنصيريين في السلطة، والطائفتان تلتقيان في موقفهما من الأحزاب العلمانية والتعامل معها للنفوذ من خلالها إلى السلطة.

فمنذ البدايات كان في اللجنة العسكرية درزيان هما: سليم حاطوم وحمد عبيد. وقدّر لهما أن يلعبا دوراً مهماً فيما بعد. فحمد عبيد كان رئيساً للحرس القومي بعد الثورة مباشرة، وسليم حاطوم غدا قائد المغاوير، بينما برز حمود الشوفي الدرزي أميناً قطرياً للحزب. وكان العام الأول عام بروز العضلات لهم، لكن لم يكونوا راضين عن هذه المناصب. وبرز تحدي حاطوم للإسلام في أحداث المسجد الأموي، فقد كان على رأس الدبابات التي اقتحمت المسجد، وبرز حمد عبيد أكثر فأكثر في عام ٦٥، لكن هذا البروز لم يتم بدون ثمن. «فبعد أن لعب بعض الأعضاء الجدد وأبرزهم الرائد الدرزي سليم حاطوم دوراً فعالاً في انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣، وأصبح لهم نتيجة لذلك مواقع قيادية عسكرية حساسة، أصيبوا بخيبة أمل، لأنهم –عكس قادة اللجنة العسكرية- لم يعينوا في مناصب عسكرية عالية أو وظائف حزبية حكومية بارزة، وكان نتيجة ذلك أنهم لم يكرهوا قادة اللجنة العسكرية فحسب، بل كرهوا أيضاً زعماء الحزب المدنيين الذين تمتعوا بالمناصب والمراتب الرفيعة. بينما بقوا هم يتقاسمون مناصب مغمورة بعيداً عن الأضواء وتقدير الجماهير ... وتفجر هذا الوضع المتوتر في نيسان ١٩٦٥ عندما اندلع شجار عنيف بين سليم حاطوم وصلاح جديد عندما شق حاطوم طريقه بالقوة إلى بيت صلاح جديد مهدداً إياه بمسدس، مطالباً

باستقالته الفورية من قيادة أركان الجيش السوري. ومن الواضح أن حاطوم اعتبر صلاح جديد مسؤولاً عن عدم تعيينه بالرغم من مشاركته بحصة الأسد في تنفيذ انقلاب ٨ آذار- في إحدى الرتب العسكرية العليا أو المناصب الحزبية، وعدم حصوله على ما يتبع ذلك من منزلة وامتيازات أسوة بقادة اللجنة العسكرية القدامى، وكرد فعل على تهديد حاطوم قدّم صلاح جديد استقالته إلى الرئيس الفريق أمين الحافظ القائد العام للقوات المسلحة الذي رفض الاستقالة على كل حال، واعتبر من غير المقبول أن يهدد رئيس الأركان على هذه الصورة حتى يستقيل. ولكن أمين الحافظ لم يتخذ أي إجراءات تأديبية بحق حاطوم بينما كان يجب عليه أن يتخذ مثل هذه الإجراءات. ويفسر منيف الرزاز إهمال أمين الحافظ تأديب حاطوم على النحو التالي:

دعم أمين الحافظ سليم حاطوم بسبب الشكوك التي تراوده حول ولاء صلاح جديد له، وضحك في سره على التطور الذي وصلت إليه الأوضاع، ولم يتخذ أي إجراءات تأديبية بحق حاطوم ليوجد معه نوعاً من التحالف [١]. كان صلاح جديد من الذكاء بحيث يفوت الفرصة على أمين الحافظ في أن يضم الدروز إلى جانبه، ولذلك استطاع أن يستفيد من حديث أمين الحافظ عن الطائفية ومهاجمته لها، فوظفها لصالح كل الطوائف غير السنية، فأمين الحافظ يطرح موضوع الطائفية باستمرار، ويتهم بشكل عنيف ومحرج صلاح جديد ببناء كتلته الطائفية العلوية في الجيش. وكان لأمثال هذه الاتهامات تأثير عكسي على موقف أمين الحافظ» [٢].

---

(١) الصراع على السلطة في سورية لـ: فان دام ٦١-٦٢ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٧٥.

وعندما سيطرت القيادة القطرية على الحكم في النصف الثاني من عام ١٩٦٥، رافق ذلك ابتعاد صلاح جديد عن رئاسة الأركان ليثبت نزاهته وبعده عن السلطة. وأخذ الدروز موقعهم الفخري الذي يريدونه حيث غدا حمد عبيد وزيراً للدفاع في هذه الحكومة، وتفرغ صلاح جديد لبناء الحزب والسلطة، أو بتعبير آخر لهدم الحزب، والإيغال في السلطة تحت الراية المتواضعة: الأمين القطري المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي. وكان أن وضع حمد عبيد بمواجهة أمين الحافظ ليدفع بالدروز أن يكونوا صفاً واحداً مع صلاح جديد. فالأقليات يجمعها هدف واحد هو المحافظة على بقائها أمام الخطر الداهم. خطر الأكثرية السنية.

الدروز بعد انقلاب ٢٣ شباط:

لا أذكر بأي عهد بلغ اصطناع التزلف من الدروز أن استلم وزارة الدفاع في سورية متعب شنان، ومتعب شنان الدرزي هو رئيس اتحاد الطلبة في سورية وشاب في أوائل الثلاثينات من عمره، لا يعرف شيئاً عن الجيش، حتى جرت النكتة الطريفة في الشارع السوري آنذاك أن متعب شنان استدعي للخدمة الإجبارية في الجيش السوري برتبة وزير الدفاع. ولعل هذا في إحدى وزارات القيادة القطرية قبل ٢٣ شباط.

«كان سليم حاطوم بعثياً قديماً وضابطاً طموحاً. كان شجاعاً، بل وحتى طائشاً، ولكن بدون دهاء سياسي، وقد ولد سنة ١٩٢٨ لعائلة فقيرة من قرية دبين الدرزية، وبنى نفسه بنفسه، وشق طريقاً جعله يلعب دوراً في ثورة الثامن من آذار سنة ١٩٦٣. ووجد نفسه يكافأ بالانضمام إلى اللجنة العسكرية الموسعة، ولكن لم يصل إلى ما هو أبعد من ذلك. وبعد أن غامر برقبته في سنة ١٩٦٦ لم يتم

انتخابه في القيادة القطرية للحزب، وعلى عكس آخرين غيره لم يحصل على رتبة عالية أو منصب كبير، وبدلاً من ذلك أعيدت كتيبة الكوماندوس التابعة له إلى الوظيفة المملة الرتيبة في حراسة محطة الإذاعة والتلفزيون وغيرها من المنشآت، وآذت هذه الضربة كبرياءه ولم ترض طموحه، فبدأ يعتقد بأن زملاءه يريدونه أن يتحمل وحده اللوم على قتل ضحايا ٢٣ شباط فبراير. وكان شعور حاطوم بالظلم مشتركاً بين الدروز، وكان الدروز كطائفة يشعرون بأنهم ضحايا تمييز ضدهم في نظام حكم البعث، فقد طرد بعض أبنائهم البارزين من مناصبهم، فحمود الشوفي زعيم الجناح الماركسي في الحزب أسقط سنة ١٩٦٤، وحمد عبيد الذي احتل منصب وزير الدفاع فترة قصيرة سنة ١٩٦٥ وجد نفسه في السجن بعد انقلاب ٢٣ شباط/ فبراير، وكان قد دعم صلاح جديد ضد أمين الحافظ، وتوقع أن يستعيد وزارة الدفاع. ولكن جديد فضل عليه الأسد الذي كان أقدر منه، والذي كان عندئذ ذراع جديد اليمنى، وهكذا تمرد عبيد فألقي القبض عليه وأدى هذا التساقط وفقدان الحظوة إلى إفزاع الطائفة الدرزية، وأثار الشكايات من كون العلويين يحصلون على كل وظائف القمة والمناصب الكبرى، وأثارت هذه الاتهامات القيادة القطرية التي اتهمت الدروز أنفسهم بأنهم هم الذين يثيرون النزاع الطائفي» [١].

الدروز في القيادة القومية:

«صدر بعد انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦ أمر باعتقال منيف الرزاز الأمين العام للقيادة القومية المخلوعة، ولكنه توارى في دمشق وبدأ من مخابئه المتعددة

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/١٨١-١٨٢.

تشكيل تنظيم حزبي جديد يتكون من قطاع عسكري وقطاع مدني منفصلين. والهدف الواضح من وراء ذلك هو إعادة القيادة القومية إلى السلطة. وكانت قيادة القطاع المدني بيد الرزاز، بينما قبل اللواء الدرزي فهد الشاعر مهمة إنشاء مكتب عسكري وقيادة التنظيم الحزبي العسكري، وكان باب العضوية في هذا التنظيم مفتوحاً من حيث المبدأ أمام الطوائف الدينية كافة، ولكن ذلك لم يكن وارداً في القطاع العسكري الذي استثنى العلويين بشكل خاص. وسبب ذلك هو صراع السلطة داخل الجيش السوري قبل ٢٣ شباط ١٩٦٦، وازدياد الولاءات الطائفية إلى درجة كبيرة، وانعدام الثقة بين الضباط من مختلف الطوائف الدينية، إلى حد رفض معه أعضاء مكتب فهد الشاعر العسكري قبول العلويين في بداية تنظيمهم خشية أن يؤدي قبولهم إلى كشف خططهم بواسطة أنصار صلاح جديد وحافظ الأسد من العلويين»[1].

الدروز ينسقون في الموقعين لانقلاب: كان حاطوم والشاعر ضابطين درزيين من جبل واحد، ولكن الشبه بينهما لم يذهب إلى أبعد من ذلك. فلقد كان الشاعر جندياً رصيناً متزناً، خريج أكاديمية عسكرية سوفيتية. وكان حاطوم بالنسبة إليه شريكاً مفزعاً، لأنه غاضب ومتهور. غير أن عرضاً بالمساعدة يأتي من محارب مجرب لا يزال رجاله الكوماندوس يحرسون منشآت حيوية كان هدية من السماء، وبالإضافة إلى ذلك فقد تحدث حاطوم عن تجميع وقتل الشخصيات الهامة في النظام، وهذا أمر لم تكن طبيعة الشاعر تطيقه.

وهكذا وضعت خطط انقلاب .. وأعيد تحديد يوم الانقلاب في ٣ أيلول/ سبتمبر، ولكن قبل أن يتم تنفيذه اكتشفته السلطات فعلاً. كان أحد المقربين من

---

(١) الصراع على السلطة في سورية، لفان دام/ ٧١.

حاطوم درزياً آخر هو العقيد طلال أبوعسلة، وكان عندئذ قائداً للقطاع الشمالي من الجبهة. وكان شخصاً مرحاً يحب صحبة ضباط أصغر منه. وذات مساء في آب/ أغسطس دعته مجموعة منهم إلى حفلة شربوا فيها عرقاً (خمراً) حل عقدة ألسنتهم، وبدأ بعض شبابهم (المؤيدين للرزاز والشاعر سراً) بشتم جديد والأسد والقيادة الجديدة، بينما هب آخرون للدفاع عنهم، وانفجر الشجار بينهم. وفي الصباح التالي أرسل مؤيدو جديد خبراً عما حدث إلى مقر القيادة في الأركان، وجاء رئيس الأركان أحمد سويداني للتحقيق، فألقي القبض على نصف دستة من المتشاجرين، وسيقوا للمثول أمام محكمة تحقيق عسكرية كان من بين أعضائها سليم حاطوم نفسه. أي أن المتآمر بدأ يلعب دور المحقق في استجواب تمثيلي صوري، أخذ حاطوم خلاله يتظاهر بضرب الضباط وهو يهمس في آذانهم في الوقت نفسه قائلا «سوف أقتل كل من يتكلم» ولم يكتف بحماية مؤيدي الشاعر بهذه الطريقة، بل أصدر أمراً بنقل أحد مؤيدي جديد البارزين المشاركين في الشجار من الجانب الآخر، وبإبعاده عن الجبهة.

كان صلاح جديد يتابع القضية من دمشق، وقد شم رائحة طبخة كريهة، فعيّن لجنة تحقيق جديدة كان من بين أعضائها هذه المرة عبدالكريم الجندي رئيس جهاز الأمن القومي الذي لا يرحم. فقامت بعملها بطريقة أكمل وأكثر وحشية، فضرب الضباط الشبان ضرباً مبرحاً حتى انهار واحد منهم واعترف في ٢٠ آب سنة ١٩٦٦، وهو الرائد محمد نعيمي، الشاب البسيط من أصل بدوي، فأعطى أسماء عشرة ضباط مشتركين في المؤامرة، وأعطى كل واحد من هؤلاء بدوره أسماء آخرين حتى وصل مجموع الموقوفين إلى مائتين. وكان كثيرون منهم دروزاً. واختفى اللواء فهد الشاعر، كما هرب البعثيون المدنيون للنجاة بأرواحهم. وأدى تطهير الجيش من الدروز إلى ضجة كبرى في العاصمة الدرزية السويداء،

حيث أرسل فرع الحزب مذكرة غاضبة ناقمة إلى صلاح جديد تطالب بإعادة الضباط، ولتهدئة الأمور أعلن صلاح جديد أنه سيسافر بنفسه إلى السويداء مصطحباً معه رئيس الدولة الدكتور الأتاسي، وكذلك جميل شيا العضو الدرزي الوحيد في القيادة القطرية.

وكانت هذه فرصة حاطوم، كان جناحه في المؤامرة لم ينكشف بعد، غير أنه خشي أن ينكشف بسرعة ويسجن، فقرر مع أصدقائه أن يصطادوا جديد والآخرين في السويداء ويطيحوا بالحكم.

فشل الانقلاب الدرزي الثاني:

أجرى حاطوم بعض الترتيبات التمهيدية، فطلب من طلال أبو عسلة أن يسيطر على الجبهة بكتيبة دبابات. بينما أصدر تعليماته لضابط آخر من المتصلين به وهو مدير المخابرات العسكرية مصطفى الحاج علي أن يستولي على كتيبة الكوماندوز التابعة لحاطوم نفسه. ويتأكد من وجود معسكر قطنا الهام في أيد أمينة. ثم توجه حاطوم إلى السويداء قبل جديد، وتوقف عند وحدة دبابات في حوران، وأقنع آمرها إبراهيم نورالدين بقطع طريق السويداء بعد عبور جديد وأصحابه. وهكذا ففي ٨ أيلول/ سبتمبر، وبينما كان جديد قد جمع عدداً كبيراً من الشخصيات المحلية البارزة في مكتب قيادة فرع الحزب في السويداء، دخل عليهم فجأة سليم حاطوم، وبيده مدفع رشاش، وهدد بأن يحصدهم جميعاً برصاصه وتبع ذلك ذعر وصراخ. وأخيراً تمكن كبار زعماء الدين الدروز من ضبط حاطوم لأنهم لم يقبلوا أن يتعرض للأذى ضيوف في حمايتهم. ومع ذلك فقد حبس صلاح جديد والآخرون تحت الحراسة في منزل أحد الحزبيين، بينما سيطر حاطوم بمساعدة رئيس فرع المخابرات العسكرية بالسويداء على مقر

الحامية في القلعة، وألقى القبض على الضباط العلويين هناك وجردهم من رتبهم، ولكن حاطوم المنتصر مؤقتاً لم يكن قد حسب حساب الأسد» [1].

«وقد اغتنم حاطوم وأنصاره فرصة وجود اللجنة في السويداء واعتقلوا الأتاسي وجديد لاستخدامهم كرهائن خلال المفاوضات القادمة مع سلطات الحزب والجيش، وعلى رأسهم حافظ الأسد الذي كان في دمشق، كما اعتقلوا عدة ضباط بارزين في السويداء مثل النقيب العلوي محمد ابراهيم العلي قائد الحرس الوطني، والذي اعتقله الملازم الدرزي عبدالرحيم بطحيش رئيس فرع المخابرات العسكرية المحلي بدعوته إلى وليمة وهمية، كمنا نجح بعض أنصار حاطوم في الاستيلاء على لواء السويداء بالمفاجأة. أما جميل شيا الدرزي الوحيد في لجنة القيادة القطرية فلم يعتقله أبناء طائفته. وهكذا كان في موقف التوسط بين جديد وحاطوم.

وتجدر هنا ملاحظة حقيقة بارزة، وهي تفضيل الوسطاء من نفس الطائفة - والمنطقة إن أمكن - في المفاوضات أثناء الازمات ذات الصبغة الطائفية. والسبب الواضح لذلك هو القدر الكبير من الثقة المشتركة التي توجد بين أبناء الطائفة الواحدة، والمنطقة الواحدة لا سيما في أثناء الازمات.

وضع سليم حاطوم في مفاوضاته الهاتفية مع وزير الدفاع حافظ الأسد ورئيس مجلس الوزراء يوسف زعين عدداً من المطالب كان أهمها:

١-عودة أبرز أنصاره الى مناصبهم العسكرية التي سرّحوا أو نقلوا منها بعد ٢٣ شباط ١٩٦٦.

٢-إطلاق سراح أتباعه وزملائه الذين اعتقلوا مؤخراً لعلاقتهم بالمؤامرة

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/١٨٣-١٨٦.

المكتشفة ضد القيادة القطرية.

٣-تطهير الجيش من بعض أبرز أنصار صلاح جديد العسكريين.

٤-إعادة قبول من أسماهم حاطوم باليساريين - مجموعة الشوفي - في الحزب.

٥-استقالة القيادة القطرية السورية المختارة في آذار ١٩٦٦، وتعيين قيادة قطرية مؤقتة جديدة يكون فيها على الأقل خمسة من مجموعة الشوفي إلى جانب بعض أعضاء القيادة القطرية الراهنة.

ورفضت قيادة الجيش رفضاً قاطعاً التسليم بأي من هذه المطالب، وحركت إلى السويداء بدلاً من ذلك قطعات عسكرية تتضمن كتائب صواريخ مهددة بقصف عاصمة المحافظة، «غير أن سماع صوت الطائرات جعل حاطوم يدرك أن قضيته خاسرة حتماً، فمهما تكن نتيجة المعركة فستتعرض السويداء إلى القصف من الجو، وستصاب طائفته الدرزية بالأذى»[1]. وقرر حاطوم وأبو عسلي في النهاية الهرب إلى الأردن، حيث منحا وأتباعهما حق اللجوء السياسي، وصرح أبو عسلي فيما بعد أنهما قاما بذلك لتجنب مواجهة مسلحة داخلية بالقرب من الجبهة مع إسرائيل.

الدروز يتحدثون عن الطائفية النصيرية:

عقد سليم حاطوم مؤتمراً صحفياً في عمان في ١٩٦٦/٩/١٣، قدّم فيه تفسيراته لما حدث في السويداء، وأعلن «أن الوضع في سورية مهدد بحرب أهلية نتيجة لتنمية الروح الطائفية والعشائرية التي يحكم من خلالها صلاح جديد

---

(١) هذه الفقرة ضمن القوسين لباتريك سيل/ ١٨٦.

وحافظ أسد والفئات الموجودة حولهما» وقال أيضا: «إن الروح الطائفية تنتشر بشكل فاضح في سورية وخاصة في الجيش سواء بتعيين الضباط وحتى المجندين، وإن الفئة الحاكمة تعمد إلى تصفية الضباط والفئات المناوئة لها، وتحل مكانهم من أتباعها في مختلف المناصب. فقد بلغت نسبة العلويين في الجيش خمسة مقابل واحد من جميع الطوائف الأخرى.

وفي مقابلة لجريدة النهار مع حاطوم وأبو عسلي في ١٩٦٦/٩/١٤ قال حاطوم إنهما ذهبا إلى الأردن «من أجل أن نناضل باسلوب آخر وبطريقة أخرى لإنقاذ الجيش، وإبعاد الروح الطائفية التي سيطرت عليه» واستمر قائلا «اذا ما سئل عسكري سوري عن ضباطه الأحرار سيكون جوابه أنه شردوا وسرحوا ولم يبق سوى الضباط العلويين». إن الضباط العلويين متمسكون بعشيرتهم وليس بعسكريتهم، وهمّهم حماية صلاح جديد وحافظ أسد... إن الاعتقالات الأخيرة شملت مئات الضباط من جميع الفئات إلا العلويين.. وأضاف طلال أبو عسلي الى ملاحظات حاطوم قوله «إن وضع الجيش السوري دقيق جداً وخطير، لأن جميع أبناء الوطن هم ضد ما كل علوي. وهذا الانقسام قائم في الجيش لدرجة الاقتتال في أية لحظة، وإن هذا سيكون رداً طبيعياً على التكتل العلوي المنتحل صفة الحزب. إن التسلط العلوي شمل كل المستويات لدرجة أنك ترى المرأة العلوية تتصرف وكأنها هي السلطة وباسم الحزب. وكل علوي من كبير أو صغير يعرف ماذا سيحدث من تطورات ومن تنقلات ومن اعتقالات قبل أن يعرف بعض كبار المسؤولين. وعلق أبو عسلي في نهاية حديثه قائلاً: «إنه عندما تم اعتقال الضباط في الجبهة كانت النساء العلويات يزغردن على مسامع نساء الضباط المعتقلين، وهذه صورة بسيطة عن الجو في البلد».

أصدر حاطوم بعد اسبوعين في ١٩٦٦/٩/٢٨ تصريحاً يتضمن وفقاً لما روته

صحيفة الحياة اتهاما بأن المجموعة الحاكمة في دمشق «تنوي تنفيذ مخطط طائفي لاقامة نظام انتهازي يحمل شعار دولة علوية واحدة ذات رسالة خالدة - ويتألق فيه العميد صلاح جديد و(نور الأنوار) إبراهيم ماخوس. ومن الواضح ان شعار أمة علوية واحدة ذات رسالة خالدة كان تلاعباً بشعار البعث (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) بينما نور الأنوار والعميد اصطلاحات ورتب دينية علوية.

حاول حاطوم وأتباعه بمثل هذه التصريحات زيادة التوتر الطائفي داخل الجيش والشعب السوري للتشكيك بحافظ أسد وصلاح جديد وبقية الزعماء العلويين في أعين غير العلويين، ولإضعاف مراكز قوى حافظ أسد وصلاح جديد»[1].

القضاء النهائي على الدروز:

على كل حال فإن الأسد اذا كانت لديه موانع حالت بينه وبين استخدام سلاح الجو ضد عفلق وأمين الحافظ في شباط/ فبراير سنة ١٩٦٦، فانه لم يكن لديه أية موانع من حشد ذلك السلاح ضد حاطوم في أيلول/ سبتمبر.

وهكذا أدى عمل الأسد السريع إلى إنقاذ الوضع، وكسب امتنان جديد وثقته، وبعد ذلك بدأ هو وجديد في حملة تطهير جماعية أخرى لهيئة الضباط السوريين، فكان من بين المطرودين ما لا يقل عن تسعة وثمانين عضواً من التنظيم العسكري الذي كان الأسد نفسه قد بناه، غير أنه أصبح يشك في ولائه، وألقي القبض على عشرات آخرين، واستمر التطهير إلى ما بعد دخول عام ١٩٦٧،

---

(١) الصراع على السلطة في سورية لفان دام/ ٨٠-٨٣ بتصرف.

وكانت الطائفة الدرزية ساخطة في الأصل قبل هذه الأحداث والحملة التي أعقبتها، فازداد سخطها بحيث شلّ العمل الحزبي في جبل الدروز لعدة أشهر، وتأثر الزعيم الدرزي الكبير سلطان باشا الأطرش إلى حد أنه كتب خطاب احتجاج مفتوحاً إلى هيئة الأركان في دمشق في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦، وكان الأسد باعتباره وزيراً للدفاع، قد وافق على طرد حوالي أربعمائة ضابط في أضخم حملة تطهير عرفها الجيش السوري في تاريخه، فقد كان هو وجديد مصممين على وضع حد نهائي للطائفية دفعة واحدة، فإذا أضيف هؤلاء إلى الناصريين والانفصاليين الكثيرين الذين صرفوا من الخدمة أو اعتقلوا منذ عام ١٩٦٣. فسيتضح أن سورية قد انزلقت في حرب حزيران بدون هيئة ضباط، أو على الأقل بهيئة مستنزفة استنزافاً عظيماً.

وبعد لأي ألقي القبض على فهد الشاعر نفسه، وأسيئت معاملته حسب بعض التقارير، وقيل إنه أجبر على الحبو على أطرافه الأربعة كالحيوان في وسط ماء قذر. بينما كان معذبوه راكبين فوق ظهره. وفي آذار/ مارس عام ١٩٦٧ مثلت أعداد كبيرة من المتهمين أمام محكمة عسكرية يترأسها المقدم مصطفى طلاس صديق الأسد الذي ميّز نفسه في السابق في مهمة مماثلة بعد اضطرابات حماه في عام ١٩٦٤، وقد حكم على فهد الشاعر بالإعدام بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم، وكذلك على سليم حاطوم وطلال أبو عسلة غيابياً، وقد خلق الشاعر ضجة في المحكمة عندما تحدى صلاحياتها، غير أن حكم الإعدام ضده لم ينفذ في آخر الأمر.

وبعد شهرين فقط كانت سورية تخوض الحرب، وهي حرب كان من بين مصائبها المرعبة الكثيرة أنها كتبت حاشية مروعة لقصة سليم حاطوم. ففي اليوم السادس من الحرب أعلن أنه عائد لسورية ليقاتل، وسافر مع جماعة من مؤيديه

من الأردن إلى السويداء، ولعله قد تصور بسذاجة أن الحرب قد مسحت صفحة الماضي، وربما كان - كما يقول خصومه - يأمل أن يربح ويستفيد من الدمار، وعلى أية حال فقد لاقاه ضباط الأمن واقتادوه إلى دمشق، حيث سيق للمثول أمام محكمة طلاس العسكرية التي أكدت عليه حكم الإعدام. وقد قام عبدالكريم الجندي بتكسير أضلاعه قبل إرساله لتطلق عليه النار وهو نصف حي في الخامسة من صباح ٢٦ حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧. ولعل هذه الوحشية كانت هي انتقام الجندي من الإهانات التي وجهها إليه حاطوم، فعندما كان حاطوم يشهّر بالحكومة السورية من عمان اتصل بالجندي بوقاحة، وطلب منه أن يرسل إليه زوجته لتنضم إليه، وعندما رفض الجندي انهال عليه حاطوم بشتائم مقذعة، وكان آخر طلب لحاطوم قبل موته هو السماح لزوجته بالاحتفاظ بوظيفتها كمعلمة لتتمكن من تربية أطفالهما. ولقد لعب الأسد دوراً هاماً وحساساً في إحباط مؤامرة حاطوم، وفي حملة التطهير الضخمة التي أعقبتها. ولكنه لم يوافق على النهاية الوحشية التي آلت إليها!!! وبعد ذلك بثلاثة أعوام، وعندما أصبح رئيساً لسورية استقبل أرملة حاطوم ومنحها معاشاً»[1].

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/١٨٧-١٨٨.

الفصل السادس

أول ثمار التفرد النصيري بالسلطة

الحرب على الله

صورة النظام البعثي النصيري:

يقول سيل: «أدت المواجهة الدامية داخل صفوف البعث في ٢٣ شباط/ فبراير إلى إعطاء الأسد أول مقعد له في حكومة سورية وهو لا يزال في الخامسة والثلاثين، فحصل على منصب وزير الدفاع، الذي دفعه في الحال إلى مقدمة المواجهة السورية-الإسرائيلية منذ ذلك الحين شغل حياته الشاغل، ولقد أثبتت الحكومة التي أصبح عضواً فيها أنها أكثر الحكومات التي عرفتها سورية تطرفاً. وكانت متهورة في الخارج، ومتشددة بشكل جذري في الداخل، فقد أدخلت البلاد في حرب، وحاولت إعادة تركيب المجتمع من السقف إلى القاع، كما اكتسبت سمعة بأنها تقمع الشعب وتتخلص بوحشية ممن يتحدونها، كم كانت قوة الأسد في هذه الحكومة، وما الدور الذي لعبه لقلب تركيبة سورية الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والإتيان إلى المقدمة برجال وفئات ممن ظلوا على الهامش حتى ذلك الحين، ويمكن القول أن الأسد بعد أن فاز بالسلطة صمم على الاحتفاظ بها، غير أن مزاج الحكومة المتصلب عقائدياً كان مختلفاً عن طبعه الذي يميل إلى الحذر، ويحجم عن اندفاع زملائه المباشر المتحمس للتغيير، ورغم مركزه كوزير، فإن هذه الفترة لم تكن سعيدة، ولم يكن صوته هو المسيطر في النظام الجديد.

كان النظام قد خرج من ثلاث سنوات من الصراع على السلطة أعقبت انقلاب عام ١٩٦٣، أما بعد دحر المنافسين الناصريين، وإخماد المعارضة اليمينية

والدينية في حماة، وإزاحة الجيل القديم من البعثيين، فقد صفا الجو للجنة العسكرية، وانفسح لها المجال لتحكم، وأدى ذلك إلى تغيير في أدوات السلطة، فحتى تلك اللحظة كانت اللجنة العسكرية نفسها هي الجهاز المركزي الذي يفرض الضباط إرادتهم من خلاله. أما في عام ١٩٦٦، وبعد أن ضعفت اللجنة بخروج عمران منها، فقد ازدادت ذبولاً، بل وفقدت كثيراً من مبررات وجودها حالما احتكر الضباط في قبضتهم جهاز الدولة. ولم تعد هناك حاجة للمؤتمرات السرية. وكان من نتيجة التحول إلى حكومة عادية أن صعد صلاح جديد ليصبح حاكم سورية. لم يعلن رئيسا للدولة، بل فضل أن يحكم من خلال منصب يبدو متواضعاً وهو الأمين المساعد للقيادة القطرية لحزب البعث. ومع ذلك فقد أصبح هو الرجل رقم (١)، فملأ القيادة والحكومة بأتباعه وأصدقائه، ووضع بصمته على الأحداث، بينما راحت الهوة تتسع بينه وبين الأسد.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالمستقبل، لم يكن ذلك لغير صالح الأسد تماماً، لأن انغماس جْديد في تسيير شؤون البلد وصل إلى درجة جعلته يعطي الأسد مجالاً واسعاً لإدارة شؤون القوات المسلحة، وبما أن جديد كان خبيراً صاحب تجربة في التآمر، فقد كان يعرف جيداً أهمية السيطرة على الجيش، ولذا فقد كان همه الأول بعد انقلاب عام ١٩٦٣ أن يستولي على مكتب شؤون الضباط لكي يشرف بنفسه على جميع التعيينات. ومن هناك صعد ليصبح رئيساً للأركان. أما في عام ١٩٦٦ فقد كان عليه أن يركز على الحكومة المدنية. ولذلك اعتمد على الأسد للمحافظة على ولاء الجيش. وكان الأسد قد ساند صلاح جديد ضد محمد عمران وظل رفيقه الثابت القوي أعواماً طويلة، ولم يكن يبدو أنه يشكل خطورة

أو تهديداً» [1].

لـم يهمـل جديـد الجانـب الأمني مـن الأمـور تماماً. وهنا أيضاً كان انحيازه لليسار واضحاً، فجاء بأحمد سويداني وجعله رئيساً للأركان، ورفعه إلى رتبة لواء. وكان سويداني سنياً من الريف، من مدينة درعا قرب الحدود الجنوبية. وقد عمل كملحق عسكري في بكين، حيث تشرّب جرعة قوية من مذهب ماوتسي تونغ. ولم يكن الأسد متحمساً لرئيس أركانه الجديد هذا الذي كان باعتباره صنيعة لصلاح جديد رقيباً على سلطات الأسد. ووراء الكواليس، كانت هناك أيضاً خلافات حول موضوع حساس كان قد بدأ يتضخم ويكبر، وهو كمية الجرعة المساعدة التي على سوريا أن تعطيها للمجموعات الفلسطينية التي كانت تغير على إسرائيل، كان الأسد يؤمن بوجوب مساعدة المقاتلين، ولكن سويداني الماوتسي النزعة كان يريد إعطاءهم مجالاً من الحرية أكثر مما كان وزير الدفاع يراه من مقتضيات الحكمة.

وكان من بين الضباط المتشددين الآخرين الذين عينهم جديد محمد رباح الطويل السني من اللاذقية، الذي أصبح وزيراً للعمل ورئيس قوات المقاومة الشعبية التي كوّنت حديثاً آنذاك، غير أن الرأي العام في المدن والأرياف كان يرى أن أكثر الضباط تشدداً هو العقيد عبد الكريم الجندي الإسماعيلي الشديد الاندفاع، وأحد الأعضاء المؤسسين للجنة العسكرية، وأحد المؤيدين الأساسيين لصلاح جديد، والذي اصبح وزيراً للإصلاح الزراعي قبل أن يتسلم السيطرة على قوى الأمن الداخلي، وهو المنصب الذي أكسبه سمعة مخيفة في قسوته.

هؤلاء هم المتنفذون الفعليون وأصحاب القرار، أما الواجهات المدنية التي

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/١٧٣-١٧٤.

حكموا البلد من خلالها فكانت ذلك الثلاثي التافه: نورالدين الأتاسي رئيس الجمهورية، ويوسف زعين رئيس الوزراء، وإبراهيم ماخوس وزير الخارجية.

«كان الأتاسي وزعين وماخوس من اختيار جديد، كانوا قد شغلوا مناصب وزارية مختلفة منذ عام ١٩٦٣، ولكنهم لم يكن فيها ما يهيئهم لمثل ذلك البروز، وكانت الحادثة التكوينية في حياتهم هي الحرب الجزائرية ضد فرنسا (١٩٥٤-١٩٦٢) عندما خدموا فترة كأطباء متطوعين مع قوات هواري بو مدين. كانت خشونتهم في الحكم تبدو من خلال نقص الاعتدال لديهم، فيوسف زعين كان رجلاً ماهراً ومصمماً، غير أنه كان ذا طبع عنيف، غالباً ما يصرخ بموظفيه، ويدق على طاولته (وذات مرة كسر زجاج سطحها وقلب محبرة) بينما كانت عصبية ماخوس أحياناً تجعل كلامه غير مفهوم، وكان تشدد الأطباء الثلاثة يؤثر على طراز ملابسهم، ففي زيارة لباريس كان زعين يرتدي جاكته (سبورت) من طراز ماوتسي تونغ، فقيل له إن الجنرال ديغول لن يستقبله بتلك الملابس، فدمدم على البروتوكول، ولكنه في آخر الأمر لبس ربطة عنق وسمح له بدخول قصر الإليزيه»[1].

كانت هذه هي الشخصيات الرئيسية التي سيطر بها البعث بوجهه الجديد على مقاليد الأمور في سورية قبل خمسة عشر شهراً فقط من حرب حزيران/يونيو. غير أن كفاءته للحكم ناهيك عن قدرته على شن الحرب كانت أقل مما ينبغي، فقد كان الفريق الذي يترأسه جْديد مؤلفاً من ضباط من الرتب المتوسطة دفعوا إلى رتب الجنرالات العالية بين عشية وضحاها، ومن أطباء قليلي الخبرة، دفعهم فوران تلك الأيام إلى ميدان السياسة، يدعمهم حشد من معلمي المدارس

(١) الأسد، لباتريك سيل/١٧١.

الريفية ذوي الميول البعثية الذين احتلوا دوائر الدولة باعتبارهم كوادر النظام الجديد. وكان هؤلاء الرجال جميعاً مجهولين لدى عامة الناس ولم يكن لأسمائهم أي رنين باستثناء الأتاسي..»[1].

«وبهذه التبعية لما كان يشبه دولة الحزب اللينينية، راح الناس في المجتمع يصنفون ما بين عدو وصديق مع تقسيمات فرعية فيما بين الصنفين، فـ (العمال) و(الفلاحون) و(الطلبة) و(النساء) و(الشبيبة) صنفوا كأصدقاء، أما (الاقطاعيون) و(الرجعيون) فاعتبروا أعداء بلا هوادة، رغم إفساح المجال للتعامل مع الرجعيين الذين لا ضرر منهم. وبدا كأن كون المرء سورياً فقط لم يعد يعطيه أي حق، وبدا النظام في متابعته لبرنامجه شديد التعصب مذهبياً، وكأنه يحاول تحقيق شيء لا يقل عن تحويل طابع سوريا وشخصيتها»[2].

بعد هذا العرض الذي عرضه سيل لسوريا الثورة البعث عام ١٩٦٦، وظهر فيه أن الجو قد خلا للنصيريين تماماً بالإجهاز على الدروز، لا بد لنا أن نوضح معالم الصورة من خلال الفقرات التالية:

أولاً: إن قصة المواجهة بين الإسلام والقومية، وبين البعث وبين الإخوان المسلمين قصة قديمة قدم تاريخ سورية الحديث. ولذلك منذ أن قامت ثورة الثامن من آذار فشعر شباب البعث (وأخص بالذكر السنيين) أن الدولة غدت لهم، وراحوا يتحدون بعنف وشدة مشاعر الإسلاميين عامة، والإخوان المسلمين خاصة. ولم تكن أحداث حماة، وأحداث دمشق إلا نموذجاً من هذا التصادم الواضح. وكان الذي يمثل البعث والشيوعيين في سوريا بشكل عام الفسقة

---

(١) المصدر نفسه/١٧٨.

(٢) المصدر نفسه/ ١٧٩.

والماجنون، وكانوا يبتعدون عن الجو الديني لشعورهم بالصغار والاحتقار أمام أولئك المتدينين، فيزدادون حقداً عليهم وينتظرون لحظة الانتصار عليهم. كانوا يمارسون ملذاتهم وانحرافاتهم سراً خوفاً من تلك السيطرة الاجتماعية لدعاة الإسلام وحظوة الاحترام التي يتمتع بها هؤلاء الدعاة. فكانت ثورة الثامن من آذار هي التي أطلقتهم لتحطيم هؤلاء الخصوم. وأذكر نموذجاً من ذلك: فقد كان أحد المعلمين معي في إحدى قرى دير الزور، منذ الأشهر الأولى للثورة، يحضر الخمر ليشربه علانية في المدرسة وبجواره (الكلاشينكوف) الذي يهدد به أكبر رأس في القرية بصفته أحد أبناء الحرس القومي.

ولا ننكر أن هناك بعض السذج الطيبين الذين كانوا في صفوف الحزب، يحافظون على عباداتهم، ويبتعدون عن الزنا والخمر، لكن أدخل في روعهم أن دعاة الإسلام والإخوان المسلمين بالذات عملاء للمخابرات الأمريكية، وبالتالي فهم خونة مرتبطون بإسرائيل، وأنهم عملاء الإقطاعيين، والإسلام اشتراكي، فلا بد من حربهم، ولكن نسبة هؤلاء ضئيلة لا تكاد تذكر.

وحرصاً على الموضوعية نؤكد أن مواجهة الإسلام ودعاته، كانت عند قواعد البعثيين السنة في كل مجال، وهي مواجهة في الحقيقة بين الخلوقين المتدينين وبين أراذل الأمة وسفهائها. وإن كنا لا ننكر وجود بعض الخلوقين في صف أولئك البعثيين، وبالعكس، ورأى أؤلئك الأراذل أنه قد آن الأوان لتصفية الحسابات بين الفريقين.

أذكر أني تخرجت من جامعة دمشق عام ١٩٦٦، وكنت في التعليم الابتدائي، واتخذ قرار حزبي صِرف بنقلي من بلدي الذي أدرّس فيه إلى بلد تبتعد حوالي ثمانين كيلاً عن مكان إقامتي، وكانت هذه البلدة الجديدة ليس فيها مسلم واحد، فكل سكانها من النصارى والدروز، ومكثت في هذه القرية ثلاث سنين وأنا في

التعليم الابتدائي، وقد استطعت أن أعيش بانسجام كامل في هذه القرية مع شبابها والحزبيين فيها، وأتمتع بكامل الاحترام من أهلها. وفي السنة الثالثة من نقلي قابل أمين فرع الحزب في المنطقة التي نقلت اليها مدير التربية بدمشق، وقال له: لماذا تفرضون علينا رجلاً من الإخوان المسلمين من منطقة أخرى، هناك بجوار قريته قرىً ليس فيها مسلمون مثل هذه القرية. فأجابه: إن قرار شعبة الحزب في بلده هو أن يكون بقرية غير مسلمة، وأن يكون عاجزاً عن العودة إلى قريته كل يوم حتى لا يخرّب عقول الشباب ولا يؤلبهم على الحزب. وكانت هذه الصورة متكررة في كل منطقة من مناطق سوريا تقريباً.

ثانياً: لكننا نقول: إن السنوات الثلاث من ١٩٦٣ الى ١٩٦٦ كانت قيادات الحزب العريقة أمثال (عفلق) و(البيطار) و(الحافظ) يدركون مدى ترسخ التيار الاسلامي في سورية، ويعرفون أن المواجهة معه هي مواجهة مع الأمة. فلذلك كانت تغلب عليهم أحياناً كثيرة الحكمة في التصرفات، ومن جهة ثانية كانت القيادات الناصرية المشاركة في السلطة لديها عواطف دينية قوية، ونذكر على سبيل المثال هذه النماذج الثلاثة:

١-لقد كان صحيفة -اللواء- هي الناطقة باسم الإخوان المسلمين في سورية، وبعد انقلاب الثامن من آذار أغلقت كل الصحف التي كان تصدر زمن الانفصال عدا صحيفتي البعث والوحدة. وهما صحيفتا الناصريين والبعثيين، وصحيفة اللواء -صحيفة الاخوان المسلمين- واستمرت قرابة عام في الصدور، كما فرض العزل السياسي على جميع الشخصيات السياسية إلا شخصيات الإخوان المسلمين رغم معرفة الحزب أن المعركة الحقيقية له هي مع الإخوان المسلمين.

٢-كان الأستاذ عصام العطار هو المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية، وأخطر الشخصيات فيها على الحزب، ومع ذلك بقي عاماً وأكثر يخطب

على منبر جامعة دمشق، ويستقطب الشباب والطلبة والأمة. واستغل الحزب كما ذكرنا فرصة ذهابه إلى الحج، لحظر دخوله إلى سورية بعد ذلك.

٣-في عام٦٤ وفي تشرين الأول منه كانت وفاة الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله المؤسس والقائد للحركة الاسلامية في سورية، وكانت جنازته قد تماوجت بها دمشق كلها، وشيع جثمانه الطاهر عشرات الألوف من أبناء سوريا. وكانت أكبر تظاهرة إسلامية في سورية بعد ثورة الثامن من آذار.

وفي ذكرى الأربعين من وفاته رحمه الله أقيم له حفل تأبين على مدرج جامعة دمشق، شارك في هذا الحفل مدير جامعة دمشق ووكيل الجامعة، وعمداء كليتي الحقوق والشريعة. وكثير من الشخصيات الاسلامية [(١)].

ثالثاً: أما بعد شباط ١٩٦٦ فقد خلا الجو من كل الشخصيات المذكورة، ويمكن أن نقتبس صورة الجيش ملخصة كما يلي:

«بدأ حزب البعث في الإعداد للمؤامرة منذ انقلاب الثامن من آذار.

١-فبعد وقوع انقلاب الثامن من آذار بخمسة أيام فقط، أي بتاريخ ١٣ آذار عام ١٩٦٣ صدرت نشرة عسكرية أخرجت من الجيش مائة وأربع ضباط، هم كبار ضباط الجيش افتتحت بالفريق عبدالكريم زهرالدين، واختتمت بالمقدم بسام العسلي.

٢-وبتاريخ ١٦ آذار/ مارس أي بعد ثلاثة أيام أخر صدرت نشرة أخرى، أخرجت من الجيش مائة وخمسين ضابطاً هم الطاقة الفعالة في الجيش: قادة الكتائب، ورؤساء عمليات الألوية وقادة السرايا.

٣-ثم تتابعت النشرات، تسرح، وتحيل على التقاعد، وتنقل إلى الوظائف المدنية، حتى بلغ مجموع الضباط الذين أخرجوا من الجيش حتى آيار/ مايو

---

(١) قدمنا عرضاً لأهم كلمتين ألقيتا في حفلة التأبين وهما للدكتور إسماعيل عزت وكيل جامعة دمشق والدكتور محمد الفاضل عميد كلية الحقوق بجامعة دمشق.

١٩٦٧ لا يقل عن ألفي ضابط، مع عدد لا يقل عن ضعفه من ضباط الصف القدامى، والجنود المتطوعين الذين يشكلون الملاك الحقيقي الفعال لمختلف الاختصاصات في الجيش.

٤-ولزيادة تعميق الجريمة، استبدل بالذين أخرجوا من الجيش - وخاصة الضباط- أعداد كبيرة جداً من المعلمين والموظفين المدنيين الذين سبق لهم أن أدوا خدمة العلم، وجميعهم من البعثيين ومن أبناء الطائفة النصيرية، وبذلك أصبح الجيش مؤسسة بوليسية لقمع الحريات والتنكيل بالشعب، لا جيشاً قادراً على صون الحدود وتحرير فلسطين.

٥-والذين سلموا من التسريح لم يسلم معظمهم من السجن أو الاغتيال، ومن أبرز العسكريين الذين قتلوا ظلماً النقيب معروف التغلبي والنقيب ممدوح رشيد والملازم نصوح الجابي والعقيد كمال مقصوصة. ومن الذين أعدموا العقيد هشام شبيب، ثم امتدت يد الظالمين إلى بعضهم، وأعدموا سليم حاطوم وبدر جمعة، ومن الذين صدرت بحقهم أحكام الإعدام جزافاً المقدم عبدالرحمن السعدي والرائد صدقي العطار.

٦-ومن الذين غصّت بهم السجون العمداء: مصطفى الدواليبي وموفق عصاصة وأكرم الخطيب وممدوح حبال، والعقيد هشام المهايني ومحيي الدين حجار، ومن شركائهم في انقلاب الثامن من آذار اللواء محمد الجراح واللواء راشد قطيني والفريق محمد الصوفي.

٧-ومن يعلم واقع الجيش السوري وأسماء الذين سرحوا من مختلف القطعات وحجمهم يدرك تماماً حقيقة المؤامرة التي دبرها النصيريون ضد الجيش، وإذا علمنا أن نشرات التسريح بدأت بعد الثامن من آذار بخمسة أيام عام ١٩٦٣، واستمرت حتى شهر آيار، أي قبل حرب حزيران/ يوليو بأيام، وشملت

أمهر الضباط في المدفعية والطيران وغيرهما ممن بلغوا مستوى رفيعاً في التدريب والخبرة يدرك مدى بشاعة المؤامرة.

لقد بدؤوا بالتسريح من الجيش بالانفصاليين، ثم بعموم من أسموهم رجعيين، ثم بالناصريين وسائر شركائهم في انقلاب الثامن من آذار، ثم بطشوا بشركائهم البعثيين من غير طائفتهم، ولم يتركوا إلا كل انتهازي ذليل ترتعد فرائصه خوفاً من كل جندي نصيري، ولا يتردد في الإذعان لأوامره ولو كان حارساً له» [1].

رابعاً: صحيح أنه لم يكن هناك تهجم علني على الإسلام من الجهات الرسمية، لكن الفكر الذي كان يسود والذي كان يدرّس للحزبيين وفي المدارس هو فكر علماني شيوعي، بهتت القومية فيه حتى زالت، وبشكل غير مباشر هو فكر إلحادي، فالفلسفة الماركسية اللينينية هي التي كانت تغطي القطاع الكبير من عقول الشباب الحاكم، ويمكن أن نرى ذلك بوضوح فيما قالته المنطلقات النظرية للحزب عن (الاشتراكية العلمية أو الشيوعية):

«إن الاعتراف بالملكية الفردية بشكلها المطلق ورغم تضييق نطاقها هو ضرب من المفهوم البرجوازي الصغير، لأن المفهوم الاشتراكي العلمي يعتبر العمل الإنساني المصدر الوحيد للقيمة، ولذا فإن الملكية الفردية إذا تعدت نطاق الاستعمال الشخصي لا بد أن تكون مستغلة مهما كانت الرقعة التي تمارس فيها الملكية نشاطها ضيقة، ونسبة المردود الذي تعطيه منخفضة» [2].

وهذه هي النظرة الأصيلة للاشتراكية الشيوعية حيث يبدو التوضيح الأقوى

---

(١) الصراع العربي الاسرائيلي، مؤامرة الدويلات الطائفية، لمحمد بن عبدالغني النواوي/ ٣٩٤-٣٩٦.

(٢) المنطلقات النظرية.

لها في هذه الكلمات.

الانفجار الأخير:

برز هذا الانفجار الذي مثل العقلية والفكرية الحاكمة من خلال المقال الذي نشر في مجلة جيش الشعب، والتي تصدر عن القوات المسلحة السورية. وفي ١٩٦٧/٤/٢٥ جاء في الافتتاحية:

«... استنجدت أمة العرب بالإله، فتشت عن القيم القديمة في الإسلام والمسيحية، استعانت بالنظام الإقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى، وكل ذلك لم يجد فتيلاً.. مع كل هذا شمرت أمة العرب عن ساعديها، ونظرت بعيداً بعيداً.. لترى طفلها الوليد يقترب شيئاً فشيئاً.. وهذا الوليد ليس إلا الإنسان العربي الاشتراكي الجديد، الإنسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزيلة في مجتمعه، التي هي ليست إلا وليدة الإقطاع والرأسمال والاستعمار، تلك القيم التي جعلت من الإنسان العربي إنساناً متخاذلاً متواكلاً، إنساناً جبرياً مستسلماً للقدر، إنساناً لا يعرف إلا أن يقول: «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم».

والطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب، وبناء المجتمع العربي، هي خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد، الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع والرأسمال والمتخمين وكل القيم التي سادت المجتمع السابق، ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ.

ونحن إذ نشرط في إنساننا الجديد رفضه للقيم السابقة، علينا أن نضع قيماً جديدة، ليست هناك سوى قيمة واحدة، وهي الإيمان بالإنسان القدري الجديد، الإنسان الذي لا يعتمد إلا على نفسه وعمله، وما يقدمه للبشرية جمعاء، لأنه

يعلم ان نهايته الحتمية الموت، وليس غير الموت، لن يكون هناك نعيم أو جحيم، بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الارض.

لذلك هو مضطر إلى أن يقدم كل ما يملك لأمته وإنسانيته دون ما مقابل كزاوية صغيرة في الجنة مثلاً» (١).

سرى هذا المقال سريان النار في الهشيم، وأحس الناس أن دينهم يغتال على يد هذه الطائفة المجرمة. وقد سبق هذا المقال أن برز الشيخ حسن حبنكة من كبار علماء دمشق، وذلك حين عاد من الحج فخرجت دمشق عن بكرة أبيها لاستقباله، وقد أغاظ هذا الأمر السلطة الحاكمة، فقد حملت سيارته على أكتاف المستقبلين، وجاءت الوفود من جميع أصقاع سورية لتشارك في احتفالات عودته من حج ١٣٨٦، وذلك رداً على محاولات السلطة التي تمت قبل سنتين في محاولة النيل منه ومحاكمته.

وخططت الدولة لضرب الضربة القاسية:

إثر هذا المقال، وفي جو الابتهاج الشعبي بالشيخ حبنكة، تداعى الناس من كل مكان لاتخاذ موقف موحد ضد هذا التحدي السافر لعقائد الأمة، وقرروا أن يتحدثوا على المنابر في مهاجمة المقال المذكور، والرد على المزاعم السفيهة فيه.

أما الدولة فقد ركبت الموجة، وخرجت مظاهرات تجوب دمشق وتتجه نحو المسجد الذي يخطب الشيخ فيه تندّد بحزب البعث وتطالب بسقوطه وسقوط الشيوعية التي تسانده، وقد دسّت السلطة عملاءها في هذه المظاهرات لتؤجج الموقف. وكان الشيخ حسن بعد ان فنّد ادعاءات المقال دعا الناس إلى الهدوء، وقال عدة مرات وهو يرى هذه الجموع الهادرة التي تنادي بسقوط حزب البعث:

---

(١) مجلة جيش الشعب، ١٩٦٧/٤/٢٥.

الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها. ولكن دعاة الفتنة الذين ركبوا الموجة وتابعوا تحدي النظام الحاكم، لم يتراجعوا عن ذلك، وذلك أمام بيت الشيخ الكبير. مما حدا بأحد إخوانه أن يتناول بعض هؤلاء الغوغاء الذين يهتفون ويضربهم ضرباً مبرحاً لتنفض الجموع المذكورة. واستطاع أتباع الشيخ أن يسيطروا على الموقف، وتوترت الأجواء، حيث كان متوقعاً إلقاء القبض على الشيخ الكبير. لكن محاولات الشيخ كانت تهدف إلى التفاهم بالحسنى، حيث كان متوقعاً أن يأتي أحد الضباط الدمشقيين ليكون هو الوسيط بين الطرفين، ممن يطمئن الشيخ الكبير إليهم.

ولكن السلطة تحت جنح الليل، أقدمت على اعتقال الشيخ وبعض مريديه وزجتهم في سجن المزة العسكري، وأبرزت قائمة اتهامات عريضة عن مؤامرة مزعومة ضد النظام قام بها الشيخ الجليل في محاولة لتصفية جسدية له، وضرب التيار الإسلامي ضربة قاضية يترنح وجوده على إثرها. واحتلت المخابرات العسكرية معهد التوجيه الإسلامي الذي كان الشيخ قد أعده لطلبة العلم عنده، وقامت بتسريح أتباعه من وظائفهم، ووضعت يدها على مزرعة الشيخ في الغوطة، وازداد التوتر أكثر في جميع أنحاء سورية، وإن كانت الدولة قد حاولت أن تتنصل من المقال المذكور وتعلن احترامها للإسلام والدين، وتزعم أن صاحب المقال شريك في المؤامرة الكبرى لإسقاط النظام بالتواطؤ مع الرجعية العربية خارج الحدود السورية، لكنها مع ذلك زجت في السجون العديد من الشباب الإسلامي تحت هذا الستار.

وبدأت المحاكمات الصورية التي كان يحمل كبرها اللواء سويداني قائد الجيش، وهو سني من حوران، دفعوه لينال من الشيخ الكبير، ويفتت من صموده وكبريائه.

الفصل السابع

ثاني ثمار التفرد النصيري بالسلطة

سقوط الجولان وتسليمها لليهود

يردد سيل الفرية السورية المفضوحة في كتابه «الأسد»، ويحاول أن يضفي على الحكومة السورية طابع الوطنية والقومية، ناسياً أن تسريح ألفي ضابط من أكفأ الضباط السوريين هو أكبر خيانة قومية، وأضخم هدية تقدم لإسرائيل، وناسياً كذلك أن الضباط الصغار الذين غدوا جنرالات بين يوم وليلة هم أعجز من أن يقودوا حرباً ضد العدو، وعلى رأسهم وزير الدفاع الأسد، الذي كان يمكن أن يكون برتبة مقدم في الجيش وعلى رأس إحدى قطعه، فقد تجاوز خمس رتب في ثلاث سنوات، يحتاج إلى قرابة خمسة وعشرين عاماً حتى يستحقها. هذا هو الجيش السوري وقيادته. ومع ذلك يقول:

«عشية حرب حزيران/ يونيو كان القادة السوريون في حالة عصبية متأزمة، يعود جزء منها إلى النقمة والسخط اللذين كان لهم حق الشعور بهما، والانهاك والانفعال والخوف، فقد رأوا أنفسهم ضحايا مؤامرات يدبرها الضباط المنافسون والقوى الدينية المتشددة وطبقات ملاك الأراضي الذين شردوهم، وذلك بدعم من الملوك الرجعيين ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية. هذا وقد اقتنعوا قبل كل شيء بأن اسرائيل قد أعطيت دوراً خاصاً في عملية تحطيم ثورتهم. ولقد كان بعض تلك المشاعر المرضية صحيحاً وله أساس.

وبالرغم من أنهم لم يعرفوا ذلك في حينه، فإن إسرائيل قد تمكنت من حل شيفرتهم، وكانت تراقب اتصالاتهم بشكل روتيني منظم. ولذلك فقد كانت تعي

جيداً الحالة الحرجة الخطرة التي وجدت فيها الحكومة والجيش السوريان نفسيهما. إذ كان هناك جاسوس إسرائيلي هو إيلي كوهين يعمل في صميم مركز الشؤون السورية، وقد أعطى إسرائيل تفاصيل وصور التحصينات في الجولان قبل أن يتم القبض عليه وإعدامه عام ١٩٦٥. أما الأعداء المحليون فقد كانت مؤامرة حاطوم دليلاً كافياً على وجودهم.. وكان صحيحاً أن الملك حسين والملك فيصل كانا يأملان في أن أيام البعث باتت محدودة، وخلال الأعوام الأربعة التي انقضت منذ مجيء الحزب إلى السلطة في سنة ١٩٦٣ هرب من البلد آلاف من السوريين الساخطين، فلجأوا إلى الأردن والسعودية ولبنان حيث بدأوا يحركون العداء ضد الثوريين المتشددين في دمشق»[1].

لكنه يقدم لنا قيادة الجيش الإسرائيلي على الشكل التالي:

«كانت قوات إسرائيل المسلحة في عامي ١٩٦٦ و١٩٦٧ بقيادة هيئة ضباط كبيرة وخبيرة. كان من بعض نجومها رئيس الأركان إسحق رابين، ونائبه حاييم بارليف، ومدير العمليات عايزر وايزمن، وقائد القوة الجوية مردخاي هود، ومدير المخابرات العسكرية أهارون ياريف، ورئيس الموساد مئير عاميت. وكان العديد من هؤلاء ضباطاً منذ الأربعينات، ويعود تاريخ تدريبهم العسكري مع القوات البريطانية إلى أيام الحرب العالمية الثانية. كانت الحرب مهنتهم وحرفتهم. وبينما كانت سورية قد تعرضت لحالة من الثورة والغليان المضطرب شبه الدائم منذ عام ١٩٤٨، كانت إسرائيل طيلة تلك الفترة قد بنيت بقوة على يد ديفيد بن غوريون العنيد ذي الطبع الاستفزازي. ولم يكن الطرفان متعادلين أيضاً في علاقاتهما الدولية، كانت سورية معزولة حتى ضمن العالم العربي، بينما كانت

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل/ ١٨٩.

إسرائيل قد كسبت أصدقاء متعاطفين معها على كل قارة، وللحصول على أسلحة ذات تقنية عالية نسجت علاقات صداقة مع فرنسا في الخمسينات، وهي علاقات لعب فيها شمعون بيريز دوراً قيادياً، أما في الستينات فقد أشرف رابين على الانتقال إلى شريك أكثر فائدة، ألا وهو الولايات المتحدة. وفي تلك الأثناء كانت سورية تتلقى إمدادات السلاح من الاتحاد السوفييتي، ولكن في علاقة تتميز بالشك والحيرة والارتباك» [1].

هذا واقع الجيشين السوري والإسرائيلي. لكن كيف كان التبجح السوري آنذاك قبيل الحرب بخمسة عشر يوماً. فلنستمع إلى حافظ أسد في تصريحه العنتري:

أدلى اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع السوري بتصريح لصحيفة الثورة السورية الرسمية قال فيه: إنه لا بد على الأقل من اتخاذ حد أدنى من الاجراءات الكفيلة بتنفيذ ضربة تأديبية إلى إسرائيل تردها إلى صوابها...

إن مثل هذه الإجراءات ستجعل إسرائيل تركع ذليلة مدحورة، وتعيش جواً من الرعب والخوف يمنعها من أن تفكر ثانية في العدوان.

إن الوقت قد حان لخوض معركة تحرير فلسطين، وإن القوات السورية المسلحة أصبحت جاهزة ومستعدة ليس فقط لرد العدوان الإسرائيلي، وإنما للمبادرة لعملية التحرير، ونسف الوجود الصهيوني من الوطن العربي.

إننا أخذنا بعين الاعتبار تدخل الأسطول الأمريكي السادس.

إن معرفتي لإمكانياتنا تجعلني أؤكد أن أية عملية يقوم بها العدو هي مغامرة فاشلة. وهناك إجماع في الجيش السوري الذي طال استعداده ويده على الزناد

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل: ١٩٤-١٩٥ .

على المطالبة بالتعجيل في المعركة، ونحن الآن في انتظار إشارة من القيادة السياسية.

وفي تصريحه لصحيفة (الثورة) السورية ١٩٦٧/٥/٢٠ أضاف حافظ الأسد قائلاً: إن سلاح الطيران السوري تطور تطوراً كبيراً بعد ثورة ٢٣ شباط ١٩٦٧ من حيث الكمية والنوع والتدريب، وأصبحت لديه زيادة كبيرة في عدد الطائرات، وهي من أحدث الطائرات في العالم وأفضلها تسلحاً، كما ازداد عدد الطيارين وارتفع مستوى التدريب.

وقال: إن العملاء يركزون باستمرار على أن هناك عدداً من الطيارين المسرّحين. ولكن عدد الطيارين المؤهلين لخوض المعارك الجوية والذين هم خارج الخدمة لا يتجاوز عدد أصابع اليد» [١].

وتوالت تصريحات المسؤولين البعثيين بعد تصريح كبيرهم ووزير دفاعهم، ففي اجتماع طارئ لاتحاد المحامين العرب، عقد في دمشق، ألقى يوسف زعين رئيس الحكومة السورية كلمة في جلسة الافتتاح قال فيها: «إن انحناء إسرائيل أمام الرد العربي الحاسم الآن، يجب أن لا يفسر بأنه انتصار نهائي عليها. فهو ليس إلا بداية الطريق لتحرير فلسطين وتدمير إسرائيل.. وإن الظروف اليوم هي أفضل من أي وقت مضى لخوض معركة المصير العربي» وقال: «إن المسيرة إلى فلسطين هي المسيرة إلى إسقاط الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية إلى الأبد».

وفي ١٩٦٧/٥/٢٣ أدلى العقيد أحمد المير قائد الجبهة السورية بالتصريح التالي:

---

(١) صحيفة (الثورة) السورية ٢٠ أيار ١٩٦٧.

«إن العرب لم ينهزموا في معركة ١٩٤٨ على أيدي الإسرائيليين، بل من قبل حكامنا الخونة، وهذه المرة لن نسمح لهم أن يفعلوا ذلك». وكان وزير الخارجية السورية الدكتور إبراهيم ماخوس من أكثر المسؤولين البعثيين ثرثرة، فبعد عودته من القاهرة أدلى بتصريح إلى وكالة الأنباء العربية السورية جاء فيه: إن زيارتي للقاهرة كانت لوضع اللمسات الأخيرة على الوضع السياسي والعربي والدولي. وقال: إن مخططات الرجعية والاستعمار والصحف الصفراء التي دأبت على التشكيك بلقاء القوى التقدمية قد دحرت. وإن سحب قوات الطوارئ بالشكل الذي تم به يبرهن على أن لا شيء يقف في طريق الثورة. وإن تشكيك الرجعية حول وجود هذه القوات قد رُد إلى نحرها» [١].

أخبار المعركة من راديو دمشق:

الإثنين ٥ حزيران ١٩٦٧

قطع راديو القاهرة إذاعته حوالي الساعة ٩.٥٠ بتوقيت القاهرة الصيفي ليعلن أن قوات إسرائيل بدأت تهاجم الجمهورية العربية المتحدة. وفي هذه اللحظة قطع راديو دمشق برامجه العادية ليعلن أن إسرائيل هاجمت الجمهورية العربية المتحدة صباح اليوم. وهذا أهم ما صدر عن الراديو: نداء إلى الشعب أعلن بدء معركة التحرير الشعبية، حيث سيكون اللقاء في قلب تل أبيب، ثم دعا الراديو إلى مسح إسرائيل عن الخريطة.

أذاع الراديو بلاغاً من القائد الأعلى للقوات السورية المسلحة في الساعة ١٢ ظهراً حسب توقيت دمشق الصيفي أعلن فيه دخول القوات السورية المعركة إلى

---

(١) سقوط الجولان، مقتطفات ص١٣٨-١٤١ و١٤٤ .

جانب مصر، وقال: إن الطائرات السورية بدأت قصف مدن العدو ومواقعه ومنشآته، ومضى يقول: إن سورية تلتحم مع العدو الآن، ولن تتراجع قبل إبادة الوجود الصهيوني إبادة كاملة.

قال الدكتور نور الدين الأتاسي رئيس الجمهورية في إذاعة موجهة إلى الشعب: لقد دقت ساعة النصر على أعداء العروبة، وقد حفر الصهاينة الغزاة المتآمرون مع الاستعمار العالمي قبورهم بأيديهم عندما أغاروا اليوم على الجمهورية العربية المتحدة. وقال: إن الهجوم الإسرائيلي لم يتم إلا بتخطيط من الاستعمار العالمي الذي جعل من إسرائيل أداة للتنفيذ. وقال:

لقد ألقى الشعب العربي بثقله في المعركة الفاصلة، ووضع الجيش السوري كل قواه الضاربة في لهيب المعركة. وإن نسورنا البواسل يدمرون منشآت العدو ومدنهم، وهم في طريقهم لتحرير الأرض المغتصبة.

أخذت الإذاعة السورية تتحدث عن سيطرة سلاح الجو السوري، وعن سقوط طائرات العدو اليهودي في الأراضي السورية والأردنية واللبنانية والأراضي المحتلة، وبلغ عدد الطائرات التي أعلنوا عن سقوطها أكثر من خمسين طائرة. وفي السادس من حزيران بدأ البعثيون يتحدثون عن دخول قوات أمريكية بريطانية في المعركة.. وقال إبراهيم ماخوس في هذا اليوم: إن سوريا أسقطت في الخامس من حزيران ١٥٠ طائرة»[1].

لكن ما الذي جرى في حقيقة الأمر؟

«حين قامت إسرائيل بتدمير سلاح الطيران المصري وهو على الأرض في صباح ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ فإنها استطاعت أن تركع العالم العربي. ولقد بينت

---

(١) المصدر نفسه، ١٤٨.

صور الاستطلاع في ساعة مبكرة من ذلك الصباح أن السلاح الجوي المصري لم يكن أبداً على استعداد، فالطائرات كانت جاثمة في قواعدها على شكل أنساق كأنما هي في استعراض مما جعل منها أهدافاً سهلة المنال.. وبعد تعرية الجيش المصري في سيناء من الغطاء الجوي تم سحقه وتدميره فخسر في أربعة أيام رهيبة أكثر من عشرة آلاف قتيل، وثلاثة عشر ألف أسير، وعدة مئات من الدبابات والمدافع المدمرة، ولم يعد للجيش المصري وجود كقوة مقاتلة متماسكة. أما الجيش الأردني فإنه في صباح ٥ حزيران/يونيو لم يدرك الكارثة المبكرة التي أصابت حليفه، وعملاً بأوامر مضللة من القيادة المصرية العليا فتح ضد المواقع الإسرائيلية نيران الأسلحة الصغيرة والمدفعية الخفيفة. وعند الضحى المتأخر حاولت حفنة من طائرات الملك حسين من طراز هنتر أن تقصف المطارات الإسرائيلية، غير أن هذه الطائرات عندما كانت تعود للتزود بالوقود عند الظهر تم مسحها وسحقها على الأرض بطائرات الميراج الإسرائيلية، وبعد ربع ساعة لقيت نفس المصير معظم القوة الجوية السورية، ومعها سربان عراقيان كانا قد نقلا إلى قرب الحدود الأردنية، وذلك بعد طلعة غير مؤثرة فوق إسرائيل، وكانت تلك أول تجربة مدمرة في حرب حديثة يمر بها الأسد..

وطوال الأيام الأربعة الأولى من الحرب ظل موقف سوريا سلبياً، فقد اكتفت بقصف المستوطنات الإسرائيلية على الحدود كما كانت تفعل في الماضي بشكل متكرر. وقد عبرت الحدود دورية أو دوريتان سوريتان، وردت إسرائيل بقصف ثقيل. وقد يبدو هذا الجمود مثيراً للدهشة في بلد كان كان نزاعه الحدودي مع إسرائيل فتيل الاشتعال في الحريق كله. كان الأسد قد تحدى إسرائيل حول المناطق المجردة وأرسل ضدها الفدائيين الفلسطينيين عندما كانت وسائل المواجهة التقليدية تنقصه، وأرغم عبدالناصر على أن يلقي في إسرائيل قفاز

التحدي، غير أنه ظل جامداً عندما جاءت الحرب، وكان الجمود السوري فيما بعد سبباً من أسباب المرارة لدى مصر والأردن، وجلب على سورية تهمة أنها قد تخلت عنهما... وكان لدى الأسد سبب للشعور بالارتياح، فقوته الجوية المحببة إلى نفسه مسحت في صباح واحد، ولا بد أنه استغرق بعض الوقت قبل أن يفيق من هول الصدمة» [١].

تسليم القنيطرة:

وبعد أن ترك الأسد وزميله جديد الفرصة كاملة لإسرائيل لتحتل الضفة الغربية وغزة وسيناء لا بد أن يتم مهمته، ويتم رسالته، فيسلم القنيطرة والجولان لإسرائيل دون حرب. فكان بلاغ سقوط القنيطرة.

«في فجر ٩ حزيران/يونيو، وبعد بضع ساعات من طلب سورية وقف إطلاق النار أصدر وزير الدفاع دايان أمراً بشن هجوم فوري... وقامت قوة من ثلاث شعب يدعمها طيران قريب بالهجوم على هضبة الجولان، وبدون غطاء جوي ولا دفاع جوي قاومت قوات المشاة السورية مقاومة شجاعة في قتال بالأيدي، وفقدت اسرائيل ١٦٠ دبابة مقابل ٨٦ دبابة سورية، وقاتل ٦٠٠ جندي سوري، واستشهدوا في مواقعهم نفسها دون أن يتزحزحوا منها، وهم يتعرضون لقصف مستمر بالقنابل والنابالم والرشاشات. وعند هذه المرحلة كانت إسرائيل التي تعبت قواتها من القتال، تميل إلى وقف تقدمها وتعزيز مكاسبها، ولكن خلال ليلة ٩-١٠حزيران/يونيو، وبناء على اقتراح من أحمد المير آمر الجبهة الذي ذكر أن الدفاعات السورية تحت خطر الالتفاف عليها، وأن الجيش عرض للوقوع في

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل، مقتطفات ٢٢٥-٢٢٨.

الفخ، أصدر رئيس الأركان أحمد سويداني أمره بالتراجع إلى شمال القنيطرة، المدينة الرئيسية في الجولان للدفاع عن العاصمة التي تبعد حوالي ٤٠ ميلاً. وفي الساعة ٨.٤٥ من صباح ١٠ حزيران/يونيو، وبينما كانت عملية إعادة الانتشار تجري تحت القصف، ولكن بانتظام جيد ومعقول، أذاع راديو دمشق بلاغاً من وزارة الدفاع أعلن فيه أن مدينة القنيطرة قد سقطت، ومهما يكن مصدر هذا البلاغ فقد كان غير صحيح، إلا أنه بقي قائماً خلال أكثر من ساعتين إلى أن أمر الأسد بإعادة تصحيح له. إلا أنه في هذا الأثناء تحول الانسحاب إلى هزيمة منكرة. فالجنود الذين كانوا على الجانب الخطأ من المدينة راحوا يفرون طلباً للنجاة بأرواحهم، واستغلت إسرائيل هذه الغلطة، فاستأنفت تقدمها على الفور واستولت على القنيطرة، وهرب أحمد المير على ظهر حصان (وعلى الأصح حمار) إلى حوران بعدما تعرض رتله المدرع للنيران، وعثر على بعض الجنود الهاربين فيما بعد وهم يرعون الأغنام بين الجبال»[1].

خيانة عريقة وليست خطأ عارضاً:

وتوفر الدلائل على ذلك يؤكد هذا المعنى:

١ -اعترافات الجندي: سامي الجندي وزير إعلام سابق في الحزب ونائب لرئيس الوزراء، ومرشح لتشكيل وزارة في مرحلة من مراحل الحزب، يتحدث عن زميله إبراهيم ماخوس وزير خارجية سورية النصيري البعثي وهو يطالبه بالاتصال بإسرائيل:

«رأيتني بعين خيالي معلقاً في ساحة المرجة، وتساءلت بيني وبين نفسي لم؟

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل، ٢٢٩/٢٣٠.

هل يعود الجولان على جثتي؟ وهل قضيته بهذه البساطة؟ قلت له: وما الثمن الذي ندفع بالجولان؟ قال: الاعتراف..

وثارت أقاويل في باريس [1] نفسها عن أمين منظمة الحزب التابعة لدمشق، وأنا متأكد من أن اتصالات جرت عن طريق أكثر من دولة ثالثة، وفي أكثر من عاصمة.

أليس عجيباً إذن أن يختارني أنا؟ الأمر على غاية البساطة: من أجل أن أسكت. وقد أكون من القليلين الذين يعرفون أشياء كثيرة والوحيد الشاهد عليها، وعلى استغاثات الدكتور ماخوس يوم طلب وقف إطلاق النار:

ليدعوا دمشق، نسلم القنيطرة، ليقف الزحف، أمر الجيش بالانسحاب.. فوجئت لما رأيت على شاشة التلفزيون مندوب سورية في الأمم المتحدة يعلن سقوط القنيطرة ووصول قوات إسرائيل إلى مشارف دمشق، والمندوب الإسرائيلي يؤكد أن شيئاً من ذلك لم يحصل. قال لي الدكتور ماخوس فيما بعد: إنها كانت خطة ماهرة لإرعاب العالم من أجل إنقاذ دمشق» [2]. إن تسليم الجولان إذن قد صدر بقرار نصيري رسمي: أن تسلم القنيطرة والجولان بدون قتال وينسحب الجيش قبل دخول اليهود إليها ليدخلوا دون مقاومة، وتم لهم ما يريدون بالفعل.

٢ -**نص البلاغ**: الساعة ٩.٣٠ أعلن بلاغ عسكري: «إن القوات الإسرائيلية استولت على مدينة القنيطرة بعد قتال عنيف دار منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة ضمن ظروف غير متكافئة، وكان العدو يغطي سماء المعركة بإمكانات لا

---

(١) كان الجندي يعمل سفير سوريا في فرنسا آنذاك.

(٢) كسرة خبز للدكتور سامي الجندي، ص١٦-١٨.

تملكها غير دولة كبرى. وقد قذف العدو في المعركة بأعداد كبيرة من الدبابات. واستولى على مدينة القنيطرة على الرغم من صمود جنودنا البواسل. إن الجيش لا يزال يخوض معركة قاسية للدفاع عن كل شبر من أرض الوطن. كما وأن وحدات لم تشترك في القتال بعد قد أخذت مراكزها».

الساعة ١٢.٠٥ صدر بلاغ عسكري يقول: «إن القوات السورية ما زالت حتى الآن تقاتل داخل المدينة وعلى مشارفها جنباً إلى جنب مع قوات الجيش الشعبي بكل ضراوة وصمود بحيث لم يتمكن العدو من السيطرة الكاملة على مدينة القنيطرة»، وأضاف: «إن القوات السورية دمرت أعداداً كبيرة من دبابات العدو بالقنابل المحرقة».

لقد صدر البلاغان عن وزير الدفاع. وجاء التصحيح بعد أن تم تنفيذ المهمة كاملة، وتم انسحاب الجيش انسحاباً كيفياً، فماذا تم في هاتين الساعتين؟

«أما قادة الجبهة فلقد بدؤوا يهربون من المعركة منذ مساء الخميس ٨ حزيران، أي قبل البلاغ الفاجر بيوم ونصف، وكان قائد الجيش اللواء أحمد سويداني في طليعة الفارين حيث خلع رتبه ولبس ثياب أحد رعاة الماشية، ولجأ الى قريته (نوى) التي لا تبعد إلا بضعة أميال من القنيطرة، وتبعه قائد الجبهة العقيد أحمد المير الذي غادر الجبهة إلى دمشق على ظهر حمار، ولما عجز الحمار تخلى عنه، وتابع الطريق ماشياً، فتورمت قدماه وخارت قواه.. ولحق بهما المقدم رئيف علواني والعقيد عزت جديد، والنقيب رفعت أسد، وسائر الرفاق من مختلف قطاعات الجبهة»[1].

اتصل عدد من الضباط بقائد الجبهة قبل فراره، فرفض التصرف وقال لهم

---

(١) الصراع العربي الاسرائيلي لعبد الغني النواوي / ٤٢٠ .

بالحرف الواحد: أنا لست قائد جبهة، اتصلوا بوزير الدفاع . فأقيم الاتصال بوزير الدفاع بواسطة الأجهزة اللاسلكية، وجرت الاتصالات بين (قمر ١ وقمر ٢)، فأجاب وزير الدفاع: إنه قد أخذ علماً بالوضع، وإنه قد اتخذ الإجراءات اللازمة.

لجأ بعض الضباط من وحدات اللواء (٨٠) احتياط إلى قيادة موقع القنيطرة بعد فقدانهم الاتصال بقائد اللواء وأي مسؤول في قيادة اللواء، فوجدوا المقدم وجيه بدر ماكثاً في القنيطرة يترقب الأخبار. ولما حاولوا أن يفهموا صورة حقيقية عن الوضع، تبين أنه لا يفقه شيئاً، وحاول الجميع الاتصال بقيادة الجبهة، فوجدوها خلواً من أي مسؤول. عندها دب الفزع في قلوب عدد كبير منهم، واتخذوا وجهتهم نحو دمشق طالبين النجاة بأرواحهم، تاركين جنودهم كتلاً لحمية تتدافع على الطرقات يدوس القوي منها الضعيف، وأنين الجرحى والمشوهين يملأ سهول القنيطرة، وترجع أصداءه سفوح التلال المتباعدة المتناثرة هنا وهناك، لا يشوه هذه الأصداء إلا أزيز الطائرات المعادية، وأصوات المكبرات المنبعثة من الهيلكوبتر ينادي بواسطتها الإسرائيليون جنودنا الفارين، أن ألقوا سلاحكم تنجوا بأرواحكم، فيستجيب الفارون للنداء ويتخلصون من السلاح...

المهم أن الهرب من القتال قد بدأ منذ مساء الخميس ٨ حزيران، وبدأ يتسع ويستشري ويمتد حتى بلغ ذروة تفاقمه يوم السبت ١٠ حزيران بعد إذاعة البيان الفاجر الذي أعلن سقوط القنيطرة، ولم يك جنود العدو قد رأوها بأعينهم بعد، بله أن تكون أقدامهم وطئت أرضها.

ومنذ صباح الجمعة وحتى صباح الأحد ١١ حزيران شهدت أرض الجولان وما حولها من أراض وطرقات مؤدية إلى دمشق أو إلى الأراضي اللبنانية أو إلى منطقة حوران أو إلى منطقة إربد، شهدت منظراً لو أتيح لعدسة تصوير أو ريشة رسام أن تحيط به كله مرة واحدة، لكانت لقطة من أندر ما عرف في تاريخ

التصوير، ولبقيت صورة حية على ما أصاب هذه الأمة من عار وخزي... فلقد غصت الأرض بأسراب الجراء البشري الزاحف (عسكريين ومدنيين) يتحركون جميعاً، كل إلى مأمنه، لا يلوون على شيء، الضعيف يسقط، وما من قوي يحمله أو يعينه على معاودة النهوض، وستشهد الأرض أمام باريها، عن هول ما قاسى الكثير من الناس (وخاصة المدنيين، من جوع وعطش، حتى اضطر الكثيرون من الناس (وخاصة الجنود) إلى الاقتيات بالأعشاب أخضرها وجافها، أو السطو على ما يصادفون من مزروعات تفادياً للموت في تلك المخمصة.. والدواب.. حملت ما خف من المتاع، وفوق كل كومة من ذلك المتاع كنت ترى طفلاً أو أكثر، أو امرأة أو شيخاً، وأفراد العائلة الآخرون، يمشون متهالكين خلف الدواب، والعيون قد تسمرت نحو هدف واحد، هو الوصول إلى دمشق أو إربد، أو إحدى القرى اللبنانية، أو درعا. إن الهول الذي صادفه المنسحبون الفارون من كثرة الرؤى الفاجعة، وأصوات الأنين والاستغاثة والتنادي وعويل الثكالى، والفاقدات أهلهن، أو بكاء الأطفال الذين شردوا وهاموا في الأرض لا أب يحنو، ولا أم تضم إلى صدرها ابنها ذا أو ذاك، والموج البشري يتتابع، وأرتال الجراد الزاحف تتلوى مع كل انحناءة أرض، أو نحو أي مصدر للطعام والماء لتغب منه، ثم تغذ السير، حتى تصل إلى حيث تعتقد أنها نجت من الخطر...

ولقد كان القادة أول الفارين، وأول من تبعهم وحدات الدبابات (وخاصة اللواء السبعين بقيادة العقيد عزت جديد، والكتائب التي يقودها كل من المقدم رئيف علواني والنقيب رفعت الأسد (شقيق حافظ الأسد) التي تركت ساحة القتال، وعادت إلى دمشق (لتحمي الثورة)، والضباط الحزبيون على اختلاف رتبهم الذين تركوا قواتهم وفروا...إلى القيادة لحضور اجتماع حزبي هام، ثم انفرطت المسبحة على الشكل الذي بيناه.

ثم صدر البلاغ الفاجى من اذاعة حزب البعث بدمشق (يوم السبت ١٠ حزيران، الساعة التاسعة والنصف صباحاً) يعلن سقوط القنيطرة بيد قوات العدو، ويحمل توقيع وزير الدفاع اللواء حافظ الأسد -ويحمل الرقم ٦٦- وكان هذا البيان هو طلقة الخلاص، سددتها يد مجرم إلى رأس كل مقاومة استمرت في وجه العدو، رغم كل تلك المخازي، فانهارت القوى، واستسلمت المقاومات الفردية المعزولة، أو استشهد رجالنا، وعلم الجميع أن لا أمل في متابعة القتال، لأن القيادة البعثية أنهت كل شيء، وسلمت للعدو الإسرائيلي.. مفاتيح أحصن وأمنع قطعة من أرض العرب، بل وتكاد تكون من أكثرها غنىً ووفرة بالكنوز الدفينة وآثار ومعادن.. وخصب تراب ووفرة مياه»[١].

٣ -**من شهادة سعد جمعة رئيس وزراء الأردن**: يقول الجنرال هود قائد سلاح الجو الإسرائيلي: «لقد قضينا ست عشرة سنة نستعد ونخطط لهذه الجولة، وحققنا ثمرة جهدنا في ثمانين دقيقة (تدمير سلاح الطيران المصري ثم السوري). لقد عشنا خطتنا، نمنا معها، أفقنا عليها، تمثلناها، هضمناها، وبالتدريج أدخلنا عليها الإصلاحات المتتالية حتى قاربت الكمال.

ولقد حاول القائد العربي العام الفريق عبد المنعم رياض منذ الصباح الباكر، وسلاح الجو الإسرائيلي برمته متجه نحو الأراضي المصرية، حاول اغتنام الفرصة لتقوم سوريا والأردن والعراق مجتمعة بضرب مطارات العدو قبل عودة طائراته لمنعها من الهبوط، وهي لو فعلت لتغير وجه المعركة كله.. لكن القيادات السورية تمحلت مختلف المعاذير للتلكؤ والمماطلة، بحجة أن طائراتها غير جاهزة، ولم تك الطائرات الأردنية في نوعيتها وفعاليتها بقادرة على إحداث الأثر

---

(١) سقوط الجولان، لخليل مصطفى ضابط استخبارات الجبهة السورية/ مقتطفات من ١٠١-١٠٧ .

المطلوب...

وتسمع أنت يا أخي الى أهازيج النصر، تتهادى إليك من دمشق العروبة، فتحسب أن القوم قد داسوا تل أبيب وغسلوا عار الهزيمة وذلة الانكسار، وأن فائض سلاح الجو المظفر الذي هزم العدو، وأرغم أنفه، ولوى ذراعه، قد نهد اليوم بعد أن أنجز مهمته الشريفة بالأمس لتقتيل العرب والمسلمين في الجنوب العربي واليمن السعيد.

ولعل (أودبول) قد قام بالمحاولة نفسها مع حكام دمشق، ولعل ذلك هو سبب إخلاء خط ماجينو السوري، والتلكؤ في المشاركة الفعلية في المعارك لحماية (الثورة) أو (النظام) أو (رجال الحكم..)» [١].

٤ -**الانتصار العظيم**: بعد بيع الجولان وتسليمها للعدو، ماذا قال النصيريون عن فعلتهم النكراء؟ قالوا: «إن المعركة لا تقاس نتائجها بعدد الكيلومترات التي خسرناها، بل بأهدافها وما استطاعت أن تحقق، فقد كان هدف إسرائيل ليس احتلال بضعة كيلومترات من سورية، بل إسقاط الحكم التقدمي فيها، وهذا ما لم يتم لها. ولذا يجب أن نعتبر أنفسنا الرابحين في المعركة».

أحمد سويداني، قائد الجيش قبل وخلال وبعد الحرب

«ليس مهماً أن يحتل العدو دمشق أو حتى حمص وحلب، فهذه جميعاً أراض يمكن تعويضها، وأبنية يمكن إعادتها، أما إذا قضي على حزب البعث، فكيف يمكن تعويضه وهو أمل الأمة العربية؟».

«لا تنسوا أن الهدف الأول من الهجوم الإسرائيلي هو إسقاط الحكم التقدمي في سوريا، وكل من يطالب بتبديل حزب البعث عميل لإسرائيل..»

---

(١) المؤامرة ومعركة المصير لـ: سعد جمعة رئيس وزراء الأردن الأسبق/ ١٩٢ و١٩٣ و١٩٦.

إبراهيم ماخوس وزير خارجية سورية قبل وخلال وبعد الحرب

٥ -سقوط الجولان:

«قامت إسرائيل بنهب مدينة القنيطرة التي كانت تضم ١٧ ألف شخص (٣٠٪ منهم شراكسة)، كما أنها أفرغت القوى المحيطة بها، وخلال الأشهر الستة التالية طردت بالقوة حوالي ٩٠ ألف شخص بعد أن جردتهم من كل ما يملكون وأبعدتهم عن الجولان الى الحقول المفتوحة لينضموا إلى ٣٠ ألفاً كانوا هربوا قبلهم أثناء القتال، ولم يبق سوى حوالي ٧ آلاف شخص (معظمهم من الدروز) سمحت لهم بالعودة إلى مساكنهم. وبدأت المستوطنات الإسرائيلية العسكرية تضرب بجذورها في مزارع السوريين المشردين، وأصبحت القنيطرة من ثم علامة لهزيمة سورية، ورمزاً للكراهية بين سوريا وإسرائيل، وصليباً كان على الأسد أن يحمله»[١] كما يصفه سيل.

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل/ ٢٣١-٢٣٢.

الفصل الثامن

ثالث الثمار:

الصراع النصيري –النصيري

والخيانة القومية للفدائيتن

الفلسطينيين

سورية بعد الـ٦٧:

يقول باتريك سيل: «إن نظام البعث لم يحظ بالشعبية قط، أما الآن على إثر الهزيمة فإنه أصبح محط اللعنات، وقال (أصحاب الضغينة): إنه لم يرسل أفضل وحدات الجيش إلى الجبهة لأن خشيته الأولى كانت تتعلق ببقائه لإبقاء البلاد. ولم يكن ثمة أحد مستعداً ليعترف بالشجاعة التي أبداها الجنود في الدفاع قصير الأمد عن الجولان. أما الأطباء الثلاثة الذين كانوا يقودون سورية وأدت خطبهم النارية إلى إشعال الأزمة، فقد بدوا أطفالاً في الميدان الدولي، إذ أنهم كانوا يعيشون في عالم من صنع خيالهم، حيث تحل الشعارات محل القوة الحقيقية، وزاد في الطين بلّة بعد الهزيمة المنكرة في الجولان أن وسائل الإعلام السورية راحت تدّعي بحماقة أن إسرائيل لم تحقق أغراضها بالحرب، طالما أنها أخفقت في إسقاط النظام، وهي فكرة استعيرت لمواساة النفس من تعليق سوفياتي حينذاك جاء فيه أن الإمبرياليين والصهاينة لم يتمكنوا من إسقاط حكومة سورية التقدمية، إلا أن الرأي العام لم يكترث بهذا الكلام»[1].

لقد حدث أن دعيت للاشتراك في ندوة عامة ببهو المركز الثقافي في مدينة التل بعد جريمة حزيران/ يونيو، ووزعت بطاقات الدعوة المطبوعة، واسمي فيها

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٣٧.

كأحد المشاركين. وفي صباح الندوة استدعيت من مدير المركز الثقافي، وأخرج من جعبته حوالي ثلاثين سؤالاً قال أنه سيدير الندوة من خلالها. وابتدأ بسؤاله الأول:

ما هي طبيعة المعركة بين سورية الثورة وإسرائيل؟ وما هي طبيعة العدو؟

وسألته: ما هو الجواب عندكم؟ قال: هي معركة بين الإمبريالية العالمية والصهيونية التي هي ربيبة الإمبريالية وبين القوى الثورية والتقدمية في العالم.

قلت له: الجواب عندي أن المعركة ضد العرب المسلمين من الثالوث غير المقدس: الصليبية العالمية والصهيونية العالمية والشيوعية العالمية، والصهيونية العالمية هي التي تحرك هذين العدوين.

فامتقع لون وجه مدير الندوة ورجاني أن لا أشارك فيها، أو أقول ما لقنوهم إياه.

قلت له: هذه ليست ندوة حول حزب حزيران، بل استفتاء على مبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي. وحضرت الندوة مستمعاً لا مشاركاً، وتقاطرت الأسئلة من الحضور عن عدم مشاركتي مع أن اسمي بين المشاركين. ولم يرض الجمهور جواب مدير الندوة، وأصر على أن يسمع مني عن سبب التخلف عن المشاركة. فقلت لهم صراحة: هذه ندوة استفتاء حول مبادئ حزب البعث، لست حريصاً على المشاركة فيها، ولو كانت ندوة عن حرب حزيران لشاركت. وكلفني هذا الموقف العام أمام جماهير الحاضرين مع مواقف أخرى اعتقال أسبوع كامل.

«وحيث إن حافظ الأسد هو المعدّ لاستلام سورية، ووقع عليه الاختيار، وتم تدريبه وراء الكواليس. فلا بد أن يصعد إلى القمة، ويربح منافسة جديد ليتربع على عرش السلطة في سورية. وقد أثبت من خلال حرب حزيران أنه رجل مبدئي بالنسبة لإسرائيل، وأصدر البيان الساقط الذي سلخ الجولان عن جسم

سورية، وهو الإقليم الذي مساحته ١٨٠٠ كم٢، وطول حدوده مع العدو ثمانين كيلومتراً، وعدد سكانه ١٠٠ ألف نسمة. ويقع الجولان في الترتيب الأول بين المحافظات السورية من حيث الأهمية العسكرية وخصوبة الأرض وغناها الطبيعي وغير ذلك. وقد قيل عنه: إن الجبهة السورية الإسرائيلية خط ماجينو السوري المشهور الذي كلف البلاد أكثر من ثلاثمائة مليون دولار لتحصينه، وتجهيزه بأحدث المعدات . والذي اشتهر عنه بأنه لا يؤخذ . هذا الخط سقط بأيدي القوات الإسرائيلية خلال ٤٨ ساعة فقط)، وقالت مجلة تايم أول أيلول (٦٧): .. إن سورية تسيطر على سلسلة من التلال الصخرية الشديدة الانحدار تمتد لمسافة أربعين ميلاً، وتشرف على سهول منكشفة للنيران، وعلى جوانب التلال خطوط دفاعية مستقلة بعضها فوق بعض، وكل خط منها تحميه ثلاث طبقات من الألغام وأسلاك شائكة واستحكامات منيعة، وللوصول الى الطبقة العليا، يجب عبور تسعة خطوط الماجينو مصغرة»[1].

بعد هذه التجربة الفذة لا بد أن يفتح أمامه الطريق ليصل إلى القمة، ونحن لا ننكر ذكاءه وعمق تخطيطه في مواجهة خصومه وإسقاطهم. لكن الحكم عنده هو الأصل، وقد وعد به بعد تنفيذ المخطط المطلوب.

وسنشهد كيف راح يصفي خصومه النصيريين المتأرجحين خطوة خطوة، والذين اندفعوا بحمق وراء الشعارات، في الوقت الذي استغاثوا فيه للاعتراف بإسرائيل حتى لا تسقط دمشق، ويسقطون من السلطة. وراحوا يهيمون ببناء دولة (الاشتراكية العلمية) من خلال (الصراع الطبقي) ومواجهة (الأنظمة الرجعية) فهي الطريق الوحيد لتحرير إسرائيل.

---

(١) سقوط الجولان من الصفحات (٣٥) و(٣٨) و(٣٩) لخليل مصطفى.

١-«فعلى الصعيد الداخلي ظل النظام ينظر إلى البورجوازية على أنها هي العدو، أما على الصعيد الخارجي فقد أعلنت الحكومة أنها لن تتعامل مع الأنظمة الرجعية، بل إنها رفضت حضور مؤتمر القمة الذي عقد في الخرطوم في شهر آب/ أغسطس ١٩٦٧، ورفضت الحكومة السورية قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢) الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧ الذي يقضي بأن تقوم إسرائيل بإعادة الأراضي التي احتلتها لقاء السلام، وشجبت أي تسوية سلمية مع إسرائيل باعتبارها خيانة قومية»[1].

٢-«سرعان ما أصبح الخلاف المتزايد بين الأسد وجديد مدار الحديث في الجيش وفي الحزب «خطوة بعد خطوة» راح الأسد يخرج رجال جديد من مراكز النفوذ في القوات المسلحة. وكان أبرز مثال على ذلك هو طرد رئيس الأركان أحمد سويداني في شباط/ فبراير ١٩٦٨، وتعيين صديق الأسد المقرب مصطفى طلاس في مكانه. والواقع أن علاقات سويداني بجديد كانت متوترة نتيجة كارثة حرب ١٩٦٧، مما جعل إبعاده أكثر سهولة. بالإضافة إلى أن سويداني راح كأمثاله من سنيي حوران يدمدم ويتذمر من النفوذ العلوي في الجيش. وكان هذا سبباً كافياً لسقوطه»[2].

٣-«صرف من الخدمة أخيراً واحداً آخر من الموالين لجديد هو سيئ الحظ أحمد المير، الذي كان آمر جبهة الجولان خلال حرب حزيران/ يونيو، وقد تقاعد من الجيش بعد الهزيمة، إلا أنه لكونه من مؤسسي اللجنة العسكرية قد أعطي مقعداً في القيادة القومية للحزب، وفي تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٨ استطاع

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه / ٢٤٤.

الأسد أن ينفيه إلى الخارج إلى السفارة السورية في مدريد التي أصبحت المقر التقليدي للسياسيين الفاشلين، إلا أن أبرز ضربة وجهها الأسد لجديد كانت إزاحة قريبه وأهم مؤيديه المقدم عزت جديد من آمرية اللواء السبعين المدرع الذي كان يعتبر القوة الرئيسية الضاربة في البلاد»[1].

ولا بد من الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة، هم الشهود الحقيقيون على خيانة الأسد القومية، وهم شركاء فيها، فسويداني السني رئيس الأركان، وأحمد المير الإسماعيلي آمر الجبهة، وعزت جديد العلوي قائد اللواء السبعين الذي كان مقيماً في القنيطرة أثناء الحرب. وهذا يقتضي إزاحتهم من الساحة حتى ينفى شهود الجريمة وشركاؤها.

٤-«واستمر الأسد في إحكام قبضته على الجيش، إلا أن جديد كان لا يزال يهيمن على الجهاز الحزبي، وفي المؤتمرين القطري والقومي للحزب في شهري أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٨ مال التصويت لغير صالح الأسد حيال أكثر القضايا المطروحة، ورفضت آراؤه. ولكنه استطاع أن يؤمن إزاحة اثنين من الأطباء الاشتراكيين، وهما رئيس الوزراء يوسف زعين، ووزير الخارجية إبراهيم ماخوس، إلا أن مستقبل الأسد في قيادة الحزب ظل في الميزان، نظراً لأن التدخل العسكري في الشؤون الحزبية كان ممقوتاً لدى الحزبيين بشكل عام. وبينما راح الشقاق مع جديد يتزايد، كانت إستراتيجية الأسد هي فصل الجيش وخصوصاً الجهاز الحزبي فيه عن قيادة الحزب المدنية التي يترأسها صلاح جديد. فمنع ضباط الجيش من أي اتصال مع الساسة المدنيين في الحزب، كما منع المدنيين بدورهم من زيارة فروع الحزب في القوات المسلحة. ورغم أنه بقي

---

(١) المصدر نفسه / ٢٤٥.

عضواً في القيادة القطرية فقد توقف عن حضور اجتماعاتها. وعلى هذا أصبح هناك في الواقع مؤسستان في سورية لحزب البعث تتعايشان بصعوبة: واحدة عسكرية والأخرى مدنية»[1].

٥-«انعقد في دمشق مؤتمر قطري استثنائي في آذار ١٩٦٩ بطلب من القيادة القطرية السورية، وبذلت فيه جهود مكثفة للتوصل إلى حل وسط بين كتلتي الأسد وجديد، إلا أن الوفاق لم يتم، وكان الأسد قد أمر فصائله باحتلال المواقع الإستراتيجية الهامة في دمشق وما حولها ليوطد مركزه خلال المؤتمر الذي انتهى إلى طريق مسدود. وحاصر أنصار الأسد العسكريون قبل المؤتمر القطري الاستثنائي بوقت قصير مقر قيادة عبد الكريم الجندي أحد أنصار جديد الإسماعيليين المخلصين والذي كان رئيس مخابرات الأمن القومي والمخابرات العامة، واحتجزوا عدداً من مساعديه وأنصاره، وصادروا سيارات إدارته فانتحر عبد الكريم الجندي، وانتهت بموته المرحلة التي تم فيها تجميد أبرز أنصار جديد من غير العلويين وتصفيتهم مثل أحمد المير وأحمد سويداني، وتلا ذلك بشكل غير مباشر أن أصبح صراع السلطة بين الأسد وجديد وأنصارهما مقتصراً على أفراد الطائفة العلوية تقريباً.

حاول أنصار جديد في ١٩٦٩ - ١٩٧٠ استرجاع بعض نفوذهم المفقود بوضع منظمة الصاعقة البعثية التي أنشئت في سورية بعد حرب حزيران ١٩٦٧ تحت الإشراف المباشر للقيادة القطرية السورية بقصد تحويل هذه المنظمة إلى أداة بديلة للقوة، تحقق بعد تطويرها التوازن المرجو أمام قوة الأسد العسكرية»[2].

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٤٦.

(٢) الصراع على السلطة في سورية، لنيكولاس فان دام/ ٩٢ - ٩٣.

التدخل العسكري في الأردن:

«في ١٩٦٩ - ١٩٧٠ كان الفلسطينيون يشكلون بصفة خاصة معضلة حادة لوزير دفاع عربي مثل الأسد الذي كان الجيش الاسرائيلي يعسكر على مقربة من عاصمته ... ومنذ ذلك الوقت الذي برز فيه الفلسطينيون كقوة متحدية بعد حرب حزيران/ يونيو أدرك الأسد صعوبة التوفيق بين نضاليتهم وبين أمن الدول العربية، فقد أصدر مثلاً أمراً توجيهياً في آيار/ مايو ١٩٦٩ يشترط السماح لمجموعات معينة فقط بالدخول إلى القطر، وبأن الفدائيين لا يمكنهم حمل الأسلحة علناً، ولا إقامة معسكرات التدريب وساحات الرمي إلا في مناطق محددة، وفوق كل شيء لا يستطيعون الإغارة على المناطق المحتلة انطلاقاً من سورية بدون موافقة خطية ن وزارة الدفاع»[1].

وكانت هذه هي الخدمة العظمى التي قدمها حافظ أسد لإسرائيل، فقد بقيت حدود سورية مع إسرائيل آمنة لم تطلق فيها رصاصة واحدة منذ أن سيطر الأسد على الحكم سيطرة فعلية حتى اليوم، أي منذ خمسة وثلاثين عاماً، إلا ما كان من مسرحية حرب تشرين. وهدف إسرائيل في الأصل هو الحدود الآمنة. ومفهوم الحدود الآمنة عندها، هو الدويلات الطائفية التي تضمن الاستقرار في المنطقة، وكان الأسد هو بطل الأمن والسلام لإسرائيل خلال ثلث قرن من حكمه الحقيقي.

«في ٩/١٨ عبرت الدروع السورية الحدود الأردنية لدعم الفدائيين، وفي ٩/١٩ سيطرت على مدينة إربد في شمال الأردن، وكان الأسد يدير العمليات شخصياً من مقر قيادته المتقدم في نادي الضباط بدرعا على الحدود السورية

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٥٦ - ٢٥٧.

الأردنية. ماذا كانت أهدافه؟ حسب شهادته وشهادة آخرين من المشاركين في الأحداث عن قرب، لم يكن الأسد ينوي الإطاحة بحسين - كما كان الفدائيون يأملون- ولكنه كان ببساطة يريد حماية المقاومة من الذبح. ولذلك كان تدخل الأسد من البداية محدوداً وعلى مضض معاً، وكان يأمل بأن المساعدة السورية ستمكن الفدائيين من إقامة منطقة مأمونة في شمال الأردن يستطيعون منها التفاوض مع الملك. ولكن الخطة لم تتحقق، ففي ٢٢ أيلول/ سبتمبر أمر حسين اللواء المدرع الأربعين المعزز بالدعم الجوي بالاشتباك مع الدبابات السورية التي أصيب منها عدد كبير، وبعد ظهر اليوم نفسه كانت الوحدات السورية عائدة أدراجها إلى سورية، ويعترف الأسد فيما بعد مع بعض الحرج، «لقد كانت ورطة صعبة، كنت حزيناً لمقاتلة الأردنيين الذين لم نفكر فيهم على أنهم العدو، ولم أشرك سلاحنا الجوي، لأني كنت أريد أن أتفادى التصعيد، وشعرت بأننا ما دمنا قادرين على تحقيق هدفنا بحماية الفدائيين دون إشراك سلاحنا الجوي فلا حاجة لإشراكه»[1]. وكذب الأسد فقد كان في الحقيقة لا يريد تدمير سلاحه الجوي الذي يعده لحكمه، والغرب يريد أن يطمئن الى أنه لا يخرج عن قبضته في اللحظة المناسبة. وكانت مصلحة إسرائيل تقتضي تدمير الفدائيين. مع التأكيد أن الفدائيين قد تجاوزوا حدودهم في الأردن وأقاموا دولة داخل الدولة. بينما كانوا يخضعون لأوامر الأسد في سورية، ولا يطلقون رصاصة واحدة من حدودها.

الأسد في السلطة:

«قبيل انفجار الأزمة في الأردن كان الأسد قد أصبح سيد سوريا في كل شيء

---

(١) المصدر نفسه / ٢٥٩ - ٢٦٠.

ما عدا الاسم. كانت هيئة الضباط قد أصبحت له بكاملها تقريباً، وكذلك قوة أخيه رفعت الضاربة المتميزة وألوية جيش التحرير الفلسطيني المتواجدة في سورية، وقد سيطر على جيش الشعب (وهو قوة دفاع مدنية)، وقوى الأمن التي كان يديرها سابقاً عبدالكريم الجندي، وقام بتحييد الصاعقة القوة المسلحة الوحيدة التي كان جديد يتصرف بها، فأغلق مكاتبها وأرسل دبابات لتطويق معسكراتها، ولم يكن التدخل في الأردن ممكناً بدون موافقته، والواقع أن التدخل كان سياسته، وفي هذا المجال لم يكن هناك نزاع مع جديد.. لقد انحاز الى المقاومة ولكن لم يكن يعطف على هدفها بالزحف على عمان. ومن هنا فإن تدخله غير المتحمس جلب له شتيمة الفدائيين الذين شعروا بأنهم تعرضوا للخيانة، كما جلب له عداء حسين، مما منع التعاون بينهما لسنوات متتالية.

لقد كان تدخله غير مدروس وتعوزه الحماسة، وغير ناجح، ولم يحقق شيئاً يفيده أو يفيد السوريين أو يفيد الفسلطينيين الذين حاول أن يساعدهم. وقبل أزمة الأردن كانت عواطفه نحو منظمة التحرير الفلسطينية قد فترت، غير أن الأزمة قد أوجدت مسحة من السخط الغاضب في علاقته مع عرفات، لم تلبث أن تحولت في محن أخرى إلى عداء صريح وكامل»[١].

«أما جديد فكان لا يزال مسيطراً على الجهاز الحزبي، وفي آخر محاولة له لاستعادة القيادة دعا إلى مؤتمر استثنائي للقيادة القومية في ٣٠ تشرين الأول/ اكتوبر، وكان أول عمل قام به المؤتمر أن أمر وزير الدفاع بأن يتوقف عن إجراء أي نقل في الجيش طيلة فترة انعقاد المؤتمر. ولكن الأسد رفض هذا الأمر بشكل قاطع، وعلى مدى اثني عشر يوماً احتدم النقاش على الطريقة البعثية الحقيقية.

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ مقتطفات / ٢٦٥ - ٢٦٣ - ٢٦٤.

وقد سخر الأسد من منتقديه المتطرفين، وأفهمهم بطريقة قاسية أنه بموت عبدالناصر لم يعد بإمكانهم الاختباء وراءه وإطلاق تهديداتهم الجوفاء ضد إسرائيل، وقال لهم: إنه من الأفضل الكف عن أعمال الاستفزاز المجانية التي يستغلها العدو ليفرض علينا معركة ليس الجيش السوري في حالة تسمح له أن يخوضها أصلاً ناهيك عن أن يكسبها، وكان من شأن هذه الكلمات أن أثارت زوبعة من الاحتجاجات من قبل الجديديين. فقد اتهموه بأنه قبل التسويات الاستسلامية، ورضخ للإمبرياليين، وفي أرجاء المؤتمر كان جديد لا يزال يسيطر على الأكثرية بين كوادر وقيادات الحزب العليا التي استعملتها لتمرير قرارات تجرد الأسد وصديقه المخلص مصطفى طلاس من مناصبهما القيادية في الجيش والحكومة، وتشجب ازدواجية السلطة التي خلفها خروجهما عن النظام الحزبي، إلا أن الأسد قد اتخذ احتياطاته ونشر قوات حول قاعة المؤتمر، ولذلك ظلت القرارات المتخذة فيه مجرد كلام لا طائل تحته.

وعندما وافقت الأغلبية في نهاية المؤتمر على قرار غير واقعي بإعفاء وزير الدفاع حافظ الأسد ورئيس الأركان طلاس من مهامهما العسكرية، وأن يعهد إليهما بمهام حزبية حسبما تقرره قيادة الحزب استطاع الاثنان القيام بإجراءات مضادة فعالة بسهولة وسرعة نظراً لاحتياطاتهما المسبقة»[١].

ثم أمر الأسد عسكرييه في ١٩٧٠/١١/١٣ باعتقال قادة الحزب المدنيين البارزين بما فيهم صلاح جديد ونورالدين الأتاسي رئيس الجمهورية، وهرب كثيرون من أعضاء المؤتمر إلى لبنان تجنباً للاعتقال، واستمروا من هناك في معارضة النظام السوري الجديد.

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٦٦.

«لم يستطع القطاع الحزبي المدني أن يسترجع تحت حكم الأسد المركز القوي الذي كان له خلال الفترة السابقة، وأصبحت السلطة السياسية منذ ١٣/١١/١٩٧٠ حكراً على كتلة ضباط حافظ أسد. واعتمد بعد ١٣/١١/٧٠ اعتماداً وثيقاً على ضباط كتلته للحفاظ على سلطته، وتتألف كتلته من عدد من كبار الضباط الذين يمسكون مع أنصارهم بالمراكز الإستراتيجية الهامة في القوات المسلحة السورية. كذلك شغل ضباط من غير العلويين وظائف عسكرية عليا، ولكنهم كانوا واجهات دون سلطات حقيقية، ولم يكونوا أبداً في موقع يشكل تهديداً جدياً لسلطة الرئيس العلوي الذي كان أتباعه الشخصيون في مراكز هامة تمكنهم دوماً من قمع أي بادرة عصيان مسلح، وتضرب لذلك مثلاً اللواء ناجي جميل، وهو سني من دير الزور، كان قائد القوى الجوية من تشرين الثاني ١٩٧٠ حتى آذار ١٩٧٨. وكان على الرغم من ذلك كله لا يستطيع فعلاً استخدام القوى الجوية في أي تمرد عسكري ضد الرئيس، لأن قادة معظم القواعد الجوية علويون مناصرون لحافظ أسد.

وينطبق ذلك أيضاً على ضباط سنيين آخرين مثل اللواء مصطفى طلاس الذي عين وزيراً للدفاع في آذار ١٩٧٢، وخلفه في رئاسة الأركان اللواء يوسف شكور وهو مسيحي من طائفة الروم الأرثوذكس من منطقة حمص، ويستطيع الضباط من أمثال طلاس وجميل وشكور ممارسة سلطات لا بأس بها ما داموا يتبعون سياسات الرئيس. ولكن أنصار الرئيس العسكريين ومعظمهم من العلويين يستطيعون إزاحتهم بسهولة إذا انحرفوا عن خطه، وأكبر دلالة على انعدام نفوذهم هي عدم وجود أتباع شخصيين أقوياء لهم في القوات المسلحة، وقد يكون تعيين ضباط سنيين مثل طلاس وجميل في مثل هذه المناصب العسكرية العليا يهدف إلى تهدئة السنيين وإلغاء الانطباع باحتكار العلويين لكل المناصب الهامة، الا أننا

رأينا فيما سبق تجميد أبرز زمر الضباط السنيين والدروز والإسماعيليين في القبوات المسلحة وتصفيتهم في الفترة التي سبقت عام ١٩٧٠، وقلل بذلك بشكل واضح فرص غير العلويين في تشكيل مراكز قوى مستقلة تستطيع تهديد النظام الحاكم، على الرغم مما نشرته الصحف والمجلات اللبنانية باستمرار عن تهديد الضباط السنيين لمركز الأسد ذلك أن أمثال هذه التقارير غير موثوقة، ولم تثبت الأيام صحتها بشكل تام»[1].

لم يكن لحافظ أسد أن تفتح له الأبواب، وتهيأ له السبل، وتذلل أمامه العقبات إلا ضمن خطة مدروسة، ومن خلال شخصية الأسد المروضة لتنفذ كل مخططات العدو. فتسليم الجولان كان الامتحان الأول، والتخلي عن الفدائيين كان الامتحان الثاني، وكان خطر الفدائيين عن العمل خلال الحدود السورية لمهاجمة إسرائيل هو الامتحان الثالث. هذه الامتحانات جعلته محط أنظار العالم ليؤدي دوراً جديداً في المنطقة، والتعامل مع إسرائيل هو الميزان لاستقرار أي حاكم في المنطقة، وقد فعل خلال عامين ما عجزت إسرائيل عن تحقيقه منذ نشوئها. فلم تعرف إسرائيل الاستقرار كما في عهد أسد، حيث صارت حدودها آمنة مستقرة لا تتعرض لطلقة رصاص واحدة من أحد.

لا شك أن صلاح جديد وشلته من النصيريين قد أدوا الدور الأول بأن كانوا فتيل الانفجار لمعركة عام ١٩٦٧، وقادوا عبد الناصر إلى المواجهة، وبعد أن دمر سلاح الجو السوري، وأصبحت مرتفعات الجولان في أيديهم، انتهى دور التهويش والمزايدات، ولم يعد هناك حاجة لإشعال معركة جديدة، فليكن الأسد هو بطل السلام في المنطقة.

---

(١) الصراع على السلطة في سورية: لنيكولاس فان دام / ٩٤ - ٩٥.

ولننظر إلى أين آلت اللجنة العسكرية التي كان تقود سورية عام ٦٣ إلى عام ٧٠: بقي الأسد وحده منها، أما جديد فقد أودع السجن، وعبد الكريم الجندي الإسماعيلي انتحر، وأحمد المير الإسماعيلي سرح من الجيش إلى وظيفة مدنية، ومحمد عمران عين سفيراً في إسبانيا، وتم اغتياله بعد ذلك على يد مخابرات الأسد لتخلو الساحة له وحده. وأصبح الحكم الآن نصيريا أسدياً يدين بالولاء لشخص واحد «والأعضاء العلويون البارزون في كتلة حافظ أسد هم شقيقه رفعت أسد، وعلي حيدر قائد القوات الخاصة (وهو جيش علوي خالص رديف للجيش السوري) ومحمد توفيق الجهني قائد الفرقة الأولى، وعلي دوبا رئيس المخابرات العامة، وعلي الصالح قائد الدفاع الجوي، وعلي حماد رئيس شؤون الضباط، وكمثال على الأنصار العلويين البارزين الآخرين عبدالغني إبراهيم وعلي أصلان ومصطفى شريا وحكمت إبراهيم وعلي حسين»[1].

لماذا انتصر حافظ الأسد بحكم البلد:

قدمنا المبررات الكافية السابقة للامتحانات التي خاضها في موقفه مع إسرائيل، وحتى تتجلى الحقيقة، لا بد أن نعيد إلى الذاكرة حقيقة موقف النصيريين من اليهود ورأيهم فيهم، فبذلك يتضح الاتساق والتكامل في الدور النصيري في الساحة السورية، وجديد والأسد كل منهما أدى دوراً محدداً له، وكلاهما قد حقق آمال وطموحات أجدادهما في نصرة اليهود. واشتركا في كل المسؤوليات حتى عام ١٩٧٠، وبعدها انتهى دور جديد، وبدأ دور الأسد على المستوى القومي والعربي. وقد كنا ذكرنا هذه الوثيقة من قبل، ونذكر طرفاً منها:

---

(١) هامش ص ١١٤ من كتاب فان دام، ط٢، مكتبة مدبولي.

هذه الوثيقة رفعها زعماء النصيريين لرئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم محفوظة تحت رقم ٣٥٤٧ بتاريخ ١٩٣٦/٦/١٥ في سجلات وزارة الخارجية الفرنسية وفي سجلات الحزب الاشتراكي الفرنسي صورة عنها، وهذه فقرة منها ننقلها حرفياً:

«٤-إن روح الحقد والتعصب التي غرزت جذورها في صدور المسلمين العرب نحو كل ما هو غير مسلم هي روح يغذيها الدين الإسلامي على الدوام، فليس هناك أمل أن تتبدل الوضعية. لذلك فإن الأقليات في سورية تصبح في حال إلغاء الانتداب معرضة لخطر الموت والفناء، بغض النظر عن كون هذا الإلغاء يقضي على حرية الفكر والمعتقد. وها إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق المسلمين يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على توقيع وثيقة يتعهدون فيها بعدم إرسال المواد الغذائية إلى إخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين، وحالة اليهود في فلسطين هي أقوى الأدلة الواضحة الملموسة على عنف القضية الدينية التي عند العرب والمسلمين لكل من لا ينتمي إلى الإسلام. فإن أولئك اليهود الطيبين الذين جاؤوا إلى العرب والمسلمين بالحضارة والسلام، ونثروا فوق أرض فلسطين الذهب والرفاه ولم يوقعوا الأذى بأحد، ولم يأخذوا شيئاً بالقوة. ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة، ولم يترددوا في أن يذبحوا أطفالهم ونساءهم بالرغم من وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسا في سورية، لذلك فإن مصيراً أسود ينتظر اليهود والأقليات الأخرى في حالة إلغاء الانتداب وتوحيد سورية المسلمة مع فسطين المسلمة، هذا التوحيد هو الهدف الأعلى للعربي المسلم.

الموقعون:

عزيز آغا الهواش محمد بك جنيد سليمان المرشد محمود آغا جديد

سليمان أسد محمد سليمان أحمد»

١-فهم يكشفون عن حقيقة هويتهم حين يتمكنون في ظل العدو، ويتحدثون للحكام الفرنسيين يستنجيرون بهم من التعصب الإسلامي، فهم غير مسلمين.

٢-وما يجمعهم في خندق واحد مع اليهود هو أن النصيريين واليهود من الأقليات غير المسلمة، وتصبح هذه الأقليات في خطر الموت والفناء إن انتهى الانتداب الفرنسي وعاد الحكم للأكثرية المسلمة السنية في سورية.

٣-ولا يجد زعماء النصيريين دليلاً على صحة وجهة نظرهم إلا الاستشهاد بموقف مسلمي دمشق من منع اليهود من تقديم المعونات لإخوانهم في إسرائيل.

٤-واليهود مضطهدون في رأي النصيريين، والحرب ضدهم يمثلها روح التعصب والحقد الإسلامي، فهم لا يذكرون أن اليهود مغتصبون جاؤوا لأخذ هذه الأرض من أصحابها الشرعيين، وهذه مشاعر موحدة ومتطابقة تمام التطابق بين اليهود والنصريين.

«فاليهود طيبون، جاؤوا للعرب والمسلمين بالحضارة والسلام، ونثروا فوق ارض فلسطين الذهب والرفاه» أما العرب المسلمون فمتأخرون متخلفون فقراء، واليهود هم الطبقة الواعية المثقفة المضحية العاملة.

والمسلمون معتدون طغاة، ينقضون على اليهود، ويشعلون عليهم الحرب المقدسة، والمسلمون طغاة يذبحون الأطفال والنساء لأولئك اليهود حملة مشعل الحضارة ودعاة الطهر والسلام في الأرض.

والمسلمون في حقدهم وقهرهم لليهود رغم وجود إنكلترا وفرنسا، يعني أنهم سيحولونهم إلى جثث وكتل من الدمار والفناء حين يرتفع الانتداب الإنكليزي والفرنسي من البلاد، وسيلقون المصير الأسود المحتوم على يديهم.

هذه هي النظرة الحقيقية للنصيريين نحو اليهود، فكلاهما في خندق واحد لمواجهة التعصب الإسلامي السني، وقد تبنى هذه الوثيقة زعماء النصيريين بما

فيهم أجداد صلاح جديد وحافظ أسد، وهذه هي الفرصة السانحة وقد حكم جديد والأسد سورية المسلمة المتعصبة السنية، وعليهم أن يؤدوا دورهم التاريخي في نصرة حلفائهم وإخوانهم اليهود، فكان أن قدّموا لهم الجولان، وغدروا بالفدائيين، وعملوا أقل ما يجب عليهم عمله تجاه اليهود الطيبين الذين جاؤوا بالحضارة والسلام ونثروا فوق الأرض الذهب والفضة.

إنها رسالة تاريخية يقدمها جديد والأسد، تحقيقاً لحلم أجدادهم محمود آغا جديد وسليمان بك الأسد، فيعطون الجولان ومرتفعاتها لإسرائيل، حتى تبقى دمشق عاصمة المسلمين السنيين تحت رحمة مدافعهم إلى الأبد.

ليس المرء بحاجة إلى أن يبحث ما بين السطور إذا كانت السطور تنطق بحقيقة الحقد والضغينة على المسلمين، وتطفح بذلك الحب والتفاني لليهود والصليبيين.

الباب الخامس

العهد الدكتاتوري (الفرد والطائفة)

الفصل الأول: الأسد رئيس الجمهورية، ومعركته الأولى مع الإسلاميين.

الفصل الثاني: الثمرة الرابعة لحكم النصيريين: حرب تشرين.

الفصل الثالث: الثمرة الخامسة: الحلف النصيري – النصراني – اليهودي ضد المقاومة الفلسطينية.

الفصل الرابع: بداية الصراع المسلح مع الإسلاميين.

الفصل الخامس: العقاب المتعطش للدم.

الفصل السادس: أحداث حماة وقمة المأساة.

الفصل السابع: ذل وركوع أمام اليهود.

الفصل الثامن: مفاوضات بين الإخوان المسلمين والسلطة في سورية.

الفصل التاسع: تنفيذ المخططات اليهودية.

الفصل العاشر: أكابر مجرميها والصراع على السلطة.

الفصل الحادي عشر: تحطيم أمة.

الفصل الثاني عشر: حصاد السياسة الخارجية: من الصمود إلى السقوط.

الفصل الثالث عشر: حصاد السياسة الداخلية: أهداف البعث.

الفصل الأول

الأسد رئيس الجمهورية
ومعركته الأولى مع الإسلاميين

جاءت حركة الأسد في ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠، «ولدى إسقاط جديد بدا وكأن الأسد يتردد على عتبة المنصب الأول، فأقنع نفسه بادئ الأمر بمنصب رئيس الوزراء ووضع في منصب رئيس الدولة معلم مدرسة سنياً غير معروف في التاسعة والثلاثين من عمره، وهو أحمد الخطيب. على أن شكوك الأسد المترددة الأولى لم تكن تتناسب وشخصيته ومعتقداته، فقد كان يحاول منذ أيام صباه أن يحرر نفسه من العقد الطائفية، ففي ٢٢ شباط/ فبراير ١٩٧١ أصبح «متمتعاً بصلاحيات رئيس الجمهورية، وفي ١٢ آذار/ مارس أدى استفتاء شعبي إلى تثبيته كرئيس لمدة سبعة أعوام. كان يرمي من البداية إلى أن يحكم بدون واجهة، بل بدون أية عقبات أو قيود من أي نوع، فاختلف بذلك عن نموذج صلاح جديد. الذي كان في غمرة تشوفه لفرض نفسه كنظام جماعي قد ألغى منصب رئيس الجمهورية مستبدلاً به منصب رئيس الدولة الذي كان مجرداً من أية سلطة حقيقية، وبإعادة منصب رئيس الجمهورية وممارسته أوضح الأسد أنه سيكون الزعيم القائد بالفعل وبالاسم معاً، وبأن حكمه لن يكون فيه شيء جماعي»[١].

أذكر أنه أيام هذه الانتخابات راح البعثيون السنة المغفلون يجوبون الأقطار

---

(١) الأسد، لباتريك سيل. ص ص ٢٧٨-٢٧٩.

للدعاية إلى انتخاب الأسد. وجاءت لجنة إلى المدرسة التي كنت أعلّم فيها على رأسها الحاكم العسكري للمنطقة برتبة مقدم مع رئيس شعبة الحزب في المنطقة، ودعوا الهيئة التدريسية في المدرسة لشرح العهد الديمقراطي الجيد الذي لم تشهد سوريا مثيلاً له في تاريخها. وجرى الحوار التالي:

قائد المنطقة: نحن ندعوكم لتقولوا رأيكم بكل حرية بالسيد الفريق. أن تقولوا نعم أو تقولوا لا، دون ضغط أو إكراه، وهذا ما لم تشهده سورية في حياتها.

قلت: ولكن هذه الحرية مقيدة.

قائد المنطقة: ماذا تقول ؟ كيف ؟

قلت: نعم هذه الحرية مقيدة. نحن نعلم أيام الحرية أن منصب رئاسة الجمهورية يترشح له من يحمل المؤهلات المناسبة، والشعب يختار من هؤلاء المرشحين رئيساً للدولة.

نظر إليّ شزراً وقال: متى تأتي الى الدوام على المدرسة؟

قلت: الساعة السابعة والنصف مثلاً. ما المهم في هذا السؤال؟

قال: لماذا تأتي في السابعة والنصف إلى المدرسة؟

قلت: لأن النظام حدد هذه الأمور.

قال: وكذلك النظام هو الذي حدد أن يكون المرشح لرئاسة الجمهورية وحيداً وينتخبه الناس انتخاباً حراً.

قلت: لكن النظام ينبثق من القانون، والقانون ينبثق من الدستور. والدستور يضعه المجلس الذي يختاره الشعب، ونحن نختار المجلس النيابي.

قال: والدستور وضعته القوى التقدمية في البلد، العمال والمثقفون الثوريون، واتحاد الطلبة والاتحاد النسائي والنقابات العلمية والمهنية.

قلت له: اخترتم نقابة للمعلمين من ٢٠ معلماً وفرضتموها علينا، ويوجد في الاتحاد النسائي في بلدنا عشرون امرأة تقدمية، من عشرين ألف امرأة، فهل أمثال هؤلاء يضعون الدستور.

قال: نعم القوى التقدمية هي التي تضع الدستور وهي صاحبة القرار.

قلت لهم: إذن لم جئتم إلينا تسألون رأينا، ونحن لسنا من المثقفين الثوريين، اتركوا المدرسة ودعونا دون أن تتحدثوا عن الديمقراطية الجديدة.

ومضوا من المدرسة غاضبين.

وكيف صار الجيش تحت رعاية الأسد، السيد الأوحد الذي فرض نظامه بالقوة؟

«رأينا فيما سبق تجميداً أبرز زمر الضباط السنيين والدروز والإسماعيليين في القوات المسلحة وتصفيتهم في الفترة التي سبقت عام ١٩٧٠، وقلّل ذلك بشكل واضح فرص غير العلويين في تشكيل مراكز قوى مستقلة تستطيع تهديد النظام الحاكم، واتضح مما سبق أن أي تهديد جدي لنظام الأسد لم يأت في الواقع إلا من داخل الطائفة العلوية، ونرى من استعراض ما تم من اعتقالات او تسريحات الدور الرئيسي الذي لعبه الضباط العلويون، والبعثيون المدنيون من منطقة اللاذقية في المؤامرات التي انكشفت منذ تشرين الثاني ١٩٧٠، فقد اعتقل عدد من أنصار جديد في حزيران ١٩٧١ بتهمة المشاركة في نشاطات تخريبية، وشملت هذه الاعتقالات عدداً من الحزبيين المدنيين البارزين، في فرع اللاذقية كذلك اغتيل اللواء العلوي محمد عمران في ١٩٧٢/٣/٤ في طرابلس بلبنان حيث كان يعيش في المنفى منذ عام ١٩٦٧، وأشارت الآثار التي خلفها القتلة إلى احتمال اشتراك أحد فروع المخابرات السورية في الجريمة، وربما تم ذلك لأن عمران حافظ على صلاته مع ما له من أنصار عسكريين في سورية على أمل

العودة إلى المسرح السياسي فيها، ومن المحتمل أن يكون مقتل عمران وما شاع من ضلوع النظام السوري في ذلك أضعف ثقة العلويين بحافظ أسد»[1]، «ومن بين الرفاق الخمسة الذين تكتلوا في القاهرة قبل ذلك باثني عشر عاماً لم يبق واقفاً سوى الأسد وحده»[2] إذ ذبح رفيقي دربه عمران وعبدالكريم الجندي، واعتقل الرفيقين الآخرين أحمد المير وصلاح جديد، وغدر بأقرب المقربين إليه، ليصبح سيد الساحة وحده.

«ثم اعتقل مزيداً من أنصار جديد وحلفائه المدنيين والعسكريين في كانون الاول ١٩٧٢ بتهمة التآمر ضد النظام، ومرة ثانية كانت نسبة العلويين بين المعتقلين نسبة عالية مدهشة، وأوردت صحيفة الراية خبر اعتقال خمسة عشر ضابطاً منهم اثنا عشر علوياً على الأقل. وكان معظم المعتقلين استناداً إلى نفس المصدر هم من فروع الحزب في اللاذقية وطرطوس ودمشق.

جاءت التحديات الرئيسية لنظام الأسد من داخل الطائفة العلوية، فلا غرابة إذا زاد اعتماد الأسد على الأشخاص القريبين منه كأفراد عائلته وعشيرته، أو قريته وما حولها، كي يحمي نظامه حتى من تآمر أبناء طائفته، فإخوته الخمسة حزبيون نشيطون يشغلون مراكز بارزة في الجيش والحزب والحكومة، ويعتبر رفعت أسد أقواهم، وقد تولى بعد انقلاب تشرين الثاني ١٩٧٠ قيادة سرايا الدفاع، وهي وحدات النخبة العسكرية ذات الأهمية السياسية والإستراتيجية والتي تتمركز حوالي دمشق، ويستطيع باستخدامها حماية نظام أخيه الأكبر»[3].

ومن الطريف حقاً أن الذين هندسوا تنصير الجيش واستيلاء الطائفة النصيرية

---

(١) الصراع على السلطة في سورية، لفان دام/ ٩٥ - ٩٦.

(٢) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٩٥.

(٣) الصراع على السلطة في سورية، لفان دام/ ٩٦ و٩٧.

عليه من أنصار جديد عندما صاروا خارج الحكم، صاروا يتحدثون عن الطائفية في الجيش والحكم في جريدتهم الراية:

فتحت عنوان «من يحكم بغداد ودمشق» يقول: «يمكن القول هنا أن المجموعتين المتسلطتين في دمشق وبغداد، ترجعان إلى كتل برزت على صعيد الجيش والحزب، وهي في حقيقة الأمر كتل طائفية أو عشائرية، مثل الكتلة التكريتية في العراق ... وقد استولى كل من حكام دمشق وبغداد على السلطة عقب انقلابات عسكرية اعتمدت على التحالف بين الكتل العشائرية أو الطائفية». ولم يشر أنصار جديد البعثيون في مقالتهم المعادية للأسد إلى أن مراكز سلطتهم السابقة في سورية اعتمدت أيضاً على كتل طائفية وعشائرية وإقليمية في القوات المسلحة والحزب».

وعلينا أن لا ننسى صلاح جديد مدير شؤون الضباط الذي قاد انقلاب تحويل الجيش إلى جيش عقائدي نصيري عام ١٩٦٣، والذي لم يغادر موقعه بصفته رئيساً للأركان عام ٦٥ إلا وقد أنهى مهمته في تحويل قيادات الجيش الفاعلة والضاربة إلى قيادات نصيرية، وراح أنصاره يهاجمون الطائفية عندما غدوا خارج الحكم.

حافظ الأسد رئيساً للجمهورية:

«في ١٢ آذار/ مارس ١٩٧١ أدى استفتاء شعبي إلى تثبيته كرئيس لمدة سبعة أعوام. كان يرمي من البداية إلى أن يحكم بدون واجهة، بل بدون أية عقبات أو قيود من أي نوع»[١].

---

(١) الصراع على السلطة في سورية، فان دام، ص ١١٨.

ولا شك أن هذه القضية تصادم عواطف المسلمين جميعاً في أن يكون النصيري رئيساً للجمهورية، ولأول مرة في تاريخها. فكان عليه أن يتجاوز هذه العقبة. فأوعز الى النصيريين وقيادة الطائفة عنده أن يستعملوا الباطنية المطلوبة ويعلنوا إسلامهم على الملأ.

لقد كانت الخطة نفسها قبل ثلاثين عاماً عندما نجحت محادثات الوفد السوري في فرنسا، وخلال شهر واحد غيرت قيادات النصيريين مواقفها من تشبثها بنعال الفرنسيين ليبقوا في سورية ولا يدعوهم فريسة للسنة فيها إلى إعلان إسلامهم في فتوى يصدرها سماحة الشيخ أمين الحسيني آنذاك ويدعو لاعتبار الطائفة النصيرية طائفة مسلمة، تتكرر القضية اليوم ومن أجل استلام سورية جيشاً ورئيساً وشعباً، حيث تداعت الشخصيات النصيرية التالية لعقد مؤتمر ديني وهذه الشخصيات هي:

١-عبداللطيف إبراهيم مرهج، صافيتا الدبدابة.

٢-عبدالرحمن الخيِّر، دمشق (وهو الذي أوعز إليه إصدار بيان وحيد العين).

٣-حيدر محمد، جبلة.

٤-الشيخ محمود صالح عمران، حمص.

٥-حسين سعود: جبلة.

٦-سليمان العيسى، بانياس، حريصون.

٧-كامل حاتم، اللاذقية، حرف مشقيتا.

٨-عبدالكريم علي حسين: طرطوس.

وذلك في شبه مؤتمر انعقد في أوائل اكتوبر ١٩٧٢ في اللاذقية ناقشوا فيه المشكلات التي تثار حول عقيدتهم، وضحوا فيه تفصيلات المذهب، وحدوده وأحكامه، هم بحكم مكانتهم العلمية والدينية مهيأون لإصدار هذا البيان.

لقد استهلت الجماعة بيانها بالكلمة الطيبة التي تدعو الى تأليف قلوب المسلمين، والبعد عن تجسيم نقاط الخلاف التي رأت أنها تحدث عادة في الفروع دون الأصول، وترى الجماعة أنها ببيانها هذا تنسجم مع ما سبق لها من مواقف مماثلة، وأنها لا تضيف جديداً بصدوره، ولكنه تأكيد لما هم عليه، وتجديد العهد مع الله ورسوله بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وحكمة الله بالغة في إلزام المسلمين بتجديد العهد كل يوم عدداً من المرات.

وفيما يلي نص البيان الذي أصدرته جماعة العلماء:

«الدين: نعتقد بأن الدين هو الإقرار بإله موجد للكائنات، والقيام بعبادته تعالى بامتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه، وآخر الأديان وأكملها هو الإسلام.

الإسلام: هو الإقرار بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله .

الإيمان: هو الاعتقاد الصادق بوجود الخالق سبحانه والإقرار بالشهادتين، والتزام العمل بأحكام الدين الإسلامي من أصول وفروع.

أصول الدين الخمسة: نعتقد بأن أصول الدين خمسة: التوحيد، والعدل، والقرآن والسنة، والإمامة، والمعاد، وتجب معرفتها بالدليل الموجب للعلم، لا بالظن ولا بالتقليد، ولهذا سميت أصول العقائد.

فروع الدين: نعتقد بأن فروع الدين كثيرة، تتضمن العبادات والمعاملات وغير ذلك، ويخير المسلم في معرفتها بين الدليل الموجب للجزم بالصحة وهذا شأن العلماء العارفين، وبين تقليد العالم المجتهد المؤمن العاقل البالغ العادل وهذا شأن جماهير المسلمين.

التوحيد: للمجتهد الأحاديث المؤلفة التي تتضمنها كتب الحديث، وأهمها الكتب الأربعة، وهي الكافي للكليني، والتهذيب والاستبصار للطوسي، ومن لا

يحضره الفقيه للصدوق.

وللمقلدين الرسائل العلمية التي تتضمن فتاوى ومراجع التقليد، وكذلك فتاواهم المكتوبة أدلة التشريع عندنا: القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والعقل.

القرآن: نعتقد بأن القرآن الكريم الموجود منه ملايين النسخ بين أيدي المسلمين والموجود في جميع بلاد الإسلام هو كلام الله تعالى لا تحريف فيه ولا تبديل.

السنة: هي عندنا قول النبي وفعله وتقريره، ونعتقد بأنها المصدر الثاني للتشريع، وأن من أنكر حكماً من أحكامها الثابتة فهذا كافر كمن أنكر حكماً من أحكام القرآن، وهي لا تتعارض مع القرآن الكريم البتة، ويلحق بها كل ما ثبت عن الأئمة الطاهرين قولاً أو فعلاً أو تقريراً.

هذه معتقداتنا نحن المسلمين العلويين، ومن يقول علينا غيرها فإنا نعتبره إما مفترياً مغرضاً أو جاهلاً ظالماً، ومن البديهي أن لا يؤخذ لقول أحدهما عند العقلاء المثقفين».

لكن لا بد من إقرار هذه العقيدة من المسلمين السنة أو الشيعة وإعطاء نسبة الإسلام لهم، فكان هذا دور صديق الأسد موسى الصدر.

«ثم طرح سؤال بعد ذلك عما إذا كان من المشروع أن يسمى العلوي مسلماً، ولحل هذه المعضلة لجأ الأسد إلى صديقه الزعيم الشيعي المتنفذ الإمام موسى الصدر رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان الذي أصدر فتوى بأن العلويين حقاً طائفة من المسلمين الشيعة، وهكذا أزيح عائق ديني من طريق رئاسة

الأسد»[1].

لا حرية للإسلام والإسلاميين:

غدا حافظ أسد رئيساً للجمهورية، وبدأ يتحدث عن الحريات، واندفع الشعب وراءه لاهثاً آملاً أن يتنفس الصعداء على يديه، وإنهاء سيطرة الحزب البغيضة على مقدرات الأمة، وتساءل الناس: هل يمكن أن يشارك الشعب بجوار البعث بالسلطة، إذ لا أمل بزواله عنها، فجاءت مهزلة الجبهة التقدمية.

«وحدث تطور آخر علق عليه الأسد أهمية كبرى، وكان موضوعاً للنزاع بينه وبين جديد، وهو تشكيل الجبهة التقدمية التي تمكنت فيها تجمعات سياسية أخرى غير البعث من طرح آرائها، وتم تدشين هذه الجبهة في ٧ آذار/ مارس ١٩٧٢ بعد عدة شهور من المساومة حول بنود ميثاقها والسلطة المتاحة لأعضائها. وبالإضافة إلى البعث الذي سيطر بالضرورة على الجبهة، كانت الجبهة تضم في عضويتها كلاً من الحزب الشيوعي والاتحاد الاشتراكي العربي (وهو بقايا الحزب الناصري من أيام الوحدة)، والحركة الاشتراكية العربية، وبقايا حزب أكرم الحوراني، وحركة الوحدويين الاشتراكيين (ناصريين بعثيين سابقين)، ورغم أن هذه الحركات صارت جزءاً من الجبهة فلم يكن مسموحاً لها بالنشاط السياسي في صفوف الجيش أو الطلبة. فقد احتفظ الحزب بالعمل في هذين المجالين وحده، على أن الجبهة الوطنية التقدمية لم تكن مجرد ديكور شكلي لمسرحية، بل انعكاساً لحقيقة الولاءات السورية المنقسمة في المعسكر الراديكالي المتشدد، وللتفتت الذي نجم عن اضطرابات السنين الخوالي، ورغم

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٧٩.

ذلك فقد كان من مفارقات عواقب تشكيل الجبهة حدوث انشقاق في اثنتين من التجمعات المكونة لها، وهما الحزب الشيوعي، والاتحاد الاشتراكي العربي الناصري، فكان ذلك لصالح البعث بحيث أن الجبهة في آخر الأمر أكدت سيطرة البعث بدلاً من أن تعطي نوعاً من التعددية»[1].

ومفهوم الجبهة الوطنية التقدمية على المسرح السياسي في سورية تعني الأحزاب العلمانية التي لا تنطلق من الإسلام ومن أي وجود له في السلطة. فالرجعية التي لا حرية لها والتي تقابل التقدمية تعني دعاة الإسلام والإخوان المسلمين. ولهذا وجدنا الشيوعيين والاشتراكيين والقوميين هم اللبنات الأساسية للجبهة، والناصريون المعروفون ببعض العواطف الدينية الإسلامية كانوا خارج الجبهة، والذين كان يمثلهم محمد الجراح وجاسم علوان ويوسف مزاحم، وهم ضباط سابقون، وهم الذين خرجوا على جمال الأتاسي الذي كان يقود الاتحاد الاشتراكي العلماني والذي شارك في الجبهة، فمن باب أولى أن يعتبر الإخوان المسلمون أعدى العدو.

ولا غرابة، فالنصيريون الطائفة المنظمة المعادية للإسلام لا يقابلها في العداء الحقيقي إلا الإخوان المسلمون القائمون على طائفة السنة حصراً، إذ لا يعقل أن يكون في صفوفهم كافر بالإسلام والشيعة المسلمون أصبحوا كما رأينا من قبل هم الستار الذي يتستر تحته النصيريون.

ومع أن الجبهة الوطنية التقدمية لا تعني أكثر من اشتراك وزير بالوزارة، والقرار فيها بيد البعث، وتدعى للتوقيع على بعض الخيانات عند الضرورة، لكنها أكدت أن العلمانيين في سوريا باعوا أنفسهم لحافظ أسد والنصيريين مقابل

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٨٢.

مقعد وزاري، وساهموا في ذبح شعوبهم تحت هذا الستار. ولا ننكر أن الشيوعيين العرب الذين خرجوا على الشيوعيين العملاء كانوا خارج السلطة كذلك وتعرضوا للعديد من الملاحقات والسجون، وهم الذين يدعون بجناح المكتب السياسي، والذي انشق عن خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي السوري.

إذن حتى هذه الحرية الضيقة جداً جداً لا حق للإسلام ولدعاة الإسلام فيها.

انتخابات الإدارة المحلية:

وصورة أخرى من صور الحرية التي تاجر بها حافظ الأسد بذكاء خلال السنة الأولى من حكمه هي الإدارة المحلية، وكانت في الحقيقة عملية سبر لولاءات الشعب في سورية ومدى تغلغل العواطف الإسلامية فيه.

«ولعل نظام الإدارة المحلية التي أقيمت كغيرها من الأشياء في السنة الأولى من رئاسة الأسد كان أشد فاعلية وتأثيراً من مجلس الشعب أو الجبهة التقدمية. وذلك في ميدان إفساح المجال للناس كي يشاركوا في الأمور وتكون لهم كلمتهم المسموعة، وقد بدأت هذه العملية في الثالث من آذار/ مارس ١٩٧٢ بانتخاب مجالس محلية في كل من محافظات القطر الأربع عشرة، ولم يكن المرشحون لمقاعد هذه المجالس من البعث فقط، بل كان من بينهم أعضاء في الأحزاب الأخرى المشاركة في الجبهة، وكذلك مستقلون ممن كانوا في التحليل الأخير يمثلون الاتجاهات المحافظة المعارضة للنظام، وفي انتخابات آذار/ مارس فاز أولئك المحافظون بأغلبية في محافظتي دمشق وحمص معاً، رغم إن النظام الأساسي كان يشترط أن يكون ٥١٪ من أعضاء المجلس عمالاً وفلاحين،

والباقي تجاراً وحرفيين ومثقفين»[1].

كان واجب هذه المجالس أن تساعد المحافظ في واجباته التنفيذية، وفي المدن الرئيسية كدمشق وحلب كان المجلس المحلي مكوناً من مائة عضو ينتخب منهم عشرة كمجلس تنفيذي يكون كل منهم مسؤولاً عن ناحية مختلفة عن غيرها من نواحي الإدارة كالتربية والإسكان والصحة والنقل.. وهكذا.

وكان بوسع المسافر المتجول في المحافظات السورية أن يكتشف وجود ثلاثة رجال ذوي أهمية في عاصمة كل محافظة، فأولاً في مسائل البروتوكول هناك أمين فرع الحزب الذي كان على رأس المنظمة الحزبية، وهو أداة القيادة القطرية، ثم المحافظ وهو مثل الحاكم في فرنسا، كان ممثل الحكومة المركزية، وبالتالي ممثل رئيس الجمهورية ثم مدير الأمن السياسي، وهذا كان في الغالب الأعم عقيداً علوياً كان دوره كشف النشاط التخريبي والتعامل معه. وهذا أيضاً كان تسلسله القيادي يؤدي في نهاية المطاف إلى الأسد[2].

رغم أن الإخوان المسلمين قد اتخذوا قراراً بعدم المشاركة في الإدارة المحلية ترشيحاً وانتخاباً لوضوح المهزلة السياسية فيها. فالشعب يدعى ليشارك في الإسكان والصحة والنقل ليكون الوجه القبيح للسلطة في مواجهة مشاكل الناس. أما التخطيط والتشريع والدستور والاتجاه السياسي فهو ليس لهؤلاء القاصرين، إنما هو للحزب والجيش، والطائفة من ورائهم جميعاً . وفي حديث (باتريك سيل) عن الشخصيات الثلاثة الحاكمة على رأس كل محافظة. فأمين الفرع القطري هو من نتاج البعث، والمحافظ هو الذي يعينه فرع الحزب أو

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٢) الأسد، لباتريك سيل ص ٢٨٣- ٢٨٤.

يرشحه وهو الذي يسقطه كذلك. فكلاهما يمثلان حزب البعث وذلك في صورة الحكم والواجهة. أما مدير الأمن السياسي فيكون من جهاز المخابرات النصيري، وهو الحاكم الحقيقي.

مع هذا كله فقد شارك الناصريون والمستقلون في الإدارة المحلية، وساند بعضهم الإخوان المسلمين، وفازوا بأغلبية في المجالس، فالشعب في الحقيقة كله ضد الحزب والطائفة، وحين ظهر خرم إبرة من الحرية الحقيقية، ظهر أن الاتجاه المرتبط بالإسلام بصورة من الصور هو مالك الشارع السوري.

هكذا كان أسد على وعي تام بطرق المواجهة للإسلام والإسلاميين في كل مكان. وكانت هذه المحاولات سبراً لطبيعة هذا الشعب وولاءاته.

لكن الحكم الفعلي كان للعلمانية والعلمانيين على الساحة السياسية، تحت ستار البعث ورايته، وللمخابرات المتمثلة في مديري شعب الأمن السياسي النصيريين، بحيث يبقى المحافظ وأمين فرع الحزب والحزب تحت المجهر حين يخرجون عن خط السلطة النصيرية.

لقد سألت مرة مساعد المحافظ ورئيس الإدارة المحلية في إحدى المحافظات عن الحكم في سورية، وقلت له: هناك مقولتان: الأولى تقول: إن سورية سجن يديره البعث. والمقولة الثانية تقول: البعث سجن يديره النصيريون.

فابتسم بمرارة وقال: المقولة الثانية أصدق، وما نعانيه نحن من سيطرة النصيريين وتسلطهم أكبر بكثير مما يعانيه الشعب من البعث.

ويلخص لنا (فان دام) صورة هذا الحكم بقوله:

«حاول الأسد بعد انقلاب تشرين الثاني ١٩٧٠ إنهاء عزلة سورية السياسية عن العالم العربي بعد أن بلغت ذروتها بعد ٢٣ شباط ١٩٦٦، فسعى للتقارب مع دولتي المواجهة مصر والأردن، ومع الدول المحافظة كالمملكة العربية السعودية

بغرض بناء جبهة عسكرية وسياسية موحدة ضد إسرائيل، بينما رفض جديد وحلفاؤه في السابق كل تعاون جدي مع عبد الناصر أو الدول المحافظة متعللين بأن التقدميين وحدهم هم الذين يستطيعون كسب المعركة الفاصلة مع إسرائيل، وقد أظهرت سياسات الأسد العربية الجديدة نتائج بارزة في حرب تشرين الأول ١٩٧٣ حين نسقت القوات المسلحة السورية والمصرية عملياتها العسكرية ضد إسرائيل تنسيقاً فعالاً».

وتشير التطورات التي تناولها هذا الكتاب بالتحليل إلى وجود علاقة واضحة بين الاستقرار السياسي وحدة النزاعات الطائفية والإقليمية والعشائرية داخل الزعامة السياسية الحاكمة، فالاستقرار السياسي يضعف كلما اشتدت حدة هذه النزاعات.

«إن فترة الاستقرار الطويلة نسبياً - التي نعمت بها سورية - منذ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٧٠ يمكن أن تعزى أساساً إلى أن التحزبات الطائفية والإقليمية والعشائرية لم تضعف هذه المرة الانضباط العسكري والحزبي مثلما أضعفته في السابق. أضف إلى ذلك أن الأحداث تمخضت عن بقاء زمرة وحيدة متجانسة في الضباط العلويين، وهي تلك التي قادها حافظ الأسد، والتي أحكمت قبضتها على السلطة، واستطاعت فرض إرادتها على الآخرين، كما أظهر الفرق بين إنجازات القوات المسلحة السورية خلال حربي تشرين الأول ١٩٧٣ وحزيران ١٩٦٧ مقدار الضعف الذي تركته هذه النزاعات على الانضباط العسكري»[1].

---

(١) الصراع على السلطة في سورية، لفان دام/ ٩٨.

الإخوان المسلمون ومعركة الدستور:

عندما نشر دستور سورية الجديد في ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٣ ثارت الاحتجاجات ولا سيما في حماة، لأن هذه الوثيقة ذات الـ ١٥٦ مادة قد حذف منها الاشتراط بأن رئيس الجمهورية يجب أن يكون مسلماً. وكانت تلك قضية شغلت الرأي العام السوري، لأن الدساتير السورية منذ عام ١٩٣٠ كانت تنص على أن دين رئيس الدولة يجب أن يكون الإسلام. فتراجع الأسد بهدوء عن علمانية البعث التقليدية ليتجنب المواجهة، فأوعز إلى مجلس الشعب الحديث التكوين آنذاك أن يضيف هذه المادة. ولكنه انتهز هذه الفرصة ليعطي رأيه في الإسلام الذي قال: إنه يجب أن يكون «بعيداً عن وجه التزمت والتعصب المقيت، فالإسلام دين المحبة والتقدم والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الجميع، دين يحمي الصغير والكبير والضعيف والقوي، ودين يتمشى بتناغم مع روح العصر.

ثم طرح السؤال بعد ذلك عما إذا كان من المشروع أن يسمى (العلوي) مسلماً، ولحل هذه المعضلة لجأ الأسد إلى صديقه الزعيم الشيعي المتنفذ الإمام موسى الصدر رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان، الذي أصدر فتوى بأن العلويين حقاً طائفة من المسلمين الشيعة، وهكذا أزيح عائق ديني من طريق رئاسة الأسد. وعندما أثارت المعارضة الشعب لأنها لم تكتف بذلك وطالبت بإعلان الإسلام دين الدولة (وهذا شيء لم يكن منصوصاً عليها في دساتير سنة ١٩٣٠ و١٩٥٣ وسنة ١٩٦٤) وقف الأسد بقوة وأمن تأييداً كبيراً لدستوره في استفتاء شعبي أجري في ١٢ آذار/ مارس ١٩٧٣»[1].

لا بد لنا من سؤال ملح وهو: أين كان الحركة الاسلامية في هذه السنوات

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٢٧٩.

التي سيطر فيها النصيريون نهائياً على السلطة؟

ومن المؤسف أن نقول: إنها كانت تعاني من أزمات حادة في صفها الداخلي، وكانت مشغولة بخلافاتها الخاصة عن أن تقود الشعب وتمثل قيادة المعارضة في الأمة. ومثل هذه المهمة لا يمكن أن يتصدر لها إلا جماعة قوية موحدة ملتحمة حول قيادتها، فقد بدأت أزمتها الداخلية منذ عام ١٩٦٨، واستفحلت عام ١٩٧٠ حيث انتهت بانشقاقها إلى جماعتين منفصلتين عام ١٩٧٢. على راس إحداهما الأستاذ عصام العطار وعلى رأس الثانية الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. وذلك في شرخ كبير بين دمشق وحلب.

كان القرار الإخواني آنذاك أن يتم التحرك لمواجهة الدستور والمواد العلمانية فيه من خلال العلماء عموماً، ومن أجل هذا عقدت عدة اجتماعات بين جمعيات العلماء في كل من حمص وحماة ودمشق وحلب، ودعي في حمص إلى ندوة بين العلماء وبين السلطة حضرها ممثلاً عن السلطة المحافظ ورئيس شعبة الحزب وقادة المخابرات، حيث كان العقيد غازي كنعان مدير المخابرات في حمص، وحضرها جل علماء حمص، وأوضحوا رأيهم وطلباتهم، حيث طالبوا بأن يكون الإسلام هو المصدر الرئيسي والوحيد للتشريع، وأن يكون دين الدولة الإسلام، ودين رئيس الجمهورية الإسلام، ثم انتهوا من اللقاء إلى رفع مذكرة إلى رئيس الجمهورية يحددون طلباتهم بشكل واضح ومحدد.

جرت خطوات بعدها قلبت الأمور رأساً على عقب.

الخطوة الأولى: أقدم الشيخ سعيد حوى رحمه الله على إصدار بيان بأسماء علماء سوريا، ندد فيه بالدستور وبمواده العلمانية،وطالب صراحة بتغييرها، كما نشطت الأحاديث والخطب على المنابر تندد بالدستور وتطالب بالدستور الإسلامي الذي يمثل أكثرية الأمة.

وأقدمت أجهزة المخابرات الخبيثة على إصدار بيانات مزعومة باسم العلماء تدعو إلى خطب وندوات للعلماء تقام في المساجد دون أن يعلم العلماء بذلك.

وسخرت مجموعة رخيصة من علماء السلطان وزبانيته فأصدروا بياناً يقرون فيه الدستور، وراحوا يجوبون سورية ويطالبون بالتوقيع عليه، ورفض العلماء التوقيع عليها.

وتحت شعار إثارة الفوضى والاضطراب من العلماء، أقدمت الدولة في يوم واحد على تبييت الاعتقال والسجن لكل قيادات الإخوان المسلمين في سوريا.

ويحدّث فضيلة الشيخ محمد علي مشعل، من كبار علماء حمص كيف أنه فوجئ كغيره ببيان موزع باسمه يدعو الناس لحضور الصلاة في المسجد الكبير، وإلقاء محاضرة بعد صلاة الجمعة عن الدستور.

وفي الوقت الذي صلى فيه بغير المسجد المذكور، دعي على طعام الغداء عند مفتي حمص فضيلة الشيخ طيب الأتاسي مع المسؤولين. وفي طريق عودته من المسجد الجانبي الذي صلى فيه وهو ماض إلى بيت فضيلة المفتي أوقفته سيارة المخابرات ودعته أن يمضي معهم لدقائق ثم يعود، وعاد بعد سنتين ونصف تماماً إلى بيته، كما تم اعتقال الشيخ سعيد حوى ومحموعة من العلماء في حماة، وفي دمشق وحلب ودير الزور كان التركيز في الاعتقال على قيادات الإخوان المسلمين، الذين مكثوا مدداً متفاوتة في السجن، ولاقوا أصناف التعذيب وأنواعه، ورافق ذلك أن كشفت بعض تنظيماتهم. فازدادت الاعتقالات واكتظت السجون بالمعتقلين من الشباب، ووضعت الدولة يدها على كثير من الأشخاص والممتلكات والأملاك الخاصة بحجة حرب الرجعية والرجعيين الذين يعبثون بالأمن ويخربون الأمن في البلاد، ولم تكن هذه المرحلة إلا إيذاناً بأن الجو بين النصيريين والحركة الإسلامية هو جو عداء مستحكم، ففي الوقت

الذي أقيمت فيه الجبهة الوطنية من الأحزاب والحركات القومية حتى الحزب الشيوعي وشاركوا في الحكم، كان الحظر على أشده على دعاة الإسلام، وكان إعلان المواجهة السافرة ضد الإسلام في أن يكون شريعة الأمة، وعلى ضوء ذلك فليس أمام دعاته إلا الصمت المطبق أو السجن أو المقصلة، فهم ليسوا قطاعاً من الأمة له حق الحياة والرأي والعقيدة، والدفاع عن العقيدة إنما هم نشاز يخرج على الخط العلماني المعلن الذي يمنع الإسلام من الوجود في الحكم.

الفصل الثاني

الثمرة الرابعة لحكم النصيريين:

حرب تشرين

«كانت حرب تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣ أكبر مشروع عسكري نفذه العرب في العصر الحديث، ولكنه بدلاً من أن يحقق الآمال الزاهية العريضة التي عقدوها عليه، فقد قدر له أن يكون من الناحية السياسية كارثة وضعتهم على طريق التفكك والتمزق، وزادت من تعرضهم للضعف والعطب. وكانت بالنسبة للأسد من دواعي أقسى خيبة أمل تعرض لها. ومع ذلك فإن من المفارقات المتناقضة أنها كانت أيضاً بداية صعود أهميته الإقليمية في المنطقة»[١].

«فقد خاض الأسد الحرب لأنه كان يعتقد بأنه لا يمكن أن تكون هناك مفاوضات مرضية مع إسرائيل حتى يستعيد العرب بعض أرضهم السليبة على الأقل، كان يرى أن عملية السلام ستكون نتيجة الحرب وليست بديلاً لها»[٢].

مجريات الحرب:

«١- بدأت الحرب الساعة ١٤ر٠٠ من يوم ١٩٧٣/١٠/٦ عندما اجتاحت القوات السورية خط (آلون) في القطاعين الشمالي والأوسط. وكانت خسائر القوات المهاجمة باهظة جداً للسبب التالي:

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه/ ٣١٢.

تعتمد إسرائيل في حماية وتحصين حدودها على إقامة نقاط استناد قوية ومحصنة تحصيناً متيناً، وقد استفادت بعد حزيران ١٩٦٧ من جغرافية الجولان المزروعة بالتلال، وعندما كانت تحتاج إلى نقطة لإكمال الشبكة، ولا تجد تلاً طبيعياً تسارع إلى إقامة تل اصطناعي، وكان قوام نقطة الاستناد من سرية إلى فصيلة من كافة الأسلحة، مدفعية مضادة للطائرات ومدفعية مضادة للدبابات، أسلحة مشاة ... وكانت التلة التي تقوم عليها نقطة الاستناد محاطة بخندق وحقول ألغام. ويعتمد التكتيك الإسرائيلي على إعاقة الهجوم من ٢٤ إلى ٤٨ ساعة، مع إنزال أكبر الخسائر بالمهاجمين، وكان هذا التكتيك يمكنها من كسب الوقت الذي يتيح لها شن هجوم معاكس على قوات منهكة.

أما القوات السورية فتتبع طريقة الأنساق، حيث يقوم النسق الأول من ألوية النسق الأول بتدمير القشرة الدفاعية، ثم يقوم النسق الثاني من ألوية النسق الأول بتطهير الأرض، ثم يأتي بعدها دور الأنساق التي تطور الهجوم وتستثمره إلى أن تحقق النتائج المتوخاة من الحرب.

والتكتيك السوري يتناسب مع دفاع خطي خندقي، وليس مع نقاط استناد قوية، وإذا كانت سورية على علم بالتكتيك الإسرائيلي، فأين كانت عن رسم خطة هجومية تتناسب مع الأسلوب اليهودي في الحرب.

والذي حدث في يوم ١٠/٦ أن الألوية الأولى لم تطهر الجولان من نقاط الاستناد، وعندما جاء دور الألوية الثانية الساعة ٢٣.٠٠ كانت معظم نقاط الاستناد ما زالت تقصف القوات المهاجمة بغزارة وعنف.

وفي الوقت نفسه قامت بعض القوات بالتوغل في عمق الجولان، وبالقرب من بحيرة طبريا وجدت نفسها محاطة بالعدو من كل جهة، وانقطع عنها التموين وكل ارتباط بالقيادة، وهكذا تمكن العدو من تدمير وإبادة معظم هذه الوحدات.

وجملة القول: كانت خسائر الجيش السوري في اليوم الأول من الحرب ما يقارب ٦٠٪ من الدبابات والعتاد.

٢-زجت القيادة في ١٠/٧ ببعض ألوية الاحتياط، وقامت هذه الألوية مع التشكيلات الأخرى باحتلال مسافة ٤كم في القطاع الشمالي و١٢كم في القطاع الأوسط.

أما جبل الشيخ فقد تم احتلاله في اليوم الأول من الحرب، وكان وضع القوات السورية داخل الأرض المحتلة في غاية السوء. فالقوات الإسرائيلية نجحت في استدراج بعض الكتائب المدرعة إلى مناطق معدة مسبقاً لإبادة المدرعات، وأوقعت بها خسائر فادحة وغابت القيادة العتيدة عن ساحة الحرب.

٣-ركّز اليهود في هجومهم المعاكس على القطاع الشمالي بسبب الدور الخياني الذي قام به المقدم الدرزي رفيق حلاوة، وتفاهة معظم قيادة القطاع، ومن أشهرهم علي زيود وتوفيق جلول، ولهذا سهل على القوات الإسرائيلية استرداد جبل الشيخ وطرد القوات السورية من الأراضي التي احتلتها في يومي ٦ و١٠/٧، وتم لإسرائيل احتلال ٢٠كم في عرض ٢٣ كم على طول القطاع الشمالي، ومنها ٤كم كانت سورية قد احتلتها في بداية الحرب، وهذا الذي أسمته حكومة النصيريين «جيب».

٤-(خيانة واضحة): قامت القوات العراقية فور وصولها بعدة هجمات معاكسة، وتمكنت من طرد الإسرائيليين من تل عنتر حتى أم باطنة، وطلبت من القوات السورية التسمك بهذه المنطقة لأن القوات العراقية من سلاح المدرعات، ولا بد من قوات مشاة لاحتلال الأرض والتمسك بها. ولكن القيادة العسكرية السورية تجاهلت الطلب العراقي، ولم تتسلم مواقعها الأراضي المحررة، فما هو السر في ذلك؟

-قام لواء جبلي عراقي بمهمة إنزال على جبل الشيخ، وشن هجوماً معاكساً كبيراً، وأسفر الهجوم عن دحر القوات الإسرائيلية وتحرير الجبل، وأخذت القيادة تختلق الأعذار وتسوّف إلى أن أذيعت موافقة إسرائيل وسورية على وقف إطلاق النار، وعادت القوات الإسرائيلية إلى مواقعها في جبل الشيخ.

وبعد وقف إطلاق النار كانت القوات الإسرائيلية قد أصبحت فعلاً على مشارف دمشق، وسيطرت على تسع وثلاثين قرية، وهزم الجيش السوري هزيمة نكراء، وأصبح معظم أفراد القوات المسلحة يعتقدون أن إسرائيل لا تقهر، وهذا الذي خطط له حافظ أسد وأراده»[١].

«في ليلة ٢٢-٢٣ تشرين الأول/ اكتوبر أرسلت إسرائيل قوة كوماندوس محمولة بطائرات هيليكوبتر تدعمها المقاتلات والمدفعية والمشاة فاجتاحت الموقع الحصين، كانت تلك واحدة من أعنف معارك الحرب التي تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة، وكان واضحاً أن إسرائيل كانت لا تعتقد بأن قبولها لوقف إطلاق النار يمنعها من العمل على الجبهة السورية، وهو رأي لم يكن بلا تبرير تماماً ما دامت سوريا لم تعلن بعد قبولها بوقف القتال»[٢].

«وأخيراً استدعى الأسد كبار ضباطه، وأجمعوا على قبول وقف إطلاق النار في وقت متأخر من يوم ١٠/٢٣، ولكن في إشارة أخيرة للتحدي أوضحت سورية في رسالتها للأمين العام للأمم المتحدة أنها تقبل القرار ٣٣٨ لأنها تفهمه على أنه يطالب بالانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي المحتلة، وبضمان الحقوق الفلسطينية، وهذا في الواقع هو التفسير العربي للقرار ٢٤٢»[٣].

---

(١) الصراع العربي الاسرائيلي / ج١، لمحمد عبدالغني النواوي.

(٢) الأسد، لباتريك سيل/ ٣٥٩.

(٣) المصدر نفسه/ ٣٦١.

اتفاق فصل القوات:

قبل الانتقال إلى عام ٧٣ لا بد أن نتحدث عن البعث وقرار مجلس الأمن، وقبل الحديث عن قرار مجلس الأمن نضع المفاهيم الوطنية التالية التي كان البعث يزن بها الأشخاص والهيئات:

أولاً: الشيوعيون خونة، وسر خيانتهم أنهم وافقوا على قرار التقسيم عام ثمانية وأربعين، وكل من قبل بالتقسيم فهو خائن.

ثانياً: الحبيب أبو رقيبة رئيس جمهورية تونس لقّب بالخائن الأكبر لأنه دعا إلى المفاوضات والصلح مع العدو.

ثالثاً: بعد حرب حزيران اجتمع مؤتمر القمة العربي في الخرطوم، وقرر اللاءات الثلاث: لا مفاوضات، لا صلح، لا اعتراف. ومن يخرج عن هذه اللاءات فهو خائن.

وبهذه الموازين وبهذه القيم، فالبعث العربي (النصيري) أكبر خائن، أو الخائن الأكبر لأنه فعل ما فعل الخونة مجتمعين، ولو كان هناك لفظ أكبر من الخائن الأكبر في اللغة للبسه هذا الحزب الثوري التقدمي القومي والطائفي، ولنر كيف فعل ذلك كله:

لقد قبل حزب البعث الاشتراكي السوري ممثلاً بقيادته القومية والقطرية في عهد أسد وجهاز الحكم قرار مجلس الأمن ٢٤٢، فماذا ينص القرار:

«إن مجلس الأمن يعرب عن استمرار قلقه للوضع الخطير في الشرق الأوسط، ويؤكد أنه لا يجوز كسب الأراضي بالحرب، والحاجة إلى العمل من أجل سلام عادل ودائم، ثم تستطيع منه كل دولة في المنطقة أن تعيش بأمن. ويؤكد كذلك أن كل الدول الأعضاء قد التزمت بموافقتها على ميثاق الأمم المتحدة بالعمل وفق المادة الثانية من الميثاق.

١-يؤكد أن تنفيذ مبادئ الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط، وأنه يشتمل على تنفيذ المبدأين التاليين:

أ) انسحاب القوات الإسرائيلية المسلحة من الأراضي التي احتلت في القتال الأخير.

ب) إنهاء كل حالات الحرب واحترام السيادة ووحدة الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة، والاعتراف بها، بالإضافة إلى حقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها دون تهديد باستخدام القوة.

٢-ويؤكد أيضاً على ضرورة:

أ) ضمان حرية الملاحة عبر الممرات المائية الدولية في المنطقة.

ب) إحلال تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

ج) ضمان عدم انتهاك الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة، عن طريق إجراءات بما فيها إقامة منطقة منزوعة السلاح.

٣-يطلب إلى السكرتير العام تعيين ممثل خاص للذهاب إلى الشرق الأوسط من أجل إقامة اتصالات بالدول المعنية، والإبقاء على هذه الاتصالات من أجل السعي إلى اتفاق، ومساعدة الجهود الرامية إلى تحقيق تسوية سلمية ومقبولة في نصوص ومبادئ هذا القرار.

٤-يطلب إلى السكرتير العام تقديم تقرير إلى مجلس الأمن بصدد جهود الممثل الشخصي بالسرعة الممكنة.

صدر في تشرين الثاني عام ١٩٦٧»[1]

لقد كان حزب البعث يقوم بمظاهرات صاخبة ضد وعد بلفور الصادر في

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية، ٦ نوفمبر ١٩٧٣، العدد ١٧٤/ ١١ شوال ١٣٩٣.

تشرين الثاني كذلك، لأن بلفور البريطاني وعد بإقامة وطن لليهود في فلسطين، فما بالهم نكسوا رؤوسهم سمعاً وطاعة أمام كارادون - البريطاني - الذي أعطى اليهود دولة واعترافاً وحدوداً آمنة؟

أين اللاءات الثلاثة في الخرطوم؟

لقد كان قرار التقسيم خيراً أكثر بكثير من قرار مجلس الأمن ٢٤٢.

وهذه الثانية.

ثم ماذا عن المفاوضات والاعتراف بعد حرب أكتوبر التحريرية، كما يسمونها والتي ملأوا الدنيا بها ضجيجاً وافتخاراً؟

ماذا بعد الانتصار الساحق الماحق؟

بعده قرار فك الارتباط - كما سموه - وهو قرار وضع نير الذل في العنق. فقد سكتت مدافع الجولان بعد حرب دامت ٨١ يوماً، ونجح الأفعى كيسنجر في مسرحيته التي استمر عرضها شهراً كاملاً، وجعلته حديث الدنيا.

وجلس الوفد السوري تجاه الوفد الإسرائيلي في مفاوضات رسمية في جنيف، وهذا هو النص الرسمي لاتفاق الفصل نقلاً عن الصحف السورية:

«أ) ستراعي إسرائيل وسورية مراعاة دقيقة وقف إطلاق النار في البر والبحر والجو، وتمتنعان عن كل الأعمال العسكرية ضد بعضهما بعضاً منذ توقيع هذه الوثيقة تطبيقاً لقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ذي الرقم ٣٣٨ المؤرخ في ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣.

١-تكون كل القوات العسكرية الإسرائيلية غربي الخط المسمى (أ) على الخارطة المرفقة بهذه الاتفاقية باستثناء منطقة القنيطرة حيث تكون غربي الخط (أ-١).

٢-تكون كل الأرض شرقي الخط (أ) تحت الإدارة السورية ويعود المدنيون

السوريون إلى هذه الأرض.

٣-تكون المنطقة بين الخط (أ) والخط (ب) على الخارطة المرفقة منطقة فصل، وترابط في هذه المنطقة فئة مراقبي فصل القوات التابعة للأمم المتحدة المنشأة وفقاً للبروتوكول المرفق.

٤-تكون كل القوات العسكرية السورية شرقي الخط المسمى (ب) على الخارطة المرفقة.

٥-تكون هناك منطقتان متساويتان لتحديد الأسلحة والقوات، واحدة غربي الخط (أ) وواحدة شرقي الخط (ب) حسبما اتفق عليهما.

٦-يسمح لسلاحي جو الجانبين بالعمل على خط كل واحد منهما بدون تدخل من الجانب الآخر.

ج) لن تتواجد قوات عسكرية في المنطقة بين الخط (أ) والخط (أ-١) على الخارطة المرفقة.

د) يتم توقيع هذه الاتفاقية والخارطة المرفقة من قبل الممثلين العسكريين لإسرائيل وسورية في جنيف في موعد لا يتعدى ٢١ مايو ١٩٧٤ في مجموعة العمل العسكرية المصرية - الإسرائيلية لمؤتمر جنيف للسلام تحت رعاية الأمم المتحدة بعد أن يكون قد انضم إلى هذه المجموعة ممثل عسكري سوري، وباشتراك ممثلين للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

وسيوضح الرسم الدقيق للخطوط على خارطة مفصلة، وستوضع خطة لتنفيذ فصل القوات من قبل الممثلين العسكريين لإسرائيل وسورية في مجموعة العمل العسكرية المصرية - الإسرائيلية الذين سيتفقون على مراحل هذه العملية، وتبدأ مجموعة العمل العسكرية الموصوفة أعلاه عملها لهذا الغاية في جنيف تحت رعاية الأمم المتحدة في غضون ٢٤ ساعة بعد توقيع هذه الاتفاقية، وتنتهي هذه

المهمة في غضون خمسة أيام، ويبدأ الفصل في غضون ٢٤ ساعة بعد إتمام مهمة مجموعة العمل العسكرية، وتكتمل عملية الفصل في مدى لا يتجاوز عشرين يوماً من بدئها.

هـ) المواد (أ) و(ب) و(ج) سيشرف على تنفيذها موظفون من منظمة الأمم المتحدة يشكلون قوة مراقبي الفصل بين القوات التابعة للأمم المتحدة وفقاً لهذا الاتفاق.

و) خلال الأربع والعشرين ساعة التالية لتوقيع هذا الاتفاق في جنيف يتم تبادل جميع أسرى الحرب الجرحى المحتجزين لدى كل من الطرفين تحت إشراف اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وفي اليوم التالي لانتهاء مجموعة العمل العسكرية يسلم جميع أسرى الحرب الباقون.

ز) تسلم جثث الجنود القتلى التي يحتفظ بها كل من الطرفين بحيث يمكن دفنها في وطنها، وذلك بعد عشرة أيام من توقيع الاتفاق.

ح) هذا الاتفاق ليس اتفاق صلح لكنه يعد خطوة نحو سلام عادل دائم وفقاً لقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ الصادر في ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣»[١].

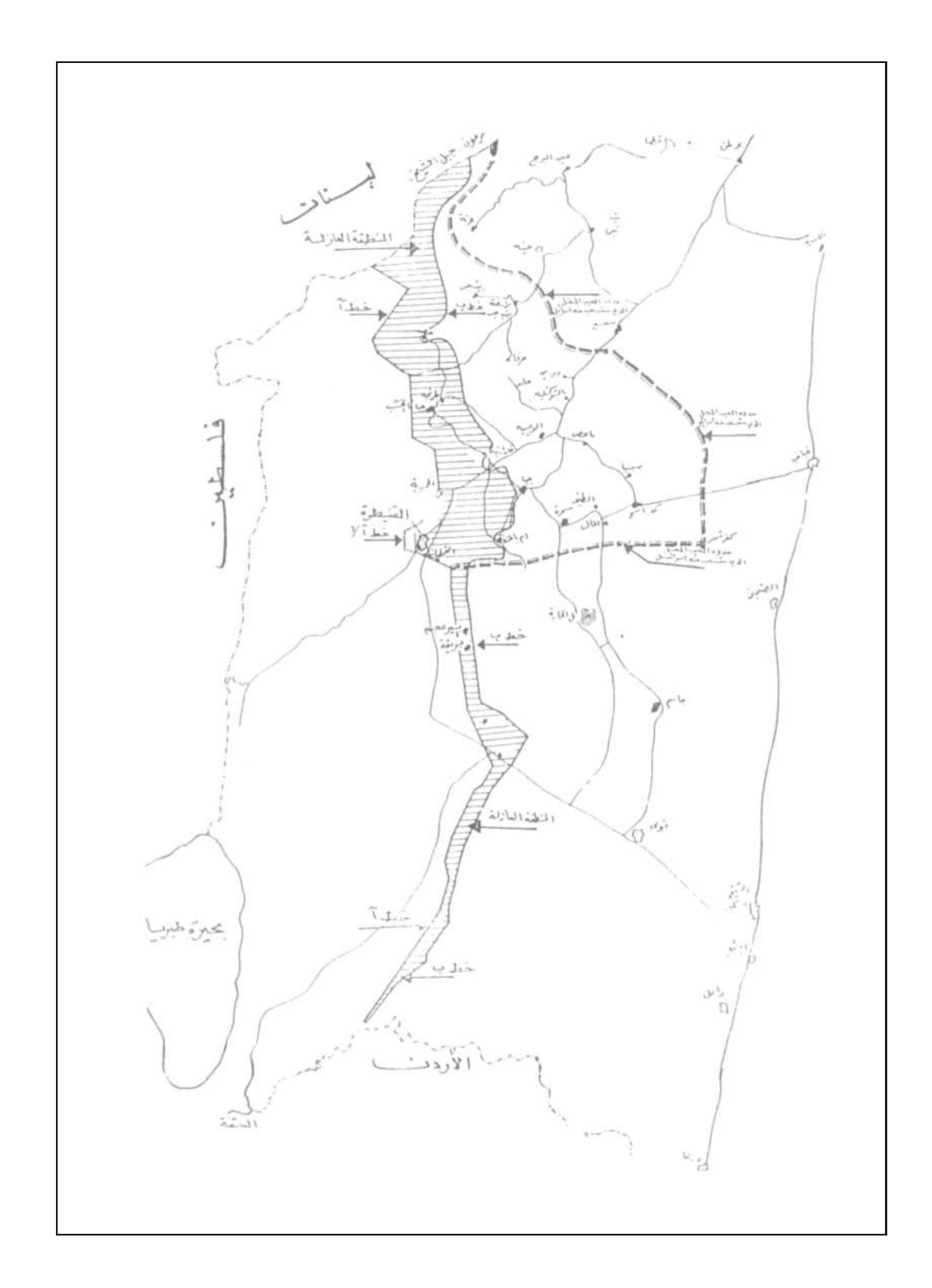
وإذا دققنا في الاتفاق والخارطة نلاحظ الأمور التالية:

أولاً: لقد كان الصراع أشد ما يكون على مرتفعات الجولان، وفيها أريقت الدماء وقتل الألوف وتمت اشتباكات بالسلاح الأبيض، فأين بقية مرتفعات الجولان بعد فك الارتباط؟

لقد كانت المرتفعات الثلاثة اثنتان منها بيد قوات الأمم المتحدة، وواحدة من هذه الثلاث بقيت بيد إسرائيل، وبقيت دمشق تحت رحمة المدفعية الإسرائيلية.

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية، العدد ٢٠٣، الثلاثاء ٤ جمادى الأولى ١٣٩٤، ٤ حزيران/ يونيو ١٩٧٤.



خارطة اتفاقية فصل القوات

ثانياً: مدينة القنيطرة من جميع جهاتها محاطة بالأرض الإسرائيلية، وبالتالي تحت حمايتها، كما أن مدينة القنيطرة لا يقيم بها إلا السكان المدنيون. وليس فيها قوات عسكرية سورية.

ثالثاً: المنطقة غرب (أ) والتي هي لإسرائيل حسب الاتفاقية تقيم فيها القوات العسكرية الإسرائيلية، أما شرقي (أ) فتحت الإدارة السورية فقط، ولا يجوز تواجد العسكريين، إذ القوات العسكرية السورية شرقي الخط (ب) وليست شرقي الخط (أ).

رابعاً: لقد كان العسكريون السوريون يحسون بالذل من بنود هذه الاتفاقية، ومن أجل ذلك فقد طلب العميد عدنان طيارة - رئيس الفريق السوري إخراج جميع المصورين والمراسلين من مقر الأمم المتحدة أثناء التوقيع، وتم له ما أراد، فهو يحس بأنه يوقع وثيقة ذل وخيانة.

خامساً: بينما كانت إسرائيل في فرحة غامرة بهذه الاتفاقية، «فبعد إعلان الاتفاق راح كيسنجر ومائير يتبادلون القبلات، وقوبل كيسنجر في المطار بتصفيق حاد للغاية، وفوجئ الصحفيون بجو ودي ودع به الوفد الأمريكي شاركت فيه حتى ابنة إيبان (وزير الخارجية)، وبعد مرور نصف ساعة على توقيع فصل القوات السورية الإسرائيلية في جنيف، وصمت المدافع السورية، خرج اليهود من الملاجئ الحصينة التي اعتادوا قضاء معظم أوقاتهم في داخلها منذ أن بدأت معارك الجولان وجبل الشيخ، وذكرت وكالة الأنباء الفرنسية أن القيادة العسكرية الإسرائيلية أصدرت أوامرها بفتح زجاجات الويسكي والشمبانيا مجاناً لجميع الجنود على طول خطوط المواجهة مع سورية.

سادساً: أما حزب البعث (النصيري) فقد وافق بالإجامع على الاتفاقية، وقالت صحيفة البعث السورية: إن القيادة السورية تمكنت من انتزاع مكاسب

حقيقية في ظروف حرجة، وعلّقت الإذاعة بأن الاتفاق انتصار لسورية على إسرائيل، وكل شيء عند سورية انتصار.

فلقد انتصرت في حرب حزيران رغم انسلاخ ١٠٠٠٠ آلاف كم٢ من أراضيها طالما أن البعث لم يسقط. وانتصرت في حرب أكتوبر كما تسميها لأنها خسرت تسعاً وثلاثين قرية جديدة. وانتصرت في فك الارتباط لأنها وقعت وثيقة الخيانة بالتنازل عن مرتفعات الجولان، إضافة إلى الاعتراف بإسرائيل والتفاوض معها، وخطت خطوة على طريق الصلح مع العدو»[١].

وعن الموقف من تسلل الفدائيين يقول الأستاذ النواوي:

«لم تنص الاتفاقية على موقف سورية من الفدائيين، إلا أن مسؤولاً أمريكياً من مرافقي كيسنجر أصر على عدم ذكر اسمه قال: إن الطرفين الإسرائيلي والسوري قد اتفقا على حل وسط لمسألة وقف تسلل الفدائيين إلى إسرائيل إلا أن التفاصيل ستظل سرية».

وأكدت الصحف الإسرائيلية أنه تم التوصل إلى حل لمشكلة عمليات التسلل التي يقوم بها الفدائيون إلى الأراضي التي تحتلها إسرائيل عبر الخطوط السورية، وقالت الصحف، إن الزعماء السوريين أخبروا وزير خارجية الولايات المتحدة كيسنجر بأنهم سيعارضون عمليات تسلل الفدائيين من أراضيهم، لكنهم لا يستطيعون أن يعلنوا هذه المعارضة أو ينصوا عليها في اتفاق الفصل .

وألزمت الاتفاقية سورية بالامتناع عن أية عمليات عسكرية ضد العدو، ومرابطة قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة لمراقبة خط فك الارتباط.

---

(١) أخذ هذا الفصل كله "اتفاق فصل القوات" من كتاب: (الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام) للمؤلف، ص ١٠٦ - ١١٣.

وقبل نظام أسد بوجود منطقة مجردة ومنزوعة السلام عمقها ١٥كم شمال القنيطرة، ويحرم على العسكريين السوريين دخول هذه المنطقة .

وما زالت قوات الطوارئ الدولية ترابط في الجولان، ويمدد لها تلقائياً كل ستة أشهر . وفي معظم الحالات تطلب سورية من الأمم المتحدة تمديد مدة هذه القوات»[١] .

وأما حول إطلاق سراح الجواسيس اليهود، ودون أن يطلق سراح الإخوان المسلمين المعتقلين من أجل أحداث الدستور فيشير النواوي بقوله:

«ويبدو أن هناك مفاوضات سرية جرت بين أسد والكيان الصهيوني قبل أن تبدأ وساطة كيسنجر، ودليلنا على ذلك المرسوم رقم ٣٨٥ الذي أصدره الحاكم النصيري بتاريخ ١٩٧٤/٢/٢٥، وبموجبه تم إطلاق مجموعة من الجواسيس الذين كانوا يعملون لحساب العدو في أرضنا المحتلة، وكان قد تم اعتقالهم في سنة ١٩٥٩، أي قبل أن يبتلي الله أمتنا بطغيان أسد.

مرسوم رقم ٣٨٥:

بناءً على أحكام قانون العقوبات وأصول المحاكمات الجزائية، وعلى المرسوم التشريعي ٤٣ بتاريخ ١٩٧١/٩/١، وعلى الأحكام المكتسبة قوة القضية المقضية الصادرة عن المحكمة العسكرية بدمشق بالأرقام ١١٥٤/١١٣٢ بتاريخ ٢٩/أظ ١٩٥١ و١٠١١/٦٩ لعام ١٩٥٢ و٢١٤/٢ تاريخ ١٩٥٥/١٢/٢١ و١٩/١٨ تاريخ ٩٥٩/١٠/١٢ و١١/١١ تاريخ ١٩٦٠/١٢/١٠ والمتضمن الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة بعد الدغم والتبديل على ثلاثة وعشرين مجرماً لارتكابهم جرم العمل لصالح المخابرات الإسرائيلية ومدها بالمعلومات، وذهاب البعض منهم

(١) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي / ٤٥٧-٤٥٨.

إلى إسرائيل، والاتصال بالمسؤولين فيها، وتناول المال من إسرائيل لقاء عمليات التجسس يرسم بما يلي:

المادة ١- يمنح المحكومون المذكورون عفواً خاصاً عن المدة المتبقية المحكومين بها من قبل المحكمة العسكرية بقراراتها رقم ١١٥٤/١١٣٢، ٢٠/٢١٤، ١/٩، ١٩/١٨، ٤٢٢/١٠، ١١/١١ .

المادة ٢- لا ينشر هذا المرسوم ويبلغ من يلزم لتنفيذه .

نسخة إلى المحامي العام . دمشق

الرقم ٢٢٠٤

رئيس الجمهورية حافظ الأسد

وزير العدل: محمد أديب النحوي

١٩٧٤/٢/٢٥

انظر إلى المادة الثانية من المرسوم التي تنص على عدم جواز نشره، ولهذا فهو لم يصلنا عن طريق أجهزة إعلام أسد لأنه سري، ونشره يعني فضح تناقضات النظام وازدواجيته . وكيف يمارس في الخفاء سياسة تختلف تماماً عن السياسة التي تنعق بها وسائل إعلامه .

والأكثر عجباً أن نظام أسد سمح للمسجونين بالسفر والإقامة في فلسطين المحتلة بعد أن تم الافراج عنهم مع أنهم مواطنون سوريون، وإن كان معظمهم من الطائفة اليهودية المقيمة في سوريا، وكأن أسد في عمله هذا يبيح عملية التجسس لإسرائيل، ويعطف على الذين يزاولون هذه المهنة، ويعتذر لهم عما فعلته الحكومات السابقة بحقهم لأنها ليست بعثية ثورية، أو نصيرية تقدمية . وفي الوقت الذي كان أسد يصدر القرارات بالإفراج عن الجواسيس والأسرى اليهود،

كانت قلوب زبانيته أشد قسوة من الحجارة في معاملة الدعاة والعلماء المعتقلين، لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويدعون إلى الله، أليس في هذا دليل على أن اليهود أقرب إلى أسد وطائفته من الإسلام والمسلمين ؟! »[1] .

(١) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي، الدويلات الطائفية، لمحمد عبدالغني النواوي / ٤٥٩-٤٦١ .

الفصل الثالث

الثمرة الخامسة

الحلف النصيري - النصراني - اليهودي ضد المقاومة الفلسطينية في لبنان

أهداف غزو لبنان:

الكلام لجنبلاط قائد القوات الوطنية اللبنانية، والذي كان الصديق الحميم للأسد:

«لكي نفهم مخاتلة دمشق وتعرجاتها، لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار مطامح القادة السوريين الشخصية، وأهداف الرئيس حافظ الأسد السياسية، ومشروعه حول سوريا الكبرى . فعبد أن وقعت مصر اتفاق سيناء، شعرت سورية بعزلة شديدة .

وفي الداخل أيضاً كان النظام يعاني بعض الصعوبات، فخلال الانتخابات عام ١٩٧٥ المحلية والمناطقية لم يتوجه إلى صناديق الاقتراع سوى ١٥٪ من الناخبين على الرغم من تمديد فترة الاقتراع مدة يومين، ومن أجل الحصول على اتفاق بشأن الجولان، فإن دمشق اضطرت الى (اصطناع التأمرك) والتقارب مع الولايات المتحدة في الوقت نفسه الذي ظلت تدعي فيه عدم التخلي عن السوفييت . وفيما خلا ذلك فإن الاقتصاد السوري لم يكن مزدهراً ..

وكان من المهم بالنسبة إلى سورية، ونتيجة للاحباط الذي تستشعره، أن تظهر أمام فرنسا وأوربا والولايات المتحدة بمظهر الرئيس المطاع المسموع الكلمة في هذا الجزء من العالم، ومن خلال هذه الروح بدت لها حماية الموارنة كمدخل حسن، من أجل إقامة أفضل العلاقات مع الغرب . وهكذا فإن لبنان لم يعد سوى ورقة الرهان السورية الرئيسية من أجل استعادة مرتفعات الجولان، غير أن

الأمريكيين والإسرائيليين لعبوا بمهارة فائقة مراهنين على مطامح سورية، وعلى طابع دبلوماسيتها النفعي المعقد الغامض والعنيد، بغرض زجّها في طريق التدخل وفي التردي في «المستنقع» وفقاً للتعبير الممتاز الذي أطلقه الوزير خدام ..»[1].

«فقد عارض الأمريكيون والإسرائيليون في بادئ الأمر الاحتلال المباشر للبنان، غير أنهم عادوا بعد ذلك حين عرفوا بطموح النظام السوري، وعزمه على الخلاص من استقلالية منظمة التحرير الفلسطينية واليسار اللبناني، وشجعوا المغامرة العسكرية. فكان على عرفات، وعلينا أيضاً أن ندافع عن أنفسنا، وفوق ذلك فإن سوريا كانت تدار من الأطراف التي كانت ترى في التلاحم الفلسطيني اللبناني العملي، وفي هذا التعاون بين الثورة الفلسطينية، والحركة الوطنية اللبنانية خطراً يهددها بالامتداد، وزواجاً سيئاً لا بد من فصم عراه مهما كان الثمن»[2] ..

«ولا بد هنا من الاعتراف بأن قادة دمشق أظهروا تسامحاً يكاد يكون لا تمويه فيه إزاء المجازر التي ارتكبها الموارنة، وكان العذر التي تذرعوا فيه هو أنهم يحاولون كسب تأييد هؤلاء للقضية العربية، في حين أن الحق هو أن التدخل العسكري السوري كان يهدف إلى إخماد الفلسطينيين، وحركتنا الوطنية، واليسار اللبناني .

وهكذا فإن القادة السوريين لم يكتفوا بمحاولة إغراء الموارنة عبر حماية طالما كان هؤلاء حساسين إزاءها (وأكثر حساسية بالطبع مما لو كان الحامي دولة كاثوليكية غربية) بل إنهم قرروا قمع الحركة السياسية المعادية لأهداف هؤلاء.. ولا ريب أن المحافظة على الكيان الماروني كرديف للكيان السوري الحالي...

---

(١) هذه وصيتي لـ: كمال جنبلاط، ص ٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ص/٩٤ .

ولا ننسى من الجهة الأخرى ذلك النوع من الجشع الدمشقي الذي كان يثير الكثير من الحسد حيال أولئك اللبنانيين الذين يتمتعون بموهبة الإثراء . فمثل هذه العقدة تفسر كيف أن كثيراً من الأشياء نهبت من بيروت قبل دخول القوات السورية، لترسل إلى دمشق عبر قوات الصاعقة وشركاها . وأخيراً فإني أدع لسواي مهمة رواية ملحمة السرقات والنهب المنظم للمصارف فيها»[1] .

«ولم يكن لدينا ما نعارض به هذا التحالف المقدس بين السوريين والمارونية الاستبدادية إلا إرادتنا وعزم شعبنا الثابت الشريف، إذ لا يجوز الانحناء دائماً أمام العاصفة المؤذنة بالهبوب.. ولقد ذهب السوريون عبر معارضتهم للحركة الوطنية اللبنانية والرؤساء الوطنيين المسيحيين والأهالي المسلمين في إنجاز تحررهم الشعبي، وعبر شنهم حملة المواجهة مع منظمة التحرير الفلسطينية إلى أبعد مما ذهبت إليه مصر بكثير في تطبيق سياسة الاحتواء الأمريكية . ثم إن تدخل سورية العسكري لم يكن بالشيء الذي يقبله تصورنا منذ سنتين نظراً لمخالفته لخط سورية السياسي التقليدي ... ذلك بأن السوريين وقد اصطدموا بعناد الإسرائيليين ورفضهم إرجاع متر واحد من الجولان، أو من المرتفعات الشهيرة التي تشكل حجر الزاوية في الدفاع السوري، والتي تطالب بها الدبلوماسية السورية بضجيج وعجيج شديدين، فإنهم نكصوا على أعقابهم وراحوا يطالبون بتسوية شاملة تشمل المسألة الفلسطينية .

وثمة عامل شخصي آخر، فالقادة السوريون الحاليون طالما شعروا إزاء ياسر عرفات بنفور عميق ما كانوا يحسنون تمويهه . ففي سنة ١٩٦٧ أي في العام الذي كان فيه حافظ الأسد وزيراً للدفاع الوطني، وفي اللحظة التي كانت المقاومة

---

(١) هذه وصيتي لـ: كمال جنبلاط، مقتطفات / ١٠٠-١٠٥ .

الفلسطينية في أول انطلاقتها، وفي الحين الذي كان يتأكد فيه استقلال هذه الحركة الجديدة إزاء مختلف البلدان العربية، أُلقي القبض على ياسر عرفات وعدد من رفاقه في سورية، ثم أودعوا السجن قرب الحدود مع إسرائيل . أفكان ذلك إجراء وقائياً ووسيلة لتلافي ردود الفعل الإسرائيلية على «الإرهاب» الفلسطيني؟!..

ثم إن الأوساط الدمشقية تعتبر أن على الثورة الفلسطينية أن تسير ويدها في يد السلطة السورية، وأنه ينبغي أن تتمثل بالسلطة السورية، وحصيلة الكلام هو أنهم لا يريدون أن ينسوا -كائناً ما كانت الظروف- أزمنة ما قبل تجزئة عام ١٩١٩ أي عندما لم يكن اللبنانيون والفلسطينيون والأردنيون والسوريون لا يشكلون إلا شعباً واحداً هو شعب سورية التاريخية بحدودها الطبيعية الممتدة من طوروس إلى سيناء . لا بل إن الرئيس الأسد أكد ذلك بوضوح لياسر عرفات منذ مدة غير بعيدة وفي حوالي شهر نيسان/أبريل من عام ١٩٧٦م حين قال له: «إنكم لا تمثلون فلسطين بأكثر مما نمثلها نحن، ولا تنسوا أمراً أنه ليس هناك شعب فلسطيني، وليس هناك كيان فلسطيني بل سورية، وأنتم جزء لا يتجزأ من الشعب السوري، وفلسطين جزء لا يتجزأ من سورية، وإذن فإننا نحن المسؤولون السوريون والممثلون الحقيقيون للشعب الفلسطيني» [١].

إن حافظ أسد لا يريد أن يقيم دولة نصيرية في جبال اللاذقية وانتهى الأمر كما يحلو لبعض السذج أن يفهموه، ولكنه يريد هذه الدولة النصيرية على حدود سورية الطبيعية، وهو يقبل اليهود حلفاء له، أما الفلسطينيون فهم أتباع له لا قرار لهم ولا رأي، وهو يقرر مصيرهم، وهو لإنقاذ حلفائه النصارى ضحى بالمسلمين

---

(١) هذه وصيتي لـ: كمال جنبلاط / ١٠٥ .

اللبنـانيين والفلسـطينيين لينقـذ الكتائـب مـن الهزيمـة السـاحقة، ومـن الوجـود الفلسطيني، والوجود الإسلامي اللبناني .

والتعليل الخبيث الذي تعلل به كما قاله لجنبلاط الزعيم الدرزي اللبناني:

«أصغ إلي، إنها مناسبة تاريخية بالنسبة لي لتوجيه الموارنة صوب سوريا وكسـب ثقـتهم وإقنـاعهم أن حـاميهم لـيس فرنسـا ولـيس الغـرب، وينبغـي أن نساعدهم على عدم طلب المعونة من الأجنبي . ولهذا فإني لا أستطيع القبول بانتصارك على المعسكر المسيحي في لبنان، فمن شأن ذلك أن يخلق شعوراً بالغم والغيظ لديهم... لقد كانت وفق ما ذكره لنا «مناسبة تاريخية» وضحى بنا، فكنا خروف أضحية الفصح والقربان الضروري لإتمام هذا «اللقاء» وحدوث هذا «التحالف»، ويبقى علينا أن نحتفل بالفصح»[1].

أمريكا وإسرائيل تؤيدان الاحتلال:

«ما كانت إسرائيل لتسمح لسورية باحتلال شبر واحد من الأراضي اللبنانية إذا كان هذا الاحتلال يهدد مصالحها أو مصالح حلفائها الموارنة، بل وما كانت إسـرائيل لتقبـل دخـول الجـيش السـوري إلـى لبنـان دون إبـرام معاهـدة مع حـزب البعث النصيري .

صرح شمعون بيريز وزير دفاع إسرائيل لصحيفة معاريف يوم ١٩٧٦/١/٨ بأن إسرائيل لن تبقى مكتوفة الأيدي في حال حدوث أي تدخل سوري في لبنان، ولا غرابة في تصريح بيريز، لأن حدود فلسطين المحتلة مع سورية كانت مصدر قلق لليهود منذ سنة ١٩٤٨، فكيف يسمحون للجيش السوري باحتلال لبنان ومجاورة

(١) المصدر نفسه / ١٠٨-١٠٩ .

القوات الإسرائيلية في جنوبي لبنان ؟! ومن الجدير بالذكر أن تصريح بيريز كان قبل دخول القوات السورية إلى لبنان بعشرة أيام.. وخلال هذه الأيام جاء دور الوساطة الأمريكية، ولا سيما بعد أن قنع الرئيس فورد بحسن نوايا نظام أسد، ففي ١٩٧٦/١/٢١ نقلت وكالات الأنباء عن ناطق رسمي باسم البيت الأبيض ما يلي: «إن الرئيس فورد تخلى عن معارضته لتدخل عسكري خارجي في لبنان. وإن الولايات المتحدة كان من الضروري عليها أن تأخذ بعين الاعتبار طبيعة مآرب سوريا ونواياها» .

وفي ١٩٧٦/١/٢٩ نقلت وكالات الأنباء (ومنها وكالة الأنباء الفرنسية) عن متحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية ما يلي: «إن الولايات المتحدة تعترف بأهمية الدور الذي تقوم به سورية بالنسبة لتسوية الأزمة اللبنانية» . واعترفت الولايات المتحدة بأنها قامت بدور الوساطة بين أسد والنظام الإسرائيلي:

نقلت وكالة اليونايتدبرس من واشنطن يوم ١٩٧٦/١/٢٧ ما يلي: إن وزارة الخارجية الأمريكية أكدت بأنها تقوم بنقل الرسائل من الكيان الصهيوني إلى سورية، حول الوضع في الجنوب اللبناني. وقال فردريك براون المتحدث باسم الوزارة في تصريح للصحفيين: إننا على اتصال مع حكومات سورية وإسرائيل ولبنان، وإننا نراقب الوضع عن كثب« . واعترفت الصحف الإسرائيلية بأن اتصالات من هذا النوع قد جرت . وأوضحت أن سورية أكدت لمسؤولين أمريكيين أن وجود قواتها في الجنوب إنما يستهدف المقاومة واليساريين اللبنانيين».

قام وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام بزيارة للبيت الأبيض، كما قام عدد من المسؤولين الأمريكيين بزيارة دمشق، وأسفر عن هذه المقابلات اجتماع حافظ أسد بالرئيس الأمريكي الجديد جيمي كارتر في جنيف بسويسرا من ٨ إلى

١١ أيار ١٩٧٧، وكان هذا اللقاء ضرورياً، فأسد يريد أن يطمئن إلى أن التعاون مع الولايات المتحدة سيستمر في عهد كارتر، وكارتر يريد أن يرى أسد عن كثب، ويؤكد له أن تغيير الرئيس الأمريكي لا يؤثر على سياسة الولايات المتحدة الخارجية، ولأسد مكانة كبيرة عند الزعماء الأمريكيين، ومن الأدلة على ذلك نزول كارتر عند رغبة أسد في أن يكون الاجتماع في جنيف وليس في واشنطن .

وفي نهاية الاجتماع لم يصدر عن الزعيمين بيان يفصل طبيعة المحادثات التي جرت بينهما، وإنما صدرت تصريحات عامة لا تعبر عن حقيقة ما تم في اللقاءات المغلقة بين كارتر وأسد، لكن مجلة الشرق الأوسط كشفت جانباً من هذا اللقاء، فقد جاء في تعليق لها:

إن عملية إخضاع الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية في لبنان كانت جزءاً من إستراتيجية كبيرة لإضعاف المقاومة ومعارضي التسوية، وقدم كارتر مكافأته للرئيس الأسد بالاستجابة إلى طلبه والاجتماع به في جنيف بدلاً من واشنطن كما كان يفعل مع غيره من الرؤساء العرب .

الشرق الأوسط ١٩٧٧/٨/١٨

والمهم أن الدعم الأمريكي لأسد في لبنان استمر بعد لقائه بكارتر، كما أن التعاون والتنسيق استمر بين البلدين، مع إن إذاعة وصحف دمشق استمرت في نقد سياسة الولايات المتحدة، وكم في دمشق من المضحكات؟!

نماذج من تصريحات مسؤولين يهود:

صرح شمعون بيريز وزير الدفاع الصهيوني في ١٩٧٧/٦/٢ بما يلي:

«التدخل السوري موجه ضد ياسر عرفات وحلفائه، والقوات السورية دخلت الشمال والوسط وليس الجنوب » .

قال موشيه دايان: «إن على إسرائيل أن تظل في موقف المراقب حتى لو غزت القوات السورية بيروت واخترقت الخط الأحمر، لأن غزو القوات السورية للبنان ليس عملاً موجهاً ضد أمن إسرائيل» .

وكالة الصحافة الفرنسية ١٩٧٦/٦/٥

في ١٩٧٦/٨/٩ أعلن «شلومو أفنيري» المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية: إن سورية لم تتعد الخط الأحمر الذي حددته السلطات السورية كأقصى مدى للتدخل السوري في لبنان، وإن السلطات العسكرية الإسرائيلية تتابع الموقف العسكري ساعة بعد ساعة .

وكالات الأنباء ١٩٧٦/٨/٩

نشرت مؤسسة الدراسات الفلسطينية في العدد ١٢ تاريخ ١٩٨٠/٦/٢٠ عن صحيفة هاآرس الصهيونية ما يلي: «يتوقع رئيس الاستخبارات الصهيونية اللواء بهو شاع ساغي تصعيداً في عمليات المقاومة في المرحلة القادمة، وأعرب عن اعتقاده بأن الفدائيين سيحاولون التسلل إلى إسرائيل انطلاقاً من الأردن لأنهم يواجهون مصاعب في لبنان، ولأن مرتفعات الجولان مغلقة في وجوههم في الوقت الحاضر، وإن أخطار نشوب حرب في السنة القادمة ضئيلة إلا في حال حدوث تحولات فجائية مثل انقلاب في سورية أو تدهور الوضع في لبنان» .

وهكذا أصبح حافظ أسد صمام الأمان عند رئيس استخبارات العدو الصهيوني، ولا يتوقع نشوب حرب إلا إذا سقط نظام أسد .

ونقلت اذاعة إسرائيل -عند بداية التدخل السوري في لبنان- تصريحاً لرئيس وزراء العدو الصهيوني إسحاق رابين جاء فيه:

«إن اسرائيل لا تجد سبباً يدعوها لمنع الجيش السوري من التوغل في لبنان، فهذا الجيش يهاجم الفلسطينيين، وتدخلنا عندئذ سيكون بمثابة تقديم المساعدة

للفلسطينيين، ويجب علينا أن لا نزعج القوات السورية أثناء قتلها للفلسطينيين، فهي تقوم بمهمة لا تخفى نتائجها الحسنة بالنسبة لنا» .

وفي ١٩٧٦/٩/٢٩ نقلت وكالة الصحافة الفرنسية عن وزير دفاع العدو الإسرائيلي شمعون بيريز قوله: «إن هدف اليهود هو نفس هدف دمشق بالنسبة للمسألة اللبنانية»، وقال أيضاً: «يجب أن نمنع وقوع لبنان تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية»[١] .

ما الذي فعلته القوات السورية في لبنان:

«نجحت القوات السورية النصيرية في تحقيق جميع الأهداف التي دخلت لبنان من أجلها:

١ -انتصرت انتصاراً ساحقاً على القوات المشتركة في البقاع، وعكار، والجبل، وصيدا، وما اكتفت بالمعارك الحربية، وإنما لجأت إلى فرض حصار في البر والبحر والجو، ومنعت المؤن والأسلحة من الوصول إلى المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية، بل لقد استولت السلطة السورية على مواد غذائية كانت في طريقها من الفلسطينيين في دول الخليج إلى القوات المشتركة في لبنان.

٢ -لم يتضرر الموارنة من دخول القوات السورية إلى لبنان، ففي حين فرضت القوات السورية الحصار على ميناء بيروت، كان ميناء جونية الذي يبعد ٢٠كم عن بيروت والذي يسيطر عليه حزب الكتائب .

---

(١) عن كتاب: رؤية إسلامية للصراع العربي الاسرائيلي / ٤٧٨-٤٨١ بتصرف، للأستاذ محمد عبدالغني النواوي .

كتبت مجلة (لونوفيل أوبسرفاتور) في أواخر نيسان ١٩٧٦ تقول:

»إن مدينة جونية أصبحت الرئة التي يتنفس منها الانعزاليون، وإن البواخر الحربية السورية المرابطة تجاه الشواطئ اللبنانية تطبق حصاراً على الأسلحة والمواد التموينية المرسلة إلى القوات الفلسطينية والقوى الوطنية، بينما تسمح للبواخر التي تحمل شحنات الأسلحة إلى الانعزاليين بالتوجه إلى جونية« .

وكانت الاتصالات الإسرائيلية الكتائبية عن طريق ميناء جونية غير خافية على القوات السورية . وذات مرة علم رئيس الوزراء وزير الدفاع رشيد كرامي بوصول شحنة أسلحة من إسرائيل على متن باخرة، وقد طلب من الجيش وقوات الأمن اللبناني مصادرة شحنة الأسلحة والباخرة، ولكنه عجز، ورفض قادة الجيش وكبار قادة الأمن أوامره، وبقيت الصحف اللبنانية أياماً تتحدث عن هذه المشكلة، وكأن القوات السورية المتواجدة على بعد بضعة أميال من جونية لا يعنيها هذا الأمر، واضطرت القوات السورية إلى دخول بيروت الشرقية فترة من الزمن، لكنها أرغمت على الخروج منها بعد معارك خاضتها القوات المارونية التي تمتلك أحدث الأسلحة .

٣ -طارد الجيش وقوات الأمن السورية كل معارض للنظام البعثي النصيري من السوريين واللبنانيين، ففي طرابلس اغتالوا شقيق سليم اللوزي وغيره من الذين كانوا يهاجمون التواجد السوري النصيري في شمالي لبنان، وفي بيروت قتلوا كمال جنبلاط لأنه رفض الاحتلال السوري لأسباب شخصية وطائفية، كما قتلوا سليم اللوزي وحرقوا يده التي كانت تهاجم النصيريين قبل احتلالهم لبنان، وقامت منظمة الصاعقة ورجال المخابرات السورية بنسف عدد من مكاتب دور الصحف اللبنانية واغتيال عدد من المحررين ..

٤ -كان هناك تعاون أكيد بين البعث النصيري وإسرائيل والموارنة ، فبعد

سقوط مخيم جسر الباشا ومخيم عين الحلوة، وبرج حمود، جاء دور مخيم تل الزعتر، ومن المعروف أن بيار الجميل طلب في جلسة مجلس النواب اللبناني ١٩٧٥/٥/٢٢ نقل مخيم تل الزعتر من بيروت الشرقية، وكانت سورية أسد على علم بذلك، وبدأ حصار مخيم تل الزعتر في أواخر حزيران، وسقط المخيم يوم ١٤ آب ١٩٧٦ بعد حصار دام أكثر من شهر ونصف، وشدّت بطولة سكان المخيم انتباه العالم، وكان بوسع القوات السورية أن تنقذ سكان المخيم، وتفك الحصار الذي فرضه الموارنة على المخيم لو كانت حيادية، أو لو كانت دخلت لبنان للمحافظة على المقاومة الفلسطينية كما زعمت . ولكن هذه القوات المجردة شاركت في الحصار الذي فرضه الموارنة على المخيم، ومنعت الطعام والشراب والأسلحة عن سكانه، وعن سائر سكان المخيمات، كما شاركت القوات النصرية البعثية في الإعدامات وعمليات هتك الأعراض التي تمت لمن بقي حياً داخل المخيم، وكان يقود قوات أسد في حصار المخيم المجرم العقيد علي مدني.

أما أن اسرائيل كانت متورطة في تل الزعتر، فلقد اتهم حزب بيغن وزير دفاع إسرائيل شمعون بيريز السابق بأنه شارك في المذبحة وأمر بها، وجاء هذا الاتهام رداً على اتهام بيريز لحكومة بيغن بتورطها في مذبحة صبرا وشاتيلا، وتبادل الحزبان هذه الاتهامات في جلسة من جلسات الكنيست الإسرائيلي نشرت وقائعها الصحف ووكالات الأنباء العالمية .

وما كان تورط اسرائيل مستغرباً، لأن ميناء جونية مفتوح أمام القوات الإسرائيلية، والمصلحة مشتركة في القضاء على المسلمين الفلسطينيين مشتركة بين الموارنة واليهود والنصيريين .

٥ -فعلت منظمة الصاعقة وقوات الردع السورية الأفاعيل في لبنان، فقد

نهبوا المصارف في بيروت، ونسفوا الآبار الارتوازية في البقاع، وسيطروا على أفخر الشقق في طرابلس وبيروت، وسرقوا مخازن ومستودعات السجاد والفرش، كما سرقوا السيارات . كان السفاح زهير محسن زعيماً من زعماء قطاع الطرق، وكان الجندي السوري يعود من لبنان وقد أصبح ثرياً من الأثرياء، وكان فرش أثاث البيوت والتحف الثمينة والأدوات الكهربائية تباع في سورية بأبخس الأثمان، وكان الموارنة يستغلون هذه الأعمال ويلصقونها بالفلسطينيين وهم يعلمون أن معظم الفلسطينيين بريئون من مثل هذه الأعمال الوضيعة..

ومن صحف وتعليقات أجهزة الاعلام الغربية التي نشرت أسراراً مذهلة عن التدخل السوري في لبنان نختار فقرات من مقالات نشرتها مجلة التايم الأمريكية في عددها تاريخ ١٩٧٦/٩/٨ تحت عنوان: إسرائيل تشارك في حرب لبنان سراً

قالت التايم: »إن التفاهم غير المعلن بين إسرائيل والنظام السوري بسحب قواته العسكرية المتواجدة في الجبهة، ونقلها تدريجياً إلى لبنان وإلى الحدود مع العراق ...«

وعن زيارة وزير الدفاع الصهيوني الى ميناء جونية قالت التايم:

«إن بيريز وصل إلى ميناء جونية بسفينة شحن أحاطت بها زوارق قاذفة للصواريخ، وتم نقله مع طاقم الحراسة من على ظهر السفينة بواسطة طائرة هليكوبتر، وإن زيارات بيريز إلى لبنان، أصبحت من الأمور العادية، وإن إسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي رافقه في زيارته الثالثة، وإن الاجتماعات مع قادة اليمين اللبناني -أي الموارنة- انتهت بتدخل إسرائيلي حاسم وإن كان سرياً في الحرب الأهلية اللبنانية الدائرة رحاها منذ سبعة عشر شهراً، وعملاً بالاتفاق لتحرك إسرائيلي لإبادة قواعد الفدائيين في جنوبي لبنان .»

وأضافت المجلة:

«إن هذه التدابير قد وضعت الإسرائيليين في الجانب الذي يقف فيه النظام السوري بعد تدخله الفعلي إلى جانب قوى اليمين، والذي يتحدد بالأساس بتصفية الفدائيين الفلسطينيين تمهيداً لغرض تسوية سلمية لصدام الشرق الأوسط، وتقوم إسرائيل بفرض حصار بحري على عدة موانئ لبنانية يسيطر عليها الوطنيون، وخاصة مينائي صيدا وصور لمنع وصول الأسلحة إلى الوطنيين والمقاومة . لقد استطاعت إسرائيل بعملها هذا الحصول على سيطرة فعلية على شريط من الأرض جنوب لبنان يمتد حتى نهر الليطاني».

وقالت المجلة: «إن عدداً من أركان النظام السوري الحاكم حضروا الاجتماع الموسع الأخير بين شمعون بيريز والقوى اليمينية في جونية، حيث شجع نجاح المباحثات بيريز على إمضاء ليلة على سفينة الشحن التي أقلته إلى لبنان»[1].

---

(١) عن كتاب: رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي لـ: النواوي من ٤٨٧-٤٩٩ بتصرف واختصار .

الفصل الرابع

بداية الصراع المسلح مع الإسلاميين:

مرحلة الاغتيالات

كان عام ١٩٧٦ حافلاً بالأحداث الجسام، وهو الذي بدأت فيه المعركة المسلحة بين الحركة الإسلامية والنظام النصيري.

١ -التدخل في لبنان:

«ضعف مركز الأسد ضعفاً خطيراً عام ١٩٧٦، وذلك للمرة الأولى منذ حركته التصحيحية في تشرين الثاني عام ١٩٧٠، وذلك لأمره الجيش السوري بالتدخل في الحرب الأهلية اللبنانية . هذه الحرب التي اندلعت في نيسان ١٩٧٥ بين الأحزاب السياسية اليمينية اللبنانية المكونة أساساً من المسيحيين المارونيين وبين الأحزاب السياسية اليسارية التي ينتمي معظم أتباعها إلى مختلف الطوائف الإسلامية، والتي دعمتها عسكرياً فيما بعد المنظمات الفدائية الفلسطينية [١] ... وقد جرت بعد التدخل العسكري السوري في لبنان سلسلة من الاغتيالات السياسية والهجمات التي استهدفت قادة البعث السياسيين . ولم يكن واضحاً آنذاك بعد إن كان صادراً عن المعارضة السياسية الداخلية للتدخل العسكري السوري في لبنان أم بسبب التنافس بين نظامي البعث اللذين يحكمان بغداد ودمشق، أو أن هذه الحوادث تهدف إلى إثارة الانقسامات الطائفية . ومن الملاحظ على كل حال كون الغالبية العظمى من الذين اغتيلوا من العلويين، وإن

---

(١) سبق أن تحدثنا بشكل تفصيلي عن هذا التدخل في الفصل السابق .

كان راديو دمشق اتهم كذلك ما أسماه بالزمرة الفاشية العشائرية التكريتية الحاكمة في بغداد بتدبير بعض حوادث القتل»[1] .

٢ –نهب ثروات الأمة:

«ولم تنشأ هذه الأحداث الإرهابية من فراغ، بل كانت أشد التعابير تطرفاً عن عدم رضى عام راح ينتشر في المجتمع السوري عندما بدأت حركة التصحيح (التي قادها الأسد والتي استقبلت بالترحيب والارتياح في مطلع السبعينيات) تظهر فوارق جديدة تدل على عدم المساواة بشكل سافر يشبه من عدة نواح تلك الفوارق التي سعت ثورة البعث للقضاء عليها في الستينات، وبدأ عدد قليل من المحظوظين المتنفذين الواصلين إلى جهاز الحكومة يجمعون ثروات طائلة لم يعرف مثلها السوريون من قبل، وبذلك أثاروا حفيظة وغضباً لدى أولئك الذين لم يكون لهم مثل هذا النفوذ، وامتلأت صفوف حزب البعث الحاكم، وكذلك الطبقات الكبرى من العسكريين وموظفي الحكومة بالمحترفين المستعجلين والباحثين عن الربح ...

في تلك الفترة (١٩٧٤-١٩٧٦) بدأ بعض المتنفذين البارزين من أمثال نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية محمد حيدر (السيد خمسة بالمائة) بتجميع ثروات طائلة، وأصبح محمد حيدر مثالاً نموذجياً على التحسن المذهل في أحوال العلويين نتيجة الصعود السياسي للطائفة، ثم أصبح (اللورد) المسيطر على الاقتصاد السوري طيلة عشر سنوات تقريباً، وبذلك أصبح في موقع من بيده المغرفة، فيستطيع أن يعتني بنفسه جيداً، وقدوة لأقرانه الذين حذوا حذوه في

---

(١) الصراع على السلطة في سورية لفان دام، ص ٩٨ .

الإثراء السريع»[1] .

«وشكل أصحاب الملايين السريعة لب الطبقة البورجوازية الجديدة، وقد أثرى كثيرون منهم من العمولات ومن إعادة الأموال المسلّفة لأغراض غير مشروعة، وحتى من السرقات التي أصبحت ممكنة من عشرات المشاريع ذات التمويل الحكومي، فقبل حرب تشرين كانت الحكومة والتجارة شيئين منفصلين، ربما يتفاعلان ولكن لا يتداخلان ولا يخترق أحدهما الآخر. أما بعد الحرب فقد أصبح من الصعب معرفة أين ينتهي مجال عمل الحكومة ويبدأ مجال العمل التجاري، فقد تداخل الشيئان بشكل متشابك، وأصبح من المستحيل عملياً عقد صفقات من أي حجم بدون ارتباطات حكومية، وحصص تعطى للموظفين، وتمت شراكات بين رجال الأعمال وبين كبار موظفي النظام العسكريين والسياسيين، ومعها تكاثرت شبكات الحماية والعلاقات الزبونية والفساد والمحسوبية، وكثيراً ما كان يحدث أن يتم تسليم المشاريع للحكومة ودفعها وتمريرها بدون دراسة لائقة. وبذلك راح الوسطاء وليس المخططون الحكوميون يتحكمون بشكل الاقتصاد، وأصبح الدافع المحرك هو إغراء الربح الشخصي الخاص، وليس المصلحة العامة»[2].

في ذلك الوقت أنشأ رفعت -الذي كان يرى نفسه درعاً لنظام أخيه- سرايا الدفاع، وحوّلها إلى أفضل وحدات الجيش السوري تسليحاً وتدريباً ورواتب، وفي تمويل وتسليح هذا الحرس المفضل استفاد رفعت من صداقته للأمير عبد الله بن عبدالعزيز آل سعود قائد الحرس الوطني، ولم تكن القضايا العسكرية

---

(١) الأسد لباتريك سيل، ص ٥١٨ .

(٢) الأسد لباتريك سيل، ص ٥١٧ .

موضع اهتمامه الوحيد، ففي المؤتمر القطري الخامس للحزب في نيسان/أبريل ١٩٧٥ انتُخب رفعت عضواً في القيادة القطرية، وأعطيت له مسؤولية شؤون الشباب، فبدأ يدفع الشبيبة بحماس، ولا سيما العلويين منهم، إلى الاشتراك في دورات جامعية، وفي التدرب على القفز بالمظلات سواء أكانوا شباباً أم كانوا فتيات . وإذا كان المرء شقيقاً للأسد، وتحت تصرفه ميزانية كبيرة غير خاضعة للتدقيق، ويعمل في بيئة عربية للعلاقات الشخصية فيها كل الأهمية، فمعنى ذلك أن باستطاعته أن يفعل أي شيء يشاء تقريباً، ولقد كان رفعت في بعض الأحيان فوق القانون .

ولأول مرة منذ استلام البعث للسلطة في عام ١٩٦٣، كانت المجموعة الحاكمة من الضباط والمسؤولين الحزبيين، وهم في غالبيتهم العظمى من خلفية ريفية أو من المدن الصغيرة يقفون على أساس من الثروة الحقيقية، فلم يعودوا مجرد مجموعة انقلابية، ولا عصبة حاكمة من الضباط ذوي الأصل الفلاحي استولوا على المدينة، فالمال، والتنمية الاقتصادية، والقائد القوي، وعملية رفع مستوى الطبقات المهملة وليس العنصر العلوي فقط - كل ذلك بدا معززاً لنظام الأسد . فالطبقة الجديدة التي كانت في طريقها إلى التكون، راحت تبني سورية جديدة . لكنها أيضاً راحت تنغمس في ملذات المدينة المريحة، وتستمتع بالعجرفة وتسيء استعمال سلطتها الجديدة . فقبل الازدهار لم يكن أحد من هؤلاء الطالبين الجدد يملك سيارة أو يعيش في أكثر من شقة ذات غرفتين، أما في السبعينات فقد تعودوا على الثراء والفخفخة، وكأنهم ولدوا في وسطها . وفي عام ١٩٦٠ كانت دمشق مدينة هادئة يقطنها ما يقرب من نصف مليون، وبحلول منتصف السبعينات تضاعف عدد سكانها ثلاث مرات، وأصبحت موقع بناء يعج بالحركة المتنامية، وينفجر عند أطرافه . وكانت فوائد الغنى والثراء قد بدأت حتى

في تخفيف حدة غضب العوائل القديمة التي أزاحها إلى الهامش حديثو النعمة الثوريون الجدد . وبدا للحظة -وإلى أن انفجرت الأزمة اللبنانية في منتصف عام ١٩٧٦ أن حكم البعث لم يتمتع باستقرار أكثر من تمتعه به تلك الأثناء» [1] .

٣ -إلغاء الوجود الإسلامي:

كل الذين يكتبون عن عوامل الحركة الجهادية المسلحة يغمضون أعينهم عن السبب الحقيقي لها، ويحرصون على التعمية الكاملة، ويدبجون المقالات في الأسباب الاقتصادية والسياسية . إنهم يتناسون أن الثورة البعثية أولاً، ثم النصيرية ثانياً، وخلال ثلاث عشرة عاماً كانت تلغي الإسلام ودعاته من الساحة ابتداءً، وتجعل حرب الإبادة عليهم ثانياً، وكأنهم ليسوا بشراً يحملون فكراً يستحق الوجود والمناقشة . فقد اعترف الأسد بعد عشرة أعوام أو تزيد بأن في سورية شيئاً غير البعث، حين دعا إلى الجبهة القومية التقدمية، وتم تشكيلها من البعثيين والشيوعيين (جناح خالد بكداش) وبقايا البعث البائد الذي حمل اسم الوحدويين الاشتراكيين والاتحاد الاشتراكي (جناح جمال الأتاسي) وبقايا أكرم الحوراني (الحركة الاشتراكية العربية) . «وتم تدشين هذه الجبهة في ٧ آذار سنة ١٩٧٢ بعد عدة شهور من المساومة حول بنود ميثاقها والسلطة المتاحة لأعضائها ... ورغم أن هذه الحركات صارت جزءاً من الجبهة، فلم يكن مسموحاً لها بالنشاط السياسي في صفوف الجيش أو الطلبة . فقد احتفظ الحزب بالعمل في هذين المجالين وحده ... وقد أعطيت للعديدين من قادة الجبهة مقاعد وزارية، ورغم ذلك فقد كان من مفارقات عواقب تشكيل الجبهة حدوث انشقاق في اثنتين من

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل / ٥١٦-٥١٩ .

التجمعات المكونة لها، وهما الحزب الشيوعي والاتحاد الاشتراكي العربي الناصري . فكان ذلك لصالح البعث بحيث أن الجبهة في آخر الأمر أكدت سيطرة البعث بدلاً من أن تعطي نوعاً من التعددية» [١] .

ومجموع هذه الحركات تحمل الفكر القومي وحده، وتنادي بالوحدة والحرية والاشتراكية، تنطلق من العلمانية وفصل الدين عن الدولة، وإلغاء الإسلام من القاموس السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وحصره في المسجد، أو في الأحوال الشخصية . بينما تنطلق الحركة الإسلامية من أن الإسلام شريعة الحياة كلها، دين ودولة، مصحف وسيف، كتاب وقانون . وانطلقت الحركة النصيرية تحت اسم ستار البعث المرتد، تلغي هذه الفكرة وتحاربها في الأرض المسلمة، فلا حرية لدعاة الإسلام لأنهم رجعيون، متخلفون، عملاء للإمبريالية . وقد حاولت الحركة الإسلامية كما مر معنا منذ ثورة آذار/مارس ١٩٦٣ أن تعبر عن أفكارها في الـ٦٤ والـ٦٦ والـ٧٣، لكن دون جدوى . وأبرزت بعض المقاومة المسلحة، لكن سرعان ما قضي عليها، وألقي دعاتها في السجن، وحكموا بالإعدام .

تصوِّر مجلة النذير هذا الوضع البائس فتقول:

«منذ ثلاث سنوات وبتاريخ ١٩٧٦/٢/٨ بالضبط، انطلقت أول رصاصة في سبيل الله تفتح الباب للجهاد المنظم، الذي بدأ يؤتي ثماره الخيرة في الأيام الأخيرة . لكن تلك الرصاصة الأولى كانت ثمرة معاناة مريرة طويلة من الظلم والإرهاب، كانت سجون سورية تعج بالمعتقلين المسلمين السنيين . على أن المحنة تبلغ أشدها حين يكون الاضطهاد مركزاً على المسلمين (السنيين) وعلى

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل / ٢٨٣ .

الدين الإسلامي بالذات: من مساجد تهدم، وعلماء يعتقلون، ومناهج تربوية تعطّل، ومدارس شرعية تغلق، ومن توجيه إعلامي وتعليمي إلحادي انحلالي ينشر، ومن تسلط حزبي طائفي متزايد، ومن تحضير نفسي وعسكري لتهديم الجيش والقوات المسلحة، وتسليم البلاد لليهود (يعني إسرائيل) لقمة سائغة، ومن إحلال للمليشيات الحزبية الطائفية (العلوية) محل القوات المسلحة النظامية، ومن نهب لثروات الأمة بالرشى والابتزاز والتجارة المشبوهة والصفقات المريبة، والإثراء غير المشروع لحفنة قليلة على حساب الأكثرية المسحوقة» (١) .

إن تاريخ سورية الحديث، لم يشهد استبداداً وفساداً فكرياً ولا إدارياً كالذي شهده في ظل نظام حافظ أسد وعصابته المغامرة، لذلك كان لزاماً أن ينبعث من رقاد العدم الأموات وأن تنشط الهمم والنخوات، وأن يعلو صوت «الله أكبر، حي على الجهاد» .

«أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير» .

وإذا كان الجيش محظوراً على الحركات المشاركة في الجبهة، فمن باب أولى أن يكون محظوراً على الإسلاميين، وهو حكر على النصيريين فقط وذيولهم من البعثيين .

أما السنة، فقد كانت الخطة بالنسبة لهم -كما روى لي أحد الضباط المطلعين في الجيش العربي السوري- فهو أن يقف ترفيعهم عند رتبة عقيد، حيث يبقون في هذه الرتبة على الأغلب لمدة ثماني سنوات، ثم يسرحون من الجيش . والذين كانوا فوق هذه الرتبة قبل هذا القرار فقد أبعدوا عن القطعات العاملة في الجيش وصاروا في الجهات الفنية والإدارية كالتدريب والتجنيد والجيش الشعبي

(١) الصراع على السلطة في سورية لـ: فان دام / ١١٢-١١٣ نقلاً عن النذير العدد ٢ في ٧٩/٩/٢١، ص١ .

في أحسن أحوالهم .

إن المخطط في حقيقة أبعاده هو إنهاء الوجود السني في الجيش لحساب الوجود النصيري .

وما يقال عن الجيش يقال عن الأمن، فالأمن حكر على أبناء الطائفة، وهناك خمس جهات أمنية، كل جهة دولة قائمة بذاتها في صلاحياتها .

فهناك المخابرات العامة، ومخابرات القوى الجوية، والقوات الخاصة، وسرايا الصراع، وسرايا الدفاع، تنتهي خيوطها الهرمية بقيادات نصيرية .

وكل نشاط سياسي أو كلام يمس أمن الدولة، بل كل شخص مستقيم بخلقه وسلوكه هو محل شبهة أن يكون من الإخوان المسلمين، ويمكن أن يتعرض للاعتقال والتعذيب والقتل دون محاكمة .

وفي هذه الأجواء نبت العمل الإسلامي المسلح .

٤ -الضربة الأخيرة، تطهير الجهاز التعليمي من الإسلاميين:

لقد كان أكبر حقل للصراع بين الإسلاميين والنصيريين هو الجيش والتربية، وإن كانوا قد سيطروا على الجيش منذ السنوات الأولى لحكمهم، لأن الإسلاميين ابتداءً مبعدون عن الجيش منذ الاستقلال السوري -كما تحدثنا من قبل- لكن الذي يؤرقهم هو وجود الإسلاميين في المدارس، وصلتهم بالطلاب وهي العناصر الفاعلة الواعية في الأمة، وكانت خطواتهم تتدرج في هذا المجال بحيث صار من الصعب تعيين أي مدرس في المدارس الإعدادية والثانوية ناهيك عن الجامعات إذا كان له صلة بتنظيم الإخوان المسلمين، ثم غدا من المستحيل بعد ذلك، والذي يثبت له نشاط إسلامي واضح، كانت الخطة إبعاده ابتداءً، ونقله، ثم تسريحه عندما يبقى على ما هو عليه من النشاط .

وكانت هذه الحوادث مستمرة لا تنقطع طيلة العهد النصيري، والبعثيون

السنيون الحمقى هم الذين يقومون بكتابة التقارير بإخوانهم السنيين المسلمين، ويرون هذا انتصاراً لفكرتهم وحزبهم . لكن الضربة القاتلة كانت في القرار الرسمي الصادر عن وزارة التربية عام ١٩٧٦ بتحويل ستمائة مدرس من سلك التعليم إلى وظائف الدولة. وهم يمثلون جميع الاختصاصات العلمية والشرعية، ليعملوا في البلديات، وفي التموين وفي الصحة والوزارات الأخرى .

وبذلك حققوا هدفهم الأكبر بإبعاد شباب الحركة الإسلامية عن العمل في قطاع التعليم.

المعارضة الإسلامية:

يقول سيل عن حافظ أسد: «لقد اصطدم بالإخوان المسلمين من أيام شبابه، فاشتبك معهم بالأيدي في باحة المدرسة باللاذقية، والحقيقة أن تياراً من النشاط الإسلامي المنظم قد تواجد في الحياة العامة في سورية منذ الثلاثينات، وقد نبعت وقامت جيوب من المقاومة الإسلامية ضد الحكم الفرنسي في مدن سورية عديدة في النصف الثاني من ذلك العقد، وكان الفرنسيون بشكل أساسي هم الذين جعلوا تلك المجموعات المنعزلة تندمج في عام ١٩٣٨ بالإصرار على مناقشة التدريس الإسلامي في المدارس كموضوع مستمر، فأصبحت كلها تنظيماً وطنياً واحداً آنذاك، وأعطى هذا حافزاً لولادة تنظيم «شباب محمد».

وفي ذلك الوقت عاد الشاب السوري مصطفى السباعي إلى دمشق من دراسته في القاهرة، حيث كان قد وقع تحت سحر مؤسس الإخوان المسلمين حسن البنا، الذي بنى من بدايات صغيرة في عام ١٩٢٨ حركة شعبية واسعة في مصر مصممة على إنهاء الحكم البريطاني، وإقامة دولة إسلامية مكانه، وفاض الغليان الجياش في مصر إلى أقطار عربية أخرى، وإلى سورية بمساعدة السباعي، الذي أخذ تنظيم شباب محمد بيده وربطه بالإخوان المسلمين، وبحلول عام

١٩٤٣ كان قد كوّن قوة سياسية لها من القوة ما مكنها من إرساله إلى البرلمان في دمشق . ومنذ ذلك الحين بقي الإسلام السياسي عاملاً متواجداً بشكل ثابت على المسرح السوري، كما اكتشف الأسد عندما كان طالباً، ولكن هذا التيار لم يكن من القوة بحيث يسيطر، ولا من الضعف بحيث يتم قمعه أو اقتلاعه، وكأنه نوع من الحمى التي تصعد أو تهبط حسب الظروف المحلية في الداخل، والمناورات المحركة من الخارج .

وكان صعود البعث إلى مكانة بارزة اعتباراً من عام ١٩٥٥ فما بعده ضربة مريرة للمسلمين الناشطين الذين شعروا بالغضب والقلق لرؤية المجتمع السني التقليدي تتقلب فيه الأمور على يد متشددين علمانيين . وعندما استولى البعث على الدولة لجأت مجموعات من المتصلبين الإسلاميين إلى العمل السري في حلب وحماة لتنظيم المقاومة المسلحة . ففي عام ١٩٦٣ مثلاً أسس الشيخ عبد الرحمن أبو غدة حركة تحرير إسلامية سرية في حلب [(١)] . أما في حماة في عام ١٩٦٧ فإن مروان حديد كان من النشيطين القدامى، وقد وضع في السجن فترة قصيرة بسبب اشتراكه في حركة مسلحة قامت ضد البعث عام ١٩٦٤ . وبدأت بتنظيم قوة ضاربة سرية أطلق عليها اسم: كتائب محمد [(٢)] . وبما أن البعث كان منهمكاً في اقتتال حزبي داخلي آنذاك، فإنه لم ينتبه إلى كون المتشددين الإسلاميين قد بدأوا بتكوين الخلايا، وتكديس السلاح، واستعمال الأسماء الحركية، وإجراء اتصالات خارجية، وتدريب أعضاء كوادرهم على قتال المدن . وعندما قام البعث باجتذاب أعداد كبيرة من معلمي المدارس البعثيين إلى العمل

---

(١) كذا أورد سيل روايته، ولا نعرف مصدرها.

(٢) وهذه معلومات خاطئة كذلك نعرض إليها بعد قليل .

في الحكومة فانه أفسح بذلك المجال للإخوان المسلمين كي يزرعوا أنفسهم في المدارس ويؤثروا على الشباب»[1] .

ويصف كتاب يعبر عن وجهة نظر الطليعة المقاتلة، وهي التنظيم الذي بدأ العمل المسلح، يصف دوافع بداية العمل وتطورات الأحداث بالآتي:

«في عام ١٩٦٥ تفاقمت الأوضاع، وتطور الوضع إلى صدام بين الإسلاميين والسلطة [2]، وفي حماة حصلت اشتباكات مسلحة مع الجيش الذي اقتحم مسجد السلطان هناك، وقتل عدد من جنود الحكومة، وعدد من المواطنين المسلمين، وألقي القبض على الشيخ (مروان حديد) وعلى أحد عشر شاباً من أعوانه كانوا رأس الحركة الإسلامية المعارضة المسلحة . ومن يومها عرف الشيخ مروان كرأس من رؤوس الجهاد، وداعية من دعاته، وواحد من أصلب المعارضين المسلمين للحكم، وحُكم على الشيخ وتلامذته بالإعدام، وقبل تنفيذ الحكم تدخلت جهات إسلامية في البلد لدى رئيس الجمهورية وعلى رأسهم الشيخ محمد الحامد فقيه سوريا وعالمها الزاهد رحمه الله، وأفرج عن المحكومين بقرار من رئيس الجمهورية وتحت خشية من انفجار الأوضاع إن هو أنفذ الأحكام ...

في عام ١٩٧٠ تسلم النصيريون السلطة كاملة وبشكل رسمي، وترأس الجمهورية وزير الدفاع الخائن السابق -حافظ الأسد- وبذلك طفا على السطح ذلك الصراع الذي كان يحتدم بين المسلمين والسلطة رويداً رويداً، وأحس الشيخ مروان حديد بخطورة الوضع، وبمخطط النصيريين الرامي إلى تدمير الإسلام، ليتسنى لهم امتلاك زمام الأمور في البلد، فصدع بالحق، ونادى بعدم

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل / ٥٢٢-٥٢٣ .

(٢) سبق أن تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في فصول سابقة .

شرعية حكم الكافرين في رعية مسلمة، ووقف وقفة رجولية في دروسه وخطاباته، وكان من القلائل الذين صدعوا بالحق من بين العلماء المسلمين الذين سكتوا على هذا الظلم الفاحش والوضع المرفوض من تسلم الكفرة حكم المسلمين، وانزووا في مساجدهم يعالجون أعراض الفجور، وضياع دين المسلمين، تاركين رأس الأمر وعموده وهو التكلم في عدم شرعية هذا النظام واحتلاله لبلاد المسلمين، وتسلطه على العباد في سورية الشام . بدأ الشيخ مروان حديد رحمه الله عمله الحركي محاولاً رأب الصدع الذي كان قد حصل في حركة الإخوان المسلمين، وشطرها إلى تنظيمين منفصلين في عام ١٩٧٠، حيث بقي الجزء الرئيسي منها تابعاً للتنظيم الدولي للإخوان المسلمين، وترأسه الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، وكان من أهم شخصياته الشيخ سعيد حوى، علي بيانوني، عبدالله طنطاوي، عدنان سعد الدين، وآخرون .

وتبع الجزء الأصغر أو ما سمي بتنظيم دمشق الأستاذ عصام العطار الذي كان مراقباً عاماً قبل الانشقاق، والذي استقر في ألمانيا فيما بعد مؤسساً حركة الطلائع الإسلامية، وكان جل أتباعه من دمشق، وبعض الشباب في المنطقة الشرقية وعلى رأسهم الدكتور حسن هويدي [(١)]، ثم تضاءل حجم التنظيم بعد رحيل العطار، وسيطر على الساحة الداخلية ما سمي بجناح (حلب، حماة) أو التنظيم الدولي للإخوان المسلمين في سورية، ولما فشل الشيخ مروان في رأب الصدع، والذي كان قد تعمق . كما كان مكتب الإرشاد للتنظيم الدولي قد فشل جملة في رأب الصدع انصرف لإحياء فكرة الجهاد في صفوف التنظيم الدولي الذي كان مروان تابعاً له ومبايعاً له .. وبدأت محنة الشيخ وجماعته حيث استمر فترة من الوقت

---

(١) الحقيقة أنه كان له أتباع في معظم المحافظات السورية غير دمشق والمنطقة الشرقية مثل حمص، درعا، حماة، الساحل .

يحاول إقناعهم، وكانت كلمته المشهورة: لئن أخرجني الإخوان من الباب فسأدخل عليهم من النافذة، وسأجرهم إلى الجهاد جراً»[1] .

أخيراً اقتنع الشيخ مروان بعدم جدوى محاولاته في حمل قيادة التنظيم على أن تنهج نهجاً عسكرياً إعدادياً يناسب حجم المعركة، فقرر إنشاء جماعة خاصة من شباب المسلمين الذين قطعوا شوط التربية والإعداد الديني والتربوي، وكان قسم كبير منهم قد تلقى تدريباً على السلاح مع الشيخ مروان عندما ذهبوا للأردن وعملوا في نطاق فصيل الإخوان المسلمين العامل مع منظمة فتح عام ١٩٦٩، وخاضوا عدداً من المعارك مع اليهود هناك [2] . وأوفد الشيخ مروان بعض أتباعه لمدينة حلب ليؤسسوا نواة لتنظيمه الذي أسماه (الطليعة)، كما أبقى على صلة له بمدينة حماة لنفس الغرض، وتوجه إلى دمشق ليبدأ هناك نواة تأسيس تنظيمه الجهادي .

في عام ١٩٧٥ كان الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قد تنازل عن منصب المراقب العام للإخوان المسلمين، وآل هذا المنصب للأستاذ عدنان سعد الدين، وانصرف الشيخ إلى السعودية متفرغاً للعلم والتدريس هناك وبقيت له صلة شرفية روحية بالتنظيم كأب له وكقطب من أقطابه، وتابع التنظيم الدولي نهجه الذي هو عليه من الدعوة والعمل المسجدي والإعداد والتكوين، رغم أن أحداثاً هامة قد مرت عام ١٩٧٣، ووقع صدام حاد بين الإسلاميين والدولة بسبب إعلان دستور البلاد في ظل النصيريين، والذي لم يكن يشمل أن دين الدولة هو الإسلام، وأدت

---

(١) كانت وجهة نظر الإخوان المسلمين في عدم الصدام مع السلطة لعدم توفر الإعداد الكافي، وللاهتمام بالتربية .

(٢) كان الاشتراك بمعسكرات فتح من قبل الإخوان المسلمين بفصيل مستقل بقرار من قيادة الإخوان المسلمين العامة حين كان الأستاذ عصام العطار على رأسها .

الأحداث التي سميت بأحداث الدستور لاعتقال عدد كبير من الإسلاميين، بعضهم (بل جلهم) من قيادات التنظيم الإخواني وأفراده، كما أدت إلى دخول هذه الكلمة (الجوفاء) لتتصدر الدستور الكافر المرتد فكتب في أعلاه (دين الدولة هو الإسلام كمصدر للتشريع)[1] ... وتابع الكفر مجراه متسلطاً . وفي حزيران ١٩٧٥ اعتقل الشيخ مروان حديد في دمشق بعد اشتباك مع المخابرات، واقتيد للسجن ليلاً في أشد أصناف التعذيب هناك، حيث قضى شهيداً في ١٩٧٦، تاركاً وراءه عبء الأمانة في حمل راية الجهاد في الشام المباركة ملقىً على عاتق أتباعه وتلامذته، والمسلمين في هذا البلد المصابر، وتاركاً وصيته المعبرة:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذه وصيتي أنا الفقير إلى الله تعالى ورحمته ورضوانه، مروان حديد، أوصي أهلي بتقوى الله تعالى، والتمسك بالإسلام، ووفاء ديوني أو تحملها عني قبل وضعي في قبري .

أوصي إخواني بالوفاء بعهد الله تعالى، وأوصيهم بمعاملة الخصوم كما أمرهم الله، وأرجو من الجميع الدعاء بالمغفرة والرحمة .

كم مات قبلي من أمم ... فيها النبي المحترم

«إنك ميت وإنهم ميتون»

أسوتكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاهد في سبيل الله، فتأسوا برسولكم، وغداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».

والسلام عليكم ورحمة الله . مروان حديد»[2] .

---

(١) في الواقع لم يعترف الدستور السوري بالإسلام ديناً للدولة، إنما ذكر فقط أن "دين رئيس الدولة الإسلام"، وان " الإسلام مصدر رئيسي من مصادر التشريع".

(٢) من كتاب يمثل وجهة نظر الطليعة .

بدء الاغتيالات:

«وعندما ألقي القبض على مروان حديد وأودع السجن سنة ١٩٧٦ أضرب عن الطعام، فأرسل له الأسد أخاه كنعان، وكان دبلوماسياً في طهران، لإقناعه بإنهاء إضرابه ولكن عبثاً، وتوفي مروان في حزيران/يونيو سند ١٩٧٦ في مستشفى حرستا العسكري شرقي دمشق، فأصبح على الفور مصدر إلهام لأتباعه الذين أقسموا على الثأر له» [1].

كانت قد تمت بعض الاغتيالات في حياة الشهيد الشيخ مروان حديد . وكان التخطيط ابتداءً ينصب على فكرة اغتيال الرئيس حافظ الأسد، وجرت ثلاث محاولات لاغتياله وفشلت جميعها . بينما كانت حماة تئن تحت إجرام مدير مخابراتها -محمد غرة- واتخذت قيادة الطليعة التي أصبح عبد الستار الزعيم على رأسها قراراً باغتياله، ولا شك أن نقطة الخطأ قد ابتدأت بهذا القرار على أهميته، لأنها وجهت الأنظار إلى المسؤولين الكبار كي يأخذوا حذرهم، وأدى هذا الخط فيما بعد إلى تقديم المزيد من الدماء، والآلاف من الضحايا، دون أن يتمكن من الإطاحة بالنظام . بينما لو انصب التفكير ابتداء على مواجهة رأس النظام والإطاحة به، فقد يوفر هذا الكثير من الدماء، ويزلزل الكثير من أركان النظام النصيري .

كانت أول رصاصة أطلقت -كما ذكرت النذير- بتاريخ ١٩٧٥/٢/٥، ثم تتابعت الاغتيالات بعد ذلك، كانت تنصب على القيادات المهمة البارزة والخفية في النظام النصيري .

«ومن العلويين البارزين الذين اغتيلوا الرائد علي حيدر - آمر موقع حماة-

---

(١) الأسد لـ: باتريك سيل / ٥٢٥ .

قتل في نهاية ١٩٧٩، والعميد عبدالكريم رزوق قائد سلاح الصواريخ في الجيش السوري في ١٩٧٧/٦/١٩، والدكتور علي العابد العلمي الأستاذ في جامعة حلب في ١٩٧٧/١٠/١، والدكتور يوسف عيد أحد أقارب اللواء محمد عيد قائد المنطقة الشمالية في ١٩٧٨/٣/٦، والمقدم أحمد خليل مدير الشرطة في وزارة الداخلية، وأحد المقربين للرئيس الأسد ١٩٧٨/٨/١ . وقد ذكرت صحيفة اللوموند الفرنسية في ١٩٧٨/٨/٢٣ أن علي العابد العلمي وإبراهيم نعامة قريبا الرئيس من ناحية زوجته، وأن أصلهما يعود إلى منطقة القرداحة . كذلك أوردت اللوموند في ١ / ٤/ ١٩٧٨ أن اللواء ناجي جميل رئيس مكتب الأمن القومي عزل من منصبه كنائب لوزير الدفاع، وقائد للقوى الجوية لإخفاقه في إيقاف الاغتيالات» [1].

أثر الأحداث على السلطة:

«أسهم تطور آخر في سورية عام ١٩٧٧ في زيادة تدهور مركز الأسد، وذلك عندما أعلن في ٧٧/٨/١٨ عن تشكيل لجنة للتحقيق في الكسب غير المشروع . وذلك أملاً في أن يعيد لنظامه بعض اعتباره المفقود من جراء تدخله العسكري في لبنان، ويبدو أن الهدف من الحملة التي ابتدأت ضد الفساد كانت تبديد السخط الشعبي من سياسات الحكومة الاقتصادية وانتشار الفساد في الدوائر الحكومية والقطاع العام . وفي الواقع حكم على هذه الحملة بالفشل منذ بدايتها، حيث ثبتت تهمة الفساد على عدد من الضباط المقربين من الرئيس الأسد، والذين يشكلون جزءاً لا يتجزأ من النواة الصلبة لكتلة الأسد العلوية . ولما كان

---

(١) الصراع على السلطة في سورية لـ: فان دام، هامش ٩٩-١٠٠ .

إبعاد هؤلاء الضباط عن الجيش، أو اتخاذ إجراء تأديبي شديد بحقهم يضعف كثيراً قوة كتلة الأسد، وبالتالي قوة النظام ككل، فقد ارتؤي أنه من الأفضل عدم المساس بأبرز الضباط، ونتج عن ذلك تزعزع الثقة في جدية النظام في تنفيذ حملته على الفساد بما ألحق الضرر بسمعة النظام واعتباره مرة ثانية [١] .

ويمكننا أن نستخلص من إخفاق الحملة على الفساد مثالاً آخر على المأزق الذي يوجد نظام البعث السوري نفسه فيه مرات عديدة منذ استيلائه على السلطة عام ١٩٦٣، ويعود هذا إلى طبيعة تكوين نواة الزعامة السياسية الحاكمة، فهي حزب سياسي أو جناح من ذلك الحزب، وجد نفسه مضطراً عند استيلائه على السلطة للاعتماد على الولاءات التقليدية حتى لا يفقد القوة اللازمة لتحقيق أيديولوجيته . إن تلك الأيديولوجية تدعو إلى التخلص من الولاءات الطائفية والإقليمية والعشائرية . وهكذا أصبحت المشكلة تدور في حلقة مفرغة، فلا بد من القوة والسلطة إذا أريد التحويل الاجتماعي الجذري اللازم لقمع الولاءات الطائفية والإقليمية والعشائرية . ولكن لا يمكن البقاء في السلطة، والحفاظ على القوة دون الاعتماد على هذه الولاءات مما يحول دون قمع هذه الولاءات في النهاية»[٢] .

وقد ذكرت بعض التقارير أن الرأي العام يعتبر شقيق الرئيس المقدم الدكتور رفعت الأسد أحد أقطاب الفساد المعروفين، والمستفيد الرئيسي من ورائه في سورية ... ووفقاً لما ذكرته دورية **Arab Report and Record** في ١٥/٧/٧٧ ص٥٥٩، فقد كان من المعتقد أن العلويين يحتلون ثمانية عشر منصباً

---

(١) والمضحك المبكي في الأمر أن عدداً من الوزراء السنة المتهالكين على خدمة النصيريين ألحقت بهم تهمة الفساد وأودعوا في السجن وحملوا روث الفساد النصيري .

(٢) الصراع على السلطة في سورية لـ: فان دام / ١٠١-١٠٢ .

من أصل خمسة وعشرين في قيادة الجيش»[1] .

إن متاعب الأسد الداخلية خلال عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨ وتزايد أهمية أخيه رفعت قد نجم عنها أول شرخ خطير في صفوف نخبة رجال السلطة . كان ناجي جميل وهو سني [2] من دير الزور صديق الأسد ورفيقه من الأيام المبكرة لتدربهما على الطيران، وقد لعب دوراً في انقلاب عام ١٩٦٣، ورافق الأسد إلى لندن سنة ١٩٦٥، واستلم منه قيادة القوة الجوية عام ١٩٧٠، وفي عام ١٩٧٨ كان أيضاً نائب وزير الدفاع ومدير مكتب أمن الدولة - ولعله كان باعتباره المسؤول الأول عن المخابرات- الدعامة الكبرى للنظام، وفي آذار/مارس سنة ١٩٧٨ نزل به غضب مفاجئ تماماً وأحيل إلى التقاعد بهدوء (رغم أنه احتفظ بمقعده في القيادة القومية لمجرد إنقاذ ماء وجهه)، وحلّ محل جميل في منصبه الحساس بأمن الدولة شخص آخر من رجال الأسد المقربين، ممن كونوا حياتهم المهنية في مخابرات القوى الجوية، وهو اللواء محمد الخولي .

ويظهر أنه كان وراء سقوط جميل عوامل ثلاثة: كان أوضحها تدهور الوضع الأمني الذي عجز عن معالجته، وخصوصاً أن ضغوط تلك الأيام قد وضعته في مواجهة رفعت الذي كان يتطلع إلى أن يصبح وحده المسؤول عن مكافحة الإرهاب . ولكن غلطة جميل القاتلة كانت تعبيره عن عدم الاحترام للأسد في المجالس الداخلية للنظام . إذ يشاع أنه تجرأ على القول بأنهم مثلما صنعوا الأسد فانهم قادرون على خلعه أو تغييره ..» [3]

---

(١) المصدر نفسه، هامش ١٠١ .

(٢) تقول بعض الروايات المطلعة أنه نصيري مقيم في دير الزور منذ زمن قديم حيث كان أبوه موظفاً هناك، وأهل دير الزور ورجالات عشائرهم يعرفون ذلك .

(٣) الأسد لـ: باتريك سيل / ٥٢٤-٥٢٥ .

تحليل للكتل الطائفية والإقليمية منذ ١٩٦٣-١٩٨٠:

شكلت ثورة ١٩٦٣ منعطفاً بالغ الأهمية في تاريخ سورية الحديث فيما يتعلق بتغلغل وتقهقر بعض المجموعات الطائفية والإقليمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخل مؤسسات السلطة، يقول فان دام: «أدى استيلاء البعثيين على السلطة في ٨ آذار ١٩٦٣ إلى تغيير مفاجئ في العلاقات بين السنيين وغير السنيين والمدنيين والريفيين والأغنياء والفقراء والمحافظين والتقدميين، وتمثل هذا التغيير في التركيب الجديد للزعامة السورية.

فمنذ عام ١٩٤٢ وحتى ١٩٦٣ شغل أبناء المدن السنيون من دمشق، ثم من حلب في الدرجة الثانية المناصب الرفيعة الهامة جنباً الى جنب مع الأثرياء وأعضاء الأحزاب السياسية المحافظة، بينما كان نصيب الأقليات الدينية (ولا سيما الأقليات غير السنية) وأبناء المناطق الريفية ضئيلاً جداً في المؤسسات الهامة، وقد استهدفتهم التفرقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالمقارنة مع مجموعات السكان الأخرى .

وانقلبت العلاقة بين هذه المجموعات انقلاباً جذرياً بعد ٨ آذار ١٩٦٣، ويتجلى هذا الانقلاب في حقيقة أن أفراد الطوائف الإسلامية غير السنية - خصوصاً العلويين ثم الدروز ثم الإسماعيليين- وأبناء المناطق الريفية الفقيرة وخاصة من منطقة اللاذقية تقدموا بقوة، واحتلوا مناصب تفوق كثيرا نسبتهم العددية، بل وصلت الأمور إلى أبعد من ذلك حين استلم قيادة الحياة السياسية أفراد من البورجوازية الصغيرة، ومن الأحزاب السياسية التقدمية إلى حد يمكننا اعتبار تقدم الأقليات الدينية والقرويين بعد ٨ آذار نوعاً من التحرر الوطني[1] .

---

(١) هذا رأي فان دام في كتابه ص١٢٧.

ويعطينا سامي الجندي أحد مؤسسي الحزب ووزير الإعلام في الوزارة التي شكلت عقب انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ مباشرة وصفاً حياً للتغيير السريع الذي شمل موظفي الوزارات .

« بعد أيام ثلاثة من دخولي الوزارة جاء الرفاق يطالبون بعملية تنظيف واسعة كان مقياس نجاح الوزير قوائم التسريحات، فالحزبيون وأقرباؤهم وبنو عشائرهم يطالبون بحقوق النضال والقربى، وقد بدأت قوافل القرويين منذ ما ظهر الحزب على المسرح تترك القرى والسهول والجبال إلى دمشق، وطفت القاف المقلقلة [١] على شوارعها ومقاهيها، وغرف الانتظار في الوزارات، فكان التسريح لزاماً من أجل التعيين » [٢] .

الوزارات السورية والقيادات القطرية:

تظهر المقارنة بين الانتماءات الطائفية لأعضاء الوزارات السورية منذ ١٩٤٢ حقائق مدهشة، فبينما مثّل المسيحيون -وخصوصاً الروم الأرثوذكس- في الوزارات التي سبقت والتي أعقبت الجمهورية العربية المتحدة، لم يتقلد أي مسيحي منصباً وزارياً في وزارة الإقليم السوري خلال الوحدة السورية المصرية ١٩٥٨-١٩٦١، بينما كانت نسبة الوجود السني ٩٤.٧٪ أعلى نسبة سواء قبل الوحدة أو بعدها [٣] . كما كانت النسبة المئوية للسوريين السنيين أكبر ضمن

(١) القاف المقلقلة: هي لهجة بعض مناطق الريف السوري، وخاصة أبناء الطائفة العلوية .

(٢) البعث لـ: سامي الجندي، ص١٣٦-١٣٧ .

(٣) لا غرابة في ذلك فقد كانت الثقافة حكراً على أبناء المدن، والأغنياء منهم هم القادرون على إرسال أبنائهم للتخصص العالي في الخارج . بينما كانت الأمية والجهالة متفشية بين أبناء الريف والأقليات الدينية المتركزة فيه، وحين اتجه أبناء المدن السنة والأغنياء منهم خاصة إلى العلم والطموح إلى السلطة واستلام الوزارات والرئاسات، كان أبناء الريف يتجهون إلى الجيش، =

الحكومة المركزية للجمهورية العربية المتحدة . وقد يكون سبب ذلك التآزر السني القوي الذي برز خلال الوحدة السورية المصرية بسبب السيطرة البالغة للمصريين وأغلبهم سنيون .

كذلك بينما كانت الوزارات السورية تعكس إلى حد ما خلفية زعامة السلطة السورية، تركزت السلطة السياسية بعد آذار ١٩٦٣ في أيدي القيادات القطرية لحزب البعث، والتي بدأ من خلالها التمثيل المتزايد للطبقات الكادحة والريف ومنطقة اللاذقية والأقليات الدينية .

وقد وصل هذا التمثيل إلى ذروته في الوزارات والقيادات القطرية في الفترة ما بين شباط ١٩٦٦ وتشرين الثاني ١٩٧٠، حيث لم يكن في تلك القيادات القطرية أي وجود للمدن الكبرى كدمشق وحلب، وكان معظم أعضاء القيادات القطرية ينتمون إقليمياً إلى ريف اللاذقية ٢٩.٧٪ ثم محافظة حوران الجنوبية ٢٠.٣٪ ثم دير الزور ١٥.٦٪ . كما كان العلويون أكثر الأقليات الدينية وجوداً فقد بلغت نسبتهم ٢٣.٤٪، ولم يكن من قبيل الصدفة أن يتألق نجم اللواء العلوي - صلاح جديد- الذي كان في أوج سلطته داخل تنظيم حزب البعث السوري، بل يعود ذلك أساساً إلى دعم الزمر الحزبية من المناطق الآنفة الذكر .

وقد عادت نسبة المدنيين السنيين فارتفعت بعد تشرين الثاني في الوزارات والقيادات القطرية على حساب الريفيين والأقليات الدينية، كما زاد عدد الدمشقيين بين الأعضاء المدنيين السنيين في القيادات القطرية على الرغم من ندرة الحزبيين بين أبناء العاصمة السورية . ويمكن أن نعزو ذلك إلى تعاون

=

وخاصة أبناء الأقليات الدينية، وحين سيطر الجيش على الحكم انقضت الطائفة النصيرية على الجيش، وقادت البلد من خلاله .

الرئيس العلوي الفريق حافظ أسد في هذه الفترة مع الضباط الكبار من البعثيين الدمشقيين، ومحاولته أكثر من سابقيه من البعثيين كسب سكان المدن الى جانبه، واتباعه قبل هذا كله سياسة اقتصادية محلية متسامحة تجاه البرجوازيين السوريين[1] بعد عهد صلاح جديد الذي اتبع سياسة صارمة تجاه البورجوازيين وبقايا كبار ملاك الأراضي .

العسكريون في القيادات القطرية السورية ١٩٦٣-١٩٨٠:

إن استعراض الانتماء الإقليمي الطائفي للعسكريين من أعضاء القيادات القطرية السورية بعد ٨ آذار ١٩٦٣ يقدم دليلاً أقوى على الوجود المتزايد للريفيين والأقليات الدينية في الوزارات السورية أو القيادات القطرية في تلك الفترة . فقد كانت نسبة الضباط من منطقة اللاذقية ٤٩٪ أعلى نسبة بين الأعضاء العسكريين، كما وصلت هذه النسبة إلى ذروتها ٦٣.٢٪ في عهد صلاح جديد (١٩٦٦ - ١٩٧٠)، وإذا قمنا بالتصنيف على أساس الأقليات الدينية الدينية فان نسبة الضباط العلويين ٣٧.٧٪ كانت أعلى نسبة في القيادات القطرية السورية ثم تليها نسبة الضباط الدروز ٩.٤٪ ثم الإسماعيليين ٩.٤٪ [2].

وعلى الرغم من أن نسبة الضباط السنيين كانت ٤٣.٤٪ إلا أن ذلك مثلما رأينا من قبل لا يعطي صورة حقيقية عن نفوذهم الواقعي داخل القوات المسلحة، فقد جاء معظم الضباط الذين نحن بصددهم، بعكس زملائهم من الأقليات

---

(١) بينما لم تتغير سياسته تجاه الجيش، بل زاد تسلط النصيريين فيه، وكان ذلك التسامح لاطمئنانه إلى أن القوة كلها في يده.

(٢) مع الملاحظة أن جميع الأقليات تعتبر موقفاً موحداً ضد النسبة السنية، ولهذا كان دور السنة دور التبعية للنصيريين .

المتجعة، من مناطق مختلفة، وبسبب ذلك لم تتوافر الروابط الإقليمية العامة لدعم الولاءات الطائفية الفعلية، ولذلك لم يكن باستطاعة هؤلاء الضباط تشكيل كتلة قوية على أساس إقليمي كما استطاع الضباط من أبناء الأقليات المتجمعة .

ولا وجود للضباط المسيحيين بين الأعضاء العسكريين للقيادات القطرية على الرغم من شغلهم في بعض الأحيان مناصب رفيعة جداً في القوات المسلحة السورية، وتكمن أهميتهم في المجال العسكري التقني، ومن المحتمل أن يكونوا قد لعبوا دوراً هاماً على الصعيد السياسي على أساس شخصي وليس كأفراد مجموعة، إذ يعود الضباط المسيحيون في أصلهم كالسنيين إلى مناطق مختلفة .

قدمنا في الفصول السابقة وصفاً تفصيلياً لما انتهى إليه صراع السلطة بين العسكريين البعثيين منذ ١٩٦٣ إلى تصفية أبرز كتل الضباط السنيين عام ١٩٦٦ والدروز ١٩٦٦ والحورانيين ١٩٦٦-١٩٦٨ والإسماعيليين عام ١٩٦٨-١٩٦٩ . وتفوق بعض كتل الضباط العلويين، ويمكن تتبع هذه التصفيات من خلال تركيب القيادات القطرية السورية، وقد أزيح بعد ٢٣ شباط ١٩٦٦ آخر ضابط سني وهو أمين الحافظ من حلب، وآخر الضباط الدروز سليم حاطوم وحمد عبيد . ولم يعد للضباط الحورانيين وجود في القيادة القطرية منذ تشرين الأول ١٩٦٨ . وكذلك الضباط الإسماعيليون منذ آذار ١٩٦٩، ولم يبق بعد هذا التاريخ غير الضباط العلويين والسنيين كأعضاء عسكريين، مع تمتع العلويين بالتفوق التام، وتمثيلهم للكتل القوية في الجيش، على عكس السنيين الذين كانوا أكثر منهم بقليل، ويمكن تفسير انتخاب رفعت الأسد عضواً في القيادة القطرية السورية في نيسان ١٩٧٥ كانعكاس لواقع اعتماد الرئيس بعد ١٩٧٠ اعتماداً كبيراً على

الضباط من أسرته وعشيرته والقوى المحيطة بقريته»[1] .

مروان حديد: عرض لشخصيته [2]:

مروان رَحِمَهُ اللَّهُ من أسرة عريقة معروفة في حماة، وهو الرابع في خمسة أشقاء وله أربع أخوات. تتميز هذه الأسرة بما آتاها الله من بسطة في الجسم وميزات قيادية، وإن اختلفت مشاربهم واتجاهاتهم، فشقيقه الكبير واسمه أحمد محام مشهور ومزارع كبير آثر العمل خارج حماة في منطقة الجزيرة، وهو أحد الأعضاء البارزين للحزب الاشتراكي الذي ينتمي إلى أكرم الحوراني، ومسؤول عن منطقة الجزيرة بأكملها، وشقيقه عدنان له نفس الاتجاه مع صبغة تحررية واضحة، عاش ولا يزال يعيش في أوربا بعد أن تزوج بفتاة دانمركية، ومعه دكتوراه في الصيدلة والمخابر، وأخوه الثالث كنعان ضابط مسرّح له نفس الانتماء، مسرّح برتبة رائد أيام الوحدة مع مصر بعد خصام مع ضابط كبير ناصري مصري أدى إلى إشهار السلاح .

ويأتي مروان عليه الرحمة والرضوان بكل ما في هذه الأسرة من مؤهلات شخصية تؤهلها للتقدم، فليسوا فقط طوال الأجسام أقوياء الأبدان، وإنما يتميزون بذكاء ربما يفوق غيرهم من الأقران، مع صلابة في المواقف، وكرم وسخاء جعل هذه الأسرة رغم مشاريعها الضخمة وتجاراتها الواسعة مستورة الحال كغيرها من أسر الطبقة المتوسطة، وخامسهم شقيقه رضوان . ومروان نشأ في وسط مثقف متطلع في مرحلة من أهم وأخطر المراحل التي مرت بها أمتنا، مرحلة الكفاح

---

(١) هذا الفصل في معظمه مأخوذ من كتاب: الصراع على السلطة لـ:فان دام / الصفحات ١٠٣-١٠٩.

(٢) مأخوذة من كتاب: الإخوان المسلمون والمؤامرة على سورية لـ: جابر رزق / ١٥٥ .

ضد الاستعمار، ثم غرس إسرائيل في قلب الأمة الإسلامية، وهي مرحلة يرى فيها تسلط الإنسان على أخيه الإنسان واضحاً جلياً، يدفع بالنفس الأبية إلى البحث عن الخلاص ..

والشهيد مروان حديد كان شاباً ممشوق القامة، قوي البنية، مسرّح الشعر، حليق الشارب واللحية، يلبس القميص والبنطلون، له لياقته، ولباسه يلفت النظر .

مروان ولد في حماة عام ١٩٣٤ من أبوين مسلمين محافظين أشد المحافظة، والده الحاج خالد حديد يعمل تاجراً في أسواق حماة التجارية، ووالدته الحاجة رئيفة البارودي رحمها الله اشتهرت شهرة واسعة في كرمها وسخائها. فكم وكم تصدقت حتى بأثاث البيت والثياب، وربما ببعض ما ترتديه عليها . فهي لا تطيق أن تسمع كلمة نجدة أو استغاثة حتى تكون لها ملبية بما تملك وربما فوق ما تملك .

تدرج مروان في مدارس حماة الابتدائية والإعدادية والثانوية . وحصل على البكالوريا -الفرع العلمي- عام ١٩٥٥، وتسجل في كلية الزراعة جامعة عين شمس عام ١٩٥٦، وتخرّج منها في عام ١٩٦٤، ثم التحق بكلية الآداب قسم الفلسفة في عام ١٩٦٥-١٩٦٦ جامعة دمشق، وتخرج منها عام ١٩٧٠، والذي أعلمه أن مروان كان مسؤولاً مالياً عن التنظيم الاشتراكي في ثانوية ابن رشد في الفترة التي سبقت التحاقه بجماعة الإخوان المسلمين . ولقد حدثني شخصياً عن أول سبب دعاه إلى الانتماء الفكري ثم العضوي إلى هذه الجماعة بقوله:

«لقد كنت كما تعلم اشتراكياً بدافع البيئة التي أعيشها بين أشقائي، وبدافع من واقع الأمة المرير الذي يبحث عن طريق الخلاص . وفي يوم من الأيام دخلت البيت وإذا بأخي الكبير يقول: قتل اليوم أخطر رجل على الأمة العربية . وكال إلى هذا الرجل الشتائم والسباب بأقذع العبارات . قلت: من هو ؟ قال: حسن

البنا شيخ الإخوان في مصر . فتتبعت الخبر من الراديو وتيقّنته . ثم وجدت نفسي تحت وطأة خاطر ملح أن أتعرف على فكر هذا الرجل، ومدى خطورته على العرب، فقرأت رسائله، وما أمكنني يومها أن أطلع عليه وأسمع منه، وكان التحول من العماية إلى الهدى، ومن الضلال إلى الرشاد، ومن الجندية للباطل إلى الجندية للحق» .

ومن بعدها عرف مروان بين الإخوان من أكثرهم تمسكاً بالدعوة للإسلام وتعاليم الإسلام وشرائع الإسلام .

ومروان جدي فيما يعتقد، وكانت مرحلة انقلابات في سورية ومتابعاتها للحركة الإسلامية من قبل الحكومات المتعاقبة الإنقلابية . وكان العمل في تلك الحقبة سرياً، ويتركز في جامع النوري الشهير بحماة . فكان البعض يستغرب من مروان كثرة صلاته وتمسكه بالجماعة، وطول سجوده حتى اذا أطال واحد السجود من زملائه قيل له: أتصنع كما يصنع مروان ؟

وشارك مروان في نشاطات الجماعة في صحبة إخوانه الذين أحبهم وأحبوه، وكانوا طليعة الجهاد والتضحية أمام أعداء الإسلام وعلى الأخص الشهيد حسن عصفور رحمه الله، فساهم مساهمة فعالة في ردة فعل العالم الإسلامي على إعدام الإخوان الستة من قبل عبد الناصر، كما ساهم قبلها في العمل أثناء الانتخابات بين الدكتور السباعي مراقب الجماعة وبين رياض المالكي الاشتراكي التقدمي، وشهد كيف تزوّر الانتخابات، وتزيف الحقائق، وتتدخل الدول، وتباع وتشترى الضمائر من قبل بعض الذين يلبسون لباس العلم والمشيخة .

وكان لإعدام الإخوان واضطهادهم بالغ الأثر وأعمقه في قلبه وحسه المرهف . فأعلن عداءه لعبد الناصر الذي خان عهوده ووعوده، وحاربه في كل مكان . وكان أشد ما يكون عداءً ومحاربة عندما تحول إلى مصر ليتلقى علومه

فيها، وعبد الناصر يومها زعيم العرب وبطلها، وفي الداخل جلاد مصر ومرعبها . ولكن هيهات أن يتطرق إلى قلب مروان خوف من بشر كائناً من كان، حاكماً أو محكوماً، صغيراً أو كبيراً فقد امتلأ قلبه بحب الله والخوف منه، فلم يعد لسواه في قلبه نصيب . كيف وقد لقّن الدنيا درساً لم تعرفه إلا من أمثاله من المؤمنين الصادقين، لقّنها كيف تكون ذليلة حقيرة تافهة أمام الأهداف السامية الرفيعة ورضاء الله تعالى . فما رأيت رجلاً داسها بقدميه مترفعاً بإباء وشمم عنها وهو قادر عليها مثله .

دخل مروان إلى مصر بهذه الروح فلم يفتر، ولم ينقطع عن الدعوة إلى الله، واستخلاص الخوف من قلوب من حوله، حتى تربى ونشأ بقربه جيل من الشباب المصري أحب الموت والاستشهاد في سبيل الله . وأدبر عن الدنيا بقلبه وسلوكه . فكانت طلائع الربانيين الذين اكتووا بنار المحنة في عام ١٩٦٥ وما تلاه . فمنهم الشهداء ومنهم الأبطال، ومنهم من بقي على قيد الحياة، وفياً بعهده، ثابتاً على دينه، مخلصاً لربه، لم تفت في أعضادهم صليل السلاسل، ولا عواء السياط، ولا تمزيق الأجساد وتحريقها، والأمثلة على ذلك كثيرة .

والمرحلة التي عاشها في مصر، مرحلة صراع فعلي مع رجال المباحث، تدرّب فيها على مصاولتهم ومصارعتهم، ودرّب عليها إخوانه، كيف ينظرون إلى هذه الأدوات السيئة مرة بالازدراء، ومرة بالرحمة والإشفاق . ولم يكن تأخره في الجامعة إلا لأن جلّ وقته ومعظم أيامه يقضيها في الدعوة، وشرح العقيدة والمبدأ، ولم يترك مصر إلا بعد أن ترك بصمته وروحه منطبقة على كثير من الشباب الذين يحبون الموت في سبيل الله كما يحب غيرهم الحياة .

جاء انقلاب عام ١٩٦٣ بحزب البعث إلى السلطة في سوريا، وبدأت العناصر الباطنية المتسلطة على هذا الحزب الملحد تمد أعناقها، وتحكم قبضتها

على مقاليد الحكم من وراء ستار، دون أن تسفر علانية عن وجهها . وعاد مروان رحمه الله في أوائل شهر آذار/مارس ١٩٦٤ من مصر بعد حصوله على بكالوريوس الهندسة الزراعية، شعبة محاصيل من كلية الزراعة، جامعة عين شمس . وسرعان ما أحس بالخطر الذي يكمن وراء هذا الحزب الملحد . فقام يدعو الناس ويحذرهم وينذرهم ويبين لهم بحسه المرهف وشفافيته للأمور أن هؤلاء القوم لا يهادنون فيما يصنعون، ولا بد من مجابهتهم من اللحظة الأولى وإلا استشرى خطرهم، وقويت قبضتهم، وعندئذ سيدوسون المقدسات وينتهكون الحرمات، ولن يجدي بعد ذلك علاج، فكشف نواياهم، وعرّى خططهم وألهب حماس الشباب، وغذاه بروحه التي تستهين بالطواغيت، وتحب الموت كما يحب غيره الحياة، وكان لا بد لهذه الدفعة الإيمانية العارمة ولهذه الروح المتصلة بالله أن تصطدم بالكفر والالحاد للتباين الواضح والمفارقة المعروفة . فكانت أحداث جامع السلطان في ١٤ نيسان ١٩٦٤، وكما كانت أهداف مروان وإخوانه نبيلة شريفة، كانت خصومته كذلك رغم وقاحة العدو ونذالته .

مروان يعرف جيداً من هو حزب البعث ؟ ما هي مبادئه ؟ ما هي أهدافه ؟ من هو مؤسسه ؟ من هم أنصاره ؟ الطائفية الحاقدة المستترة وراء شعاراته، لذلك لم يفتر لحظة واحدة عن الإعداد النفسي والحركي لمجابهته بشتى الوسائل .

وبعد أن خرج من السجن مع إخوانه في أحداث حماة عام ١٩٦٤ تابع مروان مسيرته كالمعتاد، واعتقل بعدها عام ١٩٦٦ إلى ما بعد حرب ٥ حزيران ١٩٦٧ مع مجموعة كبيرة من الإخوان والعلماء من سوريا، ثم أفرج عنه ومن معه أثناء الحرب . ولكن مروان هو يدرك أن الأمور تتطور من خطر إلى خطر خاصة بعد تسليم الجولان الحصين، ولم يكن الأمر مفاجئاً بل كان متوقعاً .

فشارك مع العمل الفدائي، ودفع بالعديد من الشباب للتدريب على القتال

والسلاح[1]، وربما خالف بذلك رأي الكثير من الإخوان، ولكنه كان أبعد نظراً إذ تخرج على يديه مجموعات جيدة من المقاتلين الذين شاركوا في العمل الفدائي وكوّنوا نواة الجهاد في المقاومة المسلحة في سوريا .

ولم تكن السلطة الغاشمة بغافلة أو متغافلة عن تحركاته ونشاطه، بل كان همها الوحيد أن تلاحقه وتراقبه في كل مكان وزمان، وأن ترصد أعماله، فزجت به في السجن مرة ثانية . وفي هذه المرة رمت به في سجون الشمال من الجزيرة السورية، ليلبث حوالي أربعة أشهر، ثم أطلق سراحه، ومروان هو مروان، لم يتوان لحظة واحدة عن الاستمرار في الطريق الذي نذر له روحه وحياته ويردد كلمته المشهورة المقتبسة من الحديث الشريف: «الموت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله» . وكانت أحاديثه تدور حول الصبر والمصابرة ومقارعة الأمراء، وأن من كانوا قبلنا كان يؤتى بأحدهم فيمشط بأمشاط الحديد ما بين لحم وعظم، ويوضع المنشار على مفرق رأسه حتى يكون نصفين ما يصدهم ذلك عن دينهم . وكان يبشر بالنصر، ويعتقد أن النصر مع الإيمان والصبر، والقلة المؤمنة وبالسلاح المتاح ويستشهد بالآية الكريمة « وأعدوا

لهم ما استطعتم من قوة»، أي الممكن حتى ولو كانت عصا فقط . فالله تكفل بالنصر إذا صدق العبد ربه .

ومروان لم يخف نفسه، ولم يتحرك وراء الكواليس، إنما كان واضحاً في منهجه، في تحركه، في معتقده، في مجابهته للسلطة، في فكره، وفي حياته البسيطة المتواضعة . مروان أحد القلائل الذين تصدروا مواقع قيادية في الدعوة بإخلاصهم . ومع ذلك نسوا أنفسهم نسياناً كاملاً، أو ما نسميه (فناء النفس أمام

(١) سبق أن أشرنا إلى أن قرار التدريب مع الفدائيين هو قرار قيادة الإخوان المسلمين آنذاك وليس قراراً فردياً .

الدعوة) حتى لم يبق منها إلا الحق، وقد كنت أذكره مرة (أنه اليوم غيره بالأمس، وأنه اليوم ليس فقط لنفسه، إنما هو الآن لإخوانه جميعاً، لبلده، لأمته) فيجيب بابتسامته المعهودة دون كلام، فأفهم منه أن هذا لا يروق له . وأقول بصراحة كذلك: إنه أحد القلة الذين اجتذبوا الشباب إلى الدعوة بدماثة خلقه، وكرم نفسه وتواضعه ودعابته التي لا تفارقه، وتوافق عمله قوله . ولذلك كوّن في أي مكان حلّ به نسخاً من ذاته لها تقريباً نفس المواصفات والسمات .

وقد يكون مروان بعيداً عن أحداث الدستور في أول عام ١٩٧٣، وربما فوجئ به كغيره من إخوانه، ولكن هيهات للسلطة الباغية أن تباشرا اضطهاد الإخوان وتنسى مروان، وأن تدعه حراً طليقاً . فقد حرصت كل مرة على قتله والتخلص منه، ولكن الأجل هو الذي فوّت عليهم ذلك فقط، حرصوا على قتله عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٦ ليلة أن قتلوا المرحوم الشهيد عثمان الأمين، إذ اعتقل مروان في نفس الليلة، وأرادوا اعتقاله في أوائل شهر آذار عام ١٩٧٣ في منزله الكائن في حي البارودية، وكادوا يقتلون ابن أخته لولا أن حذرهم أحد المباحث أن هذا غير مروان .

وشاء الله لمروان أن يختفي بعد هذه المرحلة، وأن يعمل بالخفاء ليعد العدة ليوم تواجه به السلطة الباغية بقوة السلاح، وشاء الله أن يجعل مكان وجوده دمشق . وتنقل بين عدة بيوت لمدة سنتين ونصف تقريباً، وقد دفعت السلطة النصيرية بكل قوتها وحيلها وتجسسها للتعرف على مكان وجوده وإلقاء القبض عليه أو قتله، خاصة بعد مقتل مدير الأمن القومي في حماة وهو نصيري برتبة رائد واسمه «محمد غرة» .

مروان عقد على فتاة مؤمنة تعلم حياته وتدرك نوع العيش الذي يمكن أن تحياه معه، وذلك في أواخر عام ١٩٧٢. وللظروف التي أحاطت به لم يدخل بها،

بل دفعها أهلها إليه في آخر أيامه دفعاً لتبقى بجانبه وتقوم على خدمته، إلا أن الرجل النبيل الذي بدأ يدرك بمرهف إحساسه بالنهاية التي تنتظره أبى أن يدخل بها لكي يوفر لها مستقبلها من بعده، فتسامى وتسامى وهي بجانبه إلى أن داهمته قوة من المخابرات في صبيحة يوم ٣٠ حزيران عام ١٩٧٥ بعد أن خرج أحد إخوانه ليأتيه بطعام فقرع الباب وظن أنه ذلك الأخ .. فتح الباب ليرى نفسه مطوقاً بقوة من العدو، وقبضت عليه بعد أن كبلت حركته بغطاء، واقتادته دون أن يتمكن من المقاومة أو استعمال السلاح .. وقد حدث صدام مسلح بين رجال المخابرات السورية ورجال مروان، واستمر الصدام من الساعة السابعة صباحاً وحتى الخامسة بعد الظهر، استخدم مروان ومن معه الرشاشات وبعض القنابل، واستخدم رجال المخابرات الصواريخ والرشاشات والقنابل، وقاموا بعمليات إنزال بطائرات هيلكوبتر على سطح البناية، ولم يستسلم مروان ومن معه إلا بعد نفاذ الذخيرة، وبعد أن أصيب مروان في كتفه، واستشهد واحد من الذين كانوا معه . إن بعض الاخوة الذين كانوا في البيت وزوجته وزوجة أخ آخر باشروا المقاومة المسلحة لساعات عديدة حتى استشهد أحدهم وجرح الآخر، وتمكنت السلطة من إلقاء القبض على أخوين لا زالا في السجن، وكذلك على الزوجتين اللتين أطلق سراحهما بعد ثلاثة وعشرين يوماً، لم يكن هناك محاكمة سرية أو علنية لمروان، وإنما كان التحقيق المعروف لدى رجال المباحث والمختصين بشؤون التعذيب والتصفية الجسدية . ومروان قوي البنية والشكيمة صعب المنال، لا يبالي أن يقاوم حتى ولو كانت يداه في القيود، فاتبعوا معه أسلوباً جديداً في التعذيب النفسي والجسدي، أما النفسي فكانوا يسمعونه صوتاً كزوجته وهي تعذب ويراد اغتصابها حتى أنهكوه، ولم يكن من هذا شيء، إنما هي الوسائل الخبيثة الحديثة، وعذب بالأضواء المبهرة، وكان أعظم وأشد تعذيبه على نفسه

وما استطاعوا أن يكبلوا به قواه ويحدوا من مقاومته هو كشف قبله ودبره، ومروان معروف بشدة حيائه وخجله، فإذا أدخلوا عليه الزنزانة انكمش على نفسه ليستر عورته التي أرادوا كشفها وأراد الله سترها . وهناك يكيلون له صنوف العذاب الأخرى، بهذه الطريقة تمكنوا من السيطرة على مروان، وإلا لكال أمام الكلمة بكلمة والصاع بصاعين، ثم أجاعوه حتى خارت قواه . وكانوا يقدمون له الطعام بعد أن يمزجوه أمام ناظريه بالأقذار، ومن يعرف مروان بأنفته يدرك أنه قتلوه جوعاً قتلهم الله .

مروان صاحب الطول الفارع والجسد الممتلئ والقبضة الحديدية ينقل عن أحد الذين شاهده بحالة هو فيها أقرب إلى الهيكل العظمي منه إلى الجسد العادي . يقول مروان له بعد أن سقاه هذا الشخص لبناً بيده تقيأ . وبعد أن صحا قليلاً قال: انقل عليّ وقل للناس: إن هؤلاء الكلاب (ويعني بهم المخابرات والمحققين) لم يحصلوا مني على كلمة واحدة !!

ثم ساءت حالته الصحية بعد ذلك إلى درجة يئست السلطة منه، فأرادت أن تخفي جريمتها، فأرسلت وراء أخيه أحمد، ونقلت مروان إلى مستشفى حرستا العسكري، ومروان قد أعياه الجوع وأضناه الجهد وهبط ضغطه، فكان أخوه يتوسل إليه أن يأكل ويشرب فيرفض لكثرة ما رأى من تلويث الطعام والماء بالبول والغائط فقال له مروان:

يا أخي أشرب وآكل بشرطين، أحدهما أن يكون الماء من حماة، والثاني أن تصلي.

فقال له أخوه: أفعل. وقد كان .

وبدأت صحته في التحسن، وضغطه يعود إلى الوضع الطبيعي، وعاد إلى الحديث مع أهله .

وفي مساء أحد الأيام عاد إليه أهله ليجدوه يجود بروحه الطاهرة، وقد أشار إليهم أنه قد أعطي حقنة في عنقه . وإذ بالأجهزة تشير إلى أن ضغطه أخذ يهبط من جديد، وأن حالته تسوء، ثم فاضت روحه الطاهرة زكية إلى بارئها لتلتقي مع ركب الشهداء الذين سبقوه ويستبشرون بقدومه كما يستبشر هو بقدوم إخوانه من خلفه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

استشهد مروان ولم يُسمح لأهله بدفنه في حماة فدفن في دمشق، وكانت جنازته محاطة بقوات غفيرة من الجند وحاملات الجنود والمخابرات ورجال المباحث . وبعد دفنه بقيت الحراسة على قبره، ويعتقل كل من يزور القبر .

وهكذا عاش مروان حديد حميداً ومات شهيداً وبلغ أسمى أمانيه .

كان مروان حديد كامل الالتزام بجماعة الإخوان المسلمين في سورية . يلزم أوامر قادتها، وكان لا يخيفه شيء ولا يرعبه خبر مثل تهديد الإخوان له إذا لم يلتزم في أمر ما أن يدرسوا فصله عن الجماعة . فكان ينصاع لأمر الجماعة، وينزل على رأيها، ويتنازل عن رأيه الشخصي خوف الفصل . عشنا هذا العمر معه لا نعرف أنه فكر يوماً في تشكيل جماعة خاصة تحمل اسمه، إنما كان مروان يعتبر نفسه فرداً عادياً، وينادي بالإعداد والجهاد من خلال أجهزة الجماعة ومؤسساتها، ونعوذ بالله من الافتراء عليه بعد استشهاده [1]

---

(١) تختلف الروايات حول موقفه في آخر حياته رَحِمَهُ اللهُ، إذ تشير بعضها إلى أنه أسس تنظيماً قبل استشهاده أسماه الطليعة المقاتلة لحزب الله) ولم يسمها بـ (الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين) حتى لا يتعرض شباب الإخوان لخطر من جراء هذه التسمية . ورواية تقول إن الشهيد عبد الستار الزعيم هو الذي أسس التنظيم المذكور، وأن عدنان عقلة هو الذي عدل التسمية من (الطليعة المقاتلة لحزب الله) إلى (الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين) كي يجر قواعد الإخوان إلى المعركة.

وأذكر لمروان موقفين من مواقفه التي تنم عن عظمة شخصيته، ومدى التزامه بالإسلام والدعوة إليه . الموقف الأول: في حوادث حماة عام ١٩٦٤ وبعد أن هدم الطغاة مسجد السلطان في حماة، واعتقل مروان آخر من اعتقل في المسجد، حيث تقدموا نحوه وهم يطلقون عليه الرصاص خوفاً منه وهو أعزل من السلاح، ولكنه قوي بإيمانه، كنت أرى ثقوب الرصاص في ثوبه وعباءته دون أن يمس جسمه بأذى، وحين اقتربوا منه حصل تماسك بالأيدي، فضرب ثلاثة من الضباط بقبضة من يده، وفي كل مرة كان يلقي المضروب أرضاً، وعقب كل ضربة كانوا يتكاثرون عليه، ويكيلون له الضربات بكعوب البنادق ولا يتركونه حتى يغمى عليه، وفي النهاية اقتادوه إلى غرفة المحافظ في السراي العام حيث كان يوجد أمين الحافظ نفسه وهو رئيس الجمهورية وقت الحادث، دخل عليه مروان وهو مضرج بدمه مشجوج الرأس خائر القوى، يمسك به جنديان عن اليمين وعن الشمال . فجابه أمين الحافظ، وكان معروفاً ببذاءة لسانه، فلما سبّ مروان تماسك مروان وأجابه إجابة سجلت بأحرف من نور .

قال لأمين الحافظ وهو رئيس الجمهورية وقتئذ:

لتكن خصومتك يا أمين شريفة ! فبهت أمين الحافظ وخرس .

أما موقفه الثاني: فقد رواه لي أحد إخون مروان الذين حكم عليهم بالإعدام معه عام ١٩٦٤، قال هذا الأخ بعد أن ألقى فضيلة الشيخ محمد الحامد رحمه الله بثقله لإلغاء أحكام الإعدام على مروان وإخوانه الذين اشتركوا في حادث جامع السلطان في حماة، واستجاب أمين الحافظ وألغى أحكام الإعدام، لم يرق هذا لعزت جديد أحد الضباط النصيريين المتنفذين يومها، فاقتحم السجن بجنده المدججين بالسلاح، وأمر السجناء المحكوم عليه بالإعدام أن يتهيأوا لتنفيذ الحكم فيهم، وأمام كل منهم خمس دقائق فقط لكتابة وصيته ولترتيب أنفسهم .

فتنازع الإخوان كل يريد أن يكون أول من ينفذ فيه حكم الإعدام . ولكن مروان رحمة الله عليه قام وقال:

يا إخواني أما الأول فلا نزاع عليه، إذ أنه لن يكون أمامي أحد .

فما كان من الإخوان إلا أن اقترعوا على الثاني والثالث .

لقد كان مروان - ولا أزكي على الله أحداً - أحسبه كان أهلاً لمقام الشهادة، فأنعم عليه بها ربه وتقبله الله شهيداً . جمعنا الله وإياه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

ومضى مروان إلى ربه، ولكن بقي في نفوس إخوانه المجاهدين قدوة ومثلاً حياً للجهاد والتضحية والصبر والثبات، وهم على الطريق الذي سلكه مروان سائرون . وتحت لواء رسول الله ﷺ يجاهدون حتى تعلو كلمة الله، وتنكس راية البعث النصيرية الكافرة . والله معهم ولن يحبط أعمالهم»[1] .

---

(١) الإخوان المسلمون والمؤامرة على سورية، لجابر رزق/ ١٤٣ - ١٦٧ . وقد كتب هذا الفصل من أحد أصدقاء مروان الخلّص، تركناه على ما هو دون تدخل فيه وكما أورده جابر رزق في كتابه المذكور رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

الفصل الخامس

العقاب المتعطش للدم

اخترنا هذا العنوان من (باتريك سيل) الذي يحدثنا تحت هذا العنوان الجزئي فيقول:

«وفيما بين عامي ١٩٧٧ - ١٩٨٠ كان الأسد يبدو بطيئاً في رد فعله إزاء الأزمة الداخلية، وكأنه يتردد في الاعتراف بوجود انشقاقات عميقة في مجتمعه، ولعل حذره الطبيعي كان مسؤولاً إلى حد ما عما ظهر وكأنه يشبه السلبية تقريباً . ولكنه كان من الصعب عليه أيضاً أن يعترف بأن جهوده لتوحيد البلد حول شخصه لم تفشل فحسب، بل كانت تنهار إلى هاوية حرب أهلية فعلية . فالرجل الذي كبح جماح تعسف أجهزة الأمن عند استلامه للسلطة، والذي أعاد الثقة بحكم القانون، وجد نفسه تحت ضغط الاضطرار الى اللجوء لأقسى الأساليب، وشرع رجل المصالحة تحت ضغط الظروف يتحول إلى حاكم مطلق، وهو تحول لم يكن الأسد مسروراً به»[١].

حادثة المدفعية:

على ما ترويه مصادر الطليعة، تؤكد أن قيادة الطليعة التي كان يقودها آنذاك

---

(١) الأسد، لباتريك سيل / ٥٢٨. وسواء كان الأسد مسروراً بذلك التحول أو لا، فإنه بقي مستبداً طوال عمره، وعاجزاً عن أن يكون غير ذلك، وكان الثمن الذي دفعه الشعب دماء أبنائه وتمزيق وحدته، وكل ذلك فعله الأسد بسلطانه وعلوه، لكنه لم يكن مسروراً!

الشهيد عبد الستار الزعيم لم تكن موافقة على تنفيذ العملية، وفرع حلب الذي كان يمثله الشهيد حسني عابو لم يكن موافقاً على تنفيذ العملية، إنما أقرها إبراهيم اليوسف وعدنان عقلة والمجموعة التي معهم، والحادثة كما روتها مصادر الطليعة تمت على الصورة التالية:

كان النقيب إبراهيم اليوسف من بلدة قريبة لمدينة حلب تدعى تادف، وكان ضابط الأمن في مدرسة المدفعية، أي أنه يمثل الحزب في السلطة والمدرسة . وكانت دورة الضباط حوالي ثلاثمائة ضابط، نسبة السنة فيهم تتجاوز العشرة بالمائة قليلاً، ومعهم أفراد من الطوائف الأخرى كالدروز والنصارى والإسماعيليين . أما النسبة الساحقة التي تتجاوز الثمانين بالمائة فهي من النصيريين . وواضح من هذا التوزيع أن الدولة ماضية في تحويل الجيش إلى قلعة نصيرية، رغم وجود الجيوش الأخرى الرديفة من سرايا الدفاع وسرايا الصراع والقوات الخاصة، وأمام هذا التمييز العنصري الرهيب لم يكن أمام هذه المجموعة إلا العمل على إبادة هذه الدورة علها تكون دليلاً واضحاً يفقأ عين النصيريين الذين يتسترون على هذا التمييز.

وقد أقدم النقيب اليوسف قبل الحادثة بيوم على إعطاء إجازات للسنيين، وفي يوم التنفيذ، دعا ضباط الدورة إلى اجتماع هام يحضره قائد اللواء ليلقي بهم كلمة مهمة، وتسارع الضباط إلى القاعة المعدة للمحاضرة تنفيذاً لأوامر ضابط الأمن الذي يمثل السلطة الحزبية هناك، واستدعى بقية الضباط السنة وطلب منهم الخروج من القاعة، ثم بعث سيارة خاصة بمهمة خارج الثكنة، حيث عادت محملة بمجموعة الشباب الفدائي الذي سينفذ الاغتيال الجماعي . وقد دخلت السيارة وهي مغطاة، وفي داخلها مجموعة الشباب المذكورة، وعندما تأكد من وصول هذه المجموعة الفدائية، وزع المهام بحيث بعث بعضهم إلى سرية

الحراسة، فاعتقلوا الحرس أو قتلوهم، وبعث مجموعة أخرى، فدمرت غرفة الاتصالات السلكية واللاسلكية . وتقدمت المجموعة المتبقية من الفدائيين من نوافذ القاعة، وأطلقت النار من الرشاشات والقنابل على الضباط الموجودين في القاعة بعد أن خرج إبراهيم اليوسف وأعلمهم أنه قد حكم عليهم بالإعدام جميعاً . وبعد أن تم تنفيذ العملية تحركت هذه المجموعة بالسيارة الآنفة الذكر، وغادرت الثكنة . ولم تبلغ السلطات أنباء الحادثة إلا بعد ساعتين تقريباً من وقوعها نتيجة تدمير غرفة الاتصالات السلكية في الثكنة . وتقدر مصادر مطلعة أن القتلى قد تجاوزوا المائتين . بينما تذكر مصادر الدولة أن مجموع القتلى بضع وثلاثون ضابطاً، ومجموع الجرحى بضع وخمسون .

آثار الحادثة: «وقعت الحادثة في السادس عشر من يونيو/ حزيران ١٩٧٩ في مدرسة المدفعية في حلب، وقد نفى وزير الإعلام السوري أحمد اسكندر أحمد أن معظم الضحايا من العلويين . وأعلن أن من بين الضحايا مسيحيين ومسلمين سنيين . وعلى الرغم من أنه ربما كان صحيحاً أن القتلى والجرحى لم يكونوا جميعاً من العلويين، إلا أن اعتقاد الرأي العام أنهم علويون كان أكثر أهمية، ولاشك أن هذا كان هدف القتلة، لأن مثل هذا الاعتقاد سيشجع الاستقطاب الطائفي، ويزعزع بالتالي النظام البعثي الذي يسيطر عليه العلويون، ووفقاً لما قاله من سمي بنائب قائد الإخوان المسملين[١] في سورية، والذي اعتقل وأجبر على الاعتراف في التلفزيون السوري في دمشق، فإن هذه الأعمال لا بد أن تؤدي لشق الجبهة الداخلية وزرع الطائفية مثلما حدث في لبنان . كان أحد الجوانب

(١) هو في الحقيقة نائب قائد الطليعة الشهيد حسني عابو، ولم يكن لقيادة الإخوان المسلمين علم بالحادثة .

المخيفة لمذبحة حلب الجماعية إظهارها تغلغل السنيين النشيطين في الجيش، وأن كراهيتهم للسيطرة العلوية بلغت بهم حد القتل، ولم يكن النظام أقل انزعاجاً من حقيقة أن الضابط السني الذي قاد مذبحة حلب كان نفسه عضواً في حزب البعث .

واتهم وزير الداخلية السوري في بيان صدر في ٢٢ يونيو/ حزيران الإخوان المسلمين بمسؤولية الاغتيالات [١] .. وبدأت بعد مذبحة حلب حملة فورية في طول البلاد وعرضها لاستئصال تنظيم الإخوان المسلمين . وافتتحت بإعدام ١٥ من:«أعضائها كانوا في السجن . وقال بيان محكمة أمن الدولة العليا في ٢٧ يونيو/ حزيران ١٩٧٩ إن الإمبريالية والصهيونية حرضتا عملاءهما في بلادنا على الاستمرار في الأعمال الإجرامية من قتل وتدمير وبذر بذور الفتنة بين أبناء شعبنا، كل ذلك تحت غطاء الدين وهو منهم براء ..» [٢].

كان حافظ الأسد في زيارة للعراق عندما وقع حادث المدفعية، وكان بصدد توقيع وثيقة الاتحاد بين العراق وسورية وبين شطري الحزب، وقد اكتشف النظام العراقي منذ الخطوات الأولى مع النصيريين الحاكمين في سوريا أن هذا التقارب ما هو إلا تغطية على مؤامرة انقلابية معدة في العراق . تستهدف الإطاحة بالنظام، والمجيء بنظام طائفي شيعي هناك، وفي أقل من شهرين، اكتشفت المؤامرة، وعادت الأوضاع فتأزمت بين البلدين، ولم تصطلح بعد ذلك بزمن طويل .

«وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٨٠ بينما كانت الأزمة تزداد عمقاً واستفحالاً، عين الأسد رئيس وزراء جديداً هو الدكتور عبد الرؤوف الكسم، الذي كان

---

(١) كان هذا أول اعتراف رسمي من السلطة أن الإخوان المسلمين في سورية هم وراء مسلسل الاغتيالات فيها.

(٢) الصراع على سورية، لفان دام/ ١١٤ و١١٦ .

مهندس تخطيط المدن، وأستاذاً جامعياً عمل فترة قصيرة محافظاً لدمشق، وكان معروفاً بنزاهته[1]، وكان والده رجل دين دمشقياً (مفتياً)، وكان عبد الرؤوف من معارف الأسد أيام كان طالباً. فقام الكسم بزيادة رواتب مستخدمي الدولة، وقام بمحاولة جديدة لضرب الفساد، وسمح بكمية من النقد العام . ومع ذلك فقد استمر العنف وأثار مناقشة مؤلمة داخل الحزب عن سبب التمرد، فأين أخطأ الحزب ؟ ومن الملوم ؟ أكان الإرهاب رداً على الفساد أم له جذوراً أعمق ؟ وهل أدى القبول الجماعي لانتساب الناس إلى الحزب إلى تمكين العناصر التي لا مبدأ لها من التسلل إلى الحزب ؟ وقد حدث فزع كبير في القمة بعد اكتشاف أحد عناصر الحركة الإسلامية السرية في داخل مخابرات القوة الجوية التي يديرها المسؤول الأعلى الذي عينه الأسد حديثاً - محمد الخولي - وقد اعترف ذلك العميل قبل القبض عليه وإعدامه بأنه قد سرب للإخوان المسلمين أرقام سيارات معظم كبار ضباط مخابرات الدولة»[2].

لقد كانت المحاكمات العلنية التي تمت للشهداء الخمسة عشر ذات أثر كبير في داخل البلاد وعرضها، وحدت بالمواطنين إلى التعاطف مع الحركة الإسلامية . خصوصاً عندما كان يحاكم مهدي العلواني الذي كان يجيب قاضي أمن الدولة أن الطريق الوحيد للتفاهم معه بعد هذا الحكم الطائفي هو الاغتيالات والسلاح، وعندما سأله عن أسماء بعض أعضاء التنظيم قال له: هذه الأسماء سرية، نحن في

---

(١) من الأمثلة الصارخة على نزاهته ما رواه لنا أحد طلبته أنه كان مخنثاً محباً للنساء، فكانت الطالبات في مادته في الفنون الجميلة دائماً مرتفعة . وقد أعطى طالباً واسمه نجاح - هذه العلامة العالية وهو يحسبه فتاة . وتندر الطلاب ضحكاً بهذا الموقف . وعندما قام الطالب، وكان متديناً ذو لحية سوداء، فرآه، وارتفع ضحك الطلاب عالياً، وقال: وملتح كذلك . وخفض له عشر علامات مباشرة بعد رؤيته .

(٢) الأسد، لسيل، ص ٥٢٩.

تنظيم ولسنا في خان للدواب، مما حدا بالسلطة بعد ذلك أن تجعل المحاكمات سرية، وتفتح صفحة جديدة من الإرهاب لا مثيل لها في العالم .

ويعلق سيل على ذلك المؤتمر بقوله: «شهد ذلك المؤتمر صعود رفعت إلى منزلة في الدولة لا تتفوق عليها سوى منزلة الأسد . ولعل أساليب القبضة الحديدية التي مارسها قد أنقذت الدولة، غير أنها غيرت شخصيتها وطابعها كذلك . وصممت السلطات على أن تضاهي وحشية أعدائها، فعمدت إلى استخدام أكبر وحدات عسكرية مزودة بالأسلحة الثقيلة، لاقتلاع مقاتلي حرب المدن من جذورهم، بيد أن الشيء الجديد هو تسليح الحزب والمتعاطفين معه، وتكونت في كل مدينة ميليشيات من المواطنين، ووزعت الأسلحة على المنظمات الشعبية التابعة لحزب البعث، كان حياد الشارع في السابق قد أعطى ميزة للمتمردين، أما الآن فقد ضغط على السكان ليختاروا بين أن يقاتلوا مع الحكومة أو ضدها. فاختار الكثيرون الوقوف إلى جانب الحكومة، ربما ليس عن اقتناع، بل بسبب غضبهم من الاضطرابات، وسخطهم على الإضرابات في السوق، والقنابل في المدارس والشوارع، والخوف المستمر من الموت المفاجئ»[1].

تهديدات الحرب الطائفية الأهلية:

«مع أنه من غير الصحيح القول إن الطائفة العلوية كانت تحكم سورية أثناء تلك الفترة أو أي فترة سابقة [2]. فإن هذا لم يمنع كثيراً من غير العلويين - وحتى بعض العلويين - من وصف هذا النظام بمثل هذه العبارات، وهذا بالضبط ما

(١) الأسد، لباتريك سيل / ٥٢٩، ٥٣٠.

(٢) هذا رأي مؤلف الكتاب الذي ننقل عنه، وهو فان دام، في كتابه عن الصراع على السلطة في سورية..

حاول تشجيعه المتطرفون المسلمون السنيون المعارضون للنظام البعثي السوري، والذين كانوا وراء اغتيال العلويين . فقد حاولوا بالإثارة المتعمدة للاستقطاب الطائفي تصوير النظام على أنه طائفي بحت، وذلك لكسب تأييد واسع من الأغلبية غير العلوية من السكان ضد النظام البعثي الذي يسيطر عليه العلويون، وهدفوا من وراء ذلك إلى فرض مواجهة طائفية مباشرة بين الأقلية العلوية والأغلبية السنية، ظانين أن باستطاعتهم كسبها على أساس التفوق العددي .

بيد أننا إذا أخذنا بالاعتبار أن عدد العلويين السوريين يقارب المليون، وأن قسماً كبيراً منهم يحتل مناصب رئيسية حساسة في الجيش والشرطة وقوات الأمن، فإن من المتوقع أن تكون مثل هذه المواجهة الطائفية بالغة الدموية والعنف، وغير مؤكدة النتائج. ولا شك أن كثيراً من العلويين بمن فيهم عديد من خصوم النظام ابتداءً سيتصورون بصرف النظر عن صدق هذا التصور أو عدم صدقه أنهم مهددون من قبل الأغلبية السنية، وأنه لا بد لهم من التجمع من أجل الحفاظ على كيانهم، وتفادي ما سيواجهونه في أغلب الأحوال من التمييز السياسي والاجتماعي والاقتصادي على أساس طائفي، مثلما كانوا قبل التحرر الوطني السريع للعلويين والأقليات الأخرى التي أعقب الاستيلاء البعثي على السلطة عام ١٩٦٣.

وبالرغم من هذه النتائج الخطيرة والدموية المحتملة، فإن المتطرفين السنيين المسلمين بدوا مستعدين لجر البلد إلى حرب أهلية على الطريقة اللبنانية إذا كانت هي الوسيلة الوحيدة لإسقاط نظام الأسد . وكانت إستراتيجيتهم المعلنة في أوائل عام ١٩٨٠، هي تصعيد أعمال العنف ضد النظام، في محاولة لإجبار قادة النظام على استعمال الجيش النظامي لقتل الشعب، حيث أن معظم الجيش من السنيين، وينتظر أن يتقوض ولاءه للنظام إذا تعرض لقدر مناسب من الضغوط.

ولكن وفي المقابل كان ضباط وجنود أهم وحدات الجيش من حيث الفعالية

والموقع الإستراتيجي من العلويين، وقد اختار النظام بكل واقعية أن لا يعهد لغير هذه الوحدات بمهمة التعامل مع القلاقل الشعبية، ولا يحتمل أن ينجح في ظل الظروف الراهنة هذه المخططات لإنهاء السيطرة العلوية طالما لم يتمكن المتطرفون المسلمون السنيون وحلفاؤهم المؤقتون من السنيين أو غير العلويين من السيطرة على كميات كبيرة من الأسلحة وعلى وحدات الجيش الإستراتيجية .

ومن سخريات الأمور أن سيطرة الفئات العلوية على الجيش وفي حزب العبث سيطرة قوية ترجع بشكل جزئي إلى حملات التطهير في الجيش، والتي استهدفت التحزب على أساس طائفي أو إقليمي إلى جانب مجموعات المعارضة الأخرى، مثل المتطرفين المسلمين الذين امتعضوا من التمثيل القوي غير المتوازن للعلويين في مؤسسات السلطة، ولكن معارضتهم العلنية ساعدت في تقوية الاتجاه الذي عارضوه. تخوف العديد من الناس بعد مذبحة حلب من أن تكون الحرب الأهلية الطائفية على الأبواب إذا لم يحدث إصلاحات جذرية لإنهاء الشخصية الطائفية والاستبدادية للنظام، وصدرت تعبيراً عن ذلك عدة بيانات عن مجموعات سياسية يسارية مختلفة تعارض النظام .

ويذهب ديفيد هيرست إلى حد القول: «إنه ليس البعثيون هم الذين يحكمون البلاد بأي معنى من المعاني، بل هم العلويون، وهم يحكمون البلاد نظرياً من خلال الحزب، وعملياً من خلال تضامنهم الخفي داخل الحزب والمؤسسات الهامة الأخرى، وخلف الواجهة، فإن أفضل مؤهل للسلطة هو الصلة من خلال العائلة أو الطائفة أو الأصول العشائرية بالعلوي الأول في البلاد: الرئيس الأسد . الغارديان ١٩٧٩/٦/٢٦»[١] .

---

(١) فان دام. الصراع على السلطة في سورية.

الطائفية والفساد ونقص الانضباط الحزبي:

يرى فان دام أنه لا يمكن اعتبار الوجود العلوي القوي في مؤسسات السلطة في سورية سبباً بحد ذاته في عدم الاستقرار الذي عاناه النظام منذ أواسط السبعينات، فقد سيطر البعثيون العلويون منذ استيلاء البعث على السلطة في ١٩٦٣، ثم تعززت هذه السيطرة بعد نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٠ عندما احتكر السلطة جناح الأسد من الضباط الذي يسيطر عليه العلويون، وقد حقق هذا النجاح في البداية فترة طويلة نسبياً من الاستقرار .

لذا فإن الأسباب الأعمق لعدم الاستقرار الذي يعانيه النظام السوري، يجب أن لا تلتمس في الخلفية الطائفية لحكم النخبة الحاكمة فحسب، ولكن ضمن إطار مزيج من الفساد والصعوبات الاقتصادية والوسائل غير الديمقراطية والقمعية، ونقص الانضباط الحزبي، والممارسات الطائفية التي طغت على السطح خاصة في الفترة التي تلت التدخل العسكري السوري في الحرب الأهلية اللبنانية . وأصبح من الممكن نتيجة لذلك توجيه الكراهية الشعبية والتوترات الاجتماعية والاقتصادية عبر القنوات الطائفية، بل إثارتها مثلما ظهر بوضوح في الاضطرابات المدنية العنيفة والدموية في طول البلاد وعرضها في ربيع ١٩٨٠ .

بدأت في سبتمبر/ أيلول ١٩٧٩ حملة ثانية ضد الفساد، كان هدفها تحسين المناخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والاقتصادي المتدهور في البلاد . ولكن العوائق البنيوية التي أعاقت التنفيذ الجذري للحملة الأولى ضد الفساد في ١٩٧٧ كانت لا تزال موجودة، وبدت احتمالات نجاح إجراءات الإصلاح الشاملة مظلمة طالما بقي التنظيم الحزبي للنظام ضعيفاً .

كان تنظيم حزب البعث في عام ١٩٨٠ لا يزال يعاني من نواحي الضعف العديدة التي واجهها منذ أن جاء إلى السلطة في ١٩٦٣، ولم تستطع ١٧ سنة من

الحكم من قبل المجموعات البعثية المختلفة التخلص من هذا الضعف . وبدا ذلك واضحاً في التقرير التنظيمي المقدم إلى المؤتمر القطري السابع لحزب البعث المنعقد في دمشق من ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٩ إلى ٦ يناير/ كانون ثاني ١٩٨٠، ويلخص هذا التقرير ما سماه أهم الصعوبات التي أعاقت النشاطات التنظيمية للحزب:

١ -قلة الخبرة والسوية العلمية عند بعض الرفاق في القيادات الحزبية، وعدم توفر الانسجام فيما بينها أحياناً .

٢ -ضعف التربية العقائدية في الجهاز الحزبي، وبروز ظاهرة العزوف عن التثقيف الذاتي، ونمو الميل الاستهلاكي لدى الجيل .

٣ -عدم توخي الدقة في الاختيار عند تعيين القيادات المتسلسلة وعدم معرفة القيادة في الاختيار عند تعيين القيادات المتسلسلة، عدم معرفة القيادات بالمرشحين من قيادات الفروع معرفة مباشرة .

٤ -ضعف سوية الجهاز المتفرغ في مؤسسات الحزب القيادية (يعني الجهاز الذي أعفي أعضاؤه من أي واجبات أخرى، ويتوقع منهم تكريس أنفسهم بشكل كامل للعمل الحزبي) .

٥ -ظواهر مهمة أخرى أبرزها: اللامبالاة وضعف الشعور بالمسؤولية، ضعف الحماس للحزب والتعصب له، الانتهاز، الفهم الخاطئ لممارسة الديمقراطية، ونمو بعض أمراض المجتمع الموروثة (الطائفية، الإقليمية، والعشائرية) .

اتخذ المؤتمر القطري السابع قراراً بإحداث لجنة مركزية من ٧٥ عضواً، وكان هدفه من ذلك إبقاء رقابة مستمرة للمؤتمر القطري على القيادة القطرية في الفترة بين المؤتمرات، ولم يكن من المدهش - ويتوافق ذلك مع التحليلات

الإحصائية لمؤسسات السلطة السورية - أن يكون للضباط العلويين وجود قوي ضمن الأعضاء العسكريين المنتخبين في اللجنة المركزية، وكان من بين هؤلاء الرئيس حافظ الأسد ومؤيدوه العلويون البارزون بمن فيهم أخوه رفعت وعلي أصلان نائب رئيس الأركان وعلي دوبا (رئيس المخابرات العسكرية) وعلي حيدر (قائد القوات الخاصة) .

واختارت اللجنة المركزية من بين أعضائها قيادة قطرية جديدة تتألف من ٢١ عضواً، وبالطبع فقد كان الرئيس الأسد وشقيقه رفعت من بين الذين أعيد انتخابهم . ويتماشى تركيب القيادة القطرية من وجهة نظر إحصائية مع القيادات الثلاث التي سبقتها منذ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٠ مثلما ورد في الفصل السادس، وتظهر كلها التمثيل القوي نسبياً لمنطقة اللاذقية والعلويين .

وأعلن الرئيس الأسد في نهاية المؤتمر القطري السابع عدداً من الخطوط العريضة للإصلاحات الجذرية والتي هدفت لمساعدة النظام والبلاد على اجتياز الموقف الحرج الذي وجدت نفسها فيه . ولكن النظام واجه أثناء المراحل الأولى لمحاولة تنفيذ برنامجه الإصلاحي معارضة وشغباً في طول البلاد وعرضها على نطاق أوسع مما كان عليه منذ ١٩٦٣ .

إن فشل النظام في تنفيذ الإصلاحات الضرورية لإعادة الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي بالإضافة إلى عجزه عن إلغاء صورته الطائفية، أكدت كلها مرة ثانية الحالة المتناقضة الذي وجد النظام نفسه مراراً فيها منذ أن استولى على السلطة عام ١٩٦٣ . لقد أصبح النظام البعثي الذي يسيطر عليه العلويون أسير حلقة مفرغة لا يبدو أنه يستطيع الخروج منها .

ويبدو أن الاعتماد على الروابط الإقليمية والعشائرية في دول مثل سورية شرط لازم للاحتفاظ بالسلطة، وليس من الضروري - نظرياً - أن تؤدي الإقليمية

والعشائرية إلى ظهور الطائفية، حتى وإن كان هناك تداخل بين التصنيفات الثلاثة، كما هي الحالة مع الأقليات الدينية المركزة مثل العلويين والإسماعيليين والدروز.

ويمكن في ظل ظروف إيجابية ضبط الطائفية ثم اضمحلالها تدريجياً، بالرغم من أن المجموعات المبعدة عن السلطة ستبذل جهدها لتشجيع الطائفية من أجل أهدافها السياسية الخاصة، وكان من الممكن في حالة النظام البعثي السوري كبح الطائفية بنجاح لو أن الانضباط الحزبي مستمر، ولو لم يكن الفساد موجوداً، ولو وسعت زعامة الحزب تدريجياً، وكل ذلك إلى جانب الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والديمقراطية والتطور الثقافي .

لقد كان التمثيل العلوي القوي في زعامة السلطة في البداية ذا علاقة طفيفة لا تكاد تذكر مع الطائفية، وإن استند إلى الإقليمية والعشائرية، ويتبدى ذلك في المراحل الأولى من ثورة آذار ١٩٦٣، ولكن ذلك لم يمنع السنيين والمعارضة غير العلوية من رؤيته على أنه نظام علوي أو نظام طائفي تهيمن عليه الأقلية .

ولا يمكن - بالمثل - منع السنيين والخصوم غير العلويين المعارضين للنزعة العلمانية لنظام البعث من استغلال الطائفية لأهدافهم السياسية في تقويض النظام، وفي مثل هذه الحالة الأخيرة خلقت الأفكار السياسية حقائق خاصة بها، وبدأت الطائفية حياة من صنعها، بصرف النظر عما إذا كانت الفئة السياسية المسيطرة قد استمدت قوتها من التضامن الطائفي أم لا .

كان من الممكن أن تكون فكرة الطائفية أصعب استغلالاً لو أن الزعامة البعثية بقيت في إطار حكم أقلية من السنيين المتجمعين على أساس إقليمي أو عشائري . ولكن الطائفية كانت سهلة الاستغلال لأن الأعضاء الضالين في السلطة ينتمون إلى الأقلية العلوية الدينية التي لاقت في السابق معاملة غير عادلة،

لأن معظم المسلمين السنيين لم يعترفوا بأنها طائفة إسلامية، ويلاحظ ستيفن هامفريز إن شرعية الحكم في سورية موضع تساؤل باستمرار بغض النظر عن نجاح سياساتها أو إخفاقها، فغالبية الشعب سنية، تبقى مستاءة إلى حد بعيد من الحكم البعثي الذي هو علماني التوجه ويسيطر عليه أشخاص ذوو خلفية نصيرية، وهذا الاستياء كما رأينا سهل الإثارة .

ويصعب في المقابل أن نتوقع من العلويين الذين طالما احتقرهم السنيون أن يبقوا منصفين تماماً ويمتنعوا عن الممارسات الطائفية التي كانوا ضحاياها بعد أن كسبوا السلطة أو اصبح لهم حماة أقوياء في النظام . وكان طبيعيا - والحالة هذه - أن يلعب الانتقام العلوي الدور الذي تعزز في هذه الفترة بعد ١٩٧٦ نتيجة للإثارة الطائفية واغتيالات العلويين من قبل المتطرفين السنيين المسلمين الذين اعتبروا أنفسهم مدفوعين بدورهم للشروع بالاغتيالات بسبب النظام القمعي وغير الديمقراطي الفاسد . وما تصوروه من الطابع الطائفي العلوي «الكافر» للنظام، وقد عبّر عن ذلك أحد الذين حوكموا في دمشق في سبتمبر/ أيلول ١٩٧٩ بقوله: إن الاغتيالات هي اللغة الوحيدة الممكنة للتفاهم مع الدولة. ولقد سبب ما سبق سلسلة من الأفعال الطائفية وردود الأفعال لا يمكن تمييز أحدها عن الآخر .

إن الظروف الإيجابية التي يمكن في ظلها كبح جماح الطائفية، ومن ثم القضاء عليها لم تتحقق خلال وجود حزب البعث في السلطة في سورية، فبعد عشرين عاماً من الحكم البعثي العلماني الذي تسيطر عليه أقلية طائفية لا تزال سوريا في أوائل الثمانينات تبدو بشكل متناقض ومأساوي أكثر بعداً، مما كانت عليه عند الاستقلال، عن التصور البعثي للمجتمع العلماني الذي يتساوى فيه

العرب أيا كانت ديانتهم[1].

تركنا الكلام لفان دام يتحدث بإسهاب عن طبيعة النظام الطائفية النصيرية التي تحكم سورية، والتي رافقها النظام القمعي الدموي . وهذا طبيعي كذلك، لأن من المستحيل أن تملك الطائفة النصيرية السيطرة على الحكم إلا بالحديد والنار، والتي رافقها الفساد والرشوة . وهذا طبيعي كذلك في مجتمع يتنكر للقيم الإسلامية والخلقية التي تنبثق من هذا الدين، والتي رافقها الدعوة العلمانية . وهذا طبيعي كذلك في حزب قام ابتداءً على أساس فصل الدين عن الدولة، وقدم القومية والاشتراكية بديلاً عن الإسلام . ويصل بتحليلاته أن هذا النظام الطائفي الجامح من الطبيعي أن تقوم الثورة عليه من الشعب البائس، وإن كان يكثر الحديث عن المتطرفين السنيين . فهو تعبير اعتاد الغرب على استعماله، وأضاف إليه من جديد كلمة (الأصوليين)، بحيث يتهم كل تحرك ضد الأنظمة القمعية المفروضة على الأمة بالتطرف، ويبقى الاعتدال هو الذي يمثل الخنوع والذل للطغاة والسفاكين ومصاصي دماء الأمة . أما في الغرب فالويل والثبور وعظائم الأمور إن مست الديمقراطية أو مس النظام الديمقراطي بسوء، إنهم في الوقت الذي يرون في الديمقراطية أعلى مستويات الرقي والتطور العالمي، يستكثرونها على الشعوب البائسة في العالم الثالث، وينعتون الأصوات الطليعية التي تتقدم الركب للفداء، ولإعادة الحكم لأغلبية الأمة، ويسقطون ضحايا وشهداء لإنقاذ هذه الأكثرية المسحوقة المذبوحة، ينعتونها بالتطرف والأصولية والإرهاب .

---

(١) الصراع على سورية، لفان دام / ١٢١٥ - ١٣٨.

الإخوان المسلمون يواجهون الحرب من النظام:

إلى ما قبل حادثة المدفعية بحلب كانت السلطة الحاكمة في سورية لا تشير بالاتهام للإخوان المسلمين في حوادث الإرهاب. أما بعد حادثة المدفعية في حلب، فقد صدر البيان الرسمي من السلطة في سورية يشير بالإدانة للإخوان المسلمين أنهم وراء هذه الحادثة، وذلك كما ورد في نص بيان وزير الداخلية السوري الصادر في ٢٢ يونيو/ حزيران ١٩٧٩:

«لقد تحرك هؤلاء بعد اتفاقية سيناء المصرية الإسرائيلية الموقعة في سبتمبر/ أيلول ١٩٧٥ مباشرة، وتصاعدت أعمالهم الإجرامية بعد زيارة السادات للقدس في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٧، ثم بعد توقيع اتفاقيات الذل والعار مع العدو الصهيوني .

وبدأوا بمسلسل الاغتيالات في بعض المدن السورية وفي حلب وفي حماة وفي دمشق، وكان من ضحاياهم مواطنون أبرياء يعملون في شتى الأعمال الوظيفية وفي مؤسسات الدولة المختلفة، وكانت آخر جريمة لهم تلك التي حدثت في مدرسة المدفعية بحلب .

لقد تمكنوا من شراء عنصر من عناصر القوات المسلحة هو النقيب إبراهيم يوسف من مواليد تادف، إحدى قرى محافظة حلب، واستخدموا وجوده في المدرسة ونفوذه في يوم كان فيه هو الضابط المناوب في المدرسة، واستطاع مساء يوم السبت الواقع في السادس عشر من هذا الشهر أن يدخل إلى المدرسة عدداً من المجرمين من جماعة الإخوان المسلمين، ويدعو الطلاب الضباط إلى اجتماع عاجل يعقد في الندوة، وعندما هرعوا من مهاجعهم تنفيذاً لأمره، وأصبحوا في قاعة الندوة الطلابية، أمر أعوانه من المجرمين الذين أدخلهم من خارج المدرسة بفتح النار على الطلاب الشباب العزّل في القاعة المغلقة، وذلك

بالرشاشات والقنابل اليدوية، وسقط خلال دقائق معدودات اثنان وثلاثون شهيداً وأربعة وخمسون جريحاً .

هل يمكن أن نتصور أن هؤلاء يرتبطون بهذا الوطن بأضعف الروابط التي يمكن أن تربط إنساناً بوطنه؟ هل يمكن أن نتصور أن عملاً كهذا العمل يمكن أن يكون إلا خدمة لإسرائيل ولكل أعداء أمتنا؟»[1] .

وأصدر الإخوان المسلمون بياناً مضاداً استنكروا فيه حادثة المدفعية، ونفوا مسؤوليتهم عنها، قالوا فيه:

«إن الإخوان المسلمين قد فوجئوا كما فوجئ غيرهم بالحملة التي شنها عليهم عدنان دباغ وزير الداخلية السوري متهماً إياهم بالعمالة والخيانة وغير ذلك، ومحملاً إياهم مسؤولية أمور هم أكثر الناس دراية أنهم برآء منها . لقد حملهم مسؤولية المذبحة التي حدثت في مدرسة المدفعية، كما حملهم مسؤولية الاغتيالات التي جرت، ولا زالت تجري في سورية .

ونحن نذكّر وزير الداخلية السوري أنه بالأمس القريب كان يتهم العراق بهذه الاغتيالات، فلماذا تغيرت النغمة اليوم ؟

وعلى كل الأحوال فإن الإخوان المسلمين، وهم أكثر الناس إدراكاً للوضع الدقيق الذي تمر به بلادهم في هذه المرحلة، يحبون أن يضعوا النقاط على الحروف في الأمور التالية:

١ -إن نغمة عمالة الإخوان المسلمين لشرق أو غرب نغمة أصبحت معروفة ممجوجة. وأن ما لاقوه من عنت وأذى من عملاء الشرق والغرب إنما كان من أجل مطالبتهم بتحكيم كتاب الله في واقع الحياة .

---

(١) إذاعة دمشق الساعة ١٩.١٥ بتوقيت غرينتش في ١٩٧٩/٦/٢٢ وصحيفة البعث ١٩٧٩/٦/٢٤ .

٢ -إنه من العجب أن يتهم الإخوان بالعمالة لإسرائيل في الوقت الذي يعلم الجميع قتالهم على أرض فلسطين، بينما يتحمل غيرهم عار الهزائم المتلاحقة .

٣ -والأعجب من هذا أن يتهم الإخوان المسلمون بأنهم يريدون إضعاف مقاومة سورية، والإخوان المسلمون يقولون: إن الذي أضعف المقاومة في سورية هو الذي سرّح الضباط الأكفياء وأوقد نار الطائفية في الجيش وغيره، وحطم الاقتصاد السوري وأفقد المواطن ثقته بكل شيء .

٤-أما أن الإخوان المسلمين يعملون لصالح كامب ديفيد فهذا يدحضه أنهم هم الجهة الوحيدة التي ترفض بصدق وإصرار أن يكون لليهود دولة ولو على شبر واحد من فلسطين .

فاذا اتضحت هذه الأمور فلنناقش مسؤولية الإخوان المسلمين عن حادث المدفعية:

١ -إن النقيب إبراهيم اليوسف الذي نفذ حادثة مدرسة المدفعية معروف عنه أنه عضو عامل في حزب البعث السوري، وليس له أي صلة بالإخوان المسلمين . فلماذا ينسب عمله إلى الإخوان المسلمين ؟

٢ -ثم إن السلطة تعرف أن أوراقاً خلفها أصحاب الحادثة تبين هويتهم، وأن لا صلة لهم بالإخوان المسلمين .

٣ -لقد ألفت شعوب هذه المنطقة أن ضرب الحركة الإسلامية لا يكون إلا مقدمة لإسلام أو تسليم .

٤ -إن هناك وضعاً غير متوازن في سورية بين الطائفة العلوية النصيرية الحاكمة التي لا تشكل أكثر من ١٠٪ من سكان سوريا وبين الطوائف . ويكفي التدليل على ذلك ما حدث في مدرسة المدفعية، فمن مجموع طلابها يوجد ثلاثون سنياً من أصل ٣٠٠ طالب غالبيتهم العظمى من النصيريين والعلويين .

أليس هذا وحده قد يكون سبباً لاندفاع النقيب إبراهيم اليوسف البعثي السني في السير في طريقه الذي سار فيه ؟

٥ -إن هناك كثيرين من قادة الإخوان المسلمين وأفرادهم معتقلون منذ أشهر، وبعضهم منذ سنين، فهل ما أعلن بالأمس كان مؤامرة لإدانة هؤلاء بشيء لم يفعلوه ؟

٦ -إن الإخوان المسلمين يتحدون أن تثبت أي جهة في العالم عن طريق تحقيق نزيه أن تكون قيادتهم أو عناصرهم قد سارت في طريق العنف، علماً بأن الحكم السوري قد أوجد له كثيراً من الخصوم الذين يؤمنون باستخدام العنف. وأخيراً وليس آخراً: فليس من دأب الإخوان المسلمين السباب، ولكنهم يريدون الإصلاح «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله» .

والله أكبر ولله الحمد .. الإخوان المسلمون .. ٢٩ رجب ١٣٩٩ - ٢٤ حزيران ١٩٧٩».

وتطور الأمر بعد الاعتقالات المستمرة والهجوم العنيف على شباب الإخوان المسلمين إلى أن اجتمع مجلس شورى الإخوان المسلمين وقيادتهم، واتخذوا في شهر آب عام ١٩٧٩ قرار المواجهة رسمياً ضد النظام ودخول الحرب معه، وكان القرار عاطفياً في الحقيقة أكثر من أن يكون موضوعياً، فلم يكن الإعداد كافياً لمثل هذه المواجهة، إنما كان الدافع له هو موقف الدفاع عن النفس وأن لا يسلم الاخوة أنفسهم للنظام، يقتل منهم كيف شاء ويذبح كيف شاء ويعتقل كيف شاء .

كما كانت الطليعة قد صعدت عملياتها في الداخل، بعد أن ابتدأت في حلب بقتل معاون مدير المخابرات محمد علي المهنا، وكان له أثر كبير في بث الذعر في صفوف السلطة الحاكمة، وأصبحت عمليات المواجهة مع النظام تكاد تكون

يومية، وذلك باصطياد سيارات المخابرات وضباطها، وأصبحت حلب أعنف البلدان في المواجهة الساخنة ضد النظام .

«وأخيراً ألقى الأسد بنفسه في المعمعة في ربيع ١٩٨٠، ففي ٨ آذار عام ١٩٨٠ في الذكرى السابعة عشرة للثورة أعلن الأسد إيمانه بالإسلام إعلاناً طناناً كان واضحاً أنه يأمل أن يرتدي عباءة خصومه: «نعم، إنني أؤمن بالله وبرسالة الإسلام، لقد كنت ولا أزال وسأبقى مسلماً، تماماً مثل ما ستبقى سورية قلعة شماء ترفع راية الإسلام عالياً، ولكن أعداء المسلمين المتاجرين بالدين سوف يكنسون بعيداً» وعلى غير عادته في السابق وجه للأمة خطباً رنانة أخرى في ١١ و١٧ و٢٢ و٢٣ و٢٤ آذار/ مارس . وغيرها كذلك في نيسان/ أبريل أمام تجمعات ملتهبة في المنظمات الشعبية المختلفة من عمال وفلاحين وحرفيين وشبيبة ونساء، ومعلمين وكتاب وطلبة، ورياضيين، ودعا إلى استخدام العنف الثوري المسلح ضد العنف الرجعي المسلح . فصفقت له ألوف من الشبيبة والنساء وهتفوا لتحيته وقوفاً»[1].

المجازر الكبرى:

بتاريخ ١٠/٣/١٩٨٠ اقترف أسد مجزرة جسر الشغور «حيث أرسلت قوات محمولة بالطائرات المروحية إلى جسر الشغور، وهي مدينة بين حلب واللاذقية، حيث هاجم المتظاهرون الثكنات ومكاتب الحزب، فتبعت ذلك عملية بحث وتدمير ضارية تركت وراءها مائتي قتيل، وسيق عشرات المعتقلين إلى محاكم ميدانية، وبعد ذلك بأيام قليلة أرسلت الفرقة الثالثة بأكملها، أي عشرة آلاف رجل

---

(١) الأسد، لباتريك سيل / ٥٣١ .

ومائتان وخمسون عربة مدرعة شمالاً إلى حلب لإخضاعها، انضم إليها رجال رفعت من سرايا الدفاع، وبعد فشل المفاوضات في إعادة النظام أرسلت القوات إلى الداخل في ١ نيسان/ أبريل لإغلاق أحياء بكاملها والقيام بعمليات تفتيش من منزل إلى منزل، مسبوقة على الغالب بنيران الدبابات، وألقي القبض على مئات من المشتبه بهم، وسيقوا بعيداً، ووقف قائد الفرقة اللواء شفيق فياض في برج دبابته وأخبر أهل حلب بأنه مستعد لقتل ألف رجل في اليوم حتى يخلص المدينة من جرذان الإخوان المسلمين . وبقيت فرقته في حلب عاماً كاملاً، ولها دبابة في كل شارع تقريباً . وفي حلب كما في غيرها كان يساند العسكريين جيش غير نظامي من البعثيين المسلمين . وحسب رواية أنور أحمدوف القنصل السوفيتي الذي عاش خلال الأزمة في حلب فإن القصة كانت ستصبح مختلفة جداً لو لم يتعاون السكان مع السلطات ويخبروها عن المقاتلين الإسلاميين، لأن السكان كانوا في ذلك الوقت قد تعبوا وملوا من العنف»[1].

«وبتاريخ ٥ - ١٩٨٠/٤/١٢ نفذ نظام أسد مجزرة حماة الأولى، حيث مشطت قواته المدينة بفرقة مدرعة مع كتيبتين من الوحدات الخاصة، قطعت المدينة عن العالم الخارجي، كما حبست عنها الماء والكهرباء، وفتشتها بيتاً بيتاً مع الضرب والشتم والنهب، وقتلت عدداً من أعيان المدينة وشخصياتها كما اعتقلت المئات . ومن أبرز الشهداء في مجزرة حماة الأولى:

-الدكتور عمر شيشكلي (٣٤ عاما) رئيس جمعية أطباء العيون في سورية، قلعت عيناه، وألقيت جثته في حقل قرب قرية مجاورة للمدينة .

-خضر شيشكلي (٨٠ عاما) أحد زعماء الكتلة الوطنية وصاحب (بيت الأمة)

---

(١) المصدر نفسه / ٥٣٠ - ٥٣١ .

أيام العمل ضد الاستعمار الفرنسي، حرقوه بصب الأسيد عليه في بيته، ثم نهبوا ما فيه من تحف أثرية .

-الدكتور عبد القادر قنطقجي: طبيب جراحة عظمية، ألقوا بجثته بعد التعذيب على طريق الشيخ غضبان على بعد ٣٠ كم من مدينة حماة .

-المزارع أحمد قصاب باشي (٥٥ عاما) قلعوا أظافره وقطعوا أصابعه قبل أن يقتلوه) .

وبتاريخ ١٣ - ١٩٨٠/٥/١٥ قامت قوات أسد بتمشيط منطقة جبل الزاوية وأريحا حيث قتلت ١٤ مواطناً، واعتقلت المئات، وحطمت أشجار الكروم والزيتون في الحقول، وأتلفت محاصيل ومؤونة الفلاحين على طريقة الاستعمار الفرنسي في تلك المنطقة .

وبتاريخ ١٩٨٠/٥/٢١ ارتكب نظام أسد مجزرة حماة الثانية حيث ضربت قواته مسجد الأحدب وأحرقت عدداً من المنازل في حي (باب القبلي) و(البرازية) وقتلت مؤذن المسجد المذكور وأحد عشر مواطناً آخرين»[١] .

وفي أحداث آذار عام ١٩٨٠ في حلب قام عدد من رجالات الدولة على رأسهم الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي بزيارة حلب، ولم تجد الدولة مفراً من الاتصال ببعض المشايخ والعلماء علها تجد سبيلاً لتهدئة الأوضاع، كما جرت مفاوضات مع قيادة الإخوان المسلمين في السجن إثر مفاوضات تمت مع القيادة في الخارج، حيث قام بالوساطة أمين يكن أحد قياديي الإخوان المسلمين القدامى، وتم الاتفاق على أن تقوم قيادة الإخوان المسلمين في الخارج بتهدئة الأوضاع وإيقاف العمليات العسكرية مقابل الإفراج عن

---

(١) تدمر: المجزرة المستمرة من منشورات دار النذير، ط ٣، ١٤٠٤ هـ. ص ٢٦ - ٢٧ .

قيادات الإخوان داخل السجن، وفعلاً تم تنفيذ ذلك، فأفرج عن المئات من هذه القيادات، غير أن القيادة في الخارج لم تكن تملك السيطرة على المقاتلين المجاهدين في الداخل بصورة حقيقية، ولم يكن المجاهدون راضين عن مثل هذه المفاوضات، فأعقب خروج المعتقلين تصعيداً عنيفاً للعمليات .

«بدت تلك المفاوضات باهتة جداً، فمن ناحية كانت مفاوضات بين جهات إسلامية لا تمثل سلطة على المجاهدين وبين الدولة، ومن جهة أخرى كانت عروض التهدئة مقابل طلبات تقدمت بها الجهات الإسلامية، وكانت تافهة كالإفراج عن المعتقلين وإنهاء الأعمال الإرهابية وإعادة بعض الموظفين والمدرسين الإسلاميين إلى وظائفهم في حين كانت أهداف الحركة جذرية تريد إسقاط الاحتلال النصيري لإقامة حكم إسلامي محله . فلم يعر المجاهدون هذه المفاوضات أذناً صاغية، وعاد الحال إلى الانفجار أشد مما كان عليه»[1].

لقد اتخذت قيادة الإخوان في الخارج قرارها بدخول المعركة في حزيران ١٩٧٩ لسببين هامين، الأول: أن النظام النصيري لم يفرق في حربه بين طليعة ولا إخوان ولا صوفي ولا سلفي وهم داخلون الحرب والنكال دافعوا أم لم يدافعوا .

الثاني: إن بشائر نصر مجيد وتأييد شعبي واسع تبدو للعيان، ولا بأس من المشاركة في نصر كهذا، فهم قادة الإسلام وأعلامه في البلد، والمؤهلون ليكونوا البديل عن النظام .

الطليعة المقاتلة وتراجع العمل العسكري:

تابع العمل الجهادي العسكري تقدمه في الفترة التي تلت حادثة المدفعية .

---

(١) الثورة الجهادية الإسلامية في سورية، ٣٥ - ٣٦ .

ووقعت اشتباكات متعددة وشديدة في كل من مناطق حلب وحماة وحمص وإدلب والساحل وبعض الأعمال العسكرية في المنطقة الشرقية والجنوبية. وكذلك في دمشق، وبلغت وتيرة أعمال الاغتيالات التي نظمت ضد شخصيات النظام العسكرية والسياسية ورجال الأمن السياسي والعسكري وأعوان النظام وأعضاء حزب العبث المرتدين من أبناء المسلمين أو من سموا (المخبرين)، بلغت وتيرة عالية، حيث وصلت في مدينة حلب إلى ما يزيد على عشرة اغتيالات يومياً، عدا أعمال الهجوم والكمائن التي هوجمت بها مراكز السلطة والحزب والأمن ودوريات المخابرات . وجاءت فترة سادت فيها قوة المجاهدين، وفقد النظام أعصابه تماماً، وبلغ التأييد الجماهيري حداً غير متوقع، كانت ذروته في الأسبوع الأول والثاني والثالث من آذار ١٩٨٠، حيث اجتاحت المظاهرات الجماهيرية سائر مدن سورية الهامة منددة بالسلطة والنصيريين والبعثيين وبأسد ونظامه مؤيدة المجاهدين، مطالبة إياهم إعطائها السلاح لمشاركتهم بالثورة . ولم تمر هذه الأحداث دون مئات الضحايا، وأبدى النظام استعداداً همجياً وقحاً للبطش بالأهالي، وحول الصدام من صدام مع فئة محدودة من شباب المسلمين المجاهد إلى صدام مع سائر الشعب المسلم في البلد بعيد هذه الظاهرة الجماهيرية»[1].

«وبعد فشل المفاوضات في إعادة النظام أرسلت القوات إلى الداخل في ١ نيسان/ أبريل لإغلاق أحياء بكاملها، والقيام بعمليات تفتيش من منزل إلى منزل مسبوقة على الغالب بنيران الدبابات . وألقي القبض على مئات من المشتبه بهم، وشيعوا بعيداً، ووقف قائد الفرقة اللواء شفيق فياض في برج دبابته وأخبر أهل

---

(١) المصدر نفسه / ٤٠ - ٤١ .

المدينة أنه مستعد لقتل ألف رجل في اليوم حتى يخلّص المدينة من جرذان الإخوان المسلمين، وبقيت فرقته في حلب عاماً كاملاً ولها دبابة في كل شارع تقريباً، وفي حلب كما في غيرها كان يساند العسكريين جيش غير نظامي من البعثيين المسلحين» [١]

واتسعت كوادر التنظيم الجهادي وتكاثر أنصاره، وحمل هذا مزيداً من الإيجابيات والسلبيات، وتطورت وتيرة العمل العسكري وطبيعة عملياته وخبرة أعضائه، وكانت حصيلة الجهاد ما يمكن تسميته نصراً مؤزراً بالنظر لواقع الشعب السالف الذي ألف الطغيان والسكوت عليه . فقد تحطمت هيبة السلطة تماماً، وثبت لكل الناس أن رصاص المجاهدين يمكن له أن يسقط تلك الرؤوس العاتية، وإشارة واحدة إلى خسائر المجاهدين خلال الفترة الجهادية التي استمرت من ربيع ١٩٧٩ إلى آذار ١٩٨٠ تعطينا فكرة عن هذا النصر، إذ لم تتجاوز خسائر المجاهدين، وحسب رواية عدنان عقلة الذي كان مسؤولاً عن العمل العسكري في حلب ثلاثة وستين شهيداً، سقط معظمهم خلال مداهمته القواعد التي كانت تكشف بفعل المخبرين من عملاء النظام، أو بفعل اعتقال بعض المجاهدين، ونادراً ما حصل هذا في تلك الفترة، حيث كانت مئات من العناصر والوحدات والسرايا من جيش البعث النصيري تحاصر القاعدة التي تضم ما لا يزيد على خمسة أو ستة مجاهدين ليدوم الاشتباك الباسل عدة ساعات تتكبد فيها السلطة عشرات القتلى والجرحى، وليستشهد جميع المحاصرين من المجاهدين، ومن المثير للدهشة أنه لم يحصل أن استسلمت قاعدة أو مجاهد رغم نداءات الاستسلام وتمنيات السلطة التي كانت دائمة فاتحة عمليات

---

(١) الأسد، لباتريك سيل / ٥٣١ .

الحصار.

بلغت ذروة إمكانيات المجاهدين في رمضان ١٩٨٠ حيث استطاعوا أن يحطموا هيبة الدولة تماماً . وأن يفرضوا أجواء إسلامية على بعض المدن لا سيما حلب وحماة حيث أغلقت البارات ودور السينما والمطاعم خلال النهار، ووقفت الدولة مكتوفة الأيدي.

وبالطبع فقد زادت خلال هذه الفترة وتيرة إرهاب الدولة وأعمال البطش والتنكيل بالأهالي المدنيين كنوع من الثأر لفشلها المتكرر مع المجاهدين الذين كسبوا الساحة، وملكوا زمام المبادرة، وأصبحت أخبار المجاهدين تتردد في جميع أنحاء العالم، وتشرق لها نفوس ملايين من المسلمين داخل سورية وخارجها، ولا سيما بفعل الإعلام النشط الذي مارسه الإخوان في الخارج ليجنوا ثماره فيما بعد .

أما داخل البلد فقد انتشرت حواجز الجيش والأمن على الطرقات بين المدن وفي مفارق الشوارع الرئيسية وعمت الأجواء الإرهابية وأصبح معهوداً رؤية الدبابات وعربات الجيش المصفحة وجنود الوحدات باللباس المبرقع، ووجوههم اللئيمة توقف أياً كان للتحري والتفتيش والإهانة والسلب، كما صار معهوداً أن يحاصر الجيش حياً من الأحياء، لتفتيشه وليداهم البيوت ليلاً أو نهاراً دون مراعاة لحرمة، أو احترام العرف أو دين، وكثيراً ما دخل فجرة الجيش المساجد فنكلوا بالمصلين ومزقوا المصاحف وداسوها، وخرجوا يعربدون ويطلقون النار في الهواء ناشرين الذعر والإرهاب في أوساط المدنيين العزل .

وبدأت مرحلة التراجع وزاد عدد المعتقلين من المنظمين الجدد، والذين تدفقوا بالمئات على التنظيم أيام التقدم، وكذلك في صفوف المدنيين الذين أبدوا تعاوناً مع المجاهدين كإيوائهم وتزويدهم بالمؤن أو التبرعات، أو تناقل

منشوراتهم . وأصبحت أصغر التهم تودي بصاحبها إلى أقبية السجون، حيث لا تعرف النهاية»[1].

أما سيل فيقول: «لقد كان المقاتلون خصماً مخيفاً وقوياً، فقد كانت لديهم ثروة من الأموال (الأجنبية) ! وأجهزة اتصال متطورة ومعقدة، ومخازن سلاح كبيرة، فقد تم الاستيلاء على ما لا يقل عن ١٥٠٠٠ رشاش، وفي فن القتال لم يكونوا أغراراً، بل إن حوالي نصف الذين اعتقلوا منهم قد تلقوا تدريباً في بعض الأقطار العربية ولا سيما الأردن، وعندما التقى الأسد وحسين في جنازة تيتو في أيار/ مايو ١٩٨٠ اتهم الأسد الحسين بغضب بأن له يداً في الدم الذي كان يسفك في سورية . وهذه تهمة قدّر لحسين أن يعترف بها علانية بعد خمس سنوات عندما عادت علاقته إلى التحسن مع الأسد . وكانت هناك أدلة كثيرة ودامغة على تواطؤ العراق .. وقد اعترضت الطائرات المروحية العسكرية السورية مراراً بعض الشاحنات التي كانت تهرّب الأسلحة عبر بادية الشام وأوقفتها . وكانت أشد سخريات الأسد مرارة موجهة إلى عدوه الأكبر صدام حسين «إن جلاد العراق لم يكتف بقتل عشرات الألوف من أبناء شعبه، بل لقد توجه إلى سورية لممارسة هوايته المفضلة في القتل والاغتيال والتخريب، إنه يرسل الأسلحة للمجرمين في سورية منذ أن استولى على السلطة» [2].

«لقد حدثت في أوائل ١٩٨٠ اضطرابات مدنية دامية في طول البلاد وعرضها، ومن الواضح أنها تمت بتحريض من المتطرفين المسلمين السنيين، ولاقت التأييد، لأسباب متعددة، من قبل عدد كبير من الشعب المحافظ والمتدين

---

(١) الثورة الإسلامية الجهادية في سورية، لعمر عبد الحكيم / ٤٠ - ٤١ . والكتاب يمثل رأي الطليعة المقاتلة.

(٢) من خطاب لحافظ أسد ٧ آذار ١٩٨٢ . كما ذكره سيل في كتابه ص ٥٤٢.

. وسارع قادة النظام عندئذ إلى إعلان أنهم يعتبرون فئة محدودة بين جماعة الإخوان المسلمين مسؤولة عن الاغتيالات وإثارة القلاقل، حيث صرح الرئيس الأسد في ٢١ مارس/ آذار ١٩٨٠ «أريد أن أوضح أمراً يتعلق بحزب الإخوان المسلمين في سورية:

الإخوان المسلمون في سورية ليسوا جميعاً من القتلة، بل كثير منهم، القسم الأكبر منهم ضد القتلة ويدين القتل، وهذا القسم يرى أنه يجب أن يعمل من أجل الدين، ورفع شأن الدين، لا من أجل هدف آخر .

هؤلاء أيها الشباب لا خلاف لنا معهم اطلاقاً، بل نحن نشجعهم، نحن نشجع كل امرئ يعمل من أجل الدين، ومن أجل تعزيز القيم الدينية، ولهؤلاء الحق، بل عليهم واجب أن يقترحوا علينا، وأن يطالبونا بكل ما من شأنه خدمة الدين، ورفع شأن الدين، ونحن لن نقصر، بل لن نسمح لأحد بأن يسبقنا في هذا المجال، نحن نشجع من يعمل من أجل الدين، ونحارب من يستغل الدين لأهداف غير دينية، ونحارب الرجعيين الذين يحاولون أن يستغلوا المتدينين في بلادنا لمصالحهم، وأغراضهم السياسية القذرة»[١].

وفي ابتعاد واضح عن العلمانية التي درج عليها البعث، والتي تفصل بين الدين والسياسة فصلاً تاماً افتتح الرئيس الأسد في هذه الفترة بعض خطاباته بعبارات دينية «الله أكبر» بل استشهد بآيات من القرآن ليؤكد بعض وجهات نظره، وفي بعض المناسبات اعتبر الرئيس الأسد من الضروري التصريح علناً أنه مسلم، حيث تعتقد معظم الأغلبية السنية من السكان أن العلويين ليسوا بمسلمين، ولديهم لهذا السبب شك كبير في شرعية حكم الأسد»[٢].

(١) من خطاب للأسد في ١٩٨٠/٣/٢٣ من اذاعة دمشق الساعة ١٩.١٥ .

(٢) الصراع على السلطة في سورية، لفان دام / ١٢٣ - ١٢٤ .

ولا شك أن هذه الخطب التي حاول أن يتقرب فيها من الإخوان المسلمين بدافع بذر الشقاق في صفوفهم، وفي محاولة لمواجهة موجة تصعيدهم للأحداث . حيث أثاروا الرعب فعلاً في صفوف الطائفة، لم تكن لتغير شيئاً من نظرة الأمة للأسد وطائفته، وعلى الأرجح أنها كانت في مرحلة المفاوضات السرية التي تمت بين الإخوان المسلمين وأسد بوساطة أمين يكن، وخروج المجموعة الكبيرة من قياداتهم من السجون، أما تصعيد المواجهة العنيفة فقد تم في نيسان ١٩٨٠ بين الطرفين، واشتدت الأحداث من المجاهدين والإرهاب من السلطة .

حزيران: الشهر الأسود:

محاولة اغتيال حافظ أسد:

في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٨٠ عندما كان الأسد بنفسه في مقدمة المعركة نجا بأعجوبة من الموت على أيدي خصومه الإسلاميين، فقد ألقى الإرهابيون عليه قنبلتين، وأطلقوا رشقات من الرصاص، بينما كان ينتظر زائراً افريقياً على بوابة قصر الضيافة . فرفس إحدى القنبلتين بعيداً، بينما ألقى أحد الحراس بنفسه على الثانية فقتل على الفور، وقام حارسه الشخصي خالد الحسين بإلقاء الرئيس على الأرض، وجعل جسمه درعاً لحمايته .

واجتاحت موجة من الثورة الهائجة صفوف الطائفة العلوية، ومعها تعطش للانتقام، وأقسم شقيقه رفعت على محو دمشق، وكان لسان حاله في نوبة غضبه يقول: «لماذا يريدون قتلنا؟ إننا نستطيع أن نقتل أيضاً» .

وعندما أبعد عن العاصمة صرف غضبه إلى مكان آخر»[1].

---

(١) الأسد، لباتريك سيل / ٥٣٢ .

مجزرة تدمر الكبرى:

في تمام الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ١٩٨٠/٦/٢٧ دعيت مجموعتان من سرايا الدفاع للاجتماع بلباس الميدان الكامل، المجموعة الأولى من اللواء (٤٠) الذي يقوده الرائد معين ناصيف (زوج بنت رفعت الأسد)، والمجموعة الثانية من اللواء (١٣٨) الذي يقوده المقدم علي ديب، وكل من المجموعتين يزداد تعداد عناصرهما على مائة عنصر .

أما مجموعة اللواء (٤٠) فقد اجتمعوا في سينما اللواء حيث القى فيهم معين ناصيف كلمة قال فيها: (راح تقوموا بهجوم على أكبر وكر للإخوان المسلمين، وهو سجن تدمر . مين ما بدو يقاتل؟) ولم يرفع أحد منهم يده أو صوته تعبيراً عن عدم رضاه بالقتال. في مطار المزة القديم التفت المجموعتان، حيث كانت في انتظارهم عشر طائرات هليوكوبتر وكل طائرة تتسع لـ (٢٤) عنصراً .

كان قائد العملية المقدم سليمان مصطفى، وهو قائد أركان اللواء (١٣٨)، وكان من جملة الضباط المشاركين الملازم أول ياسر باكير، والملازم أول منير درويش، والملازم أول رئيف عبد اللّٰه .

أقعلت طائرات الهليوكوبتر حوالي الساعة الخامسة صباحاً، ووصلت إلى مطار تدمر حوالي الساعة السادسة، عقد اجتماع لضباط العملية، تم فيه توزيع المهمات، وتقسيم المجموعات، ثم أعطي العناصر استراحة لمدة ثلاثة أرباع الساعة .

في هذه الأثناء كان سجن (تدمر) هادئاً . وقد اتخذت ترتيبات معينة مثل إجراء تفقد للمعتقلين وتسهيل مهمة مجموعة سرايا الدفاع، فلم تكن هناك عراقيل أو اعتراض . بل كانت الشرطة العسكرية المكلفة بالحراسة مستعدة على الباب الخارجي، كما كان رئيس الحرس وشرطته العسكرية مجتمعين في ساحة

السجن وقد سخروا بالمعتقلين سخرية مرة حين قالوا لهم: إنهم سوف يتم الإفراج عنهم في ذلك الصباح .

ثم دعي عناصر سرايا الدفاع إلى الاجتماع، حيث تم تقسيمهم ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: (٨٠) عنصراً كلفت بدخول السجن، وسميت مجموعة الاقتحام .

المجموعة الثانية: (٢٠) عنصراً لحراسة طائرات الهليوكبتر.

المجموعة الثالثة: بقية العناصر للاحتياط في المطار .

ركبت مجموعة الاقتحام سيارة (دوج تراك)، وحين وصلت السجن اجتمع عناصرها بمجموعات تتألف من (٦-١٠) عناصر، يقود كل مجموعة منها ضابط، كان مدير السجن على علم مسبق بالأمر، ففضلاً عن تسهيلات الدخول سلمت مفاتيح السجن لمسؤولي سرايا الدفاع فور وصولهم، كما زودوا بمرشدين يعرفون غرف السجن ومداخله . كان في سجن تدمر العسكري (٣٤) مهجعاً، في كل منها ٢٠-٧٠ معتقلاً بحسب ضخامة المهجع أو صغره . وقد تم تنظيم العملية بقتل المعتقلين على دفعتين: الدفعة الأولى: تشمل الغرف المطلة على الباحات (١ و٢ و٣)، والدفعة الثانية تشمل الغرف المطلة على الباحات (٤ و٥ و٦) .

بسبب انخفاض المهاجع وعتمتها في غرف الباحات (١ و٢ و٣) تقرر إخراج المعتقلين إلى الباحات لتنفيذ الإعدام فيهم، وتوزعت مجموعات سرايا الدفاع على المهاجع والباحات، وفتحت الأبواب، وبموجب نظام وقف المعتقلون عند فتح أبواب المهاجع مغمضي العيون، ووجوههم إلى السقف وقدم رئيس كل مهجع الصف قائلا: (انتبه، استعد، المهجع جاهز للتفتيش سيدي الرقيب) .

في الباحة رقم (١) أخرج نزلاء المهجعين (٥ و٦) ونزلاء المهجع (٤) وجمعوا في زاوية الباحة الشمالية الشرقية .

في الباحة رقم (٢) أخرج نزلاء المهاجع الثلاثة (٨ و٩ و١٠) وجمعوا في آخر الباحة جنوب غرب مقابل نهاية المهجع (٨) ذي الشرفة الواسعة من أمام .

في الباحة رقم (٣) جمع المعتقلون من المهاجع (١٢ و١٣ و١٦ و١٧) فيا لزاوية الشرقية الجنوبية من الباحة أمام المهجع (١٢) .

وهكذا تم تجميع المعتقلين مع أغراضهم بشكل يجعل عملية القتل والإبادة تبدأ في الباحات الثلاث في وقت واحد .

والجدير بالذكر أن المعتقلين جميعاً قد أخضعوا في اليوم السابق لأنواع من التعذيب الشديد الذي لم يسبق له مثيل، فقد اندفعت عناصر الشرطة العسكرية تطوف بالمهاجع وتضرب المعتقلين بالسياط (الكرابيج) والعصي، كما أخرجوا نزلاء بعض المهاجع بالتسلسل وانهالوا عليهم ضرباً بالعصي والسياط، فأصيب الكثيرون من المعتقلين بكسور وجروح ورضوض مختلفة .

ولعل أشد أنواع التعذيب في اليوم السابق كانت لنزلاء المهاجع الذين اخضعوا للحلاقة، حيث كان يعذب كل معتقل على حدة عذاباً شديداً، ويستخدمون أدوات الحلاقة نفسها للتعذيب، فيصلمون آذان المعتقلين أو يشقونها ويجدعون الأنوف، وما شاكل ذلك. ثم بات المعتقلون شر ليلة . لذلك كانت حالهم مأساوية حين ساقوهم مجدداً وجمعوهم في الباحات الثلاث حيث لم تنس فجيعة الأمس بعد .

أعطيت إشارة البدء لعناصر سرايا الدفاع، فانطلقت الآلات النارية تصب وابل الحمم على المعتقلين العزل المشدوهين . وألقيت عدة قنابل لا سيما في الباحة رقم (٢)، واستخدمت بعض قاذفات اللَّهب مع إطلاق النار الكثيف في كل

من الباحات الثلاث، على حين تعالت أصوات المعتقلين بهتافات الله أكبر مع صرخات الأمل والشكوى إلى الله تعالى .

وخلال دقائق قليلة انتهى الأمر . لكن في الباحة رقم (١) هرب بعض المعتقلين وتمكنوا من دخول المهجع الكبير المزدوج (٤ و٥) فتواروا فيه، فلحق بهم عناصر سرايا الدفاع إلى داخل المهجع، ومثلوا بهم وقتلوهم عن آخرهم .

بعد ذلك عمد القتلة إلى التمشي بين الضحايا يقلبون ما تراكم منهم ويركلونهم ويدوسونهم، ومن سمع له صوت أو لوحظت له حركة أو بقية من حياة أجهزوا عليه برشة من رصاص بنادقهم الآلية .

حين انتهوا من القضاء على مجموعة الدفعة الأولى من المعتقلين، تجمع القتلة وانطلقوا بتشكيل معين إلى الباحات الثلاث الأخيرة، ولكيلا تتكرر عملية هرب بعض الضحايا إلى المهاجع، قرر الضباط دخول المهاجع على المعتقلين وقتلهم فيها .

اندفعت ست مجموعات من القتلة إلى الباحة رقم (٤) وفيها ثلاثة مهاجع ملأى بالمعتقلين فتوجهت كل مجموعتين إلى مهجع، وفتح الباب، وقدم رئيس كل مهجع الصف، فدخلوا عليه وأمروهم بالابتعاد عن الباب، ثم ألقوا على كل مهجع قنبلتين دفاعيتين، ثم دخلوا عليهم، وأخذوا يطلقون رصاصهم رشاً على الضحايا الذين ارتمى معظمهم على الأرض بين قتيل وجريح، وهكذا تابعوا إطلاق النار حتى أفنوا المعتقلين جميعاً، على حين كان يسمع من الضحايا صراخ: الله أكبر وأصوات الاستغاثة، لكن ذلك لم يمنع من إكمال تنفيذ المجزرة الجريمة .

ثم عادت المجموعات إلى الباحة رقم (٣) ومنها انطلقت المجموعات كلها إلى الباحتين (٥ و٦)، حيث توزعت على المهاجع الخمسة الملآى أيضاً

بالمعتقلين . وفتحت الأبواب، وقدمت الصفوف .

كان معتقلو هاتين الباحتين قد سمعوا إطلاق النار وضجة التحركات، لكن بسبب هاتين الباحتين المنفصلتين وانفصالهمها عن بقية الباحات لم يتأكد للمعتقلين حقيقة ما يجري، وإن كانوا على وجل كبير من ممارسات حراس السجن وذكريات ليلة البارحة، وأصداء اليوم في الصباح الباكر، ولم يجدوا إلا اللجوء إلى الله تعالى يلوذون بحماه سائلين العفو والرحمة كما تواصوا بالصبر، وودع بعضهم بعضاً قائلين: الملتقى في جنة الخلد إن شاء الله، ودعوا الله عز وجل أن يحق الحق ويبطل الباطل وينصر المظلومين على الظلمة .

وجاء عناصر سرايا الدفاع المسلحون إلى المهاجع، وكالعادة أمروا المعتقلين بالابتعاد عن الأبواب إلى مؤخرة المهاجع، وشرعوا يطلقون النار من بنادقهم الأوتوماتيكية رشاً على المعتقلين، وتعالت من جديد هتافات الله اكبر وصرخات الألم الرهيب وأصوات التشهد، فيما كان القتلة يقضون على كل نسمة حياة، وتهاوت الضحايا تتخبط في دمائها، فأخذوا يطلقون النار على الأكوام البشرية، وعلى من بقي واقفاً حتى اطمأنوا إلى أن أحداً لم يبق حياً .

في أحد مهاجع الباحة رقم (٥) اختبأ أحد المعتقلين في دورة المياه القريبة من الباب، وحين دخلت العناصر المسلحة وبدأت باطلاق النار على المعتقلين العزل انقض هذا المعتقل من دورة المياه وانتزع السلاح من أحد عناصر سرايا الدفاع وهو الرقيب اسكندر أحمد، وأطلق عدة طلقات أدت إلى مقتل هذا الرقيب وجرح اثنين آخرين، لكن بقية العناصر المسلحة بادرت إلى إطلاق النار على هذا الأخ من كل جهة حتى استشهد .

قام بعض الضباط والعناصر بتقليب جثث الضحايا والتأكد من مقتلها أو الإجهاز على من فيه بقية رمق حتى تلطخت أيديهم وثيابهم وصدورهم بالدماء،

مثل الملازم رئيف عبد الله، والملازم منير درويش، والرقيب محمد علي موسى .

وهكذا وفي أقل من ساعة واحدة أصبح جميع المعتقلين في سجن تدمر العسكري، وغالبهم من الإخوان المسلمين وخريجي الجامعات والعسكريين، أصبحوا شهداء . صعدت أرواحهم إلى عليين تشكو ظلم أسد وعصاباته، ومع ذلك قدر الله أن ينجو من هذه المجازر الجماعية بضعة أفراد، كانوا في دورات المياه أو تحت ركام الجثث . لكن الأمر لم يطل بالناجين، فقد حملوا وألقي بهم وهم أحياء مع الضحايا في سيارات الشحن إلى حيث كانت جرافتان ضخمتان (من نوع قلاب) تسوي الأرض فوقهم في واد يقع شرقي تدمر .

بقي دم الضحايا البريئة يغمر أرض السجن، وتجمد في كثير من الأماكن من الباحات والمهاجع . فتكفل جهاز السجن بإحضار عناصر البلدية الموثوقين، وعملوا على تنظيف السجن من الدماء والأغراض المخضبة، كما أجري ترميم للسجن، وطليت جدران السجن بطلاء يستر ما تحته من آثار الجريمة، أما المجرمون منفذو هذه العملية فقد عادوا إلى مطار المزة في الساعة ١٢.٣٠ ظهراً، فانصرفت مجموعة اللواء (١٣٨) إلى لوائها كما طلعت مجموعة اللواء (٤٠) إلى لوائها، وكان بانتظارهم الرائد معين ناصيف، حيث اجتمع بهم في السينما، وشكرهم على جهودهم، وعزاهم بوفاة أحدهم في العملية بعد أن قال لهم: أنتم قمتم بعمل رجولة . ثم أمرهم بكتمان العملية وقال: ما لازم يعني تطلع هالعملية خارج منا، يعني لازم تظل مكتومة وسرية .

لكنها جريمة أكبر من أن تكتم، فقد تسربت أخبارها منذ الأيام الأولى، كما أن اثنين من عناصر سرايا الدفاع الذين أسهموا في المذبحة قد أدليا باعترافاتهما المفصلة أمام التلفزيون الأردني بعد أن ألقي القبض عليهما في محاولة اغتيال السيد مضر بدران رئيس وزراء الأردن عام ١٩٨٠، وهما الرقيب عيسى إبراهيم

فياض والعريف أكرم علي جميل بيشاني، وكلاهما من مجموعة اللواء (٤٠) سرايا الدفاع، الأول كان من مجموعات (الاقتحام وقتل المعتقلين)، والثاني من مجموعة الاحتياط التي رابطت في مطار تدمر.

وفي اليوم التالي وزعت السلطة مبلغ ٢٠٠ ل.س على كل عنصر من العناصر الذين اشتركوا في عملية مجزرة تدمر»[1].

قانون إعدام المنتسب للإخوان المسلمين:

في تموز ١٩٨٠ أقر القانون ٤٩ المتضمن الحكم بالإعدام على كل منتسب للإخوان المسلمين، وفيما يأتي مشروع القانون الذي أحيل للمجلس من رئيس نظام المجازر:

مشروع قانون محال من السيد رئيس الجمهورية بتشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الإخوان المسلمين وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء:

السيد رئيس مجلس الشعب

نحيل إليكم مشروع القانون المتضمن تشديد عقوبة الانتساب إلى جماعة الإخوان المسلمين وتخفيض عقوبة من يسلم نفسه من هؤلاء لعرضه على المجلس .

دمشق في ١٤٠٠/٨/١٦ و١٩٨٠/٦/٢١رئيس الجمهورية حافظ الأسد

مشروع قانون:

المادة ١: يعتبر مجرماً ويعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم جماعة الإخوان

---

(١) تدمر، المجزرة المستمرة . من منشورات دار النذير، ط. الثالثة، ١٤٠٤ هـ . هذا وباعتراف المجرمين أن الذين قتلوا يتراوحون بين ٥٠٠ - ٦٠٠ شهيد .

المسلمين .

المادة ٢: أ - يعفى من العقوبة الواردة في هذا القانون أو أي قانون آخر، كل منتسب إلى هذه الجماعة إذا أعلن انسحابه منها خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون .

ب: يتم إعلان الانسحاب بموجب تصريح خطي يقدم إلى قائد شرطة المحافظة أو مدير المنطقة أو السفير لمن هم خارج القطر بتاريخ صدور هذا القانون .

المادة ٣: تخفض عقوبة الجرائم الجنائية التي ارتكبها المنتسب إلى تنظيم جماعة الإخوان المسلمين قبل نفاذ هذا القانون تحقيقاً لأهداف هذه الجماعة، إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون وفقاً لما يلي:

أ)إذا كان الفعل يوجب الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة أو الاعتقال المؤبد . كانت العقوبة خمس سنوات على الأكثر .

ب)إذا كان الفعل يؤلف إحدى الجنايات الأخرى، كانت العقوبة الحبس من سنة إلى ثلاث سنوات .

المادة ٤: يعفى من عقوبة الجرائم الجنحوية المرتكبة قبل نفاذ هذا القانون تحقيقاً لأهداف تنظيم الإخوان المسلمين كل منتسب إلى هذه الجماعة إذا سلم نفسه خلال شهر واحد من تاريخ نفاذ هذا القانون .

المادة ٥: لا يستفيد من هذا التخفيض والعفو الوارد في هذا القانون الذين هم قيد التوقيف والمحاكمة.

المادة ٦: ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ صدوره.

وقد أقر مجلس الشعب السوري في جلسة ٧ تموز / يوليو ١٩٨٠ نص

القانون (٤٩)»[١]

براءة للقانون:

ورغم خطورة هذا القانون فقد قدم مشروعه إلى المجلس في ٣٠ حزيران ١٩٨٠، وفي نفس الجلسة اتخذ قراراً باستعجال النظر فيه، وفي جلسة واحدة بتاريخ ٧ تموز ١٩٨٠ وخلال خمس ساعات نوقش وأقر .

-أعطي للقانون أثر رجعي، في حين أن المادة (٣٠) من الدستور النافذ في سورية تنص على عدم رجعية القوانين الجزائية .

-نصت المادة الخامسة على الإعفاء من العقوبة لمن ينسحب من الإخوان المسلمين خلال شهر من تاريخ نفاذه . واستثنت المادة الخامسة من هذا العفو من هم قيد التوقيف . ولما كان يوجد قيد التوقيف أكثر من عشرة آلاف معتقل بتهمة الانتساب إلى جماعة الإخوان المسلمين فمعنى ذلك أن جميع هؤلاء قضي عليهم بالموت لمجرد انتمائهم السياسي، بموجب قانون لم يكن موجوداً في زمن انتمائهم، ويعاقبهم عن أعمال لم يقوموا بها في ظله .

٦ -لقد أصدر هذا القانون من أجل حماية السلطة الحاكمة من الثورة الشعبية العارمة، ومع ذلك لم يميز بين من قام بنشاط معاد للنظام الحاكم وبين من أبدى آراء انتقادية، وبين من اقتنع بآراء شخصية وجدانية دون أن يعلنها للناس ..» [٢].

وبذلك أنهى الأسد ذلك التفريق الذي أعلنه في خطابه في ٢١ آذار/ مارس ١٩٨٠ بين فريقين من الإخوان المسلمين، أكبر هذين الفريقين ضد القتلة، وانتقل

---

(١) قانون العار ٤٩، من منشورات دار النذير،ص ١١ .

(٢) المصدر نفسه / ١١ - ١٢ .

من الشهر الثالث ليعلن في الشهر السابع عقوبة الإعدام لكل من ينتسب للإخوان المسلمين .

مجزرة المشارقة بحلب: بعد شهر تقريباً من إعلان القانون (٤٩) قام الطاغية النصيري بمجزرة رهيبة في حلب، دعيت بمجزرة حي المشارقة، فقد صدر من ذلك الحي صوت طلقات رصاص صباح عيد الفطر في ١٩٨٠/٨/١١ وعجزت الدولة عن معرفة مصدرها، فأصدرت أوامرها إلى جميع رجالات الحي بالتجمع، وبدأ إطلاق النار عليهم حيث قتلت حوالي ١٠٠ مواطن ودفنتهم بالجرافات، وبعضهم ما زال جريحاً لم يمت بعد.

المفاوضات السرية:

ورغم كل هذا العنف والإرهاب فلم يكن النصيريون مطمئنين إلى قوتهم، بل كان الذعر والهلع يجتاح الطائفة . فأوفدت إلى الأردن بعض العناصر الإسلامية لاستمزاج الرأي في الحوار مع الإخوان المسلمين، وهذا هو نص هذه الاتصالات من وثائق الجبهة الإسلامية في سورية:

«إن السيد فاروق المشوح قد غادر القطر بتاريخ الخميس في ١٨ شوال ١٤٠٠هـ المصادف ٢٨ آب ١٩٨٠، وعاد مساء أمس الثلاثاء ٢٣ شوال ١٤٠٠هـ المصادف ٢ أيلول ١٩٨٠ يحمل من قيادة الجبهة الإسلامية في سورية ترحيبها الصادق باستعداد الرئيس حفظه الله لفتح الحوار الجاد المسؤول مزوداً بالمقترحات التالية:

إن الذي تتمناه الجبهة الإسلامية في سورية على السيد الرئيس ما يلي:

أولاً: أن يقوم السيد الرئيس بحركة تصحيحية جديدة تضع المواطن في مسار

تشعر الجبهة الإسلامية في سورية أنه سيؤدي بإذن الله إلى الأمن والاستقرار اللازمين لانطلاقة الأمة نحو أهدافها الكبيرة في الداخل والخارج وفق المقررات التالية:

أ)تتعهد الجبهة الإسلامية في سورية بالإيعاز بوقف كافة العمليات من قبل المجموعات المسلحة التابعة لها، وأن تبذل مساعيها الجادة لدى الجهات المسلحة الأخرى لوقف عملياتها أيضاً لقاء:

١-الاعتراف بشرعية العمل الإسلامي غير المسلح ضمن الأطر الديمقراطية.

٢-إلغاء أو وقف العمل بالمرسوم ٤٩ .

٣-وقف العمليات الإعلامية .

٤-كف الملاحقة عن المطلوبين .

٥-الإفراج عن جميع العتقلين السياسيين حفاظاً على حرية المواطن أيا كان انتماؤه السياسي .

ثانياً: ترى الجبهة الإسلامية في سورية أن الازمة في القطر نشأت عن أسباب معروفة، وأن علاجها يتم وفقاً للأسس التالية التي تشكل المطالب الحقيقية العاجلة للجبهة الإسلامية في سورية خدمة لمصالح الوطن والمواطنين على النحو التالي:

١-إصدار مرسوم تشريعي يتضمن النص على أن دين الدولة هو الإسلام، وأن الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع .

٢ -تشكيل وزارة مصالحة وطنية تتولى مهمة التطوير السلمي للبلد، والتحضير للدعوة إلى انتخابات مجلس تأسيسي يضع للبلاد دستوراً ينسجم مع إرادة أكثرية الأمة من خلال انتخابات حرة نزيهة مضمونة من قبل السيد الرئيس بالذات، وفي إطار قانون للانتخابات يمنح أي حزب أو جبهة حق الاشتراك في

السلطة التنفيذية بنسبة ما يحصل عليه من أصوات الناخبين .

٣ -إنهاء حالة الطوارئ وتحديد صلاحيات أجهزة الأمن بحيث لا تكون سيفاً مسلطاً على رقاب الناس .

٤ -إعادة المدرسين والمعلمين المنقولين والمسرحين إلى ملاك وزارة التربية.

٥ -إلغاء قانون حل النقابات العلمية وإعادة قياداتها الشرعية المنتخبة .

٦ -يلاحظ أن تضخماً في الأجهزة على كافة المستويات لا يتناسب مع التركيب الاجتماعي في البلد، والجبهة الإسلامية في سورية ترجو أن يتم شيئاً فشيئاً إرجاع كل شيء إلى حجمه الطبيعي دون طغيان فئة على أخرى .

٧ -معاملة شهداء الجبهة الإسلامية في سورية على نفس الأسس التي تعامل السلطة عليها شهداءها .

٨ -إصدار عفو عام عن كافة الملاحقين سياسياً .

ملاحظة: إن كل بند من هذه البنود قابل للمناقشة والتعديل وفقاً لما تمليه مصلحة الوطن، ويتفق عليه الطرفان .

والجبهة الإسلامية في سورية تشعر أن الأخذ بهذه المقترحات سيغير وبصورة جوهرية وجه العلاقات العربية والإسلامية والدولية، وبالشكل الذي يقرّب الأمة من تحقيق أهدافها الكبرى .

وبداهة أن هذا سوف يستند إن شاء الله على وحدة وطنية حقيقية راسخة، تسمح بالتحرك استناداً إلى صف جماهيري متماسك .

نسأل الله أن يجنب البلاد والعباد الفتن ما ظهر منها وما بطن .

والله من وراء القصد .

٢٣ شوال ١٤٠٠هـ ٢ أيلول ١٩٨٠ .

سلّمت هذه المذكرة إلى السيد وزير الأوقاف الساعة الواحدة بعد ظهر الخميس ٢٨ شوال ١٤٠٠هـ المصادف ٤ أيلول ١٩٨٠، واتصل بالقصر معلماً السيد الرئيس باستلامه المذكرة فأمر بإرسالها إليه فوراً، فأرسلها مرفقة بالإيضاحات الشفوية المرفقة ..»[١]

كان من الممكن لو أن القضية بين الإخوان المسلمين وشخص حافظ أسد أن تحل بهذه العروض العامة، وتكون أساس حوار يحفظ كرامة الطرفين، وتعود القضية إلى الشعب ليكون حكماً أخيراً فيها. وما تطلبه الجبهة الإسلامية هو حق كل إنسان في العالم الحر، حق الحرية للأمة، والتي يحتكم الجميع فيها إلى الشعب يختار قياداته وحكامه، ويختار نظام الحكم الذي يريده.

ولكن عندما تكون القضية بين طائفة أقلية، استطاعت أن تنقض على مراكز القوة في البلد وتستلم السلطة بعد صراع استمر أعواماً عديدة، وبين طائفة تحمل لواء الإسلام وتحكيم شريعة الله في البلد، فمن الطبيعي أن ترفض كل هذه العروض. وأن يكون جواب الأسد:

«اتصل عبد اللطيف قدورة بالسيد أبي طريف ظهر يوم السبت ١٩٨٠/٩/٢٦ وابلغه عن لسان وزير الأوقاف محمد محمد الخطيب بأن السيد رئيس الجمهورية قد ابلغه أن يبلغ السيد ... بأنه يشكره على جهوده، ويطلب وقف الاتصالات. وقال: إنه يشم في هذه الطلبات رائحة المخابرات الأردنية» عن لسان أبي طريف تليفونياً[٢].

---

(١) من وثائق الجبهة الإسلامية .

(٢) من وثائق الجبهة الإسلامية.

الاغتيالات النصيرية في الخارج:

«وجهت ضربات عقابية دامية بشكل خاص على أعمال إرهابية أخرى في حلب في آب/ اغسطس عام ١٩٨٠، وضد حماة في شهر نيسان الذي تلاه عندما تم جمع عشرات من الذكور الذين تجاوزوا الرابعة عشر من أعمارهم بشكل يكاد يكون عشوائياً، ثم أطلقت عليهم النار في مكانهم على الفور. وانتشرت حملة إسكات المعارضين خارج الحدود. فأغارت قوات كوماندوس سورية على معسكر تدريب للإخوان المسلمين في الأردن في أواخر تموز/ يوليو ١٩٨٠ . وتم قتل الصحفيين اللبنانيين المعادين، فقتل سليم اللوزي صاحب مجلة الحوادث في آذار/ مارس، وقتل رياض طه نقيب الصحفيين في بيروت في تموز/ يوليو، وفي آذار/ مارس من العام التالي ١٩٨١ وصل المغتالون في الميدان بعيداً إلى آخن بحثاً عن (مرشد) [1] الاخوان المسلمين عصام العطار، فقتلوا زوجته بنان الطنطاوي عندما فتحت الباب الأمامي. ولكن الاغتيال الذي سبب أعظم القلق والبلبلة كان اغتيال الزعيم البعثي القديم صلاح الدين البيطار في باريس في ٢١ تموز/ يوليو ١٩٨٠، ولم يثبت أنه كانت هناك أصابع سورية وراء عمليات القتل هذه. ولكن الشك فيها كان واسع الانتشار بين الناس.

وربما لم يكن الرجال من أمثال البيطار ليشكلوا خطراً على الأسد، ولكن انتقاداتهم كانت تمس عصباً حساساً، إذ كانت تنصب على منطقة بدا فيها الأسد كأنه ابتعد عن النهج القومي العربي الصحيح. فالبيطار وأمثاله كانوا يتهمون الأسد بالازدواجية إزاء خطط السلام الأميركية. ألم يتفاوض حول فك الاشتباك

---

(١) الأستاذ عصام العطار هو رئيس الطلائع الاسلامية في أوربا. وكان مراقباً عاماً لأحد فرعي تنظيم الإخوان المسلمين في سورية.

في الجولان مع كيسنجر؟ ألـم يكـن ذلك في آخر الأمر هو الانفتاح الذي سمح للسادات بموجبه لنفسه بأن يقيم سلامه المنفرد؟ وكيف يمكن للأسد أن يدعي مناصرة القضية الفلسطينية بينما هو يسحق منظمة التحرير الفلسطينية؟ ألـم يكن جيشه المحتل في لبنان ينفذ اتفاقية صامتة مع إسرائيل لاقتسام لبنان بينهما؟ ألا يتجمـل الأسـد بعـض المسـؤولية فـي التنـافر مـع مصـر، وانهيـار الانفـراج مـع العراق؟»[1].

وكانت حرب الأسد الطويلة مع التنظيم السري الإسلامي تقترب من الحل، ففي خريف ١٩٨٠ أعاد أعداؤه تجميع أنفسهم لشن حملة جديدة، واستؤنفت اغتيالات الشخصيات البارزة. وفقد الأسد صديقين، هما الدكتور يوسف صايغ الطبيب المختص بأمراض القلب، ودرويش الزوني أحد قادة الجبهة الوطنية التقدمية، وقد قتل كلاهما في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٨٠، وفي الوقت نفسه أعلن عن تكوين الجبهة الإسلامية [2] التي صاغت بياناً أخاذ اللَّهجة حاولت به تجميع المعارضة في تحالف وطني واحد معاد للأسد، ووعدت الجبهة بحرية الكلام وبانتخابات حرة، وقضاء مستقل، وإصلاح لنظام ملكية الأراضي، وأشياء كثيرة أخرى تحت راية الإسلام، وكانت قيادتها من قاعدة خارج الشرق الأوسط ومكونة من ثلاثة أشخاص، هم عدنان سعدالدين وأصله من حمص [3]، ومحمد البيانوني من حلب، وكاتب كراسات ومنشورات من مواليد حماة هو سعيد حوّا

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٥٣٣-٥٣٤.

(٢) يتحدث سيل هنا عن (ميثاق الثورة الاسلامية) الذي صدر بتوقيع الأساتذة: عدنان سعد الدين وعلي صدر الدين البيانوني وسعيد حوى، وهو غير ميثاق الجبهة الاسلامية الذي صدر باسم أمينها العام محمد أبي النصر البيانوني.

(٣) الأستاذ عدنان سعد الدين أصله من حماة وليس من حمص.

[1]. ورأى الأسد ذلك نذيراً بالخطر بسبب الضجة الإعلامية التي حصل عليها هؤلاء الرجال في الأقطار العربية. وفي الغرب، والتأييد الذي بدا أنهم يحصلون عليه من المتعاطفين معهم في مصر والأردن والعربية السعودية. [2]

عام ٨١ وتصاعد الأحداث

لا بد من الإشارة ابتداءً أن تنظيم الإخوان المسلمين كان موزعاً على ثلاث فئات:

الفئة الأولى: ما يطلق عليه تنظيم دمشق، وعلى رأسه المراقب العام الأستاذ عصام العطار.

الفئة الثانية: ما يطلق عليه تنظيم حلب، وهو الذي استمد شرعيته من اعتراف القيادة العليا للإخوان المسلمين به، وهي مكتب الإرشاد، واكتسب عضوية تمثيل الإخوان المسلمين السوريين فيه، وعلى رأسه المراقب العام الأستاذ عدنان سعد الدين.

الفئة الثالثة: الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، وهي التي تمثل التنظيم العسكري للإخوان. ولكنها مستقلة في قيادتها. وانتهت قيادتها إلى الشهيد عبدالستار الزعيم في حماة، وعدنان عقلة في حلب، وأيمن الشربجي في دمشق، وعناصرها من الشباب المندفع من جميع التنظيمات الإخوانية والإسلامية.

وقد جرت محاولة لربط الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين بالتنظيمين الرئيسيين، لكن لم يكتب لهذه المحاولات النجاح قبل عام ١٩٨١، حيث أوفدت

---

(١) الأستاذ سعيد حوا رحمه الله ليس كاتب كراسات، ولكنه كاتب ومفكر إسلامي معروف.

(٢) الأسد، لباتريك سيل/ ٥٣٥.

قيادة الإخوان الأستاذ علي البيانوني إلى داخل سورية، وأقام بها أربعين يوماً في محاولات يائسة مع المهندس عدنان عقلة لانضمامه للتنظيم، فأبى ذلك، واستقر رأي الاخوان في الخارج على أن عدنان عقلة شاب متطرف منشق عن صف الجماعة.

وأما عدنان فقد عرض الطاعة والولاء لهذه القيادة إذا عادت للداخل وقامت بقيادة العمليات الجهادية فيه. وأقدمت الدولة على فخ أوقعت فيه قيادة المجاهدين في حلب، وهو أنها فرضت على جميع المؤسسات الخاصة وموظفي الدولة الرسميين أن يشاركوا في أعمال أجهزة الأمن ومراقبة المجاهدين. ومعظم هؤلاء من السنة لم يكن أمامهم خيار في هذه المهمة، وإلا سيفصلون من وظائفهم. وتابع عدنان عقلة خطواته في عمليات الهجوم والاغتيالات للعاملين في أجهزة الأمن. فكان معظم القتلى في الفترة الأخيرة من الموظفين الذين لا حول لهم ولا طول. وهم بين خياري السلطة الباغية والمجاهدين. وقد سقط عدد من البرآء برصاص أفراد الطليعة المقاتلة.

وكان هذا انحرافاً عن الخط الذي تبنته الطليعة، والذي اعتبر المعركة ابتداءً بين الإسلاميين والنصيريين. بل يمكن القول: إن فتح المعركة مع رجال الأمن هو خطأ شرعي واستراتيجي بالتأكيد.

وحدة الإخوان المسلمين:

وقد تمت هذه الوحدة رسمياً في ٢٠ كانون الثاني ١٩٨١ حيث صدر البيان التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المتقين وقائد المجاهدين، وعلى آله وصحبه.

إخوة الإسلام والجهاد، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد

فإن الجهاد المبارك فريضة الله الماضية إلى يوم القيامة، وما ترك قوم الجهاد قط إلا ذلوا، فبركات الجهاد أكثر من أن يحصيها قلم كاتب، وأوسع من أن يحيط بها قلم مفكر، (والله يعلم وأنتم لا تعلمون). وإنه لمن دواعي غبطتنا وسرورنا اللذين يمتلكان علينا كل مشاعرنا وأحساسينا أن نزف إليكم أيها المجاهدون الأحبة بشرى إنجاز الحدث التاريخي الكبير الذي طال اشتياقكم إليه، هذا الحدث الذي سيفرز نتائج إيجابية هامة يتغير من خلالها مجرى تاريخ البشرية بإذن الله تعالى.

إننا نبشركم بأن المولى الكريم تفضل على عباده المؤمنين بإعادة اللحمة المتينة للصف الإخواني الميمون باندماج فصائله الكريمة الثلاثة تحت قيادة مركزية واحدة. لتنتهي بعون الله إلى غير رجعة سنوات التغرب العجاف المنصرمة التي كلفتنا الكثير، ولنبدأ رحلة جديدة تنطلق من خلالها حركتنا الإخوانية المجاهدة نحو تحقيق أهدافها السامية، وهي أشد ما تكون قوة وعزيمة ومضاءً، على أساس أن القيادة الجديدة تمتلك الصلاحيات الكاملة للبت في كل متطلبات المعركة العسكرية والسياسية والإعلامية والمالية. والإعداد للإستراتيجية الجديدة للمرحلتين الحالية واللاحقة، وصولاً الى يوم النصر الكبير بقوة الله. وذلك من جراء التزامها بالإصرار على حشد كل القدرات والإمكانات الإسلامية لوضعها في خدمة المعركة. وبالإصرار على مسيرتنا الجهادية الخيّرة حتى شوطها الأخير، واستمرار حمل السلاح حتى يكرمنا المولى بإحدى الحسنيين الشهادة أو النصر.

إخوتنا الأحبة: في غمرة ابتهاجنا بهذا الإنجاز العظيم، وفي الوقت الذي توشك فيه ثورتنا الإسلامية أن تدلف إلى عامها الثالث من جهادها المعلن. نذكر بكل الإكبار والإجلال، وبكل الحب والوفاء، الإخوة الشهداء الأحبة الذين قضوا

على درب الله دون أن يغيروا أو يبدلوا، ومضوا إلى جنات الله راضين مرضيين. ونذكر على رأس هؤلاء النفر الكرام الأخ الشهيد الحبيب (أبا خالد) مروان حديد قدّس الله روحه الطاهرة وطيّب ثراه، هذا العملاق الذي أنجبته جماعة الإخوان المسلمين، والذي ما فتئ يعمق الخط الجهادي المبارك الذي شقه الامام الشهيد حسن البنا والأخ الشهيد سيد قطب، وقوافل شهدائنا الأبرار، وقادها عبر طليعتهم المقاتلة، الدرع الحصين للإخوان المسلمين، مرسين بذلك الدعائم الأساسية في بناء دولة الخلافة الإسلامية الراشدة من جديد، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإقرار منهج الله في الأرض.

إخوتنا الأحبة:

ونحن إذ نهنئ المسلمين قاطبة، ونهنئكم ونهنئ أنفسنا بهذا الخير الذي حازه الإخوان المسلمون، نتوجه بقلوب صادقة خاشعة كثيرة إلى العلي القدير ضارعين إليه أن يسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يقرّ أعيننا بالنصر على أعدائنا، والتمكين لنا في الأرض، وأن يختم لنا بخير، إنه هو البر الرحيم ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ والله أكبر ولله الحمد، والله أكبر والنصر للإسلام العظيم.

١٦ ربيع الأول ١٤٠١/ ٢٠ كانون الثاني ١٩٨١ .

القيادة»

لكن الوحدة العملية للإخوان المسلمين قد تمت بتاريخ ١٤٠١/٥/١٠ الموافق ١٩٨١/٣/١٦، حيث تشكلت القيادة من الفصائل الثلاثة للإخوان المسلمين، وتم اختيار الأخ الدكتور حسن هويدي مراقباًعاماً للإخوان المسلمين في سورية.

ولكن بُعد السنوات العشر بين هذه الفصائل جعل العقبات كثيرة داخل هذا التنظيم الجديد الموحد.

أحداث نيسان:

في الوقت الذي كانت الخلافات محتدمة في صف قيادة الوفاق حول المسؤول عن الجهاز العسكري، كانت الأحداث تتصاعد في الداخل، وفي حماة بالذات، وبعد شهر من وحدة الإخوان المسلمين، وفي نيسان ٢٢-٢٧ منه سنة ١٩٨١ قامت أحداث حماة الأولى، وهذا هو تفصيلها كما أوردتها مجلة النذير:

«صباح ١٧ جمادى الآخرة/ نيسان قامت عدة مجموعات من المجاهدين بتوجيه ضربة تأديبية للميليشيات الطائفية المسلحة في قرى (عين الكروم، تل سلحب، سطحا، الحلادة،التابعة لمحافظة حماة، وفي قريتي العامرية وجبروين التابعتين لمحافظة حمص)، وأوقعت فيها خسائر كبيرة جداً وانسحبت مجموعات المجاهدين سالمين بحمد الله.

وكان المجاهدون قد أعدوا العدة بعد تنفيذ عملياتهم لمجابهة السلطة إن حاولت القيام بأية عملية انتقام من الأهالي العُزل. فكمنوا في منافذ بعض المدن، وتمركزوا في المناطق الهامة منها، وأسرعت السلطة الباغية بحشد قواتها من المحافظات القريبة، وطوّقت مدينة حماة، وجلبت اللواء/ ٧ والوحدات الخاصة المرابطة في (محردة).

الجمعة ١٩ جمادى الآخرة/ نيسان في الساعة الثانية قبل الفجر حاولت الوحدات الخاصة معززة بالمخابرات أن تدخل حماة من جهة طريق حمص، فتصدى لها المجاهدون فارتدت. ولم تتمكن من الاقتحام، ثم اتسعت الاشتباكات في مناطق عدة من المدينة (جامع عمر بن الخطاب، جامع الأفندي،

باب البلد، جامع السعود، وطريق محردة..) ومناطق أخرى وخاصة على محاور المدينة، بينما حوصرت قوات السلطة الباغية التي كانت في الأصل مرابطة في دار الحكومة، واستمرت المعارك حتى الساعة السادسة من مساء الجمعة أي حوالي (١٨ ساعة)، وكان المجاهدون يسيطرون على أكثر مناطق المدينة ما عدا دار الحكومة المذكورة.

ثم قامت السلطة الباغية بهجوم كثيف على المدينة، وإنزال لسرايا الدفاع على (القلعة)، واقتحمت منازل السكان العُزل. وبدأت بعمليات القتل الجماعي في عدة أحياء (بستان السعادة، شارع المرآب الموازي للقلعة، جامع النوري، منطقة البرازية، جامع المسعود، منطقة السخانة، منطقة الزئبقي..) وكانت قوات الإجرام تخرج الأهالي من بيوتهم، وتجمعهم في الساحات وتقوم بقتلهم عن آخرهم، وقد تبين أن بين المقتولين بيد قوات البغي ٢٦ عضواً عاملاً في الحزب الحاكم.

واستمرت المقاومة والتحم الأهالي بالمجاهدين التحاماً بطولياً رائعاً، وهب شعب حماة كله يقارع الطغاة، وسدد الشعب ضربات قوية لقوات البغي، وكبدها خسائر فادحة، ودب الذعر في قلوب جنود البغي، فولوا هاربين من المدينة أمام المقاومة الباسلة واضطرت السلطة الباغية إلى سحب قواتها من المدينة.

الأحد ٢١ جمادى الآخرة أعادت السلطة محاولاتها الهجوم على المدينة بعد أن حشدت دبابات ومدرعات جديدة، بيد أن المجاهدين لم يتيحوا مجالاً لقوات البغي أن تدخل المنطقة، ما خلا منطقة دار الحكومة حيث كانت الوحدات محاصرة في مقر الحزب ودار الحكومة والبريد.

خسائر العدو الطائفي: في ميليشيا القرى الطائفية نتيجة للهجوم الأول ٤٠٠ قتيل، وأكثر من ١٠٠٠ جريح. أما شهداء حماة فكانوا ١٥٠ شهيداً قتلوا في أعمال القتل الجماعي التي اقترفتها السلطة، و٢٠ شهيداً في معارك المقاومة،

و٢٠ جريحاً، وهدم عدة بيوت وهدم قبة جامع عمر بن الخطاب، وعدد من نوافذه، هدم مئذنة جامع الأفندي.

لقد كان لهذه العمليات صدى واسع في نفوس الأعداء والأصدقاء على حد سواء، فقد زلزل أركان النظام، كما أن رجال الطائفة الحاكمة تحركوا من جديد لا سيما العقلاء منهم. فقد اتصل عدد من الوفود والضباط بحافظ اسد بالذات. وبمن يمثله من الطغاة الصغار، وطالبوا بالرجوع الفوري عن النهج الطائفي، وبضرورة انسحاب حافظ وأخيه رفعت من الساحة السياسية قبل فوات الأوان»[١].

ووقعت قيادة الاخوان المسلمين في غمرة اندفاعها بالعديد من المبالغات التي شوّهت صورة الحركة الاسلامية فيما بعد. وعلى سبيل المثال كانت هناك قضيتان أخذتا لغطاً كبيراً في صفوف قواعد الإخوان المسلمين.

القضية الأولى: قضية عدد المجاهدين في سورية، والثانية: تحديد عام الحسم.

ففي الموضوع الأول في المقابلة التي تمت مع صحيفة «دي فلت» بتاريخ ١٩٨٠/١١/١٩: «قلت: كم عدد المجاهدين الذين يحاربون النظام؟

بيانوني: الرقم خماسي (أي عشرة آلاف وما فوق) ولكن الأهم من ذلك هو أن الشعب يرى في المجاهدين المنقذ، ويبذل التضحية من أجلهم، إن روح الثورة تجري في فئات الشعب جميعاً»[٢]

---

(١) نقلاً عن مجلة النذير، العدد الرابع والثلاثون، الأربعاء ١٧ رجب ١٤٠١هـ ـ الموافق ١٩٨١/٥/٢٠م. والملاحظ أسلوب المبالغة والتهويل في الأرقام والوقائع. ولا ذنب للنذير، فهي تروي ما يصلها، والعهدة على الرواة القادمين من الداخل.

(٢) النذير، العدد السابع والعشرون، الخميس ٢٧ صفر ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨١/١/١.

وفي الموضوع الثاني ما نشرته النذير عن مقابلة الأستاذ عدنان سعد الدين مع البرنامج الثاني في التلفزيون الألماني يوم الجمعة ١٩٨١/٢/٢٧، وقد نشرت جريدة «دي فلت» المقابلة كاملة وورد فيها سؤال: ما الفترة التي تتوقعونها لاستلام الحكم في دمشق؟

المراقب العام: أملنا أن تكون سنة ١٩٨١ سنة الحسم، وأملنا أن لا يطول الوضع أكثر من سنة»

تصاعد الأحداث في دمشق:

كان المجاهدون في دمشق يعملون ببطء، لكن بتخطيط بعيد عن الاندفاع والتهور، ولم يكن فيها شيء يذكر، حتى الشهر الثامن من عام ١٩٨١.

ومن الأحداث الهامة التي تمت في هذه الفترة ووجهت أنظار العالم الى الثورة الإسلامية في سورية تفجير مبنى مجلس الوزراء. والآمرية الجوية، والخبراء الروس، والذي وجه الأنظار الى ذلك هو أن هذه الأحداث قد تمت في العاصمة دمشق. وعلى طريقة حديثة لم تعهد من قبل، وهو تفجير سيارة ملغومة تكون الخسارة فيها ضخمة على العدو، ويقوم بها فدائي واحد. وقد ذكرت وكالات الأنباء هذه الحوادث في حينها وكتبت النذير تصف هذه الأحداث قائلة:

«الإثنين ١٧ شوال ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨١/٨/١٧ في الساعة الثانية والربع قامت مجموعة من المجاهدين بتفجير مبنى رئاسة مجلس الوزراء في موعد الجلسة الأسبوعية للمجلس. وقد هزّ الانفجار دمشق، وأدى الى تصدع البناء واشتعال حريق فيه دام أربع ساعات، وقتل وجرح عدد كبير من أزلام السلطة الباغية يقدر بحوالي ٢٠٠. وعلى إثر الانفجار سارعت السلطة إلى إذاعة أن سبب الانفجار مجرد تماس كهربائي، وقد اعتقلت السلطة عدداً من العاملين في

الرئاسة للتحقيق، وقد شمل التحقيق عدداً من الوزراء أيضاً، وكان الوزراء قد غادروا المبنى قبل الانفجار.

الخميس ٥ ذي القعدة ١٤٠١هـ _ الموافق ١٩٨١/٩/٣ تمكنت مجموعة من المجاهدين من اقتحام طوق الحراسة المضروب حول مبنى قيادة القوى الجوية (الآمرية) وقاموا بتفجيره. وقد نجم عن الانفجار قتل أكثر من ٧٠ من جلاوزة السلطة الباغية. وأما الجرحى فيتجاوزون المائة. عُرف من القتلى اللواء علي سلامة واللواء (حمدي)، وعدد آخر من الضباط برتبة عقيد ورائد، وعرف من الجرحى العقيد (حسن قعقاع) وقد استشهد أحد الاخوة المجاهدين في أثناء الاشتباك على مقربة من بيت العميد نزيه زرير رئيس مخابرات الأمن القومي. وانسحب الإخوة الآخرون سالمين بحمد الله. والجدير بالذكر أن المبنى المذكور كثيراً ما تعقد فيه اجتماعات الطغمة الحاكمة أسد وأعوانه العسكريين والحزبيين، وذلك أن معظم العاملين في المبنى مختارون على أساس طائفي. ومنذ الحادث حتى الآن لا تزال السلطة تمنع مرور السيارات من شارع (المهدي بن بركة)، ولا يسمح لسكان الحي بالدخول إلا بعد تحري هوياتهم، كما يمنعون من الصعود إلى أسطحة جميع المباني المجاورة لقيادة القوى الجوية» (١)

وفي عدد النذير الذي تلاه ذكرت تفاصيل ضرب مبنى الخبراء الروس حيث قالت:

في ٩ ذي الحجة ١٩٨١/١٠/٧ قام المجاهدون بتفجير مبنى خاص بالخبراء الروس في حي العدوي في العاصمة، وهو مؤلف من طوابق عدة، تهدم معظمه بسبب الانفجار، وقتل فيه بضع عشرات من الخبراء، وجرح أكثر من مائة،

---

(١) النذير، العدد الثامن والثلاثون، الاثنين ١٦ ذي القعدة ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨١/٩/٤.

والجدير بالذكر أن عدداً كبيراً من الخبراء كانوا قد لقوا مصرعهم في عمليات نفذها المجاهدون في معظم المحافظات، رداً على تعاون الخبراء مع السلطة الباغية في عمليات التعذيب الوحشي، والحملات الظالمة التي تقوم بها السلطة الباغية ضد المواطنين.

أذاعت نبأ الانفجار وكالة تاس السوفيتية لكنها اختصرت عدد القتلى والجرحى. أما إذاعة أسد، فلم تأت على ذكره البتة.

«في الأسبوع الأول من ذي القعدة/ أيلول شهدت دمشق أكثر من عشرة انفجارات، استهدفت مساكن ضباط وضباط صف من أذناب السلطة، وذلك في منطقة المساكن (قرب الميدان) و(الدحاديل) وقد كبدت الانفجارات عملاء السلطة أضراراً جسيمة» [1].

وبصدد التعليق على هذه الأحداث تذكر النذير في عددها الجديد:

«ارتفع عدد قتلى ضباط السلطة الباغية نتيجة لتفجير مبنى القيادة الجوية بدمشق إلى ١٥٠ قتيلاً حتى أواخر تشرين الأول، منهم ستة ضباط برتبة لواء، و٣٠ برتبة عقيد وعميد، وعدد كبير من الرواد والنقباء وباقي الرتب. والجدير بالذكر أن حوالي ٣٥٠ جريحاً آخرين تغص بهم مستشفيات العاصمة وهم ينتظرون الموت بين لحظة وأخرى.

تفيد آخر الأخبار عن تفجير مبنى الخبراء الروس في ١٩٨١/١٠/٦ أن عدد القتلى قد ارتفع حتى أواخر تشرين الاول إلى ٢٠٠ خبير، منهم ٧ برتبة عميد، أشهرهم ضابط من الخبراء الروس وهو برتبة عميد أركان حرب تابع للمخابرات الروسية المركزية. ومن القتلى أيضاً ١٠ برتبة عقيد، و٦٠ برتبة نقيب، وعشرات

---

(١) النذير، العدد التاسع والثلاثون، الاربعاء ٢٣ ذي الحجة ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨١/١٠/٢١.

برتب مختلفة. والجدير بالذكر أن ١٥٠ خبيراً آخر ينتظرون المصير نفسه في عدد من مستشفيات دمشق.

في ٢٠ ذي القعدة/ ١٨ أيلول هاجم الإخوة المجاهدون باصاً يقل عشرات من ضباط السلطة الباغية في منطقة المزة، وتمكنوا من قتل أكثر من ثلاثين ضابطاً وجرح آخرين. وانسحبوا بسلام والحمد لله.

وقد جنّ جنون السلطة على إثر الحادث، وانتشرت الدوريات بكثافة في المنطقة، وأقيمت حواجز عدة» [(١)]

ورافق هذا التصعيد العسكري تصعيد سياسي وإعلامي حيث قامت مظاهرات في كل من إيطاليا وباريس تأييداً للثورة الاسلامية في سورية، وتكتب منظمة العفو الدولية عن أحداث نيسان تحت عنوان: سورية أنباء عن مذبحة حماة. فقد جاء في نشرتها الصادرة في أيلول/ سبتمبر ١٩٨١ ما يلي:

«وردت أنباء تقول إن قوات الأمن السورية قتلت مئات من الأشخاص في مدينة حماة السورية مساء ١٩٨١/٤/٢٣. وعلم أن قتل هؤلاء كان شكلاً من العقاب الجماعي للسكان، لأن مجموعة من مقاتلي الإخوان المسلمين (المجاهدين) شوهدت تتجه نحو حماة بعد اشتباكات عنيفة مع قوات أمن النظام السوري ووفقاً لتقارير منظمة العفو الدولية فإن وحدات القوات الخاصة السورية حاصرت أجزاءً من البلدة وقامت بتفتيشها بيتاً بيتاً. وذكر أن الأشخاص اقتيدوا من بيوتهم وصفوا في الشوارع ثم قتلوا.

وتقول التقارير إن عدد القتلى وصل إلى ٣٥٠ مع ٦٠٠ جريح، ولدى منظمة العفو الدولية أسماء أكثر من مائة شخص ذكر أنهم قتلوا.

---

(١) النذير، العدد الأربعون/ الاثنين ١٢ محرم ١٤٠٢هـ الموافق ١٩٨١/١١/٩.

وكانت منظمة العفو الدولية قد كتبت في ١٩٨١/٧/٢٤ إلى حافظ أسد معبرة عن قلقها حول هذه التقارير، مطالبة إياه بتكوين لجنة بحث لتقصي الحقائق وإعلان نتائج بحثها للجمهور، وقد ذكرت المنظمة في رسالتها أن مبادئ حقوق الإنسان تطلب ألا تزهق أرواح الناس اعتباطاً كما جاء في المادة السادسة من الميثاق العالمي للحقوق المدنية والسياسية، والذي وقعته سورية عام ١٩٦٩. وينص الميثاق على أنه لا انحراف عن هذه المادة حتى في حالة الطوارئ العامة التي تهدد كيان الأمة» (١)

تمزيق الحجاب:

كتبت النذير تحت عنوان «أخبار المحافظات - دمشق، ما يلي:

الثلاثاء ١ من ذي الحجة ٩/٢٩ في الساعة ٥.٣٠ مساءً قامت السلطة الباغية بإنزال أعداد كبيرة من المراهقات المظليات إلى مختلف أنحاء العاصمة، مع حماية لهن كثيفة من عناصر سرايا البغي والمخابرات بألبسة مدنية. وانتشرت المراهقات على مجموعات، تعداد كل منها حوالي ٣٠ مراهقة، وشرعن بالتعرض لكل محجبة مهما كان سنها، وتمزيق حجابها، وكنّ يلوحن بالحراب ويرددن كلمات الكفر والبذاءة، ويصرخن بأنهن يقمن بأمر القائد. وقد رفضت المواطنات المحجبات تصرفات المراهقات، وجرت على ذلك مشاحنات عدة. وكانت المراهقات يتجمعن حول المواطنة المحجبة ويعتدين عليها بالضرب والشتم وتمزيق الحجاب والثياب، والتجأ بعض المحجبات إلى المحال التجارية القريبة. فقامت المراهقات بتحطيم واجهات المحال التجارية وتخريب البضائع

---

(١) النذير، العدد التاسع والثلاثون، الاربعاء ٢٣ ذي الحجة ١٤٠١ الموافق ١٩٨١/١١/٤.

وتوجيه الشتائم لأصحابها وتهديدهم بالقتل. ثم عمدت المراهقات إلى إيقاف باصات النقل العام وإنزال المحجبات منها، والاعتداء عليهن، وإيقاف السيارات الصغيرة وتفتيشها، فإن كانت محجبة أنزلنها واعتدين عليها. وكان عناصر السرايا والمخابرات يقومون بحماية المراهقات، وإطلاق النار على كل مواطن يحاول التدخل لحماية محجبة. ونجم عن هذه الحوادث استشهاد عدد من المواطنات المحجبات نتيجة اعتداء المراهقات عليهن وطعنهن بالحراب.

وقد حدثت اشتباكات عنيفة بين المراهقات وعناصر البغي من جهة، وبين المواطنين الذين تصدوا لهم بالسكاكين والهراوات من جهة أخرى في أحياء الشاغور والميدان والجزماتية.. وغيرها.

وفي الميدان بينما أوقفت المراهقات أحد باصات النقل العام وشرعن في الاعتداء على المحجبات اشتبك معهن أحد العسكريين دفاعاً عن حرمه، وأسفر الاشتباك عن مقتل ثلاث مراهقات وجرح بضع عشر أخريات واستشهاد العسكري. وقد كانت حصيلة هذه الحملة الاستفزازية التي قام بها الطاغية الأسد وما نشأ عنها من اشتباكات مقتل أكثر من ٤٠ مراهقة مظلية، وجرح عدد كبير منهن، ومقتل وجرح عشرات من عناصر السرايا الدفاع والمخابرات، واستشهاد عدد من المواطنين من ذوي النخوة ممن دافعوا عن نسائهم، أو تصدوا لعناصر البغي حماية لنساء إخوانهن المواطنين.

وعمت المواطنين جميعاً نقمة عارمة على السلطة الباغية، وطاغوتها المجرم، وتوترت الأجواء في العاصمة فأغلقت على اثر الحوادث يومين» [١]

---

(١) النذير، العدد التاسع والثلاثون، الاربعاء ٢٣ ذي الحجة ١٤٠١هـ الموافق ١٩٨١/١٠/٢١.

حادثة الأزبكية:

وهذا نص ما ذكرته النذير عن هذا الحادث:

«تفجير المراكز القمعية في الأزبكية «عملية الحجاب»»:

في الذكرى الأولى لمرور شهرين كاملين على قرار الطاغية السفاح بالعدوان على الحجاب الإسلامي، وفي ١٩٨١/٩/٢٩ بدمشق وبقية المحافظات.

-المجاهدون يدمرون ثلاثة من مراكز السلطة الباغية تدميراً كاملاً.

١-مركز المخابرات العامة ومحكمة أمن الدولة. ٢- مركز المخابرات العسكرية. ٣- مركز تجنيد خاص بالمخابرات القمعية.

التوقيت: الساعة (١١) من ظهر الأحد صفر الخير ١٤٠٢ الموافق ١٩٨١/١١/٢٩، والشارع خال من المارة المدنيين من جهة أخرى.

-سبق الانفجار اشتباك بالرصاص مدروس لتحذير المواطنين وإبعادهم عن ساحة تأثير الانفجار.

-تفيد التقارير الأولية بما يلي:

١-القتلى من عناصر السلطة الباغية أكثر من ٥٠٠ بينهم العشرات من ذوي الرتب العالية (ألوية وعمداء وعقداء) ٢- بين القتلى (٤٠) خبيراً روسياً للتعذيب والتجسس.

٣-الجرحى أكثر من (٦٠٠). ٤- الأهداف الثلاثة القمعية تم تدميرها تدميراً تاماً.

٥-عجزت المستشفيات العسكرية بالعاصمة كمستشفى حرستا وغيره عن استيعاب أزلام السلطة فاستعانت بالمستشفيات المدنية في العاصمة وخارجها.

٦-السلطة الباغية عمدت إلى تزوير حقيقة الحدث، وتكتمت على نتائج الضربة الموجعة التي حاقت بها، وزعمت ان معظم المصابين مدنيين، كدأبها في

سائر دعاواها الباطلة، والتفصيلات ستعلن قريباً ان شاء الله» [1]

تصاعد الأحداث في حماة:

وقد أصدرت قيادة الاخوان المسلمين بياناً بهذه المناسبة هذا نصه:

«بيان من الاخوان المسلمين في سورية حول تصفية أسد لحساباته الداخلية:

في الوقت الذي تعلن فيه حكومة العدو اليهودي ضم هضبة الجولان جهاراً نهاراً أمام العالم، وبتواطئ مع بائع الجولان حافظ اسد.

في هذا الوقت بالذات وبالتحديد منذ يوم ١٩٨١/١٢/٨ أنزل الطاغية أسد لواءً من سرايا الدفاع إلى مدينة حماة بالإضافة إلى الوحدات الخاصة المعسكرة فيها منذ زمن طويل. وقسّم المدينة المجاهدة، مدينة أبي الفداء ثلاثة أقسام لاستباحتها على بكرة أبيها، قتلاً وسلباً ونهباً وهتكاً للأعراض، وتدميراً جماعياً، بعد قطع المدينة عن العالم الخارجي، ومنذ اليوم الأول استشهد العشرات من المواطنين الأبرياء وهدمت منازل وأحياء على سكانها كما جرى في حي (الصابونية والمزارب) وطريق مصياف ومنطقة (كرم الحوراني)، مما أثار حفيظة المواطنين للدفاع عن دينهم وأرواحهم وأعراضهم وأموالهم، فردوا على العدوان بروح جهادية عالية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، وكبدوا فرسان أسد الحمر خسائر كبيرة بالأرواح والعتاد. وما تزال المعارك دائرة من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، برغم استخدام الغزاة الأسلحة الثقيلة، قبل التفتيش وبعده، على طريقة

---

(١) النذير، العدد ٤١، الاربعاء ١٢ صفر ١٤٠٢هـ الموافق ٩ كانون اول ١٩٨١. والملاحظ تضخيم الأرقام لأن المعلومات كانت تسرب عن طريق المخابرات السورية لقيادة الإخوان المسلمين، وذلك لتوريطها بتبني حادثة الأزبكية. لانها لم تحقق أهدافها حيث حالت السلطة في اللحظة الأخيرة دون الوصول إلى المراكز وكانت الخسائر فعلاً من المدنيين. وكان تبني هذه الحادثة بداية انهيار سمعة المجاهدين بدمشق، واستطاع الإعلام النصيري ان يشوه صورة المجاهدين من خلال عرضه على التلفزيون الجرحى والقتلى المدنيين في الحادثة.

العدو اليهودي في مجازر قبية وكفر قاسم ودير ياسين. وذلك كله تحت مظلة الضجة الخارجية لضم الجولان، والصمت الإعلامي عما يجري في الداخل، مما يوحي بلا أدنى شك بأن هناك مؤامرة دولية طبختها أمريكا واسرائيل ونظام أسد. ونقلها فيليب حبيب وقبلتها روسيا إنقاذاً لنظام الأسد المنهار، وتعزيزاً لدوره المرسوم في المخططات الاستسلامية لتصفية قضية فلسطين ولتقسيم المنطقة وسورية بالذات إلى دويلات طائفية ضعيفة، تلعب في وسطها دولة العدو اليهودي لعبة السياسة والسيطرة الدائمة.

يا شعب سورية المجاهد الصابر، يا رجال حماة وحمص ودمشق وحلب وإدلب ودير الزور واللاذقية والسويداء ودرعا، يا إخواننا في الأرياف والبوادي وشعاب الجبال في كل مكان، أنتم مدعوون جميعاً أكثر من أي وقت مضى إلى التعاون والتكاتف وإلى إحباط مؤامرة أسد لتقسيم سوريا وإبادة مدن بكاملها وتسليمها لقمة لقمة لأعدائنا الطامعين بنا. اهتفوا بأصواتكم واعملوا بكل ما أوتيتم من قوة بوجه زبانية أسد: أن ارفعوا أيديكم عن حماة وسورية كلها.

وأنت يا جيشنا الباسل، ويا إخوتنا في أجهزة الأمن والقوات المسلحة: هذه فلسطين والجولان تستصرخكم، فلماذا يزج بكم أسد في أتون المدن الداخلية ويقتلكم ويقتل بكم اخوانكم المواطنين؟ وجهوا سلاحكم إلى الطاغية وأعوانه الآن وقبل فوات الأوان، لأن الطاغية شارف على السقوط فاختلج اختلاجته الأخيرة، وقرر أن لا يفارق الكرسي قبل تخريب سوريا كلها، فالى متى الانتظار؟

أما أنت أيتها الطائفة العلوية: قد بدرت من رجالك بوادر اليقظة والتبرؤ من جرائم أسد. أما آن لك ان تقولي كلمتك الأخيرة، وأن تدفعي عنك المصير المشؤوم الذي يسوق أسد أبناءك وتاريخك إليه؟ أما آن لك ان تجمعي أمرك وترفعي قبضتك وتزيحي هذا الكابوس السرطاني والبلاء المتسلط؟ إنها الفرصة

الأخيرة لك، تصححين بها المسار، وتبرهنين فيها عن غضبتك وارتباط مصيرك الحقيقي بهذه الأمة، لا بطاغية خائن زائل.

أيها العرب، أيها المسلمون، شعوباً وحكومات:

ماذا أنتم فاعلون؟ قد خدعكم أسد عن حقيقته مرات، لقد دكّ مدينة حماة حينما قصف مدينة زحلة، وقد افتعل أزمة الصواريخ السورية على حدود الأردن وهو يقصف مدن سورية في الداخل فهل يصدق بائع الجولان بأنه سيحرر الجولان.

إننا باسم الشعب السوري، وباسم الذين يسحقون تحت الأنقاض الآن في مدينة حماة المجاهدة، لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله، نناديكم وندعوكم إلى الوقوف معنا في وجه هذه المؤامرة الجديدة، لكشفها ولفضحها ومنعها من أن تبلغ مداها. بدءاً بالاستنكار وانتهاء بقطع المعونات المالية والعلاقات الدبلوماسية، ومروراً بتحريك المؤسسات الدولية في مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة، فقد بلغ السيل الزبى. وليس الخطر محصوراً بشعب سورية وحده كما تعلمون.

يا أحرار العالم، أيتها المؤسسات والهيئات المعنية بالدفاع عن حقوق الإنسان، ومصائر الشعوب. نضعكم أمام مسؤولياتكم، وندعوكم إلى الوقوف معنا هاتفين: ارفع يدك أيها الطاغية عن مدينة حماة، وعن الشعب السوري بأسره.

إن شعبنا المصابر المجاهد قد آلى على نفسه أن يحرر إرادته ومصيره وحاضره ومستقبله بنفسه، لكنه لن ينسى مواقف الصامتين او المتآمرين، لن ينسى أصحاب الواجبات إذ تخلوا عن أداء واجباتهم والقيام بمسؤولياتهم. ولا يغرن الدول الكبرى كبرها، فالله أكبر، ولا يغرن الأشقاء العرب المسلمين براعة أسد في افتعال الزوابع الداخلية، فإن نظامه متداع منهار، وهذا هو سبب لعبته الأخيرة

المفضوحة لدى أبناء شعبنا ولكل مراقب سياسي ذي عينين.

ونحن واثقون بنصر الله لعباده المؤمنين.

ونحن مستندون بعد الله على وحدة شعبنا إذا استند الطاغية إلى أمريكا وإسرائيل وغيرها، ونحن في الوقت نفسه نأمل أن يكون للشرفاء والأحرار في كل كان موقف وصوت في معركتنا العادلة.

﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ صدق الله العظيم

دمشق في ١٠ صفر الخير ١٤٠٢هـ ١٧ كانون أول (ديسمبر) ١٩٨١م

الإخوان المسلمون في سورية»

وسلام مع إسرائيل:

يقول سيل: كانت إسرائيل ترى في المسيحيين [1] حلفاء طبيعيين لها ضد سوريا والفلسطينيين، وقد توسعت اتصالاتها بهم جداً منذ عام ١٩٧٦. ولم يكن التحالف الإسرائيلي - المسيحي فكرة جديدة، فبعد عام ١٩٤٨ طرحت فكرة وجوب تدخل إسرائيل لإعادة رسم حدود لبنان والاستيلاء على الجنوب حتى نهر الليطاني، وتجشيع ظهور دولة مارونية صديقة لإسرائيل في الشمال. ونوقشت هذه الفكرة مراراً ولا سيما من قبل ديفيد بن غوريون في عام ١٩٥٤ (في المداولات المنشورة بينه وبين موشي شاريت الذي كان أكثر حذراً)، غير أنها لم تصبح سياسة عملية إلا بعد أن بدأت الحرب الأهلية اللبنانية في السبعينات عندما بدأت اسرائيل تقدم التزامات أوسع للموارنة، توجها وعد بيغن

---

(١) وهم الذين نصرهم أسد ضد المقاومة الفلسطينية والقوات الوطنية اللبنانية في عام ١٩٧٦ واجتاح لبنان لانقاذهم.

لهم عام ١٩٧٨ الذي كرره عام ١٩٨٠ بأن يقف السلاح الجوي الإسرائيلي إلى جانبهم اذا استعملت سورية قوتها الجوية ضدهم.

وفي ٢٨ نيسان/ أبريل عام ١٩٨١ أسقط الاسرائيليون طائرتين مروحيتين سوريتين كانتا تنقلان المؤن والإمدادات للقوات السورية. وفي اليوم التالي حرّك الأسد صواريخ أرض - جو سوفياتية الصنع إلالبقاع. لقد بدأت أزمة الصواريخ. كانت غريزة بيغن تدعوه إلى تدمير صواريخ سام هذه في الحال، ولكنه لم يفعل ذلك لأسباب متنوعة. وفي ١٧ حزيران/ يونيو أغار سلاح الجو الإسرائيلي لمدة عشرين دقيقة على ضواحي بيروت حيث تقع مكاتب المنظمة، فقتل مائتان من الفلسطينيين واللبنانيين وجرح سبعمائة آخرين وسط دمار شديد للممتلكات، فردت المنظمة بمزيد من القصف لشمال اسرائيل فقتلت ستة وجرحت تسعة وخمسين.

كان هذا الوضع المكفهر الذي استطاع فيليب حبيب بعد جهود مضنية وبمساعدة من السعوديين أن يدبر أمر توقيعه على شكل تفاهم ثلاثي بين بيغن والأسد وعرفات يوم ٢٤ تموز/ يوليو. وكان جوهر الاتفاق أن سوريا ستحتفظ بصواريخها في مكانها في البقاع على أن يكون مفهوماً أنها لن تطلق، وأن إسرائيل سوف تستمر في طلعاتها الاستطلاعية فوق لبنان، ولكنها لن تهاجم الصواريخ. وأن إسرائيل والفلسطينيين سوف يتوقفون عن ضرب بعضهم بعضاً عبر الحدود اللبنانية مع ضمان الأسد لحسن سلوك الفلسطينيين.

وبحركة تحكيمية متفرطة في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٨١ أعلن بيغن ضم مرتفعات الجولان، ومما لا شك فيه أنه كان يأمل في ذلك إلى استدراج الأسد إلى عمل عسكري، ولم يخطئ الاسد فهم مغزى إسرائيل ومراميها في الجولان، فإن بيغن بادعائه أنها جزء من أرض اسرائيل قد ألقى بكل

احتقار احتمال سلام مع سوريا يقوم على أساس إعادة الأرض. فالشيء المعروض كان هو الاستسلام فقط. وقرأ الأسد هذه الإشارة على أنها إعلان للحرب، ولكنها حرب لا يقدر على خوضها، وكان يعلم أنه إذا قام بأية حركة عسكرية فإن إسرائيل ستتذرع بها كحجة لضربه، وكان على الأسد أن يكتفي بشجب العدوان الإسرائيلي، ويطرح قضيته على مجلس الأمن وزعماء العالم دون الحصول على أية نتيجة ملموسة.

كان سلطان باشا الأطرش على فراش الموت عندما أعلنت إسرائيل مد تطبيق قوانينها على الجولان موطن الدروز التقليدي، وكان سلطان باشا هو الزعيم الدرزي الذي قاتل الجيش الفرنسي بحفنة من الخيالة في العشرينات، وكان ابنه منصور إلى جانب فراشه عندما سمعه يهتف ذات ليلة: (فليلعنهم اللّٰه).

وتساءل منصور: (يلعن من؟) ظناً منه أن سلطان باشا كان يشير الى بعض أهل بيته. ولكن الباشا أجاب: العرب!.

-وماذا فعل العرب؟

-لا شيء. انهم لا يفعلون شيئاً. تغتصب اسرائيل أرضهم ولا يتحركون، لديهم طائرات ولديهم مدافع ولديهم أموال ولكنهم لا يفعلون شيئا»[1].

(١) الأسد، لباتريك سيل، مقتطفات من ص ص ٦٠٠-٦٠٦.

الفصل السادس

أحداث حماة وقمة المأساة

ستكون معلومات هذا الفصل مستقاة من كتاب: حماة مأساة العصر، ولن يكون لي فيه غير أخذ المقتطفات التي تنضم الى بعضها لتشكل الملحمة البطولية للمجاهدين هناك، كما تبرز التلمظ الوحشي للنصيريين الذين يخططون منذ زمن بعيد لإبادة حماة، وليس لي منه إلا وضع العناوين الجانبية.

«يجب أن لا ننسى أن حماة وقفت في وجه الغزاة الصليبيين والدخلاء، ولذلك اتخذها الملوك الأيوبيون عاصمة أولى لهم. وحين اقتربت جحافل الصليبيين من المدن الرئيسية في بلاد الشام لم تستطع هذه الجحافل أن تقترب من هذه المدينة.

وفي عهد الانتداب الفرنسي ظلت حماة شوكة في حلق الفرنسيين. واستمرت ربع قرن وهي تصارعهم وتقارعهم وتقاومهم، وعاقبت فرنسا حماة فحرمتها من كل أسباب التطور ومقومات التنمية.

يتحدث الناس عن نيرون الذي أحرق عاصمته روما قبل أكثر من ألفي عام ليتمتع بمنظر الحريق، وما ندري نصيب هذه الحكايات من الخيال ومن الواقعية. لكن سيتحدث الناس حتى بعد ألف عام عن أن سورية - خلال فترة شاذة - حكمتها فئة منحرفة انعدمت لديها القيم والعقائد والمقاييس الخلقية، وتجردت من أي ولاء للشعب أو للوطن أو الأمة، واستطاع رأسها ورئيسها الموغل مع نظامه في الخيانة (المبرمجة له) أن يعلن بدوره بدون أن يرف له جفن: أن أهل

حماة يتظاهرون الآن تأييداً له بعد أن هدم المدينة على رؤوسهم»[1].

القرار المبيت:

أصدر المجلس الأمني الأعلى أمراً إدارياً رقم ١٨٤ يقضي بتعيين اللواء رفعت أسد آمراً عرفياً لمناطق دمشق وحماة وحلب في أيلول ١٩٨١، وتسمية محافظة حماة منطقة عمليات أولى خاضعة لأوامر الحاكم العرفي، وانتقال ١٢٠٠٠ عنصر من سرايا الدفاع إلى حماة، والإذن لعناصر السرايا هذه بالقتل العشوائي ومضايقة أسر المجاهدين ليسلموا أبناءهم الملاحقين. كما رفع مرسوم جمهوري إلى مجلس الشعب يقتضي مصادرة أموال كل من ثبتت عليه تهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين، أو الارتباط بهم أو تقديم أي عون أو مساعدة لواحد منهم. وفوّض رفعت أسد سراياه بعمل ما يراه مناسبا في هذه المناطق دون العودة إلى المجلس الأمني لأخذ رأيه أو استشارته.

وكان المقدم الطائفي علي ديب قائد سرايا الدفاع في حماة هو نائب رفعت أسد، يطلعه على سير العمل أولاً بأول، حتى إذا ما تفجر الوضع في المدينة، بادر رفعت الأسد إلى حماة ليدير عمليات التدمير والتخريب بنفسه.

وقالوا لرفعت أسد بموجب هذا القرار: يمكنك أن تقتل خمسة آلاف من دون أن ترجع إلى موافقة أحد، وحددوا له حوالي مائة أسرة يمكن أن يبيدها، وسمحوا له بالقتل الكيفي والعشوائي الذي لم يكن شيئاً جديداً في مسلكه، لكنه في هذه المرة أخذ شكل قرار.

---

(١) حماة مأساة العصر، من المقدمة ص ٧ و١١. وهذا الكتاب هو الذي أصدره المكتب الإعلامي للإخوان المسلمين عن المجزرة، ط١، ١٩٨٣.

ومن تصريحات رفعت أسد التي يتباهى بها كثيراً قوله: (وسيذكر التاريخ أنه كانت هناك مدينة اسمها حماة) أو (أنها حفرة وسوف نردمها) أو (سوف نمحو مدينة حماة من الوجود).

وقد نفذ ذلك فعلاً أثناء مذبحة شباط ١٩٨٢.

إن الخطة التي نفذها حافظ أسد في تدمير حماة يمكن تسميتها بالوأد الجماعي، فقد حوصرت المدينة من كل الجهات، ثم قصفت بالمدفعية الثقيلة قصفاً عشوائياً تمهيداً لاقتحامها بالدبابات والآليات، في الوقت الذي تخوض فيه عناصر سرايا الدفاع والوحدات الخاصة حرب الشوارع ضد المواطنين العزّل. يرافق ذلك تعتيم إعلامي شديد في الداخل والخارج» [١]

وقد استمرت الأحداث من ٢ شباط/ فبراير إلى ٢٨ شباط، أي قرابة شهر كامل.

القوات التي شاركت في حصار وضرب المدينة:

إن التشكيلات التي أسندت لها مهمة الحصار هي:

١-اللواء ٤٧/ دبابات مستقل تابع للقيادة العامة مباشرة، وبالتبعية العملياتية للمنطقة الوسطى، ومنطقة تمركزه مدينة حماة.

٢-اللواء ٢١/ ميكانيكي، تسند إليه بشكل دائم مهمات خاصة، وهو بالتبعية العملياتية للفرقة الثالثة، ومناطق انتشاره الدائمة في القطيفة شمالي دمشق.

٣-فوج ٤١/ إنزال جوي من القوات الخاصة المرتبطة إدارياً وعملياتياً بالقيادة العامة.

---

(١) المصدر السابق/ ٣٠-٣١-٣٢.

٤-اللواء ١٣٨/ من سرايا الدفاع المسند إليها مهمة حماية النظام.

٥-اللواء ١٤٢/ دبابات من سرايا الدفاع.

٦-الفرقة الانتحارية ٢٢/ التابعة لسرايا الدفاع.

٧-الفوج ١١٤/ مدفعية ميدان.

وإجمالي الأسلحة والأفراد لهذا القوات كانت على النحو التالي:

أولاً:الدبابات (٢٤٨) دبابة (من طراز ت ٦٢ وت ٧٢، وهي أحدث دبابات الجيش السوري).

ثانياً:مدفعية الميدان الثقيلة (١٠٨) مدفع ميدان عيار ١٣٠ ملم ومداه ٢٥كم.

ثالثاً:مدفعية الهاون عيار ١٦٠ ملم (٤٨) مدفع هاون.

رابعاً:قواعد إطلاق الصواريخ (٢٤٨) قاعدة اطلاق صواريخ.

خامساً:القوة البشرية حيث شارك في الحصار ٢٥٠٠٠ ألف جندي وضابط وضابط صف» [1].

التوزع الطائفي للقوات:

تم توزيع قوات السلطة في حماة على الشكل التالي:

١-اللواء ٤٧ أسندت اليه مهمة حصار المنطقة الجنوبية للمدينة.

٢-اللواء ٢١ أسندت اليه مهمة حصار المنطقة الشمالية والشرقية للمدينة.

٣-أسندت الى القوات الخاصة مهمة حصار المنطقة الغربية من المدينة تدعمها سرايا الدفاع التي كلفت بحراسة المعتقلات.

إننا نلاحظ في هذا التوزيع للقوات المحاصرة لمدينة حماة وجود تشكيلات

---

(١) المصدر السابق: مقتطفات من ١٤٣-١٤٩.

وقطعات متباينة في بنيتها التنظيمية، وفي تسليحها، وفي أفراد التشكيلات التي تختلف نسبتهم من تشكيل إلى آخر. إن هذا التباين يقاس من الناحية الشكلية على أسس الاستخدام القتالي لمختلف الصنوف: دبابات، مشاة ميكانيكية، مدفعية، وحدات إنزال جوي، وحدات م/د طيران.

أما ما يشير إليه جوهر هذا التباين فهو التوزع السياسي الذي اعتمد في هذه التشكيلات، فاللواء ٤٧ يتشكل من ٧٠٪ من الجنود الذي لا يرتبطون بالطائفة الحاكمة، و٣٠٪ من الجنود الذين يرتبطون طائفياً بالسلطة. أما الضباط فإن نسبتهم عكسية تماماً، حيث يشكل الطائفيون ٧٠٪ من عدد الضباط، أما البقية فهم حزبيون متنوعو الطوائف.

هذه النسبة رغم ارتفاعها فإنها ترتفع أكثر في اللواء ٢١ ميكانيكي، حيث تصل إلى أكثر من ٨٠٪ من الضباط الطائفيين و٢٠٪ من الحزبيين من طوائف أخرى. ونسبة الجنود تشابه تقريباً النسبة الموجودة في اللواء ٤٧ بتبديلات طفيفة.

أما القوات الخاصة فتصل نسبة الأفراد الطائفيين إلى ٤٥٪ وأكثر، ونسبة الضباط الطائفيين إلى ٩٥٪. وتأتي سرايا الدفاع لتحطم الرقم القياسي فتصبح نسبة الجنود والضباط الطائفيين ٩٠٪. إن هذا التوزيع بهذه النسب يشير إلى خوف السلطة من حصول أعمال تمرد تقوم بها بعض التشكيلات والقطعات والوحدات، حيث تصبح إمكانية التمرد الجماعي استناداً إلى النسب المذكورة أمراً متعذراً، فالتمرد الجماعي يقوده مجموعة من الضباط المتفاهمين والمنسجمين في أسلوب التفكير، والمتجانسين في الأرضية الاجتماعية. وهذا ما تم ضربه تماماً. ولما كانت السلطة تخاف، حتى من عناصر الطائفة غير الموالين لعائلة أسد، اختلف التوزيع العشائري في الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع، وقد

اختير عناصر سرايا الدفاع من عائلة أسد وأقربائها والموالين لها حصراً، بحيث باتوا يشكلون أكثر من ثمانين بالمائة من حجم السرايا كلها.

وأياً كانت الأساليب التكتيكية المنفذة، فإن السيطرة على المدينة من قبل قوات النظام لا يعود إلى النجاح التكتيكي في القتال. بل يعود إلى الأعمال الوحشية والقصف العشوائي وعمليات الحصار الطويل وقطع الإمدادات عن المدينة بما فيها الأغذية ومياه الشرب والأدوية.

تكتيك المدنيين والمجاهدين:

لم تكن أعمال المقاومة الشعبية التي نفذت من قبل أهالي حماة بحقيقتها أعمالاً مخططة، ولم تكن انتفاضة شعبية مدروسة، بقدر ما هي دفاع عن النفس فرضته عليهم السلطة، وإن الفرق شاسع بين جيش مجهز بالقوى والوسائط التي تتمتع بطاقة حركية وتدميرية عالية، وبين شعب آمن معظمه لا يحمل السلاح، ولم يكن السلاح المتوفر بيد بعضهم سوى أسلحة خفيفة كالرشاشات والبنادق الآلية وبعض القواذف (آر.بي.جي).

إن الأمر الذي يثبت تخطيط السلطة لضرب مدينة حماة بشكل مسبق، هو أن أهالي حماة لا يشكلون جيشاً نظامياً يملك المدفعية والدروع، وهم على هذا الأساس غير مؤهلين بمعركة مجابهة حقيقية مع النظام. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الأهالي لم يكن بنيتهم شن ثورة شعبية ثورية منظمة، لأن أهم مبدأ من مبادئ الحرب الثورية يتجلى في الحركة العالية، والضربات المباغتة السريعة، وعدم الاستقرار في منطقة واحدة، وتجنب مواجهة العدو، حيث أن عملية المجابهة للقوات النظامية تشكل قتلاً للحرب الثورية، وهذا ما لم يتوفر في حماة. ومن هنا نستطيع القول: إن معركة حماة لم تكن حرباً نظامية بين جيشين، كما لم

تكن حرباً ثورية تشنها المقاومة الشعبية ضد السلطة، ولم تكن حرباً مضادة تشنها السلطة ضد الثوار.

إنها شيء آخر، إنها حرب سلطة ضد شعب آمن، خُطط لها ونفذت في الوقت المناسب. ومع أن المقاومة الشعبية لم تكن سوى ردود أفعال يقوم بها الأهالي رداً على أعمال السلطة التي تستهدف إبادتهم، فإن ذلك لم يمنع أفراد المقاومة الشعبية من تنفيذ مبادرات ذكية وجريئة ضد قوات السلطة ضمن إجراءات الدفاع عن النفس، فقد كان المجاهدون يحتمون في الطوابق السفلية والملاجئ أثناء القصف ولا يتصدون لعناصر النظام إلا بعد أن تبدأ تلك العناصر بالهجوم واقتحام الملاجئ.

وفي البداية نظمت عملية حماية المداخل الرئيسية للمدينة بشكل عفوي، ثم نظمت بشكل سريع عمليات الدفاع عن أحياء الكيلانية والبارودية والزنبقي والعصيدة ثم بقية الأحياء.

ولما كانت غالبية الأهالي لا تملك الأسلحة اللازمة للدفاع عن النفس فقد تم توزيع مستودعات أسلحة السلطة والغنائم منها على القادرين والراغبين بحمل السلاح، وقام الأهالي بشكل تلقائي بتنفيذ عملية التقنين في استهلاك الذخيرة والأغذية والمياه والوقود.

ونتيجة لشراسة السلطة في أعمال القتل والتدمير، فقد برزت في صفوف المقاومة المهارات الفردية في أعمال القنص لعناصر سدنة الأسلحة لقوات السلطة. كما حدث عندما وضعت قوات السلطة راجمة صواريخ على سطح دار الحكومة بمهمة قصف حي البارودية فتصدى لها أحد المهاجمين القناصين وهو شاب صغير في ربيعه السادس عشر وقتل الدفعة الأولى من السدنة وعددهم أربعة جنود، ثم قنص الدفعة الثانية فالدفعة الثالثة، وعدد كل دفعة أربعة جنود،

وهو عدد عناصر السدنة لراجمة الصواريخ.

وبرزت الأعمال الفدائية الشجاعة التي نفذها المجاهدون عند التغطية على انسحاب بعض المجموعات، وعند الهجوم على الدبابات بالقنابل اليدوية، وكذلك عند القتال حتى الموت في حالة الحصار الشديد، وهذا ما تعترف به قوات السلطة وتخشاه. ومن المهارات التي نفذتها عناصر المقاومة الشعبية عملية استدراج لقوات السلطة في بعض الأحياء حيث لزمت المقاومة الصمت، فتقدمت الدبابات وعناصر السرايا ظناً منهم بأن المقاومة قد انتهت، وعندما وصلت الدبابات والسرايا إلى مناطق تشكل خليجاً نارياً يقع ضمن المدى المجدي لنيران أسلحة المقاومة صُبّت عليها النيران من كل جانب، وتمت إبادة معظمها.

ورغم التكتيكات المرتجلة والبسيطة التي نفذتها المقاومة، ورغم وجود أسلحة خفيفة لا تكافئ أسلحة قوات السلطة، فإن هذه القوات ما كانت لتجتاح حماة لولا النقص المريع في الذخيرة، والذي لم يتم تعويضه واستكماله في الوقت المناسب نتيجة الحصار، وهذا سبب أساسي في احتلال المدينة.

ولم تكن الأسباب الاخرى رغم أهميتها سوى أسباب ثانوية يمكن أن تؤثر علىالمدى البعيد، كما هو الحال في عملية قطع الإمدادات من الوقود والأغذية، إذ أن احتياط المدينة من الأغذية بظروف التقنين يمكن أن يستمر حتى بضعة أشهر. ويمكن التعويض عن مصادر المياه الحكومية عن طريق الاستفادة من مياه الآبار الموجودة في المدينة.

أما الأمر الآخر المؤثر على النقص في الذخيرة فكان قلة الأدوية والضمادات الطبية، ولم يكن في المدينة احتياط للأدوية سوى الموجود في الصيدليات والمستشفيات الواقعة ضمن سيطرة المقاومة، كما أن تجهيزات العمليات الكبرى

لم تكن كافية بالقدر الذي يسمح بمعالجة الإصابات الخطيرة والطارئة. إن تنظيم عملية التأمين الطبي من قبل المقاومة الشعبية لم يكن إلا صدى لإجراءات تنظيم الدفاع عن النفس. وقد تمت أعمال الإسعاف الطبي البسيط في مواقع القتال أو في الأحياء التي تقع في مسرح العمليات مباشرة، أما الإصابات الكبيرة فقد تم نقلها إلى المستشفيات الميدانية التي أقامها المجاهدون.

من هنا يتضح بأن المقاومة الشعبية قد اتخذت من المساجد والأندية والمدارس وبعض المنازل الكبيرة مستشفيات لتقديم العلاج للجرحى.

وقد استخدمت بشكل عام وسائل وأدوات مرتجلة وبسيطة في عملية نقل المصابين كأكياس القنّب ومثل ذلك في عمليات التضميد عند عدم وجود الأربطة المعقمة.

إن عمليات التأمين الطبي نفسها قد تعرضت لهجوم شرس من قبل السلطة، فقد

قامت السلطة بقتل الأطباء والممرضين دون أن تثبت قيامهم بمعالجة الجرحى من المقاومة الشعبية، كالدكتور محمد الشب والدكتور حكمت الخاني، ومن الممرضين مصطفى بكر وابراهيم السنكري بالإضافة إلى أعمال القصف المركز على المستشفيات وتدميرها على من فيها.

بعد هذا الاستعراض السريع لتكتيك قوات النظام وتكتيك المقاومة والأهالي نستنتج الأمور التالية:

١-لم يكن تصدي الأهالي لقوات النظام بمثابة حرب ثورية، بل عملية دفاع عن النفس، أجبرهم النظام على القيام بها.

٢-لم يكن تكتيك قوات النظام عملاً قتالياً يصنع هدفاً عسكرياً يبغي تحقيقه، بل كان مخططاً يهدف إلى إذلال أهالي مدينة حماة وإبادتهم.

٣-لم يذكر التاريخ القديم والمعاصر سواء في الحروب النظامية أم في الحروب الأهلية أن قام نظام واحد بتدمير مدينة على أهلها بما فيها من نساء وشيوخ وأطفال ومرضى ومدنيين عزّ .

لم يحدث هذا عند نيرون الذي أحرق روما بعد أن أخرج أهلها، ولم يحدث هذا في بغداد بعد أن استباحها هولاكو، ولم يحدث هذا في دمشق عندما قصفت قوات الاستعمار الفرنسي بتاريخ ٢٩ آيار عام ١٩٤٥ أحياء القنوات والشاغور والميدان.

٤-لم يذكر التاريخ الإنساني والعسكري أن أحداً قام بالاعتداء على المستشفيات ومنع الإمدادات الطبية والأغذية ومياه الشرب عن شعب أعزل محاصر كما فعل نظام أسد.

٥-لم يذكر التاريخ الانساني والعسكرية قيام سلطة أو غزو بالاعتداء على أماكن العبادة كما فعل أسد عندما دمّر المساجد والكنائس.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا...﴾

والسفاح أسد دمرها تدميراً بيديه الملوثتين بالإجرام والخيانة.

الوجه الآخر للمأساة:

الحقيقة أن النظام السوري يحس بطابع خاص لحماة ديمغرافياً وتاريخياً ونفسياً، وهو يتوهم أن إخضاع حماة يعني إخضاع الشعب السوري كله. لذلك كان جهده منصباً على إذلال حماة وتركيعها طامعاً بإطفاء جذوة المقاومة في سورية كلها، ولذلك تنوعت أساليبه في قمع أهالي حماة، وبذل جهوداً استثنائية لذلك. وإن المتأمل في معاناة شعب حماة قبل المأساة يدرك كم بذلت السلطة من محاولات لاستثارة ردود الفعل عند أهالي حماة عامة، والمجاهدين خاصة،

فقد كانت انتهاكات السلطة منصبة على القيم الدينية كالعدوان على المساجد، والانفعالات العاطفية كانتهاك الأعراض، والانفعالات الخلقية كالاعتداء على كبار السن، وتحقير المواطنين وتحطيم كبريائهم الشخصي. وهذه الأفعال لا يمكن أن يراد منها اكتشاف وجود المجاهدين أو سلاحهم، بل يراد منها استثارة رد الفعل عند كل أهل حماة لتدمير كل حماة.

أما سبب هذا الاختيار الدموي للتعامل مع الشعب فهو تأكد النظام من أن كل محاولات الخداع والتضليل التي عمد إليها، وساعدته فيها أجهزة الإعلام وسياسة دولية متخصصة لم تنفع مع الشعب، وأن هذا الشعب قد شبّ عن الطوق. فكان أمام النظام الدموي خيار وحيد: القتل ولا شيء غير القتل. وهذا الأسلوب الذي لجأ اليه النظام جزء من حرب نفسية شاملة ضد مواطني سورية بهدف محق سورية وتعطيلها وشل فعاليتها في النمو أو الدفاع أو تحرير أراضيها المغتصبة.

لقد استعملت السلطة أسلوب القتل والتدمير في حماة، وأضافت إليه التجويع ومنع الماء والكهرباء والحصار بأنواعه كلها، وكان أصعب أنواع الحصار ذلك الصمت المطبق عالمياً على أحداث حماة، ولا سيما خلال الأسبوع الأول. وكان أصعب أنواع الحصار أيضاً عدم استطاعة المحافظات الأخرى نجدة حماة بالشكل المناسب، مما أشعر أهل المدينة بوقوفهم منفردين مستفردين. ومع ذلك كله ما انطفأت جذوة المقاومة عند الأهالي وما ضعفوا وما استكانوا، بل بذلوا طاقتهم حتى استنفدت، وكانوا بحق نموذجاً عالياً للمدن التي تصمد في أعتى أنواع الحصار.

إن ما سعت إليه السلطة من نشر روح الإحباط بحربها النفسية الخبيثة كان يجد جدراناً حصينة في وجهه، سواء كانت ذاتية تتعلق بالإيمان العميق الذي

يغمر شعبنا وقيم الشهادة والاستشهاد التي يعشقها، وروح البطولة التي يمتلكها، أم كانت تتعلق بمؤثرات خارجية أبرزها سلوك النظام نفسه.

لقد كانت قوات السلطة تقتل الأعزل من السلاح قبل المسلح أو مثله تماماً، فتعلم أهل حماة أنه لا بد من السلاح للدفاع عن أنفسهم... لقد سمعوا بمجزرة جنوبي الملعب البلدي التي كان ضحاياها هم المدنيون البعيدون كل البعد عن الأحداث. فما وجدوا غير القتال يدفع عنهم الذبح كالنعاج. ومن هنا برزت أعمال المقاومة البطولية عند الأهالي. ووجدت نماذج للأعمال الفدائية تسطر بأحرف من نور. وليس غريباً أن يعترف علي ديب أحد قادة القوات التي دمرت حماة باستبسال أهل حماة وشجاعتهم، واضطر الكسم رئيس الوزراء إلى الاعتراف بأن السلطة كانت تعادي ثلاثمائة رجل على حد قوله، فأصبحت تعادي ثلاثمائة ألف انسان.

ولقد أثارت طريقة تدمير حماة وقتل أهلها ردود فعل حتى ضمن قوات السلطة، واضطرت عندئذ لاتخاذ تدبيرات احتياطية تمنع تردي الروح المعنوية لدى مقاتليها، ومن هذه التدبيرات استثارة الأحقاد الطائفية عند الجنود، واستبدال الكتائب بأخرى وعزلها عن بقية الجيش لإخفاء الخسائر، والحد من ردود الأفعال داخل الجيش، ومع ذلك امتزج الخوف والجبن والإحساس بالذنب عند قوات السلطة حتى باتوا خائرين لا يجرؤون على قتال المجاهدين. ولقد سجلت اتصالات عدة بين الضباط فيها التهديد والوعيد، منها اتصال بين ضابط وآخر يقول فيه: اهجم مع جنودك، إن العدو سيرشكم (أي يطلق عليكم النار رشاً) إن لم تهجموا.

وسمعت مكالمة بين قائدي اللواء ٢١ و٤٧ يقول أحدهما للآخر: اهجموا أنتم لأن قسماً كبيراً من لوائي دمّر. والحقيقة أن لواءه لم يدمر.

هذه جوانب من الحرب النفسية التي شنها حافظ أسد وخبراؤه ضد الشعب والجيش عامة، وضد أهالي حماة خاصة. وهنا لا بد من التوقف للتأمل في مسألتين خطيرتين:

الأولى: إن هذه الحرب النفسية أسهمت في تمرير مخططات حافظ أسد إلى حد استباحة مدينة كاملة مثل حماة. ولكن هل ينقطع هذا الحدث الخضم عما بعده، أي عما يعقبه ويتفاعل معه ويسببه من ردود فعل في الجيش والشعب معا داخل سورية وخارجها؟

الثانية: لعل الحرب النفسية التي تتعلق بالطائفة المحسوبة على نظام أسد من أهم الجوانب التي تغري بالدرس والتحليل، ذلك أن أسد قد استجر من استجر من أبناء هذه الطائفة، وورطهم بممارساته الدموية بحجة الدفاع عن الطائفة. والسؤال الآن: إلى أي حد تتماسك هذه الدعوى؟ وقد كانت استباحة حماة استعداءً للشعب بكل طوائفه وهيئاته ومنظماته، لا للإبقاء على الطائفة المورطة، بل للإبقاء على تسلط طغمة طفيلية من جهة، ولإنجاز المخطط التآمري لتفجير المنطقة طائفياً لصالح أعداء الأمة كلها من جهة ثانية.

أبعاد الهدم في المدينة:

إن تأمل الجداول الإحصائية للأبنية المهدمة في حماة، وهي غير شاملة، يتيح للقارئ فكرة إجمالية حسابية لمأساة العمران. لكن الصورة تزداد وضوحاً حين يطلع القارئ على مدلولات هذه الأرقام الواقعية، أي على أنواع الأبنية التي تناولها الهدم، وعلى تاريخها الموغل في القدم، وعلى دورها الاجتماعي والديني والصناعي والثقافي، وعلى مدى ازدحامها بالسكان وانتشارها الأفقي، ثم طرائق هدمها وأنواعه ومراحله وأغراضه.

سوف يلحظ المتأمل أن الهدم لم يوفر حياً من أحياء المدينة، إحدى مدن سورية الأربعة الكبرى، ولكنه كان أشد وطأة على الأحياء الشعبية القديمة وسط المدينة، فمثل هذه الأحياء بلغ فيها الهدم الحد النهائي. فأحياء (الزنبقي، العصيدة، الشمالية، الكيلانية) هدمت كلياً، وهناك أحياء هدمت بنسب أقل، فحي (بين الحيرين) كانت نسبة الهدم فيه ٨٠٪، وحي السخانة كانت نسبة الهدم فيه ٧٠٪، أما أحد الأحياء الواقعة على أطراف المدينة مثل حي طريق حلب فقد كانت نسبة الهدم فيه ٣٠٪.

هذه الملحوظة الشكلية تخفي وراءها مجموعة غنية من الدلالات والخصائص. منها أن الهدم إذ أطلق انصرف إلى هدم حماة القديمة ذات المساكن الممتدة أفقياً بلا طوابق، حيث يتألف المسكن من غرفتين أو ثلاث غرف، ويضم أسرة أو أكثر من الأسر الفقيرة التي لم يتح لها الانتقال إلى الأحياء العمرانية الجديدة.

وحيث مضى على بنائها عقود من السنين حين كانت المدينة أصغر مساحة مما هي عليه، فجاءت أزقتها ضيقة متعرجة وجدرانها ضعيفة المقاومة، تتخللها الحمامات وأقنية المياه السطحية (الجداول والنوافير والقساطل) والمضافات وبيوت الضيافة وأسواق الصناعات التقليدية (البرمان، سروج الخيل، المخابز اليدوية، صنع الفراء، صناعة المعجنات الشعبية كالسالات والقطايف ومشتقات الألبان الطبيعية)، وهي تصنع يومياً، وتتصل بحياة البادية السورية المجاورة لمدينة حماة. يضاف إلى ذلك المساجد العريقة والمعاهد الدينية والقصور الأثرية مثل الزاوية الكيلانية وقصر العظم. ولهذا كانت مهوى أفئدة السياح ومحل تقديرهم وإعجابهم، على أن هناك ما هو أهم من ذلك كله، ألا وهي التقاليد والعادات الاجتماعية الشعبية التي هي نسيج جماعي من الأخلاق العربية والإسلامية مثل

النخوة والكرم والمروءة والشهامة وحفظ الجوار، مما أنشأ بنية اجتماعية متماسكة يشد بعضها بعضا في السراء والضراء.

هذه لمحة مجملة عن مدينة حماة التي نزل بساحتها الهدم، فإذا علمنا أن السلطة التي تمتلك الجيوش المنظمة وغير المنظمة والكثافة النيرانية والتصميم المسبق المخطط وأحاطت بالمدينة من جميع أطرافها وأفادت من التضاريس باحتلال المرتفعات وقصف المآذن، أدركنا نتائج كل قذيفة عشوائية أو مركزة حين تسقط أو تنفجر على منزل أو مدرسة أو مسجد أو مستشفى وطوال ثلاثة أسابيع.

لقد مرّ الهدم بثلاث مراحل: المرحلة الأولى القصف العشوائي. المرحلة الثانية القصف المركز ضد أهداف محدودة. المرحلة الثالثة: التدمير بالتفجير أو بجرف الأبنية. وقد استخدمت السلطة في المرحلة الاولى والثانية المدافع والدبابات وراجمات الصواريخ، وفي المرحلتين الاخيرتين استخدمت الدبابات والتفجير بالديناميت والعبوات الناسفة. أما الجرافات فكانت تستخدم مع الديناميت في المرحلة الأخيرة.

وقد شمل التدمير كل أنواع الأبنية من مساكن وأسواق ومعابد ومدارس ومواقع أثرية ومرافق عامة ومؤسسات شعبية أو رسمية أو صيدليات أو عيادات طبية.

والسؤال الذي يفرض نفسه: ما الغرض من هذا الهدم؟

أهو الارهاب، وحمل المواطنين على التخلي عن المقاومة ومؤازرة المجاهدين كما توحي عمليات القصف العشوائي المكثف منذ الساعات الأولى والأيام الأولى للأحداث؟

أم هو الضغط على المقاومة المسلحة ودفعها إلى الاستسلام من خلال

التنكيل بأهليهم وأبناء بلدتهم ومواطنيهم الذين حملوا السلاح دفاعاً عنهم؟

أم هو شق الطريق للآليات من دبابات ومصفحات للوصول إلى معاقل الثوار حين أعجزهم قتال الشوارع؟

أم هو الحقد على المعابد من مساجد وكنائس وعلى الرموز التاريخية من قصور أثرية؟

أم هو العمل على تغيير البنية الاجتماعية والثقافية والبشرية (الديمغرافية) من خهلال تغيير البنية العمرانية او تهديمها؟

وقد أفلحت السلطة إلى حد ما في الأحياء الحديثة المحيطة بحماة القديمة، مما أتاح فرص التحرك السريع وتفتيت المجتمع وحرمان المواطنين من نعمة الدفاع عن النفس عند الحاجة بين الأزقة الضيقة المتعرجة.

إن التأمل في ساحة الهدم ومراحله وطرقه وأنواعه يؤكد أن كل هذه الأغراض مقصودة وعن سابق عمد وتصميم، قبل هدم المدينة كانت هناك أزقة سكنية لكل المدن السورية، أما الآن وبرغم الهدم الواسع فإن هناك بيوتاً مما لم يتهدم فارغة، فأين البقية الباقية من أهل المدينة؟

لقد قتل من قتل تحت الهدم أو في معارك الدفاع أو في المعتقلات والسجون، واعتقل من اعتقل وهم آلاف مؤلفة بل عشرات الألوف، لكن تعداد سكان المدينة يبلغ ٣٠٠ ألف نسمة فأين هم الآن وبعد الهدم؟

بعد أن أبيدت أسر بكاملها تحت الهدم نزح من المدينة ما يقارب ربع سكان المدينة أو ثلثهم على وجوههم، وبعضهم حفاة أو بلباس النوم، ومن كان معه من بقية مال أو حلي دفعه ضريبة على حواجز الطرق إلى لصوص السلطة، الذين لم يشبعوا من نهب المساكن والمحال التجارية والمؤسسات الشعبية والرسمية لا سيما المصارف.

هذا السيل من المهاجرين توضع في القرى والمدن المجاورة، كما وصل منه إلى معظم المدن السورية، وإلى الأقطار العربية وبعض البلدان الأجنبية.

ولكي نقترب من صورة المأساة نذكر أن موسم هذه الهجرة الجماعية كان في شهر شباط/ فبراير أحد شهور شتاء سورية القارس، ومن خلال عزل السلطة للرجال عن النساء والأطفال. فالرجال إلى المعتقلات فالمنافي والقبور، والنساء والأطفال إلى المجهول، وكان من نتائج ذلك ضياع أفراد الأسرة عن بعضها واضطرار النازحين إلى السكن في الشقق المبنية حديثا بلا نوافذ ولا أبواب. أما في جامع خالد بن الوليد في مدينة حمص فقد تجمع ما بين ٣٠٠-٥٠٠ طفل بلا أمهات ولا آباء.

هدم المساجد:

للطاغية أسد تاريخ حافل بالعداوة لبيوت الله ومساجد المسلمين، بدأ مع بداية تسلطه على مقدرات الأمور في سورية. وكان آخر هذا العداء للمساجد ما فعلته عصابات أسد الحاقدة عدوة الاسلام والمسلمين في حماة. ففي بداية السبعينات استولى أسد على المدارس الشرعية التي كانت منتشرة في القطر، واستولى على كل المؤسسات الدينية التابعة لها أو المنفصلة عنها. وكانت هذه خطوته الأولى في محاربة المساجد، ودورها الكبير في المجتمع تربوياً وسياسياً واجتماعياً. وكانت الخطوة الثانية تلك الأوامر الصاردة عن وزارة الأوقاف عام (١٩٧٨) وتقضي بألا تفتح المساجد أبوابها للمصلين الا في أوقات الصلوات الخمس فقط، وأن تغلق بين كل وقتي صلاة.

ولكن هذا لم يكن ليحوّل المسلمين عن اهتمامهم بالمساجد وحرصهم على بنائها فازداد عدد المساجد، وتداعى الناس إلى عمارتها وبذل الأموال والصلاة

فيها وعقد مجالس العلم، مما زاد غيظ الطاغية أسد ونظامه.

وهكـذا بـدأت الحـرب علـى المسـاجد تأخـذ شـكلاً أكثـر مباشـرة، ففـي ١٩٨٠/٩/٢ قامت عناصر سرايا الدفاع والوحدات الخاصة بمداهمة مساجد مدينة دمشـق لـيلاً، ثـم احتلالهـا حتـى طلـوع الفجـر عنـدما بـدأ المصـلون يتـواردون للمساجد حيث تـم اعتقـالهم وقامـت عصابات سـرايا الـدفاع بتخريـب المسـاجد ونهبها وتمزيق مكتباتها، وبعد أيام جمع أسد عدداً من مشايخ دمشق وعلمائها قسراً بعد أن تهددهم وتوعدهم وقال لهم: إنه لـن يكترث ولـو راح ضحية تفتيش المساجد عشرات الآلاف من المصلين، وفي ١٩٨٠/٢/١٧ اقتحمت عناصر من السلطة مسجد ثكنة هنانو في حلب فمزقوا المصاحف وداسوها ثم أضرموا النار في المسجد.

وفي نيسان من نفس العام اقتحمت السلطة جامع (أبي ذر) في حلب بقصد اعتقال شيخي المسجد الشيخ محمد أبو النصر البيانوني والشيخ محمد أبو اليسر البيانوني، ولما لـم يجدوهما أهانوا المصلين واضطهدوهم، ثـم عـادوا بعـد أيـام فنهبوا المسجد وأغلقوه بالشمع الأحمر.

وفي نيسـان وآيـار مـن عـام ١٩٨٠ هاجمـت عناصـر القمـع عـدداً مـن مسـاجد حلـب بحجـة التفتيش، منهـا مسـجد الصـالحين، مسـجد فاطمـة الزهـراء، مسـجد عبـادالرحمن، ومسـجد النـور، وعـاثوا فيهـا تخريبـاً وفسـاداً. وفـي نيسـان مـن العـام نفسه تعرض مسجد الشيخ علوان في حماة إلى هجوم غادر مزقت فيه المصاحف وديست فيه الكتب الاسلامية وأتلفت مع غيرها من محتويات المسجد.

وفي اللاذقيـة قامـت عناصـر مـن سـرايا الـدفاع بمهاجمـة جـامع (العجـان) في المدينة خفية، وحـاولوا زرع المتفجـرات فيه ولكـن الله سـلم وأحبط كيـدهم. فقد اكتشف المصلون الأمر، وأجبرت المخابرات على ترك المسجد.

وجاء شباط ١٩٨٢ وسجلت فيه واحدة من أكبر مجازر التاريخ، وصم أسد نفسه وعشيرته وأركان حكمه بوصمة عار ستلحقهم إلى يوم الدين، فقد نفثوا في هذا الشهر كل حقدهم على الإسلام. فبدأوا أول ما بدؤوا بمآذن المساجد يقصفونها، ثم ثنوا بالمساجد نفسها يقصفونها ضمن قصفهم العشوائي للحياة والأحياء. ولم يكتفوا بهذا بل نسفوا المساجد بالديناميت بعد أن خيَم الهدوء على المدينة، ثم أزالوا أنقاضها بالجرافات.

لقطات من هدم المساجد:

-لدى تفجير قوات السلطة للجامع الكبير تهدم نتيجة الانفجار الشديد بالديناميت عدد من البيوت المحيطة بالمسجد، كما تهدم قسم من (مدرسة الراهبات) المسيحية في الوقت نفسه.

-سلم مسجد (عبدالله بن سلام) من الهدم بعد أن وضع رجال السلطة فيه حمل سيارتي (T.N.T.) لتفجيره. وذلك بعد تدخل عدد من أهل حماة من المواطنين المسيحيين لدى أقربائهم من الضباط.

-لدى تفجير جامع (الشيخ محمد الحامد) الكائن في منطقة (المحطة) تناثرت أحجاره إلى (بنابة السواح) الواقعة على مسافة ٥٠٠م من المسجد المذكور.

-تناثرت أحجار مسجد (سعد بن معاذ) الكائن في حي الغرابة وتطايرت محتوياته لدى تفجيره، وقد شوهدت أوراق مصاحفه وهي تسبح في الفضاء عند منطقة (الحرش) التي تبعد مسافة ٨٠٠م عن المسجد.

-لدى قصف السلطة لمسجد (المحسنين) ضلت قصائف المدفعية طريقها فأصابت بيوت الأهالي أمثال آل السمان، آل سعدو، آل الشيشكلي، ولم

يستطيعوا تهديمه كلياً من بعيد، وعندما تمكنوا من اقتحام منطقة لبياض قاموا بتفجيره عن قريب.

-توقف الأذان في حماة مدينة الإيمان لمدة ثلاثة أشهر بدءاً من اليوم الأول للأحداث ١٩٩٢/٢/٢ لسببين، الأول: أن مآذن المساجد والجوامع قد هدمت على أيدي سرايا الدفاع منذ الأيام الأولى. والسبب الثاني: الخوف من بطش زبانية السلطة.

-بعد مضي أكثر من شهر على نهاية مأساة حماة الكبرى، سعى من تبقى من أبناء المدينة لترميم المساجد التي أصيبت إصابات جزئية.

-والجدير بالذكر أن حافظ أسد كان يدعي أن المساجد التي بنيت في عهده - وبناؤها بمبادرة المواطنين - يدعي أن عددها يفوق ما بني في العهود السابقة، فماذا يقول اسد بعد تدمير مساجد حماة؟

الكيلانية من أعظم آثار سورية الإسلامية:

تنسب الكيلانية إلى الشيخ سيف الدين يحيى، أحد أحفاد الإمام الكبير عبدالقادر الجيلاني، المتوفى في بغداد في القرن الخامس الهجري، والذي يرجع نسبه إلىالامام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقد سكن الشيخ سيف الدين حماة وتوفي فيها عام ٧٣٤ هجرية. وقد تابع البناء في الزاوية ابنه الشيخ شمس الدين محمد وولده علاء الدين، وفي عام (١٠٨٤) طوّر بناءها الشيخ ياسين الكيلاني. فأضاف القسم الجنوبي الذي يقع فيه المنبر والمحراب. وبدّل قباب الزاوية بأن جعل قبة الوسط الكبيرة ترتكز على ثلاث قباب حولها، وبهذا تمكن من الاستغناء عن الأعمدة في حرم المسجد، كما أعلى طرف الناعورة التي تمر على المسجد فتحمل إليه الماء، أما الصحن فمشرف على

الطرف الآخر من النهر بنواعيره وأبنيته وقصوره.

ومن اشهر قصور الكيلانية قصر (الطيارة الحمراء) وقاعته الشهيرة، وقد ضمته وزارة السياحة إلى أملاكها، وكانت تعمل على ترميمه لتجعله متحفاً للزوار.

يعتبر قصر الطيارة الحمراء من أعظم القصور الأثرية التي بنيت في العهد العثماني، وقد قام ببنائه الشيخ ياسين الكيلاني في عام (١١٢٨هـ-١٧١٦م) من أجل استقبال الضيوف، وهو مشرف من جهته الغربية على نهر العاصي، وترتكز أساساته ضمن مياه النهر، وقد ازدانت جدران القصر بالزخارف والنقوش الساحرة بشكل يأخذ بالألباب ويأسر القلوب.

يتألف القصر من أقسام عدة، أبرزها الجناح الشمالي الذي يضم قاعة استقبال وقاعة طعام ورواقاً أمامياً وغرفة وقاعة الاستقبال بديعة المنظر، جدرانها مكسوة بالخشب، ومطلية بماء الذهب والألوان، ومزينة بأجمل الزخارف البنائية والهندسية والكتابية، إلى جانب الكسوة الرخامية والقاشانية الجميلة. ومن اللوحات التي تزين القاعة لوحة جدارية تمثل مدينة القسطنطينية في القرن الثاني عشر الميلادي، نشرتها مجلة الفيصل السعودية صيف عام ١٩٧٩.

أما أبرز العناصر المعمارية في القصر، فهو الأقواس بأنواعها والأعمدة الرخامية، والتيجان التي تزيّن الأعمدة والدعائم، وهناك قواعد الأعمدة والقاشاني، والرخام المجزّع والمزررات الرخامية والحجرية الملونة والحجر الأبلق والشمسيات الجصية.

تضم الكيلانية مساجد وقصوراً ومضافات وقنوات مياه، ومزارات وثلاث حمامات ومرابض خيول وأقبية وسراديب، وهي اربع طوابق فوق بعضها، وكانت الكيلانية تشرب سابقاً من نهر العاصي عن طريق الناعورة الخاصة بها والمسماة

بناعورة الباز عبدالقادر، والناعورة هذه تنقل المياه باستمرار إلى المساجد والحمامات والبيوت التي تضم الحمامات الصغيرة.

يحيط بالكيلانية نهر العاصي من جهة الجنوب والغرب، ويفصلها النهر عن بستان الصهيونية وجامع النوري وحمام السلطان وبستان السعادة في القلعة، ويصل هذه المناطق بالكيلانية جسر أثري قديم هو جسر الشيخ عبدالقادر الكيلاني. وعندما يمر العاصي بقرب الكيلانية يشكل بحيرة كبيرة تضم أساسات جامع النوري وجذوره، وقد رآها أحد أساتذة جامعة حلب من الفرنسيين، فقال: إنها فينيسيا العرب.

ومما يزيد روعة الكيلانية وجمالها وجود ثلاث نواعير في طرف البحيرة من جهة الجنوب، الأول من جهة الشرق وهي ناعورة الباز والاثنتان الباقيتان من جهة الغرب وتسميان بالجعبرية والصهيونية، ويحيط بالكيلانية من جهة الجنوب بستان الصهيونية على طرف العاصي، ووراءه الحي الأثري القديم (الباشورة) وكذلك الطوافرة والمتحف (قصر العظم).

وتعتبر الكيلانية أحد رموز سورية السياحية، الشعبية والرسمية، لما تحوي من الفنون ومظاهر الإبداع، ولا سيما فنون الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وهي من جهة أخرى تراث إسلامي عريق، فيها المساجد وبيوت العلم وفيها بقية من (الطريقة القادرية) المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، المعروف بالباز، بالإضافة إلى هذا فالكيلانية مركز ثقافي معترف به دولياً. فهي مسجلة في منظمة اليونسكو (المهتمة بالثقافة والعلوم) التابعة للأمم المتحدة. ولعل هذا ما منع النظام محرجاً أن يضع مخططات جديدة لها لتغيير معالمها التاريخية والديمغرافية كما فعل في بقية الأحياء الأثرية.

وفي مجرزة حماة الأخيرة في شباط/ فبراير ١٩٨٢ جعلت عصابات أسد

الكيلانيــة هــدفاً أساسـياً لهــا فأمطرتهــا بقــذائف الــدبابات والمدفعيــة وراجمــات الصواريخ، وأتبعت ذلك بعمليات النسف والتفجير لتمسحها كليا من الوجود مع شقيقاتها من أحياء الزنبقي والعصيدة الشمالية وبين الحارين، فقد أصبحت أثراً بعد عين»[1].

النهب:

كان واضحاً منذ الساعات الأولى لاقتحام قوات النظام مدينة حماة أن النية معقودة على نهب المدينة وسلب المنازل والمتاجر فيها. وأن هنالك تشجيعاً على ذلك من قادة السرايا والوحدات الخاصة للجنود والضباط. وعلى هذا، فما كانت قوات النظام تسيطر على حي من الأحياء حتى كانت تتوزع شوارعه وعماراته، وتبدأ باقتحام البيوت وهي تملأ جيوبها بما خف وزنه وغلا ثمنه من نقود وأساور ومجوهرات.

ولــم يكتفــوا بــالنقود والمجــوهرات، فقــد كــانوا يســرقون ســيارات الصــالون والشــاحنات والــدراجات الناريــة والعاديــة، وأثاثــات البيــوت مــن تحــف وأجهــزة كهربائية وسجاد.

ولم تقتصر السرقات على البيوت وحدها، بل شملت أيضاً بعض الهيئات أو المؤسســات، مثــل المتحــف الــوطني الــذي قــدرت مســروقاته بملايــين الليــرات السورية.

كانــت ســرقة المحــلات التجاريــة والصــيدليات تــتم بــاطلاق الرصــاص علــى الأقفال، واذا استعصى فتحها أطلقت عليها قذائف الآر بي جي، ثم تمتد الأيدي

---

(١) حماة مأساة العصر، مقتطفات من ١٥٣-١٧٣.

أول ما تمتد إلى سرقة محتويات (الدروج) التي كان معظمها مليئاً بالنقود أو كان أصحابها يحفظون أموالهم فيها، بعد أن كثرت المداهمات على البيوت وسرقة ما فيها قبل بدء الأحداث، مثل أحمد مسقع حلبية الذي خبأ ثلاثمائة ألف ليرة سورية داخل كيس الكمون في محله خشية نهبها.

وكان رجال السرايا والوحدات ورجال المخابرات الذين يسرقون هذه المحلات يقومون بتفجيرها وحرقها بعد إتمام النهب وللتعمية على سرقاتهم وإرواء حقدهم على المواطنين من أهالي حماة.

لعل (سوق الطويل) خير مثال على ذلك ففيه، ٣٨٠ دكاناً، نهب من محتوياتها ما ملأ ستين سيارة عسكرية من نوع (لايل)، ثم اشعلت النيران فيها مدة ثلاثة أيام، على الرغم من أن رجال الإطفاء كانوا يحاولون إطفاءها إلا أنهم لم يفلحوا، والتهمت النيران كل شيء. وقد أدى تصدي المواطنين لجنود سرايا الدفاع المتكالبين على سرقة المحلات التجارية إلى مقتل عدد كبير منهم في شارع سعيد العاص، وبعض الأحياء الاخرى حيث كان الجنود يضعون بنادقهم على أكتافهم وأيديهم مشغولة بحمل السرقات، مما جعلهم أهدافاً سهلة للمواطنين.

وقد استعاد المجاهدون كميات كبيرة من المصوغات والنقود من جيوب سارقيها من جنود السرايا ورجال المخابرات، وقاموا بردها إلى أصحابها ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً.

ولقد تجلت في عمليات النهب والسرقة القسوة الشديدة، من ذلك ما قام به أحدهم بقص إصبع أحد المواطنين في الحاضر لما استعصى عليه انتزاع خاتمه من يده، وقطع يدي امرأة لانتزاع أساورها مثل السيدة حياة جميل أمين في (شارع أبي الفداء)، وظهر جشع الجنود وتكالبهم أكثر ما ظهر في سوق الصاغة الواقع

في حي المرابط. فقد كانوا يقتادون الحدادين لفتح صناديق الحديد التي تحفظ فيها المصوغات الذهبية بالمقص الحراري بعد أن أخفقوا في فتحها بالرافعات والحفارات، وقدرت منهوبات سوق الصاغة بعشرات الملايين من الليرات السورية، وتجدر الإشارة إلى أن أغلبية أصحابه من المسيحيين.

ولقد تكرر قتل جنود لجنود آخرين للاستيلاء على ما سرقوه وضمه إلى مسروقاتهم، حتى تجاوز عدد القتلى نتيجة لهذا أكثر من ٢٥ جندياً في اشتباك واحد.

مما ينقل في هذا المجال -سرقة الذهب ومصوغاته- أن رجال السرايا توجهوا إلى بيت أحد الصاغة وهو من بيت الظريف، وطلبوا منه تسليمهم ما لديه من ذهب، فأنكر وجود شيء منه عنده، فهدده الجنود الطائفيون بانتهاك عرضه واغتصاب أخته، فبادر مكرهاً إلى إخراج ما لديه من ذهب مخبأ ودفعه اليهم، وكان هذه الذهب حصيلة ما جناه في حياته كلها، وقدر ثمنه بثلاثة ملايين ليرة سورية. وكان جنود السرايا يفرضون ضريبة على من تريد مغادرة حماة من النساء، وكانت هذه الضريبة تسليم المرأة ما لديها من مصوغات ذهبية لهم، ومن كانت ترفض تسليم ما لديها من مصوغات يكون مصيرها القتل. فقد قتلوا الآنسة فهمية عبدالقادر معطي البالغة من العمر ٦٢ عاما، والتي أمضت جل حياتها في التدريس لأنها رفضت أن تعطيهم ما لديها من ذهب، كما قتلوا السيدة ميسون عياش في منطقة الدباغة للسبب نفسه. وقتلوا الحاج عمر من حي طريق حلب، ويبلغ السبعين من عمره بعد أن سرقوا منه أربعين ألف مارك وعشرين ألف ليرة سورية. وقتلوا المواطن غسان أحمد حلبية ويبلغ الرابعة والثلاثين من عمره، وهو مدير لمرآب الخط الغربي حين امتنع عن إعطائهم ألف ليرة سورية. في مقابل هذا كله حرص المجاهدون على حماية الأملاك العامة من النهب والسلب، فحين

قامت وحدات السرايا بسرقة البنوك ومعمل البورسلان ومحلجة أبي الفداء عمل المجاهدون على حمايتها وإغلاق أبوابها.

ففي حي الدباغة نهبت سرايا الإجرام الأموال الموجودة في المصرف التجاري السوري، وبلغت ثلاثة أكياس كبيرة وممتلئة بالنقود. كما نهبت مصرف التسليف الشعبي الواقع جانب القلعة، ونهبوا ١١٣ الف كيس قنب و١٤٠ بالة قطن كبيرة.

وفي ١٩٨٢/٢/٨ صار شقيق رئيس فرع الحزب في حماة (أحمد الأسعد) ينهب مؤسسات الدولة الاستهلاكية التي قام المجاهدون بحمايتها خلال فترة سيطرتهم على المناطق الموجودة فيها، وحتى لا يفتضح أمر أحمد الأسعد آثر ألا يكون في الواجهة، وترك لأخيه مع مأجورين آخرين متابعة السرقات. وقد بدؤوا فعلاً بنهب المؤسسة الاستهلاكية تحت جامع المدفن، وهي مقابل مقر حزب السلطة في المنطقة، ثم تابعوا نهبهم في بقية المؤسسات حيث كانت تنقلهم سهلاً لارتدائهم زي الوحدات الخاصة وسرايا الدفاع، وحملهم أوراق مهمات. وكان معظم سرقاتهم من المواد التموينية التي أودعت جميعها في مستودعات قرب قرية (معردس) على مقربة من مدينة حماة، وبعد انتهاء الأحداث نزلت هذه المواد إلى الأسواق وبأسعار رخيصة.

وفي شهر آذار ١٩٨٢ قدمت لجنة من دمشق تضم خمسة أشخاص قيل إنها للتحقيق في النهب الذي حدث، واتخذت اللجنة من شعبة الأمن السياسي مقراً لعملها.

وأسرع رئيس الحزب إلى دفع خمسين ألف ليرة سورية لكل عضو من أعضاء لجنة التحقيق حتى لا ينكشف ستره ويفتضح أمره. وأنهت اللجنة تحقيقها بأن أفراد الشعب هم الذين قاموا بنهب المؤسسات.

ومن أساليب السرقة التي أخضع فيها القانون للقوة، قيام بعض رجال السرايا باختيار بعض ملاك الأراضي في القرى القريبة ليوقعوا على سند بيع الأرض عند كاتب العدل في المناطق التابعة لحماة مثل مصياف وذلك تحت تهديد السلاح»[1].

المعتقلات:

كان القتل هو الأساس الذي بنت عليه السلطة إستراتيجيتها في معالجة موضوع حماة، أما الاعتقال فهو وسيلة مساعدة لتحقيق الهدف الإستراتيجي الأول (القتل)، إضافة إلى ما يمكن ان يقدمه (أي الاعتقال) من خدمة في مجال الحصول على المعلومات.

ومما يلفت النظر أن أوامر القتل تأتي أحياناً محددة عددياً من قبل السلطات العليا، وبمعنى آخر يأتي الأمر بأن نسبة القتلى يجب أن تزيد اليوم على ٧ آلاف. وفي اليوم الذي يليه يجب زيادتها إلى عشرة آلاف وهكذا، فإن انخفضت النسبة عن الحد المقرر فهذا تقصير.

أما كيفية التنفيذ فمتروك أمرها للضباط المتنفذين ومعاونيهم والعناصر العاملين معهم، فمن هؤلاء من يطلق النار مباشرة على من يراه من الشعب، ليتمكن من قتل أكبر عدد ممكن، ومنهم من يأسر أعداداً من الناس ليتلذذ بتعذيبهم ويشبع شهوة الانتقام لديه من خلال أدوات التعذيب المتوفرة والأساليب المبتكرة والزمن المتاح، حتى استشهد تحت التعذيب حوالي ثلاثمائة مواطن، إضافة إلى عمليات الابتزاز المالي التي يمارسها بعض عناصر السلطة مع المواطنين خلال شربة ماء تقدم لظامئ أو لقمة طعام تمنح لجائع أو إيقاف

---

(١) حماة مأساة العصر/ ٢٢٥-٢٢٧.

العذاب ساعة عن متألم.

ومما زاد عدد المعتقلين زيادة كبيرة المسالمون الذين هموا بمغادرة البلد، فجمعتهم عناصر السلطة، وكذلك الجرحى الذين أصيبوا في المعارك وظلوا بلا سلاح.

وإذا لاحظنا وجود فئات عدة من عناصر السلطة تشارك في أحداث حماة، ولكل منهم أوامره وتصوراته حول تكتيك المعركة، أدركنا لم يحرص بعض عناصر السلطة على القتل الفوري. ولم يحرص على الاعتقال أولاً ثم القتل، إضافة إلى العوامل السابق ذكرها، فالأوامر الصادرة إلى الجيش من قياداته، وإلى الميليشيات من قياداتها هي القتل ثم المزيد من القتل. أما الأوامر الصادرة إلى عناصر المخابرات العسكرية، وغيرها من قياداتها فهي الاعتقال أولاً ثم التحقيق ثانياً، ثم قتل من لم يمت تحت التعذيب ثالثاً. وهذا كله في بعض مراحل الصراع. فلكل مرحلة ملامح إضافية تنفرد بها عن غيرها. ومن هنا نرى سبب احتجاج بعض عناصر المخابرات على عمليات القتل الفوري التي تضيع خيوط التحقيق، كالاحتجاج الذي وجهه رئيس فرع المخابرات العسكرية بحماة العقيد الطائفي يحيى زيدان الذي كان ضابطاً في سرايا الدفاع ثم فرز إلى المخابرات العسكرية، إذ أن عمليات القتل المباشر التي يمارسها الجيش كانت تضيع من يده فرصة العثور على خيوط جديدة في التحقيق.

إلا أن السياسة العليا الرامية إلى تصفية شعب حماة في أسرع وقت ممكن لإعادة استتباب الأمن، وقطع الطريق على تفجرات جديدة في القطر، والحرص على إعادة القطعات المستجلبة من لبنان إلى مواقعها، والخوف من انكشاف امر المرتزقة الطائفيين الأتراك الذين اشتركوا في تدمير حماة. والذين يمكن أن يكشفهم طول المعركة وهم حوالي ٦٠٠ عنصر، ولأهداف سياسية وإعلامية،

هذه السياسة كانت تلح على ضرورة الإبادة الجماعية، فالوقت لا يسمح بمزيد من التحقيقات. وكان من الأوامر التي أصدرها حافظ أسد في نهاية الصراع المسلح مع المجاهدين رفع عدد القتلى إلى رقم محدد، حدده بنفسه، وكان هذا مساء الخميس في ١٩٨٢/٢/٢٥، وفي صبيحة الجمعة بدئ بحملة اعتقالات واسعة، وتسليم المواطنين إلى فروع المخابرات لاستكمال التحقيقات، وذلك بعد انتهاء القتال تماماً. ففي هذا اليوم سيقت مجموعة للقتل يقدر عددها بـ ١٥٠٠ شخص، بين عناصرها مفتي حماة ورئيس جمعية العلماء وعدد من المشايخ، وسيقت إلى أماكن مجهولة للتحقيق، ولم يأت خبر عن أي فرد من أفرادها بعد ذلك. وقيل إنهم دفنوا في منطقة قرية (براق)، وقيل في قرية على طريق (محردة) حيث وضعوا في حفرة جماعية.

وعمت الاعتقالات الجماعية المدينة، وبذلت الأموال الطائلة من ذوي المعتقلين لإخراجهم من السجون، فمنهم من دفع مائة ألف ليرة سورية، ومنهم من دفع خمسين ألفا أو أقل من ذلك أو أكثر كل حسب طاقته، وحسب جشع الجهة التي تحتجز سجينه.

أماكن الحجز والاعتقال:

كانت حماة أثناء المجزرة سجناً كبيراً مطوّقاً بسياج محكم من الآليات والأسلحة والجنود، لا يجوز مغادرته أو الدخول اليه. أما حركة الناس داخل هذا السجن فهي الأخرى مقيدة، وهذا أمر طبيعي، ومما هو طبيعي أيضا أن وجود الرجل داخل بيته بين أسرته وأولاده، ربما يجعله أقل إحساساً بالذعر والإهانة مما لو كان في الزنزانة تحت وابل الشتائم والسياط.

لقد وضعت السلطة نفسها في مواجهة حاسمة مع الشعب كله، وأيقنت أن

الخيارات أمامها محدودة: النظام أو الشعب، ولا مجال للتعايش بينهما. وهذا الموقف ليس جديداً من السلطة فقد بدأته منذ سنوات، إنما الجديد هو مرارته الزائدة، ودمويته العنيفة، إذ لا بد الآن من أن يزول أحد الفريقين:السلطة أو الشعب.

ومن هنا كان لا بد من استخدام كل وسيلة متاحة لتحطيم الشعب، ومن هذه الوسائل السجون، إلا أن السجون العادية غير كافية، فهي لم تصمم لشعب كامل، فلا بد إذن من فتح سجون جديدة تتناسب مع ضخامة العدد، وحرارة الموقف، وسرعة تلاحق الأحداث، وعلى هذا فلا بأس في استخدام مدرسة أو معهد أو محلجة أو معمل، أو غير ذلك مما يتناسب مع الظرف القائم، بغض النظر عن الغاية التي شيد من أجلها البناء.

وهذه أسماء بعض المعتقلات التي استخدمتها السلطة إبان المجزرة:

١- معتقل اللواء ٤٧. ٢- معتقل الثكنة. ٣- معتقل المطار. ٤- معتقل المحلجة الخماسية (محلجة ابي الفداء). ٥- معتقل المنطقة الصناعية. ٦- معتقل مدرسة غرناطة. ٧- معتقل مدرسة الصناعة. ٨- معتقل معمل البورسلان. ٩- معتقل المخابرات العسكرية. ١٠- معتقل الأمن السياسي. ١١- معتقل أمن الدولة. ١٢- معتقل معمل الغزل. ١٣- معتقل معمل البلاط. ١٤- معتقل مركز الدفاع المدني.

ولعل الحديث عن بعض هذه المعتقلات وما جرى فيها يعطي صورة عن مجملها، وعن طبيعة النظام وطبيعة المعركة التي خاضها وما يزال ضد الشعب.

معتقل مدرسة الصناعة:

أ-الازدحام: هي المدرسة الصناعية الوحيدة في حماة، وقد حولت قاعات الدراسة وورشات العمل فيها والتي تبلغ ما يقرب من خمسين غرفة وعشر ورش

كبيرة، حولت الى أماكن للمعتقلات. وكان التعذيب فيها سهلاً لكثرة الأدوات الموجودة وتنوع أشكالها.

وقد سجن في هذه المدرسة حوالي خمسة عشر ألف مواطن، وزعوا في غرفها وقاعاتها بما يقرب من مائتي شخص للقاعة، و٩٠-١٠٠ شخص للغرفة التي لا يتجاوز طولها سبعة أمتار، وعرضها ستة أمتار، وهكذا أصبحت المدرسة الواسعة زنزانة صغيرة.

ب-البرد والجوع والظمأ: ولقد أضيف إلى هذا الازدحام الشديد عوامل أخرى، أهمها البرد والجوع والظمأ، ففصل الشتاء لمّا ينته بعد، والأمطار والرياح في أوائل آذار تلسع الجلود، والناس محشورة بملابس النوم، أو حفاة، أو أشباه عراة، وحظهم من الطعام (٥كغم) من الخبز توزع على (١٠٠) معتقل كل ثلاثة أيام. والماء يأتيهم شحيحاً، فيتدافعون عليه لشدة الظمأ، فينسكب على الأرض الباردة تحت أرجلهم دون أن يقنع غلتهم. وساعات القلق الطوال تمر مشحونة بشآبيب الشتائم. جو غريب بعيد عن متناول التصور الإنساني الطبيعي، ولا بد أن يجمد المرء إحساسه، ويكد خياله، حتى يستطيع تصور المشاعر التي كانت تخالج المعتقلين في هذا الجو البائس. ويبدو أن الغابة نفسها، وبرغم كل تشريعاتها المتميزة تعجز عن أن تنسج مثل هذه الأجواء حول أي فرد يعيش فيها، فالفرد في الغابة قاتل أو مقتول، آكل أو مأكول، أما أن يعيش هكذا فليس من طبائع الغاب.

ثم هذا كله برد وسلام وروح وريحان، إذا قيس إلى ما وراءه.

ج-التعذيب: لم يكن التعذيب من مبتكرات حافظ أسد، إلا أن له فضلاً كبيراً في تطويره، كماً ونوعاً، أسلوباً وأداة، وهذه نماذج يسيرة من الخطوات المتقدمة التي خطاها النظام في توسيع فن التعذيب وتطويره، مما ساعده عليه وجود

الأدوات الحديدية بأشكالها المتنوعة في مدرسة الصناعة.

التعذيب بالملزمة: يؤتى بالمعتقل وتوضع رجله أو يده في الملزمة الضخمة، ويشد عليها حتى يتمزق لحمه وتهرس عظامه، كما يوضع الرأس أحياناً إذا أريد القضاء على المواطن خلال فترة قصيرة من التعذيب. ولقد روى بعض شهود العيان شيئاً من مشاهداتهم في هذا المجال. وذكروا أن عدداً ممن خضعوا لهذا النوع من التعذيب حطمت رؤوسهم الملازم. ومن هؤلاء الذين تكسرت عظام رؤوسهم في الملزمة شخص من آل (وتار) وشخص آخر ذكره أحد شهود العيان دون أن يعرف اسمه.

المكبس الحديدي: ولقد كان المكبس الحديدي من بين الأدوات التي استخدمها عناصر السلطة في تهشيم عدد من رؤوس المواطنين، إذ يضغط على الرأس حتى تتكسر عظامه.

كرسي سليمان: وهو اسم أطلقه الجلادون على الخازوق الحديدي الذي كان يجلس عليه الشخص حتى يسيل الدم من قفاه، ويضرب خلال ذلك بالعصي والأكبال الكهربائية حتى ينسلخ جلده.

بساط الريح: يعلّق المعتقل من يديه ورجليه بالسقف مع تجريح ظهره وبطنه بالسكين، ويترك حتى ينزف دمه.

الكهرباء: كانت أسلاك الكهرباء توضع في لسان المواطن ودبره وقبله، كما يوضع أحياناً على سخانة كهربائية مشتعلة، حتى تفوح رائحة لحمه.

الكي بالحديد المحمي: كانت أسياخ الحديد تحمى في النار، وتغرز في جسد المواطن في الصدر والظهر والبطن وأي موضع من الجسد يخطر ببال الجلاد، وقد نال هذا النوع من التعذيب مواطنين عدة، منهم رجل من آل (عبدو) عمره ستون عاماً.

الخنق: كان بعض المواطنين يخنق خنقاً، إذ يضعون رأسه على الجدار ويضغطون بأنبوب على رقبته حتى يموت.

كان هذا التعذيب كله بأساليبه وأدواته يجري أمام المواطنين المعتقلين في قاعة التعذيب وهم مصطفون بشكل رتل أشباه عراة.

وإضافة إلى هذا النوع من الإرهاب كانت الدبابات تمر فوق أجساد بعض الأحياء، وقد شاهد كثير من المواطنين هذا الأمر، كما شاهد كثير منهم جثثاً تنهشها الكلاب.

ولا يزال بعض شهود المأساة يذكرون بعضاً من أسماء الشهداء الذين لقوا ربهم تحت التعذيب [1].

معتقل البورسلان:

زُجّ من الشعب في هذا المعتقل سبعة آلاف مواطن، ألقي بهم على الأرض المعبّدة في ساحة المعمل. يفترشون الأرض ويلتحفون السماء على الرغم من شدة البرد والصقيع، وقد ظلوا على هذه الحال ثلاثة أيام مكتوفي الأيدي إلى الوراء، فتوفي بينهم عشر مواطنين. وكان يوزع عليهم نصف رغيف يومياً لكل شخص، هذا إذا وصل الدور إلى الجميع. وكان الطغاة يبيعون السجناء أحياناً بأسعار غالية جداً، إذ كان عناصر الوحدات يسرقون المواد من دكاكين البلد ويبيعونها لمن بقي معه مال من السجناء، فقد بيعت علبة الطون بـ (٣٥) ليرة بدلاً من (٤) ليرات. وعلبة السردين بـ (١٥) ليرة بدلاً من (ليرتين)، وعلبة الحلاوة بـ (٥٠) ليرة بدلا من (ست) ليرات. وقد ثار حنق الجنود لأن الناس ما يزالون

(١) يذكر الكتاب أسماء ستة عشر معتقلاً استشهدوا تحت التعذيب ممن عرف منهم، وعائلات واحد وعشرين آخرين لم تعرف أسماؤهم.

يملكون مالاً، فقاموا بتفتيشهم جميعاً. وكانت كثرة المعتقلين مضيعة لهم، إذ أخذ الناس يتناقلون المال من يد الى أخرى تهرباً من المصادرة.

وعندما كان يجري توزيع الماء والطعام، كان الناس يتدافعون في أفواج متلاطمة من العطشى والجياع الذين حرموا خبز وطنهم ومياه بلدهم، أولئك اعتادوا على الخيرات، خيرات حماة، وبركات عاصيها الجميل. وأمام هذا التدافع كان الجيش يطلق النار فوق رؤوس الناس، فيصيب بعضهم دون اكتراث، وقد حدث أحدهم ممن كان موجوداً بين هؤلاء أن جريحين كانا إلى جانبه أصيبا برصاص المجرمين في المعمل بسبب ذلك. أما الأول فيدعى مسعود ناصر وهو من حي الحميدية بحماة، وقد أصيب برجله ولم يسعف ونزف دمه فترة ثم وقف النزف، لكن رجله أنتنت واتنشرت رائحتها، وبعد مرور شهر أصبح الرجل منبوذاً من جميع الناس بسبب الرائحة. وأصبح بينه وبين الناس فسحة من الفراغ برغم ضيق المكان. وأما الثاني فقد أصيب بشفته من جراء ذلك وأهمل ايضاً.

أما الغسيل والثياب والغطاء فقد سامحهم بها شعب حماة منذ سنتين من الأحداث، وأما الصلاة فكانت بالإيماء أو خفية، وكان بعضهم لا يتجرأ على ذلك.

أما المستحيل عينه فهو وجود ماء للوضوء.

وأثناء التحقيق تعصب عيون المواطنين، وأيديهم مقيدة إلى الوراء، وكان معدل الوفاة (٦-٧) أشخاص يومياً، وقد تعددت طرق التعذيب والتفنن في أجساد المواطنين، فمنها كي الجسد باشارة (X) على الوجه والصدر. وقص الأذن وترك النزف حتى يموت الشخص، وفي إحدى المرات اختار أحد الضباط ثلاثة رجال مسنين، أصغرهم سناً يبلغ (٤٥ سنة)، فأمسكهم برؤوسهم وراح يحلق لحاهم بقداحة الغاز تشفياً.

معتقل محلجة أبي الفداء:

دخل هذه المحلجة قسم من اللواء ٢١ بدباباته، فسرقوا خزانات الموظفين وما استطاعوا حمله من عدد المعمل وأدوات التصليح، وبدؤوا بجمع المعتقلين فيها حتى وصل العدد إلى ٧-٨ آلاف سجين. وقد عزل منهم (٨٣) شخصاً اعترفوا بأنهم مسلحون، كان منهم صلاح التليتي، وشخص من آل الطيار، وقد وضعوا في قبو من أقبية المحلج، وكان الجنود يحرقون أكواماً من أكياس القنب وسجلات المحلجة ليستدفئوا بها، ويقذفون بقاياها المحترقة على رؤوس المساجين الـ (٨٣) عبر النافذة. وكان هذا القبو المهجور مملوءاً بماء المطر. ومستوى الماء يصل إلى ركبتي السجين يأمرونهم بالشرب منه، كما كانوا يقدمون لهم القليل من الخبز العفن وبذور القطن، وقد حمل هؤلاء يوم ٢٩ من بدء المعركة إلى مكان مجهول بالسيارات، وفي يوم ٣١ أو ٣٥ لبدء المعركة خطب محافظ حماة بالمساجين في الساعة الثامنة ليلاً، وفي اليوم التالي تم حمل هؤلاء المساجين -وهم كما قلنا بين ٧-٨ آلاف- في سيارات (زيل عسكرية)، ولم يظهر أحد منهم في حماة بعد ذلك، وقد شوهد مرور سيارات كثيرة إلى حمص في اليوم نفسه، ويظن أنهم حملوا إلى تدمر.

ومن أساليب التعذيب في هذا المعتقل قرض الاصابع بـ (البانسات).

<u>**الأصنام المزيفون**</u>: في عام ١٩٨٠ جمع المواطنون من أحياء عدة في ساحة (حارة الجسر) بحماة، وبدأ الزبانية بتعذيبهم، وحرقت اللحى بقداحات الغاز، وطلب منهم الركوع لحافظ أسد، وأخذ بعضهم بالرخصة، وصاح اثنان منهم (اللَّه أكبر)، أحدهما المواطن علي التتان، فقلعت عينه الأولى، فأبى أن يلبي ما طلبوا، ثم قلعت الثانية فأبي، فقتلوه مباشرة. وأما الذي ردد النداء الخالد (اللَّه أكبر) فهو مؤذن المسجد، وقد أخذه الضابط مع جندي ليقتله في مكان آخر فأنجاه اللَّه، ولا

يتسع المجال هنا لذكر قصة نجاته.

هذا في عام ١٩٨٠، أما في عام ١٩٨٢ فأولاد الصنم الأكبر هم أنفسهم تجبروا، فكانت أوامر الجبابرة الصغار للمواطنين هي الانبطاح على الأرض بدلاً من الوقوف حينما يدخل أي ضابط مهما صغر شأنه، هذا في حين أن آلام الموت والجوع والعطش والبرد نسيج أساسي بل وحيد في حياة السجين. ولقد دخل مرة اللواء علي حيدر قائد القوات الخاصة، فهتف الخائفون الجياع في أحد المهاجع: عاش القائد علي حيدر، بشكل جماعي، فرضي غروره، إذ سمع من أهل حماة عبارة محبة، وامتلأت نفسه كثيراً فقال: أعطوهم بطانيات وطعام. وفعلاً كان ذلك بعد دقائق، ولكن المعتقل كان تابعاً لسرايا الدفاع التي تدين للسفاح رفعت أسد، وقد ساءها الهتاف لغيره، فجاء مجرمون منها إلى المهجع يحملون رشاشاتهم، وبعد كلامهم (لا قائد الا الزعيم رفعت، ألا تعرفون من قائدنا؟) فتحوا نيران الرشاشات على عناصر المهجع، وكان يحتوي على تسعين شخصا فسقطوا جميعاً قتلى.

وفي الثاني والعشرين من شباط ١٩٨٢ أمر السفاح رفعت الأسد فنودي بمكبرات الصوت لإحضار جميع المشايخ ومؤذني المساجد وخدامها من المعتقلات في حماة، وكانوا حوالي ١٠٠٠ شيخ، وسيقوا إلى مكان مجهول، ولا يزال مصير هؤلاء مجهولاً.

كل حموي متهم:

بعدما تقدم ذكره من اضطهاد لشعب حماة يتبادر إلى الذهن سؤال: هل كان شعب حماة كله مناوئاً للنظام؟ هل كان الأطفال والشيوخ والنساء كلهم محاربين للسلطة، حاملين السلاح لاسقاطه؟ بل قد يطرح سؤال أكثر غرابة: هل كان

المهندس الشيوعي (إسماعيل نوفل) منظماً مع الاخوان المسلمين؟ وهل قتل مسؤول من الجبهة الوطنية التقدمية كان عقوبة له لأنه من الإخوان المسلمين؟

يروى أن أحد مسيحيي حماة قدم الى العقيد علي ديب أحد قواد القوات الخاصة وأحد كبار المسؤولين عن مجازر حماة، وقال له: يا سيدي إنكم تبحثون عن الإخوان المسلمين وأنا مسيحي. فأجابه العقيد: إن مسيحيي حماة كلهم إخوان مسلمون.

فهل كان قتل عدد كبير من مسيحيي حماة لأنهم حقاً إخوان مسلمون؟ وهل كان أحد رجال الدين المسيحي الذي نجا بأعجوبة من الإخوان المسلمين؟ ألا يعني هذا أن كلمة (إخوان مسلمين) أصبحت تطلق اصطلاحاً على كل وطني شريف؟ أو قل كل إنسان غير طائفي أو ليس من طائفة معينة؟

مجرزة سريحين:

وهي أبرز مجازر حماة الجماعية التي لم يقدر معرفة التفصيلات الكثيرة عنها، لأن القتل الجماعي استحر فيها. وما نجا إلا عدد كأصابع اليد، قدر لهم أن يكونوا شهادة حية على ذبح أناس ملؤوا إحدى عشرة شاحنة طوتهم الأرض الطهور في سريحين.

يقول أحد الناجين من إحدى هذه المجازر:

كنت ضمن أعداد كبيرة بازدحام شديد، حتى كادت تنقطع أنفاسنا، وسيق بنا إلى (سيريحين) حيث أمرنا بالنزول فنزلنا، وكان أول ما رأينا مئات الأحذية المتناثرة علىالأرض. وأدرك الجميع أنها تعني مقتل مئات المواطنين من أبناء بلدنا وأننا على الموت مقبلون.

فُتشنا بعد ذلك، وأخذت منا الأموال القليلة التي معنا، وجردنا من ساعاتنا،

ثم أمرتنا عناصر السلطة بالتقدم نحو الخندق العميق الذي يمتد أمامنا إلى مسافة طويلة، وأمر قسم آخر منا بالنزول إلى خندق مجاور، وعندما تقدمت إلى موقعي أمام الخندق، رأيت الجثث المتراكمة على بعضها يلطخها الدم الحار، وكان مشهداً رهيباً لم أستطع تحمله، فأغمضت عيني وتحاملت على نفسي خشية الوقوع على الأرض.

وحدث ما كان متوقعاً وانهال علينا الرصاص الغزير، وهوى الجميع إلى الخنادق مضرجين بدمائهم، أما القسم الذي أنزل إلى الخنادق فقد أطلقت عليهم النار داخله.

ويضيف الراوي الذي نجا بقدر اللَّه:

كانت إصاباتي خفيفة، وقدر اللَّه لي أن أنجو بأن صبرت حتى خلا المكان من الجزارين، وهربت متحاملاً على جراحي وأنقذني اللَّه من ذلك المصير، حيث يموت الجريح تحت الجثث الأخرى [1].

من بطولات أهل حماة:

إذا عرفنا أي أسلحة تمتلك أجهزة أسد القمعية استطعنا تقدير تلك البطولات التي لن نذكر منها إلا المثير واللافت للانتباه، أما ما عداها مما يعتبره المجاهدون الحمويون من الأشياء العادية فلن نذكرها، لأنها أكثر من أن تحصى، وهيهات أن يعدها العادون، من مثل العشرات من الشبان المؤمنين والرجال الذين كانوا يهاجمون دبابات العدو ومصفحاته وسياراته وتجمعاته بصدور مفتوحة، وزنود قوية تحمل الكلاشنكوف أو الرمانات اليدوية أو المسدسات العادية أو قنابل

(١) حماة مأساة العصر/ ٢٤١-٢٥٢ مقتطفات.

مولوتوف يهاجمون بها عناصر السلطة، فيفتكون بها، وكثيراً ما كان الواحد من أولئك الأبطال يصاب في هجومه على أولئك بعدة طلقات أو عدة شظايا، وهو لا يأبه لها، أو لا يحس بها ما لم تكن في مقتل، ويستمر في هجومه إلى أن يحقق هدفه، أو تمزقه قذيفة آر.بي.جي يطلقها عليه أحد العناصر، فتمنعه من الوصول إلى هدفه. أمثال هذه الحوادث كثيرة كثيرة، ويعتبرها المجاهدون من الأمور العادية، نذكر منها بعض الأمثلة: ففي منطقة الكيلانية المحاصرة حاولت دبابة الدخول إلى الحي، فخرج إليها أحد المجاهدين ببندقيته فاستشهد فوراً، ولكنه أخاف الغزاة فلم يجرؤ أحد منهم على اقتحام الحي بدبابته مخافة مثل هذه العملية الاستشهادية، وفي منطقة الطوافرة طاردت إحدى الدبابات أحد المجاهدين وبيده بندقية، فتصدى لها مجاهد غيره، وأطلق النار من رشاشه، وشاء الله أن تصيب رشة مدفع الدبابة فأعطبته.

وتسلّق طفل في الشرقية على دبابة، وبيده سكين، وقبل أن يتمكن من طعن أحد عناصرها بسكينه هاجمته عناصر أخرى واعتقلته، ولما قدموه إلى الضابط سأله الضابط، وقد رآه طفلاً: كم عمرك؟

- ١٢ سنة.

- لماذا تفعل هذا؟

- أجاب الطفل برباطة جأش: لأنكم قتلتم أبي ودمرتم بلدي.

كما حاول أحد الأشبال التسلق على دبابة، وأمسك بمسكات الصعود ليقذف بالرمانة اليدوية داخل البرج، وحاول أحد العناصر منعه من ذلك، فحرك برج الدبابة لكن الشبل كان مصمماً على فعله، وتمكن من قذف القنبلة داخل البرج وقتل من فيه.

وثمة مجاهد شاب عمره (١٨) سنة بترت ساقه في أثناء المعارك، ولكنه أصر

على متابعة القتال بساق واحدة، وتمكن من قتل قائد كان يشرف على حركة الدبابات في حي الشرقية، كما أصر على عدم الانسحاب، وأخيراً استشهد وهو يدافع عن بيت الجرحى، بعد أن أردى عدداً من العناصر المهاجمة.

ومن هذه البطولات التي قام بها أطفال دون الثانية عشرة من أعمارهم:

أن طفلاً في حي الزئبقي طلب من أمه أن تلبسه ثياباً جديدة لأنه يريد أن يلقى بها ربه، وامتثلت أمه لطلبه، ثم ودعها وانضم إلى المجاهدين يخدمهم ويقاتل معهم إلى أن استشهد.

ومن هؤلاء الأطفال كان هناك طفل في الثانية عشرة من العمر يقوم بعمليات القنص من فوق إحدى البنايات، وانتبه اليه أحد الضباط فأمر عناصره بالصعود إلى ذلك القناص وقتله، وعندما رآه العناصر طفلاً احتالوا عليه إلى أن تمكنوا منه واستاقوه إلى الضابط. أعجب الضابط بهذا الغلام وسأله: كم عنصراً قتلت؟ قال الشبل بقوة وبرباطة جأش: كثير. وفيما الضابط يحاوره والعناصر ينظرون إليه يريدون تمزيقه، باغت أحدهم وأخذ منه بندقيته، فقتل عدداً منهم، ثم ارتفعت روحه إلى عليين.

وفي حي الحاضر جرح جندي وسقطت بندقيته إلى جانبه، فهجم عليه طفل في الحادية عشرة من عمره وهو يحمل لبنة يخيفه بها حتى وصل إلى البندقية، فأخذها وساق العنصر الجريح أمامه، وسلمه لمجموعة من المجاهدين كانوا يرفضون تسليح هذا الشبل لصغر سنه، ولكنهم الآن فرحوا به، وتركوا له بندقيته.

وأدخل شبل في الثالثة عشرة من العمر إلى مستشفى المجاهدين، وكانت إحدى يديه مسلوخة الجلد، وراح الطبيب يجري له العملية اللازمة، والشاب الصغير يبتسم ويهتف «الله أكبر»، وكان يحمل بيده الأخرى رمانة يدوية حاول المجاهدون والطبيب عبثاً انتزاعها منه، فألحوا على معرفة اسمه، فامتنع، ثم خرج

يقاتل، ولما يتماثل للشفاء. كان ذلك في اليوم الخامس لاجتياح حماة.

وكان عدد من الأطفال يساعدون المجاهدين في تعبئة زجاجات مولوتوف، وفي قذفها على الدبابات المهاجمة، حصل هذا في أكثر من حي، وخاصة في شارع ٨ آذار.

والنساء شاركن:

والحرائر في حماة شاركن الرجال والأطفال في التصدي للوحوش الكاسرة التي انقضت على المدينة من كل حدب وصوب يريدون افتراس النساء وإذلال الأحرار، والفتك بالصغار والكبار، فما كان من بنات أبي الفداء إلا أن يكن كالخنساء وأسماء تشجيعاً لأبنائهن، وحضاً لهم على القتال والاستبسال والاستشهاد، وإلا أن يكون بعضهن الآخر كخولة، تشارك أخاها في القتال أو تخدم الجرحى وتنقل المؤن، والأمثلة على هذا كثيرة، إذ شاركت الكثير من بنات أبي الفداء في عمليات إخلاء الجرحى وتمريض المرضى وإسعاف المحتاجين إلى أي نوع من الاسعاف. وكان بعضهن يعبّئ مخازن الذخيرة ويملأ زجاجات مولوتوف. وكانت أخريات تقوم بتموين الشباب بالطعام.

ولقد كان لزغاريدهن فعل السحر في الشباب، وتحمسهم لحماية الأعراض ولصون المدينة من الانتهاك. ومن هؤلاء النساء امرأة مؤمنة كانت تؤوي ثلاثة من المجاهدين الجرحى في بيتها تداوي جراحهم، وتبث الحمية في قلوبهم، وترفع من معنوياتهم كما فعلت بكثيرين قبلهم وبعدهم. وفيما هي كذلك، إذا دورية تداهم البيت، فما كان منها إلا أن تناولت السلاح الذي كان بجانبها، وأطلقت النار على الدورية المؤلفة من ثلاثة عناصر فأردتهم قتلى، ثم جلست متأهبة متربصة بآخرين.

هذا مثل من أمثال، تحدث به أحد الجرحى الذين حضروا تلك العملية الجريئة لتلك المرأة المجاهدة، وأمثالها كثير. من ذلك أن عناصر السلطة الباغية دخلت البيت على امرأة تحمل طفلها، وأرادوا انتزاعه منها ليقتلوه، فما كان منها إلا أن حملت يد (الهاون) النحاسي ونزلت به على جمجمة أحدهم فحطمتها. فعاجلها (أبطال) أسد برشات أودت بحياتها وحياة طفلها. وفي البارودية امرأة مؤمنة حملت الطعام للمراكز الأمامية للمجاهدين، وسألتهم عن بيت الجرحى، فأظهر المجاهدون الاستعداد لحمل هذا الطعام، وأصروا عليها، فأبت وقالت: لا. إلا بيدي. وحذروها من أن تنالها رصاصات العدو. فقالت: حياتي ليست أغلى من حياتكم، والله لن يوصله أحد غيري. فأوصلته وأطعمت الجرحى بيديها.

وفي حي العصيدة دخل مسلحون بيت امرأة فظنتهم من المجاهدين ورحبت بهم قائلة: أهلا وسهلاً بالإخوان، الشعب كله معكم . الله ينصركم. فما كان من أزلام السلطة إلا رميها بالرصاص.

وإحدى النساء كانت زائرة في حي الشرقية شاهدت تراجع المجاهدين (على الرغم من أنه كان تراجعاً منظماً لاستدراج قوات السلطة)، فقالت: (يا حيف) الشباب بتهرب. وأخذت بندقية وبدأت تكبر وتطلق بها على الدبابة المتجهة نحوها، فأثارت نخوة الخائفين فاندفعوا إلى المعركة.

لقد كان أهل حماة وما يزالون جزءاً من المجتمعات التي صنعها الإسلام، فتميزت بالنخوة والشرف والمروءة والمحافظة على الأعراض، وكان هذا جلياً في المعارك التي واكبت مأساة حماة.

لقد كان دفاع الشعب عن أعراضه جزءاً من الحرب المقدسة التي خاضها ضد الطائفيين. مثلما كان دفاعه عن عقيدته وحريته وماله، وعندما جاء أحد

العجائز إلى الشيخ أديب الكيلاني قائلاً: يا شيخنا إن قضية الأرواح والأموال بسيطة. ولكننا نخشى على أعراضنا. أجابه الشيخ: ليس لنا إلا القتال، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد.

ففي حي باب الجسر دخلت مجموعة من العناصر أحد الأقبية لجأت إليه ٢٥ امرأة من شدة القصف المدفعي والصاروخي، وأراد عناصر البغي سبي فتاة منهن، فقامت النسوة قومة واحدة يصرخن ويولولن فبهت العناصر لهذا الموقف الجرئ، ووقفوا جامدين، فقالت لهم إحدى النساء: خذوا ما تشاؤون ودعوا هذه الفتاة. وأخذت صنائع أسد كل ما معهن من ذهب قدر بعشرة كيلوغرامات، وخرجوا وهم متأكدون أن واحدة منهن لم تخف شيئاً من ذهبها مخافة تفتيشها.

وفي حي السوق، تدفقت عناصر أسد تريد تمشيطه وإهانة ناسه، فهبت امرأة مؤمنة تنادي بصوت عال: أين أهل النخوة والشهامة؟ فأنهضت بندائها هذا همم الشباب الذين هبوا للذود عن النساء والشيوخ والأطفال، وكانت معركة، سقط فيها من الجانبين الكثير.

وفي حي الشمالية اعتقل الجيش اثنتين من النساء استاقهما ضابط طائفي، فحميت أنوف أهل الحي وتكفل المجاهدون باستخلاصهما. فتسلل أربعة منهم عبر ثغرات محفورة في الجدران، وفاجؤوه بإطلاق النار عليه، وخلصوا الفتاتين الطاهرتين، واستشهد منهم واحد واعتقل آخر وهو جريح، ثم أجهزوا عليه رمياً بالرصاص.

لم تستطع عناصر أسد تدنيس شرف المدينة الباسلة بالاعتداء على نسائها العفيفات الطاهرات اللواتي كن يلبسن البنطلونات تحت ثيابهن كيلا تظهر عوراتهن في حالة استشهادهن.

أجل.. لم يتمكن عسكر السفاح أسد من النيل من شرف الحرائر في حماة،

ليس بفعل انشغالهم في العمليات القتالية فحسب، ولا بسبب دفاع أزواجهن عنهن حتى الموت، بل وبسبب شرفهن وعقيدتهن، ففي منطقة الباشورة قتلت عناصر السلطة المجرمة رب البيت من آل السواس، ثم أراد الآثمون الاعتداء على شرف زوجته الطاهرة، فقاومتهم مقاومة الأبطال. فما كان من الجبناء إلا أن يصبوا المازوت فوقها وفي أرجاء غرفتها ويشعلوا النيران فيها، فاحترقت وذهبت إلى بارئها أطهر من ماء السماء.

وعندما حاولوا الاعتداء على امرأة اخرى قاومتهم واستبسلت في مقاومتهم، ولما يئسوا من تسليمها طعنوها بحرابهم حتى ماتت.

وإذا كانت النساء والأطفال في خندق واحد مع المجاهدين فإن الشيوخ الطاعنين في السن لم يمنعهم علوّ سنهم من المشاركة في الدفاع عن المدينة التي استباحها زبانية أسد.

ففي المستشفى الوطني كان ضابط يتحدث مع أحد العاملين في المستشفى عن المرأة الجريحة المشرفة على الموت أمامه فيقول: انظر إلى هذه المرأة العجوز التي يغطيها الشيب، أنها كانت تقدم القنابل والرصاص إلى هذا الشيخ الخرف، زوجها المتمدد جانبها وهو مثخن بجراحه، وكان العجوز يرمينا بها. وعندما أراد أحد المجاهدين توصيل شيخ عجوز، يعبر به شارع سعيد بن العاص، رفض العجوز حماية المجاهد، وأخرج مسدساً من جيبه، وقال: أنا العجوز أستطيع تأديب هؤلاء بمسدسي هذا، وقطع الشارع بمفرده.

ولن ينسى الناس خطبة الشيخ زهير في الجماهير الحموية. وما كان فيها من جرأة نادرة تحدى فيها زبانية أسد.

كما لن ينسى الناس رد الشيخ أحمد على الضابط الطائفي الذي أمر العلماء بإدارة وجوههم إلى الوراء ليرميهم بالرصاص. أجاب الشيخ أحمد: نحن العلماء

ما اعتدنا أن ندير ظهورنا للرصاص. نحن نتلقاه بصدورنا.

أما بطولات الشباب المجاهدين فحدث ولا حرج. إذ يكفي هؤلاء فخراً ومجداً وبطولة أن يثبتوا في وجه تلك الجيوش الطائفية التي أحاطت بالمدينة من كل جانب، وقصفتها بالمدفعية الثقيلة وبراجمات الصواريخ وبمدفعية الدبابات، ومن الجو صبت حممها، والمجاهدون صابرون محتسبون طوال شهر شباط يدافعون عن مدينتهم الباسلة، وعن أعراضهم وعن حرماتهم، لم يبخلوا بغال أو نفيس، قدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الحفاظ على المقدسات، ضحوا بكل ما يملكون فكانوا مضرب الأمثال في الشجاعة والنجدة والمروءة والبطولة، وسيبقى التاريخ يذكرهم كلما ذكر استبسال الرجال، واستشهاد المدن، وكلما ذكر خيانة الخائنين لأمتهم ولتراب وطنهم، وحرص المؤمنين على أمتهم وعلى تراب وطنهم. فهم الحريصون الذين يدفعهم حرصهم هذا على تقديم كل شيء .. كل شيء لتسلم لهم أمتهم، وتسلم لهم مقدساتهم وأوطانهم.

أبناء مدينة أبي الفداء في أكثريتهم كانوا يقاتلون أعداء الوطن، من كان منهم يحمل السلاح، ومن لم يكن معه غير سكين المطبخ لأنهم جميعاً كانوا يعرفون طبيعة هؤلاء الذين جاؤوا لا يوفرون شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً.

عرف أبناء مدينة أبي الفداء طبيعة هؤلاء، فهبوا على بكرة أبيهم يقاتلونهم وهم يعرفون أن معركتهم خاسرة مع هذا النظام العاتي الذي لا يرعى لأبناء هذه الأمة إلاّ ولا ذمة، إذ كانوا يسوقون العشرات والمئات ليقتلوهم أو يلقوهم في حفرة كبيرة، ثم يردموهم بالتراب والحجارة، ولذا كان الواحد منهم يقف خلف الباب، ومعه ما معه من سلاح، وبمجرد ما تأتي المجموعة من الطائفيين تقرع الباب أو تخلعه أو تدمره بقذيفة صاروخية ينقض عليهم صاحب البيت المتواري خلف الباب بما معه من سلاح فيقتل من يقتل ثم يمضي شهيداً إلى ربه.

أما البطولات الفردية فنذكر منها على سبيل المثال عشرات الحوادث التي كان يقوم بها مواطنون اعتقلتهم قوات أسد، فالشهيد راغب في حي السوق، اعتقلته عناصر أسد وساقوه إلى الموت رافع اليدين. فانقض على أحد العناصر وخطف منه بندقيته، وقتل أربعة من عناصر السلطة، ثم خر شهيداً برصاص الآخرين، وفعل مثله المجاهد أبو إبراهيم في حي السوق وأبو بهجت في حي الحاضر.

وحصل اشتباك بين أربعة من المجاهدين وبين أعداد كبيرة من عناصر السلطة داخل أحد الخانات الضخمة، ثم حوصر المجاهدون بأعداد كثيفة، وقاتلوا حتى نفدت ذخائرهم واستشهدوا. وهناك شاب في السابعة عشرة من عمره كان مختبئاً مع مجموعة كبيرة من الشيوخ والنساء والأطفال في أحد المخابئ في حي الوادي، وإذا بعناصر السلطة الباغية تداهم ذلك الملجأ، وتقتل من تراهم فيه، فانقض الشاب عليهم واستخلص منهم بندقية ثم اشتبك معهم ليشغلهم عن أهله لعلهم يهربون من وجوه السفاحين، وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم استشهد . وفي معتقل البورسلان وقف ضابط طائفي وشتم الرسول عليه السلام وسبّ الله تعالى والإسلام و.. و.. فاستأذنه المواطن عبدالجبار من حي الحاضر في الكلام فأذن له. فتقدم منه عبدالجبار حتى إذا ما صار على مقربة منه لكمه لكمة قوية بجمع يديه على صدغه فأرداه قتيلاً. وكان عبد الجبار ذا جسم قوي، فما كان من صنائع أسد إلا أن يوجهوا إليه نيران رشاشتهم فسقط قتيلاً.

والمجاهد أبو الفداء من حي السوق، وهو شاب حدث لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، اشتبك مع عناصر السلطة في حي الكيلانية، وأصيب بشظية في كتفه الأيمن فبترت يده اليمنى، ومع ذلك أبى إلا أن يستمر في القتال بيده اليسرى، واستشهد تحت أنقاض حي الكيلانية الذي دمره قصف أسد.

هذه البطولات اعترف بها المنصفون وقدروا عظمة المجاهدين والمواطنين الذين أبدوها في جرأة عجيبة، حتى إن أحد الضباط وبّخ أحد عناصره وهو يصفع أحد المجاهدين الأسرى ويشتمه وقال له: إن هذا المجاهد الذي تهينه كان يهجم بالبندقية على الدبابات.

وعندما اشتد القصف على الكيلانية بشكل مكثف ودقيق في اليوم السابع عشر. قال أحد الجنود لسيده: يا سيدي ماذا نفعل؟ ماذا أقصف؟ لم يعد هناك بناء، إنهم يقاوموننا ن بين الأنقاض.

إن أسداً وزبانيته يعلمون حق العلم، أن شعباً هذه بعض مواصفاته لا يمكن له أن يقهر» [1].

انتفاضة حماة كما رآها سيل:

وفي ختام هذا الفصل نقدم وصف أحداث حماة كما يراها باتريك سيل:

«ظلت حماة المدينة المحافظة في سهول سوريا الوسطى زمناً طويلاً خصماً عنيداً للدولة البعثية. وفي مطلع عام ١٩٨٢ كانت العلاقات بينها وبين السلطات في دمشق ملتهبة على أقل تقدير. ذلك أن دمار الوجهاء المحليين وتبادل الارهاب والارهاب المضاد مع التمرد الإسلامي فيها فترة طويلة قد جعل هذه القلعة التقليدية لسلطة ملاك الأراضي والنزعة الأصولية السنية تفقد صبرها.

في الساعة الثانية من ليلة ٢-٣ شباط/ فبراير سنة ١٩٨٢ كانت وحدة من الجيش تقوم بتمشيط المدينة القديمة فوقعت في كمين، وقتل القناصون من على سطوح المنازل حوالي عشرين جندياً. فقد عثر الجنود على وكر القائد المحلي

---

(١) حماة مأساة العصر/٢٨٩-٢٩٦.

للمقاتل (عمر جواد) والمعروف أكثر باسمه الحركي (أبو بكر)، الذي كان مقره في أعماق الأحياء المكتظة بالسكان متصلاً بالراديو مع شبكة من الخلايا، وهرعت قوات الحكومة إلى المكان على الفور. وعند تطويقه من جميع الجوانب أعطى (أبو بكر) الأمر بالقيام بانتفاضة عامة، فاشتعلت الأضواء في مساجد المدينة، وانطلقت نداءات الجهاد ضد البعثيين من مكبرات الصوت المستخدمة في المساجد من أجل الأذان. وعند هذه الإشارة خرج مئات من المقاتلين المسلمين من مخابئهم يقتلون وينهبون ويهاجمون بيوت المسؤولين والقادة الحزبيين، واقتحموا مخافر الشرطة، ونهبوا مخازن السلاح في محاولة للسيطرة على السلطة في المدينة. وكانت الفتيات المظليات عرضة لهجمات المحافظين بشكل خاص، فاغتيلت فتاتان مظليتان في فراشهما على يد مغتالين نزلوا من فوق السطوح.

وحاصرت قوة كبيرة من المقاتلين مسكن المحافظ محمد حربا الرجل المحلي الذي كان قد حصل على دكتوراه في فرنسا لدراسة الزراعة السورية، وكان الأسد قد عينه في منصبه في كانون الثاني/ يناير عام١٩٨٠، وصرح الإرهابيون من خلال مكبرات الصوت طالبين منه أن يخرج ويداه مرفوعتان. ولكنه كغيره من الذين كانوا يقعون إلى جانب الحكومة كان قد كدّس أسلحة وذخائر، وبمعونة أخيه وحراسه الأربعة أبقى المهاجمين بعيداً خمس ساعات إلى أن شقت قوات الأمن طريقها إليه بالقتال. وبحلول صباح الثالث من شباط/ فبراير كان سبعون من كبار البعثيين قد ذبحوا، وأعلن المقاتلون المنتصرون المدينة (محررة). واجتمع المحافظ محمد حربا وأمين فرع الحزب أحمد الأسعد وقادة الجيش والمخابرات وأعضاء القيادة المحلية الذين نجوا من مذبحة الليل، وقد احمرت عيونهم، وحمل كل منهم سلاحه في مقر قيادة الحزب ليحصلوا ما

لديهم، وليقدروا احتمالات وضعهم الميؤوس منه، كانوا يواجهون الانحدار أمام تمرد في المدينة على نطاق واسع لم يحدث من قبل تحت حكم الأسد.

وفي دمشق مرت لحظة سادها شيء يشبه الذعر عندما ثارت حماة، فقد اهتز النظام نفسه، فبعد قتال استمر خمسة أعوام فشل في قمع حركة سرية قتلت زهرة الطبقة المهنية من العلويين ولطخت رئاسة الأسد بتهمة اللاشرعية. ولم يترك الخوف والكراهية ونهر من الدم المسفوك أي مجال لفكرة الهدنة. فحماة كانت معركة أخيرة يجب أن يكسبها أحد الطرفين لأنها بطريقة أو بأخرى ستقرر مصير البلد. وكان كل حزبي، وكل مظلي أرسل إلى حماة يعرف أن التشدد الاسلامي يجب اقتلاعه من المدينة هذه المرة، مهما كان الثمن. إن مثل هذا الفهم للمسألة على أنها كانت الفصل الختامي في صراع طال أمده قد يفيد في توضيح سبب شدة العقاب الذي انزل بالمدينة، فوراء الصراع المباشر، كانت هناك عداوة قديمة متعددة الطبقات بين الاسلام والبعث، وبين السني والعلوي، وبين المدينة والريف.

وظلت معركة حماة مستمرة ثلاثة أسابيع ملحمة ضارية، انقضى الأسبوع الأول منها والحكومة تحاول أن تستعيد السيطرة على البلدة، والأسبوعان الآخران في اصطياد المتمردين، وأرسلت قوات محمولة بالطائرات المروحية لمساعدة الحامية المحلية على إغلاق مداخل المدينة قبل الانقضاض القاتل عليها، وبلغ عدد الذين طوقوا حماة في مجموعهم حوالي ١٢٠٠٠ رجل. ولكن هذه لم تكن عملية عسكرية عادية، كانت أميل إلى الحرب الأهلية يختبر فيها ولاء الجند إلى أبعد مدى، وقد هرب بعضهم لينضم إلى المتمردين.

وعندما أخذ الميزان يميل تدريجياً لصالح الحكومة، تراجع المتمردون إلى الأحياء القديمة ولا سيما حي البارودي والكيلانية التي كانت معاقل هيؤوها

لحصار طويل. وعلى ضفاف العاصي بدأت منازل عائلة الكيلاني القديمة الفخمة تتحطم بنيران القصف، أو تتهاوى بفعل الألغام التي زرعها مهندسو الجيش. ولكن الناس العاديين الذين كانوا يعيشون في المناطق العميقة، في شبكات الدروب والأزقة كانوا هم الضحايا الأساسيين بدون طعام أو ماء ولا وقود في طقس الشتاء القاسي، ودفنوا في الغالب تحت ركام بيوتهم. وبعد القصف الثقيل تحرك رجال الكوماندوس والمسلمون الحزبيون غير النظاميين تدعمهم الدبابات لإخضاع فدادين الأكواخ المبنية من الطين وأغصان الشجر، التي كانت سطوحها المتشابكة وأفنيتها المنبت الذي تربى فيه المقاتلون. وقد قتل عدد كبير من المدنيين في عمليات قمع بقايا المقاومة، ومسحت واستوت بالأرض أحياء بكاملها، وذكرت تقارير أن أعمالاً وحشية متعددة قد ارتكبت، وكثير منها بعد أن استعادت الحكومة السيطرة على البلد، وهرب بعض المقاتلين إلى قنوات تحت الأرض عندما أغلقت دونهم جميع المخارج، ولحقت الأضرار وأعمال النهب بعشرات المساجد والكنائس والأماكن الأثرية التذكارية العريقة بما فيها متحف قصر العظم الشهير الذي يعود إلى القرن الثامن عشر، وخلال شهر من القتال تقريباً دمر ثلث المدينة الداخلية التاريخية.

وتعرضت القوات الحكومية أيضاً لخسائر فادحة على يد القناصين. وأصيب الكثير من العربات المدرعة بالقنابل في الشوارع التي تناثر فيها الحطام المتراكم، غير أن ثمن التمرد قد دفعته حماة بكاملها، فمات كثيرون أثناء عمليات تعقب المسلحين. أما العدد الإجمالي بالضبط فيبقى مجالاً للحدس والتخمين، فالمتعاطون مع الحكومة يقدرونه بثلاثة آلاف، وأما منتقدوها فيقولون إن العدد كان عشرين ألفاً أو يزيد. ومما يجعل التقدير الدقيق عملية صعبة ومعقدة حقيقة أن كثيراً من النساء والأطفال الذين هربوا عبر حزام القوات التي كانت تطوق

المدينة قد حسبوا أول الأمر في عداد الضحايا والمصابين. ولكن مهما كان العدد - والأقرب إلى الحقيقة رقم بين الخمسة آلاف والعشرة آلاف - فإن أثر المعركة كان كبيراً حقاً.

في عام ١٩٦١ أي قبل أحداث حماة بعشرين عاماً توقف في حماة باص يقل عدداً من طلاب جامعة دمشق في رحلة لهم، وأرادوا تناول القهوة، ولكن ذلك المكان الشديد المحافظة لم يرحب بهم، ودفعهم جمهور غاضب إلى العودة لركوب حافلتهم لأن عدداً من الطالبات كن يرتدين (البنطلونات)، وفي عام ١٩٨٢ لم يقتصر قصف المدينة على قتل كثير من الناس، بل انه أخرج منها كذلك التزمت نهائياً، وعند إعادة بناء مجتمعها الممزق، بذل جهد مقصود ليس لإزالة الماضي فحسب، بل لتغيير المواقف. وصرف كثير من الأموال العامة، وأزيحت الأحياء القديمة المتهدمة بالجرافات، وشقت طرق حيث لم تكن السيارات قادرة على المرور من قبل، وأقيمت حدائق وساحات، وأعيد تشكيل وتخطيط حماة كلها على نطاق واسع، مع وجود (دوارات) ومفترقات طرق لخدمة أحياء جديدة تماماً مجهزة بمدارس وعيادات وملاعب وأسواق كبيرة، ومن بين البنايات العامة الكبرى التي أقيمت بعد الهدم مستشفى يتسع لمائتين وخمسين سريراً، ومركز ثقافي ومعهد رياضي للبنات، وكلية لتدريب المعلمين، وسوق مركزية مبنية على الطراز الشرقي، وبنايات لمقرات الفلاحين ونقابتي المعلمين والمهندسين، ومركز رياضي ضخم الحجم جداً، وبركة سباحة حسب المقاييس الأولمبية . وبناء على أوامر الأسد، مولت الدولة بناء مسجدين كبيرين للتعويض عن المساجد التي تهدمت أثناء القتال، وكنيسة كاثوليكية بحجم كاتدرائية. وكان من بين التغييرات الثورية إدخال السباحة المختلطة عام ١٩٨٣، وإقامة أول قسم داخلي جامعي في سورية كلها لإيواء الطلبة ذكوراً وإناثاً،

ودخلت النادي ثمانون فتاة، وفي عام ١٩٨٥ فازت فتيات حماة بالبطولة الوطنية لتنس الطاولة. غير أن ذلك كله لم يمح اسم حماة مركزاً للمذبحة»[1].

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٥٣٧-٥٤١.

الفصل السابع
ذل وركوع أمام اليهود

انتهت معركة الأسد مع الإخوان المسلمين بالانتصار الساحق على المدينة الباسلة، وتدميرها وتسوية أحيائها بالأرض، وذبح عشرات الألوف من أبنائها، وتشريد ما ينوف عن مائة ألف.

وذلك في نيسان/ أبريل ١٩٨٢.

فماذا كان في المعركة مع إسرائيل التي ابتدأت بعد شهرين من معركته مع بني وطنه؟

غزو لبنان ١٩٨٢

سنعرض لهذه المعركة ملخصة بإيجاز كما يسوقها باتريك سيل بالتواريخ والأرقام:

١-**غزو لبنان**: في ٣ من حزيران/ يونيو سنة ١٩٨٢ عندما أطلق مسلحون فلسطينيون النار على السفير الإسرائيلي بلندن - شلومو آغوف - وأصابوه بجراح خطيرة اغتنم بغين وشارون الفرصة وشنا الحرب، ففي يوم الأحد ٦ حزيران/ يونيو ١٩٨٢ اجتاحت القوات البرية الاسرائيلية حدود لبنان، وقام قائد المنطقة الشمالية البرية الإسرائيلي اللواء عمير دروري بزج ٧٦٠٠٠ رجل في المعركة مع ١٢٥٠ دبابة و١٥٠٠ ناقلة جنود مدرعة، مدعومين بالطيران والبحرية. وفي مواجهتهم كانت قوات نظامية سورية وفلسطينية تابعة لجيش التحرير الفلسطيني بقيادة اللواء سعيد بيرقدار تعدادها حوالي ٢٥٠٠٠ رجل و٣٠٠ دبابة و٣٠٠ ناقلة جنود مدرعة، مع حوالي ١٥٠٠٠ فدائي تابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية مع

أسلحة متنوعة بقيادة ما لا يقل عن ثماني منظمات فدائية فلسطينية منفصلة.

٢-**خلال أربعين ساعة** وفي صباح ٨ حزيران/ يونيو كانت القوات الإسرائيلية قد غزت معظم جنوبي لبنان، ودحرت قوات المنظمة، وراحت تتقدم على ثلاثة محاور: على الساحل اللبناني، وفي الشمال الشرقي باتجاه البقاع، وفي الجبال الوسطى. وكان المدنيون الفلسطينيون هدفاً لإسرائيل كمقاتلي منظمة التحرير، ومنذ الخامس من حزيران/ يونيو فصاعداً تعرضت كل المخيمات الكبرى للاجئين في جنوبي لبنان للقصف من البر والجو والبحر بقصد مسحها وتسويتها بالأرض حتى يستحيل السكن فيها بشكل دائم، وفي حرب الإبادة هذه ضد الفلسطينيين تلقى الإسرائيليون تشجيعاً مارونياً حماسياً، فقبل الغزو بعدة اشهر، جرت مناقشات أمريكية- إسرائيلية - مارونية سرية هادئة حول مستقبل لبنان متحرر من الضغط الفلسطيني.

والذي حدث أن أداء الفلسطينيين الأفضل كان في دفاعهم عن مخيمي الرشيدية وعين الحلوة خارج صور وصيدا حيث صمدوا أياماً.

٣-**ثم جاء دور الأسد:**

لم يكن الأسد يتوقع أو يريد أن يقاتل في لبنان، وكان يدرك أن إسرائيل تخطط لضربه منذ الربيع السابق، غير أن أزمة الصواريخ عام ١٩٨١ أحدثت ثقوباً في الاتفاقية، وعندما استند على معاهدته مع موسكو وتحالفه مع إيران، والاندحار النهائي للإخوان المسلمين في حماة في شباط/ فبراير ١٩٨٢ خرج من أعماق الهاوية، وأصبح مستعداً للوقوف على قدميه. وفي نيسان/ أبريل وأيار/ مايو حاول أن يتحدى تفوق إسرائيل الجوي فخسر أربع طائرات ميغ في العملية، ولكنه لم يكن مستعداً لقتال شامل، وكان توزع قواته في لبنان متواضعاً ودفاعياً.

٤-**لقد قبل الأسد ابتداء** أن تجتاح لبنان وتحتل، على أن يقف متفرجاً على

هذا الاجتياح.

«وطلبت إسرائيل في الخامس من حزيران/ يونيو من الولايات المتحدة بأن تخبر الأسد بأن وحداته في لبنان لن تتعرض للهجوم إلا اذا هاجمت أولاً. ووجه بيغن نداء عاطفياً شخصياً إلى الأسد من الكنيست: «إننا لا نريد حرباً مع سورية، ومن على هذه المنصة أدعو الرئيس الأسد إلى أن يأمر الجيش السوري بأن لا يهاجم الجنود الإسرائيليين، وفي هذه الحالة لن يلحق بالسوريين أي أذى على الاطلاق. إننا نريد شيئاً واحداً فقط، هو أن لا تهاجم مستوطناتنا من الجليل، فإذا دفعنا الخط إلى الوراء لمسافة أربعين كيلومتراً عن حدودنا، فسوف تنتهي مهمتنا، ويتوقف القتال كليا»».

وفي ٧ حزيران/ يونيو هوجمت محطتا رادار سوريتان في مطار الرياق وفي الدامور، وحتى عندما كان بيغن يتكلم كانت قوات إسرائيلية ضخمة تتحرك لتطويق الدفاعات السورية من المحينات، وكانت مجموعة منتقاة من نخبة الدروع والمشاة تشق طريقها إلى جبال الشوف لتطويق المواقع الإسرائيلية في جزين قبل أن تتجه شمالاً، والى الشرق كانت قوة من ٣٥٠٠٠ جندي و٨٠٠ دبابة تسمى مجموعة قوات البقاع بإمرة اللواء آفيغدور بن غال (الذي أوقف الهجوم السوري على الجولان في حرب ١٩٧٣)، ومهمتها الاستيلاء على وادي البقاع، والتقدم نحو طريق بيروت - دمشق، الحبل السري الذي يربط سورية بلبنان، فالتعامل مع الفلسطينيين وحدهم لم يكن يستدعي نشر سبع فرق ميكانيكية مدرعة، وعدة ألوية مستقلة، وغيرها من الوحدات المتخصصة.

ومن الناحية التكتيكية كانت هيئة الأركان الإسرائيلية ترغب في إبقاء سورية خارج المعركة خلال الساعات الاثنتين والسبعين الأولى ريثما يتم تحطيم منظمة التحرير الفلسطينية، ولكن دحر الفلسطينيين لم يكن ببساطة سوى تمهيد لبدء

العمل ضد سورية..»[1]

٥-**تحطيم الصواريخ السورية**: لقد كان الأسد عميلاً عريقاً في حسن تنفيذه لطلبات إسرائيل، فلم يقف متفرجاً فقط أمام الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ولم يقف متفرجا فقط أمام دحر الفلسطينيين، بل بقي متفرجاً ينفذ المخططات الإسرائيلية كاملة، في تدمير أضخم أسلحته الصاروخية التي عوى بها وهدد وعربد وتوعد، ثم قدمها لقمة سائغة للطيران الإسرائيلي.

و«ابتلع الأسد جزءاً من طعم شارون، وأدخل تعزيزات من الجولان، وأضاف ثلاث بطاريات (سام) إلى الستة عشرة التي كانت موجودة أصلاً في البقاع، وهكذا تهيأ مسرح الأحداث ليوم حرج في المواجهة الإسرائيلية، هو التاسع من حزيران/ يونيو، وكان هجوم إسرائيل في ذلك اليوم سياسياً وعسكرياً معاً، فطلب بيغن من فيليب حبيب (الذي كان ريغان قد أوفده للمنطقة على عجل لتبريد الأمور) أن يحمل إلى الأسد إنذاراً مؤداه أن إسرائيل لن تهاجم القوات السورية، ولكن الأسد يجب أن يزيل صواريخه من لبنان، ويسحب جميع الوحدات الفلسطينية إلى بعد أربعين كيلومتر من حدود إسرائيل، وتلك شروط مهينة ومستحيلة، وقد أوصلها حبيب لوزير الخارجية عبدالحليم خدام في صباح ٩ حزيران/ يونيو. ولكن بينما كان حبيب ينتظر مقابلة الأسد بعيد الظهر هوجمت شبكة الصواريخ (سام) كلها في البقاع، فلقد كانت مهمة حبيب خدعة.

وحصل السوريون على دقائق قليلة للإنذار بالهجوم عندما سجلت راداراتهم تشكيلات كبيرة من الطائرات الإسرائيلية تتجمع غرباً، غير أن الإجراءات الألكترونية المضادة عطلت الرادارات بشكل يكاد يكون فورياً، ثم تعرضت

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٦١٦.

مواقع (سام) لهجوم شديد بقذائف جو- أرض وأرض - أرض بالتنسيق مع مدفعية بعيدة المدى، وبثت طائرات استطلاع بلا طيار صور الدمار الذي حدث. وعندما أطبقت على المواقع موجات من (الفانتوم والسكاي هوك والكفير) ترافقها (إيفلزف ١٥) و(فالكون ف-١٦) يوجهها طائرة رقابة وسيطرة من نوع (هوك أي) لتكمل عملية التدمير بعبوات شديدة الانفجار وقنابل انشطارية، وقد وقع مزيد من الغارات الجوية الإسرائيلية ضد صواريخ سورية في لبنان في شهري تموز/ يوليو وآب/ أغسطس، وخلال سبع غارات دمّر الطيران الإسرائيلي سبعاً وعشرين بطارية سام وأعطب أربعاً أخرى.

كانت إسرائيل متفوقة على الأسد تماماً، فطائراته السوفيتية لم تكن لتضاهي الـ(ف-١٥) و(ف-١٦)، ناهيك بصواريخها المنطلقة من الجو إلى الجو، ولم يكن لدى الأسد أجهزة سوفياتية للإنذار المبكر أو أجهزة ألكترونية محمولة جواً لتضارع ما هو موجود لدى إسرائيل في طائرات (هوك آي - عين الصقر) والبوينغ ٧٠٧، غير أنه عرف في ٩ حزيران/ يونيو أن عليه أن يكسر الاندفاع الإسرائيلي بأي ثمن إذا كان يريد الحفاظ على مركزه في لبنان وحمايته من الانهيار ككومة من الورق. فأرسل طائرات اعتراضية في محاولة يائسة لايقاف الطائراتالإسرائيلية المغيرة، وكانت المعارك التي نجمت عن ذلك بين سبعين طائرة سورية ومئة طائرة إسرائيلية نفاثة تفوق سرعتها سرعة الصوت أضخم معارك الحرب الحديثة. وأسقطت تسع وعشرون طائرة سورية دون أن تفقد إسرائيل طائرة واحدة. وفي ظروف إستراتيجية وتكتيكية لم تكن في صالح سورية، ورغم الخسائر الكاسحة في ٩ حزيران/ يونيو، عاد سلاح الجو السوري إلى المعركة بكثافة في اليوم التالي مباشرة، فخسر خمساً وثلاثين طائرة، وأعلن وزير دفاع سورية فيما بعد بأن (النتائج المشرفة التي تحققت قد تطلبت تضحيات

جسيمة)[1].

ويحاول باتريك سيل تغطية هزيمة الأسد ويعيدها إلى تفوق السلاح الإسرائيلي على السلاح السوري، ولكنها محاولة واهية يعرفها سيل نفسه. فكيف تدمّر الصواريخ كلها، وتدمّر خمس وستون طائرة دون أن تسقط طائرة واحدة للعدو الإسرائيلي، وأي (نتائج مشرفة) هذه حققها الجيش السوري النصيري الأسدي وأي (أضخم معارك الحرب الحديثة) تنتهي بهذه النتائج المذلّة؟

«كان مجمع صواريخ البقاع أهم وأعلى رمز للتواجد السوري في لبنان، وليصمم الأسد على ايقاف بيغن عند حده، وبمهاجمته كان بيغن يصفي حساباً سياسياً، وبما أنه حصل في الوقت نفسه على تفوق جوي كلي ترك السوريين عراة، فقد تمكن من إطلاق قواته البرية في ثمانية طوابير لتصعد في وادي البقاع وسلاسل الجبال المحيطة به، وبذلك تهدد وتحتوي خط الدفاع السوري الأساسي من بحيرة قارون إلى راشيا، ولم يعد هناك أي تظاهر إسرائيلي بتجنب القتال مع السوريين، ولا مكان للشك في ذهن الأسد بأن إسرائيل تريد تدميره. وأصبح السؤال الذي يراوده: هل تندفع جيوش شارون إلى الأمام إلى طريق بيروت - دمشق لتعزل القوات السورية في بيروت والجبال، أم تستدير شرقاً لتهدد دمشق نفسها؟

ومثلما كان مضطراً لكبح الهجوم الإسرائيلي ولو على حساب خسارة عشرات الطائرات والطيارين، فقد كان على الأسد بعد أن أصبحت مصالحه الأمنية الحيوية في الميزان أن يقف ويقاتل.

ولقد كانت المعارك البرية في تلك الأيام تمثل أحرج ساعات حياة الجيش

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٦٢٠.

السوري، فرغم أنه كان بلا غطاء جوي، يواجه قوات تفوقه عدة وعدداً، فقد استطاع أن يوقف التقدم الاسرائيلي، ويقيم مواقع دفاعية. وخلال أربعة أيام من القتال الشامل الذي استعمل فيه أعدادا قليلة من الدبابات وفرقاً مضادة للدبابات، ووحدات من الكوماندوس، استطاع أن يتراجع بانتظام جيد. وأن يرغم إسرائيل على دفع ثمن كل متر كسبته عن طريق إيقاعها في كمائن. وبذلك حرم القيادة الإسرائيلية العليا من تحقيق النجاح السريع الذي كانت تأمل فيه وكأنه (عملية جراحية نظيفة)، وفي ١٠ حزيران/ يونيو قامت الفرقة السورية المدرعة الثانية مسلحة بدبابات ت-٧٢ كانت قد وصلت حديثاً بخوض معركة مع لواء إسرائيلي مدرع في منطقة راشيا. فأرغمت الإسرائيليين على التراجع عدة كيلومترات، ودمرت ثلاثاً وثلاثين دبابة، وأسرت بضع دبابات صالحة من طراز م-٦٠ الأمريكية الصنع. فنقلت واحدة منها إلى دمشق وأرسلت على الفور إلى موسكو بالطائرة» [١].

احتلال بيروت:

لقد بدأت مفاوضات وقف إطلاق النار على يد فيليب حبيب المبعوث الأمريكي. لقد كان النصارى من الكتائب والنصيريون بزعامة حافظ أسد يفسحون المجال لاحتلال بيروت من اليهود، وكان دور أمريكا الصليبي تغطية هذا الاحتلال. وفي الوقت الذي وضع بيغن شروطه لوقف إطلاق النار وهي «يجب على جميع الفلسطينيين مغادرة حزام الأربعين كيلومتراً، ويجب سحب التعزيزات السورية من البقاع، ولكن إسرائيل لن تتزحزح قبل أن يتم الاتفاق على

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٦٢٠.

ترتيبات أمنية لحدودها الشمالية».

أما حافظ أسد الملتزم المنضبط بأوامر أمريكا فقد نفذ الشروط وأوقف إطلاق النار وسحب تعزيزاته، بينما «قامت القوات الإسرائيلية يدعمها قصف مدفعي من البر والبحر وغارات جوية بالهجوم على المواقع السورية والفلسطينية في ضواحي بيروت، وعلى التلال المطلة على العاصمة. وبحلول الثالث عشر من حزيران/ يونيو اتصل المظليون الإسرائيليون بميليشيات بشير الجميّل فأقاموا حاجزاً حول بيروت الغربية، وبذلك حصروا ١٤٠٠٠ جندي سوري وفلسطيني في منطقة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ألفين وخمسمائة كيلو متر مربع. وبعد أسبوع في ٢٢ حزيران/ يونيو خرقت إسرائيل وقف إطلاق النار بفظاظة بهجوم واسع النطاق على الوحدات السورية المدافعة عن طريق بيروت - دمشق إلى الشرق من المدينة، وخلال ثلاثة أيام من القتال العنيف تراجع السوريون خمسة عشر كيلومتراً عن الطريق. وبذلك حرم الأسد من أي تأثير في المعركة من أجل العاصمة اللبنانية، وفي مساء ٢٥ حزيران/ يونيو تم التفاوض على وقف جديد لإطلاق النار.

ولعدة أسابيع كالحة كئيبة تناقص دور الأسد حتى لم يعد يزيد على متفرج، بينما أصبح عرفات المحصور في بيروت الغربية محط أنظار العالم. وبالنسبة لرجل كالأسد كرّس حياته كلها لجعل سورية من المشاركين المركزيين في دراما الشرق الأوسط كان من المحرج والمهين أن يرغم على الجلوس جانباً بينما إسرائيل تهاجم عاصمة بلد عربي على مرمى حجر منه. ففي قبوله لهدنة ١١ حزيران/ يونيو لم يستشر الفلسطينيين، وأصبح بعدئذ متهماً بأنه تخلي عنهم. وبرغم كل تضحيات الجيش وسلاح الجو السوريين أخذ الأسد يواجه التهمة الجارحة بأنه لم يقاتل، وكانت اتهامات عرفات في هذا الحساب شيئاً لم يستطع

الأسد أن يغفره، وبما أنه كان قد أبعد عن ضواحي المدينة فإنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً لتخفيف كربة وآلام سكانها، أو حتى لينقذ رجاله المحصورين في المدينة. وقد أبلى العميد محمد حلال المحارب القديم من أيام حرب تشرين سنة ١٩٧٣ والذي كان يقود اللواء السوري في بيروت بلاء حسناً في الدفاع عن المدينة بصلابة، وفيما كانت نوبات القصف كان الإسرائيليون يلقون بالمنشور على مواقعه ويقولون فيها: يا عميد حلال نحن نعرف أنك هنا. انج بنفسك».

لكن الأوامر من دمشق كانت أن يقاتل حتى آخر رجل.

وخلال مهمة حبيب التي استغرقت الصيف بطوله ظل شارون يقصف بلا رحمة موجهاً نيرانه إلى ضواحي بيروت الجنوبية المزدحمة التي كانت فيها قوات سورية وفلسطينية، فحاصرها وقطع عنها الماء والكهرباء والغذاء. وجاءت الهجمات الاسرائيلية على المدينة في ثلاث موجات متعاقبة تقريباً: سد من نيران المدفعية ظل ينصب من ١٣ إلى ٢٥ حزيران/ يونيو، وغارات جوية من ٥ إلى ١٢ تموز/ يوليو، وأخيراً قصف أكثر فتكاً وقتلاً من ٢٢ تموز إلى ١٢ آب/ أغسطس من البحر والبر والجو جميعاً، وبدا أن الموجتين الأوليتين قد صممتا للحصول على استسلام المنظمة بلا قيد ولا شرط، وعندما فشلتا جاءت الموجة الثالثة لتضيف الخطر الإسرائيلي إلى مفاوضات حبيب من أجل إرغام الفلسطينيين على الخروج. واستخدمت إسرائيل القنابل الارتجاجية لهدم عمارات بكاملها والقذائف الفوسفورية وشديدة الانفجار، وفيما لا يقل عن ستة عشر موضعاً في بيروت الغربية استخدمت القنابل العنقودية الأمريكية الصنع، وخلال الحملة القصيرة من ٥ تموز/ أغسطس قتل عدد يتراوح بين ١٧.٠٠٠ و١٩.٠٠٠ لبناني وفلسطيني، وجرح عدد آخر يتراوح ما بين ٣٠.٠٠٠ و٤٠.٠٠٠ شخص.

ولكن وحشية شارون التي لا مبرر لها - كما في القصف الذي استغرق

احدى عشرة ساعة بلا انقطاع في يوم ١٢ آب/ اغسطس، وبعد أن وافقت المنظمة على الخروج - كانت تشير إلى توقه الشديد لحلول أخرى أكثر جذرية. ذلك أن ما تصوره ورسمه مع بشير الجميل لم يكن هو الانسحاب المنظم لمقاتلي منظمة التحرير ورؤوسهم مرفوعة عالياً بسبب وقفتهم البطولية، بل كانا يريدان اقتلاعاً للوجود الفلسطيني برمته ومسحاً للمخيمات بالأرض، وطرداً بالقوة لمائتي ألف أو ثلاثمائة الف شخص.

وفي هذه الأثناء كان حبيب قد استطاع أن يدبر حلاً لمشكلة الفلسطينيين والسوريين المحاصرين، وتم ترتيب خطة إجلاء في ١٩ آب/ اغسطس بالاتصال مع الجيش الإسرائيلي ومع عرفات والأسد وزعماء آخرين، وظهر أن شارون قد كسب الجولة، شارون العسكري الإسرائيلي المتبلد الاحساس، القومي المتطرف قائد المائة العتيق للوحدة ١٠١، لأنه بحلول الأول من سبتمبر كان المقاتلون السوريون والفلسطينيون قد أخلوا بيروت أكثر من ١٤٠٠٠ شخص، منهم ١٠٨٠٠ مقاتل فلسطيني و٦٤٤ امرأة وطفل من الفلسطينيين و٣٦٠٠ جندي سوري، وتحت إشراف قوات متعددة الجنسيات غادر مقاتلو منظمة التحرير عن طريق البحر، بينما تحرك السوريون ووحدات جيش التحرير الفلسطيني المتحالفة معهم شرقاً على طريق بيروت - دمشق.

وكان الأسد يراقب بيروت بكآبة وهي تنسل من قبضته، فأخذ يكافح لإنقاذ شيء ما من ذلك الركام. فلقد فشل في منع انتخاب بشير الجميل، لأن جهوده غير المثمرة لتأمين مقاطعة الانتخاب ولتخويف النواب ولتجميع تحالف مضاد لبشير لم تؤد إلا إلى إبراز تضاؤل نفوذه. كان يعرف أن وقوع بيروت تحت سيطرة إسرائيل ولو من خلال عميل لها سيشكل تهديداً له في نفس خطورة محاولة شارون إزاحته من البقاع... ودعا بشير نفسه إلى انسحاب الجيوش

الاجنبية السورية والإسرائيلية والفلسطينية. ولقد كان الجزء الأخير من صيف عام ١٩٨٢ نقطة منخفضة في حظوظ الأسد وأقداره، فقد كان مركزه بأجمعه معرضاً للخطر على الصعيدين المحلي والإقليمي».

مقتل بشير الجميل ومجازر صبرا وشاتيلا:

«ثم وقعت حادثة كانت لمصلحته إلى حد كبير، ففي ١٤ أيلول/ سبتمبر حدث انفجار هائل في مقر القيادة المحلي لحزب الكتائب في شرق بيروت أدى إلى مصرع بشير الجميل مع ثلاثين من أتباعه، وبعد ذلك بوقت قصير قبضت القوات اللبنانية على الرجل الذي زرع القنبلة، وهو حبيب طانيوس شرتوني، وتعرف الكتائبيون على كون الشرتوني عضواً سرياً في الحزب القومي السوري الاجتماعي الملتزم عقائدياً مع دمشق، وأحد أصلب حلفاء الأسد في مقاومة أطماع إسرائيل.

وأدى مقتل بشير إلى مذابح انتقامية فظيعة راح ضحيتها المدنيون الفلسطينيون في مخيمات صبرا وشاتيلا للاجئين، ونظمها إيلي حبيقة مدرب مخابرات بشير بالتواطؤ مع الإسرائيليين ففي غضون ساعات من موت بشير ونقضاً لاتفاقية فيليب حبيب أمر شارون «جيش الدفاع الاسرائيلي» في ١٥ أيلول، سبتمبر بدخول بيروت الغربية التي أصبحت بكاملها في قبضة الإسرائيليين في صبيحة أيلول، ولا شك أن شارون قد وجد فرصة في جعل الكتائبيين يفعلون ما ظل بشير يرفضه طويلا،. فقد كانوا متحرقين للانتقام لزعيمهم، وذلك بتنظيف بيروت الغربية من الفلسطينيين. ولتعزيز مثل هذه الفعلة ادعى شارون علناً بأن عرفات قد ترك وراءه ألفي مقاتل فلسطيني مختبئين في صبرا وشاتيلا. وفي الساعة السادسة من مساء ١٦ أيلول/ سبتمبر أعطي اللواء عمير دروري قائد

المنطقة الشمالية إذناً لقوات الأمن التابعة لحبيقة بدخول المخيمات بحثاً عن الألفي مقاتل المزعومين. وبدأت مذبحة الفلسطينيين المدنيين بالحال. واستمرت طيلة تلك الليلة وطيلة النهار التالي والليل الذي تلاه، ولم تتوقف إلا في الساعة الثامنة من صباح ١٨ أيلول/ سبتمبر، وهكذا تم ذبح حوالي ألف رجل وامرأة وطفل طوال تلك الساعات الأربعين. كانت القوات الإسرائيلية تطوق المخيمين وتعزلهما وتطلق أضواء ساطعة لتنيرهما أمام القتلة الكتائبيين في الداخل، وكان حبيب عندما أجلى المقاتلين الفلسطينيين قد ترك عيالهم بلا دفاع».

«كانت حروب لبنان أشد حروب الأسد مرارة، فلم يسبق له أن شعر بالعزلة والتعرض للافتراء كما حدث له في خريف عام ١٩٨٢، فقد أدت اثنتا عشرة سنة من الجهد والمخاطرة إلى هذه النتيجة: جيوش إسرائيلية لا تبعد عن عاصمته سوى ثمانية وعشرين كيلومتراً، تفرض نظاماً جديداً على لبنان يترك أمنه ومركزه الإقليمي مهلهلين. فبعد الاندحار العسكري الذي مني به، كانت دعوته للصمود ضد إسرائيل والتي طالما استعملها الآخرون تبدو جوفاء. وطموحه الذي كان يتبجح به لتحقيق التوازن يبدو غير واقعي أكثر من أي وقت مضى. ولقد عرف الشدائد في المعارك من قبل، ولكنه لم يعرف مثل هذا الألم... فكانت خسائر الأسد فادحة: ١٢٠٠ قتيل و٣٠٠٠ جريح و٢٩٦ أسيراً. وتدمير أكثر من ٣٠٠ و١٤٠٠ ناقلة جنود مدرعة و٨٠ قطعة مدفعية. وقد تحطمت بطاريات صواريخه من نوع سام، وأسقطت له ٧٦ طائرة وست مروحيات. وأخطر من هذا كله أنه فقد ٦٠ طياراً. وبالمقابل اعترفت إسرائيل بفقدان سكاي هوك واحدة أسقطها صاروخ فلسطيني في اليوم الأول للحرب، وطائرة فانتوم استطلاعية أسقطها صاروخ سوري في ١١ تموز/ يوليو، ولم يجد عزاء في أن التقديرات الأمريكية الرسمية لخسائر جيش الدفاع الإسرائيلي كانت أعلى قليلاً ربما في حدود ١١-

١٢ طائرة و٣ مروحيات.

وكان معظم شقاء الأسد من البيئة العربية، فالفلسطينيون سموا حلفاءه لم يكونوا قادرين على مساعدته كما لم يكن هو قادر على مساعدتهم، أما باقي العالم العربي الذي وقف بلا حول ولا قوة أمام الهجوم الإسرائيلي الصاعق فلم يقدم له سوى السخرية، فقد كان أعداؤه العرب «يشتمون ويتآمرون» كما وصفهم، ويسعون لاستغلال مصاعبه، فمبارك في مصر كان يتهمه بعقد صفقة سرية مع بيغن لاقتسام لبنان، وينكر أن تكون هناك أية معركة قد جرت للسيطرة على البقاع. وصدام حسين في العراق كان يتهمه بتواطؤ خياني مع إسرائيل، وحسين في الأردن يدينه بـ (تصفية القضية الفلسطينية)، وحتى صديقه القذافي انتقد قبوله لوقف اطلاق النار، ولم يمد له أحد يد الصداقة سوى حلفائه الجدد الإيرانيين. فرغم أنهم كانوا في ضغط شديد في حربهم مع العراق فقد أرسلوا ٥٠٠ متطوع للقتال إلى جانب قواته في البقاع»[١].

٥ حزيران جديدة:

إننا أمام خيانة جديدة كررت خيانة الجولان في حزيران عام ١٩٦٧، والتي أصدرت الأوامر بالانسحاب من القنيطرة قبل احتلالها. وفتحت الطريق أمام القوات الإسرائيلية للاحتلال دون حرب، وبعد خمسة عشر عاماً وفي حزيران. نفذت الخيانة الجديدة، حيث تراجعت القوات السورية أمام القوات الإسرائيلية، وتركت إسرائيل تنقض على الفلسطينيين واللبنانيين ذبحاً حصاراً وإبادة وتشريداً. وتم احتلال عاصمة دولة عربية لأول مرة في تاريخ الحروب مع إسرائيل. وحافظ

---

(١) الأسد، لباتريك سيل، مقتطفات من ٦٢٥-٦٤٢.

أسد يطلق التصريحات والتهديدات. ويترك العدو يعربد كما يشاء.. حتى قواته داخل بيروت يتركها تستسلم للعدو. ومن المستحيل في مفهوم الحرب أن تنتهي هذه المعارك بهذه النتائج، فهو الذي يزعم الدفاع عن لبنان، لقد دخلها نصراً للكتائب ودحراً للفلسطينيين والقوات الوطنية عام ١٩٧٦. وأصبح صاحب القوة الوحيدة في لبنان، والنائب عن العرب في حماية عروبتها، وشهدنا بلسان سيل المعارك الوهمية التي تمت بين السوريين والإسرائيلين. وسيل يقدم الوثائق التي تدمغ النظام النصيري بالخيانة، ويقدم المعلومات الوفيرة الكافية بذلك. لكنه يعود بعد كل هذه المعلومات والوثائق ليغطي هذه الخيانة وهذه الفضائح بتحليلات يعرض فيها وجهة نظر الأسد.

إننا أمام جريمة تاريخية تمت للنظام النصيري، فسح المجال لإسرائيل باحتلال العاصمة وحصار المقاتلين الفلسطينيين على يد النصارى واليهود، لماذا؟ انتقاماً لبشير الجميل. وبدل أن يكون الانتقام من النصيريين الذين كانوا - كما يزعم سيل- وراء مقتل بشير راحوا يذبحون الشعب الفلسطيني الآمن نساءه وشيوخه وأطفاله داخل مخيماته. وسورية على مقربة كيلو مترات منهم.

وكما تم تسليم الجولان في حزيران ٦٧، تم تسليم لبنان في حزيران ٨٢. ونضع في نهاية هذا البحث شهادات الشهود لمذبحة صبرا وشاتيلا من قبل الكتائب الذين دخل الأسد لإنقاذهم ونصرتهم عام ١٩٧٦ ضد الفلسطينيين والقوات الوطنية اللبنانية.

«الشاهد الأول: سلمان الخليل المسؤول عن دفن الموتى قرب صبرا وشاتيلا. قال سلمان: وقعت المجازر يوم الأربعاء، وفي المساء أخذت الجرافات تدفن الضحايا بدون صلاة ولا تكفين ولا غسل، المدفن جماعي، ولم يعرف أحد أي شيء عن الجثث، لم يتعرف يومها أحد على جثة. كان قسم منهم لونه أسود

وقسم آخر منفوخ بفعل الشمس. كان الآباء والأمهات يأتون إلي بصور أبنائهم وذويهم كي أتعرف عليهم. لكني لم أكن أفلح في ذلك.

دفنت في يوم واحد عدداً إجمالياً ١١٣ جثة في سبعة خلجان حفرتها الجرافات. وفي احدى المرات كان شاهداً على الدفن السفير الفرنسي، وكان حاضراً أيضاً الصليب الأحمر والجيش اللبناني والدفاع المدني وكشافة الرسالة والمقاصد. كان السفير الفرنسي يبكي، رأيته يبكي بعيني، كنت في حالة صعبة كالضائع أذهلني المنظر. وعندما دخلت إلى المخيم (رأيت اللحم ملزقاً على الحيطان)، وتستطيع أن تقول كل أساليب القتل قد استعملت الساطور، البارودة، الرصاص، العصي، كاتم الصوت. هناك مساحة لاحظتها وهي عبارة عن ٢٠٠م فيها كثافة دماء حوالي ٢مم - ٣مم مع آثار شعر وأحذية، قيل لي إنه في هذه المساحة قد تجمعت حوالي ٤٠ جثة نقلت جميعها قبل يوم واحد بالجرافات.

يوم الإثنين التالي والأيام اللاحقة للمجزرة كنت أصلي على الجنازات من الساعة الرابعة صباحاً وحتى السادسة مساء... وكان عمق الخليج الذي نحفره مترين ونصف المتر، وطوله حوالي ثلاثين قدماً. وكنا نضع كل خمسة جثث فوق بعضها البعض، ونرمي فوقها الكلس والتراب خوفاً من انتشار الروائح المنبثعة منها، ووضعنا أيضا الأطراف المقطعة من الجثث. أما الأسماء فانها كانت موجودة مع الصليب الأحمر، ولم تنشرها الصحف لأن الصليب الأحمر كان يخشى من إثارة الرأي العام.

لقد صليت وحدي على ٦٠٠ جثة، وهناك ألفا جثة دفنتها الجرافات دون أن أصلي عليها. والجثث المدفونة جماعياً موجودة في مقبرة على مدخل شاتيلا مسورة. ومساحة المكان تبلغ ما يقارب ١٥٠٠م٢. لقد كان عدد الرجال أكثر من عدد النساء، وكان بين الضحايا من كان عمره ٩٠ سنة، وما زالت صورته حتى

الآن في ذهني، كانت ذقنه طويلة، ومن بين الذين دفناهم أطفال أعمارهم بين ٦-٧ سنوات ونساء من مختلف الأعمار، كانوا يقتلون كل شيء يتحرك قدامهم.

الشاهد الثاني: فاطمة، عمرها ٣٠ سنة. فقدت في المجزرة أهلها.

-أين كنت عندما وقعت المجزرة؟

-بالقرب من المدينة الرياضية، رأيتهم بعيني ينزلون، كانوا مثل الجيش اللبناني، وكانت إسرائيل وراءهم، على زنودهم شارة الكتائب اللبنانية. كانوا شباباً تتراوح أعمارهم بين ٢٧-٢٠-٢٥-٣٠ سنة.

تكمل روايتها: بعد قليل تفاقمت الضجة وخرجنا تحت الرصاص، وتركت منزلي وفيه أغراض بـ ١٥ ألف ليرة كلها راحت، صاروا يضربون علينا (هاون) صغير، وأنا لا أخاف من الهاون. انبطحنا على الأرض فأصيب زوجي بشظايا الحجارة، فحملته على ظهري وركضت صوب مستشفى غزة، وبقيت معه في المستشفى، هناك بدأت أفواج الجرحى تتوافد، ورأيت ولداً صغيراً جسمه مليء بالشظايا وغيره كثيرين، خفت على أولادي، فعدت إلى المنزل وما أن وصلت حتى أطلقوا النار عليّ فلم أصب، لكنني سرعان ما غادرت البيت إلى (زاروبة) مجاورة صوب منزل أهلي، فوجدتهم كلهم مقتولين، وجيران أهلي، وغيرهم كثيرين، امرأة حامل فتحوا بطنها، وامرأة أخرى في شهرها الرابع قتلوها على باب الملجأ. ناس لبنانيين حاملين أعلام بيض قتلوهم. نسوان إخوتي قتلوهم. أخي الكبير كان يحمل القتلى والجرحى ويساعد الناس قتلوه، أمي كانت تحمل ٧٨ ألف ليرة قتلوها، نسوان قطعوا لهم أياديهم من أجل أساور الذهب وقتلوهم، كانوا مخدرين يأخذون إبر مورفين في عروقهم.

الشاهد الثالث والرابع: حنان الخطيب، عمرها ١٨ سنة لبنانية تتحدث عن اعتقالها فتقول:

كان عددنا حوالي ٢٠ بنتاً وولداً وشاباً واحداً عمره حوالي ١٦ سنة. نقلونا إلى المنطقة الشرقية بواسطة كميون شحن صغير. وكانوا قد استبقوا الرجال في الملجأ. تجولوا بنا في المنطقة الشرقية كلها ونزلونا في مكان لا أعرف لمن (المكان في بكفيا) كانوا يومها في حالة حداد ويقفون على الشرفات ينظرون إلينا. بعد قليل تقدم أحد الضباط الموجودين هناك وسأل المسلحين (شو جايبين معكم. كلهم نسوان؟) فأجابه مسلح: معنا شاب عمره حوالي ١٦ سنة، ودفعه إلى الضابط الذي خبطه بالأرض ثم حمله إلى مكان لا ندري أين هو، وعاد إلى المسلحين وقال لهم: أرسلوا النساء، هاتوا رجال.

وتمضي حنان في الحديث عما شاهدته:

في اليوم التالي وكان نهار الجمعة الساعة الرابعة أطلقوا سراحنا، فذهبت إلى مستشفى عكا، فلم أجد أحداً. كنت أبحث عن أبي فقيل لي: يمكن أن يكون مع الأسرى في الرملة البيضاء، قصدت المكان فلم أجده. عدت إلى المخيم فلم أجد قتلى أو جرحى، وصلت إلى الحرش فوجدت ٢٥ شخصاً مكومين فوق بعضهم بدون رؤوس. عدت إلى البيت فوجدت أبي مقتولاً ورأسه على الحجر، وعلى جسمه غطاء أبيض. بعد ذلك جمعت أغراضي من ذهب ومصاري، وقصدت النبيري، وبقيت حتى يوم الأحد واهتميت بدفن والدي.

الشاهد السادس: يتيم صبرا، كريم عبد يوسف فتى في الحادية عشرة من عمره. فقد عائلته خلال المجازر، يتحدث عما لقي من مصائب فيقول: اعتقلوا معي حوالي ١٠٠ شخص معظمهم أولاد صغار. بعد قليل طلبوا منا نركض بالملعب، بقينا في الملعب طيلة النهار والليل، وفي صباح اليوم التالي أفرجوا عنا وقالوا: فليذهب كل شخص إلى منزله، توجهت إلى بيتنا فوجدت أبي مذبوحاً ومربوطاً بالحبال (هنا أجهش كريم بالبكاء) عندما رأيت والدي ضاع عقلي، لم

أعد أعرف ماذا أفعل. تذكرت والدتي وإخوتي، بحثت عنهم فلم أجدهم. هنا تصاعد إطلاق الرصاص فهربت، وعلى الطريق صادفت اثنين (اختيارية) - أي كبار السن - ذهبت معهما إلى أحد المنازل وهناك أيضاً طوقنا الكتائب وأطلقوا علينا الرصاص، لكننا استسلمنا لهم بعد أن رفعنا خرقة بيضاء، فأخذونا إلى مركز تجمع الإسرائيليين، لكن هؤلاء رفضوا استلامنا فأعادونا إلى صبرا.

-هل عثرت على أمك وأخوتك؟

-نعم. كانوا مقتولين (وما شفتهم كيف قتلوا) لكن أخبرني الناس، في تلك اللحظة أصبت بالجنون، مات أبي وأمي وإخوتي. تأثرت كثيراً خصوصاً على موت أخواتي. بحثت عن إخوتي الشباب فعثرت على أحدهم وكان مشطوباً بالبلطة - أي الفأس - على رأسه. وأخي الثاني كان وجهه مهشماً من الضرب. أخي الثالث سمير لم يمت بل خطف. هكذا قيل لي. وهو الآن مفقود ولا أعرف مصيره، دفن أهلي دون أن أراهم، والآن الجميع مدفونين في مكان قريب من مدخل شاتيلا، زرتهم يوم العيد.

-والآن ماذا تفعل، هل تشتغل؟

-أريد أن أشتغل على (طنبر الكاز) أبيع الكاز.

-أين نمت وأين تنام في هذه الأيام؟

-كنت أنام في كل منزل يستقبلني، وأقول يا رب ساعدني. نمت في مداخل البيانات في كوخ على حصيرة صغيرة. هذا هو مصير الطفل الذي يفقد أهله.

-هل أنت مرتاح الآن؟

-لا، لست مرتاحاً لأنني بلا أهل، زهقت حياتي، لا أحد يرعاني ويهتم بي. إذا أوجدت أخي المفقود يمكن أن يتغير مجرى حياتي، وتصبح أحسن من الكثير. الناس هنا يهزؤون بي ويقولون لي: (يا مزفت) لأن ملابسي ممزقة

ووسخة استعرتها من عند ناس من المخيم، لقد انتهت حياتي، الله يسامح الناس الذين يسخرون مني» [1]

البداوي ونهر البارد:

بعد الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢، وبعد خروج القوات العسكرية الفلسطينية من بيروت لم يبق للمقاتلين الفلسطينيين موضع قدم في أية دولة من دول المواجهة العربية، اللَّهم الا ما كان في شرق لبنان وشمالها.

ومما يجدر ذكره أن شرق لبنان وشماله يقعان تحت استعمار القوات النصيرية الغازية، وتجمع الفلسطينيين في هذا الجزء من لبنان لم يكن مصادفة، وإنما جاء نتيجة لمؤامرة، ظهرت بداياتها حين أقدم النظام السوري على اغتيال قائد القوات العسكرية الفلسطينية (أبي صائل)، ثم تطور الأمر، ودفعت القوات النصيرية بهؤلاء العملاء المأجورين ليرتكبوا جريمة أخرى ضد الفلسطينيين الآتين في مخيم نهر البارد ومخيم البداوي. وبعد معارك عنيفة بين عرفات ومن معه من جهة، وبين المنشقين والقوات السورية من جهة أخرى، سقط مخيم نهر البارد في ١٩٨٣/١١/٦ بأيدي المنشقين والنصيريين، وتبعه مخيم البداوي في ١٩٨٣/١١/١٦، وكانت الخسائر فادحة في هذين المخيمين. ونزح ٧٠٪ من سكان مخيم البداوي وأطراف نابلس الشمالية في اتجاه عكار والضنية والبقاع وبيروت» [2].

---

(١) أقوال الشهود مأخوذة من كتاب (أمل والمخيمات الفلسطينية) للأستاذ محمد عبدالله الغريب، نقلاً عن مجلة اليوم السابع التي تصدر في باريس، نقلاً عن الأنباء ١٩٨٤/٩/١٧.

(٢) المصدر نفسه/ ٦٥.

الاتفاقية الإسرائيلية اللبنانية:

كان لا بد من تلميع الأسد قليلاً وإبرازه بصورة البطل بعد إطلاقه يد إسرائيل في لبنان تحتل وتذبح وتقتل، وبعد تدمير صواريخه وطائراته ودباباته، ليقوم بتنفيذ جريمة جديدة عجزت عنها إسرائيل منذ وجدت، هذه الجريمة هي شق الصف الفلسطيني ليذبح بعضه بعضاً. ولأن إسرائيل تجد حرجاً بالغاً في ذبح الفلسطينيين وهي تزعم الديمقراطية، ولن يستطيع أحد أن يحقق هذا الهدف الضخم لإسرائيل كما يحققه الأسد. وكان تلميعه في موقفه من الاتفاقية اللبنانية الإسرائيلية وكيف استطاع ببطولته أن يمزقها.

في ١٧ آيار ١٩٨٣ وقعت الاتفاقية الإسرائيلية اللبنانية «لقد نصت الاتفاقية رسمياً على أن حالة الحرب بين إسرائيل ولبنان قد انتهت، وأرغمت لبنان على تحريم كل مظهر من مظاهر العداء لإسرائيل على أراضيها، من النشاط الفدائي إلى مجرد الدعاية الإعلامية. ومنعت مرور أية قوات أو أسلحة أو معدات عبر أراضي لبنان ومجاله الجوي من أو إلى أية دولة ليست لها علاقات دبلوماسية باسرائيل... وكان هذا يعني العالم العربي بأكمله باستثناء مصر. وكانت الاتفاقية تفرض على لبنان أن يلغي خلال سنة واحدة أية معاهدات أو قوانين أو تعليمات تتعارض مع الاتفاقيات اللبنانية الإسرائيلية، أي الالتزامات التي ترتبت على لبنان في مؤتمرات القمة العربية وكعضو في الجامعة العربية.

ومع نشر الاتفاق بعد زهاء سنة من الغزو ظهرت إسرائيل وكأنها لم تكسب الحرب فقط بل كسبت السلام أيضاً» [(١)]

لقد كان هذا التفكير يمثل وجهة نظر المارونيين في لبنان الذين يريدون لبنان

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٦٦١-٦٦٥.

نصرانياً غير عربي وحليفاً مع إسرائيل. لكن هذا الاتفاق تجاهل الدروز والشيعة، وهم الطائفيون المعدون لاستلام المنطقة، وحين يكون الصراع بين الكتائب والدروز والشيعة فالأسد أقرب للدروز والشيعة منهم، اذ انصاعوا لسيادته. فالأسد ابن مخلص وعبقري سياسي بالنسبة لطائفته يعرف أعداءها الأصليين فيجتثهم ويبيدهم وهم السنة سواء كانوا الإخوان المسلمين في سورية أو المقاتلين الفلسطينيين في لبنان، أو اللبنانيين السنة في طرابلس وبيروت وغيرهما. أما عندما يكون العداء مؤقتاً فهو يوازن بين هذه الطوائف من النصارى والدروز والشيعة واليهود ويمضي مع أقربهم له في تحقيق مصلحته ومصلحة طائفته.

وتحالف الدروز والشيعة والنصيرية ضد الكتائب واليهود، وأسقطوا اتفاق ١٧ أيار. «وتم خوض معركتين لهما أهمية حساسة. كانت الأولى قصيرة ووحشية في بيروت نفسها، أما الثانية فكانت أكثر طولاً في جبال الشوف المطلة على بيروت، فمن ٢٨ آب/ اغسطس إلى ٢ ايلول/ سبتمبر قامت قوات أمل التي كانت أول تحد شيعي كبير للرئيس الجميل بالاشتباك مع الجيش اللبناني من أجل السيطرة على بيروت، ورغم أن الميليشيات قد دحرت بصعوبة بعد وقوع خسائر فادحة في الجانبين، فإن رسالة ثورتهم كانت تتلخص بأن الشيعة الذين ظلوا متفرجين حتى ذلك الحين، قد بدؤوا يقفون جانب سورية بصراحة وعلنية ضد إسرائيل [١] وصنائعها اللبنانيين. وكانت معركة الشوف هي نقطة التحول الحقيقية في الصراع السوري الإسرائيلي. فقد بدأت في الثالث من أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣ عندما انسحبت إسرائيل إلى نهر الأولي. وفي تلك المرحلة كانت إسرائيل قد أدركت خطأ الاعتماد أكثر من اللازم على الموارنة، وشرعت تحاول الوصول

---

(١) وسنرى كيف شاركوا فيما بعد في ذبح الفلسطينيين.

إلى تفاهم مع الشيعة والدروز، غير أن الأوان كان قد فات، ففي جبال الشوف أدى الفراغ الذي خلفه الانسحاب الاسرائيلي إلى ترك دروز وليد جنبلاط ليواجهوا أعداءهم التقليديين من المقاتلين الموارنة التابعين للقوات اللبنانية. والذين كانت إسرائيل قد جلبتهم معها إلى الجبال بعد بداية غزوها للبنان. وفي انفجار العنف الذي تلا ذلك تمكنت القوات الدرزية بدعم ألفي مقاتل فلسطيني ومساندة من المدفعية والدبابات السورية (مع بعض المشورة التكتيكية من ضباط سوفييت) من دحر الميلشيات المارونية دحراً كاملاً، وتطور الاشتباك إلى تصفية كبرى للحسابات الطائفية، تبودلت بها المذابح بين الدروز والمسيحيين، وشرد عشرات الألوف من الجانبين، وهرع زهاء مائة ألف مسيحي إلى بيروت مذعورين.. وفي ١٩٨٣/٩/٢٤ كان الدروز المنتصرون بدعم من المدفعية السورية الثقيلة، قد التقوا بقوات أمل في ضواحي بيروت الجنوبية بينما أصبح القصر الجمهوري اللبناني والسفارات الأجنبية وبيروت الشرقية وقلب الأراضي الداخلية المسيحية إلى الشمال مكشوفة كلها للقصف المدفعي» [١].

أما الولايات المتحدة الامريكية وجورج شولتز شخصياً فقد تعرضوا لفيتنام مصغرة عندما اتضح أن قوة أمريكا وجبروتها ليس لها فاعلية، فأمريكا بعد سماحها لإسرائيل بدخول لبنان لم تستطع أن تحمي الفلسطينيين من المذابح، ولا الحكومة اللبنانية من أعدائها، ولا اتفاق آيار/ مايو من السقوط، بل إنها لم تستطع أن تحمي حتى جنود بحريتها من الموت. وكان الخروج المهين المخزي من لبنان في أوائل عام ١٩٨٤»[٢].

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٦٧٢.

(٢) المصدر نفسه/ ٦٧٩.

وبذهاب الحماة الغربيين أصبح أمين الجميل تحت رحمة الأسد، وفي ٢٩ شباط/ فبراير ١٩٨٤ سافر إلى دمشق لتقديم احترامه للأسد، وليعلن استعداده لإلغاء الاتفاق، وقد تم هذا بشكل رسمي بعد ذلك بخمسة أيام، وظل البقاع بأيدي السوريين بشكل محكم متين، والشوف تحت سيطرة الدروز، بينما كان الشيعة في الجنوب يطاردون الإسرائيليين. لقد تم كسب الكثير»[١].

وكان حتمياً أن يتجه الغضب الشيعي ايضاً إلى حماة إسرائيل، وأولياء أمورها الأمريكيين، فالقوة البحرية الأمريكية التي لم تكن مهمتها السيئة التحديد قد حمتها من الانغماس في الحمأة اللبنانية، تعرضت لكارثة الهجوم عليها بالسيارة المشحونة بالمتفجرات، والتي أدت في لحظة إلى مصرع ٢٤١ من رجالها في ٢٣ تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٨٣. وفي صباح اليوم التالي وانتقاماً من غارة جوية هوجمت الوحدة الفرنسية في القوات متعددة الجنسيات بسيارة مفخخة، أدت إلى مصرع ستة وخمسين رجلاً »[٢].

الأسد يحقق أهداف إسرائيل ومصالحها:

وبعد التلميع المطلوب للأسد، وتظاهر أمريكا بالهزيمة أمامه وتظاهر إسرائيل بالهزيمة أمامه وتثبيت أركانه في لبنان، أصبح الأسد قادراً على أن ينفذ كبريات جرائمه الجديدة في ذبح الفلسطينيين بعضهم ببعض، وشق صفوفهم، وذبح السنة في طرابلس.

إن إسرائيل أصلاً تريد دولاً طائفية بجوارها، وهذه هي الحدود الآمنة التي

---

(١) المصدر نفسه ٦٧٧.

(٢) المصدر نفسه/ ٦٧٤.

تفهمها، وليس بين الأسد وإسرائيل حرب أو مشكلة، فالحدود الآمنة بين سوريا وإسرائيل خلال عشرين عاماً هي الهدف الإسرائيلي المطلوب. فدولة نصيرية بجوار دولة يهودية هو أمر طبيعي وهدف إستراتيجي عند إسرائيل، ومن أجل هذا كله انسحبت إسرائيل من بيروت، تاركة لأسد أن يجهز على عدوها الأكبر من السنة الفلسطينيين واللبنانيين، وقد تم هذا بنجاح فائق.

ولم يكن الجميل هدف الأسد الوحيد، فقد كان عرفات متحدياً آخر يجب دحره، إذا كان للأسد أن يستعيد زمام المبادرة ليس في لبنان فقط، بل وفي الصراع العربي - الإسرائيلي ككل. كان الخصام الطويل المستمر بين الأسد وعرفات قد بدأ من حبس عرفات في سورية عام ١٩٦٦. وظل يتسمم باطراد من خلال أيلول الأسود عام ١٩٧٠، والأزمة اللبنانية عام ١٩٧٦ والغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٧ حتى وصل إلى نقطة القطيعة الكاملة في حرب ١٩٨٢.

كان كثير من المقاتلين الفلسطينيين الذين يعيشون تحت السيطرة السورية في وادي البقاع ومن بينهم أعداد كبيرة من حركة فتح التابعة لعرفات ينتقدون الطريقة التي انهارت بها المقاومة الفلسطينية بسرعة أمام الهجوم الإسرائيلي جنوب لبنان، وكما كانوا يعترضون على قرار زعيم المنظمة بمغادرة بيروت والبحث عن تسوية سياسية، وبقيادة عقيدين فلسطينيين (أبو موسى وأبو صالح) انتفض المنشقون ضد عرفات في البقاع في آيار/ مايو ١٩٨٣، وخاضوا معارك طاحنة ضد الرجال الموالين له، وانتصروا عليهم بدعم سوري، وسارع عرفات إلى البقاع وإلى دمشق لتجميع أنصاره. ولكن الأسد الذي كان منهمكاً تماماً في الصراع من أجل السيطرة على لبنان لم يسمح بذلك، وفي التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٨٣ أُبعد عرفات عن سورية في حركة أعطت القطيعة طابعاً دراماتيكياً،

وأكدت مطلب الأسد في أن يكون هو حامل القضية الفلسطينية» [1].

«وتعرضت طرابلس للقصف الشديد الذي شارك فيه السوريون، وخاض الغزاة معارك شرسة مع المسلمين الفلسطينيين واللبنانيين داخل طرابلس، وتعرضت المباني والمؤسسات للهدم، وبعد حصار مرير دام ستة أسابيع وافق عرفات ومن معه على مغادرة طرابلس إثر وساطة بينه وبين النظام السوري.

غادر عرفات ومعه أربعة آلاف مقاتل فلسطيني طرابلس بتاريخ ١٩٨٣/١١/٢٠، وأقلتهم خمس سفن يونانية تحت حماية أسطول حربي فرنسي ومراقبة السفن الأمريكية والإسرائيلية. وكان عرفات كعادته يرفع شارات النصر، أما الاسلحة الثقيلة فقد وزعها قبل سفره، وجزء منها أخذه الجيش اللبناني ليعود إلى الكتائب» [2].

ويختم سيل عرض الأحداث حسب روايته: «كان على الأسد أن يدير سلسلة كاملة من المعارك الأخرى في النصف الثاني من عام ١٩٨٣ من أجل السيطرة على ميناء طرابلس في الشمال، وكان أولاها ضد زعيم إسلامي محلي هو سعيد شعبان الذي كانت حركة التوحيد التي يقودها تتلقى الدعم من أعداء الأسد القدامى، المسلمين الذين هربوا من حماة، ولم يكد يتم تحجيم وترويض شعبان حتى ظهر عرفات في طرابلس في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣، وقد استدعت عملية زحزحته منها أسابيع من القتال الضاري الذي خاضه ضده المنشقون عن فتح تدعمهم سوريا.

ولقد مرّت دوامة هذا التيار من العنف بالقرب من الأسد، فظل مشدوداً إلى

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٦٦٧-٦٦٨.

(٢) أمل والمخيمات الفلسطينية، لعبد الله محمد الغريب/ ٦٦.

أقصى حالات التوتر في الصراع المخيف طيلة عام ١٩٨٢-١٩٨٣، ناهيك عن خمسة أعوام من القتال المميت مع الإخوان المسلمين قبل ذلك، بل وحياة كاملة من العمل الدؤوب الذي لا يستكين، حتى انهار في الثاني عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣، فذهب إلى المستشفى يشكو من حالة قلبه، وقد هدد مرضه بوضع نهاية لفترة مضطربة عاصفة من تاريخ سورية» [١].

مفاوضات بين الإخوان المسلمين والسلطة في سورية

من وراء الكواليس كان النظام السوري يسعى لإنهاء الإخوان المسلمين بعد الضربة العنيفة القاتلة التي وجهها لهم في حماة، وخلال عامين تقريباً كانت المحاولات مستمرة لعقد لقاء سري بين الطرفين. وكان الأسد يطمع أن يقطع جذور الإخوان عن الدول المجاورة. وتم لقاء في أوربا بين وفدين، على رأس الأول منهما علي دوبا رئيس المخابرات العسكرية في سورية والشخص الثاني أو الثالث بعد الأسد فيها، وعلى رأس الفريق الثاني المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية.

وسنعرض في هذا الفصل لمقتطفات من هذه المفاوضات تظهر طبيعة المعركة بين المسلمين والنظام في سورية.

وسنرمز للمفاوضين من النظام السوري بـ خالد وسعيد، وللمفاوضين عن الإخوان المسلمين بـ ياسر وأحمد.

تمهيد: لقاء مشترك. المراقب العام للإخوان، اللواء علي دوبا، خالد، سعيد، ياسر، أحمد.

الدكتور: يعرّف الجميع على بعضهم مع تبادل الكلمات حول مصلحة البلد،

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٦٧٧.

وتفاؤل عام عن النتائج.

ياسر: سنكون مغلوبين لمصلحة البلد.

خالد: كنت أود أن أقول هذه الكلمة (ويخرج الدكتور واللواء).

أحمد: لا شك أن هذا الصراع القائم ليس من مصلحة البلد، ولا بد من إنهاء هذا الصراع، والمصارحة هي المجدية، تبادل المجاملات لن يحقق ما نريد، وضعت علينا مسؤولية جسيمة، كلما كانت الصراحة أكثر كلما كانت النتائج أضمن.

سعيد: الدكتور واللواء قد اتفقا على كل شيء، لا أدري لماذا وضعونا مع بعضنا حتى نتناقش، الأمر محلول من فوق.

ياسر: هذا الكلام غير صحيح، نحن نعرف عن الأوضاع كل صغيرة وكبيرة، وحضرنا للتفاوض وليس هناك شيء مفروض من الأعلى.

سعيد: إذن ما هو الخلاف بيننا؟

أحمد: كلام جيد. الخلاف بيننا حول حرية وكرامة هذا الشعب، ليس الخلاف سهلاً، لقد حملنا السلاح ووقعت مآسي في هذا الشعب، فالخلاف عميق، ووجهات النظر متباعدة، لكن بالإمكان تقريب وجهات النظر.

خالد: نحن لسنا ضد الحرية، والمواطنون يتمتعون بحريتهم.

أحمد: لا بد أن نتحدث بصراحة. إن تركيب شعبنا بفئاته الدينية والقومية والحزبية لا يناسبه إطلاقاً أن يحكم من فئة واحدة، لا بد أن يشارك هذا الشعب في حكم نفسه.

خالد: إذن لنمض، الأمر أكبر منا، هل جئنا حتى نزيل النظام؟

أحمد: ليست هذه طريقة المفاوضات، هذه طريقة خاطئة. لا بد أن نسمع لبعضنا ونفهم بعضنا. نوضح وجهات النظر كاملة. آراؤنا ببعضنا وبما حولنا

متباينة كثيراً، ومع ذلك بالعزيمة الصادقة والنية الطيبة نستطيع أن نصل إلى حل جذري لمشاكل هذا البلد.

خالد: حملتم السلاح من أجل الحرية، أخبرني هل الحرية والديمقراطية موجودة في الأردن، وفي السعودية وفي العراق، لماذا لم تحملوا السلاح إلا في سورية؟

أحمد: نحن نتحدث عن سورية، ولا داعي للخروج عن هذا الموضوع.

خالد: الحرية في العالم الثالث تختلف عن الحرية في أوروبا وأمريكا. ماذا نفعل بأعداء الشعب؟

أحمد: ليس هناك أعداء للشعب، كل المواطنين شرفاء، ويهدفون مصلحة البلد.

خالد: أنتم تقولون: لا يوجد حرية في البلد، ونحن نقول: يوجد حرية. كيف نتفق؟ ماذا تقصدون بالحرية؟

أحمد: سأوضح لك ذلك من خلال هذا المثال. في انتخابات حافظ أسد عام ٧٠ جاء مدير المنطقة لبلدنا ومعه رئيس شعبة الحزب وبعض الحزبيين يدعوننا إلى المشاركة في الانتخاب ويقولون: قولوا نعم أو لا. أنتم أحرار. قلت لمدير المنطقة: الحرية الحقيقية هي أن يكون عدد من المرشحين للرئاسة ويختار من بينهم الشعب من يريد. قال مدير المنطقة: ما هذا الكلام؟ الدستور ينص على أن يكون الانتخاب بهذا الشكل، ألست تعرف الأنظمة؟ قلت له: بلى. قال: الدستور ينص على ترشيح الرئيس من القيادة القطرية.قلت له: من وضع الدستور؟ أنا أعلم أن الذي يضع الدستور هو مجلس الشعب، وأنا أطيع الدستور عندما أجد من يمثلني قد شارك فيه، أما أن يفرض عليّ فلا.

الحرية التي نعنيها أن يشترك كل الشعب في انتخابات حرة يضع دستوراً

للبلاد، ويختار من يريد لحكمه.

سعيد: هناك فرق بين الانتخاب والاستفتاء، هذا استفتاء على رئاسة الجمهورية. هذا استفتاء على رئاسة الجمهورية بـ نعم أو لا. وهذا النظام يوجد في كل دول العالم.

أحمد: أعرف الفرق بين الاستفتاء والانتخاب، هذا درسناه منذ المرحلة الابتدائية، لكننا نعرف كذلك معنى أن يختار الشعب نظام الحكم الذي يريد، والرئيس الذي يريد، والدستور الذي يريد.

سعيد: أنتم أمركم كبير، الأحسن أن نمشي اذا أردتم تغيير النظام، فهذا يتم باجتماع القيادتين معاً وتتفقان على ذلك. نحن لا نملك هذه الصلاحيات.

أحمد: ولكننا مكلفون الآن بوضع حل ينقذ البلد مما هو فيه.

سعيد: أريد أن أفهم. هل الملك حسين والملك فيصل وصدام قد حكموا البلد انتخاباً؟ لماذا لم تحملوا السلاح في هذه الدول وحملتموه عندنا؟ الحرية والديمقراطية تامة في هذه الدول، أليس كذلك؟

ياسر: أراك تعرض في موقف الإخوان. التنظيم العالمي للإخوان المسلمين معروف بجهاده، ومواقفه الجهادية معروفة، لقد حملوا السلاح في سورية وغيرها، ومواقفهم منذ الـ ٤٨ في حرب فلسطين معروفة. وسوف يحملون السلاح في كل مكان عندما يلاقون الاضطهاد الذي يلاقونه الآن في سورية. لا تخرجوا عن الموضوع، ولسنا بصدد تقييم المواقف الدولية، نحن اجتمعنا لحل مشكلة سوريا.

سعيد: الظاهر أنكم قلتم الآن سورية في أضعف أحوالها، وجئتم لتفرضوا شروطكم عليها في هذه الظروف.

أحمد: هذا غير سديد. نحن لا يهمنا أن يكون الحكم في سوريا في أضعف

أحواله أو في أقوى أحواله. لكني أسأل: هل تعني قوة سورية وعندما تملك السلاح أن تمنعني من حريتي أو تحول بيني وبين كرامتي؟ هل منطق القوة هو الذي يسود وهو الذي يحكم؟

خالد لسعيد: لقد حصرك في هذه النقطة ووقعت. أنا أريد أن أتحدث عن سبب المفاوضات. إن سورية قد تعرضت لهجمة رجعية حاقدة، شاركت فيها أمريكا وحلفاؤها، واستطاعت أن تخرج من أزمتها وهي أقوى ما تكون في لبنان، ويريد الجميع أن يجعلوها تسير في مخطط التسوية والتصفية للقضية الفلسطينية، ولكنها صمدت وحدها في الساحة، وهي وحدها التي استعصت على التصفية، وهزمت كل أعدائها. حتى أمريكا أجبرتها على الانسحاب من لبنان، نحن نعيش نصر سورية الكبير وحين ندعوكم إلى دخول البلد ندعوكم لتشاركوا المواطنين في أفراح هذا النصر لأنكم مثلهم وحقكم مثل حقهم في هذه المشاركة.

ياسر: هذا الكلام لنا تحفظ كبير عليه، ولسنا بصدد تقويم المواقف السابقة. ولنا رأي في موقف سورية من القضية الفلسطينية، وعلى موقفها إشارات استفهام كثيرة لا نريد أن نقف عندها الآن.

سعيد: ما هي إشارات الاستفهام؟ لنكن صريحين، ما هو رأيكم من موقف سورية من القضية الفلسطينية؟

ياسر: الخلاف جذري في تقييم المواقف، دعونا من هذا الأمر، لدينا أدلة دامغة في ذلك.

سعيد: لا. يجب أن نسمع. ماذا تأخذون على سورية في هذا المجال؟

ياسر: تل الزعتر، من ذبح الفلسطينيين هناك؟

خالد: أنت تسمع من ياسر عرفات، ما علاقة سورية بتل الزعتر؟ هل شارك جندي سوري في هذه المعركة؟ أنت حزبي، ويجب أن لا تتلقى معلوماتك من

ياسر عرفات فقط.

ياسر: أنا أتلقى معلوماتي من مصادري الصحيحة، وقد نلتقي مع ياسر عرفات في بعض الأمور وقد لا نلتقي، نحن نأخذ معلوماتنا من مصادرنا الموثوقة.

خالد: نحن نتحدى أن تذكر لنا اسم جندي واحد قريب أو صديق سوري شارك في تل الزعتر أو قتل هناك.

ياسر: ليس من الضروري المشاركة، من الذين كان يحمي الكتائب وهي تدك الفلسطينيين هناك؟

خالد: هل سورية مسؤولة عن حماية الفلسطينيين؟ وبقية العرب الذين هربوا وتركوا لبنان.

ياسر: هل شارك جندي إسرائيلي واحد في مجزرة صبرا وشاتيلا؟ لكن من الذي حمى الكتائب حتى نفذت جريمتها غير اسرائيل؟

سعيد: إذن أنت تحكم علينا بالخيانة، ولا يجوز أن نجلس على طاولة واحدة إذا كنا خونة ووطنيين.

أحمد: يا جماعة لم نأت إلى هنا لنتبادل الشتائم. بالتأكيد تصوراتنا مختلفة عن بعضنا البعض وبعيدة جداً، القانون ٤٩ يؤكد ذلك، لا داعي لنبش الماضي، دعونا نتحدث عن حل جذري لوضع البلد الآن واتركوا القضايا الجزئية. إذا خضنا في هذه الجزئيات فلن تنتهي في سنة كاملة، لنبدأ في عرض الأمر بشكل متصل مسلسل محدد، ونستمع إلى وجهات النظر المختلفة، لعلنا نستطيع أن نقرب وجهات النظر.

سعيد: الصورة في ذهنكم سيئة عن النظام من خلال المعلومات التي تصلكم. ماذا تريدون؟

ياسر: لنبحث عن الأسباب التي أدت بنا إلى حمل السلاح. ولنقض على هذه الأسباب.

سعيد: ما الأسباب التي أدت بكم إلى حمل السلاح؟

أحمد: عندما فقدنا حرية التعبير عن الرأي ومنعنا من الكلمة، اضطررنا إلى حمل السلاح.

سعيد: أنتم جررتم إلى حمل السلاح. هل حملت السلاح يا أحمد؟

أحمد: نعم، وعلى أي أساس أفاوضكم الآن؟

سعيد: أنتم جرّتكم الطليعة إلى المعركة وحاربتمونا بدون سبب.

ياسر: حملنا السلاح حين قررتم القضاء على الإخوان المسلمين في البيان الذي أصدره وزير داخليتكم عدنان دباغ واعتبرتم كل الإخوان المسلمين مجرمين يجب القضاء عليهم. أتريدون أن نترككم تبيدونا رغم أننا أعلنا إدانتنا للحادث عندما وقع.

خالد: نحن لا نلاحق إلا الذين يحملون السلاح، هؤلاء جماعة العطار، لم نتعرض لأحد منهم، حتى إن أحدهم ماجد فخري عرفنا أنه منظم، ومع ذلك أخرجناه من السجن.

أحمد: وهل الذين أخذتموهم كلهم قد حملوا السلاح؟ ألم تأخذوا كل من كان له علاقة بالتنظيم منذ عشرين عاماً؟

سعيد: نعم أخذنا كل من له علاقة سابقة بالتنظيم، لأن هناك شخص قيادي يتحرك ويؤثر عليهم. لو لم يكن هذا الأمر لما فعلنا ذلك.

أحمد: أنتم تأخذون الشباب الذين يترددون على المساجد.

سعيد: هذه دعاية غير صحيحة. تفضلوا وادخلوا وانظروا، المساجد مليئة بالناس، الناس يصلون ولا يتعرض لهم أحد.

ياسر: نذكر لكم أسماء الأشخاص الذين أخذتموهم من المساجد. الذي خرج لم يثبت عليه شيء، وعندما جمعتم كل من في المسجد عدتم وأخذتموه وإلى الآن معتقل.

خالد: نحن نعلم المنظمين الذين يتحركون في الداخل ولا نتعرض لهم، أحمد العراقي في دير الزور نعرف أنه منظم ولا نتعرض له، ونعلم أنه يوزع إعانات على العائلات، وبغض النظر عنه لأننا نعرف أنه لا يحمل السلاح.

ياسر: إذا كان لديكم علم بالتنظيم في دير الزور فلماذا لا تعتقلونه؟ ماذا تنتظرون؟ اعتقلوا كل منظم هناك طالما أن لديكم هذه المعلومات.

خالد: نحن عندما نشعر بالخطر نلاحق من يعرّض أمن البلد للخطر، بالسبيخان عندما جاءت الوشاية أن رجلين يحملان السلاح ذهبنا لاعتقالهما فواجهوا الدورية، وقتلوا العريف واضطررنا لقتلهم.

ياسر: صححوا معلوماتكم، هذا الكلام غير صحيح، لقد اعتقلتم ٣٠ شخصا من السبيخان وهاجمتم هؤلاء الناس وأخذتم قوة ضخمة لقتلهم فدافعوا عن أنفسهم. إنهم ملاحقون، ويحملون السلاح للدفاع عن النفس. هل تعتقدون أن الشعب لا يحمل سلاحاً؟ كل الشعب مسلح.

خالد: لنكن صريحين . عندما حملت المرأة عرفنا أن زوجها يتردد عليها يأتي من العراق، وأمام هذه الفضيحة اضطررنا لملاحقة الزوج.

ياسر: المعلومات عندي أدق من المعلومات عندك، لقد وصل الينا خمسة من الذين لاحقتموهم، وقصوا علينا ما جرى بالسبيخان، ونحن ليس لدينا تنظيم اطلاقاً في هذه القرية. وليس هناك امرأة حامل.

خالد: المعلومات غير صحيحة.

أحمد: ما جئنا لنبحث هذه الأمور. جئنا لنحل مشكلة البلد والناس، ولم نأت

لنناقش الجزئيات.

خالد: عندنا مؤسسات قائمة وعندنا مجلس شعب مختار من الشعب، ما معنى طلب الانتخابات؟

أحمد: أنا أحدثك عن انتخابات مجلس الشعب. مثلاً في إحدى المناطق سمح للترشيح لثلاثة: واحد عن الحزب الشيوعي، ورئيس شعبة الجامعة، حزبي، وامرأة، وقع الخلاف مع الشيوعيين فسحب ترشيحهم. أجبر الحزبي للتنازل للمرأة، وأصبحت ممثلة لـ ٤٠ ألف إنسان. هذه المرأة التي لا يعرفها أربعون شخصاً من المنطقة كلها. هذا هو مجلس الشعب القائم اليوم، فهل تريدون منا أن نتعامل مع هذه المؤسسات؟.

خالد: لكن في مناطق أخرى هناك انتخابات حرة ونزيهة.

ياسر: ألا نعرف الانتخابات؟ ألم نكن في البلد؟ لقد انتخبت أربع مرات في حماة. إذ كان اسمي موجوداً في أربع مؤسسات، ولم أشارك عملياً في الانتخاب في أي مركز من هذه المراكز الأربعة. أخبرونا إذا تغيرت الأوضاع وتحولت حتى نفهم.

سعيد: الشعب كله يمارس حقه في الحكم، وهو ممثل في الحزب والجبهة التقدمية.

أحمد: الذين تذكرهم يمثلون فئة من الشعب.

سعيد: وأنتم ماذا تمثلون.

ياسر: نحن نمثل كل الشعب، الشعب كله معنا.

سعيد: أنتم واهمون، الشعب كله الآن هو الذي يضغط علينا ويأتينا بأخبار الإخوان المسلمين وتحركاتهم.

ياسر: إنه الخوف، ألم يقل الشعب كلمته عندما خرج عام ٨٠ في مظاهراته

ونقاباته العلمية وهو يهتف: نعم للإخوان. بعد الإرهاب والتخويف، لا عجب أن يتزلف لكم الضعفاء والانتهازيون.

سعيد: الشعب كله يكره الإخوان، ولو كان الأمر لهم لحكم عليهم.

ياسر: نحن نثق بهذا الشعب، ونحن ندعو أن يكون الأمر بيده، وليحكم علينا بالإعدام ونحن جاهزون، وليعلق لنا مشانقنا في ساحة المرجة. فنحن لا نخاف من حكم الشعب، لكن أعطوه حريته.

سعيد: الشعب ينال حريته، ونحن لا نلاحق إلا الذين يحملون السلاح.

ياسر: قلتم إنكم لا تقتلون على الرأي. والنقابات العلمية هل هي من الإخوان؟ لماذا حُلّت؟

سعيد: لماذا تتحدثون باسم الشعب؟ لماذا لا نحل القضية معكم؟ إن ظروف البلد القومية تقتضي أن يكون الجميع يداً واحدة على العدو. ونحن ندعوكم لذلك، هذا جمال أتاسي جاء وقال: الأصل أن أعاديكم وأعمل ضدكم، لكن أمام مؤامرات الاستعمار لا بد أن أضع يدي بيدكم ونتعاون لمصلحة البلد.

ياسر: ماذا يمثل جمال أتاسي من مجموع الشعب؟ من معه؟

خالد: وأنتم ما هي نسبتكم من هذا الشعب؟

ياسر: نحن نمثل الشعب كله، وأنتم فئة من هذا الشعب.

خالد: ليس عندنا أي شرط، البلد مفتوحة لأي مواطن يمارس حقه وحريته بالصورة التي يريدها بحيث لا يخرج عن القانون.

أحمد: هذا العرض الواضح يدعونا أن نستفسر أكثر في جو الانفتاح هذا: ما هو وضع السجناء في هذا الوقت؟

خالد: بأمانة نقدم صورة عن ذلك. السجناء تتمنى الدولة أن لا يكون في سجونها أي سجين، السوريون يحكمون بلدهم، وهذا العبء من السجناء نشعر

به أكثر من الجميع. أي سجين يخرج ويتورط، لقد جربنا هذا مع أكثر من عشرة أشخاص يخرجون من السجن، ويتصل بهم الإخوان فينضمون من جديد للعمل المسلح، قد يقتلنا بعد ذلك وقد نقتله، لكن عندما تنتهي المشكلة، وينتهي التوريط يخرج جميع الإخوان من السجن. أما الآن فحرصاً على حياته لا نخرجه، عندما تعرف الدولة أن المشكلة قد انتهت فليس لها تحفظ على أي سجين، القاتل عليه حق من المواطنين لأنه قتل أباهم أو أخاهم. أما الدولة من طرفها فليس لها تحفظ تجاه أحد لو فسح المجال. العشائر في دير الزور تقتل بعضها، المواطنون يقتلون بعضهم.

سعيد: مثال البعثيون العراقيون كانوا يدخلون السجن من ١-٦ مرات، و٩٠٪ منهم يخرج من السجن ويعود ليأخذ راتبه، ويطالب بالأخبار والمعلومات، ومع ذلك الدولة تتسامح معهم، لكن عندما كبرت المشكلة وأصبح العمل مسلحاً أصبحوا يدخلون ولا يخرجون. لنفرض أن نظام الحكم سقط فلا مبرر لبقائهم في السجن، فلا يضر الرأي غير المسلح.

مثال أخر: رابطة العمل الشيوعي يسجنون ويخرجون، ولكن عندما كانوا يخرجون يطالبون بمحاكمتهم ونتغافل، ثم يصرون ويحكمون، ولا يخرجون حتى يمضوا مدة سجنهم. الدولة حريصة على أمنها وحريصة على أن لا يوجد في سجونها أي سجين، مع أن المشكلة تحل ليس بالسلسلة الحسابية، لكن بالسلسلة الهندسية الذي يقدم معونات يعتذر ويخرج.

خالد: سنة ١٩٨٠ كان الحكم بالإعدام لكل من ينتمي لتنظيم الإخوان المسلمين، لأن ضغط الشارع كان شديداً على الدولة. العساكر يضغطون ويطلبون الإعدام، والانتقام من الإخوان توقف عندما توقف القتل في الشوارع وتوقف تفجير السيارات. أصبح التوجه لإعدام القاتل فقط، ومحاكمة الذي حمل السلاح

فعلاً. بعد ذلك جاء التوجه بإعدام الذي أطلق النار فقط، والحماية التي كانت تحميه لا تعدم. وخفضت الأحكام في دير الزور، وخرج الناس يرقصون في الشوارع، وزغاريد النساء وإطلاق الرصاص ابتهاجاً بذلك. نحن نربح المواطنين عندما نخرج السجين، عندما نقتله نربح عداء أهله. الدولة تتمنى أن تخرج جميع السجناء، أمن الدولة مرتبط بأمن المواطنين، التطور الحضاري للدولة يقاس بوجود السجناء عندها.

سعيد: عند وجود الثقة تحل كل المشكلات. أذكر في الرحيبة، كان هناك عشيرتان بينهما دماء. واتحاد الفلاحين في البلد وتّر الجو بحيث تقف كل عشير ضد أخرى، تدخلنا وطلبنا من كل عشيرة أن تنتخب ثلاثة مرشحين من العشيرة الأخرى. وحل الوئام محل الدماء[1].

أحمد: انطلاقاً من هذه الصورة هل نستطيع أن نعرف عدد السجناء الموجودين في سجون سورية لتحديد طبيعة المشكلة وأبعادها.

خالد: لا أستطيع أن أقدر، ولو أعلم لقلت، لأن الأجهزة مختلفة. أما الموجود عندنا في المخابرات العسكرية ١٢٢ شخصاً.

أحمد: تقول بعض الأرقام إن عدد السجناء يبلغ عشرات الألوف، ما هو رأيكم بهذا الرقم؟

سعيد: الرقم مبالغ به كثيراً، ولقد غلطت مرة وقلت رقماً أمام هذه المبالغات هو خمس أرقام، أي عشرة آلاف، وتبين لي فيما بعد أن الرقم مبالغ به كثيراً. أقسم بالله، أقسم بشرفي، لو أعرف الرقم لقلته. لا أعرف.

أحمد: إذا كان من الصعب تقدير الأرقام فما هي الحالة الصحية للسجناء.

---

(١) الملاحظ أن الحديث في هذه المرحلة من المفاوضات كان قي معظمه لمخابرات السلطة.

خاصة وتقرير منظمة العفو الدولية يؤكد وجود هذه الأمراض، خاصة السارية منها.

سعيد: قطعاً هذا غير صحيح، وهي دعاية، نحن حريصون على صحة السجناء ونظافتهم.

خالد: بالتأكيد أقل بكثير مما يوجد في المجتمع العادي. أما الأمراض السارية فلا وجود لها، الناس في القرى عندنا لا يجدون الطبيب الذي يداويهم، بينما في السجون يوجد طبيب يمر عليهم كل أسبوع. ولا يستطيع المريض أن يستعمل الدواء لأنه لا وجود له، وبالتالي فكل مريض تعرض حالته على الطبيب، وهذا يعني أن الوضع أفضل من المجتمع العادي.

أحمد: الحقيقة أنكم شهيتمونا السجون على هذه العناية وهذا الاهتمام.

خالد: أضرب لك مثالاً. رفع تقرير عن سجين من إدلب أنه كان يعرج، فكلفت لجنة تحقيق كنت منها في بحث أسباب العرج، هو من السجن أم قبل أن يدخل؟ وبعد أن ذكر أنه لا يعرج من قبل، ثبت لنا أن سبب العرج هو دسك في ظهره.

أحمد: نرجو أن يكون الأمر كذلك، بقي عندنا سؤال أخير يقلقنا حول وضع السجناء في السجن. ما هو وضع النساء في السجن؟ ما هو وضع النساء، وما هي صحة الأخبار من الاعتداء على الأعراض؟

سعيد: أعوذ بالله. أعوذ بالله لقد أخطأتم خطأ كبيرا حين طرحتم هذا الموضوع، لو كان حقيقياً لما جاز ذكره. فكيف لو كان افتراء كله. نحن وضعنا سجنا خاصا للنساء. ولقد كانت أكبر عقوبة توجه للنساء هي أن يوضعن مع الداعرات، فضجوا من ذلك، واستجبنا لهن وفصلناهن عنهن. ثم وضعنا عليهم سجانات حفظاً على أعراضهن حتى لا يتطرق الشك. منعنا أن يتحدث خفير إلى

سجينة. فلا بد أن يكون خفيران إبعاداً للظنة. لقد أخطأتم خطأ كبيراً يوم ذكرتم تلك الرسالة، ونحن نعرف من وضعها وركّبها.

ياسر: أية رسالة؟

أحمد: صحيح رسالة نشرت في المجتمع، ركبها عبد الإله العاصي.

سعيد: وذكر في شريط التسجيل أن أربعين رجلاً كانوا يتعاقبون عليها، أعوذ بالله، إن عرضنا عرضك، من يقبل هذه الصورة؟

خالد: نحن في الأصل لا نسجن النساء إلا مكرهين، من كانت منهن تعمل غطاءً لقاعدة، (س) مثال على ذلك فقد كانت تعمل غطاء لقاعدة. ومع ذلك جلست خمسة عشر يوماً فقط وأخرجناها من السجن.

أحمد: الكلام غير دقيق، نحن نعلم كم استغرقت في السجن، هي في الأردن.

خالد: أؤكد خمسة عشر يوماً.

أحمد: وأنا أؤكد أنها جلست سنتين كاملتين.

سعيد: لعلك تتحدث عن (ص)؟

أحمد: (ص)، لا أدري كم أمضت تلك في السجن.

خالد: قد أكون أخطأت.

أحمد: (س) أتمت سنتين، وقد خرجت وبقي أخوها في السجن.

ياسر: ما بال النسوة اللائي انتهت مدة سجنهن في السجون طالما أن هذه نظرتكم إلى سجن النساء.

سعيد: هذا غلط ولا يجوز. هل يوجد من أنهت مدة حكمها ولم تخرج؟

ياسر: (ع) أنهت مدة حكمها من ٤ نيسان ١٩٨٤، ولا تزال إلى الآن في السجن.

سعيد: هذا غلط، ولكن مع حل المشكلة سوف تحل كل هذه الأمور تلقائياً.

أحمد: هذا كل ما عندكم، وأرى أن تنتهي الجلسة اليوم ونعود غداً لعرض وجهة نظرنا.

سعيد: الآن نحن جالسون، نريد أن نستمع إلى وجهة نظركم.

أحمد: لسنا مستعجلين، وغداً نعرضها بشكل واضح ومفصل، والوقت تأخر.

سعيد: أبداً، ولو نصف ساعة، ولو ربع ساعة، لا بد من الاستماع إلى وجهة نظركم.

أحمد: لا أزال أرى التأجيل إلى الغد لنناقش بهدوء.

سعيد: الليلة لن تمضي قبل أن نستمع إلى وجهة نظركم [١]

أحمد: حسناً إذن وآمل الاستماع تماماً كما استمعنا حتى نفهم بعضنا وننتقل بعد ذلك للمناقشة.

سعيد: نحن جاهزون.

أحمد: الذي فهمته من كلامكم ووجهة نظركم أن نعود إلى البلد دون قيد أو شرط وبعودتنا يخرج السجناء وتحل المشكلة. أليس كذلك؟

خالد: نعم هذه وجهة نظرنا.

أحمد: وأننا عندما نعود سوف نمارس حقوقنا وواجباتنا من خلال القانون، ونمارس حريتنا كذلك ونعود لوظائفنا وجامعاتنا، أليس كذلك؟

سعيد: نعم. هذا هو الحل الجذري للمشكلة.

أحمد: يردني سؤال آخر: ألم تكن هذه الأمور محققة لنا قبل حمل السلاح؟

خالد: نعم. ونعود لذلك الوضع.

---

(١) من خلال الحديث شعر ممثلو النظام السوري أن صيدهم قد تحقق. وتم اقتناع ممثلي الاخوان بوجهة نظرهم.

أحمد: إذن خلاصة وجهة نظركم أننا أخطأنا في حمل السلاح، وعلينا أن نتراجع عن هذا الخطأ ونعتذر عنه، وأنتم بدوركم تعفون عنا، وتزيلون كل الآثار التي نتجت عن حمل السلاح. وبدوري أتساءل: لماذا حملنا السلاح إذن؟ هنا نقطة البداية بالنسبة لنا. ونحن نعرض وجهة نظرنا من هذه النقطة.

نحن حملنا السلاح لأنا حرمنا من حريتنا، وحيل بين الشعب وبين حريته، وحتى نضع السلاح لا بد أن تتحقق المطالب التالية:

١-إلغاء قانون الطوارئ الذي يبيح للسلطة أن تسجن من تشاء، وتعدم من تشاء، وتحاكم من تشاء.

سعيد: عدنا لإلغاء قانون الطوارئ. ما رأيكم فيما ذكرناه؟ الظاهر أنا لن نتفاهم.

أحمد: آمل الاستماع الكامل لوجهة نظرنا، لقد استمعت لك ساعتين بكل أدب.

سعيد: إذن أنا قليل الأدب.

أحمد: أنا لا أقول ذلك، وأصف الواقع. لا بد من الاستماع الكامل لوجهة نظرنا وبعدها نستمع لما لديكم من رأي.

خالد: سوف نستمع.

أحمد: النقطة الثانية: إلغاء الدستور لأنه قد وضع من فئة من الشعب، ويطبق على الشعب كله.

النقطة الثالثة: إعلان الحريات العامة للشعب، الاجتماع والكلام والصحافة والرأي بحيث يستطيع الشعب أن يعبر عن رأيه كاملاً دون خوف، ويأتي في نطاق هذه الحريات العفو عن جميع المعتقلين السياسيين، والكف عن الملاحقين المبعدين، والتعويض على المتضررين بحيث يطمئن الشعب فعلاً إلى مصداقية

هذا الإعلان.

سعيد: وما علاقتكم برابطة العمل الشيوعي، حتى تطلبوا خروج كافة المعتقلين؟

أحمد: لأننا نتكلم باسم الشعب، ونريد الحرية لكل الشعب لا لفئة دون فئة.

النقطة الرابعة: وبعد خروج المسجونين وعودة الملاحقين وإعلان الحريات العامة، يتم في ظل هذه الحريات انتخابات حرة نزيهة يشارك فيها أبناء الشعب جميعاً لتكوين جمعية تأسيسية تضع دستوراً للبلاد.

النقطة الخامسة: يتم وضع دستور جديد للبلاد يقرر نظام الحكم، ويملك حق التقنين، ونحن مطمئون بعدها إلى ما يريده الشعب.

لسنا نريد وزارة أو نريد حكماً أو نريد منصباً إن الذي نريده أن يملك هذا الشعب حريته حرية اختيار الحكم الذي يريده والنظام الذي يريد.

النقطة السادسة: أن يكون الجيش مؤسسة وطنية عامة مهمتها حماية حدود البلاد، يتساوى المواطنون في حقهم بدخول الجيش. وكذلك مؤسسات الأمن هي للشعب كله وتكون مفتوحة لجميع المواطنين. ومهمتها أمن المواطن لا تخويفه وإرعابه.

وهذا هو قرار القيادة، ونحن لا نخرج عن هذا القرار.

خالد: قوموا، قوموا، بقي شرط واحد هو إنذار الجنرال غورو بحل الجيش حتى تكتمل الصورة عندكم.

أحمد: هذا الشرط لم نضعه. لكن إذا وضعتموه وأضفتموه، غورو جاء محتلاً للبلد، أما نحن ابناء هذا البلد نريد أن نمارس حقنا فيه.

ياسر لسعيد: أنت حموي، وأنا حموي. ما الفرق بيني وبينك، حتى تحكم وتشارك في القرار، وأحرم أنا من ذلك؟

أحمد لخالد: وأنت شامي، وأنا شامي، ما الذي أعطاك هذا الحق لتنشئ القرار وتشارك في الحكم، وأحرم أنا من ذلك؟

خالد: الحكم له مؤسساته، ومن خلاله تتم المشاركة بمجلس الشعب، هو الذي ينشئ القرار.

أحمد: التقينا إذن، كل الذي نريده مجلس شعب حقيقي يمثل الشعب، وينشئ القرار ويشارك في الحكم. إذن رأينا واحد.

خالد: أنا أتحدث عن مجلس الشعب القائم.

أحمد: حتى مجلس الشعب القائم، وبقية مؤسسات الدولة لا تضع الدستور، إن الذي يضع الدستور في البلاد هو القيادة القطرية.

خالد: نعم.

أحمد: والمطلوب مني أن أدخل البلد، وانضم للحزب، وأكون نصيراً، ثم عاملاً، ثم أترقى خلال عشرين عاماً، وبعدها يحق لي أن أبدي رأيي في الدستور. هذا هو التصور لديك عن المؤسسات.

خالد: يوجد غير القيادة القطرية.

أحمد: تعني الجبهة التقدمية. إذا دخلنا سوف تعطونا مع الفئات الإسلامية وزارة أو وزارتين، الأوقاف مثلاً. ويقوم الوزير بتطبيق مبادئ الحزب، والعمل من خلال الدستور القائم.

خالد: هذا هو الطريق الذي نراه.

أحمد: نحن حددنا الطريق الذي نراه، وعندما تزول الأسباب التي دفعتنا لحمل السلاح لن نحمله، فلسنا إرهابيين، نحن نريد الحرية الحقيقية لهذا الشعب.

سعيد: إذن لن نلتقي.

أحمد: لا ندري، قد نلتقي، ومصلحة البلد تقتضي هذا اللقاء. لقد توضحت وجهة نظرنا ووجهة نظركم، وسوف نرفع الأمر للدكتور واللواء، وهما يقرران رأيهما بعد ذلك.

ثم تم الوداع في جو روتيني شكلي. وغادر وفد السلطة قاعة الاجتماع إلى سورية.

تنفيذ المخططات اليهودية

لقد كان الصراع الأكبر في المنطقة صراعاً بين الصهيونية والأمة المسلمة. وكان الظاهر للعيان يوحي بأن حافظ أسد هم الذين يقود الصراع، وأقام ما يدعى بجبهة الصمود والتصدي لمواجهة اتفاقيات كامب ديفيد.

لكن إسرائيل تعتبر العدو الألد لها هو الشعب الفلسطيني، الذي يعتبر وجوده قذى في عينيها. فهو الشاهد على جريمتها في اغتصاب الأرض وذبح الشعب، ومن أجل هذا تخطط لإبادته والقضاء عليه بأي وسيلة.

وسنتحدث عن خمس نقاط نفذها الأسد حققت معظم الأهداف الرئيسية لإسرائيل. وهذه النقاط هي:

«أولاً: ضرب الوجود الفلسطيني في لبنان:

لقد كافح الفلسطينيون في نهاية الستينات ومطلع السبعينات كفاحاً مريراً حتى وحدوا كلمتهم وفصائلهم المختلفة في منظمة واحدة هي منظمة التحرير الفلسطينية. واستطاعوا كذلك بالنضال الدبلوماسي بعد القوة العسكرية أن يصلوا إلى اعتراف عربي ثم عالمي بالمنظمة بأنها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. وأتيح لعرفات أن يكون ناطقاً باسم الفلسطينيين في الأمم المتحدة.

وهذا التواجد الفلسطيني تعتبره إسرائيل من أخطر التطورات في الساحة، لكنها كانت مطمئنة للحدود السورية والحدود الأردنية أن لا تكون مجال خطر عليها. فالأسد هو القوة الكفيلة بتدمير أي قوة تريد أن تستغل حدوده لمهاجمة إسرائيل، والحدود الأردنية آمنة كذلك. إنما كان مكمن الخطر هو في الوجود الفلسطيني في لبنان. حيث لا توجد حكومة قوية قادرة على ضربه. وكانت الكتائب هي القوة الأولى ابتداءً التي تعلن حربها ضد الفلسطينيين والمسلمين من ورائهم. وحين تجمع المسلمون اسماً وعملاً تحت راية القوات الوطنية، وكادوا يدحرون الكتائب تحركت القوات السورية لنصرة الكتائب النصارى وضرب القوات الوطنية عام ٧٦.

ثم تطور الأمر، حيث حدد للقوات السورية خط أحمر لا تتجاوزه، وأوكل اليها أن تكون هي القوة التي تلجم القوة الإسلامية عن المواجهة الإسرائيلية.

ثم فسحت المجال كاملاً للهجوم الإسرائيلي في الثمانينات. حتى احتُلَّ لبنان ودُمِّرت صواريخها وحطمت قواتها دون أي مواجهة جادة.

وكانت الخطوة الثالثة هي تفكيك التحالف الوطني ليخلي ظهر الفلسطينيين منهم، فأصبحت القوات الطائفية في لبنان تحت إمرته، وهي قوات الشيعة وقوات الدروز. وانقض على الفلسطينيين بعد أن أفردهم في الساحة وحدهم، وحاصرهم في طرابلس.

وكما قامت إسرائيل باخراج عرفات زعيم الفلسطينيين من بيروت مع قواته المتواجدة هناك، قام حافظ أسد بطرد عرفات من طرابلس مع قواته هناك. وهذا هو أهم هدف إستراتيجي ترغب به إسرائيل. وهو إنهاء الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان.

«انكشف[1] النظام على حقيقته، حيث زالت كل البراقع عندما بدأ بتطبيق اتفاقاته التي تقضي بأن تجتاح إسرائيل الجنوب اللبناني حتى بيروت، وتطرد الفلسطينيين من هناك، ويكمل النظام ملاحقة الفلسطينيين في بقية بقاع لبنان. واختار أن يبدأ العملية بأيد فلسطينية، اشتراها من قديم، وبدعم من قواته ومدفعيته ودباباته ضد فتح التي تشكل الهيكل الاساسي في المنظمة، وعلى رأسها عدو أسد الأول عرفات، واستغل الأسد بعض الخلافات في منظمة فتح حول بعض الإصلاحات، فدفع زبانيته جبريل وأتباعه إلى الدخول في الخلاف وتطويره على مستوى المنظمة، وإنشاء محاور معارضة لزعامة عرفات مستغلاً الوضع الجديد الناجم عن حرب ١٩٨٢، وانتقال كثير من كوادر فتح من بيروت وتوزيعهم على بلدان قليلة، إلى جانب أن البيت الفلسطيني كان ينقصه الترتيب والتنظيم بعد حرب مع إسرائيل وحصار دام ثمانين يوماً. وانجرفت قيادات وزعامات في كل من فتح والجبهة الشعبية والشعبية الديمقراطية خلف ادعاءات جبريل وأسد بسذاجة أو غفلة أو عدم حساب للخلفيات التي تتخفى خلف الشعارات المطروحة علناً، ولم يعلم هؤلاء أنهم سيكونون أول ضحايا أسد بعد ذلك عندما ينتهي من استخدامهم في اللعبة ويثبت أنه لم يعد لهم عمل لديه.

ونتابع الآن بعض ما قيل عن ملاحقة النظام للفلسطينيين في البقاع وطرابلس، مستخدماً فصائل التمرد العميلة له، وذلك من أجل إتمام إجلاء الفلسطينيين عن لبنان نهائياً كما هو مخطط له.

ففي ١٩٨٣/٦/٢٣ كتبت الرأي الأردنية تقول: هل من المعقول حقاً أن يتفرج العرب على ستة آلاف مقاتل فلسطيني في البقاع، وهم يدفعون دفعاً إلى التصفية

---

(١) من هنا وحتى صفحات متتالية نقتبس الفقرات التالية حتى (رابعاً) من كتاب (حافظ أسد والقضية الفلسطينية) للأخ الدكتور محمد أحمد مهاجر، وهو كتاب معد للنشر.

بعد أن حاصرهم السلاح الليبي السوري؟ إن المحنة تأخذ طريقها نحو التصعيد، فالاستنفار الشامل يسود البقاع، ليس ضد المعتدين الإسرائيليين بل ضد الفلسطينيين، وبأيدي فلسطينيين مدعومين بالسلاح السوري الليبي.

وفي ٨٣/٦/٢٣ قالت صحيفة النهار اللبنانية «أحد تفسيرين لموقف سورية، هو محاولتها تشديد قبضتها على الورقة الفلسطينية التي عادت إلى الامساك بها بعد حرب حزيران الماضي كي تتمكن من المفاوضة الضمنية أو العلنية مع أمريكا من موقع قوة، وبالتالي من السير في الحلول السلمية التي يعمل لها عرب الاعتدال». وأصدر مكتب منظمة التحرير في عمان حزيران ١٩٨٣ بياناً جاء فيه: إن قوات من جماعة أحمد جبريل أطلقت النار على عناصر من فتح من المواقع السورية، ثم تقدمت هذه القوات مع عدد من الدبابات السورية التي اشتركت بعد ذلك في الرماية». وفي الوقت نفسه نقلت وكالات الانباء أن القوات السورية تحاصر قواعد فتح في طرابلس وبعلبك وغيرها من الأراضي اللبنانية الخاضعة للسيطرة السورية.

وفي ٨٣/٦/٢٣ نقلت وكالد (يونايتد برس) عن عرفات قوله: «بينما كنا في حالة استنفار لمواجهة تهديدات اليهود، طعننا السوريون في الظهر، وقطعوا الإمدادات عن رجالي، فالدبابات السورية تحاصر رجالي وتطوقهم في كل مكان في سهل البقاع. ومضى عرفات قائلاً: إن السوريين يريدون امتلاك القرار الفلسطيني، لكنني لن أتخلى عن هذا القرار لأحد.

وفي ٨٣/٦/٢٤ وجه النظام السوري إلى عرفات وأبي جهاد (خليل الوزير) طلباً بمغادرة الأراضي السورية، وفي مطار تونس قال عرفات: إن قرار نظام أسد بمغادرتي سورية يذكرني بالقرار الذي أجبرني على مغادرة بيروت».

وقالت رويتر في اليوم نفسه نقلاً عن عرفات: «اتهم عرفات أسد بأنه يخطط

لمذبحة ضد الفلسطينيين في سهل البقاع، وفي منطقة طرابلس في شمالي لبنان».

وجاءت ردود الأفعال من أمريكا وإسرائيل على الشكل التالي:

شولتز في تصريح له تناقلته وكالات الأنباء والصحف وقتها قال: إني أنظر بارتياح إلى الدور الذي تقوم به سورية من أجل السيطرة على منظمة التحرير.

ونقلت (الرأي) الأردنية ٨٣/٦/٢٦ عن مصدر صهيوني قوله:

«من الناحية الأمنية فإن إسرائيل تهتم أكثر بأن يصبح الفلسطينيون تحت السيطرة السورية بدلاً من أن يتصرفوا بصورة مستقلة».

وصرح مصدر إسرائيلي في الصحف الإسرائيلية: إن الذي حدث من الانشقاق هو البرهان على أن حرب لبنان قد حققت هدفها الحقيقي، وهو نسف بنية المنظمة. وبهذا يتسنى لإسرائيل ضم الضفة الغربية على نحو أفضل».

وقد اتخذ أسد صواريخ سام (٥) وتهديدات إسرائيل ذريعة لإدخال مزيد من القوات البالبقاع، وهذا كان الغطاء، إلا أن الهدف كان الضغط على فتح لنقل قواتها إلى الشمال نحو طرابلس وهناك يجمعها جميعاً ويحاصرها. ويقودها إلى الخروج الثاني عن طريق البحر بعد حصار اشتركت فيه سورية وأتباعها من المتمردين وليبيا من البر، وإسرائيل من البحر. وهكذا تتضح بشكل لا لبس فيه خيوط المؤامرة الأسدية الإسرائيلية في حصار طرابلس، أسطول اسرائيلي يحاصر ميناء المدينة لمنع الإمدادات، ويقصف القوات المشتركة الفلسطينية الإسلامية، وطوق من الخارج يقوم به أسد، وقوات ليبية وقوات المتمردين يجبرون عرفات وقواته في النهاية وحفاظاً على المدينة من الدمار النهائي على مغادرة المدينة بحراً. وكان ظن أسد وحلفائه يهود أن يكون دفن القوات الفلسطينية داخل المدينة، والانتهاء منها. إلا أن الأمر لم يتم، وخرجت القوات الفلسطينية لتعود مرة أخرى إلى الجنوب وبيروت»

ثانياً: افشال محاولات الوحدة بين الفصائل الفلسطينية:

بعد أن نجح أسد في إحداث ذلك الشرخ في الصف الفلسطيني الموحد تحت راية منظمة التحرير مستغلاً قضية التنقلات في المراكز والمهام لبعض القياديين من فتح الذي اتخذته المنظمة بعد الخروج من بيروت، وبعد أن نجح في ضم بعض كوادر فتح وعدد من الفصائل التي غفلت عن خيانات أسد وإجرامه بحق الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين، وجمعها إلى جانب فصائل أخرى مثل جبريل وجبهته في مجمع واحد هو جبهة الإنقاذ، التي لم تكن أكثر من رأس حربة يقذفها أسد حيث يريد الصيد.

بعد هذا توجه أسد إلى تكريس هذا الشرخ وجعله قاعدة تنشأ على أساسها الواهي منظمة بديلة لمنظمة التحرير الشرعية. لذلك كان ضربه لطرابلس ومخيمات البداوي ونهر البارد ضرباً مؤلماً وموجعاً، استعمل فيه الصواريخ والدبابات والمدفعية الثقيلة والراجمات الصاروخية، وأصر إصراراً عجيباً على شرط خروج عرفات ومقاتليه من طرابلس نهائياً، حتى تحقق له ذلك، ولكن إلى حين.

وأما فوق الأراضي السورية فقد أطلق زبانيته من الذين باعوا أنفسهم له بالاشتراك مع الصاعقة[1] والمخابرات السورية لاحتلال كل مكاتب المنظمة وما

---

(١) الصاعقة هي المنظمة الموالية لسورية، نذكر عنها ما يلي من كتاب " أوراق سرية لسعيد الجزائري"، والتي تمثل وثائق السفارة الأمريكية بطهران عام ١٩٨٠:

الصاعقة التي أوجدها حزب البعث السوري، تنحو بالمقاومة الفلسطينية نحو المصالح الوطنية السورية، إنها تمثل الاعتدال في المنظمة، لا في موضع واحد، حدث سنة ١٩٧٦ عندم اصطدم ا السوريون والفلسطينيون بلبنان فعاضدت الصاعقة السوريين، هي ترمي إلى وطن فلسطيني بالضفة وغزة، وتتكون من ٢٥٠٠ عنصر، نصفهم من القوات المسلحة السورية، وهي الثانية في المنظمات الفدائية من حيث سعتها، إن المنظمة المتفرعة منها تشابه الخيش السوري، فإنهم =

=

يتلقون من المستشارين السوفييت والجيش السوري تدريباً، إن الصاعقة لم تفعل شيئاً بإسرائيل ولا بالأراضى المحتلة لعلاقتها بسورية، وإنما مارست إرهابا دولياً للحيلولة دون هجرة اليهود السوفييت. لقد ماست عملياتها في أوربا الشرقية، ولهذه المنظمة دور حصان طروادة في المناورات السورية في الحركة االفلسطينية. إن مراميها هي مرامي سورية تماماً، إن عرفنا السياسة السورية عرفنا الصاعقة. إن سورية والصاعقة توافقان المنظمة على وطن فلسطيني بالضفة وغزة، وعلى مشاركتها في مؤتمر جنيف، الصاعقة تؤيد حملات سورية على لبنان، لذلك انسلخت عن كثير من المنظمات الفلسطينية.

الزعيم: زهير محسن هو زعيم الصاعقة المولود بطولكرم في سنة ١٩٣٦، والمنتمي إلى حزب البعث في فتوته، والموقوف بالأردن بعد منع حزب البعث في سنة ١٩٥٧، والمعلم بمدارس قطر، والمطرود من قطر بسبب نشاطاته السياسية غير المشروعة، والمقيم بالكويت إلى سنة ١٩٦٧، والآتي بعد ذلك دمشق، والنشيط في حزب البعث، والموالي لصلاح جديد، والمرتبط بالصاعقة منذ إنشائها في سنة ١٩٦٧، والمتزعم الصاعقة بلبنان في سنة ١٩٦٨، والغادي نائب رئيس المجلس الوطني الفلسطيني. وبعد انقلاب حافظ أسد في سنة ١٩٧١ اندغم محسن بالقائد الجديد، فسيطر كل السيطرة على الصاعقة في سنة ١٩٧١، وصار عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيس الدائرة العسكرية فيها، إنه خاضع لسورية في القضايا الفلسطينية وقضايا الشرق الأوسط كل خضوع، لذلك صار معروفاً بأنه ألعوبة السياسة السورية بلبنان. لذلك نفر منه الفدائيون إلا الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأحمد جبريل.

ولدت الصاعقة في المؤتمر التاسع لحزب البعث السوري، دخلت لبنان بأوامر سورية كيما تظهر وجودها. وفي شهر مايس ١٩٧٨ حالف زهير محسن المجموعات الرافضة كالجبهة الديمقراطية...والمشرف على الصاعقة هو الاستخبارات العسكرية السورية، فإن ٥٠٪ من قيادات المنظمة و٧٥٪ من الضباط هم من الجيش السوري" أوراق سرية لسعيد الجزائري، ص ص ١٧٩-١٨٣ مقتطفاً.

ويقول هذا الكتاب عن الجبهة الشعبية - القيادة العامة:

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. القيادة العامة، أحمد جبريل.

أسسها أحمد جبريل الذي هو أهم الإستراتيجيين الفلسطينيين. لقد حول الجبهة من عسكريتها المستقلة ضد إسرائيل إلى ما يبدو اندغاماً لا خلاص منه للسياسة السورية . مساندة جبريل للتدخل السوري بلبنان في سنة ١٩٧٦ ضد المقاومة الفلسطينية أدت إلى انشقاق في الجبهة. اعضاؤها ٢٠٠-٣٠٠ عنصر. هذه الجبهة التي لا تتقيد في تنظيمها تعتمد على سورية في
=

يتبع لها من مؤسسات ومخازن وقواعد. كما دفع وشارك في مزيد من الانقسامات عندما تشرذمت الفصائل إلى محاور مثل التحالف الديمقراطي الذي يضم الجبهات التي لم تشترك في القتال في طرابلس والشمال مثل الجبهة الشعبية والشعبية الديمقراطية والتحالف الوطني الذي ضم التشكيلات العميلة أصلاً مثل الصاعقة وجبريل، وأبو صالح، وأبو موسى، وغيرهم من كوادر فتح التي انضمت إلى أسد. وبقي في خارج سورية المحور الشرعي الذي يترأسه ياسر عرفات. ولقد رفض أسد كل محاولات المصالحة واللقاء سواءً بينه وبين المنظمة برئاسة عرفات أو بين هذه وبين المجموعات الفلسطينية الأخرى.

الإثبات: نشرت الشرق الأوسط بتاريخ ٨٤/١/٢٨ في مقابلة هاتفية مع أبي جهاد (خليل الوزير) قوله إنه خلال اجتماع المجلس الثوري في دورته الأخيرة والاجتماعات التي ستعقدها اللجنة المركزية هذه الأيام تقرر معالجة آثار الجرح الذي نتج عن الموقف السوري الليبي الذي استخدم أدواته في الساحة الفلسطينية لمحاولة المساس بوحدة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها.

-إن اتخاذ المنشقين من الاراضي السورية مركزاً لهم ومنطلقاً لهو أكبر برهان واثبات على أصابع النظام في ذلك الانشقاق .

-إن تزعم الصاعقة وجبريل لجبهة المتمردين لهو وثيقة إثبات قاطعة على تدخل النظام بل وصناعته للتمرد والانشقاق.

=

الحصول على الأسلحة الروسية، كما تعتمد على ليبيا في تدريب الفدائيين والطيارين، ولأن بين القذافي وجبريل صداقة قوية فهي تأخذ من ليبيا أموالاً كثيرة، كان جبريل حتى مايس ١٩٧٧ مسيطراً على مكاتب القيادة بعين الحلوة، وللجبهة معسكرات تدريب بسورية" أوراق سرية... ص ص ٢٢٤-٢٢٨ مقتطفات.

-قيام المخابرات السورية بالتعاون منع العناصر العميلة باحتلال كل ما تملكه المنظمة على الأرض السورية بتشجيع من المسؤولين دليل إثبات آخر.

-جاء في قرارات المجلس الثوري لفتح الذي نشرته فلسطين الثورة في ٨٤/١/٢١: «يدين المجلس الثوري مؤامرات النظامين السوري والليبي ضد الشعب الفلسطيني والقضية الوطنية الفلسطينية، ومحاولة فرض الوصاية والتبعية على منظمة التحرير الفلسطينية والثورة الفلسطينية والمساس بالقرار الفلسطيني المستقل.

ويدين المجلس كل الأصوات وقيادات التنظيمات الفلسطينية التي شاركت في حمل السلاح، أو حرضت على القتال ضد الشعب الفلسطيني، وقصفت مخيمات الشمال اللبناني، واعتبارها أدوات عميلة ومجرمة استخدمت غطاء المؤامرة السورية - الليبية، مرتكبة الخيانة العظمى بحق الشعب الفلسطيني وقضيته».

وحمّل أبو إياد النظام السوري مسؤولية المحاولة الانقلابية التي قام بها المنشقون، وذلك خدمة لأهداف النظام السوري في احتواء المنظمة ومصادرة قرارها الوطني المستقل. وأضاف: إن المؤامرة استهدفت سرقة النصر الذي حققناه في بيروت ضد العدو، ومع الأسف سرقوه من أيدينا من خلال حفنة من المتآمرين على المنظمة الذين قاتلونا بوحشية، وتساءل: كيف يحق للنظام السوري أن يتهمنا بالتخلي عن الكفاح المسلح وهو الذي قام بضربنا وطردنا من الأراضي اللبنانية تنفيذاً لاتفاقه مع فيليب حبيب في ٨٢/٦/١٠ والذي ينص على مغادرة قواتنا الأراضي اللبنانية؟» [1].

---

(١) جريدة صوت الشعب الأردنية ٨٤/١١/٢٧ عدد ٦٤٨.

-قال ياسر عرفات: إن النظام السوري رفض جميع المحاولات والمساعي لتصفية الأجواء بين المنظمة وسورية لإصراره على تصفية المنظمة وجعلها موالية لسورية. وأضاف: إن ما تقوم به سورية يتطابق مع ما صرّح به شولتز ثلاث مرات من أن واشنطن مرتاحة لدور سورية للسيطرة على منظمة التحرير، وأنها تقوم بدور بناء في ذلك. وقال: إن التمرد في فتح إنما يستمر بدعم من المخابرات السورية« [1].

ثالثاً: أسد والمجلس الوطني الفلسطيني:

ولما كان انعقاد هذا المجلس عام ١٩٨٤ بمثابة الأمل عند الفلسطينيين للتخلص من كابوس الاحتواء والسيطرة الذي كان يريده النظام السوري من العلاقة بينه وبين المقاومة الفلسطينية، فإن النظام طارد منظمة التحرير الفلسطينية في كل مكان، ومارس ضغوطاً هائلة على كل دولة كانت تحبذ عقد المجلس على أراضيها، وشن حملة إعلامية شرسة من أجل إقناع الجماهير بأن انعقاد هذا المجلس إن هو إلا مؤامرة عرفاتية استسلامية تريد التسليم للأعداء بمطالبهم، ويريد عرفات أن يمهر هذا الاستسلام بخاتم فلسطيني شرعي. وركزت كل وسائل الإعلام في النظام على هذا، بالإضافة إلى مراهنتها على أن النصاب لم يتم لانعقاد المجلس. كما أضاف النظام ضغطه على كل الفلسطينيين المقيمين على أرضه أو الأرض اللبنانية من أجل منعهم من الحضور كي يفشل اللقاء، ملتقياً بذلك مع إجراءات يهود بمنع الموجودين على أرضها من المغادرة.

وأخيراً خرج الأردن من طوق الضغط الذي شكله النظام السوري، وتبرع بعقد لقاء المجلس في عمان، ودخل الأردن وقتها في ساحة الحملة الإعلامية

---

(١) جريدة الثورة العراقية، ٨٣/٧/١٩.

البذيئة التي شنها النظام بواسطة زبانيته وعملائه من جبهة الإنقاذ وغيرهم.

ونحن إذا ألقينا نظرة سريعة على صحف وإعلام تلك الفترة نحصل على فائدة توثيق وتأييد ما ذهبنا إليه في السطور السابقة:

-في تصريح للسيد صلاح خلف قال: «إن ١٣ عضواً من أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني المنتمين لمنظمة فتح والمقيمين حاليا في دمشق قدموا استقالاتهم من عضوية المجلس بسبب منع النظام السوري لهم من الحضور، كي لا يحسبوا ضمن نطاق أي مؤتمر مزيف قد يدعو لعقده النظام السوري والأطراف التي يهيمن عليها» [١]

وقال صلاح خلف (أبو إياد): «إن المجلس الفلسطيني في دورته السابعة عشرة سوف يدرس موضوع تنحية السيد خالد الفاهوم من رئاسة المجلس، لأنه خان الشرعية الفلسطينية بتحريضه الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي بعدم الحضور إلى دورة المجلس الوطني الحالية. وأضاف: إن الجبهة الديمقراطية كذبت ما ورد على لسان السيد الفاهوم في مؤتمره الصحفي الذي عقده في دمشق أمس، والذي ادعى فيه أن أعضاء الجبهة الديمقراطية في المجلس الوطني قد وقعوا وثيقة تنص على عدم اشتراكهم في أعمال المجلس في دورته الحالية. وتلا السيد خلف برقية عاجلة وصلته للتو أثناء عقده مؤتمراً صحفياً في عمان أمس» [٢].

إذن فالنظام عمل على ثلاثة محاور في سبيل إفشال انعقاد دورة القرار الفلسطيني المستقل، محور منع الأعضاء القاطنين في سورية وغيرها من حضور

---

(١) فلسطين الثورة، عدد ٥٣٦، ٨٤/١٢/٨.

(٢) صوت الشعب الأردنية، ٨٤/١١/٢٢.

الدورة إما بالحجز وإما بالتهديد. ومحور الهجوم الإعلامي على المؤتمر وتشويه سمعة القائمين عليه، ومحور الضغط على الدول من أجل عدم قبول انعقاده على أراضيها.

ولقد نجح النظام جزئياً في هذا السبيل، إلا أن النصاب لانعقاد الجلسة قد اكتمل، وذهبت جهود النظام أدراج الرياح، وعاد يجتر المواقف، ويطلق الدعايات والادعاءات من أجل إنقاذ سمعته.

ومن أجل هذا وجه النظام إلى الفلسطينيين أعضاء المنظمات وغيرهم رسالة توضح لهم أن من يحضر أية مؤسسة من المؤسسات الفلسطينية لا مكان له في دمشق» [1]

كما قام الإعلام السوري من (التلفاز) و(الراديو) والصحف بإجراء مقابلات مع المنشقين والعملاء أذيعت وتتابعت قبل انعقاد المجلس وأثناءه، تتهم وتندد وتشوه صورة المجلس وصورة المشاركين فيه، وقد سمع العالم ورأى بالصورة والصوت والكلمة المكتوبة إلى أي مدى انحدر النظام وأدواته في الإقذاع والتشهير اللذين لا ينمان إلا عن خيبة الأمل وفقدان الصواب والرشد. إن النظام توسط لدى الجزائر وليبيا وغيرهما من الدول من أجل عدم قبول انعقاد المجلس فوق أراضيهما، ومارس ضغوطاً شديدة على التحالف الديمقراطي الفلسطيني من أجل عدم الوصول إلى حل مع فتح، سواء في مؤتمر عدن أو الجزائر، وكانت تعثرات الوصول إلى حل بين فتح من جهة، والتحالف من جهة أخرى عاملاً هاماً في دفع انعقاد دورة المجلس الوطني الفلسطيني إلى مواعيد لاحقة مرات» [2]

---

(١) أبو جهاد في مقابلة نشرت مع جريدة الشعب الأردنية ٨٤/١١/٢١.

(٢) المصدر السابق.

هذا مع اعتراف الجميع بأهمية انعقاد هذه الدورة وحضور الجميع من أجل إجراء الحوار الذي يخرج المنظمة من مأزقها، ويضع النقاط على الحروف بعد تفاقم عمليات التمرد والانشقاق، إلا أن النظام ظل يتسبب بضغوطه تلك ليبقي على موازين المنظمة ومصير العمل الفلسطيني عائمة فوق أمواج الفعل ورد الفعل الكلامي والعملي» [١]

وإن قبول الأردن انعقاد المجلس فوق أراضيه واكتمال النصاب العددي لانعقاد الدورة فوتا الفرص كلها على النظام، وبقي له حفنة من التهجمات أتاح لأدواته أن تنفثها من منابره الإعلامية الكثيرة، وكانت زوبعة في فنجان، وتكللت زيارة أسد للجزائر في حينه من أجل اقناع الجزائر بعدم استضافة المؤتمر بالفشل» [٢]

ولما لم يجدِهِ شيئاً أخذ يتذرع بعودة العمل الفلسطيني المسلح إلى لبنان عن طريق المخيمات في بيروت والجنوب من أجل حملة انتقامية وحشية يتبقى من ورائها اجتثاث الوجودالفسلطيني نهائياً. ولقد تخفى هذه المرة خلف عملائه من الميليشيات الطائفية التي زودها بالدبابات والأسلحة الثقيلة، حيث قامت بالهجوم على بيروت ومحاصرتها فيما يسمى بحرب المخيمات. ويكون نظام أسد قد أضاف خيانة جديدة إلى خياناته الكثيرة السابقة التي عمل فيها شريكاً مضارباً لأمريكا وإسرائيل في سبيل إنهاء الوجود الفلسطيني» [٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مجلة أفريك آسيا عدد تشرين أول/ ٨٤.

(٣) الى هنا ينتهي اقتباسنا من كتاب "أسد والقضية الفلسطينية" معد للنشر للدكتور محمد أحمد مهاجر وذلك من الصفحات ١٨٧-١٩٥. بعد الاذن من المؤلف حفظه الله.

رابعاً: حرب المخيمات الفلسطينية:

وقد تولت حركة أمل الشيعية المنفذة لمخططات النظام السوري وبالتواطؤ معه عملية الإبادة الفلسطينية الجديدة، والتي استمرت شهراً كاملاً تقريباً.

فبعد البدايات الأولى لإطلاق النار ليلة الاثنين ١٩٨٥/٥/٢٠ اقتحمت ميليشيات أمل مخيمي صبرا وشاتيلا، وقامت باعتقال جميع العاملين في مستشفى غزة، وساقوهم مرفوعي الأيدي إلى مكتب أمل في أرض جلول، كما منعت القوات الشيعية الهلال والصليب الأحمر وسيارات الأجهزة الطبية من دخول المخيمات، وقطعت إمدادات المياه والكهرباء عن المستشفيات الفلسطينية.

وفي الساعة السابعة من اليوم نفسه تعرض مخيم برج البراجنة لقصف عنيف بقذائف الهاون، وكانت السيطرة في البداية لقوات أمل. ويظهر أن القيادات العسكرية للمخيمات لم تكن تشعر بالمؤامرة وأبعادها، ولذلك فلم تتحرك جدياً إلا في الساعة التاسعة صباحاً، ورغم هذا التأخير فقد تمكنوا من صد الهجوم سريعاً بسبب خبرتهم القتالية الجيدة، والاحتياطات التي علمتهم المجازر السابقة أن يتخذوها تحسباً لمثل هذا الموقف، ولم تأت الساعة الثانية عشرة ظهراً إلا وقوات أمل قد أجبرت على الخروج من المدينة الرياضية، بل ومن منطقة الفاكهاني عموماً، ومن محيط الجامعة العربية، وتوصل المدافعون عن المخيمات إلى السيطرة على قصر العويني الكائن على طريق المطار، وربطوا مخيم صبرا بمخيم شاتيلا، ثم شقوا الطريق من هذين المخيمين إلى مخيم بئر حسن كي يربطوا هذه المخيمات بمخيم برج البراجنة إلى الشرق من طريق المطار.

وكان تبرير إعلام نظام دمشق لهذه الهجمة هو أن أتباع عرفات الخونة يحاولون العودة والتسلل إلى المخيمات بعد طردهم منها. ولكن الذين حصل أن

جميع المقاتلين الفلسطينيين بما فيهم جبهة الإنقاذ شاركوا في الدفاع عن المخيمات، ودافع رجالها عن أنفسهم وذويهم، وكانت تصريحات قادتهم تتراوح بين الهجوم المقذع على ياسر عرفات ومن معه، وبين النقد الهادئ لنظام أسد، غير أن القيادات التي غادرت دمشق كانت أكثر حرية.

انطلقت حرب أمل المسعورة بحقد على الرجال والنساء والأطفال، ولم تتوقف عند هذا الحد، وانما امتدت أيديهم القذرة لتطول المستشفيات ودار العجزة. لقد أحرقوا بنيرانهم بعض غرف الطابقين الرابع والخامس من مستشفى المقاصد الخيرية، كما أحرقوا جزءاً من دار العجزة.

وأصدر نبيه بري أوامره لقادة اللواء السادس في الجيش اللبناني لخوض المعركة، وليشارك قوات أمل في ذبح المسلمين السنة في لبنان، ولم تمض ساعات إلا واللواء السادس يشارك بكامل طاقاته في المعركة، وقد قام بقصف مخيم برج البراجنة من عدة جهات. ومن الجدير بالذكر أن أفراد اللواء السادس كلهم من طائفة الشيعة، وقد خاض هذا اللواء معارك شرسة ضد المسلمين السنة في بيروت الغربية، واستمرت المعارك بقية اليوم وفي الليل، وتمكنت أمل من إحراز بعض التقدم، لكن ما أن حل الليل حتى تراجعت تحت ضغط المقاتلين الذين استفادوا من حلول الظلام في الحركة بحرية، وفي الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ١٩٨٥/٥/٢١ وجه اللواء السادس نداءات بواسطة مكبرات الصوت إلى سكان المخيمات تطالبهم بإخلائها تجنباً للقصف، وقد سارعت العائلات على الفور بالنزوح من منازلها، واللجوء إلى المدارس والمساجد والأحياء الآمنة. ولم تدم هذه الهدنة إلا وقتاً قصيراً، ففي السابعة والنصف عاد القصف مرة أخرى من طرف أمل، وتوقف نقل الجرحى وظلوا ينزفون حتى الموت، حتى إن بعض التقارير قالت إن طفلاً من المصابين يموت كل خمس

دقائق. وعندما تبين لكل ذي عينين هدف أمل التآمري تحركت القوات العسكرية المحسوبة على أهل السنة في لبنان، ففي يوم الثلاثاء ١٩٨٥/٥/٢١ دخلت قوات (شاكر البرجاوي) و(المرابطون) في معارك مع أمل في منطقة الطريق الجديدة وشارع حمد، ومحيط جامعة بيروت العربية، كما أقاموا نقاط تفتيش مشتركة مع الفلسطينيين في مخيم عين الحلوة خارج صيدا. وقد أربك هذا العمل خطوط أمل الخلفية، وكانت المعارك في قمة الضراوة في هذين اليومين الإثنين والثلاثاء، ويقال إن عدد القتلى وصل في هذين اليومين إلى ١٠٠ قتيل و٥٠٠ جريح من سكان المخيمات وحدها».

كانت محاولات وقف إطلاق النار تستمر خلال الأيام الأولى عدة مرات، وتعود أمل وتخرق وقف إطلاق النار، ويقف الدروز على الحياد في المعركة بينما يقف الموارنة والنصيريون في صف واحد مع الشيعة، فقد «انضم اللواء الثامن في يوم السبت ١٩٨٥/٥/٢٥ إلى أمل في حربها ضد الفلسطينيين، وقام سلاح الطيران اللبناني بالتحليق فوق مخيم برج البراجنة، وأطلق زخات من الرشاشات الثقيلة على المواقع الفلسطينية، وطوّق جيش النظام النصيري مخيم الجليل الفلسطيني في منطقة البقاع، وقام باعتقال عدد من شباب المخيم» (١).

«وفي يوم الخميس ١٩٨٥/٥/٣٠ تدخل الطرف الذي تجري لمصلحته هذه المعارك، إذ اخترقت أسراب الطائرات اليهودية جدار الصوت فوق المخيمات محدثة دوياً هائلاً، وواصلت تحليقها بارتفاع منخفض فوق بيروت والجبل كي تدخل مزيداً من الرعب إلى قلوب الأطفال والشيوخ والنساء في المخيمات المنكوبة» (٢).

---

(١) مقتطفات من: أمل والمخيمات الفلسطينية، لعبدالله محمد الغريب، من ٦٩-٧٩.

(٢) المصدر نفسه/ ٨٠-٨١.

لقد كان الذراع الطويل الذي يضرب هو ذراع الشيعة التي تمثلها (أمل)، وشارك في الضرب المارونيون كذلك، ووراءهما النصيريون الذين يخططون ويمدون من وراء الخطوط الأمامية، والجميع يعملون لصالح اليهود في إسرائيل وينفذون مخططهم في ضرب الشعب الفلسطيني وذبحه. إنها خطوط مرسومة تلتقي جميعها على ذبح الشعب الفلسطيني والسنة من ورائه الذين يساندون وجوده في لبنان.

وفي صباح يوم الجمعة ١٩٨٥/٥/٣١ تم سقوط مخيم صبرا، وأعلنت أمل في ضحى اليوم نفسه ومن غير مقدمات وقف إطلاق النار من موقف واحد. ولكن المقاتلين الفلسطينيين لم يتوقفوا، وإنما بقيت لهم جيوب داخل المخيم، وكان الهدف من وقف إطلاق النار إعطاء فرصة لبولدوزرات أمل واللواءين السادس والثامن لتهديم ما تبقى على وجه الأرض من منازل ومرتفعات، ولكي تسوى جميع المنازل بالأرض - على حد تعبير نايف حواتمة - فلا يبقى بعدها حواجز يقف وراءها الفلسطينيون في الدفاع عن انفسهم، وكان مما ساعد على سقوط مخيم صبرا رغم استبسال المقاتلين بالدفاع عنه لمدة ١٢ يوماً توقف الدعم العسكري القادم من القوات الفلسطينية في الجبل، وكان هذا التوقف قد بدأ منذ بضعة أيام، لذا سهل على أمل توجيه قصف مدفعي شديد بكل العيارات على المخيم، مما أدى إلى تدميره تماماً، حتى إن المقاتلين الفلسطينيين اضطروا إلى استخدام السلاح الأبيض لفك طوق أمل حولهم والانسحاب من المخيم»[1].

«ومن جهة أخرى فإن المعارك انخفضت حدتها حتى نهاية يوم الإثنين ١٩٨٥/٦/٣، حيث تبين لنظام دمشق أن الفلسطينيين لم يذعنوا للأوامر الصادرة

---

(١) أمل والمخيمات الفلسطينية، للغريب/ ٨٢-٨٣.

عن أسد، ولا بد من سحقهم حتى لا تقوم لهم قائمة، ولهذا اشتدت المعارك يوم الإثنين، ورمت سورية بثقلها، فأقدمت على قتل عشرات من الفلسطينيين الذين خرجوا بمظاهرات في دمشق يوم الثلاثاء ١٩٨٥/٦/٤ احتجاجاً على تواطؤ سورية مع أمل. كما تم اعتقال أكثر من ٧٠٠ شخص، واحتلت السلطة مكاتب جبهة الإنقاذ، وصادرت ممتلكاتها، مما دفع بعض قادة الجبهة إلى التقارب مع المنظمة، حيث التقى كل من عزمي الخواجة (ممثل الجبهة الشعبية) ووليد مصطفى (ممثل الحزب الشيوعي) مع خليل الوزير نائب ياسر عرفات، وأصدروا في عمان - وللمرة الأولى - بياناً مشتركاً يدعو إلى تحقيق الوحدة الفلسطينية، ويندد بأمل والجيش اللبناني ومن يساندهما. ولم تبلغ بهم الجرأة للحد الذي يمكنهم من التصريح بذكر اسم نظام دمشق».

كانت أمل تتبع أسلوباً معروفاً: اذبح وفاوض، وقد صعدت عملياتها يوم الاثنين ٦/١٠، وفي اليوم نفسه عادوا إلى اجتماع في دمشق برعاية خدام حضره جنبلاط وممثل عن أمل، ويبدو أن هذا الاجتماع كان لحل الخلافات التي نشبت بين الدروز والشيعة، وبشكل أخص معركة يوم الثلاثاء ٦/١١، التي استمرت عشر ساعات متواصلة، وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يقوم الدروز بإجلاء الفلسطينيين عن بيروت الغربية - الفاكهاني والمصيطبة - إلى منطقة الانتشار العسكري الدرزي في الجبل شرقي العاصمة، الأمر الذي يبعد خطر مشاركتهم في الدفاع عن أهليهم وذويهم في المخيمات. وفي هذا اليوم صرح جنبلاط أن تحالفه مع أمل تحالف مصيري، وأعلن عن رفضه لعودة الفلسطينيين إلى الوضع الذي كان سائداً قبل الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ . أما النظام اللبناني فوقف مع أمل في خندق واحد، وناب عنه اللواء السادس والثامن، وعقد اجتماع دمشق للمرة الثالثة يوم السبت ٦/١٥، وفشلت المشاريع المطروحة للحل، ورافق

فشل الاجتماع تصعيد عسكري من قبل أمل، والذي زاد من غيظ بري وخدام أن خمسين مقاتلا فلسطينيا تمكنوا من التسلل يوم الاثنين ٥/١٠ إلى مخيم شاتيلا، كما نجحت مجموعتان أخريان في نفس اليوم من احتلال مواقع في مخيم برج البراجنة.

وما اكتفى نظام أسد بما فعله في مخيمات لبنان وبأنصار عرفات، وإنما راح يبطش بعملائه من جبهة الإنقاذ، ففرضت الإقامة الجبرية على ياسر عبد ربه الأمين العام للجبهة، وصودرت جوازات سفر قيادة الجبهة، كما صودرت سيارات المنظمات، ومنعت السلطة مجلتي الحرية والهدف الناطقتين باسم الجبهة الديقراطية والجبهة الشعبية. وهذا المنتظر من أسد، وهذه عقوبة كل خائن..

ولو طلب منا أن نلخص سير المعارك بكلمات قليلة لقلنا:

كان السنة من اللبنانيين والفلسطينيين طرفاً، وكان الرافضة والموارنة واليهود والنصيريون طرفاً آخر، وكانت المعارك طاحنة ليس فيها رحمة أو شفقة.

وشهد المسلمون في المخيمات شمس يوم الثلاثاء ٦/١٨ بعد أن اعتادت عيونهم على ظلام الملاجئ التي لا يضيئها غير وميض الرصاص ولهيب الحرائق، واعتادت أنوفهم على استنشاق روائح الجثث العفنة. خرج المسلمون الفلسطينيون من المخابئ بعد شهر كامل من الخوف والرعب والجوع دفعهم لأكل القطط والكلاب. خرجوا من المخابئ ليشهدوا أطلال بيوتهم التي تهدم ٩٠٪ منها كما تقول بعض الإحصائيات. خرجوا من الملاجئ بالخسائر التالية كما ذكرت كثير من وكالات الأنباء: ٣١٠٠ بين قتيل وجريح، ١٥ ألفاً من

المهجرين، أي ٤٠٪ من سكان المخيمات»[١].

لقد دخل حافظ أسد لبنان عام ١٩٧٦ نصراً للموارنة ضد الفلسطينيين والدروز والشيعة ... كانوا جبهة واحدة، وها هو بعد تسع سنين يجعل السنة وحدهم في العراء مع الفلسطينيين ويضم الدروز والشيعة والموارنة والنصيرية في صف واحد تحت قيادته لإبادة الفلسطينيين.

ووضع أسد كل إمكاناته في تنمية هذه الطوائف لتحقق الهدف المنشود في ذبح الفلسطينيين، ولعله استحيا من أداء دوره المباشر والمفضوح وهو بطل الصمود والتصدي.

«فقد نقلت وكالة الصحافة الفرنسية في ١٩٨٥/٨/١ أن وحدات من الجيش اللبناني بدأت تتسلم عدداً من الدبابات أرسلتها سورية إلى حركة أمل، وكانت حركة أمل قد تسلمت في ١٩٨٥/٧/٣١ في بيروت خمسين دبابة (تي ٥٤) سوفياتية الصنع لتدعيم القوة العسكرية للحركة وبعض ألوية الجيش اللبناني.

وذكر المصدر نفسه أن ٢٢ دبابة سلمت إلى اللواء السادس، بينما سلمت عشر دبابات أخرى إلى الكتيبة ٨٧ في الجيش التي انتشرت على الطريق الساحلي بين بيروت وصيدا.

وعلم من مصدر موثوق أن خمسين دبابة جديدة ستسلمها سورية في غضون الأسابيع القادمة إلى حركة أمل، وسيستلم الحزب التقدمي الاشتراكي عشرين دبابة من طراز (تي ٥٤ وتي ٥٥).

وعلم من مصدر موثوق به لدى الحزب التقدمي الاشتراكي أن الحزب لديه في الوقت الراهن نحو تسعين دبابة سوفياتية الصنع، و١١٠ سيارة مدرعة

---

(١) أمل والمخيمات الفلسطينية، للأستاذ الغريب، مقتطفات ن صفحات ٨٤-٨٨.

وعربات مجنزرة»[1].

خامساً: مجزرة طرابلس[2]

«الذين يراقبون الأحداث في لبنان كانوا يعلمون أن النظام النصيري المجرم وعملاؤه سيرتكبون مجزرة في طرابلس الشام، وسيحاولون هدم المدينة إن استطاعوا. ولذلك أسباب كثيرة من أهمها ما يلي:

١-دخل هذا النظام لبنان عام ١٩٧٦ لإذلال أهل السنة، وكانت معاركه ضدهم ابتداء من مخيم تل الزعتر ومروراً بمخيمات صيدا وانتهاء بمحاولة تدمير مخيمات برج البراجنة وصبرا وشاتيلا في منتصف الشهر الخامس من عام ١٩٨٥.

وكانت معاركه مع غير أهل السنة ليست أكثر من مناوشات يحسب لها النظام النصيري ألف حساب، لأنه يعلم أن إسرائيل مسؤولة عن حماية الموارنة والدروز، وإيران مسؤولة عن حماية الشيعة، ودخول جيش هذا النظام إلى لبنان جاء حسب اتفاقيات ومعاهدات لا يستطيع أن يتجاهلها بحال من الأحوال.

٢-صدر عن قادة الجماعات الإسلامية في طرابلس تنديدات بمنظمة أمل ومن وراءها، وأعلنوا عن استعدادهم للقتال ذوداً عن المخيمات الفلسطينية، ونظام دمشق الجبان يخشى من مثل هذا الموقف، وترتعد فرائصه من صحوة أهل السنة في بلاد الشام، ومن قيام تنظيم يوحد شتاتهم ويضعهم أمام مسؤولياتهم التاريخية.

٣-يرى الحاكم بأمره في دمشق أن طرابلس جزء لا يتجزأ من سورية

---

(١) أمل والمخيمات الفلسطينية، للأستاذ الغريب/ ١١٧.

(٢) الفصل بكامله منقول من المصدر نفسه بتصرف.

تاريخياً، ومن ثم فالبقاع وطرابلس وسائر مناطق الشمال تعد من الكانتون السوري المتفق عليه في تقسيم لبنان، وقد كانت إسرائيل والولايات المتحدة الامريكية طرفاً في هذا الاتفاق مقابل سكون نظام دمشق عن المطالبة بالجولان.

٤-يخشى نظام دمشق من استمرار سيطرة قوات التوحيد الإسلامي على مرفأ طرابلس، وما يترتب على هذه السيطرة من مخاطر. كما يخشى من الأسلحة التي يمتلكها المسلمون السنة في طرابلس.

٥-سيكون موقف النظام السوري ضعيفاً في مؤتمر القمة العربي القادم، كما أن موقفه سيكون ضعيفاً في الصفقات التي يعقدها مع إسرائيل والولايات المتحدة الامريكية إذا كانت مدينة طرابلس ليست خاضعة تماماً لسيطرة نظام (أسد).

لهذه الأسباب مجتمعة كان لا بد من معركة فاصلة لهذا النظام مع المسلمين السنة في طرابلس، ولهذه الأسباب حرك النظام عملاءه في حي (بعل محسن) النصيري، كما حرك الأحزاب العميلة: الحزب السوري القومي المعروف بارتباطاته المشبوهة مع المخابرات الإسرائيلية والمخابرات البريطانية في السابق، والحزب الشيوعي اللبناني - النصارى الأرثوذكس، ومنظمة حزب البعث (زعماؤها شيعة أمثال عاصم قانصوه وعبدالأمير عباس)، والحزب العربي الديمقراطي (نصيريو بعل محسن، وكانوا يطلقون على انفسهم: فرسان العرب)، وبشكل أكثر وضوحاً يمكننا القول: لقد حرك نظام دمشق عملاءه وأعوانه من الرافضة والنصارى بغية هدم مدينة طرابلس.

أما ما زعمه النظام النصيري عن أسباب الهجوم فتتلخص فيما يلي:

-إن جماعة التوحيد روّعت المواطنين في مدينة طرابلس ونشرت الذعر والفساد.

-فتح حكام طرابلس الجدد ميناء المدينة أمام أنصار عرفات، ويعملون معه من أجل مزيد من الاضطرابات والفتن في لبنان.

-حوّلوا المدينة إلى (كانتون) مستقل عن بقية الأراضي اللبنانية.

ونفذ النصيريون في حي (بعل محسن) أوامر قيادتهم، فأطلقوا قذائفهم ونيران أسلحتهم المتطورة على حي (التبانة) الذي يبعد عنهم بضعة أمتار ولا يفصله عنهم إلا شارع سورية.

وكانت القوات السورية قد شددت من حصارها لمدينة طرابلس، واستقدمت تعزيزات عسكرية تتألف من أربعة آلاف جندي أحاطت بالمدينة من كل جانب من أجل شن هجوم خاطف.

وحاصرت الطائرات الحربية السورية طريق البحر إلى مرفأ طرابلس، وأبلغت القوات النصيرية صيادي الأسماك بضرورة عدم النزول إلى البحر لممارسة أعمالهم، وأعلنت أنها لن تسمح لأي زورق بالخروج أو الدخول للمرفأ في الوقت الحاضر.

وأكدت مصادر أمنية مستقلة (صحيفة الشرق الأوسط ١٩٨٥/١٠/١) أن مدفعية الجيش السوري المشرفة على طرابلس، والدبابات المرابطة فوقها تشترك بالقصف منذ الساعات الأولى لبدء الهجوم..

بدأ القتال في ٨٥/٩/١٥، أي بعد مجزرة مخيمات بيروت الأخيرة التي استخدمت فيها الدبابات السورية بثمانية أيام، وفي ٩/٢٧ أعلن العميد غازي كنعان إنهاء الوساطة الودية، وحمل أطرافه اللقاء الإسلامي مسؤولية تعثر المساعي.

وبعد ساعات قليلة من هذا الإعلان المفتعل شنت الأحزاب الآنفة الذكر هجوماً على المناطق الواقعة تحت سيطرة اللقاء الإسلامي من ثلاثة محاور رئيسية في الشمال والشرق والجنوب. وهذه الأحزاب مجتمعة أعجز نم أن تتقدم خطوة واحدة في طرابلس لولا الجيش السوري وراجماته وصواريخه المتطورة

التي كانت تدك المدينة من (الكورة) إلى (تريل).

استمرت المعارك العنيفة عشرين يوماً، وكتب مراسلون في وصفها:

«إن طرابلس أصبحت تبدو في النهار كمدينة أشباح تغطيها أعمدة الدخان الأسود، وتهزها انفجارات القذائف المدفعية والصاروخية، وفي الليل تصطبغ سماؤها بلون أحمر منعكس من لهيب نيران يؤججها سيل منهمر من القذائف على المدينة من التلال المحيطة بها، وقالوا: إن نصف سكان المدينة البالغ عددهم حوالي ٧٠٠ ألف نسمة نزحوا عنها » كما في جريدة القبس الكويتية.

لقد انهمر على المدينة أكثر من مليون صاروخ وقذيفة، مما أدى إلى تدمير نصف مبانيها، كما تم تدمير معظم شوارعها، وخلت أفران المدينة من الخبز، وسياراتها من الوقود، وأحاطت النار بمداخلها البرية والبحرية، وانقطعت عن العالم هاتفياً ولاسلكياً.

وساهمت القوات اللبنانية في الحرب، فمنعت نقل المحروقات إلى الشمال منذ ٨٥/٩/٢٤، كما قطعت الطحين عن طرابلس، وتتبع الجناة المدنيين الهاربين من جحيم الحرب، ففي المدخل الجنوبي لمدينة طرابلس عند بلدة الجصاص تم العثور على ١٥ جثة مصابة بطلقات نارية.

وبعد تدمير أكثر من نصف مباني وشوارع المدينة توصلت دمشق إلى هدنة غير معلنة لإتاحة المجال لدخول وفد رسمي إيراني إلى طرابلس لإجراء محادثات مع اطراف اللقاء الإسلامي، وتم ذلك إثر اتصال هاتفي مطول بين الرئيس الإيراني علي خامنئي والرئيس حافظ الأسد. وعاد الوفد الإيراني إلى دمشق مصطحباً معه الشيخ سعيد شعبان والمهندس عبد الله بابتي وتم الاتفاق على وقف إطلاق النار برعاية حافظ أسد.

وفي ٨٥/١٠/٦ بدأت القوات السورية باحتلال مدينة طرابلس، وقامت حركة

التوحيد بسحب قواتها من المواقع التي انتشرت فيها القوات السورية، وقامت أطراف اللقاء الإسلامي بتسليم أسلحتها الثقيلة في مستودعات يشرف عليها السوريون.

ومنذ بداية حرب المخيمات، رفع النظام النصيري شعاراً براقاً أسماه (إقفال الملف اللبناني)، ومن أجل إقفال الملف اللبناني لا بد من إقفال الملف الفلسطيني أولاً، وقامت منظمة أمل بدورها شر قيام، ثم جاء دور طرابلس، ونفذ هذا الدور النظام النصيري وأعوانه من الأحزاب الشيعية والنصرانية، وتوقفت اجتماعات (هيئة الحوار الثلاثي) في دمشق خلال حرب طرابلس، واستأنفت اجتماعاتها بعد انتهاء الحرب وما رافقها من دمار.

وتتألف هيئة الحوار من الأطراف التالية:

١-الدروز ويمثلهم وليد جنبلاط صاحب القرار المعروف بعدم مقاومة الاجتياح اليهودي للشوف عام ٨٢، والذي منع منظمة التحرير من وضع مدفع واحد في مناطق الدروز، وأخيراً فإن وليد أقام علاقات وطيدة مع عدد من القادة اليهود.

٢-الكتائب ويمثلهم (إيلي حبيقة) قائد القوات اللبنانية والمسؤول الأول عن مجازر صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢، وسفير الموارنة في مفاوضاتهم السرية والعلنية مع العدو الصهيوني.

٣-الشيعة ويمثلهم نبيه بري (شارون الشيعة) وجزار المخيمات.

أما مهندس هذا الحوار فهو صاحب بلاغ سقوط القنيطرة (حافظ أسد)، وليس للمسلمين السنة من يمثلهم في هذا الحوار لأنهم نكبوا في حرب لبنان، والغنائم لا توزع إلا على المنتصرين [1].

---

(١) أمل والمخيمات الفلسطينية، للأستاذ الغريب/ مقتطفات من ١٢١-١٢٩.

أكابر مجرميها والصراع على السلطة

يعطي هذا الفصل إضاءة على القوة النصيرية التي تتحكم في مصير هذا البلد المنكوب، وذلك من خلال الصراع الذي يدور في صفوفهم على السلطة. لقد كان حافظ الأسد هو القيادة التي تنتهي إلى يديه جميع الخيوط ويملك كل مواقع القوى المؤثرة والفاعلة ظاهراً على الساحة وباطناً عند السلطة والجيش والمخابرات.

«رفعت أسد:

كان رفعت يستطيع الادعاء بحق بأنه شاطر أخاه السلطة، وخلال انشقاق الحزب في عام ١٩٦٦ كانت قوة الأمن التي يترأسها رفعت هي التي قبضت على أمين الحافظ ومحمد عمران، وفي عام ١٩٦٩ دحر مدير مخابرات صلاح جديد عبدالكريم الجندي، فمهد بذلك الطريق لاستيلاء الأسد على السلطة، وقد ساعد على سحق التمرد الإسلامي ما بين عام ١٩٨٠ و١٩٨٢، وربما أنقذ بذلك نظام حكم أخيه. كانت هذه مؤهلاته وأوراق اعتماده، غير أنه بعد أن انتصر على أولئك الأعداء الكثيرين شرع يملي قوانينه وتعليماته الخاصة به، وكانت له ذراع طويلة تمتد إلى مصالح في كثير من أنحاء البلد، وعبر الجبال في لبنان، وأصبحت سراياه (سرايا الدفاع) جيشاً خاصاً سريع الحركة قوامه خمسة وخمسون ألف رجل، وله دروعه الخاصة به، وكذلك مدفعيته، ودفاعه الجوي، وأسطوله من المروحيات الناقلة للجنود. وبذلك كانت سرايا الدفاع نداً لأية وحدة في سورية. وأثارت رواتب رجالها وامتيازاتهم حسد بقية الجيش...

وتزوج رفعت أربع نساء، وأنجب سبعة عشر ولداً. وكان يغرس الولاء له والإعجاب به في نفوس أتباعه. أما في خارج دائرته المسحورة المبهورة به فقد كان يثير الغضب والخوف على نطاق واسع. وكان ذوقه في (تحديث) البلاد يثير

أحياناً مشاعر خطيرة من الغضب والمهانة كما حدث في عام ١٩٨٣ عندما راحت المظليات التابعات له يخلعن المناديل عن وجوه النساء ورؤوسهن في الشوارع . كان ميالاً للمتع مندفعاً، وقد أثرى هو وأصدقاؤه الحميمون، وكان يمارس سلطات مطلقة، ويذهب في مهمات سرية إلى الأصدقاء والأعداء على السواء، ويشترك في مشاريع أخرى يحيط بها الظلام والضباب في عالم السياسة والتجارة في البلاد العربية، لقد كان رفعت له صداقاته بما فيها صداقاته مع ياسر عرفات، ومع الحسن ملك المغرب، الذي كانت اتصالاته السرية بإسرائيل قد زكمت فضائحها الأنوف. وكان يعيش الحياة الباذخة، فقد اشترى بيتاً بمليون دولار.

الجنرالات الحاكمون:

في قضايا الأمن والمخابرات التي هي الجانب الخفي من النظام كان أكثر أتباع حافظ الأسد تمتعاً بثقته هم علي دوبا مدير المخابرات العسكرية، ومحمد الخولي مدير مخابرات القوة الجوية، وفؤاد عيسى مدير المخابرات العامة، أما المدني الذي كان نائبه القوي المسؤول عن الأمن فهو محمد ناصيف. ورغم تسميات مناصبهم فإنه لم تكن هناك حدود واضحة بين هذه الأجهزة، فقد كانت ثلاثتها مسؤولة أمام الأسد مباشرة.

علي دوبا: كان علي دوبا رجلاً طويلاً فاتح اللون من قرية قرفيص. يشارك الأسد في مزاجه الدعابي الساخر، وعزوفه عن الاختلاط الاجتماعي وحبه للأدب وتكتمه المتحفظ ومزيج القسوة والعاطفة في طبعه.

محمد الخولي: وكان محمد الخولي أكثر حباً للمسرات من علي دوبا وأكثر ظهوراً في المجتمع، بينما كان محمد ناصيف متكتماً أكثر من الجميع إلى درجة أنه يعيش في مكتبه، وكان واحداً من القليلين جداً من الناس المسموح لهم

بالمبادرة إلى التحدث مع الرئيس الأسد هاتفياً في أي وقت. فبالإضافة إلى ترؤسه لما كان في واقع الأمر بوليساً سياسياً، كان واحداً من أهم مستشاري الأسد في شؤون الشيعة سواء في لبنان أو في إيران. وكان مقرباً من موسى الصدر ومن القادة الإيرانيين الثوريين مثل قطب زادة والطباطبائي. وكان غالباً ما يسافر من دمشق إلى بون وسويسرا اللتين كانتا قطبي الشبكات الإيرانية في الغرب. كان هؤلاء هم الدعائم الخفية للنظام، يقابلهم الثلاثي الذي يقف إلى جوار الرئيس في العلن، والمؤلف من وزير الخارجية خدام، ووزير الدفاع طلاس، ووزير الإعلام أحمد إسكندر أحمد.

ومن بين الجنرالات الذين تحت إمرتهم وحدات هامة كان المنافس الرئيسي لرفعت هو:

علي حيدر: قائد القوات الخاصة، وهي تشكيل منتقى من النخبة من قوات المغاوير، تعداد رجاله يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً. وقد لعبت هذه القوات مثل سرايا الدفاع دوراً بارزاً في إخماد التمرد الإسلامي، وقاتلت في عام ١٩٨٢ ضد إسرائيل في حرب لبنان. وكان حيدر من قرية حلة عارة، وهي من أعلى الأماكن في جبال العلويين، على مسيرة ساعتين على القدمين من الساحل، وكان مثل الأسد قد انضم إلى حزب البعث قبل أن يدخل الكلية الحربية. وكان من بين منافسي رفعت الآخرين عدنان مخلوف، وهو ابن عم زوجة الأسد، وتحت إمرته عشرة آلاف رجل من الحرس الجمهوري، كانوا مسؤولين عن الأمن في القصر الجمهوري في حي المالكي السكني الذي كان يعيش فيه علية القوم، وفي مركز مدينة دمشق ككل، وكان مخلوف قد خدم في الأصل في سرايا دفاع رفعت. ولكنه بعد مشاجرة أعطي إمرة الحرس الجمهوري بناء على اقتراح من قريبه محمد مخلوف شقيق زوجة الاسد.

وكان هناك منافس آخر هو ابن عم الرئيس عدنان الأسد، الذي كان يرأس قوة أمنية خاصة هي سرايا الصراع.

بالإضافة إلى ذلك كان هناك أربعة من الجنرالات العسكريين النظاميين يتمتعون بثقة الأسد هم:

شفيق فياض و إبراهيم الصافي قائدا الفرقتين المدرعتين الثالثة والأولى. وعلي صالح آمر أطقم الصواريخ، وعلي أصلان مدير العمليات ونائب رئيس الأركان. وكان فياض رجلاً خشناً من قرية الروس القرداحة بينما بنى صافي نفسه من أصول متواضعة كابن مزارع بالشراكة. أما أصلان فكان يعتبر لدى الآخرين رجلاً رصيناً وواحداً من أقدر الضباط، وله سجل متميز في حرب ١٩٧٣ وما تلاها من توسع دراماتيكي كبير في القوات المسلحة، كان هؤلاء هم الجنرالات الذين تجمعوا أول الأمر حول رفعت، ثم انقلبوا ضده، والذين بدأوا في مطلع ١٩٨٤ بايقافه عند حده» (١).

لا بد أن نشير إلى أن هؤلاء المجرمين الكبار جميعهم نصيريون.

فالأمن وقواته وقادته نصيريون (علي دوبا، محمد ناصيف، محمد الخولي)، أما قواته فسرايا الدفاع لرفعت أسد وسرايا الصراع لعدنان الأسد والحرس الجمهوري لعدنان مخلوف، والقوات الخاصة لعلي حيدر. هذا في القوات النصيرية الخالصة. أما في الجيش (فشفيق فياض وابراهيم الصافي وعلي الصالح وعلي أصلان) هم القادة المتنفذون في الجيش، وكلهم نصيريون.

ولطبيعة الحركة الباطنية النصيرية فهؤلاء هم الحكام الحقيقيون للبلد، يحكمونه من وراء ستار، لكل واحد منهم سلطته وسطوته ودولته، يستمدها من

---

(١) الأسد لباتريك سيل/ ٦٩١-٦٩٧.

صلته بالطاغوت الأكبر حافظ اسد.

أما الدمى التي تظهر على الساحة، فكانت كلها سنة:

مصطفى طلاس وزير الدفاع، وحكمت الشهابي رئيس الأركان، هذا داخل الجيش.

أما اللاعبون على الساحة السياسية فكانوا: عبد الحليم خدام وزير الخارجية، عبدالرؤوف الكسم رئيس الوزراء، عبدالله الأحمر الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي، وزهير مشارقة وأحمد اسكندر أحمد . فكلهم دمى تعمل لتنفيذ المخطط النصيري، وهم ينفذون القرار الذي يصدره الأمين القطري الطاغوت الأكبر باستشارة أزلامه وقادة الحكم معه.

وعندما أريد لرفعت أسد أن يكون خارج السلطة أسند إليه منصب نائب رئيس الجمهورية لشؤون الدفاع والأمن، حيث جرّد عملياً من سلطاته.

وبعد إيضاح هذه الخارطة، نشير إلى أن سبب الغضب على رفعت الأسد هو أنه فكر أن يتجاوز سلطات الطاغية الكبير، فكان هذا سبب هلاكه. وحاول التحدي للطاغوت الكبير فجنى على نفسه. وفاته المبدأ الأساسي للطغاة في الأرض ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطّلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين﴾ (١).

الصراع على السلطة:

«أمضى الأسد أكثر من أسبوعين في المشفى قبل أن ينتقل إلى فيلا خاصة

---

(١) القصص/ ٣٨.

في الغوطة لقضاء شهر للنقاهة. أرسل الأسد من سريره تعليماته بتشكيل لجنة من ستة أشخاص عهد إليها بتسيير القضايا اليومية، وقد شملت كلاً من خدام وزير الخارجية، والأحمر الأمين العام المساعد للقيادة القومية للحزب، ومصطفى طلاس وزير الدفاع، والشهابي رئيس الأركان، والكسم رئيس الوزراء، ومشارقة الأمين المساعد للقيادة القطرية. ولكن رفعت الذي كان أقدم من بعضهم وأقوى من أي منهم لم يكن بين أعضاء اللجنة المذكورة.

ثم وقعت حادثة ما كان يمكن تصور وقوعها لو كان الأسد واقفاً على قدميه. فقد خشي أقوى قادة العسكرين أن يكون الأسد على وشك الموت، وفزعوا من التغييرات المحتملة التي قد تنجم عن غيابه، فاتجهوا إلى رفعت بحثاً عن قيادة، ربما لأنهم رأوا أنه أفضل من يحمي نظاماً انتعشوا فيه طيلة عقد من الزمن أو يزيد، وباعتبار أنه شقيق الأسد، فقد كان رمزاً لاستمراريته، ثم إنه كان يقود أقوى قوة ضاربة، أي أنه كان دعامة النظام. فقد انتصر في الحرب ضد الإخوان المسلمين أكبر خطر داخلي كانوا قد واجهوه جميعاً. وقبل كل شيء كان أبرز أقطاب الدولة، ولذلك يمكن الاعتماد عليه في ترك المناصب والإقطاعيات الأخرى سليمة لأصحابها مثل أجهزة المخابرات والفرق المدرعة ومشاريع الدولة وأطقم الصواريخ. وكان آخر شيء يرغب كبار الضباط في رؤيته هو انتقال السلطة إلى لجنة الستة من موظفي الحكومة والحزب التي عينها الأسد. فقد كانوا يرون أن أعضاء هذه اللجنة ليسوا أكثر من موظفين تنفيذيين موهوبين ورجال واجهة، وليسوا (الأساطين) (والدعائم المثبتة للنظام) كما كان القادة الميدانيون وقادة المخابرات يرون أنفسهم.

وعندما ذعروا من الفراغ الذي وجدوا أنفسهم مهددين في مواجهته، فإنهم (أي الجنرالات) قلبوا ترتيبات الأسد رأساً على عقب، وعندما تجمع كبار

الضباط والقيادة الحزبية خلف رفعت، أساء فهم هذه الإشارة واعتبرها تعني ولاءً له، والتزاماً كلياً بقيادته، وبما أنه كان ميالاً للتزعم والسيادة بطبيعته، فقد بدأ يتصرف بكل التوكيد والإصرار على إثبات زعامته كوريث شرعي. فبدأ يضغط من أجل استقالة رئيس الوزراء وتشكيل حكومة جديدة، وفجأة ظهرت في كل مكان في العاصمة صور تظهره في أوضاع قيادية آمرة وقد ارتدى زي المظليين. ولكنه سرعان ما أفاق من هذا الوهم، فلم يكد الأسد يظهر علامات الإبلاء من مرضه حتى تلاشى التأييد الذي كان قد تجمع حول رفعت، فالجنرالات الذي كانوا في توجهاتهم رهن إشارة الأسد توقفوا عن الاعتقاد بأن رفعت قادر على حماية مصالحهم، وشرعوا يرون فيه وبدلاً من ذلك تهديداً للبلد ولأنفسهم، وإذ شكوا في أنه كان يخطط فعلاً ليحل محل أخيه، ويتسلم السلطة، فقد بدأوا يضعون في وجهه العراقيل.

وكان عليهم أن يقوموا بذلك سراً وبتحفظ لأن رفعت كان لديه جيش حقيقي، فألويته الأربعة المتفوقة المتنقاة (ثلاثة ألوية مدرعة، ولواء مؤلل) كانت كلها على بعد خمسة أميال فقط من دمشق، تسيطر على مشارفها بالدبابات والمدفعية، بينما كانت قوات الجنرالات الآخرين بعيداً عن ذلك في الخارج. فلم يكن التحدي المباشر وارداً وممكناً. ولعله كان هناك سبب آخر للحذر، لأن الجنرالات لم يكونوا متأكدين من مدى عمق واستمرار المرارة بين الأسد ورفعت، أكان هذا شجاراً عائلياً سوف يتلاشى، ويترك أي شخص ينحاز إلى أي من الجانبين مكشوفاً؟ وهل كان القائد يمتحن ولاء ضباطه؟...

أصدر الأسد تعليماته لعلي دوبا بوضع رفعت وكبار المقربين منه تحت المراقبة، بينما أمر علي حيدر وشفيق فياض بتحريك قوات ودبابات إلى داخل العاصمة لتعمل كثقل مضاد لسرايا الدفاع، وأمر الأسد الشهابي رئيس الأركان

بتسريح العقيد سليم بركات معاون رفعت لشؤون الأمن، وكان الأسد يريد أن يتم خروجه في نصف ساعة. وناشد بركات رفعت أن يحميه، وتحدث رفعت مع الشهابي هاتفياً بطلبه مهلة قدرها ٤٨ ساعة. ولكن الشهابي لم يستطع إلا أن يقول بأن أوامر الرئيس كانت واضحة تماماً، ورفض بركات التخلي عن منصبه، واقتحم مكتب علي دوبا ملوحاً بمسدس. فانتزع منه اللواء الجريء سلاحه وأخذه بعيداً. وبعد بضع ساعات تمكن رفعت من الوصول إلى الأسد على الهاتف فسأله: ماذا فعلتم (بزلمتي) بركات؟ فرد الأسد باقتضاب: أعتقد أننا أعدمناه.

- ولماذا تفعلون ذلك؟

- لقد أمرت بنقله ولكنه رفض أن يذهب.

وفي ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٨٤ بدت سوريا وكأنها على شفير حمام دموي، بينما الفريقان يواجه كل منهما الآخر، وكانت المفارقة أن هذا الاضطراب الخطر في الداخل قد تزامن مع اكتمال النصر في لبنان، ففي ٢٩ شباط/ فبراير وصل الرئيس الجميل إلى دمشق ليعلن قرار حكومته بإلغاء اتفاق ١٧ أيار/ مايو الإسرائيلي اللبناني، وفي تلك الليلة نفسها ليلة ٢٩ شباط/ فبراير ١ آذار عقدت القيادة القطرية جلسة طارئة لإيجاد مخرج من الأزمة الداخلية، وتم التعبير عن الحل المتوصل إليه بتعيين ثلاثة نواب لرئيس الجمهورية بموجب مرسوم جمهوري صدر في ١١ آذار/ مارس ١٩٨٤، وعلى رأس القائمة كان خدام عدو رفعت الذي ركز عليه الجنرالات، يتلوه رفعت الأسد، وقد سمي في المرسوم بلا رتبة ولا لقب سوى (الدكتور)، وذلك إشارة إلى الدكتوراه التي منحته إياها جامعة موسكو على أطروحة عن الصراع الطبقي في سورية، ويعتقد أنها من تأليف أحمد داود العلوي الذي يجيد اللغة الروسية، وكان النائب الثالث لرئيس الجمهورية هو زهير مشارقة مساعد الأسد في القيادة القطرية.

وكان ترفيع الأسد إلى منصب نائب الرئيس هو في الواقع تكسير رتبة، لأن واجباته تركت بلا تحديد، لتعتمد على رضا الرئيس وعطفه، ونقلت إمرة سرايا الدفاع منه بموجب مرسوم جمهوري آخر إلى العقيد محمد غانم، ولم يستطع رفعت أن ينازع بإزاحته من هذه الوظيفة، ولكنه جمع ضباطه، وطلب منهم انتخاب قائد جديد، فاختاروا زوج ابنته معين ناصيف. أما غانم السيئ الحظ الذي وقع بين أوامر أسد وأوامر رفعت المضادة فقد تنازل، فكان الأسد مصمماً على تجريد رفعت من القدرة على إغراق السفينة، فتم نقل واعتقال العديد من أنصاره والموالين له.

وفي الثلاثين من آذار/ مارس لم يعد رفعت يستطيع أن يتحمل التوتر، فحرك دباباته إلى داخل العاصمة تماماً، وتفوقت مدافعها على وحدات منافسيه، واتخذت سرية دبابات ت ٧٢ مواقعها عند دوار كفر سوسة خارج مبنى قيادة المخابرات العامة على طريق المطار، حيث كان باستطاعتها أن تقصف المدينة، واحتلت دروع أخرى الحدائق الكائنة بين فندق الشيراتون وقصر الضيافة الجديد، حيث تم زرع الألغام أيضاً. وطوفت فرقة مشاة محمولة مؤللة فندق الميرديان، والمجمع الذي يحتوي على مكاتب القيادة القطرية، وفي مواجهة استعراض القوة هذا حشدت دبابات شفيق فياض، وانتشرت على طول النهر في معرض دمشق الدولي قوات المغاوير الخاصة التابعة لعلي حيدر، وأخرج المدنيون من بيوتهم الواقعة في مناطق الاقتتال المحتملة، وبدا الأمر كأنه إيذان بحرب أهلية، وتجرأ الملحقون العسكريون الأجانب على الصعود إلى سطوح المباني بحذر ومعهم المناظر المقربة، ثم بعثوا بتقارير تقول ان اطلاق النار قد يبدأ في أية لحظة.

وبعد أسبوعين من المواجهة الجارحة مع الأسد، أعلن مساعدو رفعت عن تجمع كبير للرابطة ينعقد يوم ١٧ نيسان/ أبريل ١٩٨٤ - وهو يوم استقلال

سورية- على مدرج جامعة دمشق، ولكن عندما سعى مسؤولو العلاقات العامة لدى رفعت لتصوير هذه المناسبة بالتلفزيون منعوا من استخدام المدرج، وعندما نقل المكان إلى نادي الضباط، قامت السلطات بإلغاء الاجتماع كلية، ومثل هذا الأمر لا يمكن أن يكون قد أتى إلا من الأسد نفسه، وبروح من التحدي أقام رفعت غداءً في الشيراتون لحوالي خمسمائة من الضيوف من أعضاء الرابطة وبعض الوزراء وكبار الموظفين، وألقى خطاباً استغرق ساعتين هاجم فيه باندفاع متهور بعض أهم جوانب سياسة الأسد الأساسية.

فضائح الحكم عند اختلاف الطغاة (١):

كان حافز رفعت الأساسي الأول هو الدفاع عن نفسه ضد تهمة عدم الولاء. وكان وكأنه يخاطب أخاه الأكبر في القصر الجمهوري من فوق رؤوس ضيوفه على الغداء «إن أخي لم يعد يحبني، وعندما يراني يكشر، ولكنني لست عميلاً أمريكياً، ولست عميلاً سعودياً، ولم أتآمر على بلادي. هل نسيت بأنني قبل عشر سنوات كنت أسمّى (الضابط الأحمر)» وكانت تلك اشارة لدوره كقناة خلفية للسوفيات في منتصف السبعينات عندما كان الأسد يتفاوض مع كيسنجر، «...وعندما اتصلت بالأمير عبدالله ووافق السعوديون على مساعدتنا كان ذلك لأن سورية بحاجة للمال، كنت أعمل من أجل سورية، من أجل اقتصادها وحكومتها (٢) فلم أدعى الآن عميلاً سعودياً وأمريكياً؟».

وكان غداء الشيراتون أهم أداء مثير لافت للنظر قام به رفعت، ولكنه كان

---

(١) أضفت هذا العنوان فقط من عندي لاستعراض المواقف المحاربة للأمة التي كان يتبناها الأسد.

(٢) ولا أدل على ذلك من المليارات التي يملكها (بعرق جبينه وكد يده) بعد أن كان عاملاً من عمال الريجي في البلد.

الأخير في عدة نشاطات، وقد ظل شهوراً في اجتماعات خاصة سرية وشبه سرية يطور إدانته لسياسات أخيه: لماذا تصرف سورية كل هذه الأموال في لبنان بينما هي تحتاجها للاستثمار في الداخل؟ هل من الحكمة المخاطرة بحرب مع أمريكا وأوربا واكتساب سمعة الارهاب؟ ولماذا لا تتم الموافقة على انسحاب إسرائيلي وسوري من لبنان في الوقت نفسه؟ وكان من مواضيعه المفضلة الأخرى اعتماده أكثر من اللازم على الاتحاد السوفيتي، وعلى ضمانات سوفيتية مشكوك فيها. صحيح أن السوفييت قد زادوا قوة سورية بشكل كبير، ولكن متابعة موضوع التوازن مع إسرائيل لها أخطارها، فلا يمكن ذلك إلا إذا اندمجت سورية بشكل متكامل في الخطط الدفاعية السوفيتية، ولكن ثمن مثل هذا التحالف العسكري الكامل مع موسكو هو إلغاء كل استقلال للسياسة، فخدام (الرجل الذي لم يكن لدى رفعت وقت للاهتمام به) كان يتفاخر باجتذاب مخلب واحد من مخالب الدب السوفيتي إلى الأرض السورية، ولكن ماذا لو تبعته المخالب الثلاثة الأخرى؟ إن سورية الصغيرة عندئذ سوف يقذف بها إلى الهواء بلا حول ولا قوة.

وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية لم يكن رفعت يخفي معارضته لدعم سورية للمنشقين عن فتح مثل أبي نضال وأبي موسى في حربهم ضد عرفات. فما معنى الحزازة والعداء مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية؟ ولماذا طرده من طرابلس؟ ألم يكن له حق في أن يكون هناك ما دام الإسرائيليون لا يزالون في صور؟ ولماذا كانت سورية معادية بمثل هذا العنف لاتفاقية حسين - عرفات التي قد تستعيد يوماً جزءاً كبيراً من الضفة الغربية من حكومة إسرائيلية يؤلفها حزب العمل؟ ولماذا لا يسمح للفلسطينيين بمتابعة هذا الطريق الذي يبدو واعداً.

وكان تحالف سورية مع إيران نقطة خلاف أخرى، لم يكن رفعت يحب صدام حسين، ولكنه تمرد على العلاقة الوثيقة مع مشايخ إيران الذين اعتبرهم

رجعيين ومتعصبين مثل الأعداء الإسلاميين الذين قاتلتهم سورية في الداخل، كيف يمكن للنظام أن يتبع سياسة في حماة، وسياسة أخرى في طهران؟ أكان الصراع ضد الاخوان المسلمين بكامله مجرد شيء صوري فارغ بدون التزام عقائدي؟

وكان رفعت لا يقل جذرية وتشدداً في التشكك بتوجهات سورية المحلية.

إننا نتحدث عن الحرية ولكنا لسنا أحراراً إلا في أن نأكل ونتزوج. وكان يقدم نفسه كمدافع عن الحرية الاقتصادية والسياسية. فيحاور بأن من الخير للسوريين أن يرتفعوا بأنفسهم إلى مستوى الآخرين. وأن يتمتعوا بالبذخ الاستهلاكي وبترف حرية الكلام. وكان يتهم سورية بالانحراف عن المثل والمبادئ التي من أجلها قام الأسد بحركته التصحيحية في عام ١٩٧٠، ومع مناداة رفعت بأفكار كهذه لم يكن مستغرباً أن يكون في نظر الأسد مداناً ليس بالهرطقة بل بشيء يقرب من الخيانة، غير أنه يجب القول بأن معظم السوريين لم يكونوا يرون رفعت بهذه الصورة التي قدمها عن نفسه كداعية إنساني للحرية، بل كانوا يعتبرونه مثالاً صارخاً على إساءة استخدام السلطة وعلى الفساد وعيشة الخلاعة، والإثراء الفاحش وغير المشروع، وبوسائل مثل السيطرة على تجارة الحشيش اللبنانية.

في ١٥ آيار وفي تطور وكأنه غير مرتبط بالأزمة استدعى الأسد سفيره في المغرب، وكان السبب الظاهري هو استضافة الملك الحسن لمؤتمر لليهود المغاربة حضره وفد إسرائيلي كان يضم تسعة من أعضاء الكنيست. ومن المؤكد أن الأسد قد أغضبته بادرة حسن النية هذه التي أبداها الحسن الثاني لإسرائيل في وقت كانت فيه القوات الاسرائيلية لا تزال محتلة لأجزاء كبيرة من لبنان. ولكنه أراد أن يشير إلى سخطه على ما كان يعتقد بأنه يد مغربية في تمرد رفعت، فلقد كان رفعت يعتبر الحسن واحداً من أروع العرب، ويعده صديقاً شخصياً، بينما

كان الأسد يرى فيه شخصاً مشبوهاً بشدة، ولم يكن يستطيع أن يغفر بسهولة دور المغرب في زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ كما تقتضي فصول المسرحية.

رفعت يدفع الثمن:

وكان حل عقدة الأخوين مثلاً كلاسيكياً تقليدياً في فن السيد المسيطر على الحلبة، أنيقاً وغير متعجل، وموضحاً مدى سيطرة الأسد على أتباعه الجموحين المشاكسين. ففي الثامن والعشرين من آيار/ مايو وبمساعدة الكرملين أرسلت طائرة محملة بسبعين من كبار الضباط إلى موسكو لفترة تهدأ فيها النفوس، وكان من بينهم رفعت. وهكذا أبعدوا جميعاً دون أية ضمانة حول ما اذا كانوا سيعودون ومتى، فذلك كله معتمد على إرادة (معلمهم)، وبطردهم أثبت الأسد بأكثر الطرق علانية أنه لم يكن فيهم أحد لا يمكن الاستغناء عنه. وروى الأسد فيما بعد أن بعض هؤلاء الضباط الكبار ظنوا بأنهم إذا أرسلوا للخارج فسوف ينهار النظام. وقد قلت لهم: لا تخافوا على النظام، بل خافوا بالأحرى على أنفسكم.

وفي آخر الأمر استدعوا جميعاً - ما عدا رفعت - للعودة إلى واجباتهم، وبالتخلص منه باعتباره أغناهم جميعاً وأقواهم وأكثرهم شعبية أثبت الأسد للبلد كلها أنه مسيطر على الآخرين. ولأسباب تتعلق بحفظ ماء الوجه وصف راديو دمشق زيارة رفعت إلى الاتحاد السوفيتي بأنها (زيارة عمل ودية)، وساعد تشيرنينكو في ذلك بأن قابل رفعت في أول حزيران/ يونيو. ولكن في الخامس من ذلك الشهر كان رفعت يقيم في المنفى بجنيف.

ومضت بعد ذلك شهور طويلة لم تظهر فيها كلمة واحدة عن رفعت في الصحافة السورية، رغم أن الحملة استمرت لاقتلاع ما تبقى من نفوذه. فسرايا دفاعه التي كانت معتزة بنفسها ذات يوم تضاءلت إلى حجم فرقة من عشرين ألف

رجل، فقد سرحت أعداد كبيرة أو نقلت إلى وحدات أخرى مثل الحرس الجمهوري الذي يقوده عدنان مخلوف، أو القوات الخاصة التي يقودها علي حيدر، وألقي القبض على عدد من ضباط رفعت الهامين، وقيل إن عدداً منهم قد أعدم بالرصاص، وأبعد بالقوة عدد من المدنيين الموالين له من المجمع السكني للفرسان.

وفي الأول من آب ١٩٨٤ وفي حركة لتشديد الضغط ثانية تم تجميد عضوية حفنة من القادة الحزبيين البارزين المقربين من رفعت في القيادة القطرية. كان ذلك مصير محمد حيدر نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية سابقاً، والذي جمع ثروة طائلة، وبنى لنفسه قصراً في الزبداني المنتجع الجبلي القريب من دمشق، وزوّج احدى بناته لأحد أولاد رفعت. وكان من الذين سقطوا أيضاً ناجي جميل السيء الحظ، والذي كان قد فقد منصبه كقائد للقوى الجوية في آذار/ مارس ١٩٧٨ لمعارضة رفعت، وكان قد تصالح معه فخسر ثانية، وكان ذلك من المفارقات. وفي اللاذقية صودرت بعض ممتلكات جميل الأسد الذي كان مسيطراً ذات يوم. وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤ كانت المقاعد الجامعية وقفاً على من حصلوا عليها بدرجاتهم العلمية الحقيقية فقط (١). واضطر بعض مظليي رفعت الشبان بعد حرمانهم من العلامات الزائدة أن يقضوا سنة إضافية في دراستهم الثانوية، وسمح نفي رفعت للمجتمع السوري بعملية تكفير، فقد غادر مشيعاً باللعنات، وكأنه لم يكن يحمل خطايا سرايا دفاعه وطراز حياته المنغمس في الملذات فحسب، بل كذلك كل تجاوزات ثورة البعث.

وكما يليق بشري مهيب، كان يرافق رفعت أكثر من مائة من المساعدين

---

(١) أي بعد أكثر من اثني عشر عاماً.

والحراس، وهذه حاشية باهظة التكاليف، غير أن الاحتفاظ بجيش خصوصي في فنادق سويسرا يبهظ أية محفظة، حتى ولو كانت بعمق محفظة رفعت، وعلى أية حال فقد كانت هناك مشاكل بخصوص تأشيرات الإقامة (الفيزا) تطلب مفاوضات مطولة مع السلطات السويسرية، وبحلول شهر أيلول/ سبتمبر كان الكثيرون من رجال رفعت قد اتخذوا سبيلهم عائدين إلى سورية. بينما انتقل رفعت إلى فرنسا مع بقية طاقمه المتناقص من الحرس والخدم والزوجات والأطفال.

وظل رفعت الأسد محتفظاً بلقب نائب رئيس الجمهورية، وفي العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٤ صدر مرسوم جمهوري يعهد إلى رفعت بالاشراف على الأمن القومي، مما يجعله - نظرياً - الآمر المهيمن على منافسيه جميعاً. وفي السادس والعشرين من الشهر نفسه عاد إلى دمشق، فزار القصر الجمهوري، وركع وقبّل يد أخيه، ولكنه لم يكن قد سومح (١). وكانت وظيفته الأمنية صورية. فقد منع من تجديد الاتصال بسرايا دفاعه المقلصة الحجم، ووجد نفسه محاصراً أنى توجه. وكان من المؤلم لرجل كان يتمتع يوماً بحرية مطلقة غير مقيدة أن يجد نفسه عرضة لمثل هذا التضييق.

ووصل الصراع الممتد المتطاول بين الأخوين إلى نهايته الرسمية في المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث الذي انعقد في دمشق في الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٨٥، والذي حضره ٧٨ عضواً من مختلف أنحاء البلاد. وكان رفعت حاضراً باعتباره عضواً في القيادة القطرية، غير أنه كان

(١) لأن الأسد من أكبر الحاقدين في التاريخ، فهذا هو مستوى تعامله مع أخيه الذي ربط مصيره به، فكيف مع أعدائه؟

بمثابة الواقف في قفص الاتهام، فتعرض لكثير من النقد (١). كان كل واحد في المؤتمر يعرف كيف نجت سورية(٢) بأعجوبة من صراع مميت بين الأخوين.

وكانت أنظمة الحزب تقضي بأن ينتخب المؤتمر لجنة مركزية، وقد وسعت هذه اللجنة من ٧٥ عضواً إلى ٩٠. وهؤلاء الأعضاء بدورهم ينتخبون القيادة القطرية الجديدة أعلى قمم السلطة في الحزب. ولكن القواعد الحزبية المكتوبة نحيت جانباً في المؤتمر القطري الثامن، ومنح الأسد بطل الساحة الداخلية والخارجية المنتصر في لصراع من أجل لبنان وفي أزمة الخلافة صلاحيات خاصة وسط الهتاف والتصفيق، واعترافاً ببروز قيادته بلا منازع، كلفه الأعضاء بمهمة القيام بنفسه شخصياً باختيار وتسمية أعضاء اللجنة المركزية. وكانت تلك اشارة إلى الثقة بالساحر السياسي الذي أوقف الانزلاق في حرب أهلية، فتكرم بحضور كل جلسة من جلسات المؤتمر متمتعاً بالتمجيد الكبير، وبعد ثلاثة أسابيع في ١٠ شباط/ فبراير انتخب رئيساً للجمهورية لفترة ثالثة مدتها سبع سنوات بأغلبية ٩٩.٩٧٪ من الأصوات.

لقد انتصر الأسد، ولكن مؤسسات دولته كانت قد وقفت عاجزة ولم تحسن التصرف خلال الأزمة، وفي لحظة الخطر اضطر إلى النزول بنفسه إلى الشارع لتنظيفه من الدبابات. فالضوابط والقيود والتوازن ومجلس الشعب والمنظمات الشعبية كل أولئك لم يكونوا ذوي نفع عندما راح الجنرالات الطموحون يهددون

---

(١) هذا عندما جرّد من سلطاته. أما عندما كان في سلطانه وصولجانه فلم يتورع عن أن يصفع الأحمر الأمين العام المساعد للحزب أمام الجميع، لأنه تجرأ بنقد بسيط له، دون أن يمس أو يحاسب في سلطانه.

(٢) ليكون التعبير دقيقاً يجب ان يكون (كيف نجا النصيريون من صراع مميت بين الأخوين) أما سورية فمحتلة لا حول لها ولا قوة.

بتصفية حساباتهم بالرصاص. وفي خاتمة المطاف كانت سلطة الأسد الشخصية وحدها هي التي أبقت على تماسك البلد، فقد كان هو العمود الوحيد الذي يرفع الخيمة، ولم تكن هذه نبؤة جيدة توحي بأي خير للمستقبل.

وفي تلك الأثناء غادر رفعت إلى أوربا ثانية. وقد تحطمت آماله في إعادة تأهيله، ولم تنحسر أو تتناقص قسوة الأسد على أخيه.

وفي آيار/ مايو سنة ١٩٨٦، عندما كان رفعت قد استقر في باريس بالأبهة التي تحيط عادة بالملوك في المنفى، قام بزيارة غير معلنة لبريطانيا، وقد سبقه أربعة حراس شخصيين مسلحين يحملون جوازات سفر مغربية، فقامت السلطات البريطانية بتوقيفهم في هدوء، ثم هبطت طائرتان خاصتان تحملان رفعت وأفراد عائلته والخدم والحشم ورجال الأمن، كان مجموعهم أربعين شخصاً، ومع كثير منهم جوازات سفر مغربية أيضاً. وسمحت الحكومة البريطانية لهم بالدخول، ولكنها أرسلت إلى الحكومة السورية عبر القنوات الدبلوماسية تطلب توضيحاً عن مكانة ووضع الزائرين، فكان جواب الأسد السريع: إننا نتوقع من بريطانيا أن تتصرف بالطريقة الصحيحة تجاه جملة جوازات السفر السورية السارية المفعول، أما ما تفعله بريطانيا بحملة جوازات السفر الأخرى فليس من شؤوننا بحال» (١).

صراع جديد مع الحركة الإسلامية:

ذكرنا أن المفاوضات قد فشلت مع الإخوان المسلمين، حيث كان الهدف منها إنهاء المعارضة المسلحة للنظام واستسلامها له، وكان الأسد يطمح أن يقدم

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ من ٦٩٤-٧١٣ بتصرف.

هذا الانتصار في المؤتمر القطري الثامن الذي سبق التنويه عنه. وكان المؤتمر قد أجل عدة مرات حتى تتم المفاوضات المذكورة، والتي كان يقودها علي دوبا رئيس المخابرات العسكرية، لتكون ورقة رابحة بيد الأسد ومن إنجازاته التاريخية.

ولا بد من الإشارة إلى أن السلطة السورية قد أجرت مفاوضات مع فصيل من الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، قبيل المفاوضات مع قيادة التنظيم (والتي ذكرنا محاضرها في فصل سابق)، وأدت تلك المفاوضات إلى استسلام الفصيل المذكور ودخوله لسورية، حيث تم استسلامه للنظام، وأذاعت الدولة على إثر ذلك بياناً هذا نصه (١):

«جرى اتصال بيننا وبين قيادة الطليعة من أجل مصلحة الوطن العليا، والوطن وطنهم، يدافعون عنه ويجاهدون الجهاد الحق ضد الموتورين الذين تستهويهم نزعات التخريب والخيانة والإجرام، والذين نسجوا التحالفات من أجل خدمة مخططاتهم المشبوهة.

وانطلاقاً من حرص الدولة على مصلحة المواطنين، ورغبة في إزالة الآثار الاجتماعية التي لحقت بهؤلاء المواطنين الموجودين خارج البلاد، والتي نتجت عن الفتنة التي نفذها الإخوان المسلمون وسحقها الشعب، وتقديراً لحالة الوعي التي وصل اليها جزء كبير من الشباب الذين غرّر بهم، فقد تقرر السماح بالعودة لأرض الوطن لكل الشباب المخلصين لهذا الوطن ليضعوا أنفسهم من جديد في خدمة بلدهم وأمتهم، وتقرر العمل على تسوية جميع الأوضاع والمشاكل التي ترتبت على فرارهم خارج وطنهم، وعاد قسم من هؤلاء المواطنين، وهم الآن

---

(١) وقد نشر في السفارة السورية بجدة.

يعيشون بيننا، وقامت الدولة بكل ما رأته مناسباً للعودة بهم إلى حياتهم الطبيعية بين إخوتهم وأهليهم. كما حصل على عفو خاص من الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية يعفيهم قانونياً من كل ما يترتب على أعمالهم السابقة حتى لحظة وصولهم البلاد، وسيحصل على هذا العفو بواقع الحال كل من يعود إلى وطنه بقلب مفتوح مخلفاً وراء ظهره كل الأفكار الإجرامية الحمقاء التي أملتها عليهم نفوس مريضة، أو أيد ملوثة، اعتادت التكسب على دماء الضحايا وآلام المشردين، ونبذ تلك العقلية المشوهة التي غرستها قيادات الإخوان المسلمين، تلك القيادات التي تنفذ بعلم أو بغير علم مخططات مشبوهة، أقلها تشويه الدين الحنيف وإلحاق الأذى بالمسلمين.

وسنتلقى بقلب مفتوح كل من حصلت لديهم القناعة أنهم خدعوا أو تورطوا في أعمال لا مكان لها حالياً في عقولهم، ونضج لديهم الوعي الوطني بالمستوى الذي وصلت اليه قيادة وعناصر الطليعة، على ان تكون نواياهم صادقة مخلصة، ولا تشوبها شائبة، ويرغبون بالعودة إلى أحضان بلدهم مواطنين شرفاء، يدافعون عن مواقفه الصامدة أمام التيارات المتخاذلة المستسلمة التي تتهدد المنطقة العربية.

وإننا كدولة مسؤولة عن مواطنيها، سواءً أكانوا مخطئين أو مصيبين، لا ننصح إلا بشيء واحد إزاء هذه الخطوة الايجابية، هو أن تكون النية صادقة والقناعة كاملة وثابتة، حرصاً منا على العهد المقطوع. أما الطريق إلى ذلك فالإخوة خارج البلاد يعرفونه، ويستطيعون التصرف حسب الملامح التي توضحت لهم، آملين أن نكون بذلك قد فتحنا باباً للبعض من أبناء هذا الوطن الذين كانوا يعيشون من خلال أوهام الآخرين لكي يعودوا إلى الحياة بالعقل والمنطق. وشكراً.
(١٩٨٥/١/٢٥)

لقد صدر هذا البيان في اليوم الذي انعقد فيه المؤتمر القطري الثامن، وهو الإنجاز الذي قدمه الأسد في اقناع هذا الفصيل من الطليعة بالاستسلام.

وللأمانة نقول: إن هناك فصيلاً آخر من الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين رفض هذا الاستسلام وأصدر بياناً قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المتقين، وقائد المجاهدين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

أيها المسلمون، يا جماهيرنا المؤمنة:

إن الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين لتعلن براءتها واستنكارها للخطوة الخيانية التي أقدم عليها بعض الأفراد بالارتماء في أحضان النظام النصيري الكافر الجاثم على صدور أهلنا وأبناء شعبنا، مؤكدة أن هؤلاء الأفراد قد طُردوا من الجماعة ببيان رسمي صدر في حقهم، وذلك لما تكشفت نواياهم المتجهة للوقوع في مستنقع العمالة، وإن الطليعة المقاتلة إذ تعلن تمسكها بعقيدتها وتميزها ومفاصلتها لتؤكد أن هذه الخطوة إن هي إلا دخول في حكم الطاغوت ورضاء بحكمه ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾.

يا جماهيرنا المؤمنة: إن الذين استزلهم الشيطان لم يغيّروا قناعاتهم كما تزعم أبواق النظام الكافر، وإنما غيروا أقنعتهم ليؤدوا دوراً جديداً يتمثل في السعي لإيقاع المسلمين في حبائل الردة والكفر والاحتكام إلى الطاغوت. ومع من

يلتقون؟؟

أليس هو بطل المجازر الهمجية في حماة وسرمدا وحلب وتدمر وكافة مدننا وقرانا المنكوبة.

ومن يعاهدون؟؟

أليست هي الباطنية النصيرية المشركة، التي يترجم هذا النظام عقيدتها الدنيئة الحاقدة واقعاً يومياً على الناس جميعا؟ ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾.

ثم أية مؤامرة تلك التي يتحدث النظام على ألسنة الخونة على أنها تحاك ضده؟ ومن الذين يحوكونها؟ أهم أسياده في الكرملين أم أولياء نعمته في البيت الأبيض، أم لعلهم حلفاءه في تل أبيب الذين سلمهم الجولان، واقتسم معهم تنفيذ الأدوار في هذه المنطقة؟

يا جماهيرنا المؤمنة: إن معركتنا مع هذا النظام معركة الإسلام ضد قوى الكفر والشرك والارتداد، ومعركة الشريعة المطاردة والعقيدة المطلوب وأدها، وليست شيئاً آخر على الاطلاق. وإن الطليعة المقاتلة التي شرّفها المولى جل شأنه بحمل راية الجهاد في سورية لتعلن لكم أنها ستظل بإذن الله الأمينة الوفية لهذه الطريق المباركة التي خضبتها بالدماء الزكية الطهور، وصولاً لإقامة دولة الإسلام، وتحكيم شرع الله ﷻ في الأرض، فشهداؤنا في جنان الله، ومعتقلونا لهم الله ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

وإن لجند الطليعة المقاتلة لقاء فعلاً مع هذا النظام الكافر، ولكن من خلال السلاح في ساحات الجهاد والاستشهاد وتنفيذ حكم الله بحق علوجه وجلاوزته بإذن الله.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

٧ جمادى الأولى ١٤٠٧هـ/ ٢٨ كانون الثاني ١٩٨٥م

الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين»

وبعد أن أوهم النظام النصيري أن المعركة مع الإخوان المسلمين قد انتهت، وبعد فشل المفاوضات مع قيادة الإخوان المسلمين، عاد ليعلن حربه من جديد عليهم، وظهرت في قاعة المؤتمر القطري الثامن شعارات حرب الإبادة ضد الإخوان المسلمين، وظهرت كذلك في الشوارع والأماكن العامة والمراكز الرسمية للحزب والدولة مثل هذه الشعارات، حتى إنها أصبحت جزءاً من تحية العلم اليومية في المدارس بالتعاهد على القضاء على عصابة الإخوان المسلمين المجرمة.

وقام الإخوان المسلمون بدورهم بعد انقطاع دام عدة سنين بالعديد من العمليات العسكرية ضد النظام، استهدفت أهدافاً اقتصادية هامة، على أمل الانهيار الاقتصادي للنظام، دون إعلان عن هويتهم في ذلك، بل كانت بالتنسيق مع جهات المعارضة السورية والفلسطينية.

وقد نشرت وسائل الإعلام في تلك الفترة بعض هذه العمليات، وذكرت نشرة النذير الصادرة عن الجماعة أيضاً عدداً منها، وذلك تحت عنوان: بيانات صادرة عن «جيش تحرير سورية».

تحطيم أمة

لقد اختار باتريك سيل أن يكون الفصل قبل الأخير في كتابه تحت عنوان «تكوين أمة» ومن هذا العنوان اخترت عنوان هذا الفصل «تحطيم أمة»، وأسوق مقتطفات كثير من هذا الفصل لتأكيد هذه الفكرة، مع إبداء الملاحظات التالية:

أولاً: ركز سيل على الجانب المادي في هذا المجال، وتكوين الأمة لا تمثله المظاهر المادية.

ثانياً: لا يمكن أن نتصور ربع قرن يمر – وهو الفترة التي شملها في كتابه – ويقف البناء وتقف عجلة التاريخ. فما يحدثنا عنه عن التفجر السكاني وامتداد العمران وانتشار الكهرباء والماء في أصقاع سورية، ونمو الثروة الشخصية هو أمر طبيعي، لو تحدث عن أي رجل حكم بلده ربع قرن من الزمان وجد مثل هذه الأمور أكثر في بلده.

ثالثاً: ولم يغفل سيل الجوانب السلبية التي تحدث عنها بجرأة أحياناً، وبلباقة وسياسة أحياناً أخرى، والذي يتفحصها يجد أنها أقرب إلى تحطيم الأمة منها إلى تكوينها كما سيرد معنا فيما بعد.

رابعاً: أما الجوانب المعنوية فقد أغفلها بشكل صريح، لكنه لم يغفلها بصورة مستورة، لأنه يعلم أنه محاسب على الدجل الذي يقوله لو فعل ذلك. فأي معنى في تكوين الأمة مع إبراز سيطرة الـ ١٠٪ من العلويين على مقدرات البلد؟! أو أي معنى في تكوين الأمة مع خضوع الأمة كلها لإرادة فرد كما هو واضح في الكتاب كله. وفي هذا الفصل بالذات؟ وأي معنى في تكوين أمة وسيطرة الطبقة الحاكمة والعسكرتاريا على كل خناق البلد والذي يعيشون في ظلهم وفي تنفيذ مخططاتهم ؟ وأسئلة وأسئلة شتى تؤكد أننا أمام أمة محطمة لا أمة مكونة.

خامساً: والشيء الذي يحرص على إبرازه عن الأسد أنه مثل عنصر المقاومة

المستمرة ضد إسرائيل، ولكنه من الناحية الواقعية لم يتجاوز نقطة الصفر، وسنرى في فصل لاحق كيف انتهى كما انتهى إليه كل المواجهين على الساحة، ليدخلوا مؤتمر السلام بدون قيد أو شرط.

سادساً: والذي نقوله أخيراً: إن تحطيم الأمة، والذي شهدناه في كل فصول الكتاب، إنما هو في قتل قيم الأمة، وفي ذبح دعاة الإسلام فيها أولاً، ثم ذبح أي معارضة شريفة ثانياً، وسيشهد التاريخ ماذا فعل الأسد بهذه الأمة،وستتكشف كل الجرائم والخيانات والمذابح والمقاصل التي تمت في عهده الميمون.

وسنمضي مع سيل، باستعراض بعض الفقرات حتى من الجانب المادي الذي اختاره.

الأسد وإسرائيل:

يقول سيل في إحدى الفقرات: «ورغم هذا فإن منجزات الأسد لا تزال بادية الهشاشة، فأعباء التصدي للمصاعب إنما تقع كلها على عاتق رجل واحد هو الأسد بالذات. ومن هنا فإنه بالنسبة لتغيير قدر ١٩٦٧ لم يستطع أن يحقق إلا نجاحاً جزئياً. فلقد فشل في منع إسرائيل والولايات المتحدة من سلخ وتحييد مصر أقوى بلد عربي، وأخفق في طرد إسرائيل من الأراضي الفلسطينية بل حتى السورية، بحيث بقيت المعضلة الفلسطينية برمتها دون حل، كما أن رؤيته لتسوية اقليمية تتحجم فيها إسرائيل وراء حدود ما قبل حرب حزيران/ يونيو على يد عالم عربي يعادلها في القوة لا تزال مجرد حلم، أما فكرة التوازن التي تتمحور حولها طموحاته، فترفضها إسرائيل، والقوة العظمى التي تناصرها»[(١)].

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٧٩٨-٧٩٩.

الأسد وطائفته:

يقول سيل: «كان تحسن أحوال الطائفة العلوية أحسن توضيح للتحولات التي تمت خلال ربع قرن من حكم البعث، فرغم أنهم يشكلون ١٢٪ فقط من السكان، وكانوا سابقاً أكثر الشرائح بؤساً، فإنهم لم ينجبوا الرئيس فحسب، بل أنجبوا أيضاً جزءاً كبيراً من النخبة الجديدة. فقد جاؤوا من آخرالصفوف ووصلوا إلى القمة. وبذلك كانوا يسيرون في الممر السريع في المجتمع السوري.

فالجيل العلوي في أواخر القرن العشرين لم يكن يمكنه أن يقدم نقيضاً أعظم لصورة الفقر والانعزال المأساوي التي رسمها له جاك ويلرس منذ نصف قرن مضى... فقد تم إحياء الأرض الخلفية للساحل السوري على المتوسط من خلال الصعود العلوي. فهناك مئات من القرى الجبلية راحت تتسع في بنايات مشيدة من الطوب الاسمنتي الخفيف المخلوط بكسارة الفحم البركانية بشكل سريع، بحيث لم يكد يبقى أثر من قرى الحجارة القديمة الخشنة التي كانت موجودة في أيام الأسد. أما الثياب التقليدية فقد اختفت اختفاءً كلياً تقريباً، وأصبحت حشود الأطفال ترتدي البذلات حسب الموضة، وسراويل الجينز وأحذية التدريب التي يرتديها معاصروهم الأوربيون، كما وسّع العلويون أماكن تواجدهم، فانتشروا من سفوح الجبال إلى المزارع الخصبة في أراضي الغاب الداخلية، وانحدروا غرباً نحو البحر، حيث راحوا يشترون الأرض ويبنون البيوت، ويزحفون على المدن الساحلية ليطوروا اللاذقية وطرطوس وبانياس وجبلة، ويتحركون إلى دمشق نفسها.

في عام ١٩٧٠ كان عشرة بالمائة فقط من بيوت محافظة اللاذقية تصل إليها أنابيب مياه الشرب، أما بعد خمسة عشر عاما، فقد ارتفعت النسبة إلى ٧٠٪، وفتحت طرق إلى كل قرية صغيرة، وعندما كان الأسد في المدرسة كان هناك

بضع عشرات من العمال فقط يشتغلون في المؤسسة الصناعية الوحيدة، وهي شركة التبغ (الريجي)، أما في منتصف الثمانينات فكان هناك ٤٠.٠٠٠ عامل يشتغلون في شركات القطاع العام، في تعليب الأطعمة، وصناعات الألومنيوم، والإسمنت، والمنسوجات والسجاد . بينما راحت سلسلة من السدود تروي حوالي ٥٠.٠٠٠ هكتار. أما في مدينة اللاذقية نفسها، والتي نما عدد سكانها من ٣٠.٠٠٠ إلى ربع مليون خلال حياة الأسد فقد توسع الميناء توسعاً عظيماً، كما تم إيجاد جامعة جديدة، أطلق عليها اسم تشرين/ اكتوبر، تيمناً باسم حرب ١٩٧٣، وقد أقيمت حسب مرسوم جمهوري سنة ١٩٧١، وأصبح عدد طلابها ١٥٠٠٠ في عام ١٩٨٥، مما أدخل مستويات وأنماطاً فكرية جديدة إلى الحياة الاجتماعية.

بعد ثورة عام ١٩٦٣ مباشرة بدأ العلويون يتحركون بحماس وشوق إلى التعليم، وكانوا مهرة وعملوا بجد ودأب، وبدأوا يحصلون على المنح والبعثات بأعداد متزايدة، ويوفدون إلى الخارج للحصول على شهادات عليا، فأصبحوا أطباء ومهندسين ومحامين واساتذة جامعات، بحيث إنهم صاروا بعد الثورة بخمسة وعشرين عاماً ممثلين تمثيلاً قوياً في المهن، وفي وظائف الدولة العليا، ينافسون أحياناً ويزيحون المثقفين السنيين والمسيحيين، ولم يهدأ أو يتراخ التعطش العلوي للتقدم.

وفي حزيران/ يونيو ١٩٨٧ وقعت حادثة في قرية الأسد، القرداحة، فأوضحت مدى حدة ذلك التعطش، فبينما كان بعض هذه المدارس يقدمون امتحان آخر السنة، اقتحم آباؤهم القاعة، كانوا متحمسين لحصول أبنائهم على نتائج جيدة، فاستدعى مدير المدرسة الشرطة، وحدث تبادل لإطلاق النار، وقتل شرطي، فغضب الأسد وأرسل وحدة من الجيش لتطوّق المبنى، وتضمن سير

الامتحانات بطريقة منتظمة، وفي دراسة لأوضاع الفلاحين في سهل الغاب الحديث التجفيف قامت بها عالمة الاجتماع والاجناس البشرية فرانسوا زميترال، تبين أن نسبة البنات اللاتي يذهبن إلى المدارس في سهول الغاب الغربية التي يقطنها العلويون تتراوح بين ٣٤٪ و٤١٪، بينما تتراوح النسبة في سهول الغاب الشرقية التي يقطنها السنيون بين صفر و٧٪ فقط.

ورغم أن القرويين العلويين لم يكن لهم تقليد مدني خاص بهم فإن الذين استقروا منهم في دمشق كانوا في الغالب أسرع تكيفاً مع الأفكار الجديدة، وأساليب الحياة الحديثة من صغار القوم من السنيين.

وكما هي الحال بالنسبة إلى سكان الجبال، فقد كانوا يميلون إلى القوة والخشونة والاعتماد على الذات، ولكنهم لم يكونوا ماهرين في التجارة أو الحرف. وقد حصل الأكثر تواضعاً منهم على عمل كحراس وسائقين وموظفي أمن في المطار، أو جندوا بالألوف في سرايا الدفاع والقوات الخاصة والحرس الجمهوري، فجاؤوا بعائلاتهم إلى الضواحي الممتدة خارج دمشق: حرستا، القابون، المزة.

وقد أغضب تحسن أحوال العلويين كثيراً من السوريين الذين بدأوا يعتقدون بأن للعلويين رعاية وتفضيلاً أكثر من اللازم. ولكن فيما عدا المتطرفين من الأصوليين الإسلاميين [1]. فإن قليلين هم الذين اعتبروا معتقداتهم المخالفة

---

(١) يحاول (سيل) أحياناً أن يوهمنا أن المعركة هي بين النظام القائم (والأصوليين المتطرفين الإسلاميين) أما الشعب فهو لا مصلحة له في هذه المعركة، وليس بينه وبين النصيريين وأسد تلك الفجوة. وهو وهم كاذب، وهو نفسه يكذبه عندما يتدارك الأمر فيتحدث عن سيطرة النصيريين على الجيش والأمن سيطرة كاملة. والحقيقة العارية هي أن النصيريين في تخطيطهم هم ضد السنة بشكل عام، ونسبة سيطرة النصيريين على الجيش والقوات الموازية وأجهزة الأمن هي أكثر من ٩٠٪ كما أكد ذلك في أكثر من مكان. أما السنة الذين يمثلون ٨٠٪ من الشعب =

للإجماع نقطة ضدهم، ومع ذلك فإن تقدم العلويين كان يبدو غير قابل للتراجع بفضل مركزهم القوي في الجيش وأجهزة الأمن، والحرف المهنية والحزب، بل وفي كل مؤسسة في جميع أنحاء البلاد. وبما أنهم قد شقوا طريقهم إلى القمة بالقتال وبالدراسة، فليس من السهل زحزحتهم عنها» [١].

الزراعة والري:

كان سد الفرات بخزانه في بحيرة الأسد في الطبقة ومحطة توليد الطاقة وشبكة الري أوسع المشاريع في عهد الأسد وأكثرها طموحاً وأكبرها مشاكل. فقد بدأ العمل به في عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩، وانتهى في أقل من عشر سنوات. وكان مشروعاً ينظر إليه كمنطلق للازدهار، فقد أوصل الكهرباء إلى أقاصي القرى النائية، وكان ذلك في رأي لينين هو مفتاح تطويرالأمور في الريف، غير أن آمال إحياء ٦٤٠.٠٠ هكتار من الأرض، وجعلها خصبة بواسطة مياه البحيرة قد خابت، أو في افضل الأحوال تأجلت، وتعلم السوريون عن طريق المعاناة الصعبة أن بناء المستقبل يعني في جملة ما يعنيه هدم الماضي، فقد أغرقت بحيرة الأسد حوالي ثلاثمائة قرية، وشردت منها ٧٢.٠٠٠ نسمة، ودمرت ٢٥٠٠٠ هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة، وكانت هناك خيبة أمل أكبر من ذلك في اكتشاف خسارة ٦٠.٠٠٠ هكتار بسبب آفة الملوحة التي كانت تنتشر بمعدل عشرة

=

السوري، فلا تصل نسبة تواجدهم في مراكز القوى المذكورة إلى ١٠٪.

وأذكر أنه أثناء المفاوضات بين السلطة النصيرية والإخوان المسلمين رفض ممثلو السلطة أي حديث عن الجيش والأمن، فهذا أمر غير قابل للتفاوض إطلاقاً عندهم.

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٧٣٤-٧٣٦.

هكتارات في اليوم، فعندما قام التجار بادئ الأمر بفتح حوض الفرات والجزيرة لزراعة الأقطان في الأربعينات وفي الخمسينات كان الماء يضخ من النهر بدون طرق ري، فارتفع مستوى الماء، وأدى التبخر في فصول الصيف الحارة والجافة إلى ظهور الأملاح على السطح، ومع خسائر الأرض كان الفلاحون يتحركون بعيداً عنها ويتركونها ويستعملون مزيداً من المياه على أمل الحصول على ناتج أوفر، وبذلك ازداد الوضع سوءاً، وقد تم صرف كثير من الوقت والمال في البحث عن حل، ثم بدئ أخيراً بحفر الآبار في الثمانينات، وربطها بقنوات تصريف عميقة لتخفيض مستوى المياه، بينما أقيمت قنوات لجلب الماء وإجرائه على الأرض لغسلها، وكان من بين المكتشفات غير السارة أن التربة غنية في الجبس مما جعل قنوات الماء تنهار، وهكذا شكلت هاتان المعضلتان تحدياً ضخما لبلد نام في قطاع حساس الأهمية في اقتصاده، ولعله كان من الأفضل لسورية لو أنها بدأت بري أجود أنواع الأراضي بدلاً من أسوئها، لأن ما ينقصها هو الماء لا الأرض.

وقد استوعبت الخطة الخمسية السادسة (١٩٨٦-١٩٩٠) هذا الدرس، فحولت مياه الفرات غرباً نحو السهول الخصبة في شمال حلب وجنوبها، ولكن بينما بدئ بتصحيح الأخطاء، اضطرت سوريا إلى تأجيل الأمل بمضاعفة أرضها الزراعية جيلاً آخر، وكانت تلك خيبة أمل مريرة للأسد.

ولقد جاء الإصلاح الزراعي في الستينات وبناء السدود في السبعينات بسنوات من الفوضى لسورية قبل أن تتحسن إنتاجيتها الزراعية، فلقد تحسنت أحوال الفلاحين بلا شك في سهول حمص وحماة البعلية المروية بمياه الأمطار، بالتخلص من ملاكي الأراضي (الإقطاعيين)، وكانت أوضاع الفلاحين جيدة على الأقل في سنوات هطول المطر بشكل طبيعي. أما في الأراضي المروية في

حوض الفرات فإن الصورة كانت مختلفة، وأكثر اختلاطاً وتنوعاً، لأن صغار المالكين الجدد وجدوا أنه تنقصهم أدوات ووسائل الإنتاج ولا سيما مضخات المياه، فاضطروا في بحثهم عن العون المالي إلى اللجوء إلى تجار المدينة، أو الفلاحين الأغنى، أي إلى الناس الذين كان البعث يأمل أن يحذفهم من عملية الإنتاج. ثم إن الرعاة لم يعجبهم أن يتحولوا إلى مزارعين، والمزارعين لم يعجبهم أن يتحولوا إلى موظفي دولة، وكانت تعاونيات الدولة غير فعالة، وكان الدين الزراعي عبئاً، ولعل مساحة الأرض الزراعية التي سمح قانون الإصلاح الزراعي لكل شخص بملكيتها أصغر من أن تطبق بها الزراعة العملية، وحتى أواخر الثمانينات كانت شبكة العلاقات المتداخلة كلها بين الدولة والمنتج والسوق والوسطاء لا تزال تعالج في محاولة مضنية لتنظيمها.

ومع ذلك فإن الطرق والكهرباء وأنابيب المياه والمدارس ومراكز الرعاية الصحية قد حولت الحياة القروية، فأقيمت عشرات السدود الصغيرة، وخططت عشرات غيرها لالتقاط كل قطرة من ماء المطر. وأنشئت مواقع لصوامع الحبوب ومخازن للأغذية المعلبة في كل محافظة، وأما المزارع بالمشاركة الجاهل والمظلوم الذي كان من المشاهد المألوفة في أيام الأسد فقد اختفى إلى حد كبير، لقد كان هذا ما جاء البعث ليحققه، وقد أدرك الأسد أن رفع مستوى الفلاح هو الشرط المسبق لبناء دولة حديثة وجيش حديث . وفي أواخر الثمانينات كان جميع سكان الريف باستثناء ٢٪ يشاهدون التلفزيون ويستمعون إلى الراديو، بينما كانت الثلاجات والغسالات تدخل بيوتهم بسرعة، قبل عام ١٩٦٣ كانت المناطق الريفية عملياً خالية من الكهرباء، ولم يكن هناك ثلاجات إلا عند ٢٪ أو ٣٪ من السكان، وبكلمات محمد حربا ابن الفلاح الفقير الذي ارتفع إلى منصب وزير فإن سورية قد مرت بتجربة ثورة في غضون خمسة وعشرين عاماً فقط، استغرقت

فرنسا قرناً لتحقيق مثلها» [1]!!

لكن الشيء الخطير والفظيع الذي لم يعرض له سيل في حديثه عن الفلاحين هو الظلم الذي اصبحت الدولة تمثله بالنسبة لهم بدل الإقطاعي. لقد أصبحت هي المستورد الوحيد منهم بالأسعار المتدنية التي تريدها، وتحظر على أي فلاح أن يورد شيئاً من بضاعته خارج القطر. ثم تأخذ هذا الناتج فتبيعه بالسعر الذي تريده.

لقد اصبح الفلاح يشعر بأنه يموت تعباً ونكداً وشقاءً، وعليه أن يقدم جهده للدولة بأبخس الأثمان، تشتريها منه كما تريد وتبيعه كما تريد، ولو فعل غير ذلك لقبض عليه بتهمة الخيانة والعمالة والإمبريالية. وكذلك فالدولة تستورد المعدات الزراعية، وتبيعها للمواطنين بالأسعار التي تريدها، ليعود فائض الأرباح للسماسرة من الضباط النصيريين الذين يتوزعون كل شركات الانتاج بالشراكة مع عملائهم المدنيين. لقد اصبحت الرشوة هي شعار عصر الأسد. وأصبح المترفون فقط هم عملاء الضباط والوزراء الذين يثرون بعشرات الملايين ومئات الملايين من عرق هذا الشعب وكده.

التصنيع:

«وكان النجاح في الصناعة أقل، لأن أخطاء كبيرة ارتكبت في الهجمة للتصنيع في سنوات الازدهار بعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر، كانت إسرائيل قد أوقعت أضرارا فادحة بالاقتصاد السوري في الحرب، وكان هناك حافز لإعادة البناء والتحسين. إن معظم المشاريع التي أثبتت فيما بعد أنها مجلبة للصراع قد

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٧٣١-٧٣٥.

تـم التعاقد عليها خلال عامي ١٩٧٤-١٩٧٦ في عهد حكومة محمود الأيـوبي، وعندما سئل الأيوبي فيا بعد عن سبب سماحه بتبذير الأموال على خطط غير مربحة رد بقوله: «لو لم نصرف الأموال على الصناعة لابتلعها الجيش»، وروى محمد حيدر الذي كان نائباً لرئيس الوزراء في ذلك الحين للشؤون الاقتصادية بأنه ذهب إلى العربية السعودية بعد حرب سنة ١٩٧٣، وأن الملك فيصل سأله عما تحتاجه سورية وقال له: «أعطني قائمة بمشاريعكم مع بعض الأرقام»، وكان حيدر قد جاء بلا تحضير، فقضى الليل كله يشتغل على الآلة الحاسبة في جيبه لإنتاج شيء يشبه الوثيقة، وبمثل هذه الطرق العشوائية المرتجلة كانت تؤلف برامج سورية الصناعية.

فغالباً ما كانت المصانع تقام لأنها تعطي فرصاً للوسطاء المتنفذين لكسب قومسيونات من الموردين الأجانب، بينما كان الوسطاء بدورهم يغذون عشيرة من السماسرة الأصغر منهم لإغناء أنفسهم في مختلف مراحل مشاريع القطاع العام. كان الأسد يريد تحرير الاقتصاد بشيء من الانفتاح، ولكن ذلك صار يعني خلق مليونيرين على الفور وعلى حساب الشعب، ولو كانت تلك المصانع مجدية ومربحة لما كان لمثل هذا الفساد أهمية حرجة وحساسة، ومن بين أشهر الأمثلة سيئة السمعة مصنع الورق الذي كلف ١١٠ ملايين دولار في دير الزور، والذي وقع عقد إنشائه مع مجموعة من الشركات النمسوية والإيطالية في عام ١٩٧٦، وصار تاريخه في الأعوام العشرة التالية سلسلة من الأخطاء. فقد فشل تشغيله بقش القمح السوري، وعلى أية حال لم يكن هناك قش كاف لتوريده إلى المعمل، ولم يكن مرجله الكبير مصمماً لاستعمال النفط السوري، وتوقف العمل خمسة أشهر بسبب خراب العنفة، وترك العمل الخبراء الأجانب مضربين، وأقيمت دعوى قضائية في محكمة دولية ضد المتعاقدين، وترك القش كمادة

أولية ليحل محله الخشب ونسالة القطن، مما استدعى إجراء تعديلات على المكائن كلفتها باهظة، واتضح في آخر الأمر أن الاستمرار في استيراد الورق كان أرخص من إقامة المعمل.

وكان من المصائب الصناعية الأخرى مصنع الأمونيا - يوريا في حمص، الذي أقامته شركة كروز - ورلوار الفرنسية واقترحت تشغيله بالنفط، ولكن بعد سلسلة من الإخفاقات حول المصنع عام ١٩٨٨ ليعمل على الغاز بكلفة لا يستهان بها، إذ اقتضى إنشاء خط لأنابيب الغاز كلفته ١٠٠ مليون دولار، ثم التعاقد عليه مع بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا.

ووضعت كذلك خطط طموحة أكثر من اللازم لتكرير السكر عام ١٩٧٥ عندما تقرر إنشاء أربعة معامل تستهلك فيما بينها ١.٧ مليون طن من الشمندر، وهذا بدوره كان يعني تحويل ٥٠.٠٠٠ هكتار من الأرض المنتجة لهذا المحصول، وتشجع الفلاحون بحوافز من الحكومة، فتركوا زراعة القطن والحنطة، ولكن عندما انهارت أسعار السكر العالمية في الثمانينات اضطرت الحكومة إلى تقليص الامكانية الجديدة إلى حد كبير. أما مصنع الإسمنت العملاق الذي يعتبر واحداً من أكبر المصانع في الشرق الاوسط، والذي أقامته جمهورية ألمانيا الديمقراطية بالقرب من طرطوس، فقد اتضح أنه ليس كارثة اقتصادية بل بيئية، فقد تلوث بالغبار والدخان امتداد نفيس من خط الساحل المطل على الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى تدمير وقطع آلاف من أشجار الزيتون الممتاز. وكانت هناك قصص كئيبة أخرى، وبمرور الزمن اتضح أن عدة استثمارات كبرى تمت في مشاريع أسيء تقييمها، وأن المعامل كانت إدارتها سيئة، وأن كثيراً من أموال فترة الازدهار قد هدرت. وعلى عكس هذا السجل، كانت هناك حالات نجاح متميزة، فالنفط الكبريتي الثقيل الذي كان يستخرج من

الحقول في الشمال الشرقي منذ أوائل السبعينات قد دعمته وأكملته في الثمانينات سلسلة من الاكتشافات النفوط الخام الخفيفة من نوعية جيدة على طول ضفاف الفرات من دير الزور إلى البوكمال على الحدود العراقية، ولأول مرة يلوح لسورية احتمال الحصول على مصدر مادي كبير للتمويل المستقل، كما عثر على الغاز بكميات كبيرة في منطقة تدمر في بادية الشام. وارتفع انتاج الفوسفات إلى أكثر من مليوني طن في عام ١٩٨٧، مع وجود إمكانية لإنتاج خمسة ملايين طن سنوياً.

وكان من أدوات التغيير والتحويل الهامة في القطر شركات الإنشاءات التابعة للدولة التي يوجد منها لا يقل عن ثلاث عشرة شركة في منتصف الثمانينات، ومن بينها مؤسسة الإسكان العسكرية التي هي أكبرها على الإطلاق، وهي مثال على المشاريع الحرة التي لا يضاهيها إلا قليل من النظم الاقتصادية التي تسيطر عليها الدولة. وقد (خلقها) عقيد قصير قوي البنية ممتلئ الجسم متوقد النشاط علوي اسمه خليل بهلول، من أصل فلاحي، مولود في عام ١٩٣٥ . وقد لفت نظر الأسد لأول مرة بكفاءته في بناء ملاجئ للطائرات ومدارج للمطارات بعد الدمار الذي خلفته حرب عام ١٩٦٧، ثم انتقل إلى بناء وحدات سكنية للجيش، واجتذب المهندسين الشباب بعد تخرجهم من كلياتهم. وخلال عقد من الزمن صارت مؤسسة الإسكان العسكرية أكبر مؤسسة في البلاد، بل مجموعة من ست وستين شركة تستخدم اكثر من نصف العاملين في صناعة الإنشاء والبناء، والبالغ عددهم مائة وخمسين ألفاً. وأصبحت مسؤولة عن عدد من أفضل المباني في القطر: المطار الدولي الجديد، ومكتبة الأسد، وقاعة الولائم الرسمية في القصرالجمهوري المزخرفة بشكل مفصل ومعقد على الطراز الشرقي، وفندق مريديان حلب، والمدينة الرياضية التي استعملت لدورة ألعاب البحر المتوسط

في اللاذقية عام١٩٨٧، وكليات جامعية، والـ ٥٠٠٠ بيت في ضواحي الأسد ولكل منها قطعة أرض كالحديقة فيها شجرتا زيتون وكرمة، وتملك (لمسة بهلولية) نموذجية. وهناك نماذج من أعماله في جميع أنحاء سورية، فقد أدخل أساليب إدارة ومحاسبة العمل الحر الخاص إلى القطاع العام، وحرر نفسه من الاعتماد على الاخرين بأن راح يصنع أو يركب أو يدبر كل المواد التي يحتاجها من إسمنت ومطاط ورخام وحجر وفسيفساء وإطارات الشبابيك المصنوعة من الألومنيوم والأثاث والفرش والتنجيد، وأدخل التقنية الحديثة، وشجع المهندسين والحرفيين والمدراء على ان يكونوا مرنين ومبتكرين، وبذلك أسهم بهلول بالقدر الذي يستطيعه أي شخص في تحريك البلد [١]، حتى لقد قيل عن إمبراطورية مؤسسة الإسكان أنه لم يكن ينقصها سوى علم ونشيد وطني. ولكن نجاح بهلول واحتقاره القوي للقيود والضوابط الحكومية قد أكسبه أعداءً، وأخيراً أدت اصطداماته مع الكسم إلى إسقاطه» [٢].

نكسات للاقتصاد:

وبينما كانت الثمانينات تتجه إلى ختامها تزايدت الضغوط على الأسد لإعادة تقييم السجل الاقتصادي لرئاسته. فقد كانت هناك حاجة للشفاء من الاتجاه السلبي المتدني الذي أصاب عقداً من الزمن بعد انهيار أسعار النفط العالمية، وما

---

(١) لا بد من الإشارة إلى أن هذا (البهلول النصيري) الذي لا يشك في طاقاته وقدراته انها كانت منصبة على المشاريع التي تخدم (الأسد) بسمعته وتخدم طائفته في ترفيههم. فطبقة الضباط التي يعتبر أغلبها نصيرية هي التي استمتعت بهذه الإنجازات، والبذخ على المشاريع الحكومية والإمكانات الموضوعة بين يديه لترفع سمعة الأسد، في كل شيء. في (مكتبة الأسد) و(القاعة الرياضية) و(قاعة الولائم) وغير ذلك من بيوت الضباط الأثرياء.

(٢) الأسد، لباتريك سيل/ ٧٣٥-٧٣٨ مقتطفات.

نجم عنه من خسارة في عائدات النفط السوري المصدر، وتناقص في تحويلات السوريين العاملين في الخارج . ثم إن جفافاً قاسياً لم ينقطع إلا عام ١٩٨٦ قد أصاب بضربة قاصمة بلداً لا يزال يعتمد كثيراً على هطول الأمطار، إلى درجة أن السوريين اضطروا إلى ذبح ٣٠٪ من خرافهم في عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٤، كما تطلب الأمر استيراد مواد غذائية باهظة الثمن، وسبب قطعاً في التيار الكهربائي، لأن انخفاض منسوب جريان المياه في الفرات قد خفض كمية الطاقة التي يولدها السد. وكان هناك عوامل سياسية أيضاً، فتأييد سوريا (غير المحبوب شعبياً) لإيران، ومشاجراتها مع الأردن وفلسطين، والتوترات بينها وبين أقطار الخليج، ومواجهتها مع الغرب بشأن الإرهاب، كل ذلك جلب عليها عقوبات اقتصادية، وأصيب البلد بعجز مفزع في الميزانية وميزان المدفوعات، وذهل الناس لشدة التضخم الذي تصاعد في عامي ١٩٨٧ و١٩٨٨ حتى وصل إلى ١٠٠٪ سنويا..»[١].

وكان جزءاً من مشكلة سورية يعود إلى افتقارها لفريق منسجم يدير الاقتصاد، فلم يكن هناك تنسيق فعال بين وزارات التخطيط والمالية والاقتصاد، أو بين هذه الوزارات ومكتب الشؤون الاقتصادية في الحزب. ولعل الأسد كان يريد أن تنعكس أولوياته في التطبيق، ولذلك اختار مساعدين أقوياء في ميداني الشؤون الخارجية والأمن مثل عبد الحليم خدام والشهابي وعلي دوبا، أكثر مما فعل في المجال الاقتصادي، حيث كان موظفون في العادة ممن تنقصهم السلطة أو الوزن السياسي» [٢]

---

(١) المصدر نفسه، ٧٣٠-٧٣٢.

(٢) المصدر نفسه ٧٣٠-٧٣٢.

كانت أمراض سورية الاقتصادية تتطلب علاجات كريهة، مثل تقليص الإنفاق الحكومي لتخفيض عجز الميزانية، وإيجاد استقرار للعملة المصابة بالتضخم، وإزالة الهدر في المجالات التي لا تمس كالجيش والحزب، ولجم طبقة الطفيليين المتبارين في الاستهلاك. وكان من الواجب إيجاد الأموال اللازمة لاستيراد المواد الأولية لإعادة تشغيل مصانع الدولة، وتفكيك القيود لإطلاق المواهب التجارية السورية التي لا شك فيها.

شغلت أذهان السوريين في الثمانينات بقع سوداء في مجتمعهم وفي اقتصادهم، وكان التهريب من بين أهم البقع التي تتصدر القائمة. فمع سيطرة الحكومة على التجارة الخارجية، وندرة العملات الأجنبية كان هناك عدة نواقص في السوق المحلية، ومنذ عام ١٩٧٦ حينما دخل الجيش السوري لبنان فسيطر على المرور في الشوارع والطرق، وحتى على الموانئ كطرابلس، وامتص البقاع أو كاد، فإن التهريب كاد يتحول إلى مؤسسة قائمة بذاتها، وتورط الجيش السوري في عمليات التهريب بانهماك شديد، وبالنسبة للعسكريين فإن إرسالهم إلى لبنان يعني فرصة لتكوين ثروة، وقد انتشر التفكير بهذه الطريقة لدى الجميع من الجنرالات إلى الرقباء. وقد فزعت السلطات من تآكل قيمة الليرة السورية وخسارة العوائد الجمركية، وتسرب السلع المحددة الأسعار إلى خارج البلد مثل الأدوية والمواد الصيدلية. فأخذت تحاول التشديد على منع التهريب من حين لآخر لكن دون جدوى، ولم يكن لدى الطبقة الوسطى أي مكان آخر تلجأ اليه للحصول على قائمة بأكملها من المنتوجات الاستهلاكية من ورق التواليت إلى الغسالات.

وإن كان لديك المال فإنك تستطيع شراء أي شيء، لكن إن كنت لا تملك سوى أجورك أو راتبك فإن الحياة تصبح شديدة التقشف، قاصرة على

الضرورات الأساسية. فالأشياء المريحة - دع عنك الترف أو الفخفخة- تصبح خارج نطاق ميزانيتك. وقد كان هذا قدر معظم السوريين، فالأجور في القطاع العام الكبير كانت منخفضة عبر السلم الوظيفي كله، من منظفي الشوارع إلى أساتذة الجامعات. ولم تكن أجور القطاع الخاص أفضل منها كثيراً، ومع التضخم المتفلت من عقاله، صار الهم الوطني هو التسابق على شيء من الزيادة في الدخل، ولجأ السوريون النشطون الذين لا تعييهم الحيلة إلى الاشتغال بأعمال اضافية سراً، وإلى الفساد بجميع أنواعه، مما خلق اقتصاداً أسود، امتد بضخامته إلى عمق الدوائر الحكومية والقطاع العام» [1].

الطبقة المترفة:

«وعلى قمة الهرم الاجتماعي كان هناك مجموعة قليلة من ذوي الثراء الفاحش تثير الغيرة والغضب، وتعيش في عالم بعيد جداً عن عالم الجماهير الكادحة، وحتى عن الطبقة الوسطى ذات الرفاه المعقول من رجال المهن وصناعيي القطاع الخاص والتجار في معظم الحالات. كان أولئك الأغنياء من أصول وخلفيات فلاحية، ممن بنوا مع الأسد الدولة البعثية، ولكنهم تخلوا منذ زمن طويل عن أي تظاهر بالمثل الاشتراكية. وكان أفراد هذه المجموعة منتسبين إلى المراتب العليا في الجيش وقوى الأمن والحزب والحكومة، وبإمكانهم الوصول إلى واردات وخزائن الدولة بطرق مشروعة وغير مشروعة، فكانوا يمتازون بقدرتهم على شراء ما يريدون، والتصرف كما يشاؤون، دون أن يحسبوا حساباً للرأي العام، ولا لتعليمات الدولة . وطوال سنوات قامت هذه المجموعة

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٧٣٧-٨٣٧

بحلب الميزانيات، وحصلت على حصص من المشروعات العامة، وشغلت أبناءها في العمل الحر، وعقدت صفقات فيها نسب مئوية مع وكلاء المجهزين الأجانب، ونصبت صنائعها في شركات القطاع العام، وضاربت في سوق القطاعات والأراضي، وخلقت أرباحاً وكوّنت مزيداً من الثروات، وكان بعض هذه الصفقات ضمن القانون، وبعضها الآخر خارجاً عليه، وكانت فعالياتهم ونشاطهم غير مقيدة أبداً، وكانت شبكة التعامل التي أقاموها بين الرعاية والعمولات وتبادل المنافع من الامتداد الأخطبوطي بحيث تحدث بعض الناس عن المجتمع التجاري العسكري، وحتى عن طبقة حاكمة جديدة، عدد أعضائها عدة آلاف.

ومع هذا فإن بروز ذوي الثراء الفاحش بامتيازاتهم وتجاوزاتهم ونزعتهم الاستهلاكية السافرة اللافتة للأنظار، كان لا بد أن يشوه صورة النظام. وللدفاع عن مراكزهم تحوّل أهل القمة إلى فئة محافظة، وصارت غريزتهم تدعوهم إلى لجم الطاقات الشعبية والسيطرة عليها بدلاً من تجميعها وحشدها. وبذلك فإن منجزات النظام من السدود والطرق وسكك الحديد والصناعات والمدارس والمعاهد والجامعات والفرص الكثيرة للشباب فقدت كلها هالتها البراقة في ضوء بذخ وتجاوزات النخبة الجديدة.

حرية المواطن:

وكان من بين الانتقادات الأكثر خطراً من الفساد انتقاد سجل النظام في مبدأ حقوق الإنسان، فالصلاحيات المطلقة لأجهزة الأمن والظروف القاسية في المعتقلات بما في ذلك اللجوء إلى التعذيب قد لاحظتها منظمة العفو الدولية، ويظل سجن قلعة المزة القديم تذكرة للجميع بمنظره الكالح المتجهم من على

قمته فوق دمشق بين الشيراتون والقصر الجمهوري. ولا يزال محتجزاً هناك في أواخر الثمانينات الرجال الذين أطاح بهم الأسد في عام ١٩٧٠. ففي دولة الأسد لم تعط فكرة حرية الفرد أي محتوى مادي برغم الأجهزة والمؤسسات، فليس هناك قضاء مستقل استقلالاً حقيقياً، ولا حرية معلومات واتصال وتعبير، ولا جامعة مستقلة بذاتها. وفي غياب قواعد واضحة تحكم العلاقات بين الفرد والدولة يشعر المواطن العادي بأنه غير آمن، وحتى السوريون الأغنياء من سكان الأحياء الراقية في دمشق الغربية يخشون أن يغضب منهم زبون أو وكيل فيجدون أنفسهم قيد الاستجواب على يد واحد أو آخر من أجهزة الأمن. فالناس يتوقون لقوانين يحترمها الجميع، لأنه في غياب مثل هذه القوانين يبدو أن الحماية الوحيدة تكمن في التقليد العربي القديم (الوساطة)، أي وجود علاقات في أماكن عليا تسمح بالشفاعة والتدخل نيابة عن المرء.

أكانت هناك ظروف مخففة لعدم الكمال [1] في بناء الأسد لدولته؟ لعل فترة حكمه الطويلة ما كان يمكن تأمينها في نظام حر ليبرالي، ولا أمكن دحر الإخوان المسلمين، ولا الصمود في وجه الهجمات الإسرائيلية [2] وفي وجه منافسيه العرب» [3].

مسخ الانسان:

ومع مرور الزمن على النظام لم يعد هناك مجال كبير للتنويع، وصار هناك تأكيد أكثر على التشابه النمطي في الصحافة وفي أجهزة الإعلام، وفي منظمات

---

(١) وهل الأمر كله الذي ذكره سيل فقط هو عدم كمال أم هو مسخ للانسان والمجتمع والأمة؟

(٢) وأين الهجمات الإسرائيلية إذا كانت الحدود مع إسرائيل لم تشهد طلقة واحدة خلال عشرين عاما أو أكثر؟

(٣) الأسد، لباتريك سيل/ ٧٤١ و٧٤٢ مع ملاحظة ان العناوين الجانبية من المؤلف.

الحزب الشعبية. كما أخذت منظمة طلائع البعث (الإجبارية) بين سني السادسة والحادية عشرة)، واتحاد شبيبة الثورة لطلبة المدارس بين سني الثانية عشرة والثامنة عشرة، وليست إجبارية، ولكنها تعطي منتسبيها امتيازات كثيرة، واتحاد الطلبة- تسعى كلها لتشكيل الأذهان الشابة حسب القالب البعثي، ولعل تزايد أعداد الطلبة في المدارس والجامعات بشكل هائل يفسر هذه المحاولة لتنظيم الجميع على شكل كتائب في زي نمطي موحد. ولكن ذلك قد أسهم أيضاً في انحدار المستويات العقلية الفكرية، فكل التعيينات في الهيئة التدريسية تخضع للتدقيق وموافقة قوى الأمن والحزب الذي يدافع بقوة عن احتكاره للسلطة على الجامعات.

وضمن هذه القيود والتحديدات كانت هناك منجزات إيجابية، ففي عام ١٩٨٥ سجل في التعليم العالي ١٤٠.٠٠٠ طالب، وخلال السنوات الخمس من ١٩٨٤-١٩٨٩ أكمل ٧٠٠٠ طالب سوري دراساتهم العليا بعد التخرج في البلدان الأجنبية. وللتعويض عن هبوط مستوى طلبة الجامعة، أقيم مركز للبحوث العلمية في عام ١٩٧٤ يركز على التكنولوجيا الصناعية والعسكرية، وتلاه عدد آخر من المعاهد النخبوية، المنتقاة والمحاطة بسرية شديدة»[١].

تحرير المرأة:

أما تحرر المرأة الذي نادى به البعث أول الأمر في نظامه الثوري المتشدد في أواخر الستينات، فقد سار قدماً إلى الأمام في ظل الأسد. فانتخبت [٢] النساء

---

(١) الأسد لباتريك سيل، ص ٧٤١ و٧٤٢.

(٢) والتعبير الأدق أنه تم تعيينهن بأوامر عليا وانتخابات صورية.

لمجلس الشعب والوظائف والإدارة المحلية والنقابات العمالية والمهنية، وأصبحن قاضيات وأستاذات في الجامعات، وتم تعيين امرأة وهي الدكتورة نجاح العطار التي تحمل شهادة الدكتوراه من جامعة أدنبرة وزيرة للثقافة في عام ١٩٧٦. وقبل عام ١٩٧٠ لم يكن هناك رياض أطفال على الإطلاق تقريباً، واضطرت النساء العاملات إلى البقاء في بيوتهن، أو ترك أطفالهن عند الأقارب والأصدقاء. وبحلول الثمانينات انتشرت رياض أطفال عدة وباصات صغيرة تجمع الأطفال من نقاط محددة في الصباح، وتعيدهم في المساء. وأُلبست منظمة طلائع البعث للبنات زياً موحداً، ووضعتهن في معسكرات صيفية منظمة أصبحت مختلطة منذ عام ١٩٨٣، وفي ذلك الوقت بدأ التعليم المختلط في المدن الرئيسية، وراح ينتشر تدريجياً في الريف» [1].

وسنكتفي بهذا القدر مما نقلناه من سيل لنثبت كيف (بنيت) الأمة التي أرادها الأسد، وسنتحول إلى ذكر نماذج أخرى لهذه الأمة المحطمة من مصادر أخرى.

السيطرة النصيرية على الجيش والدولة

إن أوضح الدلائل على تمزيق وحدة الأمة وتحطيم قواها وطاقاتها هي هيمنة أقلية منها بحجم الأقلية النصيرية على مقدرات البلاد، وأوضح مظاهر هذه السيطرة هو الضباط النصيريون المتحكمون بأجهزة الجيش وقوات الأمن، ونعيد ذكر أسماء بعض هؤلاء الضباط، ففي عهد حافظ الأسد تقلب في مناصب قيادة هذه الأجهزة أسماء بارزة كثيرة من النصيريين، وأبرز هؤلاء البارزين:

---

(١) الأسد، لباتريك سيل/ ٧٤٣.

- رفعت الأسد: قائد سرايا الدفاع.
- عدنان الأسد: قائد سرايا الصراع.
- علي حيدر: قائد القوات الخاصة.
- محمد الخولي: رئيس مخابرات القوة الجوية، وكان مستشاراً أمنياً لحافظ الأسد.
- علي دوبا: رئيس المخابرات العسكرية.
- محمد ناصيف: رئيس فرع المخابرات الداخلية، وكان مستشاراً أمنياً لحافظ الأسد.
- علي أصلان: نائب رئيس أركان القوات المسلحة.
- إبراهيم الصافي: اللجنة العليا للأمن، ثم قائد القوات السورية في لبنان.
- علي الصالح: قائد سلاح الدفاع الجوي.
- غازي كنعان: رئيس المخابرات في حمص، ثم رئيس الأمن السوري في لبنان.
- شفيق فياض: قائد الفرقة الثالثة من الجيش، التي كانت قوة ضاربة في مواجهة العصيان الشعبي أوائل الثمانينيات، ثم في مواجهة تمرد رفعت الأسد.

وهذه الأسماء هي لقيادة الصف الأول لهذه الأجهزة، وللمتنفذين البارزين فيها، أما في المواقع الأدنى فالقائمة تطول، ولكل من هؤلاء إمبراطورية من الأتباع والمتنفذين وقوات الحماية. وعلينا أن نذكر دائماًً أن وصول هؤلاء لهذه المواقع، ثم حفاظهم عليها كان يتطلب عمليات تطهير مستمرة للمنافسين السنة من الجيش وأجهزة الأمن، مثال ذلك ما قامت به السلطة في أيار عام ١٩٨٠، حيث سرحت أكثر من ٩٠٠ ضابط وصف ضابط من المسلمين، وأحيل عدد آخر

من الضباط إلى وظائف مدنية، وتم تسريح ٣٢-٤٠ ضابط طيار من محافظتي حلب وحماة، وفي نيسان ١٩٨١ تم تسريح اللواء مصطفى طيار قائد القوة البحرية مع ستة من الضباط معه لكونهم من المسلمين السنة، وفي الشهر نفسه تم تسريح العميد الركن عمار قائد اللواء ٥١، والنقيب الطيار زعيم دحام الخالد، والرائد مرعي الحسن، وهم سنيون[١].

ولم يكن التسريح هو الوسيلة الوحيدة للتطهير الطائفي، بل كان الإعدام أيضاً وسيلة معتمدة، فقد قامت السلطة بإعدام ١٥٠-٢٠٠ ضابط أواخر عام ١٩٨١، وإعدام خمسين ضابطاً عام ١٩٨٣ بحجة إعدادهم لانقلاب[٢].

وامتدت الهيمنة النصيرية الطائفية إلى ميادين أخرى كثيرة خارج نطاق الجيش والأمن، بل يمكن القول إن هذا التحكم الطائفي الظالم يلاحظ أثره في كل قطاعات الدولة وأنشطة المجتمع، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ميدان البعثات الدراسية للخارج والداخل، والهيئات العليا السياسية والمتخصصة. ففي إحصاء نشرته صحيفة لوموند ديبلوماتيك في عدد شهر أيلول عام ١٩٧٩ قالت عن بعثة دراسية عددها ١٠٠ طالب: كان سبعة وتسعون منهم من النصيريين، واثنان سنيين، وواحد نصرانياً، وذكر في نفس العدد أن حافظ الأسد شكل مجلساً لبحث الأوضاع السياسية، فيه ١٧ عنصراً، منهم ١٢ نصيرياً، و٤ سنة، ونصراني واحد.

وجاء في صحية النذير، العدد (١٥٧)، الصادر في حزيران عام ١٩٨٣:تهيء السلطات الطائفية قوائم بأسماء الأشخاص الذين ستوفدهم للدراسات العليا

---

(١) عن كتاب: حافظ أسد والقضية الفلسطينية للدكتور محمد أحمد مهاجر.

(٢) المصدر السابق، نقلاً عن النذير، العدد (١٥٥)، عام ١٩٨٣.

والدراسات الجامعية للعام الدراسي ١٩٨٣-١٩٨٤ بتزكية قسم من فروع الحزب الحاكم وشعب المخابرات، على أن تعطى الأولوية في البعثات للتقييم الطائفي والتقرير السياسي والقرابة من رموز النظام، والجدير بالذكر أن عدداً كبيراً من المبعوثين قد أُلغي إيفادهم، وبعضهم في السنوات الأخيرة من الدراسة[١].

الفساد العام:

في هذا الفصل سننقل شواهد عن عمليات الرشوة ونهب مؤسسات الدولة، التي عملت عملها في تحطيم الأمة وإنهاك المواطن، ومعظم هذه الشواهد من الصحف الحكومية:

١-«الرشوة شاهد حضاري يجب أن نحافظ عليه ونحرص على ديمومته، وعدم تكافؤ الفرص أمر معقول تؤمن به الشعوب الراقية، لأنه من المحال أن تتوحد فرصة واحدة وأخرى أو يقع بينهما تكافؤ وتماثل، والوساطة مظهر إنساني يعبر عن حاجة الفرد للآخر، واستعداد بعضهم لتلبية نداء الآخرين، وخسارة العديد من شركات ومعامل القطاع العام تجيز حق التباهي بعدم استنزاف طاقة العمل.

الرحيل عن الأرض عمل وطني كبير، ذلك أن زراعة الأرض عاماً بعد آخر يكدها ويفقدها الكثير من خيراتها وموادها الغذائية.

هجرة الخبرات والعقول الوطنية خارج الوطن تفيد مصلحة الوطن، ففي التغرب فوائد لا تحصى ولا تستقصى.

قد يستغرب القارئ كيف أمدح الرشوة، وكيف أثني على الوساطة، وخسارة

---

(١) المصدر السابق.

شركات القطاع العام، بل كيف أقف مع الهجرة عن الأرض، وغربة العقول والخبرات عن الوطن، وقد يستغرب كيف أحمد عدم تكافؤ الفرص وأستصوبه، ولكن ليس في الأمر سر إطلاقاً.

كيف؟

لقد سبق أن هاجمنا كل الظواهر المرضية في المجتمع، فلم ينفع في معالجتها هجوم أو تنديد أو شتيمة، بل قويت شوكتها واشتدت شكيمتها، وازدادت قوة على قوة، وشاع أمرها واستطار.

وامتدح المواطنون حليب النيدو، ففقد من الأسواق واقتصر وجوده على أماكن التهريب ليباع فيها بأسعار خيالية تصل إلى ٩٠ ليرة سورية للعلبة الواحدة.

مدحنا إذن حليب نيدو ونيستي وكوست فتوارت هذه عن الأنظار.

ترى هل تغيب ظواهر الفساد من مجتمعنا اذا ما امتدحناها ورحنا نطريها ونكيل لها الثناء؟ فلنجرب هذا، فالتجربة مفتاح الكشف».

جريدة الثورة السورية ١٩٨١/١١/٤

٢-عندما يبدأ البحث عن شاطئ حرر بكامله وبيع، عندما نبحث كيف هدمت أحياء وبيعت مناطق وشهقت بنايات، عندما ترى أساطيل السيارات توضع تحت تصرف المسؤولين وأنجالهم وأقربائهم حتى الدرجة العاشرة، وعندما تسأل عن صداقات غير طبيعية وغير شرعية نشأت بين المسؤولين وبين تجار داخل القطر وربما خارجه أيضاً. عندما نفعل ذلك نكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق، وسيكون السؤال: من أين نبدأ؟ من الرؤوس الصغيرة حتى نصل إلى الكبيرة أو من الكبيرة إلى الصغيرة؟ ولا بد أن يكون البدء بالرؤوس الكبيرة»

الثورة السورية ٧٩/٩/٣٠

٣-إن عملية النهب لمؤسسات القطاع العام عن طريق السماسرة والوسطاء وصلت إلى حد لا يحتمل، تهدد بوقوع انتكاسات كبيرة في عملية البناء الوطني، وانتهت إلى ظهور طبقة طفيلية غير منتجة تحقق ثروات طائلة على حساب القطاع العام أولاً وعلى حساب المواطنين كحصيلة نهائية».

جريدة الثورة عدد (٥٠٨٩) ٧٩/٩/٢٨

٤- جاء في زاوية وقفة وبعنوان: الحوار للتبرير أم للفصل:

«ما علاقة إسرائيل وكامب ديفيد والإمبريالية الأمريكية بأزمة الخبز والغاز والمواصلات والمياه والرشوة والفساد والمحسوبية والسرقة واستغلال الوطن والمواطن؟ ما علاقة كل هذه القوة المعادية بالبيروقراطية وتضخم الموظفين العاطلين عن العمل والتضخم المالي وازدهار المجتمع الاستهلاكي في وطننا؟ ما علاقة كل هؤلاء مثلاً بأن ينتج مصنع درعا للأحذية يومياً ٥٠ حذاء مقابل الإنتاج المقرر له ٣٦٠؟ ما علاقة إسرائيل والإمبريالية الأمريكية وكامب ديفيد وكل القوى الرجعية في العالم بكل ما نرى ونحيا من ممارسات وتجاوزات في هذا الوطن المقهور الذي تضافر عليه الأعداء في الداخل والخارج؟ ما علاقة؟ اسئلة تنتظر إجابة المسؤولين بدل التبرير والدفاع».

الثورة عدد ٥١٠٧ الاربعاء ٧٩/١٠/١٧

٥- هرب محافظ حلب حسين بطاح إلى لندن وقد سرق ١٨ مليون ليرة سورية.

النذير / حزيران سنة ١٩٨٠

٦-«إن القصر الذي يبنيه أسد حالياً على تلال الربوة المشرفة يعتبر رمزاً لهذه الدكتاتورية، وإن نفقات هذا القصر تبلغ ملياري ليرة سورية، وهي تعادل نصف المعونات الخارجية السنوية».

لوموند الفرنسية ١٩٨٠/٣/٢٩

٧-تبرعت السعودية بمائة ألف برميل من النفط يومياً ولمدة سنة واحدة لسورية. وقد ذكرت مصادر نفطية مطلعة أن الصفقة بيعت في سوق (روتردام) الحرة في هولندة بعمولة قدرها خمسة دولارات للبرميل الواحد، وتبين أن شقيق أحد كبار المسؤوليين السوريين قد تقاضى العمولة.

الوطن العربي عدد (١٧٥) ١٩٨٠/٦/٢١

٨-تقاضى العميل عبد الله الأحمر الأمين العام للحزب عمولة قدرها ٧٠٠ ألف ليرة سورية لقاء عقد مع شركة ألمانية بقيمة ٤.٥ مليون مارك الماني لتوريد أثاث ومفروشات وألمنيوم لمقر الحزب بدمشق (النذير عدد ٢١ آب ١٩٨٠، وقد نشرت النذير صورة الرسالة المبعوثة له نقلا عن مجلة نيو ستار اللندنية).

٩-«اشترت حكومة النظام السوري بيتاً يملكه الرئيس السابق نيكسون في نيويورك قيمته ٢.٦٠٠.٠٠٠ دولار أمريكي، وكان نيكسون قد اشتراه بـ ٧٥٠.٠٠٠ دولار، وسيحل في البيت سفير النظام السوري في الأمم المتحدة ضياء الفتال».

مجلة نيويورك ديلي نيوز الامريكية ١٩٨٠/٩/٨

١٠- «اشترى رفعت أسد منزلاً في إحدى ضواحي ميرلاند شمالي واشنطن من صاحبه يوتومال بمبلغ ١.٥ مليون دولار، وقد شب فيه حريق بتاريخ ٨٢/٩/٢٣ قدرت اضراره بـ ٤٠٠.٠٠٠ الف دولار»

١١-كتب رياض درويش يقول:

«هل تعرفون أعداد الذين أثروا على حساب المواطن عن طريق السوق السوداء؟ أعزائي القراء لماذا تتوفر مواد البناء في هذه السوق اللعينة وتفتقد في مخازن إنترميتال؟ كيف يتم ذلك؟ وأضاف: أعرف عدداً من المواطنين أجهدوا أنفسهم أسابيع عديدة في توفير وساطات لمديري فروع إنترميتال في المحافظات

كي لا تتوقف مشاريعهم بسبب انتظار الحصول على مواد البناء. فحالف الحظ بعضاً وتنكر للآخرين. ونسأل: ألم تتوقف مشاريع من افتقدوا الوساطات لو لم تسعفهم السوق السوداء؟»

الثورة السورية ٨١/٣/١٠

١٢-«والزبدة المصنوعة محلياً اختفت من الأسواق العامة والخاصة. ألبسة الأطفال التي يعلن عنها التلفزيون السوري يومياً مفقودة من الأسواق العامة والخاصة».

البعث السورية ٨١/٤/١٥

١٣-وكتب أسعد عبود:

«هل أصبحت اللحمة عملة صعبة هي الأخرى؟ إذا كان الأمر كذلك فهنا القهر الحقيقي. نحن لا يهمنا كم يعطونا بالليرة من الدولارات، يهمنا كم يعطونا بها من اللحمة.

اللحمة لها ثلاثة أسعار: السعر الرسمي ٢٨.٥ ليرة سورية للكيلوغرام الواحد، والسعر الموازي ٣٨ ليرة سورية للكيلو غرام الواحد كما حدده مكتب محافظة دمشق، وسعر السوق السوداء كما يرغب اللحام وحتى ٥٠ ليرة للكيلو.

وفي الحالتين الأسعار الرسمية يلزمها عناء ومعاملات، والسعر الأسود هو الدارج الذي يمكنك الحصول به على ما تشاء. فأن تحصل على اللحم من المؤسسة أصعب من حصولك على الدولار من البنك المركزي، وأن يبيعها لك اللحام كما حددت المحافظة سعرها فنجوم السماء أقرب لك، حتى لو استعنت برجال التموين. بقي أمامك أن تدفع كما يطلبون».

الثورة السورية ٨١/٤/١٤ [١]

---

(١) هذه الشواهد منقولة من كتاب الدكتور محمد أحمد مهاجر: حافظ أسد والقضية الفلسطينية.

كُتب هذا في الصحف في فترة سمح فيها بذلك لضرب مجموعة شاء النظام النصيري أن يسقطهم. أما المعاناة المستمرة فلا توجد في الصحف، ولكن كل مواطن سوري يعرف أن الأسعار المذكورة قد ارتفعت ثلاثة أضعاف فيما بعد، وكل هم المواطن تأمين قوته اليومي بغض النظر عن الحلال أو الحرام، فالموظف لا بد له من الرشوة، ولا بد له من عمل إضافي، ولا بد له من سرقة حتى يصل إلى الحد الأدنى من العيشة الكريمة التي تعيشها الحيوانات لا الأناسي.

تخريب الاقتصاد:

التخريب الزراعي:

سورية بلد زراعي، وهذا يعني أن غالبية الشعب يعمل في هذا القطاع، فـ ٦٠٪ من القوة العاملة عام ١٩٦٣ كانت تعمل في قطاع الزراعة، وكانت مساهمة الزراعة في إجمالي الناتج الوطني ٣٠٪ عام ١٩٦٣، بينما أصبح مجموع العاملين في هذا القطاع عام ١٩٨٠ وبعد الهجرة الهائلة من الريف إلى المدن ٣٠٪ من مجموع القوى العاملة في القطر»[1].

الأراضي القابلة للزراعة مساحتها عام ١٩٧٢ ٨.٥٠٤.٠٠٠ هكتار،

ومساحتها عام ١٩٧٨ ٥.٩٤١.٠٠٠ هكتار، أي أن الأراضي القابلة للزراعة نقصت خلال ست سنوات ٢.٥٠٠.٠٠٠ هكتار. مساحة الأراضي المزروعة فعلاً والتابعة للقطاع العام عام ١٩٧٢ ٥٨.٠٠٠، وعام ١٩٧٨ ٢٤.٠٠٠ هكتار، والأراضي المسقية عام ١٩٧٢ ٦٢٥.٠٠٠ وفي عام ١٩٧٨ ٥١٩.٠٠٠ هكتار،

---

(١) عن مجلة الإيكونومست البريطانية ١٩٨٢، ملحق.

والأراضـي الحرجيـة أو البعليـة عـام ١٩٧٢ ٥١٨.٠٠٠ هكتـار، وعـام ١٩٧٨ ٤٥٥.٠٠٠ هكتـار، والمسـتنقعات عـام ١٩٧٢ ٤٩ ألـف هكتـار، وعـام ٧٨ ١٠٧.٠٠٠ هكتار.

<u>**والإنتـاج الزراعـي**</u>: لقـد بقيـت المسـاحة المزروعـة بـالقمح محافظـة علـى مقدارها منذ عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٧٨، هذا بالرغم من ازدياد عدد السكان خلال تلك الفترة أكثر من أربعة ملايين نسمة أي أن انتاج القمح بالرغم من ازدياد عدد السكان بقي محافظاً علىحاله دون أي تطوير، وبذلك تحولت سورية من بلد منتج للقمح في الخمسينات والستينات إلى بلد مستورد. وذلك بسبب سوء التخطيط في البلد.

أما الرز فالأرقام التالية كافية لاعطاء فكرة عن مدى التخريب. فإنتاجه عام ١٩٤٦ هو ١٢ ألف طن، وعام ١٩٧٥ هو خمسة آلاف طن، وعام ١٩٧٨ هو ١٠٠ طن فقط. القطن ١٤٠٠٠ طن عام ١٩٤٦، و٤١٠٠٠٠ طن عام ١٩٦٣، و٣٧٧٠٠٠ طن عام ١٩٧٨، وخلال الفترة عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٧٨ بقي المحصول محافظاً على معدلية الانتاج دون تطوير. وقصب السكر كان إنتاجه عام ١٩٤٦ ٢٢ طناً لكل هكتار من الأرض، وعام ١٩٦٣ كان ٦٦ طناً لكل هكتار من الأرض، وعام ١٩٧٠ كان ٨١ طناً لكل هكتار من الأرض، وعام ١٩٧٨ كان ٤ أطنان لكل هكتار من الأرض.

وهذه الإحصائيات جميعها مأخوذة عن المجموعة الإحصائية لعام ١٩٧٩ التي تصدر عن المكتب المركزي للإحصاء (مؤسسة رسمية).

وفيما يلي معلومات هامة تبين مدى الإهدار والتقصير في قضية استصلاح الاراضي في منطقة الجزيرة وحوض الفرات. فقد حققت الخطط الموضوعة للإنتاج المخطط:

في الخطة الخمسية الرابعة نفذ ٩٪ من الأراضي المخطط استصلاحها.

وفي الخطة الخمسية الخامسة نفذ ٨٪ من الأراضي المخطط استزراعها.

ومجموع ما استصلح في الخطتين الخمسيتين الرابعة والخامسة خلال عشر سنوات تمتد حتى عام ٨٠ هو (٥١) ألف هكتار، بينما المخطط الموضوع منذ عام ١٩٦٦ يقضي باستصلاح ٦٤٠ الف هكتار. ٥٠٪ من شبكات الري ما زالت معطلة [١].

تخريب التجارة:

أ) الديون: ازدادت ديون سورية الخارجية من ٢٣٢ مليون دولار عام ١٩٧٠ إلى مليارين وأربعمائة وثلاثة وتسعين مليون دولار عام ١٩٨٠، والزيادة تعني ازدياد الديون من ١٢.٨٪ من الدخل القومي عام ١٩٧٠ إلى ٢٠.١٪ من مجمل الدخل القومي عام ١٩٨٠[٢].

وبلغت ديون الاتحاد السوفيتي لسورية ملياري دولار مرتبطة بسعر الذهب، أي أن سوريا ستدفع لروسيا ملياراً ونصف كفائدة نتيجة ارتفاع الذهب [٣].

الميزان التجاري السوري:

سنكتفي هنا بوضع الجدول التالي المأخوذ عن نشرة صندوق النقد الدولي (الإحصائيات المالية الدولية). وهو جدول يبين مدى خسارة الميزان التجاري

---

(١) جريدة الثورة الرسمية ٨١/١٠/٢٤ من مقال لأسعد عبود، عن الدكتور محمد أحمد مهاجر، ص/٦١.

(٢) إحصائية البنك الدولي، نشر مجلة أربيا عدد تشرين الثاني ١٩٨٢.

(٣) القبس الكويتية ١٩٨٠/٩/٤

السوري مقدراً بملايين الليرات السورية والتي نشرت في دراسة عن الاقتصاد السوري بملحق الإيكونومست البريطانية لعام ١٩٨٢.

	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	ج١
	(مليون)	(مليون)	(مليون)	(مليون)	(مليون)	(مليون)	
الصادرات:	٤١١٤	٤١٩٩	٤١٦٠	٦٤٥٧	٦٢٧٧	٨٢٥٤	
الواردات:	٧٦٣٥	١٠٤٩٧	٩٦٥٠	١٧٠٦٦	١٦١٨٧	٢٠٣٠٢	
الخسارة:	٣٥٥٤	٦٢٩٨	٥٤٩٠	٦٦١٣	٧٩١٤	١٢٠٤٨	

ونتيجة للتخريب المقصود للاقتصاد السوري انخفض احتياطي العملات الأجنبية فقد نشرت الأنباء الكويتية في ٨١/٢/١٩ قائلة:

إن الأنباء التي تتحدث عن هبوط شديد في احتياطات سورية من العملات الأجنبية بدأت تتوارد منذ الربع الأخير لعام ١٩٨٠، فقد انخفضت تلك الاحتياطات من ٦٦٠ مليون دولار عام ١٩٧٩ إلى اقل من ٣٨٥ مليون دولار عام ١٩٨٠. ولم يصدق المحللون السياسيون الاقتصاديون تصريحات الكسم عن الاقتصاد السوري[١].

ونتيجة لذلك فقد فقد العالم ثقته بالتعامل التجاري مع سورية وأخذت الشركات الأجنبية تتعامل مع المسؤولين والمصدرين السوريين بريبة ووجل، وأخذت تطالب بكفالة مصارف معتمدة أو جهات دولية لتوقع العقود مع النظام السوري.

(١) عن كتاب الدكتور محمد أحمد مهاجر، ص٦٤.

نظرة شاملة إلى الاقتصاد:

جاء في الدراسة التي قام بها مركز الصندوق العربي للتطوير الاقتصادي والاجتماعي تحت عنوان: القطاع العام السوري ومشاريع البنية التحتية ما يلي:

«القطاع العام السوري مكان مزدحم، ولقد توصلت دراسة حديثة قام بها مركز الصندوق العربي للتطوير الاقتصادي والاجتماعي أن هناك ما يقارب ٦٣١.٠٠٠ موظف في القطاع العام في سورية ما عدا القوات المسلحة، وهذا الرقم يمثل ٣١٪ من مجموع اليد العاملة، وأشارت الدراسة إلى أنه لو أخذ بعين الاعتبار عائلات وأطفال العاملين في القطاع العام لوجد أن رقم الذين يرتبطون بالقطاع العام يصل إلى ٦.٠٠٠,٠٠٠ نسمة، وهو جزء أساسي وهام من تعداد السكان البالغ ١٣.٥٠٠.٠٠٠ نسمة.

كانت قوة هذه البيروقراطية واضحة لرجال الأعمال الذين يحاولون القيام بمشاريع في سورية، فالخدمات الغير كافية، الفساد، عدم قدرة الموظفين على اتخاذ قرار، وعدم توفر خدمات مالية هي بعض العلل أو الأمراض التي ذكرها رجال الأعمال الغربيين، لكنهم -أي رجال الأعمال الغربيين- بدؤوا مؤخراً يدفعون أفواجاً إلى سورية بعد توفر المال من الخليج ومصادر أخرى مما أحدث ازدهاراً في مشاريع القطاع العام.

<u>**ضعف البنية التحتية**</u>: الضعف الأكثر وضوحاً هو في مجال الطاقة، فالمستهلك السوري عليه أن يتحمل انقطاعاً يومياً في الطاقة نتيجة لعجز الحكومة في تلبية الحاجة للكهرباء، وقد حاول الصناعيون الالتفاف حول هذه المشكلة باستخدام مولدات الكهرباء، لكن حتى في هذه الحالة يمكن أن يكون هناك مشاكل لعدم ضمان وجود الوقود.

السبب الرئيس لمشكلة طاقة الكهرباء هو انخفاض مستوى الماء في سد

الطبقة على نهر الفرات، ويعاني هذا السد ومولدات الطاقة الروسية الصنع التابعة له من انعدام شبه كامل للصيانة، مما أدى إلى أن الطاقة الإنتاجية لا تكاد تصل إلى ١٥٠ م واط مقارناً مع الطاقة المتوقعة وهي ٨٠٠ م واط. وهناك أيضاً ٧٥م واط تأتي من سد البعث القريب منه على الرغم من ميل الحكومة إلى إلقاء اللوم على قرار تركية بإنشاء سد ضخم على شمال نهر الفرات المار بأراضيها، إلا أن نقصان الطاقة في سورية لا يعتبر الأمر الجديد، فالمشكلة تعود إلى أكثر من عقد من الزمان.

لقد سارعت المؤسسة العامة للكهرباء خطاها حديثاً بتوقيع ثلاثة عقود لمحطات الطاقة في النصف الأول من عام ١٩٩٣. العقد الرئيسي بين العقود كان بطاقة ٦٠٠ م واط لمحطة جندر أعطي لشركة إم إنش آي بقيمة ٤٥٠ مليون دولار، ولقد استغرقت المداولات سنة كاملة لإتمام العقد. المشروع بحد ذاته بقي على الخرائط مدة عشرة سنوات. بينما حظي المشروعان الآخران اللذان أعطيا لشركة سيتشوان ماشنياري الصينية بتطوير أسرع، يقول المراقبون في دمشق إن مشروع سد تشرين سيشهد تطوراً غير أنه لبا يزال هناك بعض الصعوبات في وجه مشروع الذرا. كل هذه المشاريع لديها وقت ضيق لتنفيذ برنامجها والمنتظر أن شركة إم إتش آي ستضع أول مولد بطاقة ١٠٠ م واط في حالة إنتاج قبل نهاية أكتوبر ١٩٩٤.

<u>**وفي مجال الاتصالات**</u>: وقد تماثلت مؤشرات التطور في قطاع الطاقة مع نظيراتها في مجال الاتصالات. ووضعت في أوائل الثمانينات خطط توسعة شبكة الهاتف السوري، جاء الدعم الكويتي لهذا المشروع ليحركه بسرعة أكبر في عام ١٩٩١ وأخيراً وضعت شركة (سيمنس) الألمانية طلب تركيب ٧٠٠.٠٠٠ خط موضع التنفيذ لتملأ بذلك الهوة الواسعة بين (الطلب والعرض) وهي أي

(سيمنس) تفاوض على تمديد أو زيادة هذا العقد. لكنها تعاني من مشكلة اهتمام العميل (أي سورية) بالأسعار المنخفضة التي تقدمت بها الشركة الألمانية ذاتها (سيمنس) للقيام بأعمال مشابهة في البلد المجاور لبنان.

وفي التصريف الصحي: وشهد جزء آخر من البنية التحتية شهد اهتماماً بعد سنوات من الإهمال وهو شبكة التصريف الصحي (المجاري) في المدن الرئيسية السورية، فهناك اتحاد مالي إيطالي الذي يعمل على مشروع التصريف الصحي لمدينة دمشق الممول من الصندوق العربي، وشركات أخرى للمناقصات في مشاريع مماثلة في حلب وطرطوس واللاذقية، ولقد وعد الاتحاد الأوروبي بتمويل هذه المشاريع بعد توفر الموارد المالية وخاصة من دول الخليج كان من باب رد الجميل لسورية مقابل تأييدها خلال أزمة العراق الكويت وكانت بلا شك حافز في تنشيط هذه المشاريع، غير أن النقد كان بطيئاً.

إدارات الخليج تحدد أهدافها بالصناعة: أبدت دول الخليج اهتماماً بدعم المشاريع الصناعية، ويدخل ضمنها المنشآت الحديدية، ومشاريع السماد الكبيرة، ومصانع النسيج ومعامل الإسمنت، يزيد مجموع هذه المشاريع على ١٠٠٠ مليون دولار، حتى هذه اللحظة المشروعان الوحيدان تحت التنفيذ هما معملان للنسيج، المشروع الأول منهما سبّب كعادة المشاريع السورية خلافاً، وقد نالته شركة (الفاماكتس) الإسبانية، وبلغت تكلفته ١٢٠ مليون لغزل القطن في إدلب بتمويل من الكويت. آثار هذا المشروع حفيظة الشركات الألمانية الخاسرة التي ادعت أنه لم يتبع في أخذ القرار الأساليب الصحيحة للمناقصات، وأن شركة (الفاماكتس) كانت تزودهم بآلات قديمة، هذا الادعاء قوبل بالإنكار من الشركات الإسبانية.

مشكلة من نوع آخر عانى منها مشروع الـ ٧٠٠ مليون لمعمل الحديد في

(الذرا) والممول من قبل السعودية، وفي هذه الحالة حدد العميل (سورية) رغبته في الحصول على أحسن تقنية موجودة في هذا المجال، وبدأت المفاوضات مع شركة (ايرتيكنا) الإيطالية صاحبة العرض الأقل، غير أن المفاوضات أخفقت في نهاية عام ١٩٩٢ بسبب خلاف حول تفاصيل العقد، وبالتحديد حول بند (ضمان الفاعلية) عندها بدأ العميل السوري مفاوضات أخرى مع اتحاد مالي ألماني إيطالي تعود المشاكل التي عانت منها شركة (إيرتيكنا) والتي تتعلق بنفس البند (ضمان الفاعلية)، والذي تبلغ قيمته ١٠٪ من مجمل قيمة المشروع، فالعميل يصر على توضيح هذا البند قبل التوقيع الرسمي على العقد، الأمر الذي وصف من قبل الشركة على أنه مخالف للأعراف الدولية، كما أن على المجموعة بقيادة شركة (دانييل) التعاون مع الاستشاري الدولي وهو شركة (داستور انجنيرنغ انترناشونال) وهي شركة هندية مقرها في دوسولتروف.

إن عملاء القطاع السوري عامة يعارضون إدخال الاستشاريين في إجراء المناقصات العامة غير أن الممولين يفضلون تطبيق أعراف البنك الدولي التي تتضمن هذا الشرط. كان هذا واضحاً في مشروع شركة النفط السورية لإنشاء خمسة آبار للغاز الطبيعي في منطقة تدمر، وهو مشروع أعيدت المناقصات له مرات ومرات على مدى عشرة سنوات، وبعد خيبات الأمل المتكررة قررت الشركة (SPC) الدعوة لمناقصة جديدة لعقدي الهندسة والاستشارة من هذا المشروع وفازت به شركة (تيتان بوروجكتس) الكندية بعد منافسة رهيبة حاولت فيها الشركات الأخرى ضرب الأسعار للشركة الكندية.

يعتبر الصراع حول إتمام العقود من الأعراض الناتجة عن المشاكل الاقتصادية والسياسية العامة، أما سياسة الانفتاح الاقتصادي المتدرج، فقد بدأت تنفذ في دولة مركزية حيث تؤخذ القرارات الفعالة من قبل رجل واحد هو الرئيس

حافظ أسد.

الخلاصة: لتلخيص ما سبق يكن استنتاج عدة نظريات من تجربة الشركات في مجال المشاريع العامة:

١. البنية التحتية فقيرة، وهي الآن تحت التطوير.

٢. هاجس ضمان أقل الأسعار، وهذا يقود إلى مفاوضات مطوّلة، ونوعية رديئة، وقد يهدد مصداقية المشاريع.

٣. رغبة في ضمان أفضل تقنية ممكنة، ظاهرة جديدة نشأت نتيجة الفزع من التجارب مع أوروبا الشرقية، ومن طلب الممولين الخليجيين، هذا طبعاً لا يعني أن هاجس الأسعار المنخفضة قد زال، وكما قال أحد رجال الأعمال الأوربيين العاملين في مشروع صناعي (يطلبون فيات بندا ونعرض عليهم مرسيدس ومع ذلك هم غير راضين).

٤. عدم الرغبة في توظيف الاستشاريين: هذا العائق بدأ يزول بسبب العدد الكبير من المشاريع وإصرار الجهات الممولة، ومع ذلك لا يوجد هناك ثبات على مبدأ.

٥. هاجس ضمان أحسن الشروط: يجد المقاولون الغربيون الكثير من طلبات سورية في تفاصيل العقود غير واقعية، فمثلاً في مجال النفط تجد الشركات المقاولة العروض أكثر إغراء في أماكن أخرى من الشرق الأوسط وما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي وآسيا وأمريكا اللاتينية، وأما سورية فتبدو معاندة لأخذ أي خطوة من الممكن أن تعتبر أنها تمس مفهوم الصالح الوطني. إن جذور هذه المشكلة، وبشكل واضح سياسية، لها علاقة بمركزية السلطة، والتشبث بالمبادئ الاشتراكية...

وبعد هذا العرض العاري علينا أن نتوقع كيف ترك حافظ الأسد الاقتصاد

السوري يوم أن توفي في ١٠/حزيران/٢٠٠٠ ويوضح لنا ذلك الأستاذ برهان غليون فيقول: «ليس لدينا من سبيل لتكوين معرفة موضوعية بأوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والوطنية عموماً إلا وسيلتين:

الأولى: كمية تقوم على الاستنارة بالمؤشرات الإحصائية.

والثانية: كيفية تعتمد على الملاحقة والتحليل.

والمعطيات الإحصائية أصبحت اليوم متوافرة بكثرة وفي متناول الجميع، ومعظمها يرجع لتقرير التنمية البشرية وتقرير البنك الدولي السنويين. وبعض إحصاءات صندوق النقد الدولي، أو لمصادر محلية، هي تلك التي يقدمها المكتب المركزي للإحصاء. وكل الأرقام المستخدمة هنا مستمدة من هذه المراجع، وفي شكل خاص من دراسات الاقتصاديين السوريين الذين جمعوا غالباً بين الإحصاءات السورية الرسمية والإحصاءات الدولية وقارنوا فيما بينها.

ماذا تقول هذه المعطيات؟

تبين الأرقام الإحصائية أن هناك تراجعاً ثابتاً في كل المؤشرات الاقتصادية، فقد هبطت حصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٩٧ أي خلال ١٨ عاماً بما يعادل ٦٩٣٧ ليرة سورية، أو نسبة تقارب ١٦٪ وانخفض متوسط نمو الفرد من الناتج المحلي من ٦.٧٪ لأعوام ١٩٥٣ – ١٩٦٥ إلى أقل من ١٪ لعامي ١٩٩٨-١٩٩٩ وزاد الدين الخارجي من ١٠٨٤٢.٨ مليون دولار عام ١٩٨٥، إلى ٢٠٨٦٤.٧ مليون دولار عام ١٩٩٧.

وقد قدرت إحدى الباحثات السوريات أن الحد الأدنى للأجور يقل ٣٠٠٪ عن حد المعيشة، كما حصل تدهور مماثل في القوة الشرائية، فقد وصل الفارق

المتراكم بين الارتفاع في الأسعار والأجور منذ عام ١٩٨٥ وحتى عام ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٪ وتفاقم التوزيع غير العادل لعوائد النمو والثروة الاجتماعية، وتشير حسابات الدخل القومي إلى أن كتلة الأرباح زادت بمقدار ١٨٤ مرة عن كتلة الأجور... ويقدر الباحثون أن نسبة الفقر في سورية بارتفاع مذهل، فبالمقارنة مع مستويات الدخل وتكاليف المعيشة تبين أن النسبة العظمى من السكان العاملين بأجر، أي نحو ٧٥.٦٪، يتقاضون شهرياً أدنى من خمسة آلاف ليرة سورية، لا يكفي الاحتياجات المطلوبة للغذاء فقط الأسرة من خمسة أشخاص»[١].

البطالة: حسب المكتب المركزي السوري للإحصاء فهناك ٤٣ ألف عامل عاطل عن العمل من ٤.٥ ملايين عامل يشكلون القوى العاملة السورية، ويرتفع هذا العدد إلى ٩٠٠ ألف شخص في حال كان معدل البطالة ٢٠٪. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن كلفة توفير فرصة العمل الواحدة تتراوح بين ١٥٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ ألف دولار، فإن المبلغ اللازم لحل مشكلة البطالة يتجاوز حاجز الـ ٥ مليارات دولار، بينما تقول تقديرات أخرى أن المبلغ اللازم قد تجاوز الـ ٨ مليارات دولار[٢].

الفقر يأكل ٤٠٪ من السكان:

أما بالنسبة لمشكلة الفقر فتؤكد الإحصاءات أن زهاء ٤٠٪ من السكان الذين يزيد عددهم عن ١٧ مليون نسمة يعيشون تحت خط الفقر المطلق المتعارف عليه دولياً (من يعيشون على أقل من دولار يومياً)، وجلهم من الموظفين، وقد حاولت

---

(١) مستقبل الاصلاح والتغير في سوريا للأستاذ برهان غليون، الحياة /٢٠٠١/٩/١٩

(٢) الاقتصاد السوري. عبد الكريم حمودي. ملتقيات اللجنة السورية لحقوق الإنسان، في ٢٠٠١/٩/١٥.

الحكومة التصدي لهذه القضية من خلال المرسومين التشريعيين الذين أصدرهما بشار الأسد في ٢٦/آب/٢٠٠٠، أي بعد شهرين من وفاة والده، اللذين يقضيان بزيادة الرواتب والأجور للعاملين في الدولة الذين يشكلون مع عائلاتهم نحو ٤٠٪ من عدد السكان بنسبة ٢٥٪... ومع الأخذ بعين الاعتبار المعطيات المتوفرة عن تكاليف المعيشة في سورية فإن الخبراء يؤكدون أن مقدار الزيادة في الرواتب والمعاشات لا تتناسب مع القيمة الشرائية للأجور التي شكلت تراجعاً كبيراً خلال السنوات الماضية. وفي هذا السياق تقول دراسة اقتصادية غير رسمية إن القيمة الشرائية للأجور تراجعت بمقدار ١٢٪ سنوياً منذ آخر زيادة عام ١٩٩٤، وبالتالي فإن تراجع القيمة الشرائية للأجور خلال السنوات الست الماضية يبلغ ٧٢٪، أي نحو ثلاثة أضعاف الزيادة في الرواتب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن معدلات ارتفاع السلع قد بلغ خلال الفترة نفسها بأكثر من ثلاثة أمثال معدل الزيادة في الرواتب. وجاء في دراسة اقتصادية أخرى أن الأسعار ارتفعت بمعدل وسطي قدره ١٤.٦٪ سنوياً، وبالتالي فإن الأسعار تكون قد ارتفعت منذ آخر زيادة بمقدار ٨٧.٦٪، أي أكثر من ٣٠٥ مرات عن زيادة الأجور»[١].

٧٤ مليار ل.س. الخسائر المقدرة للقطاع العام في ٢٠٠١:

ذكرت صحيفة تشرين في أحد أعدادها أنه تم «الإعلان عن مرحلة جديدة في سياق إصلاح القطاع الصناعي، فبعد خطوة الحديث عن الإصلاح وأهميته، بدأت الحكومة بالشوط الثاني، وهو وضع مشاكل القطاع الصناعي وتحديدها دون أية خطوط حمراء مسبقة، بدءاً من الملكية والإدارة والأجور والجهات

(١) الاقتصاد السوري لـ. عبد الكريم حمودي. ملتقيات اللجنة السورية لحقوق الإنسان ، ٢٠٠١/٩/١٥.

الوصائية، العلاقة مع وزارة المالية والعمالة الفائضة والرسوم الجمركية والخطط الإنتاجية. ولعلها المرة الأولى التي تضع الحكومة فيها مبادئ مقترحة من قبيل تصنيف منشآت القطاع العام وفق معايير الربح والخسارة. ورغم أن هذه الدراسة لإعادة هيكلية القطاع الصناعي بشقيه العام والخاص ما تزال حبراً على ورق لكننا نريد الإصلاح أولاً وأخيراً. ونبدأ من حقيقة أن خسائر القطاع العام المقدرة في الموازنة عام ٢٠٠١ بلغت حوالي ٧٤ مليار ليرة، موزعة على خمس من المؤسسات الصناعية الكبرى.

وجاء في مقدمة المؤسسات الخاسرة مصفاتا النفط في حمص وبانياس، حيث بلغت الخسارة ٤٠.٣٨٥ ليرة سورية، والشركة العامة للمطاحن في الدرجة الثانية حيث بلغت خسائرها ١٠.٢٧ مليار ل.س. ثم المؤسسة العامة لحلج وتسويق الأقطان، بخسارة وقدرها ٥.٤ مليار ل.س. تلتها المؤسسة العامة للسكر بخسارة قدرها ٥ مليار ل.س.، ثم المؤسسة العامة للصناعات النسيجية بخسارة قدرها ٩.١ مليار ل.س»[١] .

٢٥٪ متوسط عجز الميزان التجاري:

تؤكد جميع المؤشرات أن الصادرات السورية تعاني اختلالاً كبيراً في بنيتها الهيكلية، يتمثل في اعتماد الصادرات على عدد محدود من السلع في الأسواق، إذ تشكل ثلاث مواد أولية هي النفط والقطن والحبوب حوالي ٩٠٪ من إجمالي الصادرات السورية.

النفط ومشتقاته والفوسفات هي صادرات وزارة النفط، تؤمن بحدود ٦٥٪

---

(١) صحيفة تشرين.

من الصادرات، وبحدود ٢.٤ مليار دولار أمريكي[١] ... أما القطن فيصدر محلوجاً من قبل وزارة الاقتصاد، ويدر إيرادات تبلغ ٧٥ مليون دولار سنوياً.. وبلغت إيرادات صادرات القمح ٩٤٠ ألف طن عام ١٩٩٧ بقيمة ١٩٧ مليون دولار، انخفضت عام ١٩٩٩ إلى ٥١٥ ألف طن بقيمة ١١٠ مليون دولار، وتوقفت في العامين التاليين بسبب موسم الجفاف.. أما أسواق التصدير. فتبين الإحصاءات أن الدول العربية تستقبل حوالي ربع الصادرات، بينما يستقبل الاتحاد الأوروبي الحصة الأكبر منها بحدود ٦٠٪، ولكن النفط والمواد الخام تشكل ٩٪ من هذا الرقم.

التصدير قد تحول إلى قضية حياة أو موت بين الدول والأمم والشعوب، ويعكس بديهيات الصراع الاقتصاد العالمي القائم على التنافسية.. هذه الأمور تتطلب تعديلات جذرية في الواقع الهيكلي السوري بجميع مفرداته. بحكم أن التنافسية تعد مطلباً لغزو الأسواق الخارجية، بل أصبحت مطلباً حتمياً لمواجهة اتساع نطاق المنافسة حتى في السوق المحلي. ولتخفيف عجز الميزان التجاري البالغ بشكل وسطي للسنوات ٩٣-٩٦-٩٨ حوالي ٢٥٪»[٢].

أسوأ أزمة ركود اقتصادي:

دمشق- الزمان: اظهر استطلاع للرأي نشرت نتائجه صحيفة الزمان أن

---

(١) تنتشر في الشارع السوري مقولة أن قيمة صادرات النفط لم تكن تدخل الميزانية حتى عام ٢٠٠١، ولا يدري أحد إلى أين تذهب. وهذا يعني أن مليارات الدولارات سرقت في عهد حافظ الأسد إلى جيوبه وجيوب أتباعه.

(٢) أيمن عبد النور، باحث اقتصادي سوري، عن الموقع الإلكتروني للإخوان المسلمين في سورية.

الأسواق السورية تعاني أسوأ أزمة ركود اقتصادي على الرغم من محاولات الحكومة إخراجها من التعثر وتحسين الوضع المعيشي للمواطنين.

وتبين الاستطلاع الذي أعدته صحيفة تشرين الحكومية وشمل عيّنة مكونة من ١٠٠ شخص ما بين منتج وتاجر جملة ومفرق أن ٩٩٪ من المشاركين اجمعوا على أن الأسواق المحلية تعاني من أسوأ حالة ركود وتصريف للبضائع، وأوضح الاستطلاع أن القطاعين العام والخاص كانا متساويين تقريباً في درجة الضرر من الركود وفقاً لآراء ٧١٪ ممن شملهم الاستطلاع. إلا أن ١٦٪ منهم زادوا بأن القطاع العام كان الأكثر تضرراً بسبب محدودية حركته.. ووجه الاستطلاع سؤالاً آخر إلى العينة عن الأكثر فئات تضرراً من هذا الركود، وأجاب ٣٥٪ بأن المواطن هو الأكثر معاناة من الركود، تلاه الصناعي بنسبة ٣٣٪، ثم التاجر بنسبة ٣٢٪... وانتقدت الصحيفة الأداء الاقتصادي للبلاد. وطالبت الصحيفة من أجل تحسين الأداء بزيادة الأجور، وخلق فرص عمل جديدة.. والقضاء على البيروقراطية.

وأخيراً الأوضاع الاجتماعية:

إننا حين ندع الكلام السابق الذي تحدثنا فيه عن التخطيط الرهيب النصيري لتدمير المجتمع السوري المسلم، فهناك نقاط ثابتة من المسلمات التي لا يناقش فيها أحد، ولا يجد النظام السوري حرجاً منها، بل يباهي بها تحت اسم التقدمية والاشتراكية.

١-فرض خلع الحجاب على الفتاة المسلمة في جميع مراحل الدراسة وفي مؤسسات الدولة الرسمية، والمواطنون الذين أجلسوا بناتهم في بيوتهم حتى لا يفرض عليهم نزع لباس الرأس عليهن أعداد لا تحصى. والفتاة التي تدخل

المدرسة وعلى رأسها (الإشارب) ينزع عن رأسها، وتجر من شعرها وترمى بعيداً حتى تخلع ذلك الإشارب.

هذا الحق الذي تعطيه دول الأرض الكافرة والإباحية لمواطنيها، فحق التدين محفوظ لكل مواطن، فلا يفرض الحجاب، ولا يفرض نزعه في الوقت الذي تبنى النظام السوري هذا الاتجاه.

٢-فرض الاختلاط على كل طلاب وطالبات المجتمع السوري المسلم، فالطلائع والشبيبة والفتوة في جميع مراحل الدراسة تفرض المعسكرات المختلطة للفتيان والفتيات، حيث تتم هذه المعسكرات في إحدى المدن السورية. ويمضي الطلاب والطالبات حياة مشتركة في سني المراهقة وسني الشباب، حيث ينامون معاً ويأكلون معاً ويلعبون معاً ويتصادقون معاً. فلم يعد المواطن السوري المسلم يطالب أن يمنع الاختلاط، لكنه يحلم أن لا يفرض عليه، والذين يودون أن يفسقوا ويختلطوا فلهم شأنهم. لكن أن تفرض هذه المعسكرات المختلطة على كل فتاة وفتى، وإلا سيحرم من الدراسة وسيطرد من المدرسة فهذا هو الفجور بعينه.

٣-إن الفكر الذي يفرض على المواطن السوري حتى بعد ربع قرن هو الفكر العلماني الاشتراكي البعثي، ويحظر الفكر الإسلامي، ويعتبر جريمة حيازة كتب المفكرين الإسلاميين المعاصرين، في الوقت الذي تباع كتبهم ويسمح بها في البلدان الإسلامية وغير الإسلامية.

٤-أما الجيش فهو حكر على النصيريين، والأقلية المنحلة الفاسقة من السنة، فلا يسمح في الجيش بتأدية الشعائر الإسلامية. ومعاقرة الخمرة ومصافحة النساء هو الميزان الدقيق للضابط السوري، والذي يشعر أنه يقوم بجرائم الصلاة ولا يؤدي فرائض العربدة والسكر والمعاشرة بالحرام مع النساء هو ضابط خطر

معرض للسجن والتسريح والملاحقة والقتل. لأنه خارج على قيم البعث النصيرية المفروضة.

٥-وكل ما يقال عن الجيش يمكن أن يقال عن الأمن وجيوشه التي تملأ الساحة السورية، فإذا كانت الأمة تقاس بأخلاقها وتقاس بتمسكها بدينها، فقد حقق النصيريون رسالتهم في تحطيم هذه الأخلاق وتدمير هذه المناعة التي تجعل الشاب عبداً لملذاته وشهواته ومخدراته. والذي فعله النصيريون خلال ثلث القرن الأخير لا تعادله جريمة منذ قرون خلت للأنظمة السابقة، أما ما يدعيه النظام النصيري من رفع الظلم وتحقيق العدل للمواطن، فلم يشهد تاريخ سورية الطويل كله ما شهده من الرعب والخوف والخنق للمواطن. دع عنك حرية الرأي والصحافة والمعتقد، بل في لقمة العيش الذليلة وسيادة المحسوبية والرشوة والثراء الفاحش من دم الشعب وقوته. وهذه هي الأمة التي كونها البطل النصيري أسد، والذي كوفئ على هزيمة الجولان فترفع من وزير للدفاع إلى رئيس للجمهورية، وقاد البلد قرابة ثلث قرن، مكّن فيها للنصيريين وجعل البلد في ثروتها لهم، وجعل الحكم والقوة والسلطة والنفوذ بأيديهم، والشعب السوري المنكود عبداً مسخراً لتحقيق مصالحهم. فكان من القادة التاريخيين العظام.

ومن أجل هذا وفي الانتخابات لولايته الرابعة والتي سخر إمكانات الدولة كلها لتهتف باسمه وتسوق الجماهير خلفها، حقّ للنصيريين الذين يؤلهون من هو أدنى منه أن يرفعوه إلى مصاف الآلهة المزعومة التي يعبدونها من دون اللَّه.

ونقل المواطنون بعض هتافات النصيريين في هذه المناسبة، والتي تعطينا المستوى الذي وصلت إليه الأمة، وهو الكفر البواح من خلال بعض أفراد هذه الطائفة، وهي عاجزة عن أن ترد عليهم، بل مجبرة أن تردد معهم له:

حيِّدوا نحن العلوية حيِّدوا   حافظ أسد أبل (قبل) اللَّه منعبده

إنه هتاف نصيري كافر، لم يسبق أن أعلن بمثل هذه الوقاحة قبل الآن.

وأما الهتاف الآخر الذي ينالون فيه الذات الالهية ويجعلونه فوقها، فهو:

حلّك يا الله حلَّك   حط الأسد محلّك

(ومعنى حلّك: آن الأوان).

واذا أرادوا أن يبدلوا إلههم سليمان (المرشد) بإلههم الجديد (أبي سليمان) فهذا شأنهم، لكن الأدهى من هذا كله أن تساق الجماهير كلها وراءهم وتردد هتافاتها في كل أنحاء سوريا خوفاً على حياتها وأرزاقها، وتحشد كل المدارس والنقابات العمالية وكل الطلبة لتهتف هتافها العام الذي وضعه حتى على كل الجدران والأماكن والسيارات وهو:

حافظ الأسد إلى الأبد

وهذا الشعار هو شعار يملأ كل جوانب الأرض السورية، وتكون نسبة الانتخابات ونتائجها قرابة المائة بالمائة ما عدا بعض فئات من الأصوات فاتته من بين ملايين أصوات الناخبين. وهذا يعني أن ذوي المعتقلين والمشردين وآباء الشهداء وأقاربهم الذين هم مئات الألوف قد باعوا أبناءهم وسحروا بهذا الدجال وانتخبوه على ذلهم وجوعهم وعريهم وخوفهم ورعبهم، وانتخبوه على كفره حاكماً أبدياً. حلت فيه الذات الالهية فأعطته هذه الأبدية.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

حصاد السياسة الخارجية:
من الصمود إلى السقوط

استطاع النظام السوري بذكاء بارع أن يحافظ على الكلام النظري الثوري بصورة مستمرة، وأن يسقط معظم الأنظمة العربية كلاماً وواقعاً في هذا المجال، إلى أن كان السقوط الأخير لسورية في مستنقع محادثات السلام. ولن نستطيع أن ندرك أعماق هذا السقوط وأبعاده إلا إذا راجعنا تطور الموقف السوري من البداية إلى النهاية .

وسندع الوثائق هي التي تتكلم عن هذه مواقف النظام السوري منذ بداية الحكم الطائفي حتى اليوم:

أولاً: قبل حرب ١٩٦٧:

«عام ١٩٦٥ تقدم الحبيب بورقيبة بتاريخ ٢١ نيسان/ أبريل ١٩٦٥ بمشروع تسوية للنزاع العربي الإسرائيلي على أساس قرار التقسيم، تضمن النقاط البارزة التالية:

١-تعيد إسرائيل إلى العرب ثلث المساحة التي احتلتها منذ إنشائها لتقوم عليها دولة عربية فلسطينية، وبناء عليه يعود اللاجئون العرب إلى دولتهم الجديدة.

٢-تتم المصالحة بين العرب وإسرائيل بحيث تنتهي حالة الحرب بينهم.

وقد قوبلت تصريحات بورقيبة باستنكار جماعي عربي، ورفضت الأردن

وسورية هذه المقترحات»[1]. وأصبح لقب بورقيبة في العالم العربي (الخائن الأكبر).

مشروع أشكول ١٩٦٥:

رداً على مقترحات الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة تقدم (ليفي أشكول) رئيس الوزراء الإسرائيلي بتاريخ ١٧ أيار/ مايو ١٩٦٥ بالمشروع التالي:

أولاً: تقترح إسرائيل إجراء مفاوضات مباشرة بينها وبين البلدان التي وقعت على اتفاقيات الهدنة من أجل إحلال اتفاقية السلام محل اتفاقية الهدنة.

ثانياً: تتم التسوية السلمية على أساس وضع إسرائيل القائم باستثناء بعض التعديلات الطفيفة -المتبادلة والمتفق عليها - عند نقاط معينة على الحدود بهدف تسهيل الحياة اليومية للسكان.

ثالثاً: يعني السلام حرية الدول العربية وإسرائيل في الاستفادة من نتائجه مثل النقل البري والجوي والاتصالات البريدية والراديو والتلفزيون والوصول إلى الموانئ وحرية الملاحة»[2].

وهذا يعني أن كل ما كانت تبغيه إسرائيل قبل حرب الـ ٦٧ هو المحافظة على حدودها القائمة، والاعتراف بها من خلال المفاوضات المباشرة، والوصول إلى سلام دائم وشامل.

---

(١) مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية من ١٩٤٧-١٩٨٥، لمنير الهور وطارق الموسى، دار الجليل للنشر.

(٢) مشاريع التسوية: ٦٤-٦٥.

ثانياً: بعد حرب الأيام الستة ١٩٦٧:

في صبيحة الخامس من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧ شنّت إسرائيل حرباً مدروسة على أعلى المستويات السياسية والعسكرية بناءً على دوافع اقتصادية وسياسية وتوسعية وضرورات أمنية. وقد أسفرت هذه الحرب التي عرفت فيما بعد بحرب حزيران ١٩٦٧ أو حرب الأيام الستة كما تسميها إسرائيل، أسفرت عن توسع إسرائيل في الأراضي العربية المجاورة، واحتلالها لأراض جديدة تبلغ مساحتها الإجمالية أربعة أضعاف المساحة التي احتلتها من فلسطين عام ١٩٤٨. فقد احتلت الضفة الغربية بأكملها ومساحتها ٥٨٧٨٠ كم٢، وشبه جزيرة سيناء ومساحتها ٦١١٩٨ كم٢، و١١٥٠ كم٢ من هضبة الجولان السورية، وقطاع غزة بكامله ومساحته ٣٦٢ كم٢، كما أسفرت هذه الحرب عن إخضاع ١.٥ مليون مواطن عربي في الأراضي العربية المحتلة إلى الحكم العسكري الإسرائيلي» [(١)].

ولا يغيب عن ذهننا أن الحزب الحاكم في هذه الحرب هو حزب البعث العربي الاشتراكي، والسيطرة النصيرية هي صاحبة القرار ممثلة بصلاح جديد الحاكم الفعلي لسورية وحافظ أسد وزير دفاعه وبعد هذه الحرب انقلب الأمر رأساً على عقب بين العرب وإسرائيل.

«تقول صحيفة دافار: منذ حرب الأيام الستة يخيل لنا أن اليهود والعرب قد تبادلوا أدوارهم التقليدية، ففي الماضي كان من الممكن الاعتماد كلياً على العرب لإفشال أية بادرة من أجل السلام دون أن نلطخ أيدينا، واليوم تغيرت الصورة، فالعرب يظهرون كل يوم مبادرات جديدة ومتلائمة مع الموقف الدولي أملاً منهم أن نقوم نحن بنسف الموقف» [(٢)].

---

(١) المصدر نفسه/ ٦٩.

(٢) المصدر نفسه/ ٧١.

قرار مجلس الأمن ٢٤٢:

«إن مجلس الأمن إذ يعرب عن قلقه المتواصل بشأن الوضع الخطر في الشرق الأوسط وإذ يؤكد عدم القبول بالاستيلاء على أراض بواسطة الحرب، والحاجة إلى العمل من أجل سلام عادل ودائم تستطيع كل دولة أن تعيش فيه بأمن. وإذ يؤكد أن جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالعمل وفقاً للمادة الثانية من الميثاق.

أولاً: يؤكد أن تحقيق مبادئ الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ويستوجب تطبيق المبدأين التاليين:

أ) سحب القوات الإسرائيلية المسلحة من أراض احتلت في النزاع الأخير[١].

ب)إنهاء جميع ادعاءات الحرب أو حالاتها، واحترام السيادة والوحدة لأراضي كل دولة في المنطقة والاعتراف بذلك. وكذلك استقلالها السياسي، وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد أو أعمال القوة.

ثانياً: يؤكد أيضاً الحاجة إلى:

أ)ضمان حرية الملاحة في ا لممرات المائية الدولية في المنطقة.

ب)تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

ج)ضمان المناعة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات بينها اقامة مناطق مجردة من السلاح.

ثالثاً: يطلب من الأمين العام تعيين ممثل خاص للذهاب للشرق الأوسط كي يقيم ويجري اتصالات مع الدول المعنية بغية إيجاد اتفاق ومساعدة الجهود

---

(١) النص الفرنسي يقول: من (الأراضي).

لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقاً للنصوص والمبادئ الواردة في مشروع القرار هذا.

رابعاً: يطلب من الأمين العام أن يرفع تقريراً إلى مجلس الأمن حول تقدم جهود الممثل الخاص في أقرب وقت ممكن» [1].

رد الفعل السوري:

مما تجدر الإشارة اليه أن سورية كانت الدولة العربية الوحيدة من دول المواجهة التي رفضت قرار مجلس الأمن، وقد لخصت صحيفة البعث السورية الرسمية أسباب رفض سورية لقرار مجلس الأمن بالنقاط التالية:

١-إن القرار لا يضع في الاعتبار حقوق الشعب الفلسطيني. إن الجميع قد نسوا حق شعب فلسطين، ولم يشر إليها القرار إلا في بعض البنود التي أشارت إلى مشكلة اللاجئين فقط.

٢-إن المجتمع الدولي أوضح أكثر من مرة أنه يجب أن لا تحصل أية دولة على أي توسع إقليمي بالقوة. ولهذا فإن انسحاب إسرائيل يجب أن يكون في الاعتبار وأن يسبق أي تفكير في تنفيذ قرار مجلس الأمن المذكور.

٣-إن خبرة العرب مع إسرائيل قد علمتهم أنها تتجاهل كل ما تصدره الأمم المتحدة من قرارات.

٤-إن إسرائيل قد واصلت اعتداءاتها على الأرض العربية حتى بعد صدور وقف إطلاق النار في حزيران ٦٧.

٥-إن القرار لا يضع مسألة القدس في عين الاعتبار، ولا يذكرها ولا يبطل

---

(١) مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية/ ٨٥.

الإجراءات الإسرائيلية لضمها.

٦-إن القرار يحمي المعتدي ويعطيه حقوقاً لا يستحقها ولا يبيحها له القانون الدولي أو ميثاق الأمم المتحدة.

٧-إن إسرائيل حتى قبل صدور القرار وبعده أيضاً كانت لا تزال تتمادى في عدوانها وهذا يبرهن على النية المبيتة في أن إسرائيل لن تحترم القرار.

٨-إن إجراءات إسرائيل السابقة تتعارض مع سيادة الدول العربية ووحدة أراضيها كما أقرها ميثاق الأمم المتحدة.

٩-إن ميثاق الأمم المتحدة نفسه قد نص على إجراءات الدفاع عن النفس، واعتبرها أعمالاً مشروعة، ورفض قرار مجلس الأمن المذكور إنما هو من الوسائل المشروعة للدفاع عن النفس، وقرار مجلس الأمن في هذا الخصوص يوافق على عمل يتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة ومع العدالة الدولية» [١].

وقد أعلن ناطق رسمي سوري أن هذا المشروع تكريس دولي خطير لمبدأ حل المشاكل بالقوة المسلحة، ومساومة مكشوفة على القضية الفلسطينية، مقابل الوعد المبهم بانسحاب القوات الإسرائيلية المعتدية من بعض الأراضي العربية الجديدة التي احتلت بعد حرب حزيران ١٩٦٧. وأهاب البيان السوري بالشعب العربي أن يستعد للصمود والتضحية والكفاح الطويل لاسترداد أرضه» [٢].

الموقف اليهودي:

قالت مصادر إسرائيلية رسمية إن إسرائيل أبلغت يارنغ أنها لن تتعاون معه إلا

---

(١) صحيفة البعث السورية ٧ حزيران ١٩٧٠ (قبل استلام حافظ أسد للسلطة)، عن المصدر نفسه/ ص ٨٦.

(٢) المصدر السابق/ ٨٦-٨٧.

إذا عمل على جمعها مع العرب في مفاوضات مباشرة. كما أفادت معلومات تسربت من تقارير دبلوماسية سرية وصلت إلى بيروت أن المسؤولين الإسرائيليين أبلغوا مبعوث الأمم المتحدة موقفهم على النحو التالي:

١-إن التوراة تعطينا حقوقاً واضحة في غزة وسيناء والضفة الغربية والجولان فضلاً عن النصر العسكري، لكننا مستعدون لبعض التنازلات على مائدة المفاوضات.

٢-لا يمكن مهما كانت الظروف أن تقبل إسرائيل بالتراجع عن ضم القدس القديمة كما أنها عازمة بشكل نهائي على إلحاق قطاع غزة بها.

٣-بالنسبة للمرتفعات السورية يجب أن تكون منطقة منزوعة السلاح تحت إشراف الأمم المتحدة، ونفضل أن يكون لإسرائيل وجود عسكري رمزي إذا كان ذلك ممكناً.

٤-بالنسبة للضفة الغربية نريدها أن تكون مجردة من السلاح، ونميل إلى الاقتراح الذي قدمه إيغال آلون وزير العمل حول تحويلها إلى ساندويش بين إسرائيل والعرب، بحيث تنتقل آلاف العائلات اليهودية إليها لإقامة مستعمرات فوقها.

٥-بالنسبة لسيناء نريد أن تكون مجردة من السلاح وأن يكون الوجود الدولي فيها أكثر قوة بحيث لا يستطيع الرئيس المصري إلغاءه، بل يجب أن يربط مصير القوات الدولية بمجلس الأمن، ونفضل أن يكون لنا وجود عسكري رمزي لتأمين الملاحة» [١].

ولا بد من التركيز على نقطة نحب أن لا تفارقنا إلى آخر البحث، هذه النقطة

---

(١) مجلةالأحد اللبنانية ١٩٦٧/١٢/٢٤ عن المصدر نفسه: مشاريع التسوية/ ٨٨-٨٩.

هي موقف إسرائيل الإستراتيجي الثابت أنها لن تقبل إلا بإجراء مفاوضات مباشرة.

فخلال هذه المرحلة كانت وجهة النظر العربية كما عبّر عنها المتحدث الرسمي باسم الجهمورية العربية المتحدة في مؤتمره الصحفي في نيسان ١٩٦٨ عندما وصف نتائج مهمة يارنغ التي بدأت منذ أربعة أشهر بأنها صفر. وعندما قال: إننا قطعنا الأمل في الوقت الحاضر، وإن الوضع لايزال كما كان عليه تماماً. وعندما كرر رفض العرب إجراء مفاوضات مباشرة مع إسرائيل. أما وجهة النظر الإسرائيلية فقد كانت تتلخص بوجوب عقد محادثات صلح مباشرة مع العرب»[1].

ثالثاً: من عام ١٩٧٣-١٩٨٥:

وهي مرحلة النصر العربي المزعوم بعد حرب تشرين التحريرية.

قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨:

بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ وافق مجلس الأمن بالإجماع على مشروع القرار رقم ٣٣٨، وفيما يلي نصه:

«إن مجلس الأمن:

أولاً: يدعو جميع الأطراف المشتركة في القتال الدائر حالياً إلى وقف إطلاق النار بصورة كاملة وإنهاء جميع الأعمال العسكرية فوراً في مدة لا تتجاوز ١٢ ساعة من لحظة اتخاذ هذا القرار، وفي المواقع التي تحتلها الآن.

ثانياً: يدعو جميع الأطراف المعنية إلى البدء فوراً بعد وقف إطلاق النار

---

(١) المصدر نفسه/ ٩٢.

بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ بجميع أجزائه.

ثالثاً: يقرر أن تبدأ فور إطلاق النار وخلاله مفاوضات بين الأطراف المعنية تحت الإشراف الملائم بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط» [(١)].

وقد وافقت كل من مصر وسورية وإسرائيل والأردن على قرار مجلس الأمن وتعهدت باحترامه، لكن إسرائيل لم تلتزم عملياً به، واستغلت القرارات لتجميع قواتها وشن هجمات برية وجوية على المواقع المصرية في محاولة لإنقاذ صورة الجيش الإسرائيلي التي هزتها الحرب بعنف وذلك عن طريق تحقيق نصر سريع بالاستيلاء على أراض جديدة غربي قناة السويس، وبسبب الخرق الإسرائيلي أكد مجلس الأمن مجدداً ضرورة التقيد بوقف إطلاق النار، وبتاريخ ٢٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣ أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٣٣٩ تأكيداً للقرار السابق.

الموقف السوري:

جاءت موافقة سورية على القرار بعد ٢٤ ساعة من صدوره، وذلك عندما تمكنت القيادة المركزية للجبهة التقدمية والقيادتين القطرية والمركزية لحزب البعث من دراسة مشروع القرار دراسة وافية آخذة بعين الاعتبار الأمور التالية:

١-الظروف العربية والدولية التي نشأت عن إصدار القرار.

٢-نتائج الاتصالات التي أجريت حوله مع ملوك ورؤساء الدول العربية.

٣-نتائج الاتصالات التي أجريت مع الاتحاد السوفيتي والضمانات التي توافرت من خلال هذه الاتصالات.

٤-التأكيدات التي قدمت إلى جمهورية مصر العربية والتي تشكل ضمانات

---

(١) مشاريع النسوية للقضية الفلسطينية، لمنير الهور وطارق الموسى/ ١٣٧-١٣٨.

للحقوق العربية. وقد قدرت القيادات المركزية نتيجة هذه الدراسة قبول قرار مجلس الأمن على أساس أنه يعني الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية من كل الأراضي العربية في حزيران عام ١٩٦٧ وما بعده، وضمان حقوق الشعب الفسلطيني».

ومن المضحك أن تأتي هذه الموافقة السورية دون أن يحمل نص القرار ٣٣٨ أي تعديل ولو بنقطة واحدة على القرار (٢٤٢)، والذي كان «تكريساً دولياً خطيراً لمبدأ حل المشاكل بالقوة المسلحة ومساومة مكشوفة علىالقضية الفلسطينية مقابل الوعد المبهم بانسحاب القوات الإسرائيلية من بعض الأراضي العربية الجديدة التي احتلت بعد حرب حزيران ١٩٦٧».

لكنه حافظ أسد الذي جاء خصيصاً لينهي القضية الفلسطينية، فأخذ موافقة القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية والتي لم تجتمع الا هذا الاجتماع منذ تأسيسها، مع موافقة القيادتين القطرية والمركزية لحزب البعث، وقد تمت الموافقة على القرار مقابل وعود معسولة لا سلطان لها على الاطلاق.

وهكذا تتابع المنحدر[1] من رفض مشروع بورقيبة إلى رفض قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، إلى الاعتراف بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ وقرار مجلس الأمن ٣٣٨.

الجمعية العامة للأمم المتحدة تدعم الفلسطينيين:

في عام ١٩٧٤ خطت الجمعية العامة للأمم المتحدة خطوة كبيرة وهامة

---

(١) نحن لا ننكر أن العرب جميعاً قد وقعوا في هذه المنحدرات، لكن النصيرية السورية تزعم أن لها ميزة على هذه الأنظمة الرجعية العميلة المتواطئة كما تدعي. ومهمتنا أن نكشف زيف هذا الادعاء، أما المواقف العملية لسورية فقد فاقت المواقف العربية في حرب الفلسطينيين وإبادتهم على الساحة اللبنانية.

عندما قررت توجيه الدعوة لمنظمة التحرير الفلسطينية للاشتراك في مداولاتها حول القضية الفلسطينية، ثم خطت بعد ذلك خطوة أخرى كبيرة وهامة عندما اتخذت قراراً ثانياً اعترفت فيه وأكدت بأن للشعب الفلسطيني الحق في تقرير مصيره بنفسه، والحق في الاستقلال والعودة إلى دياره، وبعد ذلك كان القرار الذي توج في ذلك العام قرارات مجلس الأمم المتحدة، والذي أعطى لمنظمة التحرير الحق في المشاركة كمراقب في جلسات وأعمال المؤتمرات الدولية التي تعقد تحت إشراف الأمم المتحدة.

فبعد إدراج قضية فلسطين كبند مستقل على جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي تقرر يوم ٢١ أيلول ١٩٧٤، تقدمت مجموعة من الدول يزيد عددها على نصف عدد الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بمشروع قرار ينص على:

« إن الجمعية العامة إذ ترى أن الشعب الفلسطيني هو الطرف الأساسي المعني بقضية فلسطين، تدعو منظمة التحرير الفلسطينية الممثلة للشعب الفلسطيني، إلى الاشتراك في مداولات الجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن قضية فلسطين في جلساتها العامة ».

وعلى الرغم من الوسائل المختلفة التي لجأت إليها الولايات المتحدة للضغط على الوفود وحكوماتها للتصويت ضد مشروع القرار، إلا ان مشروع القرار أقر في ٢٤ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٤ بأغلبية ١٠٥ أصوات وامتناع ٢٠ عن التصويت ويحمل هذا القرار رقم ٣٢١٠ في الدورة التاسعة والعشرين» [١] بينما يحمل قرار دعوة منظمة التحرير للمشاركة في جميع المؤتمرات الخاصة

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٢.

بالسلام في الشرق الأوسط رقم ٣٣٧٥.

والخطوة الثانية إدانة الصهيونية: وهذا هو نص القرار المقصود:

« انطلاقاً من القرار الذي اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٢ حول إلغاء كافة أشكال التفرقة العنصرية، والذي يقضي بأن كل نظرية تدعو إلى التمييز والاستغلال العنصري هي نظرية زائفة عملياً ومدانة أخلاقياً وتشكل حالة خطرة اجتماعياً، وانطلاقاً من قرار الجمعية العمومية في عام ١٩٧٣ الذي أدان التحالف غير المقدس القائم بين العنصرية في جنوب إفريقية وبين الصهيونية، فقد خلصت الجمعية العمومية في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٥ آخذة بعين الاعتبار كل هذه القرارات ... تقرر اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري» [١].

انعقاد مؤتمر جنيف:

في يوم الجمعة ٢١ ديسمبر ١٩٧٣ افتتح كورت فالدهايم سكرتير عام الأمم المتحدة المؤتمر بقصر الأمم بجنيف، وقد بدأت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر في الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق، وجاء هذا التأخير بسبب أزمة قامت في اللحظة الأخيرة حول طريقة جلوس الوفود داخل قاعة المؤتمر. وقد جاء ترتيب جلوس الوفود على أساس سباعي يترأسه السكرتير العام، وجلس الوفد المصري على يمينه والوفد الإسرائيلي على يساره، ثم جاء الوفد الأمريكي على يمين الوفد المصري ثم الوفد الأردني، وعلى يسار الوفد الإسرائيلي جلس الوفد

---

(١) مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية، لمنير الهور وطارق الموسى/ ١٤٤.

السوفيتي، ثم مائدة الوفد السوري وكانت شاغرة.

لقد رفض الوفد السوري المشاركة في المؤتمر، إذ اعلنت يوم ١٨ ديسمبر/ كانون الاول أنها قررت عدم الاشتراك في المؤتمر، وصدر بيان عن المتحدث الرسمي السوري قال فيه: إن سوريا لن تشترك في المؤتمر.

وقد انحدرت سورية من الموقف الرافض إلى الموقف المعتدل، حيث لخصت ردود الفعل العربية على مؤتمر جنيف:

أ-الموقف المؤيد للتحرك السياسي والدبلوماسي واعتباره تحقيقاً لمكاسب سياسية عربية واستثمار الانجازات العسكرية التي تحققت في حرب اكتوبر، وتبنت هذا الموقف الدول المشاركة في المؤتمر (مصر، الأردن).

ب-الموقف المتحفظ ويرى أصحاب هذا الموقف أن المشاركة في مؤتمر جنيف لن تؤدي إلى التعجل في إحلال السلام، إذ أن الموقف الامريكي والإسرائيلي يسير بوضوح إلى محاولة تمييع الموقف باثارة قضايا جانبية والتهرب من وضع أسس الازمة في الشرق الأوسط على بساط البحث.

وتبنت هذا الموقف كل من سوريا والجزائر.

ج-الموقف الرافض، ويقول أصحاب هذا الموقف إن جلوس وفود عربية على مائدة واحدة مع ممثلي إسرائيل حتى في ظل حضور السكرتير العام للامم المتحدة وممثلي الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة يعني قبول التفاوض مع إسرائيل والاعتراف بالكيان الصهيوني.

وتبنت هذه النظرية العراق وليبيا»[١].

---

(١) المصدر السابق/ ١٥٧.

النظرة اليهودية للسلام: مشروع بيغن:

بتاريخ ١٩٧٧/٧/١٥ سافر بيغن إلى واشنطن للاجتماع بالرئيس كارتر والبحث معه حول طبيعة السلام الذي يراد التوصل إليه. وقد حمل معه مشروعاً سرياً للسلام تضمن الخطوط العريضة التالية:

أولاً: يجوز عقد مؤتمر جنيف للسلام يوم ١٠ اكتوبر/ تشرين الاول من نفس العام، ويستطيع الفلسطينيون الاشتراك فيه داخل إطار الوفد الأردني، وإذا تعذر التغلب على هذه المشكلة يجوز لإسرائيل أن تفاوض كل بلد عربي مجاور لها على حدة.

ثانياً: يتعين على جميع الأطراف المتنازعة أن تتوجه للتفاوض، سواءً في جنيف أو غيرها، أو في أي مكان آخر وبدون أي شروط مسبقة.

ثالثاً: إن الهدف من أي مفاوضات في جنيف أو في أي مكان آخر هو التوصل إلى إبرام معاهدة صلح صريحة ومحددة بين إسرائيل وجاراتها، والتي تتضمن العلاقات خاصة الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية.

رابعاً: يمكن إثارة جميع المشاكل بما في ذلك الضفة الغربية والقدس من كل جانب وكل طرف، كما ويجوز أن تكون موضوعات المفاوضات مباشرة.

خامساً: إن إسرائيل لا تفكر في الجلاء عن الأراضي العربية المحتلة قبل عقد معاهدة صلح رسمية للسلام.

سادساً: في إطار السلام فإن إسرائيل ستكون مستعدة للقيام بالانسحاب من قطاع عريض من سيناء ومن نصف أراضي الجولان مع بقاء غزة ورفح تحت السيطرة الإسرائيلية، كما سوف تبحث تسوية لشرم الشيخ، وعلى أن تصبح سيناء والجولان منزوعتي السلاح.

سابعاً: بالنسبة للضفة الغربية فإن المشروع يقضي بإيجاد حل وظيفي، أي

توزيع للمسؤوليات بين سكان الضفة أنفسهم الذين سيتمتعون بحكم شبه ذاتي، وتوزيع المسؤوليات هذا سيتم بين الأردنيين والإسرائيليين المقيمين في هذه المنطقة، وعلى أن يحتفظ الإسرائيليون باليد العليا في مشاكل الأمن» [1].

والملاحظ أن هناك خطوطاً ثابتة لا تقبل الجدل عند اليهود ونظرتهم للسلام، وهي:

١-المفاوضات المباشرة.

٢-عدم التخلي عن جميع الأراضي العربية.

٣-توقيع معاهدة صلح دائمة واعتراف متبادل.

٤-القدس الموحدة عاصمة إسرائيل.

وعلينا أن نحتفظ بهذه الثوابت في ذاكرتنا لما بعد.

هذا وقد استطاعت إسرائيل على لسان ولدها المدلل كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية أن تحقق هذه الأهداف عن طريق معاهدة كامب ديفيد.

الموقف السوري من كامب ديفيد: بيان حزب البعث:

« لقد نبه حزب البعث العربي الاشتراكي وثورته في القطر العربي السوري منذ البداية إلى مخاطر الحلول الجزئية التي أرادت بها أمريكا وإسرائيل تطويق نتائج حرب تشرين، وإفراغ مضامينها الإيجابية من أية قيمة عملية. ولهذا ناضل الحزب والقطر ضد كل المفاهيم التي تعنيها الحلول الجزئية، من إخلال بمفهوم قومية المعركة، ووحدة القضية العربية، ومن تشويه لجوهر الصراع العربي الإسرائيلي، وتحويله من قضية نضال قومي وشامل ضد نقائض الأمة العربية التي

---

(١) المصدر نفسه/ ١٦٦.

تمثلها إسرائيل ركيزة الإمبريالية، إلى مجرد خلاف على الحدود. إن اتفاقيات معسكر داود لم تخرج مصر من المعركة فحسب، بل حولتها عملياً وقانونياً إلى حليف لإسرائيل، لهما مشاريع وبرامج عمل سياسية واقتصادية مشتركة بينهما، بما يفرض واقعاً جديداً قد تتحول فيه إسرائيل حليفة مصر إلى وسيلة للاتصال بين مشرق الوطن العربي ومغربه، الأمر الذي يهدد أصالة الفكرة القومية العربية ويضلل بديهياتها. ويسهل سيطرة إسرائيل على المنطقة العربية فرض الهيمنة الأمريكية في الوقت نفسه، مما تنعكس آثاره السلبية على الوطن العربي، وعلى العالم أيضاً، لأن مضاعفة التوتر في المنطقة العربية يعرض الأمن والسلم الدوليين إلى أفدح الأخطار، كما أن تلك السيطرة تقوي النفوذ الإمبريالي الصهيوني في العديد من مناطق العالم. وهي تجعل من مصر أداة تستخدم لضرب حركات التحرر الوطني وخصوصاً في إفريقية. وإلى جانب ذلك فإن اتفاقيات معسكر داود هي في الأساس والجوهر خروج صريح على كل المواثيق الدولية، واستهانة فاضحة بكل قرارات الأمم المتحدة، ونقيض لكل المفاهيم التي يتبناها المجتمع الدولي عن شروط السلام العادل والدائم في المنطقة، إن هذه النتائج الخطيرة لاتفاقيات معسكر داود ترتب على الأمة العربية مهمات محددة لصياغة برنامج عملي فعلي يعبأ فيه أكبر قدر ممكن من الطاقات العربية لخلق واقع جديد تسقط من خلاله كل أساليب العفوية والارتجال، ويبتعد عن أسلوب المجابهة لمجرد إصدار الشجب او الاستنكار بأساليب بليغة» [1].

---

(١) صحيفة البعث السورية ١٩٧٨/١٠/٦ عن المصدر مشاريع التسوية/ ١٩٣ - ١٩٤.

بيان مؤتمر القمة العربي التاسع حول اتفاقيتي كامب ديفيد:

بمبادرة من الحكومة العراقية وبدعوة من الرئيس أحمد حسن البكر عقد مؤتمر القمة العربية التاسع في بغداد في الفترة ما بين ٢ - ٥ تشرين الثاني/ اكتوبر ١٩٧٨، وقد تدارس المؤتمر بروح عالية من المسؤوليات القومية والحرص المشترك على وحدة الموقف العربي في مواجهة الأخطار والتحديات التي تهدد الأمة العربية لا سيما بعد التطورات الناجمة عن توقيع الحكومة المصرية لاتفاق كامب ديفيد وأثرهما على النضال العربي لمواجهة العدوان الصهيوني ضد الأمة العربية.

وانطلاقاً من المبادئ التي تؤمن بها الأمة العربية، واستناداً إلى وحدة المصير العربي، والتزاماً بتقاليد العمل العربي المشترك فقد أكد المؤتمر المبادئ الأساسية التالية:

أولاً: إن قضية فلسطين قضية عربية مصيرية، وهي جوهر الصراع مع العدو الصهيوني، وإن ابناء الأمة العربية وأقطارها جميعاً معنيون بها، وملزمون بالنضال من أجلها، وتقديم كل التضحيات المادية والمعنوية المطلوبة في سبيلها.

وإن النضال من أجل استعادة الحقوق العربية في فلسطين والأراضي العربية المحتلة مسؤولية قومية عامة، وعلى جميع العرب المشاركة فيها كل من موقعه، وبما يمتلك من قدرات عسكرية واقتصادية وسياسية وغيرها. إن الصراع مع العدوالصهيوني يتعدى إطار الصراع ضده من قبل الأقطار التي احتلت أراضيها في عام ١٩٦٧، إلى الأمة العربية كلها، لما يشكله العدو الصهيوني من خطر عسكري وسياسي واقتصادي وحضاري على الأمة العربية كلها، على مصالحها القومية الجوهرية، وعلى حضارتها ومصيرها الأمر الذي يحمّل كل أقطار الأمة العربيثة مسؤولية المشاركة في هذا الصراع بما تملكه من إمكانات.

ثانياً: على كل الأقطار العربية تقديم كافة أشكال المساندة والدعم والتسهيلات لنضال المقاومة الفلسطينية بشتى أساليبه من خلال منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، بما فيها حقه في العودة وحق تقرير المصير وإقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني، وتلتزم الدول العربية بالحفاظ على الوحدة الوطنية الفلسطينية، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للعمل الفلسطيني.

ثالثاً: تأكيد الالتزام بمقررات القمة العربية وخاصة المؤتمرين السادس والسابع المنعقدين في الجزائر والرباط.

رابعاً: واستناداً إلى ما جاء أعلاه فإن من المبادئ الجوهرية التي لا يجوز الخروج عنها أو التساهل فيها عدم جواز انفراد أي طرف من الأطراف العربية بأي حل للقضية الفلسطينية بوجه خاص، وللصراع العربي الصهيوني بوجه عام.

خامساً: ولا يقبل أي حل إلا اذا اقترن بقرار من مؤتمر قمة عربي يعقد لهذه الغاية.

وقد ناقش المؤتمر الاتفاقيتين اللتين وقعتهما الحكومة المصرية في كامب ديفيد واعتبرهما تمسان حقوق الشعب الفلسطيني وحقوق الأمة العربية في فلسطين والأراضي العربية المحتلة، وتمتا خارج إطار المسؤولية العربية الجماعية، وتتعارضان مع مقررات القمة العربية، ولا سيما مقررات الجزائر والرباط وميثاق الجامعة العربية، وقرارات الأمم المتحدة المتعلقة بقضية فلسطين، ولا تؤديان إلى السلام العادل الذي تنشده الأمة العربية.

لذلك فقد قرر المؤتمر عدم الموافقة على هاتين الاتفاقيتين، وعدم التعامل مع ما يترتب عليهما من نتائج، ورفضه لكل ما يترب عليهما من آثار سياسية واقتصادية وقانونية وغيرها من آثار. وقد قرر المؤتمر دعوة حكومة جمهورية

مصر العربية للعودة عن هاتين الاتفاقيتين، وعدم توقيع أية معاهدة للصلح مع العدو، ويأمل المؤتمر منها العودة إلى حظيرة العمل العربي المشترك، وعدم التصرف بصورة انفرادية بشؤون الصراع العربي - الصهيوني . وفي هذا الصدد فقد اتخذ المؤتمر عدداً من القرارات لمواجهة المرحلة الجديدة، وحماية أهداف الأمة العربية ومصالحها، إيماناً منه بأن الأمة العربية قادرة من خلال إمكانياتها المعنوية والمادية أن تواجه الظروف الصعبة وكل التحديات كما كانت كذلك عبر التاريخ، لانها تدافع عن الحق والعدل ووجودها القومي.

وقد أكد المؤتمر توحيد الجهود العربية كافة من أجل معالجة الخلل الإستراتيجي الذي ينجم عن خروج مصر من ساحة المواجهة» [1].

مشروع ريغان للسلام:

بعد مرور أربع سنوات على انسحاب مصر من المعركة وتوقيع اتفاقيتي كامب ديفيد، كانت الحكومة الأمريكية تريد أن تنهي القضية الفلسطينية فأعلن ريغان مبادرته التالية:

« في الخطاب الذي ألقاه الرئيس الأمريكى ريغان بتاريخ ١٩٨٢/٩/٢ وقال فيه: إن الحرب اللبنانية قد أثبتت عدة أمور، لكن اثنتين من نتائجها أساسيتان لعملية السلام الأولى: إن الخسائر العسكرية التي لحقت بمنظمة التحرير الفلسطينية لم تقلل من تشوق الشعب الفلسطيني إلى حل عادل لما يطالب به، الثانية: فيما أثبتت الانتصارات العسكرية التي حققتها إسرائيل في لبنان أن قواتها المسلحة في المرتبة الأولى في المنطقة، فإن هذه القوات لا تستطيع وحدها

---

(١) البعث ومعظم المصادر العربية ١٩٧٨/١١/٦ عن المصدر السابق مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية/ ١٩٩ - ٢٠١.

جلب سلام عادل ودائم لإسرائيل وجيرانها.

ثم انتقل الرئيس الأمريكي إلى مبادرته لتحقيق السلام في الشرق الاوسط التي تضمنت البنود التالية:

١-لا دولة فلسطينية في الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة، وقد قال الرئيس ريغان في خطابه: عندما نتطلع إلى مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة يبدو واضحاً لي أن السلام لا يمكن تحقيقه بإنشاء دولة فلسطينية مستقلة في تلك المناطق، وعليه فالولايات المتحدة الأمريكية سوف لا تؤيد إنشاء دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة.

٢-لا يحق لإسرائيل ضم الأراضي العربية المحتلة، ومما قاله الرئيس ريغان بهذا الخصوص «عندما نتطلع إلى مستقبل الضفة الغربية ... كما أنه غير قابل للتحقيق على أساس سيادة إسرائيل أو سيطرتها الدائمة على الضفة الغربية وغزة. وعليه فالولايات المتحدة سوف لا تؤيد إنشاء دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وغزة، وسوف لا تؤيد ضم إسرائيل أو سيطرتها الدائمة عليها».

٣-تحقيق الحكم الذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة بالارتباط مع الأردن، وقد قال الرئيس ريغان في خطابه: «الوضع النهائي لهذه الأراضي - ويقصد الضفة الغربية وقطاع غزة - يجب أن يتوصل اليه عن طريق الأخذ والعطاء في المفاوضات. لكن وجهة النظر الجازمة للولايات المتحدة الأمريكية هي أن ممارسة الحكم الذاتي من قبل فلسطينيي الضفة الغربية وغزة بالاشتراك مع الأردن توفر أفضل فرصة لاقرار سلام وراسخ وعادل ودائم».

٤-التجميد المباشر للمستوطنات الإسرائيلية الجديدة في الأراضي العربية المحتلة، ومما جاء في خطاب ريغان بهذا الخصوص: «الولايات المتحدة الأمريكية لن تؤيد استخدام أي أراض إضافية لغرض إنشاء المستوطنات خلال

الفترة الانتقالية، وفي الواقع إن تبني إسرائيل فوراً لتجميد إنشاء المستوطنات يمكنه أكثر من أي عمل آخر أن يوجد الثقة اللازمة لاشتراك أوسع في هذه المفاوضات، فالمزيد من النشاط الخاص بالمستوطنات هو غير ضروري بأي حال لأمن إسرائيل، ولن يكون من شأنه سوى تقليص ثقة العرب بأن نتيجة نهائية يمكن التفاوض حولها بحرية وإنصاف.

٥-عدم تقسيم مدينة القدس، على أن يتم تحديد مستقبل المدينة عن طريق المفاوضات، ومما جاء في خطاب ريغان: «وأخيراً فإننا ما زلنا مقتنعين بأن القدس يجب أن تبقى غير مجزأة لكن وضعها النهائي سوف يقرر بالمفاوضات».

٦-التزام الولايات المتحدة بحماية أمن إسرائيل، وقد قال الرئيس ريغان: «فالولايات المتحدة ستعارض أي اقتراح يقدم من أي فريق وفي أي مرحلة من المفاوضات من شأنه أن يعرّض أمن إسرائيل للخطر، فالتزام أمريكا بأمن إسرائيل راسخ لا يتزعزع..» [١].

الرد الإسرائيلي على مبادرة ريغان:

رفضت الحكومة الإسرائيلية بالإجماع مقترحات الرئيس ريغان للسلام، وقال راديو إسرائيل في أول تعليق له على المبادرة بأن بيغن غاضب جداً ومتأثر من المبادرة، بحيث أنه اعتبر كل إسرائيلي يقبل به خائناً . وجاء في بيان للحكومة الإسرائيلية حول المبادرة أن «إسرائيل سوف تستمر في إنشاء المستوطنات تمشياً مع ما تسميه بحقها الوطني»، وسخر بيان الحكومة الإسرائيلية من وعود الولايات المتحدة بمعارضة إقامة دولة فلسطينية في الأراضي المحتلة، وقال: «إنه أمر لا

---

(١) مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية/ ٢١٥ و٢١٦.

يمكن إدراكه: كيف يمكن لإسرائيل قبول مثل هذا الترتيب الذي تعتبر نتائجه مميتة؟» [1].

أما سورية فهي تعتبر نفسها أنها أسقطت مبادرة الرئيس ريغان: «أسقطت سوريا مشروع الإدارة الأمريكية المسمى مشروع ريغان، وقطعت الطريق على اللاهثين وراءه من دعاة الحلول السلمية والمشاريع التصفوية» [2].

مشروع قمة فاس للسلام:

يوم التاسع من أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢ أعلن السيد محمد بوستة الناطق الرسمي باسم مؤتمر القمة العربي الثاني عشر البيان الختامي لمؤتمر القمة الذي عقد في الدار البيضاء خلال الفترة من ٦-٩ أيلول ١٩٨٢ وجاء في البيان:

«اعتباراً للظروف الخطيرة والدقيقة التي تمر بها الأمة العربية فقد درس الملوك والرؤساء العرب القضايا المطروحة على جدول أعمال المؤتمر. واتخذوا بشأنها القرارات التالية:

أولاً: الصراع العربي الإسرائيلي:

إيماناً من المؤتمر بقدرة الأمة العربية على تحقيق أهدافها المشروعة بإزالة العدوان، وانطلاقاً من المبادئ التي حددتها مؤتمرات القمة العربية، وحرصاً من الدول العربية على الاستمرار في العمل بكل الوسائل من أجل تحقيق السلام القائم على العدل في منطقة الشرق الأوسط، واعتماداً على مشروع فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة الذي يعتمد الشرعية الدولية أساساً لحل القضية الفلسطينية وعلى مشروع جلالة الملك فهد حول السلام في الشرق الأوسط، وعلى ضوء

---

(١) المصدر السابق/ ٢١٧.

(٢) الاخوان المسلمون نشأة مشبوهة وتاريخ أسود/ ج١/ ٧.

المناقشات والملاحظات التي أبداها الملوك والرؤساء العرب فقد قرر المؤتمر اعتماد المبادئ التالية:

١-انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ بما فيها مدينة القدس العربية.

٢-إزالة جميع المستوطنات التي أقامتها إسرائيل في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧.

٣-ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان في الأماكن المقدسة.

٤-تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الثابتة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي الوحيد، وتعويض من لا يرغب في العودة.

٥-إخضاع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت إشراف الأمم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضعة أشهر.

٦-قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

٧-يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة.

٨-يقوم مجلس الأمن بضمان تنفيذ تلك المبادئ.

وكذلك قرر المؤتمر تشكيل لجنة سباعية تتألف من الأردن والمغرب وتونس والجزائر والسعودية وسورية ومنظمة التحرير الفلسطينية لإجراء اتصالات مع الدول الخمس الكبرى دائمة العضوية في مجلس الأمن لشرح قرارات قمة فاس

والتعرف على موقف هذه الدول» [1].

ردود الفعل على قمة فاس: كان لمشروع السلام الذي اتخذته قمة فاس أصداء واسعة عربياً ودولياً، ففي واشنطن: تلقت الإدارة الأمريكية مقررات قمة فاس بآراء متباينة. لكنها اعتبرتها إيجابية بشكل عام، لأنها لم ترفض خطة السلام الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط، والفارق الرئيسي الذي يراه المسؤولون الأمريكيون بين مقررات قمة فاس ومبادرة الرئيس الأمريكي ريغان هو أن المقررات العربية وإن اعترفت ضمناً بوجود إسرائيل فهي أكدت لمنظمة التحرير الفلسطينية صفتها كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، بينما ترى خطة ريغان أن الولايات المتحدة تنطلق أولاً من كونها الدرع الذي يحمي أمن إسرائيل، وهي العبارة التي استخدمها ريغان في مبادرته، ويرفض ريغان الدولة الفلسطينية المستقلة التي يرى فيها تهديداً لأمن إسرائيل. وقد أعلن جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكية أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الامريكي يوم ١٩٨٢/٩/١٠: مع أن مقررات القمة العربية لم تكن موجهة ضد مقترحات الرئيس ريغان، وعناصرها الرئيسية لا تتعارض مع مقترحاتنا، فإن الولايات المتحدة تفضل مشروع الرئيس ريغان على مشروع قمة فاس. وقال كاسبر واينبرغر وزير الدفاع الأمريكي:

إن مشروع قمة فاس يحقق خطوة إلى الأمام، لكن المشروع الأمريكي أقدر على اجتذاب عدد أكبر من الأطراف للتفاوض» [2].

ولا ننسى أن سورية جزء من هذا المؤتمر، وقد شاركت في قراراته.

---

(١) مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية/ ٢٢٠.

(٢) المصدر نفسه/ ٢٢١.

الاتفاق الأردني الفلسطيني:

في الحادي عشر من شباط/ فبراير ١٩٨٥ وفي أعقاب اجتماعات موسعة بين المسؤولين الأردنيين والفلسطينيين تم إقرار الاتفاق الأردني – الفلسطيني، والذي تضمن النقاط التالية:

أولاً: يتم التحرك الأردني الفلسطيني على أساس الشرعية الدولية التي تمثلها قرارات الأمم المتحدة، والتي تنص بوضوح على الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني مع مراعاة القرارات رقم ٢٤٢ و٣٣٨.

ثانياً: إن أية عملية للسلام يجب أن تتم من خلال المؤتمر الدولي الذي يجب أن يشارك فيه الشعب الفلسطيني كطرف أساسي، ممثلاً بمنظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب الدول الأعضاء الدائمة العضوية في مجلس الأمن.

ثالثاً: الاعتراف بمبدأ السلام مقابل الأراضي في إطار المبادئ التي نصت على حقوق الشعب الفلسطيني، وعدم جواز ضم الأراضي بالقوة، وضرورة الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ وحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره على أرضه.

رابعاً: الاتفاق على أن تكون العلاقة المستقبلية بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية علاقة كونفدرالية فيما إذا قامت الدولة الفلسطينية.

خامساً: الاتفاق على أنه في حالة نجاح مفاوضات الملك فهد في واشنطن وقبول الإدارة الأمريكية بمقترحاته أن تقوم منظمة التحرير الفلسطينية بخطوات متقدمة نحو الاقتراح الأمريكي القاضي بالاعتراف المتبادل.

سابعاً: الاتفاق على أن يقوم الملك حسين بزيارة الجزائر للتباحث مع الرئيس الجزائري، وعرض خلاصة الاتفاق الأردني الفلسطيني والسعي لدى

الجزائر بإقناع بقية الدول العربية بجدوى مثل هذا التحرك للقضية الفلسطينية»[1].

مبادرة بيريز للسلام:

تقدم شمعون بيريز رئيس وزراء إسرائيل في الخطاب الذي ألقاه في مقر الأمم المتحدة مساء يوم الاثنين ١٩٨٥/١٠/٢١ بمبادرة للسلام في الشرق الأوسط ودعا إلى إنهاء حالة الحرب بين إسرائيل والأردن، والبدء بمفاوضات سلام بين الطرفين قبل نهاية العام الحالي، واقترح بيريس تشكيل لجان عمل صغيرة من الخبراء تجتمع خلال ثلاثين يوماً لمناقشة وضع جدول أعمال لتنظيم دعم دولي يتيح البدء في مفاوضات مباشرة بين إسرائيل والأردن، وتقوم مبادرة بيرس الدبلوماسية على المبادئ التالية:

أولاً: التوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل والدول العربية وحل القضية الفسلطينية.

ثانياً: عدم وضع أي طرف لشروط مسبقة.

ثالثاً: تجري المفاوضات على أساس قراري مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ و٣٣٨ والرغبة في بحث مقترحات أخرى تشترك في المفاوضات.

رابعاً: تكون المفاوضات مباشرة بين الأطراف المعنية.

خامساً: في حالة الضرورة يمكن أن تجري المفاوضات بدعم من جهات دولية كما تتفق عليه الأطراف.

سادساً: إجراء مفاوضات قبل نهاية العام الحالي في الأردن أو في إسرائيل أو في أي مكان آخر في العالم يتفق عليه الطرفان. وأعرب بيرس عن استعداد

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

إسرائيل لعقد الجلسة الافتتاحية للمفاوضات في عمان.

سابعاً: تجري المفاوضات بين إسرائيل والأردن بين وفد إسرائيلي من جهة ووفد أردني، أو مع وفد أردني - فلسطيني مشترك من الجهة الأخرى، على أن يكون هدف هذا الوفد السلام وليس الإرهاب. واقترح بيريس في سبيل تحقيق هذه المبادرة أن تسفر المفاوضات المباشرة عن ترتيبات فورية بصدد الحدود وحل للقضية الفلسطينية، وقال: إن اتفاقات كامب ديفيد تشكل قاعدة ممكنة لتحقيق هذا الهدف. وأضاف: إنه من الممكن دعوة الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن الدولي إلى تأييد المبادرة إلى مثل هذه المفاوضات. وأضاف بيريس أن موقف إسرائيل هو أن على الدول التي لا تقيم علاقات دبلوماسية مع أي طرف من المفاوضات ألا تشترك في هذه المفاوضات، على أن لا يؤثر ذلك على طبيعة المفاوضات المباشرة ..» [1].

قبل أن ننتقل إلى ردود الفعل العربية على مبادرة بيريز رئيس الوزراء الإسرائيلي نعيد إلى الذاكرة المشروع الذي تقدم به ليفي أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي عام ١٩٦٥، أي قبل وثلاثين عاماً (ثلث قرن) وهو:

رداً على مقترحات الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة تقدم ليفي أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي بتاريخ ١٧ أيار ١٩٦٥ بمشروع بعد أن وضع التزامين انطلق منهما مشروعه.

أ-الواجب العام الذي تخضع له جميع الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة في العيش بسلام مع بعضها.

ب-الالتزام باتفاقات الهدنة لعام ١٩٤٨ والتي تنص من جملة ما نصت عليه

---

(١) مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية/ ٢٣٢.

«أن الهدنة هي مرحلة انتقالية نحو السلام العادل».

وينص مشروع أشكول على ما يلي:

أولاً: تقترح إسرائيل إجراء مفاوضات مباشرة بينها وبين البلدان التي وقعت على اتفاقيات الهدنة من أجل إحلال اتفاقية السلام محل اتفاقيات الهدنة.

ثانياً: تتم التسوية السلمية على أساس وضع إسرائيل القائم باستثناء بعض التعديلات الطفيفة المتبادلة والمتفق عليها عند نقاط معينة على الحدود، بهدف تسهيل الحياة اليومية للسكان.

ثالثاً: يعني السلام حرية الدول العربية وإسرائيل في الاستفادة من نتائجه مثل النقل البري والجوي والاتصالات البريدية، الراديو، التلفزيون، الوصول إلى الموانئ، وحرية الملاحة.

إن أحلام العرب عام ١٩٨٥ في عودة غزة والضفة الغربية والجولان إليهم كانت محققة قبل حرب الـ ٦٧، وإن أحلام إسرائيل في الاعتراف بإسرائيل قبل الـ ٦٧ هي محققة كاملة اليوم، ويعني هذا الكلام أننا منذ ثلاثين عاماً نحاول استرداد ما فقدناه في حرب الـ ٦٧.

ومن الذي أفقدنا هذه المواقع؟

دول الصمود والتصدي، وعلى رأسها النصيريون في سورية والذين دانت لهم البلاد قبيل المعركة الهزيمة.

والاتحاد الاشتراكي القومي العربي في مصر وعلى رأسه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

وها نحن نجني اليوم مرارة الخيانة والجريمة للنصيريين وحلفائهم منذ ثلث قرن إلى اليوم، بينما نرى النصيريين يكيلون الاتهامات لكل الأنظمة صاحبة الحلول الاستسلامية والتصفوية.

ردود الفعل على مبادرة بيرس:

أكد مصدر أردني في عمان يوم ١٩٨٥/١٠/٢٢ أن الأردن رفض الدعوة التي وجهها إليه شمعون بيرس رئيس الوزراء الإسرائيلي لإجراء مفاوضات مباشرة، ويؤكد أنه لن يقوم بإجراء اتفاق منفرد مع إسرائيل. وأضاف المصدر الأردني: إن الأردن لم يغير موقفه حول القضية الفلسطينية، ولا يستطيع أن يشترك في مفاوضات مباشرة أو يعقد صلحاً منفرداً مع إسرائيل، وأن الأردن بالاشتراك مع سائر الدول العربية وبضمنها سورية التي يقوم بتطبيع العلاقات معها بعد عدة سنوات من التباعد، ويتفق على أن التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط يجب أن يتم في إطار مؤتمر دولي.

وأضاف المصدر الأردني أن رد الأردن على خطاب بيرس ينعكس بوضوح ضمن ما أعلنه ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز بعد انتهاء المحادثات الأردنية السورية في جدة، وهو يشير بذلك إلى التزام الدول العربية بمقررات قمة فاس. وان الأردن استناداً إلى موقفه المعلن يرفض كلياً أي حل جزئي أو منفصل.

وكان الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد السعودي قد أدلى بتصريح بعد انتهاء المحادثات الأردنية السورية في جدة قال فيه:

إن اللقاء بين الوفدين السوري والأردني قد دار في جو ودي وإيجابي، وإن الطرفين اتفقا على ما يلي:

أولاً: تأكيد الالتزام بقرارات مؤتمرات القمة العربية التي حصل بشأنها الاتفاق العربي.

ثانياً: التمسك بمشروع السلام العربي الصادر عن قمة فاس عام ١٩٨٢ لتحقيق السلام العادل والشامل في إطار مؤتمر دولي تحت رعاية الأمم المتحدة

تحضره جميع الأطراف المعنية، وتوفير كافة المستلزمات الضرورية لذلك.

ثالثاً: رفض التسويات الجزئية والمنفردة مع إسرائيل» [1].

وبعد ست سنوات: مؤتمر مدريد للسلام:

ها هو مشروع بيريز بحذافيره يطبق في مؤتمر السلام: المفاوضات المباشرة تحت ظل الهيمنة الأمريكية دون قيد أو شرط، وسورية على رأس الدول المشاركة. وهكذا سقط الصمود في مستنقع السيطرة الأمريكية في العالم.

وهذا هو نص الرسالة العربي الحرفي التي وجهها الرئيسان بوش وغورباتشوف:

« دعوة: بعد مفاوضات مكثفة مع إسرائيل والدول العربية والفلسطينيين تعتقد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بأن فرصة تاريخية قائمة بالفعل تدفع الإمكانيات قدماً من أجل سلام حقيقي في جميع أنحاء المنطقة. والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على استعداد لمساعدة الأطراف على تحقيق تسوية سلمية شاملة ودائمة وعادلة من خلال مفاوضات مباشرة، وتأخذ مسارين: بين إسرائيل والدول العربية، وبين إسرائيل والفلسطينيين. وترتكز على قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ . وهدف هذه العملية هو سلام حقيقي.

ولتحقيق هذه الغاية يتقدم رئيس الولايات المتحدة ورئيس الاتحاد السوفيتي بدعوتكم إلى مؤتمر سلام تتبناه كلتا الدولتين، ويليه فوراً مفاوضات مباشرة. وسيتم عقد المؤتمر في مدريد يوم ٣٠ أكتوبر/ تشرين الثاني ١٩٩١، ويرجو الرئيس بوش والرئيس غورباتشوف منكم قبول هذه الدعوة على أكثر تقدير قبل

---

(١) مشاريع التسوية القضية الفلسطينية/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

الساعة السادسة من بعد ظهر ٢٣ اكتوبر ١٩٩١ بتوقيت واشنطن، وذلك لضمان التنظيم الملائم والاستعدادات للمؤتمر. وسوف تبدأ المفاوضات الثنائية المباشرة بعد أربعة أيام من افتتاح المؤتمر. أما الأطراف التي ترغب في حضور المفاوضات المتعددة الأطراف فسوف تجتمع بعد أسبوعين من افتتاح المؤتمر لتنظيم هذه المفاوضات، ويعتقد متبنو القرار أنه ينبغي أن تتركز هذه المفاوضات على قضايا المنطقة المتنوعة، مثل الرقابة على الأسلحة، والأمن الاقليمي، والمياه، وقضايا اللاجئين، والبيئة، والتنمية الاقتصادية، والمواضيع الأخرى ذات الاهتمام المشترك. وسوف ترأس الاجتماع الذي سيعقد على مستوى وزراء الخارجية الدولتان اللتان تبنتا القرار. أما الحكومات المدعوة فتشمل إسرائيل وسورية ولبنان والأردن. أما الفلسطينيون فستتم دعوتهم كجزء من الوفد الأردني – الفلسطيني، وستتم دعوة مصر بصفة مشارك. وسيكون المجتمع الأوربي مشاركاً في المؤتمر جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وسوف يكون ممثلاً في رئاسته. وسوف توجه دعوة لمجلس التعاون الخليجي لإرسال أمينه العام للحضور كمراقب. كما ستوجه الدعوة للأمم المتحدة لارسال مراقب يمثل الأمين العام، ولن تكون للمؤتمر سلطة فرض حلول على الأطراف، أو حق رفض الاتفاقات التي ستتوصل إليها، كما لن تكون له سلطة اتخاذ قرارات للأطراف، أو القدرة على التصويت على القضايا أو النتائج، وبالإمكان عقد المؤتمر مرة ثانية فقط بموافقة جميع الأطراف.

بالنسبة للمفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين الذين هم جزء من الوفد الأردني الفلسطيني فستدور المفاوضات على مراحل، تبدأ بمحادثات حول ترتيبات الحكم الذاتي المؤقت، وستدور هذه المفاوضات بهدف التوصل إلى اتفاق في موعد أقصاه سنة واحدة، وبمجرد الاتفاق ستدوم ترتيبات الحكم

الذاتي المؤقت مدة خمسة أعوام، وبدءاً من العام الثالث من فترة ترتيبات الحكم الذاتي المؤقت ستجري المفاوضات بشأن الوضع الدائم، وسوف تدور هذه المفاوضات الخاصة بالوضع الدائم والمفاوضات بين إسرائيل والدول العربية على أساس القرارين ٢٤٢ و٣٣٨.

ومن المفهوم أن الدولتين اللتين تبنتا هذا القرار قد تعهدتا بإنجاح هذه العملية، كما أن هدفهما من عقد هذا المؤتمر ومن المفاوضات هو مع الأطراف التي ستوافق على الحضور.

ويعتقد متبنيا المؤتمر أن هذه العملية تتيح فرصة واعدة لإنهاء عقود من المواجهة والصراع، كما تباشر بالأمل بسلام دائم. ومن ثم يأمل متبنيا المؤتمر من الأطراف التوجه إلى هذه المفاوضات بروح من النوايا الطيبة والاحترام المتبادل، وبهذه الطريقة يمكن لعملية السلام أن تكسر جمود الشكوك وعدم الثقة المتبادلة اللتين تجعلان هذا الصراع مستمراً، وللسماح أيضاً للأطراف بالبدء في حل خلافاتهما. والحق أنه من خلال هذه العملية فقط يمكن تحقيق سلام حقيقي بين الدول العربية وإسرائيل والفلسطينيين، كما أنه من خلال هذه العملية فقط يمكن لشعوب الشرق الأوسط إحراز سلام وأمن يستحقونه عن جدارة» [(١)].

وفي الصفحة المقابلة في جريدة الحياة التي نشرت الدعوة يطالعنا تقرير إخباري عنوانه: دمشق: لا نستطيع التفاؤل لتعنت إسرائيل وغموض الالتزام الأمريكي. وجاء فيه:

«دمشق: من عبدالله الدروري: تستعد سورية للمشاركة في مؤتمر السلام في مدريد وهي لا تحمل تفاؤلاً كبيراً بإمكان تحقيق الأهداف العربية المرجوة من

---

(١) الحياة، الاثنين ١٢ اكتوبر/ تشرين الثاني- الموافق ١٥ ربيع الثاني ١٤١٢هـ العدد ١٠٤٨٥، ص ٤.

المؤتمر لأسباب متعددة، أهمها التعنت الإسرائيلي. والخلاف بيّن في شأن المحادثات الإقليمية المتعددة الأطراف، وعدم وضوح الالتزامات الأمريكية في عدد من القضايا المهمة.

وقال مسؤول سوري كبير للحياة أن دمشق بذلت جهداً كبيراً خلال المحادثات مع وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر لتحسين شروط المشاركة العربية في المؤتمر. بل إن الموقف السوري المتشدد كان بمثابة الصدمة لبيكر الذي أعتقد أن محادثاته في دمشق ستكون مجرد وضع لمسات أخيرة على شروط المشاركة السورية واستطاعت دمشق بعد ١٨ ساعة من المحادثات على المستويات الوزارية والرئاسية ومستوى المخابرات انتزاع عدد من التعهدات الأمريكية، أهمها إدراج رسالة الرئيس السابق جيرالد فورد عام ١٩٧٥ التي تؤكد اعتراف واشنطن بسيادة سورية على مرتفعات الجولان. ويعتبر ذلك حلاً وسطاً لمشكلة كادت توتر الأجواء بين دمشق وواشنطن التي ضمنت رسالة تطميناتها إلى إسرائيل التزاماً بنص رسالة فورد التي وعد فيها بأخذ مصالح إسرائيل الأمنية واستمرار وجودها في الجولان بعين الاعتبار عند البحث عن حل لمشكلة الحدود بين سوريا وإسرائيل.

وقال المسؤول السوري: بما أن الرسالة التي وجهها فورد إلى دمشق أتت بعد رسالته إلى تل أبيب فإنها تحمل قوة أكبر والتزاماً سياسياً أقوى، كذلك تضمنت رسالة التطمينات إلى سورية النص على عدم اعتراف الولايات المتحدة بضم القدس الشرقية وتوسيع مساحتها، وكذلك بالنسبة لمرتفعات الجولان، وعلى أن الاستيطان الإسرائيلي في الأراضي المحتلة غير قانوني منذ عام ١٩٦٧ مما سيدعم المطالبة العربية بإزالة المستوطنات من هذه الأراضي لكن بيكر أصر على عدم التزام واشنطن بضرورة تجميد بناء المستوطنات قبل بدء المباحثات.

وأضاف أن الجانب السوري حاول الحصول على اعتراف أمريكي بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في الرسالة الأمريكية السورية الا أن بيكر تمسك بصيغة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.

ورأى المسؤول السوري أن لا أحد في العالم يدعم التفسير الإسرائيلي للقرار ٢٤٢ بأن الانسحاب من سيناء نفذ الشرط المتعلق بالانسحاب في القرار، وبقي شرط الحدود الآمنة والعيش بسلام.

أما عن النقطة الأكثر خطورة في مؤتمر السلام المقبل، أي المحادثات المتعددة الأطراف للبحث في القضايا الإقليمية، فيقول المسؤول السوري عنها: إن هذه المحادثات إذا أجريت قبل تحقيق الانسحاب الإسرائيلي ستفرغ المؤتمر من مضمونه، وستحقق لإسرائيل هدفها من المؤتمر، وهو الحصول على الاعتراف وتطبيع العلاقات مع العدد الأكبر من الدول العربية. وكذلك إلغاء المقاطعة الاقتصادية لها، واستغلالها مصادر الثروة المائية والنفطية العربية قبل أن تعيد للسوريين واللبنانيين والفلسطينيين أراضيهم المحتلة. وربما لا يدرك بعض العرب الذين وافقوا على المشاركة المبكرة خطورة هذا الموضوع، بل يتعرض معظمهم إلى ضغوط شديدة للمشاركة، ولا تسمح ظروف ما بعد الخليج لهم بالاعتراض، وشدد المسؤول على أن المفروض على الدول العربية دعم دول المواجهة، وإلا سيتحول المؤتمر إلى وسيلة لمحاصرة سورية ولبنان والفلسطينيين والأردن» [1].

ومن المضحك حقاً تلك التبريرات السخيفة لدخول مؤتمر السلام من سورية بطلة الصمود والتصدي بناءً على الرسالة الأمريكية. ونص الدعوة الموجهة يؤكد

---

(١) الحياة، الاثنين ٢١ اكتوبر/ تشرين الأول- الموافق ١٥ ربيع الثاني ١٤١٢هـ العدد ١٠٤٨٥ .

أن «لن تكون للمؤتمر سلطة فرض حلول على الأطراف، أو حق رفض الاتفاقات التي تتوصل اليها».

انعقاد المؤتمر: ٣١ اكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩١:

جاء في التقارير الإخبارية يوم انعقاد المؤتمر «طغى الخطاب الذي ألقاه الرئيس بوش أمس في مدريد على جلسة افتتاح مؤتمر السلام الذي تشارك فيه أطراف النزاع الشرق أوسطي، بعد ما حدد أهداف هذا المؤتمر بالوصول إلى «معاهدات سلامٍ» بين إسرائيل وكل من سورية والأردن ولبنان، وليس مجرد إنهاء حالة الحرب، إضافة إلى التطبيع الكامل للعلاقات بين دول المنطقة.

ففي العاشرة والدقيقة ٣١ بتوقيت مدريد افتتح مؤتمر السلام أعماله، وكان أول المتكلمين رئيس الوزراء الإسباني، ثم تحدث الرئيس الأمريكي، وتلاه الرئيس غورباتشوف الذي لم يكن لديه ما يقوله سوى تأييد موقف بوش، إذ قال بدوره أن (لا حل من الخارج) يفرض على أطراف النزاع في الشرق الاوسط، وأن (السلم لا يعني مجرد إنهاء حالة الحرب). ولم يشر غورباتشوف إلى منظمة التحرير الفلسطينية، مكتفياً بالقول: «إن السلام يتطلب احترام حقوق الشعب الفلسطيني وإحقاقها». وأعطى بوش عنوان (الإنصاف والأمن) لنتيجة المفاوضات العربية – الإسرائيلية، وحض الجانب العربي على أن يثبت أن المواقف تغيرت، وأنه مستعد للعيش مع إسرائيل مع مراعاة لمتطلبات أمنها، وحض الجانب الإسرائيلي على إبداء الاستعداد للدخول في علاقات جيدة مع الفلسطينيين قائمة على الإنصاف. ولوحظت إشارة الرئيس بوش إلى أن الحل الوسط المتعتلق بالأرض ضروري للسلام، مكرراً أن أساس المفاوضات هو قرار مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨، معالجاً بذلك ضمناً عنصرالأرض، من دون ذكر

معادلـة (مقايضـة الأرض بالسـلام). وقـال: إنـه لـيس لديـه خريطـة تحـدد حـدود الدول، ولكن لا بد من الحل الوسط المتعلق بالأرض شرطاً للسلام في تسوية شاملة وعادلة ودائمة».

وفي تعليق للحياة على افتتاح المؤتمر تقول:

ستة وفود لخمس دول باحثة عن سلام بعضها على مضض، وبعضها على استحياء، جلست صباح أمس تستمع من فم رئيس العالم مباشرة وهو يقول كيف يرى ما يريد، وكيف يرى ما سيكون في الشرق الأوسط. كان جورج بوش يتحدث عن الكبيرة والصغيرة في صراع المنطقة، ينسى ما يشاء، ويتذكر ما يحلو له، فيحرق أعصاب الحاضرين وهو يبتسم، لأنه جاء بهدف واحد: حمل الجميع على التشارك في مستقبل المنطقة.

...وكان مستشار الوفد الإسرائيلي قد اعتبر قضية الجولان (مسألة حياة أو موت بالنسبة للدولة العبرية) وعبّر عن اعتقاده باستحالة التخلي عنها. [1].

ويتحدث العالم عن السلام، ويتحدث كتاب صدر في واشنطن فيقول:

إسرائيل تملك منذ العام ١٩٦٨ مئات القنابل النووية والنيترونية:

«ذكر كتاب جديد صدر في واشنطن أمس (٢٠ تشرين الأول/ اكتوبر) أن إسرائيل ظلت تملك أسلحة نووية منذ العام ١٩٦٨، وأنها تملك حالياً ما لا يقل عن ٣٠٠ رأس حربي نووي من مختلف الأحجام والأصناف بما في ذلك قنابل نيترونية تفني الحياة البشرية دون تدمير المباني والممتلكات.

ويقول مؤلف الكتاب الصحافي الامريكي (سيمور هيرش) الذي يعد من منتقدي السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط منذ فترة طويلة «أن إسرائيل

---

(١) الحياة، الخميس ٣١ تشرين الاول/ اكتوبر ١٩٩١ الموافق ٢٥ ربيع الثاني ١٤١٢.

استغلت ترسانتها النووية في ابتزاز واشنطن كي تقوم الأخيرة بإعادة تزويدها باحتياجاتها العسكرية إبان حرب العام ١٩٧٣».

ويفيد الكتاب الذي صدر تحت عنوان (خيار شامشون) بأن إسرائيل وضعت قواتها النووية في حال تأهب قصوى مرتين في بداية الحرب بعدما منيت بهزائم عدة على أيدي القوات المصرية والسورية، بل واستعدت إسرائيل أخيراً لإطلاق سلاحها النووي على العراق إبان حرب الخليج عندما شنّ العراق هجمات عليها بصواريخ من طراز (سكود)، ولكن قبل أن تنفذ إسرائيل تهديدها عجلت الولايات المتحدة بشن غارات على مواقع منصات الصواريخ العراقية، وتزويد إسرائيل بصواريخ من طراز باتريوت المضادة للصواريخ.

ويحوي الكتاب تفاصيل دقيقة عن الترسانة النووية الإسرائيلية، ويتهم مؤلفه الولايات المتحدة بتجاهل الواقع بهذا الشأن. ويقول: إن إسرائيل تملك حالياً مئات الأسلحة النووية بما في ذلك الرؤوس الحربية الإستراتيجية المثبتة على صواريخ بعيدة المدى، والرؤوس الحربية التكتيكية المثبتة على طائرات حربية، وأخرى يمكن قذفها بقطع المدفعية. ويكشف الكتاب أن ما لا يقل عن ١٠٠ قذيفة نووية توجد حالياً في مرتفعات الجولان لكي تستخدم في حال اندلاع الحرب في تلك المنطقة.

ويقول هيرش أن إسرائيل تملك المئات من الرؤوس الحربية النيتروجينية الكفيلة بتدمير أعداد كبيرة من القوات المعادية لإسرائيل، ويتهم المؤلف الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكي الأسبق بأنه كان في مقدمة من غض الطرف عن البرنامج النووي الإسرائيلي.

ويقول هيرش أنه لذلك السبب لم تتعرض إسرائيل للمساءلة من قبل

الحكومة الأمريكية إبان عهد الرئيس الاسبق ريتشارد نيكسون» [1].

<u>والكنيست يقرر: الجولان إسرائيلية:</u> «وجه وزير الخارجية السورية رسائل إلى وزراء خارجية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ودول المجموعة الأوربية وصف فيها قرار الكنيست الإسرائيلي بأن هضبة الجولان لا تنفصل عن إسرائيل وليست محل تفاوض، بأنه يهدف إلى نسف عملية السلام، وأوضحت وكالة الأنباء السورية أن الشرع سلم رسالتين إلى السفيرين الأمريكي والسوفيتي في دمشق لدى استقباله إياهما . ويذكر أن الكنيست تبنى قراراً يعتبر أن هضبة الجولان التي احتلتها إسرائيل سنة ١٩٦٧، وضمتها إليها عام ١٩٨١ تشكل أرضاً لا تنفصل عن إسرائيل، ولن تكون محل تفاوض، إلى ذلك دعت سورية الأمم المتحدة إلى الرد على تدشين إسرائيل مستوطنة جديدة في مرتفعات الجولان . وقال السيد عيسى عوض القائم بالأعمال السوري لدى الأمم المتحدة في رسالة إلى الأمين العام (خافيير بيريز ديكويار): من الواضح أن هذا الإجراء من جانب إسرائيل انتهاك جديد وخطير لقرارات الأمم المتحدة.

وأشارت الرسالة السورية التي وزعت في وقت لاحق في الأمم المتحدة إلى أن البدء بإقامة المستوطنة الجديدة حدث بعد وقت قصير من بدء أعمال المؤتمر، وقال: إنه توجد الآن ٤٣ مستوطنة إسرائيلية في الجولان يعيش فيها ١٣٤٠٠ مستوطن يهودي.

وذكرت الرسالة أن المستوطنة الجديدة تؤكد أن إسرائيل تعتزم الإبقاء على ضمها الجولان السورية المحتلة، وفرض هذا الحل بإيجاد أمر واقع سكاني واقتصادي واجتماعي تنفيذاً لسياستها الاستعمارية التوسعية» [2].

(١) الحياة، الاثنين ٢١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٩١ الموافق ١٥ ربيع الثاني ١٤١٢هـ.

(٢) الحياة، ١١ جمادى الأولى ١٤١٢هـ الموافق ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١،العدد ١٠٥١١.

الطعنة الثانية الأمريكية للعرب، إلغاء قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية:

اعتبر القرار الصادر عام ١٩٧٤ في الأمم المتحدة عام نصر للعرب، حيث اعترفت الأمم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطيني، ودعتها لحضور مناقشات القضية الفلسطينية، بينما رفضت إسرائيل الدخول في المفاوضات مع أي وفد فيه أي عضو من منظمة التحجرير الفلسطينية وكان النصر الآخر عام١٩٧٥ هو اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية. وها هي أمريكا - الحكم العدل بين اليهود والعرب - تجهز على القرار وتلغيه مكافأة للعرب على دخولهم في مفاوضات السلام.

أمريكا قدمت مشروع القرار و١١١ دولة دعمته: «الأمم المتحدة تلغي قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية - البعثة الإسرائيلية تحتفل، وليفي يقول: نفخر لكوننا صهاينة.

مني العمل الدبلوماسي العربي في الأمم المتحدة بـ (نكسة تاريخية) عندما ألغت الجمعية العامة قرارها الشهير ٣٣٧٩ للعام ١٩٧٥ والذي اعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية. ووافقت على الإلغاء ١١١ دولة وعارضته ٢٥ دولة وامتنعت ١٣ دولة عن التصويت.

ولم تشارك في التصويت ٧ دول عربية هي مصر والبحرين والكويت وعُمان وتونس والمغرب وجيبوتي، ولم تشارك أيضاً الصين والسنغال التي استضافت مؤتمر القمة الاسلامي الأخير.

واقتصر القرار على جملة واحدة قررت الجمعية العامة بموجبها إلغاء الحكم الوارد في القرر ٣٣٧٩ الذي نص على أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية.

وتبنت تقديم مشروع قرار الإلغاء ٨٥ دولة، واقترعت ضده الدول الآتية:

أفغانستان، أنغولا، بنغلاديش، بروناي،تنزانيا، كوبا، كوريا الشمالية، أندويسيا، إيران، العراق، الأردن، لبنان، ليبيا، ماليزيا، مالي، موريتانيا، باكستان، قطر، السعودية، الصومال، سيرلانكا، سورية، الإمارات العربية المتحدة، اليمن.

وعكست نتيجة التصويت بالغالبية لمصلحة الإلغاء وانقسام العرب في معارضته مستوى التحرك الدبلوماسي الأمريكي، وعزم الولايات المتحدة على إلغاء القرار، ورافقت التحرك الأمريكي خطوة دراماتيكية، إذ حضر الجلسة التاريخية نائب وزير الخارجية الأمريكي لورنس إيغلبرغر الذي جاء خصيصاً لتقديم مشروع القرار إلى التصويت، وحضر أيضاً السفير الأمريكي السابق دانيال باتريك مونبهان الذي كان مندوب بلاده لدى الأمم المتحدة أثناء تبني الجمعية العامة القرار عام ١٩٧٥، وقال إيغلبرغر إن القرار ليس موجهاً ضد أحد، ولا ضد أي دولة، ولا ضد أي مجموعة، وبأن هدفه الوحيد البسيط، هو تصحيح الخطأ، وإعادة الصلاحية الأخلاقية إلى هذه المنظمة.

وأضاف أن قرار الإلغاء ليس موجهاً ضد عملية السلام الخاصة بالشرق الأوسط ولا مرتبطاً بها، ولكنني أود القول إن حكومتي تعتقد بأن هذا الإجراء من شأنه أن يساعد الجهود القائمة لتحقيق السلام في المنطقة وليس عرقلتها.

وردّ مندوب لبنان السفير خليل مكاوي باسم المجموعة العربية التي يرأسها للشهر الجاري: في حين أن مقدمي المشروع والقرار يؤكدون أنه ليس موجهاً ضد أي دولة عربية، فإن من الواضح أنه يغفل الجروح العميقة التي مني بها المسيحيون والمسلمون الفلسطينيون الذي يمارس ضدهم التمييز بانتظام سواء كانوا تحت الاحتلال أو أنكر حقهم في العودة، وذلك لأنهم على وجه التحديد ليسوا من اليهود.

واحتفل الوفد الإسرائيلي الذي رأسه وزير الخارجية (ديفيد ليفي) بإبطال

القرار، وتبرئة الصهيونية من العنصرية، ووجه رسالة شكر إلى بعثة كل دولة دعمت إبطال القرار ٣٢٧٩، ووصفت الرسالة الإلغاء بأنه إجراء تاريخي وجاء فيها: إننا فخورون بالقرار الذي تم تبنيه. إنه لفخر لنا أننا صهاينة» [١].

ونحب أن نذكر سورية العتيدة الصامدة بما يقوله رئيسها حافظ أسد عن مبادرات السلام المنفردة والتي تتم من غير مؤتمر قمة وإجماع عربي:

«إننا نريد السلام، ودليلنا إلى السلام هو قرارات الأمم المتحدة، وصيغة العمل من أجل السلام هي مؤتمر دولي تحضره الأطراف المعنية كلها وبرعاية الأمم المتحدة وبمشاركة الدولتين العظميين أو الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن، لأن كلتا الصيغتين كنا نتحدث بهما منذ زمن طويل منذ السبعينات، وإسرائيل تبحث عن حلول جزئية، لأنها أولاً ترغب في أن تحقق مكاسب أكثر عن طريق الأعمال المنفردة، وثانياً تريد أن لا تعيدها في المستقبل لأن إسرائيل تسعى لإسرائيل كبرى».

فما بال حكام سورية يسيرون اليوم بدون مؤتمر دولي، وبمفاوضات مباشرة، وبدون إجماع عربي، وبحلول جزئية مفردة؟ هذه سمة التسعينات التي انتهت بالهيمنة الأمريكية على العالم، والتي حالفت فيها سوريا أمريكا، ضمن الثمان والثلاثين دولة، وها هي تستجيب لرغبتها اليوم، فيجلس الوفد السوري مع الوفد الإسرائيلي في قاعة مغلقة، دون حضور أحد يناقشان الاعتراف والانسحاب.

يقول أسد: «نحن دائماً ضد المبادرات المنفردة والنشاطات المنفردة فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي، ولو لم نكن كذلك لما اختلفنا مع السادات، ولم نستطع أن نستمر مع السادات في وفاق بعد أن قام بقفزته المنفردة. فبطبيعة

---

(١) العالم الاسلامي، جريدة رابطة العالم الاسلامي، الاثنين ١٧ - ٢٣ جمادى الآخرة ١٤١٢ الموافق ٢٣ - ٢٩ ديسمبر ١٩٩١، العدد ١٢٤٤، السنة السابعة عشرة.

الحال لن نكون على وفاق مع أي طرف عربي آخر يقوم بعمل منفرد»[1].

وبعد أقل من عامين كانت سوريا الصمود على مائدة المفاوضات مع إسرائيل.

تعرية أمريكية لسورية، وأمريكا هي إسرائيل:

سألت (الحياة) نائب الرئيس الأمريكي دان كويل: لماذا خاطب مجموعة يهودية أخيراً بقوله: أيها الرفاق الصهاينة ؟ وهل يعتبر نفسه صهيونياً فعلاً؟ فأجاب: بكل تأكيد أنا صهيوني. وعندما سألته (الحياة) عن دولة إسرائيل وحدودها، أجاب: لا أريد أن أدخل في هذا، وعندما شرح أنه يؤمن بدولة إسرائيل زاد: إن دولة إسرائيل مهمة، وأنا أعتبر نفسي صهيونياً وأفترض أن عدداً كبيراً من الموجودين إلى هذه الطاولة يعتبرون أنفسهم صهاينة كذلك.

بوش (الأب) .. وإسرائيل:

ودافع كويل عن سياسة الرئيس جورج بوش حيال إسرائيل فقال: يجب النظر إلى الرئيس بوش على أنه صديق قوي وداعم لإسرائيل، ولننظر إلى السجل:

-إن صدام حسين الذي هو أكبر أعداء إسرائيل وجد آلته العسكرية مشلولة إلى درجة بالغة، وهو الآن ليس بالقدر ذاته من التهديد الذي كان عليه، ولن يتمكن إطلاقاً وأبداً من أن يقوم مجدداً بما قام به في الماضي.

-ولقد بذل الرئيس جهده في مسألة الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل التي شكلت مصدر اهتمام بالغ لليهود الأمريكيين وشعب إسرائيل.

---

(١) القبس الكويتية في مقابلة مع الرئيس حافظ أسد، السبت ١٩٨٩/١٢/٩، العدد ٦٣١٧.

-ونجح الرئيس للمرة الأولى في جمع جيران إسرائيل معها في مفاوضات مباشرة وجهاً لوجه، علماً بأنهم (الإسرائيليون) ومنذ إنشاء إسرائيل يقولون إنهم يريدون المفاوضات المباشرة وجهاً لوجه مع جيرانهم، والرئيس بوش حقق لهم ذلك.

-والرئيس بوش تبنى موقفاً قيادياً في شأن إبطال قرار الصهيونية والذي اعتبر الصهيونية شكلاً من اشكال العنصرية.

-ويوجد فقط خلاف واحد للرئيس بوش مع رئيس وزراء إسرائيل وحكومتها وهو يتعلق بالمستوطنات.

-وأود أن ألفت النظر إلى أن إدارة الرئيس السابق جيمي كارتر وهي الإدارة الديمقراطية الأخيرة، اعتبرت المستوطنات احتلالاً غير شرعي، وتم تغيير ذلك اثناء الرئاسة الجمهورية، نعم يوجد خلاف في مسألة السياسة إزاء المستوطنات وهو بالطبع مرتبط بمسألة الضمانات للقروض. ويجب النظر ثانياً إلى جورج بوش على أنه صديق جيد لإسرائيل.

وشدد نائب الرئيس الأمريكي على أن اسرئيل هي أكبر حليف يمكننا الاعتماد عليه في المنطقة، وإذا كانت هناك حفر على الطريق فهي عادية في إطار المفاوضات كمان هي الحال مع اليابان.

أما سورية فاعتبر نائب الرئيس الأمريكي دان كويل أن سورية ساهمت في حرب الخليج لمصلحتها في (إطاحة الرئيس صدام حسين أو على الأقل تجريده نسبياً من الأسلحة) وقال: إن العراق والرئيس صدام كانا مصدر تهديد لسورية وللرئيس حافظ الأسد، وبالتالي فإن مشاركته في حرب الخليج كانت لمصلحتها، وليس بالضرورة لمصلحة الولايات المتحدة. وشدد على أن هذه المشاركة لا تضمن لسورية دوراً فيما سمهاه (الشراكة العالمية) إذ أن على سورية أن تصبح

جدية في مسألة (وقف تصدير الإرهاب)، وإلى أن يتم توضيح هذه المسألة فمن الصعب جداً بناء علاقات إضافية، أو تطوير العلاقات مع سورية.

وسألته (الحياة) عن مدى استمرارية شراكة بعض الشركاء في (الشراكة العالمية) التي تحدث عنها هو نفسه وتحدث عنها قبله وزير الخارجية جيمس بيكر تحت عنوان (الشراكة الجماعية) تحديداً بالنسبة لسورية، وما إذا كانت شراكتها مستمرة بقوله: «إنني لا أعتبر سوريا شريكاً كاليابان في اطار الشراكة العالمية» وزاد: إن قضية الارهاب فائقة الأهمية بالنسبة لنا، كانت هناك (مساهمة سورية) في الخليج الفارسي، إنما كانت لمصلحة سورية في اطاحة صدام حسين رحبنا بتلك المساهمة، انما عليهم (السوريون) أن يصبحوا جديين في موضوع الارهاب وتصديره [1].

وإنجاز آخر: هجرة اليهود السوريين:

وقبضت إسرائيل الثمن خطوة خطوة كدليل على حسن نية سورية في المفاوضات. فقد جاء الترحيب **أولاً من شامير**، حيث أعرب رئيس الوزراء الإسرائيلي عن تفاؤله بإمكان رحيل ٤٥٠٠ يهودي من سورية قريباً. وقال شامير في كلمة ألقاها في القدس المحتلة خلال احتفالات نهاية الفصح اليهودي: آمل وأعتقد أن يكون الإفراج عن يهود سورية شاملا. لقد جرت تحضيرات في هذا الخصوص، لا أعرف كيف سينظم خروجهم، لكن أمل أن يتمكنوا من المغادرة بحرية.

وقالت الصحف الإسرائيلية: إن تصريح شامير يأتي إثر نبأ بثه التلفزيون

---

(١) الحياة، الاربعاء ٢٧ شوال ١٤١٢ الموافق لـ ٢٩ نيسان ١٩٩٢، العدد ١٠٦٧٣.

السوري ونقل فيه عن مسؤول في الطائفة اليهودية الأمريكية قوله: إن في إمكان يهود سورية الإفادة من برنامج جمع شمل العائلات المشتتة، يسمح لهم بالانضمام إلى أقاربهم في الولايات المتحدة.

واعتبر سميحا دينز رئيس الوكالة اليهودية في تصريح للإذاعة: إننا نجني في ما يبدو ثمار حملة ضغوط بدأت منذ سنوات لدى الرأي العالمي. وأكد رئيس منظمة يهود سورية في إسرائيل موشي ساسون من جهته: «ليس هناك دخان بلا نار، إنها المرة الأولى منذ ٢٣ عاماً التي يجتمع فيها الرئيس حافظ الأسد قبل أسبوعين في دمشق مع إبراهيم حمرا حاخام الطائفة اليهودية السورية». وأضاف ساسون: أكثر من ذلك أطلق سراح آخر يهوديين مسجونين في دمشق هما إيلي وسليم سويد الأسبوع الماضي بعد سجن استمر أربع سنوات ونصف السنة [١].

ورابين سعيد جداً: لكن زعيم حزب العمل الإسرائيلي إسحاق رابين أبدى حذراً كبيراً، وقال في احتفال أقيم في القدس: يجب استقبال الأنباء حول احتمال رحيل اليهود من سورية بكثير من اليقظة، وإذا ما اتضح أنها صحيحة فسنكون سعداء جداً. واعتبر رئيس المجموعة المهتمة بشؤون الطائفة اليهودية السورية في البرلمان شيمون شطريت في تصريحات نشرتها الصحف: أن سلطات دمشق بإفساحها المجال أمام جمع شمل العائلات المشتتة تتجه نحو تغيير جذري كفيل بأن يؤدي إلى هجرة اليهود من سورية» [٢].

وبيكر سعيد جداً كذلك: ورحّب الوزير الأمريكي بقرار سورية رفع القيود عن سفر اليهود السوريين ووصفه بأنه أمر إيجابي، ونأمل أن ينفذ، ولاحظ بيكر

---

(١) في الوقت الذي لا زالت السجون السورية تعج بعشرات الآلاف من الإخوان المسلمين السوريين وغيرهم منذ عقدين أو تزيد.

(٢) الحياة، ٢٥ شوال ١٤١٢ الموافق لـ ٢٧ نيسان ١٩٩٢، العدد ١٠٦٧١.

أن قرار السماح بسفر اليهود السوريين لا يعني السماح لهم بالهجرة»[١].

فاروق الشرع يؤكد: قال وزير الخارجية فاروق الشرع: إن منح اليهود السوريين حق السفر لا يعني تقرير مبدأ الهجرة، وفي تصريحات أدلى بها على هامش اجتماعات مجلس الجامعة العربية في القاهرة أكد الشرع أن الرئيس حافظ الأسد اجتمع أخيراً مع أعضاء رابطة اليهود السوريين، وكان من نتائج هذا الاجتماع السماح لهؤلاء بالسفر إلى أي مكان في العالم ما عدا إسرائيل، وحقهم في العودة إلى سورية كسائر المواطنين السوريين [٢].

والحاخام .. أصدق الجميع: ونفى الحاخام إبراهيم حمرا رئيس الطائفة اليهودية في سورية أن يكون أي من أفراد الطائفة يفكر بالهجرة إلى بلد آخر، وشدد على أن اليهود السوريين يتمتعون بكل حقوق المواطن السوري وواجباته، وقال حمرا في مؤتمر صحفي في دمشق بعد إعلان وزارة الخارجية الأمريكية أن سورية قررت السماح للعائلات اليهودية بالسفر بحرية تامة إضافة إلى حرية التعامل التجاري، وتبادل الأملاك: «إن ابناء الطائفة اليهودية الموسوية يتمتعون بكامل الحقوق التي يتمتع بها المواطن السوري من سفر وبيع وشراء للعقارات والسفر إلى الخارج وحرية العبادة وممارسة كل الطقوس الدينية». وأشار الحمرا إلى وجود ٢٦ كنيساً في سورية جميعها مفتوحة للعبادة بحرية كاملة، كما أن حرية التعليم والثقافة متوافرة لدينا، ويتعلم أبناء طائفتنا في المدارس والجامعات السورية، ولدينا طبيب لكل ٧٥ مواطنا. وعما يتحدث عنه الإعلام الغربي عن هجرة جماعية لليهود السوريين قال حمرا: إننا نرفض هذا الاصطلاح جملة

---

(١) وهذه طرفة أمريكية سورية، إذا خرج اليهودي من سورية فما الذي يمنعه من الالتحاق بإسرائيل؟
(٢) أما المكلفون بالجاسوسية فقد لا يدخلون إسرائيل ويذهبون ويعودون إلى سورية.

وتفصيلا. ومسألة الهجرة لا تعنينا، وما يعنينا هو السفر، شأننا شأن أي مواطن سوري لا يتخلى عن وطنه.

<u>**وشهادة تقدير للأسد (الأب)**</u>: وقال: منذ تسلم الرئيس حافظ الأسد سدة الحكم سمح لنا بالسفر مثل باقي المواطنين، وعن إطلاق سراح الأخوين سويد اللذين كانا مسجونين بتهمة محاولة الهروب إلى إسرائيل عام ١٩٨٨ قال الحاخام الحمرا: لقد تكرم الرئيس الأسد اثناء لقائنا معه بداية الشهر الجاري وأصدر توجيهاته بهذا الخصوص، ونفى أن يكون في السجن أي من أبناء الطائفة ما عدا مواطن واحد متهم بمخالفة قانون الأمن الاقتصادي» [(١)].

لقد كانت هذه المكافأة متزامنة تماماً مع تصريحات نائب الرئيس الأمريكي، وكان إعلان بادرة حسن نوايا صادقة تجاه اليهود وإسرائيل طربت له أمريكا وقيادات اليهود في العالم.

الأسد وميزان القوى مع إسرائيل:

لقد دخلت سورية عملية السلام في عهد حافظ أسد، وهو نفسه الذي كان قائد سورية في عهد شعار «الصمود والتصدي» و«التوازن الإستراتيجي»، وفي تلك المراحل كان أسد يقمع الشعب ويذبح الأمة ويبتلع الثروات من أجل تحقيق هذا التوازن. ومع ذلك لم يدخل مع إسرائيل معركة رابحة واحدة، ولم يقدم للأمة سوى سلسلة من الهزائم، ادعى بعدها أنه سيكون بطل السلام كما كان بطل الصمود.

والأسد يعرف حجم القوة الإسرائيلية في عهدي «التوازن الإستراتيجي»

---

(١) الحياة، الاربعاء ٢٧ شوال ١٤١٢ الموافق لـ ٢٩ نيسان ١٩٩٢، العدد ١٠٦٧٣.

و«السلام»، فهو يقول في خطابه أمام مجلس الشعب في ١٢ آذار/ مارس: «يجب أن نناقش مسألة إغلاق المصانع الإسرائيلية التي تنتج القنبلة الذرية وكل أنواع السلاح كي تحقق عملية الحد من التسلح أية نتائج إيجابية. وإلا فان الحد من التسلح يعني تجريد العرب من السلاح، والسماح للإسرائيليين بتصنيعه»[١].

إنه يعرف ذلك، ويمضي ممعناً في مخطط عملية السلام كي تخرج إسرائيل بالتصريحات التالية عن القوة في الشرق الأوسط، فقد صرح نائب رئيس الأركان الإسرائيلي الجنرال أمنون شاهاك في حديث للإذاعة الإسرائيلية أن التهديد النووي غير موجود حالياً في الشرق الأوسط، وقال: ليس هناك حالياً تهديد نووي في منطقتنا، وما يجب عمله هو ليس مكافحة هذا التهديد بل الحؤول دون بروزه. من دون أن يعطي ايضاحات اخرى. واعتبر الجنرال شاهاك من ناحية ثانية أن سورية لا يمكنها أن تشكل بمفردها تهديداً لوجود دولة إسرائيل.

وأضاف أنه حتى خلال المرحلة التي كان الاتحاد السوفيتي يساعد سورية عسكرياً عبر آلاف المستشارين العسكريين وتزويدها بالأسلحة مجاناً، فإن سورية لم تصل إلى التوازن الإستراتيجي مع إسرائيل، وأشار إلى أن طهران ودمشق تساعدان بالتعاون معاً منظمات إرهابية مثل حزب الله الذي يعمل على الأراضي اللبنانية بإذن من القوات السورية لكنه رأى أن هذا التنسيق بين إيران وسورية محدود ولا يشكل تحالفاً حقيقياً.

وكان الجنرال شاهاك صرح في مقابلة نشرتها صحيفة (معاريف) في السابع عشر من نيسان/ أبريل ١٩٩٢ أن على الدولة العبرية أن تفعل كل ما في وسعها للحؤول دون تملك الدول العربية أسلحة نووية، وتجدر الاشارة إلى أن إسرائيل

---

(١) الحياة، ١٣ ايار/ مايو، ٢ ذو القعدة ١٤١٢ العدد ١٠٦٨٧.

لا تزال تنفي أنها تملك سلاحاً نووياً، وتكتفي الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة باستخدام صيغة لم تتغير منذ سنوات وهي «أن إسرائيل لن تكون الدولة التي تدخل السلاح النووي في الشرق الأوسط» لكن خبراء عسكريين غربيين ووسائل الإعلام الأجنبية تتفق على أن إسرائيل تملك ترسانة نووية تضم ما بين ١٠٠ - ٣٠٠ رأس نووي إضافة إلى صواريخ متوسطة المدى يمكن تزويدها برؤوس نووية.

وكانت أسبوعية (صنداي تايمز) البريطانية نشرت في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٦ افادة مردخاي فعنونو التقني الإسرائيلي السابق في مركز ديمونا النووي في صحراء النقب جنوب الذي أبرز صوراً للمنشآت كدليل، وأفاد أن إسرائيل أنتجت عشرات القنابل النووية.

وحكمت محكمة إسرائيلية على فعنونو عام ١٩٨٨ بالسجن ١٨ سنة بتهمةالتجسس والخيانةالعظمى [(١)].

<u>**وفي الجنوب تنسيق ضمني مع إسرائيل**</u>: وحين يصرح نائب رئيس الأركان الإسرائيلي عن حجم سوريا العسكري، يصرح قائد سلاح الجو الإسرائيلي عن التنسيق الضمني بين سورية وإسرائيل قائلاً: إن هناك اتفاقاً ضمنياً مع دمشق لترك الطيران الإسرائيلي يعمل في لبنان دون عوائق.

وتابع الجنرال هرتزل بوينجز في مؤتمر صحفي عقده قرب تل أبيب:

هذا الاتفاق لم ينتهك أبداً، وأضاف: إن الطيران الإسرائيلي يعمل كل ما في وسعه لتجنب المواجهة مع القوات السورية، ومن جهة اخرى أكد قائد سلاح الجو الإسرائيلي أن الهجمات الإسرائيلية في لبنان وخاصة على أهداف حزب

---

(١) الحياة، ٢ ذو القعدة ١٤١٢هـ الموافق لـ ٣ آيار ١٩٩٢، العدد ١٠٦٧٧.

الله الموالي لايران تؤتي ثمارها»[1].

وتنفيذ دقيق لتعليمات واشنطن: «توقعت دوائر دبلوماسية غربية أمام مجموعة من الخطوات التي قامت بها سورية في عام ١٩٩٢وصفتها بأنها «إيجابية» ويمكن أن تسهم في تحقيق مزيد من الانفراج في ملف العلاقات الأمريكية السورية، في وقت يتم التركيز فيه الآن على استحقاقين مطروحين بإلحاح على الساحة اللبنانية، الأول يتعلق باجراء انتخابات نيابية، والثاني يتناول إعادة تركز القوات السورية في أيلول/ سبتمبر المقبل.

وتعدد المصادر نفسها الخطوات الإيجابية التي قامت بها دمشق على النحو التالي:

-الاتفاق الأمني الذي أبرم بين دمشق وأنقرة، ويعني بالدرجة الأولى أن المعسكر التابع لحزب العمال الكردستاني في بلدة «حلوة» البقاعية في طريقه إلى الإقفال.

-السماح لليهود السوريين بالسفر إلى أي بلد في العالم ما عدا إسرائيل وحقهم في العودة إلى دمشق كسائر المواطنين السوريين.

-إصدار عفو عام عن مئات من المعتقلين السياسيين، وقد بوشر بالإفراج عنهم.

-إعادة انتشار القوات السورية في محيط مطار بيروت الدولي إلى أماكن تجميعها في ضواحي بيروت، واقتصار الوجود السوري علعناصر أمن معدودين يعملون إلى جانب عناصر أمن لبنانيين في مكتب تنسيق مشترك.

-الانفتاح الذي باشرته سورية على الصعيد الاقتصادي، وترجم منذ مدة وجيزة خطوات عملية مدروسة.

---

(١) الحياة، ١٤ ذو الحجة ١٤١٢ الموافق لـ ١٥ حزيران ١٩٩٢، العدد ١٠٧١٩.

-الدعم الميداني الذي قدمته القوات السورية في البقاع إلى الأجهزة الأمنية اللبنانية التي تولت إتلاف المحاصيل الزراعية التي تنتج منها المخدرات على أنواعها، حتى وجهت إنذارات إلى الذين يتخلفون عن إتلاف محاصيلهم، ناهيك عن التعاون القائم مع المكتب الدولي لمكافحة المخدرات فيما يتعلق بوضع اليد على المصانع المنتشرة في البقاع التي تتولى تصنيع المواد المخدرة.

وترى الدوائر الدبلوماسية الغربية أن هذه الخطوات التي قامت بها دمشق سواء في الداخل أو في أماكن انتشارها في معظم الأراضي اللبنانية تشير إلى الحوار المفتوح الدائر بينها وبين الولايات المتحدة التي بادرت أخيراً إلى تبرئة سورية من تفجير الطائرة الأمريكية فوق لوكربي، على خلاف ما تتناقله بعض وسائل الإعلام الأمريكية من اتهامات»[1].

وفي مقابل هذا التعاون الأمريكي السوري ماذا قدمت واشنطن لإسرائيل؟ سنطالع ذلك في هذا المقال من جريدة الحياة: «لقد أعلن رجال بوش سجل الأعمال العظيمة التي أنجزها الرئيس بوش لإسرائيل مقارناً بسجلات الرؤساء السابقين المشهود لهم إسرائيلياً بأنهم أعظم رؤساء أمريكا. ويتضمن السجل دستة انجازات تحققت لإسرائيل خلال مدة ولاية واحدة، والتي فاقت كثيراً إنجازاته لأمريكا نفسها. وتحدى أحد هؤلاء المعلقين إسرائيل وأصدقاءها أن يقدموا سجلاً لأي رئيس أمريكي سابق يماثل أو يقترب من عظمة سجل بوش في خدمة إسرائيل، ويعدون هذه الإنجازات على النحو التالي:

١-بوش هو الذي قطع الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية، وهو الحوار الذي لم تكن إسرائيل راضية عنه وطالبت بقطعه.

---

(١) الحياة، ٢٨ شوال ١٤١٢ هـ الموافق لـ ٣٠ نيسان ١٩٩٢م العدد ١٠٧٦٤.

٢-بوش وسع رقعة عمليات السلام في الشرق الاوسط، فبعدما كانت بين طرفين هي الآن تجري بين أحد عشر طرفاً عربياً وإسرائيلياً، وهو هدف إسرائيلي معلن منذ نشأتها، ولم يحققه لها رئيس أمريكي آخر.

٣-بيكر أقنع العرب بعملية التسوية حسب الشروط الإسرائيلية ورفض الشروط العربية.

٤-لم تتضمن شروط المرجعية التي وضعتها إدارة بوش لعملية السلام أي اشارة إلى وضع القدس أو ربط الأزمة بها.

٥-فرض بيكر على الفلسطينيين المشاركة ضمن وفد أردني ورفض جميع المحاولات الفسلطينية للتفاوض كوفد مستقل.

٦-استبعد بيكر عضوية من الوفد الفلسطيني فلسطينيي الشتات وسكان القدس، وقصر العضوية على أبناء الضفة وغزة.

٧-حرمت الولايات المتحدة الأوربيين أو الأمم المتحدة من لعب أي دور حقيقي في عملية السلام، وهو الدور الذي طالما اعتمدت عليه وسعت إليه الدول العربية، وبخاصة الجانب الفلسطيني.

٨-التزمت إدارة بوش أن لا تضغط على إسرائيل ولا تتدخل في عملية السلام إلا إذا دعاها الطرفان معاً.

٩-قبل أن تتقدم بمشروع عملية السلام قضت إدارة بوش على آخر خطر ادعت إسرائيل تهديده لأمنها وهو الخطر العراقي.

١٠-حددت إدارة بوش وضبطت عمليات بيع السلاح للعرب قبل عمليات التسوية وخلالها معززة لإسرائيل تفوقها المطلق.

١١-بذلت إدارة بوش جهوداً عظيمة أدت إلى إلغاء الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار مساواة العنصرية بالصهيونية، وهو الإنجاز الذي عجز وفشل في

تحقيقه رؤساء أمريكيون سابقون.

١٢-حققت إدارة بوش هجرة أمل يهود أثيوبيا، ومبدأ هجرة يهود سورية، ومنعت يهود الاتحاد السوفيتي من الهجرة إلى دولة أخرى غير إسرائيل.

ومع ذلك .. فإسرائيل غير راضية: هذه (الدستة) من الإنجازات التي أنجزها بوش لدولة إسرائيل قد تكون في رأي البعض أهم وأكثر إنجازاته التي حققها للشعب الأمريكي خلال سنوات ولايته الأربعة، لكنها في رأي إسرائيل لاتساوي شيئاً. والسبب فيما يبدو أن الإسرائيليين رغم ما يعرف عنهم من ذكاء يواجهون معضلة عجزوا عن حلها أو حتى فهمها وهي:

إذا كان صحيحاً أن هذه الإنجازات لمصلحة إسرائيل فكيف يمكن أن يشيد العرب بها ويطمئنوا لها ويعتبروها لمصلحتهم؟

هي فعلاً معضلة تستعصي على الفهم» [1].

لقد اجتمع آخر مؤتمر للقمة العربية قبل أزمة الخليج في بغداد، وكان السبب الرئيسي لاجتماعه معالجة هجرة اليهود السوفييت والتصدي بقوة لها، والرد على بناء المستوطنات اليهودية في الأراضي العربية، والتصدي للتهديدات اليهودية والأمريكية بضرب القوة العراقية العملاقة.

ثم ماذا كان بعد ذلك؟

تحطمت القوة العراقية، وتتابعت هجرة اليهود السوفيت التي اقتربت من النصف مليون، وتتابعت المستوطنات، وفوق هذا كله .. دخلت سورية عملية السلام، والأردن عملية السلام، والفلسطينيون عملية السلام، ودشنت مستوطنة إسرائيلية في الأرض العربية يوم افتتاح مؤتمر مدريد.

---

(١) من مقال لجميل مطر في الحياة، ١٩٩٢/٦/٢٥.

وفي اليوم الثاني لافتتاح المؤتمر الجمعة ألقى شامير كلمته وغادر القاعة ليؤدي صلاته في إسرائيل، وليعطل في سبت اليهود، مخلفاً وراء ظهره كل الوفود المجتمعة، بينما أثبتت الوفود العربية تقدميتها وعراقتها الحضارية، فلم تغادر القاعة لصلاة الجمعة بعد مغادرة شامير بساعتين أو ثلاث، بل فاخرت بذلك.

ومع هذا فسورية دولة الصمود . وهي تنفذ المخطط الأمريكي المطلوب منها، ومع هذا كله فهي دولة الصمود!!!

وفي مرحلة لاحقة عام ١٩٩٨، في عهد ولاية الرئيس الأمريكي كلينتون، ورئيس الوزراء الصهيوني نتنياهو أعلن حافظ الأسد أنه هو الذي أنجح مؤتمر مدريد، أو هكذا كان يدعي، وذلك فيما نقلته جريدة تشرين الرسمية بتاريخ ١٩٩٨/٧/٦، حيث جاء فيها:

«أدلى الرئيس حافظ الأسد بحديث تلفزيوني إلى ممثلي القناة الأولى للتلفزيون الفرنسي السيد باتريك بوافر دارفور مساعد المدير ومقدم البرامج السياسية، والسيدة ناهد نكد كبيرة المندوبين، وفيما يلي الأسئلة والأجوبة:

(نتنياهو هو العقبة)

...السؤال الرابع: وقعت إسرائيل اتفاقيات سلام مع مصر والفلسطينيين والأردن. العراق لم يعد يشكل خطراً عليها، تبقى سورية. في ظل أية شروط يمكن للمفاوضات أن تستأنف مع سورية؟ هل زعيمها الحالي بنيامين نتنياهو هو العقبة الوحيدة؟

السيد الرئيس: العقبة هي عدم اعتراف نتنياهو بما تحقق مع حزب العمل، وعدم اعترافه بالقواعد التي وضعت لعملية السلام. إنه لا يعترف بمبدأ الأرض مقابل السلام، ولا يعترف بقرارات الأمم المتحدة، هذه هي المشكلة، إنه يريد أن ياخذ الأرض ويتوسع فيها، وقد غيّر بنفسه ولنفسه منفرداً كل القواعد التي

وضعت لعملية السلام...

(سورية أنجحت مؤتمر مدريد)

...نحن كان نصيبنا في عقد مؤتمر مدريد ودفع عملية السلام إلى الأمام أكبر من نصيب الأطراف الأخرى، وقد سمعت مؤخراً كلاماً بهذا المعنى على لسان جيمس بيكر الذي كان وزير خارجية الولايات المتحدة عند بدء عملية السلام، وكان لنا معه نقاشات طويلة، لقد قال ما معناه أن سورية هي التي أنجحت مؤتمر مدريد، ولولاها لما كانت مدريد في خريطة السلام.

وقد كانت حكومة الليكود في الأصل ضد مؤتمر مدريد، وحاولت عرقلة عملية السلام حتى قبل أن يتحدد مكان عقد مؤتمر السلام في مدريد، في ذلك الحين كان شامير على رأس حكومة الليكود، ووجه إلى الأمريكيين رسالة فحواها أنه يرفض المبادرة الأمريكية، ولكن عندما قبلت سورية هذه المبادرة أُحرج شامير، ولم يجد مفراً من حضور مؤتمر مدريد لئلا تفقد إسرائيل مصداقيتها أمام العالم، لأنها قد دأبت على القو إن الإسرائيليين يريدون السلام والهدوء والاستقرار بينما العرب يريدون الحرب ويرفضون السلام».

وقد شهد عهد الرئيس كلنتون دخول سورية في المفاوضات المباشرة مع الكيان الصهيوني يوم أن كان يهوذا باراك رئيساً للوزراء، وقبل أن نعلق على الورقة السورية التي قدمت في هذه المفاوضات سننقل من مقال في جريدة الحياة الخطوط العريضة لسياسة إدارة كلنتون في الشرق الأوسط، جاء في هذا المقال:

«عندما وصل جورج بوش إلى البيت الأبيض عام ١٩٨٨ انتقل معه إلى الإدارة فريق كامل كان سبق له أن أعد تقريراً حول السياسة الأمريكية الواجب تنفيذها في الشرق الأوسط. لم يطبق هؤلاء حرفية ما ورد في التقرير المشار إليه ــ البناء من أجل السلام، إنما حاولوا الاقتراب منه قدر الإمكان.

اليوم ومع وصول بل كلينتون إلى الرئاسة يصل معه فريق جديد يملك هو الأخر وجهة نظره المصاغة في كتيب موضوع في إطار «مؤسسة واشنطن لسياسة الشرق الأدنى» وهي المعروفة بقربها الشديد من اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة، وإذا كان وزير الدفاع ليس إيسين، ومدير التخطيط في الخارجية صموئيل لويس، والمندوبة إلى مجلس الأمن مادلين أولبرايت أعضاء في هذه المؤسسة، فإن مارتين إنديك هو في آن معاً مديرها السابق، والمسؤول في مجلس الأمن القومي عن ملف الشرق الأوسط، لذا يبدو مهماً الاطلاع على فحوى ما ورد تحت عنوان «متابعة السلام: نحو استراتيجية أمريكية في عملية السلام العربية الإسرائيلية»:

١. التقدم نحو السلام ممكن لأن العرب ككل مهزومون، الانتصار الأمريكي ضد الاتحاد السوفييتي وضد العراق وفّر قدراً من الهيمنة يفتح نافذة مؤقتة يجب استغلالها.
٢. الاستقرار في المنطقة ضروري للولايات المتحدة لأمن إسرائيل.
٣. شهدت المرحلة الأولى من عملية السلام إنجازات مؤكدة، غير أن سلبيات شابتها، وثمة عناصر قد تتدخل لعرقلتها، يحتكر العرب كل ما يعرقل المسيرة حتى الآن، وكل ما هو قابل لعرقلتها لاحقاً، بقاء صدام حسين في السلطة، التسلح السوري، العنف في الأراضي المحتلة، الرغبة الفلسطينية في تغيير صيغة مدريد، نشاطات حزب اللّٰه.
٤. لا يجوز معاملة لبنان في المفاوضات بصيغة بلد قائماً بحد ذاته، إنه مجرد ساحة لاختبار حسن النوايا ولبناء الثقة بين سورية وإسرائيل.
٥. يجب إرغام سورية على التفاوض مع إسرائيل لا مع أمريكا، إلى ذلك يجب الإيحاء لها بأنها لا تملك خيار الحرب، وأن البديل الوحيد من السلام هو

العزلة والإحباط، وبما أن سورية الحالية عاجزة عن تقديم السلام إلى إسرائيل، فإن من الأفضل البحث عن حل مرحلي لا يتضمن انسحاباً شاملاً من الجولان.

٦. وفلسطينياً يفترض الاستمرار في سياسة إبعاد منظمة التحرير وتشجيع الوفد على الاستقلال عنها من غير أن تلعب الولايات المتحدة دوراً للوفد المذكور، إلى ذلك لا يمكن القبول بالمطالب الفلسطينية التي توفي بممارسة السيادة في المرحلة الانتقالية إذ أن هذه واجبة البقاء مع إسرائيل.

٧. تغيرت الاعتبارات الاستراتيجية في العالم والمنطقة، غير أن إسرائيل تبقى حاجة أمريكية بسبب العداء المستمر للغرباء في العالم العربي، وبما أن تل أبيب مطالبة بتقديم تنازلات قد تهدد أمنها، فإن الوسيلة الوحيدة لإقناعها بذلك هي تجديد علاقات الثقة بينها وبين واشنطن، ومن علامات ذلك اعتبار قضية الهجرة قضية إنسانية بحتة، وعدم ممارسة أي ضغط في هذا الموضوع كما أن من واجب الولايات المتحدة الاكتفاء بما فعلته على صعيد تعديل موازين القوى في المنطقة، والامتناع عن أي تدخل في مسار المفاوضات إذا كان هذا التدخل يرمي إلى الضغط على إسرائيل لاتخاذ مواقف معينة.

العنصر الحاسم الذي يحدد العلاقات الأمريكية – العربية هو الرغبة التي تبديها الأطراف العربية في السلام بناء على الشروط المشار إليها، واستعدادها لأخذ هموم إسرائيل الأمنية في الاعتبار، وتأميناً للمصالح الأمريكية يجب على الولايات المتحدة أن تبذل الجهد المطلوب من أجل منع قيام تحالف بين العراق وسورية وإيران»[١].

---

(١) جوزيف سماحة، الحياة ١٩٩٣/٢/٧ العدد ١٠٩٥٤.

الورقة السورية المأساة

ضمن ما نشر من وثائق المفاوضات التي جرت عام ٢٠٠٠ بين سورية وإسرائيل نُشرت الورقة التي تمثل الطموحات السورية[١]. ونفترض ابتداءً أن المفاوض السوري قد حقق آماله وطموحاته مئة بالمئة، وذلك في جو الانتصارات الكبرى بقبول إسرائيل العودة إلى حدود الرابع من حزيران، ومن هذا الافتراض نقف مع الورقة السورية لنشهد عمق المأساة التي ستنزل بأمتنا من خلالها، ونتناولها من خلال ثمان نقاط رئيسة متساوقة مع المواد الثمانية فيها.

« المادة (١): إقامة السلام وترسيم الحدود:

١. تنتهي حالة الحرب بين سورية وإسرائيل ويقوم السلام بينهما بعد دخول هذا الاتفاق حيز النفاذ، ويحافظ الطرفان على علاقات سلم عادية كما هي موضحة في المادة « ٤ » من هذا الاتفاق.

٢. الحدود الدولية المعترف بها والآمنة بين سورية وإسرائيل هي الحدود المبينة في المادة الثانية أدناه، خط الحدود الدائم الذي تم الاتفاق على ترسيمه بين الدولتين هو خط الرابع من حزيران ١٩٦٧، وتسحب إسرائيل جميع قواتها العسكرية ومدنييها خلف هذه الحدود ... »

لقد اعترفنا بدولة اسمها إسرائيل احتلت أرض فلسطين لتكون بديلاً عن الفلسطينيين المواطنين الأصليين فيها. وهذا يعني إلغاء فلسفة استمرت قرابة نصف قرن نتحدث عن إسرائيل (المزعومة)، وواجبنا أن نحافظ على حدود إسرائيل محافظة كاملة، ونرعاها من أن يمسها أحد، وهي صاحبة المشروع

---

(١) الورقة المعنونة: الصيغة السورية لاتفاق سلام مع إسرائيل. نشرت في جريدة الحياة، الأحد، ١٠ شوال ١٤٢٠، كانون الثاني ٢٠٠٠ م، العدد ١٣٤٥٩.

الصهيوني في المنطقة، وعلينا إلغاء المشروع العربي في مواجهته، لأن السلم الدائم المستمر لن يتحقق بغير ذلك. وما كنا عليه قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ هراء وكلام فارغ وعنتريات لا معنى لها. ومَن كنا نسميه الخائن الأكبر _الحبيب بورقيبة_ . لماذا ؟ لأنه طرح فكرة السلام مع إسرائيل والقبول بقرار التقسيم. كان هذا موقفنا في عام ١٩٦٥ وفي ٤ حزيران ١٩٦٧. ونحن اليوم نعترف بالهزيمة كاملة. ونشكر إسرائيل على تخليها طوعاً عن الأراضي السورية التي احتلتها في حرب حزيران. ولو أخذنا برأيه لأخذنا نصف فلسطين على الأقل. ولا مانع أن يطلق من الآن فصاعداً علينا (الخائنون الأكبرون).

«المادة (٢): الحدود الدولية:

أ. الحدود الدولية بين سورية وإسرائيل هي كما هو مبين في الخرائط والإحداثيات المحددة في الملحق، هذه الحدود هي الحدود الدولية المعترف بها، والآمنة والدائمة بين إسرائيل وسورية، وهي تحل محل أي حدود أو خط سابق رُسم بينهما.

ب. يلتزم كل طرف بحرمة هذه الحدود، وعدم انتهاك أراضي الطرف الآخر ومياهه الإقليمية وأجوائه ».

لقد غدت الحدود الآمنة الدائمة بين البلدين؛ إسرائيل وسورية، في وضع ممتاز يفوق الوضع الذي عليه بين الدول العربية الشقيقة. وهو تعهد بحرب ومنع كل فلسطيني تسوّل له نفسه أن يستعمل هذه الحدود لعمليات فدائية. فالحرمات لا تنتهك من أي طرف. ويعني بالمقابل أن كل فلسطيني لا يعترف بهذه الحدود يود تحرير أرضه عن طريق سورية هو إرهابي خارج عن النظام والقانون. إنه

إعلان لكل فلسطيني عربي: قف، هذه أرض إسرائيل، هذه أرض اليهود، ونحن حماة هذه الحدود، وحماة هذه الأرض. ولو انتهكْتَ هذه الحرمة لقتلت، هذه ليست فلسطين، هذه إسرائيل، الجار الصديق المسالم.

«المادة (٣): ...

ب. المبادئ: ١. الأمن هو حاجة مشروعة للطرفين ... إن هدف الترتيبات الأمنية هو ضمان المساواة في الأمن عموماً في إطار حالة السلام بين سورية وإسرائيل.

ج. المناطق المنزوعة السلاح والمناطق المحدودة القوات:

١. منطقة منزوعة السلاح على جانبي الحدود كما هو موضح في الملحق ( )، لا يسمح فيها بتواجد قوات عسكرية أو أنظمة أسلحة، أو قدرات عسكرية، أو بنية تحتية عسكرية من قبل أي طرف، وتتواجد فيها قوات شرطة مدنية.

٢. منطقة محدودة القوات والقدرات تلي المنطقة المنزوعة السلاح لدى الجانبين يُتفق على عمقها وحجم قواتها صنوف أسلحتها حسب الملحق.

د. ١. الإنذار المبكر: تتولى أطراف ثالثة، الولايات المتحدة، وفرنسا ... تشغيل محطات إنذار مبكر لمدة خمس سنوات.

٢. يُعهد بمهمة المراقبة الفضائية إلى الولايات المتحدة، التي تقوم بتنفيذ المراقبة وإيصال المعلومات لكلا الطرفين.

هـ آلية المراقبة والتفتيش والتحقق: من قبل عناصر من المراقبين الدوليين في المنطقتين المشار إليهما ...

و. ترتيبات أمنية أخرى: يدرك الطرفان أن الإرهاب الدولي بكل أشكاله يهدد

أمن كل الدول. ولذلك لهما مصلحة مشتركة في تعزيز الجهود الدولية، ويتعهد الطرفان بالامتناع عن تنظيم أي عمل تهديد بالعنف ضد الطرف الآخر، أو ضد مواطنيه أو ممتلكاته، ويتخذ كل طرف الإجراءات الضرورية لضمان عدم انطلاق مثل هذه الأعمال من أراضيه، مع تأكيد خاص على السيادة والحقوق الأساسية وحرية التعبير سياسياً وإعلامياً، وإيجاد حل عادل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين.

- يشرع الطرفان بعد دخول الاتفاق حيز التنفيذ ببدء مفاوضات تهدف إلى التوصل لجعل منطقة الشرق الأوسط منطقة خالية من كافة أسلحة الدمار الشامل النووية والكيماوية والبيولوجية».

ونقدم هذه الملاحظات السريعة حول هذه المادة الثالثة:

١. أصبح عندنا بهذا الاتفاق أرض سورية منقوصة السيادة، هي لنا نظرياً، لكنها ليست لنا عملياً ولا حق لنا في البقاء فيها. إلا لقوات شرطة مشتركة بين الطرفين. ولا ننسى أننا في ٤ حزيران كنا على قمة جبل الشيخ، واليهود تحت مرمى المدفعية السورية، بل مرمى القناصة السورية. أما اليوم فلا ندري حدود هذه الأرض التي لا سلطان لنا عليها، سوف ننسلخ من أرضنا، إضافة إلى عدم وجود أي سلاح فيها.

٢. أرض ثانية منقوصة السيادة كذلك، فيها أسلحة خفيفة متفق عليها تلي الأرض المنزوعة السلاح لا ندري مداها متروكة للاتفاق.

٣. وجود أجنبي في أرضنا مهمته تشغيل محطة الإنذار المبكر.

٤. قوات أجنبية في أرضنا متعددة الجنسيات تراقب الحدود، وتراقب الفضاء وتوصل المعلومات.

٥. تدخل في شؤوننا الداخلية نتعهد فيه أن لا نسمح بأي تنظيم في أرضنا يفكر

باستعمال العنف ضد إسرائيل. وأقصى ما يسمح به هو الكلام الشخصي. وبتعبير أوضح: لا وجود للمنظمات الفدائية الفلسطينية في أرضنا.

٦. وهذه المنظمات تندرج ضمن الإرهاب الدولي، إنها قبل اتفاق إعادة الجولان، قوات فدائية (عشر منظمات فدائية) مهمتها تحرير أرضها ولها الحق في الوجود في سورية، أما بعد إعادة الجولان فهي إرهاب دولي يمثل خطراً على الطرف المجاور يُمنع وجوده تنظيمياً أو فكراً منظماً.

٧. الحدود المسموح بها في الذكريات عن الأرض الفلسطينية حدود أصوات شخصية تُنَفِّثُ عن أشواقها بالكلمة والتعبير الحر لا يصل إلى حد إزعاج الطرف الآخر. ويحسن أن نشير إلى أن وزير المعارف اليهودي سمح بإدخال نصوص شعرية للشاعر محمود درويش رغم احتجاج الأحزاب الدينية على ذلك وإفتائها بقتله.

٨. لم يعد هناك شيء اسمه القضية الفلسطينية أو فلسطين المحتلة، إنما هناك لاجئون مرميون تحت كل سماء يمثلون أكثر من نصف الشعب الفلسطيني، لا بد من إيوائهم وتوطينهم في كل مكان إلا وطنهم وأرضهم (إيجاد حل عادل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين).

٩. لا بد أن نشير إلى أن هذه هي المرة الوحيدة التي ذكر فيها اسم (فلسطينيين) في بنود الاتفاق.

١٠. أما التهديد النووي الإسرائيلي (مئتا قنبلة نووية) فحله على طريقة أوسلو: (يشرع الطرفان بعد دخول الاتفاق حيز التنفيذ ببدء مفاوضات تهدف إلى التوصل لجعل منطقة الشرق الأوسط منطقة خالية...) فأمن الحدود تعهد مباشر. أما التهديد النووي الإسرائيلي فليس تخفيفه أو إزالته شرطاً وليس ركناً في الاتفاق.

«المادة (٤): علاقات السلم العادية:

أ. يطبق الطرفان فيما بينهما أحكام ميثاق الأمم المتحدة، ومبادئ القانون الدولي التي تحكم العلاقات بين الدول في زمن السلم، وعلى الأخص:

١. يقرّ الطرفان بسيادة كلٍ منهما وسلامته الإقليمية واستقلاله السياسي وحقه العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها.

٢. يقيم الطرفان علاقات حسن جوار بينهما، ويمتنعان عن استعمال القوة أو التهديد باستخدامها بشكل مباشر أو غير مباشر ضد بعضهما، ويعملان على تعزيز السلام والاستقرار والتنمية في منطقتهما ويسويان كل الخلافات بينهما بالطرق السلمية.

ب. يقيم الطرفان فيما بينهما علاقات دبلوماسية وقنصلية بما في ذلك سفراء مقيمون بعد انتهاء الانسحاب الإسرائيلي.

ج. يقر الطرفان بان علاقاتهما تقوم على المصلحة المتبادلة واحترام علاقات حسن الجوار لأجل هذا الغرض فإنهما:

١. يقيم الطرفان علاقات اقتصادية وتجارية بما يتفق مع مصالحهما، ويتخذان من التدابير ما يسهل حركة البضائع والأشخاص وفقاً للقوانين والأنظمة النافذة في كل من بلديهما.

٢. يتفق الطرفان على إقامة علاقات سياحية فيما بينهما، وينشطان السياحة من بلدان ثالثة. وفي هذا المجال فإنهما يلتزمان بمراعاة التقاليد والعادات السائدة لكل منهما.

د. يحق لمواطني كل طرف التقاضي أمام المحاكم في بلد الطرف الآخر».

ولنا كذلك العديد من الملاحظات على أخطر بنود الورقة السورية، المادة الرابعة.

١. فيما نعلمه أن البند [أ] من المادة (٤) هو الذي يلزم الطرف السوري الاعتراف بالدولة المجاورة وهو: (يطبق الطرفان فيما بينهما أحكام ميثاق الأمم المتحدة، ومبادئ القانون الدولي التي تحكم العلاقات بين الدول في زمن السلم وعلى الأخص: ١. يقرّ الطرفان بسيادة كلٍ منهما وسلامته الإقليمية واستقلاله السياسي وحقه العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها).

٢. أما البنود الأربعة الباقية فلا إلزام فيها لأي من الطرفين، إنما هو إقبال عن رغبته واختياره وحرصه على الانتقال من حالة الحرب لا إلى حالة الصلح فحسب، بل إلى حالة الأخوة والمصير المشترك.

٣. الدول العربية لم تتعهد فيما بينها بهذا التعهد وهو حل كل الخلافات الحدودية بالطرق السلمية إلا من خلال ميثاق الجامعة العربية لا مواثيق ثنائية بينهما. ولذلك وجدنا الحرب الحدودية لا تهدأ بينها في المغرب والمشرق (مصر، السودان، المغرب، الجزائر، السعودية، قطر، البحرين، العراق، الكويت، اليمن) وغيرها، والمطلوب أن ترتفع العلاقات الممتازة بين الدولتين إلى أعلى من أي اتفاق بين الدول العربية، وهو الإصرار على حل مشكلة الحدود بالطرق السلمية. إن الاعتراف الضمني بهذا شيء، والإصرار عليه تعاقداً وتعهداً شيءٌ آخر.

٤. والعلاقات الدبلوماسية؛ من الذي يفرض في الدنيا على دولة أن تقيم علاقات دبلوماسية مع دولة أخرى؟! هذه العلاقات متروكة للإمكانيات والمصالح المشتركة. وقد مرّ على سورية أكثر من نصف قرن على استقلالها وتوقيعها ميثاق الأمم المتحدة، ونصف دول العالم أو أقل أو أكثر لا تقيم معها علاقات دبلوماسية. وكثيراً ما تقطع هذه العلاقات مع من أقامها معها،

أو يكون التمثيل على مستوى القنصلية. إلى أي هاوية نمضي ؟ إلى إقامة أعلى مستوى من العلاقات ـعلى مستوى السفراءـ بين البلدين، وأن يرفرف العلم الإسرائيلي في سماء العاصمة دمشق كما رفرف في سماء عمان والقاهرة. لم لا تكون هذه في الورقة الإسرائيلية، وتُفرض فرضاً على المفاوض السوري، وتعذر سورية بذلك؟ أما أن تكون ابتداءً من المفاوض السوري، فهذا انحياز كامل للدول التي بقيت تهاجمها أكثر من عقدين على هذا الانحدار. ويكفي أن نقرأ ما قيل بحق السادات ومصر، لنعيده اليوم بحق المفاوض السوري.

٥. ولو فقدنا عقلنا وقبلنا العلاقات الدبلوماسية على أعلى مستوياتها، فمن الذي يفرض علينا إقامة العلاقات الاقتصادية والتجارية؟ هل نحن مكلفون أن نعيد نسخ الحياة لهذه الدولة المجاورة؟ أن نحتويها بكل ما نملك؟ ألا يكفي حالة إنهاء الحرب؟ ألا تكفي المصالحة؟ لماذا الأخوة والصداقة والحب والغرام بيننا وبينهم؟ علاقات دبلوماسية (على أعلى المستويات) اقتصادية، تجارية، ألا يدَعوننا في ذلنا الذي أرغمنا فيه على إيقاف الحرب؟ لا بد من أن نتعانق وتفيض دموع السعادة بيننا أن عدنا إخوة أشقاء.

٦. ثم العلاقات السياحية. فلا يكتفى بالعلاقات الرسمية بين الدولتين، بل لا بد من تعانق الشعبين كذلك، وتبادل الزيارات والتشجيع عليها، إنه نص في الاتفاق. ونشكر المفاوض السوري الهمام الذي لم ينس أن يقول: وفي هذا المجال فإنهما يلتزمان (بمراعاة التقاليد والعادات السائدة) لا مراعاة أوامر الله في ذلك؛ المصلحة المتبادلة فقط، ولا قيم ولا مبادئ إلا قيمة حسن الجوار مع الذي شرد شعبي وذبحه واحتل أرضي.

٧. ومن العلاقات السياحية إلى العلاقات القضائية، إنه تعايش وتطبيع كامل بين

الطرفين، وليخسأ العدا جميعاً، وحيث إن الحزب القائد هو حزب البعث العربي الاشتراكي كما ينص دستور الجمهورية العربية السورية، وهو الحزب القائد في المجتمع والدولة ويقود جبهة وطنية تقدمية تعمل على توحيد طاقات جماهير الشعب ووضعها في خدمة أهداف الأمة العربية، فعليه أن يكون هو الرائد في الحركة السياحية بين سورية وإسرائيل لتنفيذ بنود هذا الاتفاق.

« المادة (٥): المياه:

١. اتفق الطرفان بأن الحل لمسألة المياه يستند إلى مبادئ وقواعد القانون الدولي المضمنة في اتفاقية الأمم المتحدة لقانون استخدام المجاري المائية الدولية في الأغراض غير الملاحية، توضح تفاصيل تطبيق هذه المادة في ملحق خاص [ ].

٢. يشكل الطرفان لجنة فنية مشتركة توضح اختصاصاتها وعملها في الملحق []».

وحيث إنه ليس لدينا تفصيل عن شيء، وما هو (الكرم السوري) في هذا الصدد لـ (الشقيقة) إسرائيل فلن نضرب في التيه ونتحدث من الخيال، ولن نتهم المفاوض السوري بشيء.

« المادة (٦): الحقوق والواجبات:

١. لا تؤثر هذه الاتفاقية ويجب أن لا تُفسر بأنها تؤثر بأي طريقة على حقوق وواجبات الطرفين بموجب ميثاق الأمم المتحدة.

٢. يتعهد الطرفان أن ينفذا بنية حسنة التزاماتهما وفق هذا الاتفاق.

٣. يتخذ الطرفان الإجراءات الضرورية لسحب تحفظاتهما الخاصة بعدم تطبيق أحكام المعاهدات المتعددة بينهما.

٤. يتعهد الطرفان أن لا يدخلا بأي التزام يناقض هذا الاتفاق».

ونتساءل: ماذا تعني هذه المادة؟

١. فما الداعي إلى البند الأول، وكلا الطرفين ينطلق من أحكام ميثاق الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي التي تحكم العلاقات بين الدول في زمن السلم. كما نصت الفقرة (١) من المادة (٤) ؟

٢. لقد تجاوز الاتفاق الإجراءات الخارجية، ليدخل على عالم القلوب والنوايا، ويطالب بتنفيذ الاتفاق بنية حسنة.

٣. وأُقرُّ بالعجز. فلم أفهم معنى البند الثالث من المادة السادسة في سحب التحفظات بعدم تطبيق أحكام المعاهدات المتعدد بينهما. فهل هناك معاهدات سابقة سرية غير هذه المعاهدة. وفيها بعض التحفظات. وستسحب؟ لا أدري.

٤. لكن أخطر ما في هذه المادة هو الفقرة الرابعة الموضوعة على استحياء: يتعهد الطرفان أن لا يدخلا بأي التزام يناقض هذا الاتفاق. والمعنى بالالتزام هو مع الدول العربية المجاورة، فأي علاقة مع دولة عربية مجاورة من تنسيق أو وحدة أو اتحاد يجب أن يُلزَمَ بمبادئ هذا الاتفاق. وإلا فهذا الاتفاق السوري الإسرائيلي مقدم على أي اتفاق عربي عربي، أو عربي إسرائيلي يمكن أن يتعارض معه. الأولوية الأولى للعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والسياحية والقضائية والأمنية والسياسية لهذا الاتفاق، وكل شيء دونه.

«المادة (٧): حل النزاعات:

يتم حل النزاعات عن تفسير أو تطبيق هذا الاتفاق بالوسائل السلمية. وفي حال عدم التوصل إلى حل خلال فترة معقولة يتم حل النزاع عن طريق التحكيم أو محكمة العدل الدولية ».

ويا حسرتاه على نصف القرن الذي أمضيناه في الإعداد والتدريب والتسليح للمعركة الفاصلة بيننا وبين العدو الصهيوني، ويا حسرتاه على تجويع الشعوب العربية وإفقارها وتحويل ثمانين بالمئة من ميزانية دولها ـ وأخص بالذكر سورية ـ للمجهود الحربي لمواجهة العدو الصهيوني. إذا كان العدو يدخل أرضنا بلا حرب عام ٦٧ بعد إخلاء الجبهة السورية بيومين، ويخرج بلا حرب بعد احتلال دام ثلاثين عاماً أو تزيد، فلنكتف بخمسة آلاف جندي بيننا وبين إسرائيل ـ إذ لا خوف من العرب ـ بدل نصف مليون جندي طالما أن كل خلافاتنا بعد اليوم ستحل بالطرق السلمية بين الطرفين، وفي حالة العجز فعند محكمة العدل الدولية، أم أننا بحاجة للجيوش الجرارة للحفاظ على الأنظمة الجبارة ؟؟!!

«المادة (٨): الفقرة النهائية:

١. يوقع الطرفان على هذا الاتفاق بالتزامن مع توقيع لبنان وإسرائيل على اتفاق سلام بينهما.
٢. يتم التصديق على هذا الاتفاق في كل من البلدين وفق الإجراءات الدستورية لكل منهما، ويبدأ العمل بالاتفاق لدى تبادل وثائق التصديق، وسوف تحل محل كل الاتفاقات الثنائية بين الطرفين.
٣. الملاحق والنصوص المرتبطة بهذه الاتفاقية جزء لا يتجزأ منها.
٤. يودع الاتفاق لدى الأمين العام للأمم المتحدة من أجل تسجيله وفق أحكام المادة ٢-١ من ميثاق الأمم المتحدة.

وقع في هذا اليوم. الإنجليزية والعبرية والعربية، كل اللغات هي معتمدة، وفي حال الخلاف في أي تفسير فإن النص الإنجليزي هو المعتمد».

وتعليقنا على هذا البند الأخير:

على الرغم من شرعية المؤسسات الدستورية في دولة العدو الصهيوني

ـلاسيما البرلمانـ فإن العدو أضاف هدفاً جديداً لتحصين شرعية الاتفاقية التي سوف يوقعها مع سورية، وذلك بضرورة إجراء استفتاء شعبي على الانسحاب من الجولان.

أما في سورية، فحافظ الأسد أعلم الناس بحقيقة انتخابات مجلس الشعب والاستفتاءات ذات الـ ٩٩.٩٩٪، فهل هناك توقع باستفتاء حقيقي لشعبنا على أخطر قراراته المصيرية.

ويدعي النظام السوري أو من يحامي باسمه أن الميزان هو لصالح العدو الصهيوني، وهذا صحيح، لكن ما أوصل التفوق الصهيوني لهذه الدرجة هو سياسات هذا النظام التي مزقت المجتمع، وأضعفت تماسكه وقواه الداخلية، ثم ادعى هذا النظام أن سورية غير مؤهلة لحرب متكافئة مع العدو. فهو صانع الهزيمة أولاً وأخيراً.

ويرحم الله لاءات الخرطوم: لا مفاوضات، لا اعتراف، لا صلح. لتبدل بالنغمات المؤكدات: المفاوضات والاعتراف والصلح.

ها نحن اليوم. فكيف كنا قبل خمسة عشر يوماً من حرب حزيران؟:

«أدلى اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع السوري بتصريح لصحيفة (الثورة) السورية الرسمية قال فيه: إن الوقت قد حان لخوض معركة تحرير فلسطين، وإن القوات السورية المسلحة أصبحت جاهزة ومستعدة ليس فقط لرد العدوان الإسرائيلي، وإنما للمبادرة لعملية التحرير بالذات ونسف الوجود الصهيوني من الوطن العربي. إننا أخذنا بعين الاعتبار تدخل الأسطول الأمريكي السادس. إن معرفتي بإمكانياتنا تجعلني أؤكد أن أية عملية يقوم بها العدو هي مغامرة فاشلة، وهناك إجماع في الجيش السوري الذي طال استعداده ويده على الزناد على

المطالبة بالتعجيل بالمعركة. ونحن الآن في انتظار إشارة من القيادة السياسية»[1].

من حرب الشجعان إلى سلام الشجعان، فهل ندرك المأساة قبل فوات الأوان؟

(١) صحيفة الثورة السورية تاريخ ٢٠ أيار سنة ١٩٦٧.

حصاد السياسة الداخلية

أهداف البعث: الوحدة والحرية والاشتراكية

في مقدمة الدستور السوري عام ١٩٧٣ يتحدث عن المنطلقات الرئيسية التالية:

١. إن الثورة العربية الشاملة ضرورة قائمة ومستمرة لتحقيق أهداف الأمة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية...

هذه هي أهداف الأمة العربية كما رأوها، ولنَرَ ماذا تحقق منها:

أولاً: في الوحدة:

قال الدستور عن الوحدة:

إن جميع الإنجازات التي حققها أو يمكن أن يحققها أي قطر عربي في ظل واقع التجزئة تظل مقصرة عن بلوغ كامل أبعادها، ومعرضة للتشوه والانتكاس ما لم تعززها وتصونها الوحدة العربية. وكذلك فإن أي خطر يتعرض له أي قطر عربي من جانب الاستعمار والصهيونية هو في الوقت نفسه خطر يهدد الأمة العربية بأسرها.

لقد صدر دستور الجمهورية العربية السورية عام ١٩٧٣، وأُعطي حافظ أسد أكثر من ربع قرن ولم يحقق هو و لا حزبه ولا طائفته الوحدة العربية. لا نقول الوحدة العربية قاطبة، ولكن حتى بين قطرين متجاورين من الدول العربية. فقد بقي واقع التجزئة بعد ٢٧ سبعة وعشرين عاماً من حكم البعث والرئيس والطائفة.

وصدق القائل – وهو كذوب – (تظل معرضة للتشوه والانتكاس ما لم تعززها الوحدة العربية)، وفعلاً تشوهت وانتكست على يد البعث والرئيس والطائفة حين برزت الطائفية بوجهها المقيت الكالح تحكم سورية من وراء ستار.

لقد ابتدأت الطائفية باللجنة الخماسية عام ١٩٦٠ في القاهرة:

حافظ الأسد، عبدالكريم الجندي، صلاح جديد، أحمد المير، محمد عمران، ثلاثة نصيريين، واثنين من الطائفة الإسماعيلية، وانتهت بعد أربعين عاماً بالضبط، وبعد وفاة حافظ أسد عام ٢٠٠٠ بالقادة العسكريين والأمنيين في اللجنة المركزية للحزب.

وسنعرض بسرعة ثلاث قوائم عن أبرز الشخصيات التي كانت تقود البلد في المراحل الثلاثة من حكم الحزب.

قائمة ١- أهم العلويين الذين تولوا مناصب بارزة في المرحلة الأولى من الدولة العلوية في سورية ١٩٦٣ – ١٩٧٠:

	الاسم	المنصب
١	صلاح جديد	رئيس الأركان ثم الأمين العام المساعد لحزب البعث
٢	إبراهيم ماخوس	وزير الخارجية
٣	محمد عمران	آمر الفرقة ٧٠ المدرعة، ثم وزيراً للدفاع
٤	عثمان كنعان	عضو القيادة العليا للجنة العسكرية لحزب البعث
٥	سليمان حداد	عضو القيادة العليا للجنة العسكرية لحزب البعث
٦	حافظ أسد	قائد القوى الجوية، ثم وزير الدفاع
٧	علي مصطفى	قائد كتيبة في اللواء ٧٠ المدرع
٨	كاسر محمود	قائد كتيبة في اللواء ٧٠ المدرع
٩	عزت جديد	قائد كتيبة في اللواء ٧٠ المدرع
١٠	محمد إبراهيم العلي	قائد الحرس القومي
١١	محمد نبهان	أحد الضباط المشاركين في انقلاب ١٩٦٣

١٢	عادل نعيسة	أمين فرع اللاذقية

وكان هناك عدد من النصيريين المشاركين في التخطيط ورسم استراتيجية الطائفة في تلك المرحلة، وممن يمكن ذكرهم على سبيل المثال: علي حماد، شفيق عبدو، محمد الفاضل، وسهيل حسن، حيث كان لهم اجتماعات دورية في منزل صلاح جديد وحافظ أسد، شارك فيها من أبناء الطائفة: علي ضحية وأحمد سليمان أحمد.

قائمة ٢- أبرز العلويين في المرحلة الثانية من الدولة العلوية الذين تولوا مناصب داخل المؤسسة العسكرية وأجهزة الاستخبارات والحكومة السورية وحزب البعث في الفترة ١٩٧٠ – ٢٠٠٠.

	الاسم	المنصب
١	حافظ الأسد	رئيس الجمهورية، القائد الأعلى للقوات المسلحة، الأمين العام لحزب البعث
٢	رفعت الأسد	قائد سرايا الدفاع حتى عام ١٩٨٤، نائب الرئيس لشؤون الأمن القومي حتى عام ١٩٨٨
٣	جميل أسد	عضو مجلس الشعب ١٩٧٣، عضو المؤتمر القومي الثاني لمنظمة الحزب الحاكم ١٩٧٥، رئيس جمعية المرتضى (حلت عام ١٩٨٤)
٤	الرائد باسل حافظ الأسد	رئيس أمن الرئاسة، قائد لواء مدرع في الحرس الجمهوري
٥	اللواء علي دوبا	نائب رئيس هيئة الأركان، رئيس شعبة المخابرات العسكرية (أحيل على التقاعد)
٦	اللواء محمد توفيق	قائد الفرقة الأولى عام ١٩٧٥

	الجهني	
٧	اللواء شفيق فياض	قائد الفرقة الأولى عام ١٩٨٢، عضو اللجنة المركزية لحزب البعث
٨	اللواء علي ملاحفجي	قائد القوى الجوية والدفاع الجوي (أحيل على التقاعد عام ١٩٩٤)
٩	اللواء محمد الخولي	نائب قائد القوى الجوية، ورئيس مخابرات القوى الجوية. (أحيل على التقاعد)
١٠	اللواء محمد عيد	القائد العسكري للمنطقة الشمالية
١٢	اللواء اسكندر سلامة	قائد سلاح الهندسة
١٣	اللواء علي حيدر	قائد القوات الخاصة (أحيل على التقاعد)
١٤	اللواء علي حبيب	قائد القوات الخاصة منذ عام ١٩٩٤
١٥	اللواء حكمت إبراهيم	مدير إدارة شؤون الضباط
١٦	اللواء علي أصلان	نائب رئيس الأركان
١٧	اللواء علي حماد	رئيس شؤون الضباط
١٨	العميد عبد الحميد رزوق	قائد فيلق الصواريخ، قتل عام ١٩٧٧
١٩	العقيد فؤاد إسماعيل	قائد اللواء (٢١) الميكانيكي
٢٠	العقيد نديم عباس	قائد اللواء (٤٧) المدرع
٢١	الرائد علي حيدر	قائد حامية حماة (قتل عام ١٩٧٦)

٢٢	اللواء فؤاد عيسى	رئيس المخابرات المدنية (توفي فيما بعد)
٢٣	اللـــــواء محمـــــد ناصيف	نائب رئيس المخابرات المدنية (استقال عام ١٩٩٩) ثم تم التعاقد معه.
٢٤	العقيد يحيى زيدان	رئيس المخابرات العسكرية
٢٥	المقدم أحمد خليل	مدير الشرطة بوزارة الداخلية
٢٦	اللواء معن ناصيف	نائب مدير المخابرات العامة
٢٧	العميد غازي كنعان	رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية بلبنان
٢٨	أحمد اسكند أحمد	وزير الإعلام في حكومة الكسم
٢٩	محمد حيدر	نائب رئيس مجلس الوزراء للشؤون الاقتصادية في حكومة الكسم
٣٠	محمد سلمان	وزير الإعلام في حكومة الزعبي
٣١	علي حسن	عضو المؤتمر القطري السابع عام ١٩٨٠

قائمة ٣- التركيبة الجديدة للسلطة النصيرية في المرحلة الثالثة من الدولة العلوية في الحكومة والحزب والجيش

	الاسم	المنصب
١	الفريق بشار حافظ الأسد	رئيس الجمهورية، القائد العام للقوات المسلحة، الأمين العام لحزب البعث
٢	اللواء علي أصلان	رئيس هيئة الأركان، عضو اللجنة المركزية لحزب البعث
٣	اللـــــواء حســـــن تركماني	نائب رئيس هيئة الأركان، عضو اللجنة المركزية لحزب البعث

٤	اللـــــواء آصــــف شوكت	مسؤول في الاستخبارات العسكرية
٥	اللـــــواء عـــــدنان مخلوف	قائد الحرس الجمهوري
٦	اللـــــواء إبـــــراهيم الصافي	قائد الفرقة الثالثة، قائد القوات السورية المسلحة في لبنان منذ ١٩٩٤
٧	اللـــــواء بهجـــــت سليمان	رئيس قسم الأمن الداخلي في إدارة الأمن العام
٨	اللواء عدنان إبراهيم أسد	قائد سرايا الصراع
٩	اللواء حسن خليل	رئـيس الاسـتخبارات العسـكرية، عضـو اللجنـة المركزية للحزب
١٠	اللواء علي حوري	مدير إدارة المخابرات العامة، عضو اللجنة المركزية للحزب
١١	اللـــــواء عـــــدنان بدرحسن	رئيس شعبة الأمن السياسي، عضو اللجنة المركزية للحزب
١٢	اللـــــواء إبـــــراهيم حويجة	رئيس المخـابرات الجويـة، عضـو اللجنـة المركزيـة للحزب
١٣	الرائد ماهر الأسد	قائد فرقة في حرس القصر، عضو اللجنة المركزية للحزب
١٤	عدنان عمران	وزيـر الإعـلام فـي حكومـة الميـرو، عضـو اللجنـة المركزية.

ويتردد في بعض أجهزة الإعلام الغربية أن الجنرال آصف شوكت (زوج بشرى حافظ الأسد) يلعب دوراً رئيسياً في المفاوضات السورية الإسرائيلية، وقد يتسلم مناصب مهمة في الفترة القادمة. كما يبرز كل من شفيق فياض ومحمد إبراهيم العلي قائد الجيش الشعبي، ضمن التركيبة الجديدة المؤيدة لبشار الأسد.

ومن أبناء الجيل النصيري الجديد خارج نطاق المجموعة الحاكمة: فواز جميل الأسد، ومنذر جميل الأسد اللذين كان لهما نفوذ اقتصادي وأمني كبير في منطقة اللاذقية)، ومحمد إبراهيم الأسد الذي أصيب في عملية تهريب سيارات في لبنان عام ١٩٩٩. وكل من سومر رفعت الأسد الذي يدير إمبراطورية أبيه الإعلامية، ومُضر رفعت الأسد المتهم بتواطئه مع النظام السوري القائم ضد والده.

بقي علينا أن نعلم أن العسكريين في اللجنة المركزية لحزب البعث والذين تم انتخابهم بعد وفاة حافظ الأسد في المؤتمر القطري عددهم سبعة عشر من أهمهم قادة الفرق في الجيش، وقادة أجهزة الأمن. وهؤلاء أصحاب السلطة الحقيقية في سورية، هؤلاء السبعة عشر، ثلاثة منهم فقط سنيون، والبقية كلهم من النصيريين.

فالبلد لا يزال الحكم الطائفي هو الذي يقوده. منذ لجنة الخمسة التي ساهمت في الانقلاب العسكري، ثم استولت على الحكم من خلاله، انتهاء إلى اللجنة العسكرية [١] التي تابعت المحافظة على السلطة في قطعات الجيش

---

(١) تتكون اللجنة المركزية للحزب من تسعين عضواً، منهم عشرون عسكرياً هم الذين يملكون القوة الفعلية في البلد، وهم رؤساء أجهزة الأمن، ورؤساء الفرق والألوية في الجيش، وهؤلاء هم: علي أصلان، حسن تركماني، عبد الرحمن الصياد، فاروق إبراهيم عيسى، إبراهيم الصافي،شفيق فياض، أحمد عبد النبي، توفيق جلول، علي حبيب، عدنان بدر حسن، حسن =

وأجهزة الأمن بعد أربعين عاماً في سنة ٢٠٠٠.

فنحن لسنا أمام وحدة عربية، ولسنا أمام حكم لسورية الواحدة، إنما نحن أمام حكم لأقلية طائفية، وهذه هي أهداف الحزب التي أعلنها عن الوحدة العربية والوحدة الوطنية، لننظر إلى أين آلت؟

ثانياً: في الحرية:

يقول دستور الجمهورية العربية السورية عن الحرية في المقدمة:

٣. الحرية حق مقدس، والديمقراطية الشعبية هي الصيغة المثالية التي تكفل للمواطن ممارسة حريته التي تجعل منه إنساناً كريماً قادراً على العطاء والبناء قادراً على الدفاع عن الوطن الذي يعيش فيه، قادراً على التضحية في سبيل الأمة التي ينتمي إليها. وحرية الوطن لا يصونها إلا المواطنون الأحرار، ولا تكتمل حرية المواطن إلا بتحرره الاقتصادي والاجتماعي

أ- حرية الوطن

لقد بقيت سورية محافظة على استقلالها بعد خروج الفرنسيين منها عام ١٩٤٦. ولم نفقد جزءاً من وطننا الغالي إلا في ظل البعث عام ١٩٦٧ حيث فقد الجولان كله وسقط في يد اليهود نتيجة الخيانة أو الحمق الذي كان لدى قيادة الجيش السوري، هذا الجيش الذي سرح معظم ضباطه الأكفاء بعد ثورة الثامن من آذار بالآلاف تحت اسم الانفصاليين والناصريين والبعثيين القوميين .

=

خليل، محمود عمار، كمال محفوظ، إبراهيم حويجة، ماهر الأسد، مناف طلاس، عبد الله غليون، علي الحوري، ومصطفى طلاس، إضافة لبشار الأسد، والسنيون من هؤلاء هم: مناف طلاس وعبد الله غليون ومصطفى طلاس وعلي حوري، وقد كان يظن أن حسن التركماني سني لأنه من حلب، لكن ظهر بالتحقق أنه نصيري. وقد مرت قبل قليل وظائف معظم هؤلاء إضافة لعضوية اللجنة المركزية.

وكان وزير الدفاع فيه اللواء حافظ أسد، ابن الخامسة والثلاثين من عمره، والذي كان يمكن أن يكون برتبة رائد على رأس إحدى القطع العسكرية أو الأسراب الجوية لولا الترفيعات الاستثنائية التي نالها في ظل البعث خلال ثلاث سنوات.

ففي يوم السبت العاشر من حزيران سنة ١٩٦٧ أعلن وزير الدفاع السوري حافظ أسد الساعة ٩:٣٠ البلاغ العسكري رقم ٦٦، وهذا نصه:

«إن القوات الإسرائيلية استولت على القنيطرة بعد قتال عنيف دار منذ الصباح الباكر في منطقة القنيطرة ضمن ظروف غير متكافئة، وكان طيران العدو يغطي سماء المعركة بإمكانات لا تملكها غير دولة كبرى، وقد قذف العدو في المعركة بأعداد كبيرة من الدبابات، واستولى على مدينة القنيطرة على الرغم من صمود جنودنا البواسل. إن الجيش لا يزال يخوض معركة قاسية للدفاع عن كل شبر من أرض الوطن، كما أن وحدات لم تشترك في القتال بعد ستأخذ مواقعها في المعركة».

وعاد وزير الدفاع وكذب نفسه بنفسه في اليوم نفسه، وبعد أن تحقق الهدف وأخليت القنيطرة من المقاتلين حين أعلن أن القتال لا يزال يدور داخل المدينة بعد أن أعلن قبل ثماني ساعات أن القنيطرة قد استولى عليها العدو، ففي اليوم نفسه الساعة ٥:١٠ ظهراً أصدر وزير الدفاع الأسد البلاغ التالي:

إن قتالاً عنيفاً لا يزال يدور داخل مدينة القنيطرة وعلى مشارفها، وإن القوات السورية مازالت حتى الآن تقاتل داخل المدينة، وعلى مشارفها، جنباً إلى جنب مع قوات الجيش الشعبي بكل ضراوة وصمود، بحيث لم يتمكن العدو من السيطرة الكاملة على مدينة القنيطرة.

بقي علينا أن نذكر أن حافظ أسد قد توفي في العاشر من حزيران عام ٢٠٠٠،

في نفس اليوم الذي أعلن الهزيمة لشعبه باحتلال العدو، وهو وزير دفاع بلده، وذلك بعد ثلاثة وثلاثين عاماً، دون أن يتمكن من تحرير الأرض المحتلة. وعلينا أن نعلم أن سكان الجولان الذين كانوا يتجاوزون المائة ألف عام سبع وستين لم يبق منهم في الجولان سوى سبعة عشر ألفاً لا يزالون يقيمون في بعض قراه. وفشلت كل محاولات استرداد الأرض بالقوة، واستردادها بالمفاوضات، ومات الأسد الذي أدخل العدو إلى بلده، ولم يخرجه منه. وأورث ابنه الجولان المحتل المغتصب من أرضنا السورية، ولم يسمح بطلقة رصاص واحدة بعد اتفاق فصل القوات أن تطلق على العدو الإسرائيلي من الأرض السورية، بينما كان سيقاتل حتى آخر جندي لبناني وفلسطيني! من لبنان! لتحرير الأرض من هناك!

ب- في حرية المواطن

تكلمنا عن حرية الأرض، وتسليمها للعدو بدون قتال، فماذا عن حرية الإنسان؟!

وقائع انتهاكات حقوق الإنسان في سورية خلال عشرين عاماً ١٩٧٩ – ١٩٩٩:

من الرجوع إلى تقارير المنظمات الدولية لحقوق الإنسان، وإلى ما كتب ونشر خلال العشرين عاماً الماضية عن أوضاع حقوق الإنسان في سورية، نرى أن وقائع انتهاكات حقوق الإنسان في الحرية لم تتوقف، وسوف نلقي نظرة على أبرز هذه الوقائع عبر التسلسل الزمني لهذه الفترة:

١- في نيسان من عام ١٩٧٩ اعتقلت قوات الأمن في سورية (٦٠٠٠) ستة آلاف مواطن، وعرضت الحكومة السورية فلماً متلفزاً عن محاكمة خمسة عشر شخصاً أمام محكمة أمن الدولة، وتم الحكم بالإعدام على الجميع، ولم ينج

واحد منهم من كونه مذنباً، وأعدم الجميع بسرعة وقسوة في ١٩٧٩/٦/٢٧.

٢- في ٢٢ كانون الأول ١٩٧٩ عقد المؤتمر القطري السابع لحزب البعث العربي الاشتراكي، ودعا عضو القيادة القطرية رفعت أسد إلى حملة (تطهير وطني) كما أسماه، وإلى إقامة معسكرات عمل، وإعادة تثقيف في الصحراء لكل المعارضين وخاصة الإسلاميين.

٣- في شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٩ نشرت منظمة العفو الدولية تقريراً بعنوان: سورية عرض موجز يتضمن تفصيلاً لانتهاكات حقوق الإنسان في سورية، وأرفقته برسالة إلى حافظ أسد، واستمرت المنظمة منذ أن نشرت تقريرها عام ١٩٧٩ تتلقى أنباء الاعتقالات التعسفية، والحبس الانفرادي، وتعذيب المعتقلين، وإجراء المحاكمات غير العادلة التي كانت تنتهي في أغلب الأحيان إلى الإعدام.

٤- في ١٩٨٠/٣/٣١ أعلنت النقابات المهنية في سورية (المحامون والأطباء والمهندسون، والصيادلة، وأطباء الأسنان، والمهندسون الزراعيون) إضراباً عاماً ليوم واحد، احتجاجاً على انتهاكات حقوق الإنسان.

٥- في ١٠ آذار ١٩٨٠ أقدمت قوات الأمن على ارتكاب مجزرة في بلدة جسر الشغور، وقد تجاوز عدد القتلى (٢٠٠) شخص، ودمر (٢٠) منزلاً، وأحرق ثلاثة وخمسون حانوتاً.

٦- احتلال مدينة حلب من نيسان ١٩٨٠ إلى شباط ١٩٨١، وأصبحت حلب ساحة معركة بين السلطة والمتظاهرين يومياً، فقد وصلت إلى حلب قوات الفرقة الثالثة من الجيش السوري بقيادة العميد شفيق فياض، كما وصلت وحدات من القوات الخاصة وتعزيزات مغاوير من سرايا الدفاع حتى بلغ عدد هذه القوات (٣٠) ألف جندي متجحفل، ووقف شفيق فياض على برج دبابته في وسط

المدينة، وأعلن على السكان أنه (مستعد لقتل ألف شخص في كل يوم).

٧- في ١٩٨٠/٧/١٣ ارتكبت قوات الأمن مجزرة سوق الأحد بحلب.

٨- في ١٩٨٠/٨/١١ ارتكبت قوات الأمن مجزرة في حي هنانو بحلب.

٩- في ١٩٨٠/٦/٢٧ ارتكبت (قوات سرايا الدفاع) مجزرة في سجن تدمر الصحراوي، قتلت فيها أكثر من (٧٠٠) سبع مئة معتقل سياسي.

١٠- في ١٩٨٠/٧/٢٥ ارتكبت قوات الأمن مجزرة في بلدة سرمدا.

١١- في ١٩٨٠/٩/١٥ ارتكبت قوات الأمن مجزرة في مدينة الرقة.

١٢- في ١٩٨٠/٨/١٨ ارتكبت قوات الأمن في دمشق مجزرة في ساحة العباسيين.

١٣- في ١٩٨٠/٣/١ أطلقت عناصر المخابرات النار على الطلبة المتظاهرين، وأصابت سبعة منهم في مدينة حماة.

١٤- في ١٩٨٠/٣/٧ قامت قوات الأمن بهدم عدد من البيوت وقتل عشرات المواطنين في مدينة حماة.

١٥- بتاريخ ١٩٨٠/٤/٧ أعلنت السلطة منع التجول في حماة، وقامت بتمشيط المدينة، وأعملوا فيها الحرق والنهب والتدمير، واعتقلوا (٢٠٠) مواطن، وقتلوا العشرات من أصحاب الكفاءات منهم: الأطباء: عبد القادر قندقجي، عمر الشيشكلي، أحمد قصاب باشي، والوجيه المناضل الوطني الطاعن في السن السيد خضر الشيشكلي.

وفي حي البستان قتل أكثر من (٢٠٠) مواطن رمياً بالرصاص.

١٦- تعرضت مدينة حماة بين ١٩٨٠/٥/٢١ ونهاية عام ١٩٨٠ إلى عشرين عملية قتل جماعية، وإلى اعتقال أكثر من ألف مواطن. ففي حي الصابونية وحده تعرض يوم ١٩٨٠/١٠/١٥ لاعتقال (٦٠٠) شخص.

١٧- بتاريخ ١٩٨١/١/١٧ حاصرت الوحدات الخاصة السوق التجارية في حماة ونهبتها على مرأى من أصحابها، وكانت الغنائم كبيرة من سوق الصاغة، حيث سبائك الذهب والحلي والمجوهرات التي سرقتها القوات الغازية.

١٨- في ١٩٨١/١/١٥ طوقت قوات الأمن حي الحميدية والبارودية وجمعوا الشباب والشيوخ والأطفال، وساقوهم إلى حديقة (أم الحسن)، ثم عمدوا إلى تعذيبهم ورميهم في النهر، وقاموا بإلقاء البعض منهم من فوق البنايات العالية.

١٩- بتاريخ ١٩٨١/٤/١٥ حاصرت قوات الأمن منطقة الصابونية للمرة الثانية، وهدمت أحد أبنيتها، واعتقلت عدداً كبيراً من السكان.

٢٠- في ٢ شباط – ٥ آذار ١٩٨٢ ارتكبت قوات من الجيش وسرايا الدفاع، والوحدات الخاصة، وعناصر الأجهزة الأمنية أكبر مجزرة في العصر الحديث، حيث دمرت نصف مدينة حماة، وقتلت أكثر من (٣٠) ألف مواطن.

٢١- الاغتيالات التي نفذتها عناصر من الأمن السوري خارج القطر:

أ- في لبنان:

- في ١٩٧٢/٣/١٤ تم اغتيال نائب رئيس وزراء سورية محمد عمران في مدينة طرابلس من قبل عناصر الأمن السورية، وبتوجيه من الأخوين أسد.

- في ١٩٧٧/٣/١٦ اغتالت قوات الأمن السورية الزعيم اللبناني كمال جنبلاط.

- وفي ١٩٨٠/٣/٤ اغتالت الصحفي اللبناني المشهور سليم اللوزي.

- وفي ١٩٨٠/٧/٢٨ اغتالت الزعيم اللبناني موسى شعيب، أحد قادة البعث المناوئ لسورية.

- وفي ١٩٨٠/٧/٣ اغتالت علي الزين، أحد قادة البعث المناوئ لسورية.

- في ١٩٨١/٩/٤ اغتالت القوات السورية في لبنان السفير الفرنسي لويس

دولامار.

- في ١٩٨٢/٩/٢٧ اغتالت القوات السورية في لبنان سعد صايل القائد الفلسطيني.

ب- في باريس:

- في ١٩٨٠/٧/٢١ اغتالت الأستاذ صلاح البيطار أحد مؤسسي حزب البعث السوري.

جـ - في عمان: في ١٩٨٠/٧/٢٨ اغتالت الأستاذ عبدالوهاب البكري.

د- في ألمانيا: في ١٩٨٠/٣/١٧ اغتالت السيدة بنان الطنطاوي ابنة العالم الكبير علي الطنطاوي – رحمه الله – وزوجة الداعية الكبير الأستاذ عصام العطار.

هـ - في تشرين الثاني ١٩٨١ اغالت الأستاذ نزار الصباغ في برشلونة في إسبانيا.

٢٢- بتاريخ ١٩٨٠/٣/٣١ نفذ المحامون والطباء والمهندسون والصيادلة وأطباء الأسنان، والمهندسون الزراعيون إضراباً شاملاً احتجاجاً على انتهاكات حقوق الإنسان، وأغلقت الحوانيت في جميع مدن الجمهورية السورية، وصدر قرار من محافظ مدينة حلب بأن كل محل يغلق فسوف يعدم صاحبه، ويشنق على باب محله.

٢٣- في ١٩٨٠/٤/٨ صدر مرسوم بحل نقابات المهن العلمية (المحامون، والأطباء، والمهندسون، وأطباء الأسنان، والمهندسون الزراعيون) وألقي القبض على أعضاء هذه النقابات.

٢٤- في ١٩٨٠/٦/٢٦ قرر المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب المنعقد في الرباط أن حل نقابة المحامين في سورية باطل، ورفض قبول النقابة المسماة من السلطة.

٢٥- في ١٩٨٠/٧/٧ أصدرت الحكومة السورية القانون (٤٩) المتضمن إعدام كل منتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين وأعطي القانون أثراً رجعياً.

٢٦- في ١٩٨٠/٩/١ صدر أمر عرفي بوقف صرف رواتب جميع الموظفين الموقوفين عرفياً والذي يجري توقيفهم بعد هذا التاريخ ونشر هذا الأمر بالجريدة الرسمية في العدد ١٩٨٣/١ صفحة ١٧.

٢٧- بتاريخ ١٩٨٢/٢/٧ قام رجال المخابرات السورية بخطف المحامي السوري (نعمان قواف) من قبرص واقتادته إلى دمشق علماً بأن المحامي المذكور حضر اجتماع المكتب الدائم للمحامين العرب الذي عقد في بغداد بين ٣ — ٧ تشرين الثاني ١٩٨١، وشارك في التوقيع على المذكرة التي تناولت القانون رقم ٣٩٨١/٩ الخاص بتنظيم مهنة المحاماة، ومساس هذا القانون باستقلالية المحاماة وحريتها.

٢٨- وجهت منظمة العفو الدولية مذكرة إلى الرئيس حافظ أسد في ١٩٨٣/٤/٢٦ وأرفقته بتقرير عن انتهاكات حقوق الإنسان في سورية خلال عامي ١٩٨٠ — ١٩٨١ وإلى القوانين القمعية التي تضمنت مساساً بحقوق الإنسان.

٢٩- في شهر أيار ١٩٨٣ توفي في السجن الطالب الجامعي أمين نصور تحت التعذيب، وألقى الحراس بجثته من شباك الطابق الثالث من السجن، ليجعلوا موته كأنه حادث انتحار.

٣٠- في ١٩٨٣/١٢/١٨ اتخذ المكتب الدائم لاتحاد المحامين العرب المنعقد في تونس قراراً بأن يتوقف المحامون العرب في كل الأقطار العربية ساعة واحدة عن العمل تضامناً مع المحامين المعتقلين في سورية، واستنكاراً لاستمرار اعتقالهم، ونفذ الإضراب فعلاً.

٣١- في ٢ — ٥ تشرين الثاني سنة ١٩٨٤ انعقد المؤتمر العام الخامس عشر

للمحامين العرب في سوسة بتونس، وقرر المؤتمر في بيانه الختامي تكليف الأمين العام ببذل مساعيه للاتصال بالسلطات السورية من أجل الإفراج عن المحامين المعتقلين، على أن يقدم تقريراً بتنائج مهمته إلى المكتب الدائم القادم.

٣٢- في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤ كشف الصحفي الفرنسي (جيرار ميشو) في مجلة (ESP RIT) بأن الإرهاب في سورية هو نموذجي وخاص ويحظى بالشهرة لدى صحف العالم، وتمارسه تشكيلات عسكرية خاصة.

٣٣- بتاريخ ٦ – ٧ كانون الأول ١٩٨٥ عقدت في بروكسل ندوة دولية عن (حقوق الإنسان في سورية) واستمعت إلى تقارير من عدد من المنظمات الدولية عن انتهاكات حقوق الإنسان في سورية، واستمعت إلى شهادات حية عن جرائم النظام السوري المستمرة ضد قضايا حقوق الإنسان، وأدانت الندوة الانتهاكات المستمرة والخطيرة لحقوق الإنسان في سورية، والتي تشكل تحدياً للمجتمع الدولي.

٣٤- في ١٩٨٦/٦/١٤ صدر عدد نشرة المنبر رقم (١٤) وقد تضمن وثائق الندوة الدولية عن حقوق الإنسان في سورية التي تفضح جرائم وانتهاكات حقوق الإنسان في سورية، وتحدثت هذه الوثائق عن الجرائم اليومية التي ترتكب في سورية من قبل النظام السوري، والتي تعتبر من أخطر انتهاكات حقوق الإنسان في العالم.

٣٥- شهد عام ١٩٨٦ انتهاكاً مستمراً لحقوق الإنسان في سورية، فالمحاكم الميدانية تعقد جلسات في سجن المزة وسجن تدمر، حيث تستدعي بصورة عشوائية في كل جلسة حوالي (٥٠) معتقلاً وتصدر أحكاماً بالإعدام على عشرة منهم، ويتم إعدامهم في السجن نفسه.

٣٦- استمرت خلال عام ١٩٨٦ موجات الاعتقالات بدون محاكمة، كما لم

يفرج عن أحد من المعتقلين، وبعضهم كان قد اعتقل منذ عام ١٩٧٠. وكان كلما نفذ حكم الإعدام بمجموعة من المعتقلين، يجلبون إلى السجن معتقلين جدداً، ليحلوا محل من نفذ فيهم حكم الإعدام، أو ماتوا تحت التعذيب، أو ماتوا من الأمراض المنتشرة في السجون.

٣٧- أصدرت منظمة العفو الدولية عدة نداءات عام ١٩٨٦ حول الأوضاع السيئة للمعتقلين في سورية، وقدمت وصفاً لسجن المزة، والمعاملات السيئة للمعتقلين.

٣٨- لم تعلن الحكومة السورية عن أسماء الذين حوكموا ولم يحكم عليهم بالإعدام إلى مهاجع خاصة، وتمنع زيارتهم حتى لا تتسرب معلومات عن المحكومين بالإعدام.

٣٩- في تشرين الأول سنة ١٩٨٧ صدر عن منظمة العفو الدولية نشرة عن سورية بعنوان (سورية: التعذيب على أيدي أجهزة الأمن) ويتضمن هذا التقرير معلومات مرعبة عن معاملة النظام السوري للمعتقلين السياسيين، ويشرح طرق التعذيب وأساليبه، والموت تحت التعذيب، والأمراض المنتشرة بين المعتقلين، وانعدام الرعاية الصحية.

٤٠- صدر تقرير في عام ١٩٨٧ عن لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، والمقدم للجمعية العامة للأمم المتحدة (الوثيقة رقم ٤٠/٤٢ عام ١٩٨٧ صفحة ١٦٧ من E: أن الحكومة السورية ملزمة بتقديم تقريرها الدوري الثاني في ١٨ آب ١٩٨٤ عن أوضاع حقوق الإنسان في سورية إلا أنها لم تقدم حتى الآن رغم تذكيرها في (٦) رسائل متتالية:

في ١٥ أيار (مايو) ١٩٨٥.

وفي ٥ آب (أغسطس) ١٩٨٥.

و ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥.

و ٦ أيار (مايو) ١٩٨٦.

و ٨ آب (أغسطس) ١٩٨٦.

و ١ أيار (مايو) ١٩٨٧.

وهذا يؤكد تعمد الحكومة السورية تجاهل التزاماتها الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، حتى تتهرب من الحرج والإدانة عند مناقشة فقرات التقرير، ومدى مطابقة نصوص التشريعات السورية مع نصوص الاتفاقية الدولية للحقوق المدنية والسياسية.

٤١- في عام ١٩٨٧ وبالوثيقة رقم ١٩٨٧/٢٨ ص (٥٨) من النسخة الإنكليزية والمقدمة إلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للجمعية العامة للأمم المتحدة، جاء فيها: «إن الحكومة السورية لم تقدم تقاريرها حول الحق في الثقافة والتربية والحقوق الاقتصادية، وإن تخلف الحكومة السورية عن تقديم تقاريرها يعبر عن سياسة منهجية وثابتة في إصرارها على انتهاكات شاملة لحقوق الإنسان.

٤٢- انعقد المؤتمر العام السادس عشر لاتحاد المحامين العرب في الكويت بين ١٨ – ٢١ نيسان ١٩٨٧، وأصدر المؤتمر قراراً خاصاً دعا فيه السلطات السورية لإطلاق سراح المحامين المعتقلين منذ آذار ١٩٨٠ بدون محاكمة، وكلف نقابة المحامين السورية بمتابعة هذا الموضوع.

٤٣- بتاريخ ١٩٨٧/١١/٣ احتل رئيس مجلس الوزراء السوري منصب الحاكم العرفي في سورية، وأصبح نائبه وزير الداخلية محمد حربا.

٤٤- تشير التقارير الصحفية الأجنبية كتقرير صحيفة لوموند بتاريخ ١٩٨٧/١٠/٢٨ والفيغارو في ١٩٨٧/١٠/٢٩ إلى أن سورية تعيش في أزمة

اقتصادية خانقة ذات علاقة بحقوق الإنسان، وخاصة الحق في العيش بمستوى مناسب، وأهمها شحة المواد الغذائية، وانقطاع التيار الكهربائي، وتفشي الفساد والرشوة، وتخفيض قيمة الليرة السورية.

٤٥- ارتفاع أسعار المواد الغذائية ما بين آذار ١٩٨٦ وآذار ١٩٨٧ ١٠٠٪، كما ورد في النشرة الشهرية للإحصاء الصادرة عن الأمم المتحدة في تشرين الأول ١٩٨٧.

٤٦- في ١٩٨٧/١٠/٢٧ قدم عبد الرؤوف الكسم رئيس مجلس الوزراء السوري استقالته، وكلف محمود الزعبي بتشكيل وزارة جديدة بتاريخ ١٩٨٧/١١/٣ كمحاولة من النظام للتنصل من مسؤولية الأزمة الاقتصادية المتفاقمة التي هي انعكاس وتعبير عن الأزمة السياسية.

٤٧- جاء في تقرير منظمة هيومان رايتس لحقوق الإنسان أنه في عام ١٩٨٨ تم تسليم جثث ٢٣ سجيناً من سجناء تدمر إلى عائلاتهم، وكانت آثار التعذيب واضحة على أجسادهم.

٤٨- في عام ١٩٨٧ تمت محاكمة ثلاثة وعشرين عضواً من أعضاء حزب العمل الشيوعي أمام محكمة أمن الدولة، وحكم على أربعة عشر عضواً مدى الحياة، وعلى تسعة أعضاء بالإعدام، من بينهم سكرتير الحزب: علي الأكبر ونفذ فيهم حكم الإعدام بعد أسبوع واحد من إصدار الحكم..

٤٩- في ١٩٩١/١٢/١٨ اعتقل المحامي أكثم نعيسة لمشاركته في أنشطة تستهدف استعادة استقلال نقابة المحامين، وتم نقله إلى المستشفى العسكري في حرستا لإصابته بشلل نصفي، نتيجة للضرب المبرح الذي تعرض له. علماً أن المحامي أكثم نعيسة رئيس لجنة الدفاع عن الحريات الذيمقراطية في سورية.

٥٠- في ١٦ كانون الثاني ١٩٩١ تم اعتقال (٧٠) مفكراً ومثقفاً سورياً

لتوقيعهم على عريضة تنتقد اشتراك سورية في حرب الخليج.

٥١- في ١٠ كانون الأول ٩٩١ أصدرت لجان الدفاع عن حقوق الإنسان في سورية بمناسبة الذكرى الثالثة والأربعين لصدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بياناً انتقدت فيه الأسلوب الذي جرى فيه الاستفتاء على تمديد فترة حكم حافظ أسد سبع سنوات أخرى يوم ١٩٩١/١٢/٢ وعلى إجبار المواطنين للإدلاء بأصواتهم، وإنفاق ٤٠٠ مليون ليرة سورية على هذا الاستفتاء، وتم اعتقال (٣٨) شخصاً من نشطاء هذه اللجان.

٥٢- في ١٩٩٢/٢/٢٩ أحيل أعضاء لجان الدفاع عن حقوق الإنسان في سورية إلى محكمة أمن الدولة بجرم مخالفة أهداف الثورة المنصوص عليها بالمرسوم التشريعي رقم ٦/ ١٩٦٥، وصدرت الأحكام بحقهم في ١٩٩٢/٣/١٧ بوضعهم في سجن الأشغال الشاقة بين عشر سنوات وخمس سنوات.

٥٣- بدأت الحكومة السورية يوم ١٩٩٢/٨/٢٧ بمحاكمة (١٠٠) معتقل سياسي بتهمة انتهاك قوانين الطوارئ، وتقول منظمة مراقب حقوق الإنسان في الشرق الأوسط في تقريرها الصادر عام ١٩٩٢ إن هؤلاء مضى على اعتقالهم أكثر من عشر سنوات دون أن يوجه إليهم أي اتهام، وإن هذه المحاكمات استجابة للضغط الدولي، وتعتقد المنظمة المذكورة أن المحاكمة العادلة مستحيلة، ما لم يتم إلغاء المحاكم الاستثنائية، وإحالتهم إلى القضاء العادي.

٥٤- ذكرت منظمة مراقب حقوق الإنسان في الشرق الأوسط التي مقرها نيويورك لعام ١٩٩٢ أن آلاف المعتقلين السياسيين ما زالوا في المعتقلات، وأن معاملتهم لم تتحسن رغم العفو الذي صدر عام ١٩٩٢ في تقريرها.

٥٥- قدرت منظمة مراقب حقوق الإنسان أن عدد المعتقلين في السجون السورية حتى تموز ١٩٩٢ (٤٥٠٠) معتقل.

٥٦- في في آذار ١٩٩٢ أقدمت السلطة في سورية على اعتقال ثلاثة كتاب ومغن فلكلوري، وهم:

الأول: سلامة خيلا كاتب فلسطيني اعتقل صباح ١٩٩٢/٣/١٢.

الثاني: أحمد حسو كاتب وصحفي كردي اعتقل في ١٩٩٢/٣/١٧ لمشاركته في تظاهرة أقامها الأكراد في عيد النيروز.

الثالث: تركي مقداد مغني فولكلور معروف بأغانيه المتعلقة بالفقر والديمقراطية.

٥٧- جاء في تقرير عن حقوق الإنسان أصدرته منظمة مراقب حقوق الإنسان (مراقب الشرق الأوسط) عام ١٩٩٢ عن استغلال أقارب المعتقلين، وابتزاز أموالهم، ليمكنوهم من مشهدة أبنائهم لمدة عشر دقائق، ويتحدث التقرير عن رجل دفع مليون ليرة سورية (٢٥ ألف دولار) ليرى ابنه، وعن امرأة دفعت عشرة آلاف دينار أردني (١٦٥٠٠ ألف دولار) لترى زوجها.

٥٨- جاء في تقرير منظمة مراقب الشرق الأوسط لحقوق الإنسان لعام ١٩٩٢ أن المنظمة لديها أسماء ١٨٥ طبيباً و٢٣٩ مهندساً مازالوا معتقلين دون أن توجه إليهم تهمة أو يحالوا إلى محاكمة، وأن اعتقالهم تم منذ عام ١٩٨٠.

٥٩- في ١٩٩٢/٤/٢ عقدت منظمات حقوق الإنسان في لبنان مؤتمراً صحافياً في بيروت أذاعت فيه أسماء ٢٢٨ لبنانياً خطفتهم أجهزة الأمن السورية من لبنان، وهم في سجون سورية، وبعضهم مسجون منذ عام ١٩٧٨.

٦٠- أعلنت منظمة مراقب حقوق الإنسان لعام ١٩٩٧ أن ١٤٢٤٦٥ كردياً في سورية حرموا من الجنسية السورية وفقاً لبيانات الحكومة السورية نفسها، وأن المنظمة سوف تتصدى للتمييز ضد أفراد الطائفة الكردية.

٦١- في ١٩ آب (أغسطس) ١٩٩٣ توفي في سجن المزة اللواء صلاح جديد

بعد أن لبث في السجن ٢٣ عاماً رهن الاعتقال دون تهمة أو محاكمة.

٦٢- في تشرين الثاني ١٩٩٣ تم إلقاء القبض على عشرات من دعاة حقوق الإنسان في سورية منهم: علي كامل عدلة عمره (٢٤ سنة) طالب في المعهد العلمي بدمشق، وعلى كامل أحمد وعمره (٣٠ عاماً) وزوجته رغدة حسن، وهي معلمة في السادسة والعشرين من عمرها.

٦٣- في أيار ١٩٩٣ توجه مندوبون من منظمة العفو الدولية إلى دمشق للاستفسار من الحكومة عما إذا بدأت تحقق في ادعاءات التعذيب، وقدم لهم وزير الداخلية السورية قائمة بأسماء (٤٠) موظفاً أحيلوا إلى العدالة بسبب التعذيب، ومع ذلك لم تكن القائمة تتضمن أي حالة من حالات السجناء السياسيين التي قدمتها المنظمة إلى الحكومة السورية للتحقيق فيها، ولم يقدم الوزير أي إيضاح لهذه الحالات.

٦٤- في عام ١٩٩٤ أحالت السلطات السورية إلى محكمة أمن الدولة ٢١ عضواً بارزاً في مجموعتين سياسيتين بارزتين بتهمة معارضة أهداف الثورة، وحكموا أحكاماً تتراوح بين ٨ – ١٥ عاماً، وتقول منظمة مراقب حقوق الإنسان في الشرق الأوسط في تقريرها عام ١٩٩٧: إن السبب الحقيقي لاعتقالهم هو رفضهم التوقيع على بيانات يؤيدون فيها الحكومة ويتبرؤون من أنشطتهم السياسية السابقة.

٦٥- في تموز (يوليو) ١٩٩٤ رفعت منظمة العفو الدولية مذكرة إلى الحكومة السورية بشأن بواعث قلق المنظمة على حقوق الإنسان في سورية، وألقت الضوء على أكثر من ألف حالة من حالات ضحايا انتهاكات حقوق الإنسان، وطلبت الرد عليه في موعد لا يتجاوز آخر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٤، ولكنها لم تتلق أي رد حتى شباط (فبراير) ١٩٩٥ كما جاء في تقرير

المنظمة في نيسان ١٩٩٥.

٦٦- في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٤ اجتمع وفد من منظمة العفو الدولية مع عدد من الوزراء السوريين، واستفسروا منهم عن آلاف المعتقلين الذين مضى على اعتقالهم أمد طويل، وذكر الوفد حالات محددة منها:

مجلي زين الذي يحمل الجنسية الأردنية والذي لبث ٢٢ سنة معتقلاً أي من حزيران ١٩٧١، وسعدت محمد عمر، وهو أردني أيضاً وقد ظل معتقلاً منذ عام ١٩٧٦، ورياض الترك، وهو محام ورئيس المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري، وسميح عبدالرحمن منيمنة، ووليد خالص الحمصي وهو طالب جامعي، وإحسان بن ظافر مراد وهو طبيب أسنان، ومحمد مصطفى صالح، وزياد محمود الشيخ، وكان رد الوزراء أنهم جميعاً أعضاء في منظمات إرهابية، ولكنهم لم يقدموا إيضاحات بشأن أي من الحالات الفردية التي قدمتها المنظمة.

٦٧- في عام ١٩٩٤ أعلنت الحكومة السورية أنها سوف تصادر أطباق الاستقبال (الستلايت) وتحل محلها كابل التوزيع التلفزيوني الذي تسيطر عليه. (تقرير الولايات المتحدة الرسمي لحقوق الإنسان).

٦٨- جاء في التقرير الرسمي للولايات المتحدة عن حقوق الإنسان في سورية عام ١٩٩٧: لقد تظاهر عدد من الطلاب لا يتجاوز عددهم (١٦٠) مئة وستين طالباً في حزيران في العاصمة السورية دمشق احتجاجاً على السياسة التعليمية، وتفيد التقارير أن هولاء الطلاب اعتقلوا وتعرضوا للضرب.

٦٩- أفادت وكالة الأمم المتحدة للإغاثة والعمل (UNRWA) (أونروا) أن اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لديها في آب ١٩٩٧ وعددهم (٣٥٨٣٧٤) يواجهون صعوبات في الحصول على وثائق سفر أو في العودة إلى سورية.

٧٠- جاء في التقرير الرسمي لحقوق الإنسان الصادر عن الولايات المتحدة

عام ١٩٩٧ أن السوريين لا يتمتعون بحقوقهم السياسية، وأن اقتراعهم شكلي لاختيار رئيسهم وأعضاء برلمانهم.

٧١- ذكر التقرير الرسمي للولايات المتحدة عن حقوق الإنسان لعام ١٩٩٧ أن الحكومة السورية لم تستجب لطلب منظمات حقوق الإنسان بإجراء إحصاء المواطنين السوريين الذي أعدموا في سجن الصحراء في تدمر في الثمانينيات.

٧٢- تقدر المفوضية العليا للاجئين التابع للأمم المتحدة (UNHCR) في عام ١٩٩٧ أن مئتي ألف نسمة من الأكراد السوريين لا يستطيعون العودة إلى أراضيهم بعد أن هجروا منها لقيام الحزام العربي على حدود تركيا، ولا يستطيعون الحصول على وظائف حكومية، ويواجهون صعوبات في تسجيل أطفالهم في المدارس، كما أن الرجال منهم لا يمكنهم الزواج من مواطنات سوريات.

٧٣- خرج اللبنانيون عن صمتهم بشجاعة ونظموا أنشطة جماهيرية في عام ١٩٩٨ في باريس وبيروت بمساندة من منظمة (سوليدا) (منظمة مؤازرة اللبنانيين المعتقلين اعتقالاً تعسفياً) إذا أقاموا أسبوع عمل ودعم للمعتقلين اللبنانيين المعتقلين في السجون السورية من ٢٦ كانون الثاني وحتى ١ شباط وعقدوا مؤتمراً صحافياً، واستمعوا إلى شهادات علنية أدلى بها أقارب المختفين.

٧٤- في عام ١٩٩٩ نشرت اللجنة السورية لحقوق الإنسان أسماء (٤٤٣٧) أربعة آلاف وأربعمئة وسبعة وثلاثين معتقلاً موجودين في السجون السورية، وتوجهت إلى الشعب السوري وإلى المنظمات الإنسانية وكل الجهات الحقوقية للعمل بكل الوسائل من أجل إطلاق سراح هؤلاء المعتقلين الذين طالت معاناتهم دون أن يقترفوا جرماً سوى ممارسة حقهم الطبيعي في التعبير عما

يعتقدونه[1].

ثالثاً: في الاشتراكية:

يقول الدستور السوري عن الاشتراكية ما يلي:

إن السير باتجاه إقامة النظام الاشتراكي بالإضافة إلى أنه ضرورة منبعثة من حاجات المجتمع العربي فإنه ضرورة أساسية لزج طاقات الجماهير العربية في معركتها ضد الصهيونية والإمبريالية.

وسنعرض هذه الاشتراكية على أرض الواقع كما تحدث عنها عارف دليلة أحد أكبر الاقتصاديين السوريين، وهو أستاذ جامعي مرموق، ومن الطائفة الحاكمة، وهو خارج الحكم، وهو عضو الهيئة التأسيسية لمنتدى الحوار الوطني، وذلك من خلال محاضرته: الاقتصاد السوري: المشكلات والحلول. والتي عقدت في منتدى جمال أتاسي بتاريخ ٢/٩/٢٠٠١، أي بعد سنة ونيف من وفاة الأسد. حيث اعتقل بعدها وأحيل لمحكمة أمن الدولة.

أصحاب المليارات والإنتاج السوري[2]:

من هو الغامض الذي يدير شؤوننا المصيرية؟... إنهم أصحاب المليارات.. لم يسألهم أحد كيف؟ ومن أين؟ بل إن أحداً لم يسألهم كيف يحتمل ضميركم أن تفعلوا بشعبكم واقتصادكم الوطني وبدولتكم ما فعلتم بحرمانهم من كل شروط الحياة والتقدم والنماء والازدهار والإبداع. وإيداع حصيلة هذا الحرمان عشرات

---

(١) هذه القائمة من إصدار: اللجنة المركزية لليوم العالمي للتضامن مع سجناء الرأي في سورية. بتاريخ ٢١/٦/١٩٩٩.

(٢) العنوانات الجانبية وضعناها لإبراز بعض النقاط المهمة من هذه المحاضرة القيمة.

المليارات من الدولارات عداً ونقداً في جيوب المؤسسات الإمبريالية الصهيونية؟ ومع ذلك يزايدون علينا بالوطنية، ويتهموننا بأننا نحن الذين سنستقدم الإمبريالية والصهيونية، أليسوا هم الذين أهدوها على الأقل مائة مليار دولار من ثروة ومداخيل الشعب السوري، وهذا الرقم يعادل خمسة أضعاف كل الاستثمارات الإنتاجية في سورية، ففي السياسة المالية مهمة أيه دولة، أية سلطة، وأي نظام هي تنمية قوى الإنتاج الوطنية، أي الارتقاء بقوى الإنتاج عاماً بعد آخر. لكن أن نجد قوى الإنتاج في سورية اليوم عام ٢٠٠١ أضعف بكثير من قوى الإنتاج عام ١٩٨٠، فهذه الحالة لا يمكن تفسيرها بأية نية طيبة على الإطلاق.

منذ أكثر من ٢٠ عاماً توقف الاستثمار الإنتاجي تقريباً في سورية. الاستثمارات الإنتاجية الجديدة لا تعوض جزءاً من الاستهلاك الذي تتعرض له قوى الإنتاج القائمة في سورية، لذلك فإن الحصيلة بالطبع هي تدهور الإنتاجية العامة، وتعبير ذلك هو أن سورية أضاعت من عمرها عشرين عاماً ليس لأن الشعب السوري لم ينتج، ولا لأن الاقتصاد السوري لم يكن لديه قيماً فائضة خلال هذه الفترة، على العكس، ولكن لأن كل هذا الفائض الاقتصادي أدى إلى ازدهار اقتصاد القلة، وصب في خارج البلاد.

الأخطر هو الاقتصاد.. يمكن أن نزاود إلى الأبد بالشعارات والمواقف الثورية، ولكن من المؤسف أن لا نكتشف أنه تحت هذا الغطاء من الشعارات الثورية هنالك من يفعل فعلاً مضاداً على الأرض، ومن يفرّغ إمكانيات هذه الأمة ويمتص الدماء من عروق مواطنيها، ومع ذلك فهناك من يغطيه بالشعارات والخطابات والمقالات، وكأن شيئاً لم يكن، فكيف يمكن لهذين النقيضين أن يجتمعا في وقت واحد، في سلطة واحدة، في دولة واحدة، في حزب واحد، وفي أجهزة واحدة ؟ كيف يمكن أن يستمر القول نقيض الفعل، والفعل نقيض القول؟

لقد دفعت سورية، دولة وشعباً، ثمناً غالياً لهذا التناقض. على مدى العقود الماضية عشنا في ظل نظام ذي وجهين، كعملة لا افتراق بين وجهيها: وجه عسكري أمني سياسي يرفع الشعارت القومية الثورية الوطنية الاشتراكية، ووجه اقتصادي اجتماعي يقطع أوصال الدولة والشعب والمواطن. وللغرابة كانت العلاقة بين هذين الوجهين علاقة تحالف ودعم متبادل لدرجة أنه كان من الصعب في كثير من الأحيان أن تحكم أي من الوجهين هو الذي يحكم الآخر. كانا يتبادلان المواقع، يحتل هذا الوجه أحياناً مكان الشكل، والآخر مكان المضمون، ولكن عندما يختل التوازن بينهما كانت تتهدد البلاد أزمة وانفجار، فيسارعان معاً إلى إعادة التوازن وإلى إعادة اقتسام الأدوار والمواقع ليعود التوازن من جديد. آن لسورية أن تخرج من هذه الازدواجية المكلفة وطنياً وقومياً وإنسانياً وأخلاقياً لتظهر بوجه واحد، القول فيها هو الفعل والفعل فيها هو القول.

من متابعتنا للوقائع الاقتصادية والسياسات الجارية لا بدّ أن نتساءل: هل هناك إدارة اقتصادية عامة في سورية؟ رسمياً هناك إدارة اقتصادية عامة، فهنالك حكومة ووزارات وغيرها، فعلياً هل هذه الحكومة والوزارات تؤدي وظيفة عامة في مواقعها العامة أم تؤدي وظائف خاصة؟ على مدى خمسة عشر عاماً ونحن نبرهن أن هذه الإدارة الاقتصادية تؤدي وظائف خاصة في مواقعها العامة. بالتالي نتساءل: هل نستطيع الحديث في سورية عن اقتصاد وطني؟ في دول أوروبا وأمريكا وأي دولة في العالم ورغم أنها اقتصادات رأسمالية وطبقية، لكن عندما يزدهر الاقتصاد يرتفع مستوى الجميع: الرأسماليون والعمال والعاطلون حتى عن العمل، وعندما يصاب الاقتصاد بالركود يخسر الجميع: أصحاب المليارات والعاملون برواتبهم وأجورهم والعاطلون عن العمل، لذلك نقول إنه هناك اقتصاد وطني في أمريكا وفي اليابان مثلاً. لكن هل نستطيع القول إن هناك اقتصاد وطني

في سورية؟ هنالك اقتصادان: اقتصاد لا يعرف الأزمة والركود، في ازدهار دائم، في وفرة دائمة، بل في حالات الأزمة والركود يزداد اكتنازاً، وهو اقتصاد القلة، أعضاء الشركة المشتركة، من هم في السلطة وشركاؤهم خارج السلطة، وهناك اقتصاد القلة الساحقة، وهؤلاء إذا ازدهر الاقتصاد أم مال إلى الركود، خسرت البلاد أم فقرت هم في حالة فقر متزايد، أوضاعهم لا علاقة لها بالوضع الاقتصادي العام، وإنما تتحدد أوضاعهم بسياسات رسمية تُطبّق على مدى عقود بشكل منتظم ومحكم، في الوقت الذي تراجعت فيه الدولة عمّا يسمّى بالتخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، التخطيط الذي يضع مؤشرات على الدولة والسلطة بكل مستوياتها. لكن نلاحظ أن خطة بديلة غيرمعلنة تُطبق بإحكام وبتناسق شديد، هذه الخطة تقضي بتحطيم مقومات الاقتصاد الوطني، بإفقار المجتمع وتهجير قواه الحية، وبمصادرة مستقبل الأجيال القادمة.

لم تعد إذاً مقولات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التقليدية المعروفة موجودة في حياتنا، وإن كنا أحياناً نسمعها ونقرؤها في النصوص الرسمية، لكن هذه النصوص الرسمية لا تساوي القرارات المبنية على أساس علمي، المرتبطة بأهداف اقتصادية واجتماعية محددة. إن ما نشاهده من قرارت ووقائع على الأرض إنما يجافي وبشكل صارخ المنطق الاقتصادي والعقلانية الاقتصادية والمصلحة الوطنية والاجتماعية والنظام الأخلاقي وكل شيء إنساني. هذه المجافاة ترجع إلى أننا تجاهلنا أن الإنسان هو الهدف وهو الغاية، رغم أن هذا الشعار معلق في كل مكان: الإنسان هو هدف التنمية وغايتها، لكننا نعاني ازدواجية، بكثرة ما نعلق هذه الشعارات بقدر ما نتجاهل حقيقة السياسات التي تعمل ضدها على طول الخط. وهنا أتساءل: ما هي المكانة التي يعطيها نظامنا للإنسان في منظومته الاقتصادية – الاجتماعية، حاجاته، ضرورياته، العلاقات بين

الأجيال. عندما ندمر أهم مقومات البيئة الحيوية في سورية خلال عشر سنوات، ونستنزف الثروات الباطنية غير المتجددة من نفط وماء، ونهدرها بوحشية، لا يمكن أن يفعل هذا الفعل إلا عدو، هل فكرنا بالإنسان، بالمستقبل، بالصراع مع الصهيونية والإمبريالية الذي يشغل حياتنا كلها، ويبرر كل هذه المفاعيل؟ إذاً أقول في السجون قد يُهان الآلاف ويُذلون، أما في الاقتصاد فتكرم البلاد أو يُباد العباد.

الإصلاح السياسي أساس الإصلاح الاقتصادي:

أن تكون منظومة مستقلة خارج المنظومتين الحاكم والمحكوم، أي معارضة، فهذا يجعلك في نظر الحاكمين خائناً، وفي نظر المحكومين شاذاً، ولعمري إنها الدلالة الأهم على أن سورية كانت خلال العقود الأربعة المنصرمة تعيش خارج العصر. ولهذا نقول: لم يعد أمام سورية أية إمكانية لإضاعة عام واحد آخر بعد ما أضاعت من عقود. لم يعد أمامها إلا أن تدخل العصر بنظام يشتمل على معارضة معترف بها قانونياً وواقعياً تملك جميع شروط العمل الحر في السياسة تنظيماً وإعلاماً، وكفى اختزالاً لشعب تعداده ١٨ مليون بأربعمائة اسم أو في مائة اسم، مواصفاتهم الأهم أن ثقة الأجهزة المتعددة قد تقاطعت عندهم لتمنحهم بطاقة الدخول إلى منظومة الحاكمين، وفي رقابهم مفاتيح الجنة، ودون استعداد للاستشهاد في سبيل أي قضية.

منذ عشر سنوات عرّفت المسألة الاقتصادية بأنها في سورية هي مسألة غير اقتصادية بالدرجة الأولى. إذا كنا نتحدث عن الإصلاح، أي إصلاح: سياسي أو اقتصادي أو إداري أو تشريعي... لقد آن الأوان للانتقال من هذا النهج المصطنع المدمر إلى النهج الطبيعي، إلى الشعب ليكون الأرض التي ينبت منها الحاكمون، والتي تحكم على جدارتهم. وبالرغم من جميع عيوب ونواقص الديمقراطية التي

نعرفها فإن التاريخ لم يخترع أسلوباً أكثر جدوى كنظام حكم ومنهج حياة. ولا يحق لأحد الادعاء بأن الديمقراطية نظام غريب مستورد، فلدى كل شعب على الأرض تراثاً خاصاً في الديمقراطية، ورغم الطيف الواسع لأشكالها فهي من حيث الجوهر واحدة في نهاية المطاف، إنها حكم الشعب للشعب، وليس حكم المبشرين بالجنة والمنتقين.

هكذا نجد أنفسنا في سورية اليوم وبعد أربعة عقود، ونحن أحوج ما نكون إلى الإحياء لاستعادة الوعي والروح والقوى المادية والمعنوية للانطلاق من جديد. وإذا كان التاريخ لا يكرر نفسه، وإذا ظهر ما يشبه التكرار فإنه يكون تكراراً ساخراً، كذلك شأن من لا يتخذ من التاريخ الدروس والعبر، فلا يعترف بأن العالم قد تغير، وأن الجديد لا يمكن أن يكون إلا تقليداً، لا قوة وإيجابيات، فلن يكون إلا إضاعة للزمن وللفرص وللإمكانيات، فإذا كان متشدداً في التمسك بالأشكال التي أكلت عمرها منذ زمن طويل فسيكون نوعاً من الانتحار.

إن شعبنا ميّال بطبعه إلى الاستبشار بالخير، بل وإلى المغالاة أحياناً في استبشار الخير، وكم سيكون الخير عميماً بملاقاته في منتصف الطريق بموكب نظيف من أولئك الذين لم يضيعوا يوماً واحداً من عمرهم في فعل خير واحد لشعبهم، وإنما فقط ودائماً في التعالي عليه وامتهانه وابتزازه واستباحة حقوقه وثمرات كفاحه، وحرمانه من فرص الارتقاء، واعتباره جموعاً من العوام قاصرة عن التعبير عن حاجاتها وتطلباتها، وعن انتخاب من هو أصلح لتمثيلها وإدارة شؤونها ومصالحها، ومن هو أقدر على تعويض البلاد عما ألحقه وجوه الشفط والنحس بها من الإفقار والإذلال والأزمات والكوارث.

إن شعبنا جدير بأن يُقال له: لن نفرض عليك من اليوم بالقوة أو بنص تشريعي حزباً قائداً أو جبهة حاكمة يحتكرون تقاسم مراكز السلطة إلى الأبد،

وإنما سيكون الخيار لك في تحديد النظام الاقتصادي والاجتماعي الأفضل لحياتك. فهل بقي أمامنا غير هذا الإصلاح كنقطة انطلاق للخروج من العطالة والجمود إلى الإبداع والنماء والتجدد. سأقدم نماذج من تلك السياسات، أقول سياسات مرسومة بشكل واع ومخطط وهادف، ولكنني أتساءل وأسألكم: كيف يمكن لهذه السياسات أن تنفذ ولأية غايات ولأي أهداف؟ إذ كنت قصير النظر، لم أستطع اكتشاف تلك الغايات السامية لمثل هذه السياسات، فأنا سأكون سعيداً لو أن أحداً من المسؤولين تفضّل مرة واحدة وقال: إن ما تقوله خطأ، وأنت لا ترى الحقيقة، والحقيقة هي كذا وكذا. إن ما أسمعه دائماً هو أن ما تقوله صحيح بالكامل، ولكن ونحن نوافقك على كل كلمة تقولها، ونقول لك: لانستطيع فعل أي شيء.

اقتصاد السوق الأوامري:

ويتحدثون عن اقتصاد الانتقال إلى اقتصاد السوق، لكن سورية لها منهج خاص مميز في الانتقال إلى اقتصاد السوق، أسميه اقتصاد السوق الأوامري، ليس فقط نظام التخطيط الذي اتبعناه كان نظاماً أوامرياً، بل إنهم ينتقلون إلى اقتصاد السوق بطريقة أوامرية. أي يفصّلون المصالح التي تتشكل في هذا الانتقال على قياسات أشخاص محددين مسبقاً. صدر أخيراً قانون السماح بالمصارف الخاصة والأجنبية، قانون لإنشاء الجامعات الخاصة والأجنبية، لكن كل هذه الإحداثيات الجيدة من مصارف، وجامعات، وبورصة مصادرة مسبقاً لأسماء محددة مسبقاً. وبالتالي فإن ملكية الشعب السوري تزداد انحصاراً، الملكية الاقتصادية في سورية تزداد انحصاراً، وربما هذا أخطر تحول في أي نظام اقتصادي بغض النظر عن طبيعته. الرأسمالية الاحتكارية تضع على رأس اعتباراتها الشعب، تحاول قدر

الإمكان إشراك الشعب في الملكية وتضمن حداً أدنى لمستوى معيشته. وهنا، مقولة الشعب والإنسان والمواطن لم يعد لها مكان ولا حساب في سياسات إدارتنا الاقتصادية في سورية. لذلك ممنوع إجراء دراسات تكشف الواقع الحقيقي الاقتصادي والاجتماعي، ممنوع إجراء دراسات عن الفقر، ممنوع معرفة البطالة الحقيقية، ممنوع معرفة لماذا يتدفق الناس طلباً للهجرة، ممنوع معرفة كيف يتطور المستوى الغذائي للسكان والمستوى الصحي وكيف يتطور تلبية الحالجات الأساسية من مسكن وملبس وغذاء وصحة وتعليم، وممنوع معرفة كيف يتطور الواقع الاقتصادي والاجتماعي حقيقة على الأرض في سورية.

لذلك أتساءل أمام تلك السياسات الاقتصادية التي فندنها مطولاً في ندوات الثلاثاء الاقتصادية، من هي الجهة الرسمية في سورية التي تضع السياسة الاقتصادية وتناقشها وتقرّها وتتبع تنفيذها؟ إنهم أفراد، هل هم فعلاً الأفراد، هذا الوزير أو ذاك، هذا المدير أو ذاك؟ ظاهرياً يبدو الأمر كذلك، وأخطر الوزارات التي تتحمل أخطر المسؤوليات الاقتصادية يبدو وكأن السياسة الاقتصادية تنبع منها وتصب فيها. ولا يوجد جهة رسمية في سورية – رغم أننا نتحدث عن حزب قائد وعن جبهة وطنية ومجلس شعب ومجلس وزراء، ولدينا جامعات وآلاف الاقتصاديين حملة الدكتوراه – لكننا لا نرى جهة رسمية في سورية تبحث في ما هي السياسة الاقتصادية – الاجتماعية المناسبة في سورية، تناقشها وتقرها وتتبع تنفيذها وتحاسب على نتائج هذا التنفيذ. ولا أعتقد أن هناك بلداً وصل إلى هذه الدرجة من التسيّب، فأخطر السياسات الاقتصادية التي تحدد مصيرنا هي ظاهرياً تبدو أنها من صنع أفراد تنبع من بين أصابعهم وتصب عندهم، وكأن الشعب بكامله والمجتمع والدولة بمؤسساتها وسلطاتها المختلفة لا علاقة لها بهذه القضية، وهي قضية بيروقراطية فنية لا أهمية لها على الإطلاق.

الفساد نظام حياة:

لن أتحدث هنا عن الفساد الفردي الذي لم يعد فردياً، إنما أصبح نظام حياة عام. هناك ما هو أخطر من الفساد، وهو سياسات عامة تخلق الأرضية التي تجعل الفساد حتمياً. منذ بداية التسعينات وحتى اليوم تقوم مثلاً وزارة المالية بوظيفة واحدة هي تجميع الأموال من عروق الاقتصاد الوطني ومؤسساته ومواطني هذا البلد. مثلاً في العام ٩٣ كان حساب ودائع الدولة لدى البنك /١٠٠/ مليار ليرة سورية، أصبح في شهر حزيران من عام ٢٠٠٠، أي قبل عام ونيف، أصبح /٣٦٥/ مليار ليرة سورية. إذاً وزارة المالية أضافت إلى حسابها في البنك /٢٦٥/ مليار ليرة سورية، بمعدل /٣،٥/ مليار ل.س شهرياً، وهي حالة غير معروفة في التاريخ الاقتصادي. وهناك تكديس للدولارات خارج القطر وبمعدل، خلال هذه الفترة، /٣/ مليار ل.س شهرياً. إذاً نحن أمام /٦/ مليارات ل.س شهرياً وبشكل منتظم منذ عام ٩٣، وحتى اليوم تُسحب من الاقتصاد الوطني مجموعها السنوي يزيد عن مجموع الرواتب والأجور في سورية ويزيد من الاقتصاد الوطني، مجموعها السنوي يزيد عن مجموع الرواتب والأجور في سورية ويزيد عن مجموع الاستثمار الإنتاجي في الاقتصاد السوري، بل في الستة أشهر الأولى من عام ٢٠٠٠ ارتفعت حصيلة هذه المسحوبات إلى ما يقارب ١٤ مليار ل.س شهرياً.

نحن البلد الوحيد في العالم الذي نطلع فيه على أحدث الأرقام! التي مضى عليها عام ونصف أو عامين في أحسن الأحوال، ففي لبنان ومصر والأردن وأمريكا تعطيك وسائل الإعلام دون أن تطلب وتبحث، تعطيك آخر الأرقام المالية وأرقام التجارة الخارجية وكل الأرقام الاقتصادية الهامة يوماً بيوم، وأسبوعاً بأسبوع، وشهراً بشهر. حكوماتنا اتبعت منهجاً غير معروف في العالم، وهو تأخير المعلومات ٣ – ٥ سنوات لتضع ميزانية العام القادم، وليس لديك إلا

معلومات الأرقام الفعلية من ميزانية عام ٩٧ التي لم تُقدّم حتى الآن إلى مجلس الشعب لقطع الحسابات، علماً بأن إظهار ميزانية العام الماضي كأساس لوضع الميزانية التقديرية للعام الحالي لا يتطلب غير كبسة زر، فالأرقام موجودة بين أيديهم. فهم يتعمدون هذه التعمية وكتم المعلومات حتى لا يمتلك أحدنا القدرة على التحليل والمواجهة . بعد ٥ سنوات عندما تظهر الأرقام الحقيقية يكون من ضرب قد ضرب ومن هرب قد هرب، واشرب ماء البحر . المسألة الاقتصادية في سورية هي ليست اقتصادية، بل هي سياسية بالدرجة الأولى. أتساءل: هل القيادة القطرية ناقشت هذه السياسة التي أدّت إلى ركود وبطالة وأزمة اجتماعية وهجرة وتردّي مستوى المعيشة...؟ من ناقش هذه السياسة؟ ومن أقرّها؟ وما هي الأهداف المبررة لهذه السياسة؟

من حسن الحظ أن المسؤولين الاقتصاديين هم أنفسهم منذ ٣٠ عاماً، ولم يتغيروا. فمصارفنا لم تعد مصارف على الإطلاق، ولا شركاتنا شركات، والقطاع العام محمل بديون أكبر بكثير من رأس المال. ومنذ سنوات لم نسمع عن مشروع جديد في سورية يُموَّل إلا بالقروض والمعونات، أي بالتسول.. لماذا هذا الإذلال لوطننا وشعبنا مع أنه لدينا في الخارج /١٠/ مليار دولار، وفي الداخل ربما لدينا /٥٠٠/ مليار ليرة سورية.. إنهم يزيدون عن حجم الدخل القومي لمدة عام كامل. وفي موضوع الاقتصاد يمكننا أن نتحدث أياماً طويلة. . وآن الأوان أن ندخل العصر الحديث.. وشكراً.

وسنعرض تقويماً ثانياً لواقع الاقتصاد السوري من المقابلة التي أجرتها مجلة الأحوال مع عصام الزعيم، وذلك في عدد يوليو- سبتمبر عام ٢٠٠٠، أي بعد شهر من وفاة حافظ أسد. وكان وزيراً للتخطيط في الوزارة السورية آنذاك، وهو وزير الصناعة في وزارة محمد الميرو الثانية. وعنوان المقابلة:

أين يقف الاقتصاد السوري اليوم، وأين يتجه؟

«سؤال: إذا حاولنا رسم خريطة للوضع الاقتصادي السورية اليوم، فماذا تقول؟

يتصف الوضع الاقتصادي السوري بتواصل النمو السكاني بمعدل مرتفع يتجاوز ٣٪ سنوياً، بينما يميل الاستثمار العام والخاص إلى الانخفاض، بما يعني انخفاض معد النمو الاقتصادي العام، وهاتان الظاهرتان خطيرتان.

في الوقت نفسه نلاحظ بروز عجز هيكلي، وتراكماً في سوق العمالة، فالمجتمع يدفع كل عام بما يناهز أو يزيد عن مائتي ألف شخص من طالبي العمل للسوق، في حين استهدفت الموازنة العامة لعام ١٩٩٩ زيادة فرص العمل بحوالي ستين ألف وظيفة في كل من القطاع العام والخاص والمشترك، وتستهدف الموازنة العامة الجديدة لسنة ٢٠٠٠ توفير ما يناهز ٩٢ ألف فرصة عمل (وقد لا يتحقق تشغيل كل هذا العدد من طلاب العمل). وحتى إذا تأكدت تلك التقديرات، فإن هذا لا يشكل إلا ربع عدد طالبي العمل الجدد في سنة واحدة، وبالتالي هناك أزمة حقيقية تتمثل في كيفية توفير فرص عمل جديدة، وهذه الأزمة تؤدي بدورها إلى ضعف نمو السوق الداخلية مما يضعف نمو الناتج المحلي الإجمالي. وإذا وضعنا القطاع العام جانباً فإن الوضع الافتصادي الحالي يعبر عن الانطلاقة المحدودة التي حققها القطاع الخاص، فقد استطاع هذا القطاع أن يحقق نمواً متواصلاً لعدة أعوام، لكن ذلك ما لبث أن تخافت وأخذ يتلاشى تقريباً، والسبب هذه المرة مرتبط بالاستثمار الخاص، فهناك أزمة في تسويق فكرة الاستثمار، وفي جذب الاستثمارات الخاصة.

إن كل ما تقدم يؤكد صحة منهج التعددية الاقتصادية الذي يعتمد على تفعيل القطاع العام (عبر إصلاحه وتنشيط استثماراته وتجديد تقاناته)، وتشجيع القطاع

الخاص (عبر إزالة معوقات نشاطه)، وتكامل القطاعين تحت إشراف الدولة، التي تضطلع بدور إستراتيجي قيادي إشرافي وإرشادي وتنسيقي وتوليفي وانضباطي، اجتماعياً واقتصادياً.

سؤال: هل يكمن سبب هذه الأزمة في ضعف البنية المساندة للاستثمار، أم في السياست الاقتصادية بشكل عام؟

ضعف البنية المساعدة للاستثمار مسألة مهمة جداً، ولا تفسر وحدها أزمة ميل الاستثمار إلى الاضمحلال، وإنما هناك أسباب بنيوية، وأسباب أخرى تتعلق بالسياسات الاقتصادية، فالبنية الاقتصادية السورية تتصف بعدم التوازن، وهناك قطاعات مفرطة في النمو مقابل قطاعات ضامرة وغير نامية، وقد ساهمت الاستثمارات في خلق هذا التشوه، حيث تركزت في قطاع النقل، وكان الاستثمار في الصناعات التحويلية ثانوياً بالمقارنة مع استثمار النقل، وحتى تلك الاستثمارات التي تمت في قطاع الصناعات التحويلية لم تكن تتم بناء على رؤية مستقبلية تهدف إلى تشجيع البنية الصناعية وتعميق الصناعة عمودياً، بمعنى إقامة صناعة متكاملة رأسياً وأفقياً قدر الإمكان، ويعود هذا إلى عدم وجود أنظمة صناعية هادية للاستثمار. فالنظام الاستثماري القائم في سوريا ليس أداة سياسية لتحريك الاستثمار واستقطابه، بل هو مجرد إطار قانوني ومالي، في حين أنه كان يجب أن يكون أداة في السياسة الاقتصادية، حيث إن ميزة الاستثمار الخاص سعيه للربح السريع، ولا يدرك أن هذا الربح يتهاوى إذا زادت المنافسة في هذا القطاع، فالاختناق يعالج بالأداة السياسية، والسياسة الاقتصادية هي أداة الردع، بمعنى أنها تسحب المزايا كلما كان القطاع يتصف بالتحشد، وتزيد المزايا عندما يدخل الاستثمار قطاعات جديدة تعتبرها الدولة حيوية ومهمة لتحقيق التوازن في التنمية الاقتصادية، وتحقيق نمو متواصل. وعندما يستثمر القطاع الخاص أو العام

في قطاعات من شأنها أن تساعد على نمو صناعات جديدة، وبالتالي على خلق فرص عمل جديدة، فهذه الاستثمارات ينبغي أن تعطي مزايا أعلى مما تعطي للاستثمارات العادية الأخرى. كل هذه المفاهيم والأدوات غائبة عن الاستثمار السوري الحالي.

سؤال: وماذا عن السياسات المالية والقطاع المالي؟

التطور الذي تم في القطاع النقدي اتصف بتوحيد أسعار الصرف عبر عملية تخفيض تدريجية متعددة المراحل في قيمة النقد السوري، ويمكن القول: إن هذا التخفيض قارب نهايته في الميزانيات العامة الأخيرة ١٩٩٨ – ١٩٩٩، حيث بلغ سعر صرف الدولار الواحد ٤٦,٥ ل.س وهو قريب جداً مما نسميه سعر السوق السوداء. ولكن هذه الخطوات دفعت أيضاً إلى تدهور القوة الشرائية لكل من يتقاضى راتبه بالعملة المحلية. وهناك ظاهرة أخرى هي أن الأجور تزيد سنوياً بنسبة ثابتة، وهي ٤.٥٪ سنوياً، ولكن هذه الزيادة لا تتناسب مع التضحم، وبالتالي فإن الهوة بين الأجور والأسعار تتسع منذ سنوات عديدة. وقد أدى هذا وذاك إلى تدهور القوة الشرائية وانتشار ظاهرة الفقر، وانحدار الطبقة الوسطى إلى مستوى الفقر وتقلص الطلب المحلي، وبالتالي ضعفت فرص النجاح أمام الاستثمار الوطني، وحتى أصحاب الدخول العليا في الدولة، أصابهم الضرر من جراء انخفاض قيمة النقد، وتآكل القيمة الشرائية، فالتخفيض وصل إلى ٣٠٠٪ خلال ٢٠ سنة، وهناك حوالي مليون ونصف مليون شخص في سوريا يعملون في قطاع الدولة المدني أو العسكري، والغالبية الساحقة من هؤلاء لا يكفيها أجرها وبالتالي نحن أمام مشكلة تواجه ٦ – ٧ ملايين شخص.

وهذا يعني أن أكثر من نصف المجتمع يعاني من فقر حقيقي، ونحن نعلم أن

رواتب العاملين في الدولة بشكل عام تكفيهم مدة تتراوح بين أسبوع إلى عشرة أيام، وبقية الشهر يفتقرون إلى ما يصرفونه، ومن هنا بدت ظاهرة الرشوة والفساد التي تميز واقع الاقتصاد السوري.

سؤال: هل تعتقدون أن القطاع الخاص يستطيع بمفرده أن يتحمل عبء التنمية في هذه المرحلة؟

لا يستطيع القطاع الخاص تحمل عبء التنمية بمفرده، لأن عبء التنمية أكبر من قدرته. فنحن في عصر العولمة حيث يواجه القطاع الخاص تحديات لم يسبق لها مثيل بالنسبة إليه. ففي عصر الحرب الباردة كان نشاط القطاع الخاص مركزاً بصفة هامشية على التصدير، وكانت التحديات الخارجية قليلة، أما الآن فلم يعد بإمكان هذا القطاع أن ينمو متجاهلاً تحرير التجارة، وبالتالي، فالتحديات التي تواجهه لا تطاق، وهي تحديات تبدأ بسوق التصدير، وتشمل قبل ذلك السوق الوطنية، فهو خاضع لتحديين: داخلي وخارجي، ولهذا فهو يحتاج إلى الدولة.

لقد وقعنا في الماضي في خطأ، لأننا اعتبرنا قطاع الأعمال الخاص ممثلاً للإقطاع، والذي يشمل قطاعات طفيلية دورها في التنمية هامشي وسيء. وهذا الخطأ أدى بنا إلى شطب البرجوازية جملة وتفصيلاً، الأمر الذي أضر كثيراً بعملية التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ولكن في ذات الوقت فإن الانتقال للطرف الآخر أيضاً خاطئ، أي الاعتقاد بأن القطاع الخاص يستطيع أن يقوم بعبء عملية التنمية، وأن القطاع العام مرادف للفشل والفساد. فالمسألة الأساسية هي مسألة سياسية ومسألة رقابة اجتماعية على مختلف الأنشطة. فعندما تكون هناك محاسبة وهناك شفافية، فلن تصبح المسألة مسألة قطاع عام أو خاص، فالقطاع الخاص في الدول الصناعية الكبرى لا يدار من قبل المالكين، وإنما يدار من قبل مدراء وموظفين يعينهم المالكون، ويسحبون منهم الثقة عند

الضرورة، وهذا لا نجده في قطاعنا العام والخاص، بسبب عدم وجود آلية حقيقية مرنة للتعامل مع مسؤولي القطاع العام وفقاً لأدائهم الاقتصادي، ويستطيع القطاع الخاص أن يقوم بدور كبير، ولكن القدرات المالية لهذا القطاع محدودة، كما أن استعداده للمخاطرة محدود أيضاً. صحيح أن القطاع الخاص السوري يملك تقاليد عميقة وراسخة ويتصف بنضج سياسي، ويستطيع أن يلعب دوراً مهماً في التنمية، ولكن هناك أيضاً عناصر في هذا القطاع حديثة العهد بالنشاط الاقتصادي، ولا تملك تجربة، لا في الإدارة الاقتصادية ولا في التعامل مع الأحداث السياسية، وبالتالي فإننا أمام عناصر أو كتل بعضها لم يفهم دوره التاريخي وحدوده، وبعضها لا يفهم هذا الدور ولا يقدر حدوده، ونحن بحاجة إلى توليفة تضم القطاع العام والخاص وتشرف عليها الدولة.. وبالتالي تتكامل الأدوار، بين الدولة الديمقراطية التي تدار بصورة خاضعة لرقابة الشعب، والقطاع الخاص الذي يوفق بين مصالحه الربحية، وهي مصالح مفهومة، وبين مسؤوليته التاريخية في تنمية المجتمع ككل، هذا بجانب القطاع العام الذي يحمل مسؤولية كبرى في الجمع بين الإرشاد والفاعلية الاقتصادية وبين خدمة الأهداف الاجتماعية والأمن الوطني في البلاد. وفي الحقيقة، فإن التجارب الوحيدة التي نجحت في العالم بعد الحرب العالمية الثانية وحققت نتائج باهرة، هي التجارب التي اعتمدت على أولوية الدولة والمزاوجة بين قطاع الدولة والقطاع الخاص.

وأهم ما في هذه المقابلة إذاً نقاط عدة:

النقطة الأولى: أن أكثر من نصف المجتمع يعاني من فقر حقيقي، وانحدار الطبقة الوسطى إلى مستوى الفقر.

النقطة الثانية: رواتب العاملين في الدولة بشكل عام تكفيهم مدة تتراوح بين أسبوع إلى عشرة أيام، وبقية الشهر يفتقرون إلى ما يصرفونه، ومن هنا بدت

ظاهرة الرشوة والفساد التي تميز واقع الاقتصاد السوري.

النقطة الثالثة: لقد وصل التخفيض في قيمة النقد، وتآكل القوة الشرائية خلال عشرين عاماً إلى ٣٠٠٪، وبالتالي فنحن أمام مشكلة تواجه ٦ – ٧ ملايين شخص.

فالنظام الاشتراكي إذاً أعطى ثماره المرة.

إلغاء الطبقة الوسطى، وتحولها إلى طبقة فقيرة، وتحول أكثر من نصف الشعب إلى تحت خط الفقر. بينما بقيت الثروات في جيوب ٢٠٪ من الشعب مقابل حرمان ٨٠٪ منها.

وصدق شوقي رحمه الله حين قال:

الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دواعي القومِ والغلواءُ

داويتَ متَّئداً وداوَوا طفرةً ... وأخفُّ من بعضِ الدواءِ الداءُ

لقد جاؤوا بالاشتراكية ليواجهوا ظلم الطبقة الإقطاعية والرأسمالية كما يزعمون، فاحتجز المتنفذون والضباط والحكام الكبار خيرات سورية ولبنان لهم، وأعطوا لشعبهم الفتات، حتى جعلوه عالة يتكفف الناس بشهادة كبرائهم ووزرائهم.

لقد أخذ ذلك الداء من تحكم الإقطاع والرأسمالية كثيراً من الدواء الذي جاؤوا به، ليُقبلوا في سوق النخاسة عند منظمة التجارة العالمية.

وكانت ساحة التجربة هذا الشعب البائس.

الملاحق

الوثيقة الأساسية لـ « لجان إحياء المجتمع المدني»

«بيان وقع عليه ألف مثقف في سورية»

تحتاج سورية اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى وقفة موضوعية لاستخلاص دروس العقود الماضية وتحديد معالم المستقبل بعد أن تردت أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وأضيفت إليها تحديات العولمة والاندماج الاقتصادي، فضلاً عن تحديات الصراع العربي- الإسرائيلي، التي تطرح على شعبنا وأمتنا مهام النهوض لمواجهتها ودرء أخطارها.

وانطلاقاً من إيمان صادق بالوطن والشعب وما يتوافران عليه من إمكانيات خلاقة وقوى حية، وحرصاً على التفاعل الإيجابي مع أي مبادرة جادة للإصلاح، تمس الحاجة اليوم إلى الحوار الشامل بين جميع أبناء الوطن وفئاته الاجتماعية وقواه السياسية ومثقفيه ومبدعيه ومنتجيه، للمشاركة في الفعاليات التي من شأنها أن تؤدي إلى نمو المجتمع المدني المؤسس على حرية الفرد وحقوق الإنسان والمواطن، وإلى بناء دولة حق وقانون تكون دولة جميع مواطنيها وموطن اعتزازهم، بلا استثناء ولا تمييز، فبلادنا اليوم في حاجة إلى جهود الجميع لإحياء المجتمع المدني الذي حرم ضعفه وإضعافه، في العقود الماضية، عملية النمو والبناء من قدرات وفعاليات وطنية مهمة وجدت نفسها مجبرة على الممارسة الإيجابية.

وإن ما يكتنف مفهوم المجتمع المدني من التباس ناشئ عن تعدد التجارب الديمقراطية في التاريخ القديم والحديث لا ينفي وجوده الواقعي عندنا بوصفه كينونة اجتماعية في التاريخ وفي العالم، ولا سيرورة انتقاله المتعثرة إلى مجتمع عصري وحديث التي أنتج مجتمعنا خلالها ثقافة متجددة وصحافة حرة ونقابات

وجمعيات وأحزاب سياسية والمرعية دستورية وتداولاً سليماً للسلطة، حتى غدا من أقل الأقطار العربية تأخراً، إن لم يكن أكثرها تقدماً، وكانت تلك السيرورة ترقى بمجتمعنا إلى الاندماج الوطني والاجتماعي إلى أن حدث ذلك القطع المؤسس على «المشروعية الثورية» الانقلابية في مواجهة المشروعية الدستورية ولم يكن ممكنا تهميش المجتمع المدني، وتغييبه على هذا النحو لولا تماهي السلطة والدولة، وتماهي الشخص والمنصب الذي يشغله، وصبغ الدولة بصبغة الحزب الواحد، واللون الواحد، والرأي الواحد، وجعل الدولة جزءاً من المجتمع لا يعترف بجزئيته، بل يقدم نفسه ممثلاً للشعب و«قائداً للدولة والمجتمع» ويخفض المواطنة إلى حدود الحزبية الضيقة والولاء الشخصي، وينظر إلى بقية المواطنين على أنهم مجرد رعايا، فغدت أموال الدولة ومؤسساتها وثروات الوطن ومؤسسات المجتمع المدني أيضاً كأنها إقطاعات وحيازات وملكيات خاصة توزع على الموالين والأتباع، فحلت الامتيازات محل القانون، والهبات والعطايا محل الحقوق، والمصالح الخاصة محل المصلحة العامة، واستبيح المجتمع وانتهبت ثرواته، وتحكم من صاروا رموزاً للعسف والفساد بمقدراته، وغدا كل مواطن مشتبهاً به، بل «مدان وتحت الطلب»، وراحت السلطة تنظر إلى الشعب لا على أنه كمّ مهمل وموضوع لإرادتها فحسب، بل على أنه قاصر وناقص أهلية وموضوع ريبة وشك، ولم يخل الأمر من تخوينه كلما بدرت منه بوادر التعبير عن رأيه والمطالبة بحقوقه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن تغييب المجتمع المدني أدى إلى تغييب الدولة، مما يؤكد العلاقة الجدلية بينهما، إذ لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فالمجتمع المدني هو مضمون الدولة الحديثة، والدولة الحديثة هي شكله السياسي، وهما معاً يشكلان النظام الديمقراطي.

إن مجتمعنا الذي أنتج ثورته الوطنية على الاستعمار، وحركته السياسية المناوئة للاستبداد السياسي، وأسفر عن روحه الوطنية – القومية المتوثبة إلى التحرر والتقدم، والذي صبر وصابر وقدم الكثير من الشهداء والتضحيات في

سبيل الحرية والكافية والعدل لا يزال قادراً على إعادة إنتاج حياته الاجتماعية والسياسية وإعادة بناء اقتصاده وثقافته وفق مقتضيات الحداثة ومنطق التقدم، والانطلاق في ركاب التقدم العلمي والتقني، وهو قادر على تجاوز العلاقات والبنى التي أنتجت الاستبداد، وتمفصلت مع الأوضاع الإمبريالية والتجزئة القومية التي نجمت عنها.

لقد باتت واضحة للعيان نتائج الانقلاب على الديمقراطية السياسية باسم الاشتراكية، وتبين للجميع مع انهيار النموذج السوفيتي واستطالته في أوروبا الشرقية وفي ما كان يسمى العالم الثالث، استحالة بناء الاشتراكية أو بناء ديمقراطية اجتماعية بدون ديمقراطية سياسية. كما تبينت هشاشة الدولة التي لا تستمد مشروعيتها من المجتمع المدني والسلطة التي لا تستمد مشروعيتها من الشعب، وتبينت أكثر نتائج النظر إلى الشعب على أنه مادة أو موضوع لـ«الإرادة الثورية»، ونتائج إنكار إفرادية الواقع وتعدد مكوناته الاجتماعية والثقافية والسياسية وتنوعها، واختلاف مصالح فئاته الاجتماعية وتباينها، ومن ثم إنكار حقيقة أن القانون بصفته ماهية الدولة وتعبيراً حقوقياً عن النظام العام، وبصفته تعبيراً عما هو مشترك بين جميع المواطنين وجميع الفئات الاجتماعية هو تسوية تاريخية بين هذه المصالح وذلك الاختلاف الذي يجب أن يكون قوام الوحدة الوطنية الفعلية، هذه التسوية التاريخية هي التي تنتج الدستور والمدونة التاريخية بما يتسق وتطور النظام العام المتأثر، بالطبع، بإيقاع التطور العالمي. لذلك فإن الدساتير والقوانين تعدل وتطور أو تغير وفق مقتضيات هذا التطور، وعلى هذا فإن مفهوم المجتمع المدني الذي انبعث من جديد في سبعينيات هذا القرن العشرين، على صعيد العالم الذي ننتمي إليه، مكانياً على الأقل كان ولا يزال يمثل بداهة الوجود الاجتماعي، منذ انتقل البشر من الطبيعة إلى الاجتماع، أي العمران البشري والسياسة المدنية، بتعبير ابن خلدون، ومن صلب هذا المفهوم يتولد نسق مفاهيمي ينتج عنه ويشير إليه «العقد الاجتماعي» في مواجهة «الحق

الإلهي» الذي رعاه الأباطرة والملوك المستبدون لأنفسهم. ومع هذا العقد سوى معادل سياسي للانقلاب العقلاني الذي جعل مركز ثقل المعرفة البشرية في الإنسان، فأنتج المجتمع الحديث والفكر الحديث والدولة المدنية الحديثة التي تكفل حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية كفالتها حرية الفكر، وفي ظل الاعتراف في حال الممارسة من حرية محددة بالقانون ومشروطة بالمسؤولية تتوجها المبادرة الخلاقة وحب المعرفة والعمل مع الجماعة ومن أجلها.

لذلك كله تلح الحاجة اليوم إلى إحياء مؤسسات مجتمعية واجتماعية متحررة من هيمنة السلطة التنفيذية والأجهزة الأمنية التي منحت نفسها جميع الصلاحيات، ومتحررة من الروابط والعلاقات والبنى التقليدية، كالمذهبية والعشائرية والطائفية، ومستقلة عنها، وذلك إعادة إنتاج السياسة في المجتمع بوصفها فاعليته الحرة الواعية والهادفة، ولتحقيق التوازن الضروري بين المجتمع والدولة وتنسيق وظائفها في سبيل تحقيق الحرية والعدالة و المساواة وتعزيز الوحدة الوطنية، ومن ثم توطيد هيبة الدولة وسيادتها وصيرورة القانون مرجعاً عاماً وحكماً للجميع، ففي نطاق المجتمع المدني فقط يمكن إطلاق حوار وطني شامل قوامه حرية الرأي والتعبير واحترام الرأي والرأي الآخر، والاعتراف بما فيه من صواب لتفعيل المشاركة الشعبية انطلاقاً من المشترك الوطني إلى المنفعة العامة والخير العام. فليس من حق أي فئة اجتماعية أو سياسية أن تقرر وحدها، ما هي المصلحة الوطنية والقومية، وما هي الوسائل والأساليب الكفيلة بتحقيقها، لذلك فإن على أي فئة اجتماعية أو سياسية ـبما في ذلك السلطة الممسكة بدفة الحكم اليومـ أن تطرح رؤيتها وتصوراتها وبرنامجها على الشعب لمناقشتها والحوار حولها، وليس من حوار ممكن من دون حرية الرأي والتعبير ومن دون نقابات حرة، وإعلام حر، أحزاب حرة، ومنظمات اجتماعية حرة، ومؤسسات تشريعية تمثل الشعب حقاً وفعلاً، وليس من إصلاح ممكن دون حوار وطني شامل، فالحوار ينتج دوماً حقائق جديدة ليست لأي من المتحاورين بل لهم

جميعاً، لأنها قائمة فيهم جميعاً. ومنطق الحوار ينفي «منطق» احتكار الوطنية وأي احتكار آخر. لذلك ندعو إلى اعتماد مبدأ الحوار والنقد الإيجابي والتطور السلمي لحل جميع الخلافات بالتسوية والتفاهم، وهذه من أهم سمات المجتمع المدني ومزاياه.

ولا تتجلى حيوية المجتمع المدني في شيء أكثر مما تتجلى في إنشاء تنظيمات طوعية غير حكومية مستقلة ومتنوعة، جوهرها الخيار الديمقراطي وغايتها دولة حق وقانون تكفل الحقوق المدنية وتصون الحريات العامة. لذلك نرى في الدفاع عن المجتمع المدني عن دولته وعن السلطة الممسكة بزمامها.

ولكي تثمر الإصلاحات الاقتصادية ولكي تنجح عملية مكافحة الفساد والإفساد لا بد أن يمهد لها ويرافقها إصلاح سياسي ودستوري شامل، وإلا فإن هذه الإصلاحات لن تحقق المأمول منها. لذا ينبغي أن تتحول عملية الإصلاح ومكافحة الفساد إلى آلية عمل قانونية دائمة تحفز المشاركة الشعبية وتعزز الرقابة والإشراف المستمرين على مؤسسات الدولة التي هي مؤسسات نفع عام، وعلى أنشطة القطاع الخاص أيضاً في جو من الشفافية يتيح لجميع الفئات والقوى الاجتماعية والأحزاب السياسية فرص المشاركة الفعلية في التخطيط والإعداد والتنفيذ والتقويم، والتنبيه إلى الخطأ والهدر والفساد فور وقوعها، وتمكين القضاء والهيئات الرقابية من المساءلة والمحاسبة. فإن المعالجات الجزئية والاستنسابية والانتقائية لا تؤدي إلى الإصلاح.

وإذ تنطلق رؤيتنا وممارستنا من اعتبار الإنسان غاية في ذاته، واعتبار حريته وكرامته ورفاهيته هي هدف التنمية والتقدم، والوحدة الوطنية والمصلحة العامة مبدأين ومعيارين لجميع السياسات والممارسات، والمواطنين جميعاً متساوين أمام القانون فلا تمييز بينهم على أي اعتبار كان ولا تفاضل في المواطنة، ما دام التمييز والتفاضل ينتجان دوماً أصحاب امتيازات ومحرومين من الحقوق ويبذران من ثم بذور التفرقة والشقاق ينحطان بالعلاقات الاجتماعية إلى ما دون السياسة،

وإذ تنطلق رؤيتنا وممارساتنا كذلك من حقيقة أن السياسة الحقة هي التي تنعقد جميع دلالاتها على المصلحة الوطنية/القومية والإنسانية لا على المصالح الخاصة والأعمال الفردية، وإن الإنجازات الوطنية تنسب إلى الشعب لا إلى الأفراد وإن الفئات الاجتماعية والأحزاب السياسية إنما تتحدد بالكل الاجتماعي والوطني ولا تحدده، وأن الشعب هو مصدر جميع السلطات فإننا نرى في الإصلاح الوطني والسياسي مدخلاً ضرورياً ووحيداً للخروج من الركود والتردي وإخراج الإدارة العامة من عطالتها المزمنة، وإن المقدمات الضرورية للإصلاح السياسي والتي لم تعد تحتمل التأجيل هي الآتية:

١. وقف العمل بقانون الطوارئ، وإلغاء الأحكام العرفية، والمحاكم الاستثنائية، وجميع القوانين ذات العلاقة، وتدارك ما نجم عنها من ظلم وحيف، وإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، وتسوية أوضاع المحرومين من الحقوق المدنية وحق العمل بموجب القانون والأحكام الاستثنائية، والسماح بعودة المبعدين إلى الوطن.

٢. إطلاق الحريات السياسية ولاسيما حرية الرأي والتعبير، وقوننة الحياة المدنية والسياسية بإصدار قانون ديمقراطي لتنظيم عمل الأحزاب والجمعيات والنوادي والمنظمات غير الحكومية، خاصة النقابات التي حولت إلى مؤسسات دولتية ففقدت كلياً أو جزئياً الوظائف التي أنشئت من أجلها.

٣. إعادة العمل بقانون المطبوعات الذي يكفل حرية الصحافة والنشر والذي تم تعطيله بموجب الأحكام العرفية.

٤. إصدار قانون انتخاب ديمقراطي لتنظيم الانتخابات في جميع المستويات بما يضمن لكافة فئات المجتمع وكافة وجعل العملية الانتخابية برمتها تحت إشراف قضاء مستقل، ليكون البرلمان مؤسسة تشريعية ورقابية حقاً تمثل إرادة الشعب ومرجعاً أعلى لجميع السلطات وتعبيراً عن عضوية المواطنين في الدولة ومشاركتهم الإيجابية في تحديد النظام العام فإن عمومية الدولة وكليتها

لا تتجليان في شيء أكثر مما تتجليان في المؤسسة التشريعية وفي استقلال القضاء ونزاهته.

٥. استقلال القضاء ونزاهته وبسط سيادة القانون على الحاكم والمحكوم.

٦. إحقاق الحقوق المواطن الاقتصادية المنصوص على معظمها في الدستور الدائم للبلاد ومن أهمها حق المواطن في نصيب عادل من الثروة الوطنية ومن الدخل القومي، وفي العمل المناسب والحياة الكريمة، وحماية حقوق الأجيال القادمة في الثروة الوطنية والبيئية النظيفة. فإنه لا معنى لتنمية اقتصادية واجتماعية إن لم تؤد إلى رفع الظلم الاجتماعي، وأنسنة شروط الحياة، والعمل، ومكافحة البطالة والفقر.

٧. إن الإصرار على أن «أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية» تمثل القوى الحية في المجتمع السوري وتستنفذ حركته السياسية، وإن البلاد لا تحتاج إلى أكثر من تفعيل هذه الجبهة، سيؤدي إلى إدامة الركود الاقتصادي والاجتماعي والشلل السياسي، فلا بد من إعادة النظر في علاقتها بالسلطة وفي مبدأ الحزب القائد للدولة والمجتمع، وأي مبدأ يقصي الشعب عن الحياة السياسية.

٨. إلغاء أي تمييز ضد المرأة أمام القانون.

وبعد فإننا من منطلق الإسهام الإيجابي في عملية البناء الاجتماعي وفي عملية الإصلاح، نتداعى وندعو إلى تأسيس لجان إحياء المجتمع المدني في كل موقع وقطعة، وهي استمرار وتطوير لصيغة «أصدقاء المجتمع المدني» علنا نسهم ـمن موقع المسؤولية الوطنية، ومن موقع الاستقلالـ في تجاوز حالة السلبية والعزف والخروج من وضعية الركود التي تضاعف تأخرنا قياساً بوتائر التقدم العالمي. وعلنا نخطو الخطوة الحاسمة التي تأخر عقوداً في الطريق إلى مجتمع ديمقراطي حر سد مستقل يسهم في إرساء أسس جديدة لمشروع نهضوي يضمن مستقبلاً أفضل للأمة العربية.

الميثـاق الوطني في سوريـة

المنبثق عن المؤتمر الوطني الأول للحوار

بتاريخ (٢٣-٢٥) آب / أغسطس ٢٠٠٢

أولاً : تمهيد

إن حالة الاستبداد السياسي، وغياب الديمقراطية، واستمرار قوانين الطوارئ والأحكام العرفية ما يقرب من أربعين عاماً، واحتكار السلطة وفرض الوصاية على الشعب وقواه الحية، قد جسدت حالة من القهر والظلم، والاستئثار بالقرار الوطني، وتغييب الآخر وإقصائه وإلغائه .. وأدى ذلك إلى انهيار وطني شامل تمثل في ضياع الجولان وتمزق الوحدة الوطنية وضرب قيم السيادة الشعبية والمواطنة، وتغييب الحوار وصيرورة الفساد منظومة معممة وغياب الشرعية السياسية.

هذا الواقع المأساوي، دفع جمعاً من القوى السياسية والشخصيات الفكرية والثقافية والحقوقية، إلى إصدار ميثاق وطني، يكون عتبة للحياة السياسية السورية في طموح عودة العافية للوطن والكرامة للمواطن في جمهورية ديمقراطية تعيد السيادة للشعب وحق المشاركة لكل إنسان في ظل روح التسامح والحوار والتعاون على نهضة الوطن وتحرير أرضه.

لم تعد الحريات الأساسية والحقوق السياسية والمدنية مسألة فيها نظر. ولم يعد أمام الشعوب التي تعاني من أنظمة تسلطٍ في طور الانقراض أن تطالب بحقوقها، بل أصبح عليها أن تمارسها. باعتبار هذه الحقوق إنجازاً سياسياً وحضارياً مشتركاً للشعوب، وحقاً أساسياً من حقوق الناس. فبقدر ما تعود للمواطن حقوقه يستعيد الوطن عافيته في بيئة صحية تسمح بالتنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعي والنضج الثقافي والروحي الضروري لتوازن الأمم

والشعوب.

إن الإيمانَ بالحوار، والدعوةَ إليه، لا يمكن أن يكون في المطلق، ولا تنشأ في الفراغ، فلسنا (نحن أبناء سورية) نجماً فَقَدَ موقعَه، أو كوكباً أضاعَ مدارَه، بل إنّ لنا وجوداً ثابتاً وراسخاً على خريطتي الزمان والمكان:

١- يشكل الإسلام بمقاصده السامية، وقِيَمه العليا، وشريعته السمحاء؛ مرجعيّةً حضاريّة، وهويّةً ذاتيّةً، لأبناء هذه الأمة، يحفظُ عليها وجودَها، ويُبرز ملامحَ خصوصيّتها، ويشكّل مضمونَ خطابها للناس أجمعين. إن الحضارة العربية الإسلامية تشكل منهلاً أساسياً لثقافة أبناء الوطن وكيانهم، توحد بينهم وتلهمهم الثقة بالحاضر والمستقبل.

٢-إن انتماء قطرنا إلى منظومته العربية يُعتبَرَ أساساً في بناء أيّ استراتيجيةٍ سياسيةٍ مستقبلية. ومن الضروريّ أن يعبّر هذا الانتماء عن نفسه، في تجسّدٍ واقعيّ فعّال، يوثّق الروابط، ويؤكّد العلائق، ويسير بالأمة في طريق التوحّد، ضمن سياساتٍ منضبطةٍ ومدروسة، ولا يجوز أن يبقى متمثّلاً في رؤى ذهنية، أو في مشاعر أو أحلام عاطفية.

ثم إن المواجهةَ بين العروبة والإسلام، كانت عنوانَ مرحلةٍ تاريخيةٍ تصرّمت، ولقد نشأت تلك المواجهةُ عن عواملَ من الانفعال وسوء الفهم، وحمّى الإيديولوجيا التي سادت المناخَ العامّ في فترات ما بعد الاستقلال. وكما كان انتماء قطرنا إلى إسلامه، هويّةً ومرجعيةً، غيَر مُضرٍ بوحدته الوطنية، فإن انتماءه إلى عروبته لا يحمل أيّ بُعدٍ عنصريّ أو استعلائيّ، ولا يحرم الشعوب التي تعيش في الوطن العربي من حقوقها الأساسية، ليجد أبناء الوطن أجمع، سرّ مواطنتهم في روح العدل و التآخي والمساواة، والمشاركة التاريخية في سرّاء الوطن و ضرّائه على حدٍّ سواء.

٣-إنّ هذا التأكيد على المرجعيّة والبعد الحضاريّ البنّاء لا يحول بيننا وبين استلهام الإنجازات العالمية الكبرى على صعيد حقوق الإنسان والحريات

الأساسية، ويحثنا على الاستفادة من تجارب الأمم، وخبرات الشعوب، ومُعطَيات العصر الذي نعيش. بل إننا مدعوّون حسب مُرتَكزاتنا الحضارية، إلى أن نخوضَ غِمارَ التنافس إلى أقصى مداه، لنكون في التاريخ طرفاً فاعلاً معطاءً. وتبقى الحكمةُ بكلّ أبعادها، ضالّتَنا، أنّى وجدناها فنحن أحقّ بها و أهلُها.

ثانياً: الأهداف العامة

يسعى الموقّعون على هذا الميثاق، من خلال جهدهم السياسيّ النظريّ والعمليّ، إلى تحقيق الأهداف العامة التالية:

- **<u>الهدف الأول: بناء الدولة الحديثة</u>**

وللدولة الحديثة تجسّداتها الملموسة في الحياة الواقعية التي تشمل الفردَ والمجتمع.

فالدولة الحديثة، دولةٌ تعاقديّة، ينبثق العقد فيها عن إرادةٍ واعيةٍ حرّةٍ بين الحاكم والمحكوم. والصيغة التعاقديّة للدولة هي إحدى عطاءات الشريعة الإسلامية للحضارة الإنسانية.

في الدولة الحديثة يشكل احترام المواثيق والعهود الدولية لحقوق الإنسان مؤشراً ومرجعاً رئيساً لاحترام الحريات الأساسية وحقوق الأفراد والجماعات.

والدولةُ الحديثة دولةٌ مؤسّسيّة، تقوم على المؤسّسة من قاعدة الهرمِ إلى قمّته. كما تقوم على الفصل بين السلطات، وتأكيدِ استقلاليّتها. فلا مجا في الدولة الحديثة لهيمنة فردٍ أو سلطةٍ أو حزب، على مرافق الدولة، أو ابتلاعها.

وفي الدولة الحديثة، تعلو سيادة القانون، ويتقدّم أمنُ المجتمع على أمنِ السلطة، ولا تحلّ فيها حالةُ الطوارئ مكانَ الأصل الطبيعيّ من سيادة القانون.

والدولة الحديثة، دولةٌ (تداوليّة)، ومن هنا جاء الاشتقاق اللغويّ لكلمة «الدولة»، وتكون صناديقُ الاقتراعِ الحرّ والنزيه، أساساً لتداول السلطة بين أبناء

الوطن أجمعين.

والدولـةُ الحديثـة دولـةٌ تعدّديّـة، تتبـاينُ فيهـا الـرؤى، وتتعـدّدُ الاجتهـادات، وتختلفُ المواقف، وتقـوم فيها قـوى المعارضـة السياسية، ومؤسّسـات المجتمع المدنيّ، بدور المراقب والمسدّد، حتى لا تنجرف الدولـة إلى دائـرة الاستبداد أو مستنقع الفساد.

ويتركّز دور الجيش في الدولة الحديثة في الدفاع عن الوطن وفي حمايته من أيّ عـدوانٍ خـارجيّ. ويكـون شـرفُ الانتمـاء لهـذه المؤسسـة الوطنيـة، حقـاً عامّـاً لجميع المواطنين، على أسسٍ من المساواة والعدل.

- **الهدف الثاني: مواجهة تحدّي البناء العام:**

بناء الإنسان الفرد تربيةً ووعياً وسلوكاً والتزاماً، في عصرٍ تعصِف فيه رياحُ العولمة، بروح الإنسان وخصوصيّته وانتمائه.

وبنـاء المجتمـع المتكافـل المتضـامن، الـذي تسـوده المحبّـة والإخـاء، وروحُ العدالة الاجتماعية في صورتَيها: الأصيلة وما فيها من تلاحمٍ وتعاون، والمعاصِرة وما فيها من تنظيمٍ ومؤسّساتية.

وبنـــاء مؤسّســـات المجتمـــع المـــدني بوحـــداتها السياســـية، والاجتماعيـــة، والاقتصادية، والثقافية، والمهنية، لتأخذَ دَورَها في حماية المجتمع وترشيده.

وبنـــاء روح (الإنجـــاز) وقبـــولِ التحـــدّي، ومقاومـــةِ كـــلّ أشـــكال الاســـترخاء، والتواكل، والأنماط الاستهلاكية المدمّرة والكَسلى.

وبناء النظم والآليات التي تُعين على استغلال ثروات الوطن، وتوظيفها في تطويره ونمائه، والحفاظ على كرامة أبنائه.

وبنـاء الضـوابط والقواعـد التـي تحـول دون انتشـار الفسـاد بأشـكاله وألوانـه، وحياطة المال العام، وصَون ثروات الوطن.

وبناء خطط التنمية العامة، لإخراج القطر من رهق المديونية، وأسر صندوق النقد الدولي واشتراطات النظام العالميّ الجديد.

- **الهدف الثالث: التصدّي للمشروع الصهيونيّ:**

يشكّل المشروعُ الصهيونيّ، بأبعاده العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، الخطرَ الأكبرَ الذي يهدّد أمتنا وقطرنا، ويستدعي جَمعَ القوى، وحشدَ الطاقات للتصدّي له. وهو مشروعٌ يسعى للسيطرة على الإنسان والأرض والثروة.

يؤكّد الموقّعون على هذا الميثاق، عروبةَ الأرض الفلسطينية، وحقَّ الشعب الفلسطينيّ في المقاومة والعودة الكريمة إلى أرضه ودياره، وتقرير مصيره، وبناء دولته المستقلّة على أرض فلسطين وعاصمتها القدس الشريف

يتمسّك الموقّعون على هذا الميثاق، بالأرض السورية المحتلّة، ويتعاونون ويتعاضدون لاستعادتها كاملةَ السيادة.

يضع الموقّعون على هذا البيان، الخططَ والبرامجَ والآلياتِ المناسبة، لمقاومة المشروع الصهيونيّ بأبعادِه كافّة، ولتعزيز سياسات المقاطعة، ووقف عمليّات التطبيع والحديث الملحون عن «سلامٍ» يُمكّن للعدوّ في الأرض، أو في الثروة، أو في إرادة الإنسان.

- **الهدف الرابع: السعي إلى تحقيق الوحدة العربية:**

إنّ السعي لتحقيق الوحدة العربية على أسسٍ متينةٍ من الروابط الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية.. واجبٌ شرعيّ، وضرورةٌ قومية. وإلى أن تتوفّر الشروط الموضوعيّة لهذه الوحدة، لا بدّ من العمل على إعادة التضامن العربيّ، وتجاوز كلّ الخلافات البينيّة، وفتح الحدود بين جميع الدول العربية، وإقامة سوقٍ عربيةٍ مشتركة، للارتقاء بالعلاقات العربية العربية، إلى مستوى التحدّيات السياسية والاقتصادية والثقافية التي تواجه الأمة.

ثالثاً: أسسٌ والتزامات

- **يؤكّد الموقّعون على هذا الميثاق:**

١- أنّ المواطنَ الحرّ الموفورَ الكرامة، هو أساسُ بناء الدولة الحديثة، وإنّ أيّ إصلاحٍ سياسيّ، أو اقتصاديّ، أو اجتماعيّ، لا يمكن تحقيقه إلاّ من خلال احترام الإنسان وتكريمه، ورعاية حقوقه الإنسانية، والمدنية، والسياسية. ومن ذلك حقّه في المشاركة الإيجابيّة في صنع حاضر الوطن ومستقبله.

٢- وأنّ المواطنةَ حقوقٌ وواجبات، وأنّ المشاركةَ الإيجابيّة في القرار الوطني، وفي حماية الوطن، وفي بنائه والارتقاءِ به، واجبٌ وطنيّ، ليس لأحدٍ حقّ الاستقلال به، أو الحجر عليه.

٣- وأنّ الاختلافَ بين الناس في الرؤية والاجتهاد والموقف، سنّةٌ من سنن الخلق، وحقيقةٌ من حقائق الوجود الإنسانيّ العام. وأنّ هذا الاختلافَ مشروعٌ ومُعتبَر، ما دام في إطار الثوابت الوطنية، وفي توجّهات الخير والنفع العام (ولكل وجهة هو مُولّيها، فاستبقوا الخيرات).

٤- وأنّ تعبيَر (الناسُ سواسيةٌ كأسنان المشط) تجسيدٌ حسّيّ لواقع المساواة بين الناس، التي كان للشريعة الإسلامية وحضارتنا شرف التقدّم بها إلى العالمين، وأنّ المساواة، وتكافؤ الفرص، يثمران الوحدة الوطنية، التي هي القاعدةُ الأمكنُ للبناء الوطنيّ المنشود.

٥- وأنّ الاعترافَ بالآخر الوطنيّ (الدينيّ والمذهبيّ والسياسيّ والفكريّ والثقافيّ.) ركيزةٌ أساسيّةٌ من ركائز التفكير والحركة. ولقد أثبتت الأيامُ فشلَ سياسات الاستئصال أو التشويه أو تجفيف المنابع. فليس في وسع أحدٍ أن يمحوَ الآخرَ أو ينفيه.

٦- وأنّ الحوارَ البنّاء، والجدالَ بالتي هي أحسن، هما الوسيلةُ الأقربُ والأرقى للتعامل مع الآخر وفهمه، وبناء جسور التعارف والتقارب والتواصل معه، وإنّ من شأن الحوار الإيجابيّ أن يؤكّدَ على «المشترك» وأن يحدّدَ ويُضيّقَ

مساحات الاختلاف.

٧- وأنّ أيّ اختلافٍ في الرؤى العامة والسياسات العليا والقرارات المصيرية، تحكمه الأكثرية عبر صناديق الاقتراع الحرّ والنزيه، أو مؤسّسات الدولة المنبثقة عن صناديق الاقتراع الحرّ والنزيه، أو القضاء العادل المستقل.

٨- كما يؤكّد الموقّعون على هذا الميثاق، على التمييز المطلق بين مصطلح الدولة (أرض ـ شعب ـ سلطات ـ قانون) وبين مصطلح الحكومة (السلطة التنفيذية) ويحذّرون من تغوّل السلطة (التنفيذية) أو (الأمنية) على مقدّرات الدولة (إنسانها- ومرافقها).

- **يلتزم الموقّعون على هذا الميثاق:**

بمواجهة التحدّيات الخارجية المفروضة على الوطن، مهما كان مصدرها وصبغتها، بروح البنيان المرصوص، مُعلين من شأن التضحية في سبيل حماية الوطن وأمنه وعزّته.

بتقديم مصلحة الوطن العليا على المصالح الذاتية والخاصة، في كلّ الموازنات السياسيّة، مهما كان في التنازل عن المصلحة الذاتية من ألمٍ أو تضحيةٍ أو شعورٍ بالغبن.

بممارسة دَورِهم في الحياة العامة، بشفافيةٍ مطلقة، وتحتَ الشمس، بعيداً عن جميع أشكال التعتيم أو السرّية. ويقاومون كلّ الأسباب والمدخلات التي تؤدّي إلى إحراج العمل الوطني، أو دفعه للتستّر والاختباء. ويشمل هذا الوضوحُ والنقاء: المبادئَ والبرامجَ والسياساتِ والأنشطةَ والعلاقات.

بآليّات العمل السياسيّ الديمقراطيّ ووسائله، مؤكّدين الحقّ المتكافئ للجميع، في الاستفادة من إمكانات الدولة في توضيح مواقفهم، والانتصار لرؤاهم، وطرح برامجهم.

بنبذِ (العنف) من وسائلهم، ويرَون في الحلول الأمنية لمشكلات (الدولة

والمجتمع)، وفي عنف السلطة التنفيذية، مدخلاً من مداخل الفساد. ويميّز الموقّعون على هذا الميثاق، بين الإرهاب الدوليّ كوسيلةٍ من وسائل بثّ الذعر، والابتزاز السياسي، وبين أشكال المقاومات الوطنية، التي تلجأ إليها الشعوب في الدفاع عن حقوقها والانتصار لقضاياها.

بالتعاضد على حماية حقوق الإنسان، والمواطن الفرد، والانتصار للمظلوم والمستضعف، وصَون المرأة والدفاع عن حقوقها، والتأكيد على مساواتها مع شقيقها الرجل في اعتبارات الأهلية الإنسانية والمدنية.

كما يُبدي الموقّعون على هذا الميثاق، تفهّمَهم للتدرّج في تحقيق الأهداف العامة لهذا الميثاق، في ظلال الشعور بالمسؤولية الوطنية، وتقديرَهم لظروف الواقع ومتطلّباته، مؤكّدين في الوقت نفسه على ضرورة معالجة الملفّ الإنسانيّ بكلّ أبعاده، معالجةً سريعةً وشاملة.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

لندن في ١٦ من جمادى الثانية ١٤٢٢، الموافق ٢٥ من آب/ أغسطس ٢٠٠٢.

الفهرس